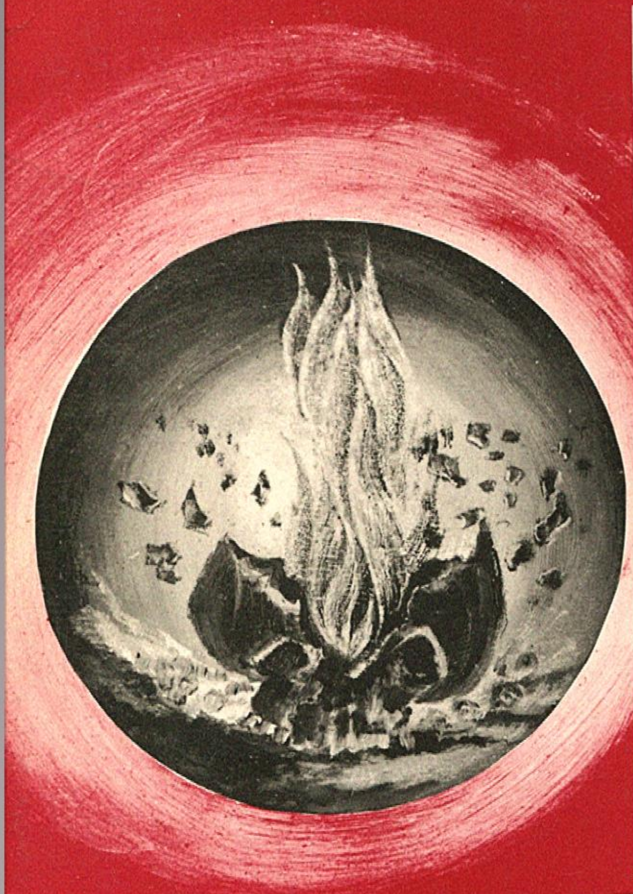
دار الوحدة للطباعة والنشر

ثلاثية محمد ديب

هدية إلى الأميرة عبير

النول
الحريق
الدار الكبيرة



ترجمة الدكتور
سامي الدروبي

ثلاثية محمد ديب

الدار الكبيرة

الحريق

النول

دار الوحدة
للطباعة والنشر

شارع ليون - الحمراء - بناية مبستر -
ص.ب ٦٣٨٤/١١٣ - هاتف: ٣٥٣٨٨٥
برقيًا (دالوحدة) بيروت - لبنان

مقدمة المترجم

في عام ١٩٥٣ قامت مجلة الأخبار الأدبية Les Nouvelles Littéraires باستفتاء حول هذا السؤال : « هل هناك مدرسة أدبية شمال أفريقية ؟ » وواضح من السؤال أن واضعه يتصور أن الأدب الذي ينتجه كتاب شمال أفريقية باللغة الفرنسية إنما هو جزء من الأدب الفرنسي ، ولكنه يتميز بطابع خاص يجعله خليقاً بأن يعد مدرسة قائمة بنفسها من مدارس الأدب الفرنسي .

وكانت الأجوبة التي أجاب بها كتاب شمال أفريقية عن هذا السؤال تشير جميعها إلى أن تسمية الأدب بأنه مدرسة جديدة من مدارس الأدب الفرنسي هو إطلاق اسم خطأ على واقع لا شك فيه ، هو هذا الازدهار الكبير في أدب المغرب العربي عامة ، وفي أدب الجزائر خاصة . ومعنى ذلك أن هذا الأدب المغربي ليس من الأدب الفرنسي في شيء ، وإنما هو أدب عربي كان مضطراً إلى استعارة اللسان الفرنسي ، لظروف يعلمها الفرنسيون قبل غيرهم . فإلى هذا أشار محمد ديب، كاتب الروايات الثلاث التي نقدم « ترجمتها » العربية الان حين رد على ذلك السؤال بقوله : « بل قولوا ان أدباً قومياً يظهر الآن في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة . غير أن الأمر الذي له دلالة بليغة هو أن هذا الأدب يكتب باللغة الفرنسية في بلاد ذات تراث ثقافي إسلامي لا تزال تحاول ، ولو في كثير من العناء ، أن تقدم إنتاجاً أدبياً باللغة العربية » .

أما هذه الدلالة البليغة التي يشير إليها محمد ديب فهي أن هؤلاء الكتاب العرب قد عرفوا فرنسا بأساليب التجهيل التي اتبعتها في الجزائر وهي أن تنتزع منهم أداة التعبير باللغة الأم ، وان تضع بين أيديهم أداة أخرى هي اللغة الفرنسية ، لا حيلة لهم في الاعراض عنها إذا أرادوا أن تدور ألسنتهم بكلام أو أن تجري أقلامهم بكتابة .

ما هنا مجال الحديث عن الأساليب التي اتبعتها فرنسا في الجزائر من أجل أن تنسي شعب الجزائر لغته ، وهيهات ! فلهذا مقام آخر . ولكننا نحرص في هذه العجالة على أن نذكر أن هؤلاء الكتاب الذين استعاروا اللسان الفرنسي للافصاح عن خلجات القلب العربي ، وأفكار الذهن العربي ، وصبوات الارادة العربية ، يشعرون شعوراً قوياً بأنهم من ذلك في مأساة . . في

مأساة ذات وجوه عدة ليس أخطرها شأناً أن أحدهم يتمنى أن ينطق باللغة التي تتفق وسمرته ، وأن يكون عربي اللسان كما هو عربي الوجه واليد والقلب ، ولا لأنهم يخجلون من الكتابة بلغة هي لغة المستعمر العدو ، بل أخطرها شأناً إحساسهم بأن هناك ارتباطاً بين مشاعرهم وأفكارهم وأحلامهم العربية وبين اللغة العربية التي كانت تستطيع وحدها أن تعكس هذه المشاعر والأفكار والأحلام عكساً صادقاً يتوافر فيه كل ما ينبغي توافره في التعبير الأدبي من انسجام خفي بين المعنى واللفظ ، بين تموجات العاطفة وموسيقى العبارة ، بين لطائف الفكر وتثنيات الأسلوب ، بين إيقاع النفس ونبرات اللسان ، وذلك ما عجزوا عنه أو أعجزوا . فكان بهم ذلك الضيق الذي يأخذ بخناق من يحس أن ما يجري به لسانه دون ما تضطرب به نفسه غنى وقوة وعمق ، أو ذلك الذي يهم بأن يقول شيئاً يزدحم به فكره ولكن لسانه معقود . . ومن أجل ذلك أيضاً كان بهم ذلك الحنين الاسيان الذي يذكرنا بما قد تشعر به نفس فارقت جسمها فهي تهوم في عذاب اللانهاية تبحث عنه نائحة نادبة ولا تجده ، أو بما يمكن أن يشعر به طفل فصل عن أمه فهو ما ينفك سائلاً عنها وجوه أمهات أخريات تريد إحداهن أن تحتضنه ولكنه لا يرى فيها أمه ، فهو يعرض عنها ، أو يستسلم لها على مضض وفي حسرة .

وليس الربط بين الأم واللغة الأم من باب الجموح في الخيال . فاللغة التي خاطبت بها الأم ابنها أول عهده بالكلام وأول عهده بتفتح الوعي وانبجاس المشاعر واغتناء العواطف تظل هي اللغة التي تتصل بالقلب والفكر والخيال جميعاً ، اتصالاً لا انفصام له . ان عواطف الطفولة موصولة الأسباب بالشخصية كلها كما يعلمنا علم النفس .

فلا عجب ، والأمر كذلك ، أن يكون أبرز وجوه المأساة التي يحسها أدباء الجزائر أنهم محمولون على الكتابة بلغة ليست هي اللغة التي خلقت لتعبر عنهم .

وليس يعزيهم عن هذا أن يكونوا قابضين على ناصية هذه اللغة الفرنسية ، وانها بين أيديهم طيعة طواعية تشبه أن تكون طواعية المذلة ، وأنهم بتصريفها فيما يريدون أن يصرفوها فيه من وجوه التعبير شعراً ونثراً وقصة وفلسفة يخجلون كبار أدباء فرنسا . فإن ذلك كله لا يغنيهم عن الانفاس التي كانوا يتمنون أن تخرج من صدورهم فتحرك لهوات إنما خلقت لتتحرك بها ، لا ولا يغنيهم عن نفض مشاعرهم بلغة هي التي هدهدتهم بها أمهاتهم في المعهد فارتبطت بأعمق ما في نفوسهم .

ومن أجل ذلك نرى الشاعر مالك حداد يصيح ذات يوم صيحته الموجعة في إحدى قصائده قائلاً : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان في لغتي لكنة ، انني معقود اللسان . . ويسمعه نقاد الأدب في فرنسا الذين قرأوا شعره فأحلوه بلغته الفرنسية الرائقة في قمة ، فيحملقون ويقولون : ما هذا التواضع ، إن لك لفرنسية رائعة . ولكن مالك حداد يظل يصيح صيحته الموجعة : أنا أرطن ولا أتكلم ، ان في لغتي لكنة ، انني معقود اللسان . . أنا لا أغني ، أنا لا أغني . . فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعراً عربياً . » نعم ، يا أراجون ، هذه هي مأساة اللغة . . لو كنت أعرف

الغناء لقلت شعراً عربياً » . ذلك أن أراجون كان قد كتب يقول : « إنني أفهم مأساتهم ، مأساة أن يروا أدبهم « مترجماً » ، قد فقد أصداءه العميقة أو كاد » . « نعم ، يا أراجون ، هذه هي مأساة اللغة » . « لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة ، أن أكون معقود اللسان . » .
« لا تلمني يا شاعر ، يا صديقي إذا لم يطربك صداحي » . لقد كان مالك حداد ينادي أمه في طفولته بقوله : يا ما ، وهو يسميها الآن في شعره : « Ma Mère » أماه ! ياما ! هل يمكن أن يكون اسمك « Ma Mère » .

فكذلك يحس أدباء الجزائر الذين أراد الاستعمار أن يكون في لسانهم عقدة ، كذلك يحسون بالمأساة إحساساً عميقاً أليمًا . . أنهم من بعدهم عن العربية في غربة موحشة .

ولقد أنصف ذلك الناقد الفرنسي الذي قال في مقدمة كتبها لإحدى روايات (كاتب ياسين) ما فحواه : يجب أن نعد هذا الكتاب رواية عربية مترجمة إلى اللغة الفرنسية ، لا لأن أبطالها عرب ، ولا لأن أحداثها تجري في أرض عربية ، ولا لأن مدارها على الآلام التي يتحملها العرب في الجزائر وعلى الآمال التي تجيش في صدورهم ، بل أولاً وقبل كل شيء لأن العقل الذي أنجبها عقل عربي ، له أسلوبه الخاص في كل شيء ، في النظر إلى الأمور ، في الاحساس بالمشكلات ، في معاناة الحياة ، بل حتى في تصور الزمان والمكان .

والفاجعة ، بعد ، عند من يترجم إلى العربية آثار كتاب الجزائر المكتوبة بالفرنسية أنه يحس بأنه لا يرد إلى الأثر شيئاً مما كان يمكن أن يكون له من رواء لو كتب بالعربية ، وإنما هو يفقده مزيداً من ذلك الرواء ، فالأثر قد ضاع منه شيء مرتين : مرة حين كتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية .

وإذا كان لا بد من كلمة عن روايات محمد ديب الثلاث التي نقدم « ترجمتها » إلى العربية الآن ، (وهي في الحق رواية واحدة من ثلاثة أجزاء) فخير ما نفعله هو أن نستمع إلى محمد ديب نفسه يتحدث في كلمة بعث بها إلينا لتكون بمثابة تقديم للطبعة العربية لرواياته :

« كان لا بد للسنين المائة والثلاثين التي قضتها فرنسا في « تمدين » جزائرنا من أن تؤتي ثمراتها . والحق أنها قد آتت هذه الثمرات . فيا لها من ثمرات ! ستعرفون هذه الثمرات : ان وصفها هو موضوع هذه الروايات الثلاث . غير أنني أحس ـ واأسفاه ـ أن اللوحة التي رسمتها لا تبلغ من السعة كل ما كان ينبغي أن تبلغه . كان هناك أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة يجب تصويرها . وكان تصويرها يحتاج إلى موهبة . وقد اضطررت أيضاً إلى حذف عدد من العناصر حرصاً مني على أن يصدقني القارىء ، ذلك أنني وجدتني أمام وقائع كثيرة لا يصدق العقل أن تقع . . . » .

لقد قالها محمد ديب بلسانه : أن رواياته هذه إنما هي لوحة . ان محمد ديب لا يلفق قصة يتسلى بقراءتها الرافلون . انه يغمس ريشته ، ريشة الرسام الصادق ، في الدم والعرق والعذاب

والجنون والحكمة والتمرد والمرض والتناقض والثورة ، فيخرج منها ألواناً يصبغ بها لوحته . غير أنه لا يجعجع ولا يصرخ ولا يحاول أن يعلم .

إنه لا يهيب بأحد إهابة صريحة أن يثور . ولكن ما من أحد ، مهما يتحصن بالبلادة ، يملك أن لا يعايشه مشاعره وأن لا يحس في أعماق نفسه بضرام ثورته . وإلى هذا أشار الناقد الفرنسي موريس نادو حين قال : « ان كاتب « الدار الكبيرة » يهز النفس هزاً قوياً بإيجازه وتناوله الأمور تناولاً مباشراً نافذاً . إنه يؤثر في القلب بأبسط وسيلة ، وهي ذكر الحقيقة عارية كل العرى ، بغير صراخ ولا دموع » (مركور دو فرانس) . وإلى مثل هذا أيضاً ألمح الناقد الأدبي لجريدة « الفيجارو الأدبية » حين قال : « إن كتاب « الحريق » يأتي مصدقاً لما عرف في محمد ديب من مزايا نادرة ، هي مزايا كاتب يؤثر التعبير عن الحقيقة سافرة كل السفور على الصراخ والتوجع والتفجع ! » .

وذلك هو بعينه الشعور الذي خالجنا حين شهدنا منذ ثلاث سنين ونيف ، بطشقند عاصمة جمهورية أزبكستان السوفياتية ، وكنا عدداً من أساتذة جامعة دمشق ، مسرحية مأخوذة عن رواية محمد ديب « الدار الكبيرة » ، لقد قلنا يومئذ : أن هذا الأثر الفني لم يهزنا هزاً قوياً لمجرد أن الموضوع الذي يدور عليه يمس في قلوبنا أوتاراً خاصة بحكم أننا عرب نتجاوب تجاوباً خاصاً مع آلام عرب الجزائر ، بل لأن فيه من الصدق ما يجعله خليقاً بأن ينفذ إلى كل قلب ، فلو شهده مستعمرون فرنسيون لما ملكوا إلا أن يتأثروا إذا كانت لهم قلوب .

وإذا كان محمد ديب رساماً بارعاً فهو أيضاً شاعر فذ . وفي رواياته تتعانق ألوان المصور وأنغام الشاعر . هو رسام في شعره ، وشاعر في لوحته . ولقد صدق روبرت كمف حين قال : « أن محمد ديب شاعر خلاق » . أن نفسه وتر مشدود يستجيب لكل اهتزازة ترتعش حوله . ما أجمل وصفه للطبيعة في إطار الانسان ، وما أجمل وصفه للانسان في إطار الطبيعة ! « لا شيء أروع من تأثر محمد ديب ذلك التأثر العميق الأصم بتعاقب فصول الطبيعة ! » .

وقد يجدر أن نذكر أن « الدار الكبيرة » قد نشرت عام ١٩٥٢ أي قبل قيام ثورة الجزائر ، فإذا رأينا فيها تباشير الثورة التي هبت بعد ذلك تأكل الأخضر واليابس ، وتمرغ وجه الباغي بالتراب ، وتذيق المستعمر الذل ، فلا تقولن ان الشاعر كالعراف الصادق النبوءة ، وإنما ينبغي أن نتذكر أن هذه الثورة قد تخمرت ونضجت ، فلما انطلقت كان فيها من الأحكام ما لا يكون بغير ذلك . وان رواية « الحريق » قد كتبت قبل الثورة أيضاً ، ولكننا نرى فيها أطياف الثورة تتحرك ، فرب ناقد يقرأ الصفحات التي تصف تمرد الفلاحين على الأوضاع القائمة بمناقشات واعية ، فينعت محمد ديب بأن أدبه أدب تعليمي يبشر ويعظ ويحاول أن ينشر أفكاراً بعينها . ولكن الحقيقة هي أن محمد ديب لم يزد على أن وصف واقعاً راهناً ، فهو لا يجري ألسن الفلاحين بغير ما تجري به ألسنتهم من تلقاء نفسها من كلام فيه ذلك الوعي كله . انه يصور الحالة الفكرية والنفسية للفلاحين قبيل الثورة تصويراً أميناً . وهل يمكن أن نتخيل أن تقوم هذه الثورة العربية الجبارة في الجزائر وأن تصمد هذا الصمود كله ، وأن تكون محكمة التنظيم على هذا النحو الرائع ، لولا أنها

تستند إلى وعي عميق ؟ ان الفلاحين الذين يحققون هذه الثورة لا ترفدهم عاطفة متأججة فحسب ، وإنما هم يعتمدون على نضج وفهم . أن الفلاحين الذين يقومون بالثورة ، ان كانوا أناساً بسطاء طيبين ، تهون عندهم أرواحهم في سبيل حريتهم ، فإن في بساطتهم وعياً ، بل ان بساطتهم هذه هي الوعي في أسمى مدارجه .

ولنستمع إلى محمد ديب مرة أخرى في كلمته التي بعث بها إلينا لتكون بمثابة تقديم لهذه الطبعة العربية لرواياته الثلاث :

« . . . آمل أن تقدروا جملة الوقائع المثيرة التي رسمتها ، وأن تستمتعوا بهذه اللوحة كما يستمتع بها شعب الجزائر الذي قرر ذات يوم أن يفجر مفرقعات ، من قبيل الحماسة . انها عادة في بلادنا : أن نفجر مفرقعات في المباهج . . . » .

ولكن « السادة » سرعان ما رأوا أن هذه العادات عادات عامية جداً ، لم يرض عنها ذوقهم فغضبوا ، فأعلنوا في كل مكان : « ممنوع تفجير المفرقعات » فإذا بالمفرقعات في هذه اللحظة يزداد تفجرها ، فهي تدخل بين أرجل السادة ، أمام أنوفهم ، تحت مقاعدهم . . . وكان ذلك لا يليق بما يجب للسادة من احترام ، وفيه إنكار لما أسدوه من جميل . . .

وضاق السادة ذرعاً ! هذا تطاول . . وغضب « السادة » الآخرون في العالم ، فقرروا أن يمدوا إلى أصدقائهم يد المعونة ، ذلك أن هذه الفوضى لا يمكن احتمالها ، ولا بد من تأديب مفجري المفرقعات . ولكن جميع مفجري المفرقعات في العالم تنادوا من جهتهم إلى شد أزر رفاقهم . .

« ومنذ ذلك الحين » . . . .

« منذ ذلك الحين لم تنقطع المفرقعات عن التفجر في كل ركن من الأركان ، وحيث لا يخطر بالبال أن تتفجر . جن السادة ، وطاش صوابهم ، وما زالوا يرغون ويزبدون ويهددون ، ويحاولون أن يبثوا في النفوس الخوف » . . .

« سلاماً سلاماً مفجري المفرقعات ! » .

هكذا يحيي محمد ديب ، من مقامه بالرباط ، أخوته الذين يحملون سلاح النار ويحمل هو معهم سلاح القلم .

ولد محمد ديب بمدينة تلمسان في اليوم الواحد والعشرين من شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ . وفي تلمسان ثم في عوجا ، نال قسطاً من التعليم ، ثم عمل في مهن شتى ، فكان عاملاً في مصنع للسجاد ، ثم محاسباً في محل تجاري ، ثم معلماً ، فصحفياً ، فكاتباً . وقد ترجمت آثاره إلى لغات عدة ، وفاز بجائزة « Feneon » الأدبية عام ١٩٥٣ .

١٩٦٠/١١/١

سامي الدروبي

الدار الكبيرة

- ١ -

ـــ هات قليلاً مما تأكل .

قال عمر ذلك ، وهو يقف أمام رشيد بري .

ولم يكن عمر وحيداً . فإن شبكة من الأيدي قد امتدت تلح كل منها في طلب نصيبها من الصدقة . فاقتطع رشيد لقمة صغيرة من الخبز ، فوضعها في أقرب راحة إليه .

ـــ وأنا . . . وأنا . . .

ارتفعت الأصوات متوسلة . فاحتج رشيد ، وحاولت الأيدي كلها أن تنتزع من يده خبزه .

ـــ أنا . . . أنا . . .

ـــ أنا ما أعطيتني . . .

ـــ حليم أخذ كل شيء .

ـــ . . . أنا ما أخذت شيئاً .

فما كان من الصبي ، وقد انصب عليه التحرش من كل صوب ، إلا أن أسرع يهرب ، فركض وراءه السرب كله يعوي وينبح . أما عمر فقد ترك الملاحقة ، لأنه قدر أنها لن تجدي .

ومضى إلى مكان آخر . كان هناك صبية آخرون يقضمون خبزهم . فطوف بينهم مراوغاً خلال مدة طويلة ، ثم انقض على زحمتهم بوثبة واحدة ، فانتزع رغيف صبي قصير منهم ، وأسرع يختفي في وسط المدرسة حيث ابتلعته زوبعة اللعب والصراخ . ولم يسع الصبي القصير الذي كان ضحية هذا الاغتصاب إلا أن أخذ يزعق وهو في مكانه لا يبارحه .

كان ثمة تلاميذ يبلصهم عمر في كل يوم : يطالبهم بنصيبه ، فإن لم يطيعوا أمره فوراً ، كان جزاؤهم الضرب في كثير من الأحيان . أما إذا أطاعوا فإنهم يشطرون طعامهم شطرين ،

ويقدمون له الشطرين كليهما ليختار أحدهما على ما يحلو له .

وهب أحدهم اختفى خلال فترة برمتها من فترات الاستراحة بين الدروس فإنه لا يعند كثيراً في اختفائه ، بل يمضي يرقب عمر عند الخروج من المدرسة أو في فترة أخرى من فترات الاستراحة بين الدروس ، حتى إذا لمحه من بعيد أخذ يبكي ، ثم نال عقابه ، وانتهى إلى إعطاء عمر طعاماً كاملاً في هذه المرة .

غير أن الماكرين من التلاميذ كانوا يلتهمون خبزهم أثناء الدرس في الفصل نفسه . فيقول واحدهم ، وهو يقلب جيوبه :

ـ ما أتيت اليوم بشيء .

ـ لا شك أنك أعطيت خبزك لآخر ، اخفاء له .

ـ لا . . . لا . . . أحلف لك .

ـ لا تكذب .

ـ أحلف لك .

ـ لا تطلب مني إذن أن أدافع عنك بعد الآن . . هه . .

ـ أحلف لآتينك غداً بقطعة كبيرة .

يقول الصبي ذلك ، ويريه بحركة من يده حجم قطعة الخبز التي يعده بها . فيتناول عمر طربوش الصبي ، ويرميه على الأرض ، ويأخذ يدوسه بقدميه ، بينما يأخذ المذنب يعول عويل كلب معذب .

كان عمر يحمي أولئك الذين يستبد بهم كبار التلاميذ . ولم يكن هذا النصيب الذي يتقاضاه إلا أجر هذه الحماية . كانت سنوه العشر تضعه في منزلة وسط بين الأقوياء من تلاميذ الحلقة العليا الذين كانت شواربهم تسود ، والضعفاء تلاميذ الحلقة الاعدادية . وكان الكبار يهاجمونه انتقاماً لأنفسهم ، ولكنهم لا يجنون من هجومهم شيئاً ، لأنه لم يكن يجيء إلى المدرسة بخبز . وكان يخرج هو وخصومه من هذه المعارك وقد دميت أنوفهم وأسنانهم ، وازدادت ثيابهم القذرة تفتقاً لا غير .

وكان عمر يحصل على الخبز في « دار سبيطار » بطريقة أخرى . كانت يمينة ، وهي إمرأة قصيرة حلوة القسمات ، تعود من السوق في كل صباح بقفة ملأى . وكثيراً ما كانت ترجو عمر أن يقوم عنها ببعض الأعمال . يشتري لها الفحم ، ويملأ دلوها من ماء العين ، ويحمل عجينها إلى الفرن . . فكانت يمينة تكافئه عند عودته بقطعة من الخبز مع ثمرة من الفاكهة أو مع فلفلة مشوية . . حتى لقد كانت تعطيه من حين إلى حين قطعة من اللحم أو سردينة مقلية . وكانت في بعض الأحيان تناديه بعد الغداء أو العشاء ، حتى إذا أزاح الصبي الستارة ـ وكانت كل أسرة تسدل ستارتها في مواعيد الطعام ـ أمرته أن يدخل ، ثم جاءت بطبق قد احتفظت بشيء من طيب الطعام فيه ، وكسرت الرغيف المدور الأبيض ، ووضعت ذلك كله أمامه .

ـــ الآن كل ، يا صغيري .

تقول له ذلك ، ثم تدعه وتمضي تعمل في الغرفة . كانت يمينة لا تقدم له إلا بقايا طعام . ولكنها بقايا نظيفة ، لا يستطيع أكثر الناس تشدداً أن يجدوا مأخذاً عليها . كانت الأرملة لا تعامل الصبي كما يعامل الكلب . وكان هذا يسره كثيراً . . أن لا يذل . وكان عمر لا يعرف ماذا يفعل إزاء كل هذه الرعاية وهذا اللطف . وكان لا بد ليمينة من أن تستحثه في كل مرة حتى يتشجع على تناول الطعام .

صبي صغير هزيل ، له عينان قاتمتان كأنهما من فحم ، وله وجه شاحب قلق ، كان واقفاً وحده بعيداً عن التلاميذ . راقبه عمر : انه مستند إلى عمود في ساحة المدرسة ، وقد جعل يديه وراء ظهره . . انه لا يلعب . . دار عمر حول الساحة ، وظهر من وراء شجرة دلب ، وأسقط بين قدمي الصبي ما كان قد بقي له من قطعة من الخبز ، وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى سقوط قطعة الخبز منه ، واستمر يركض ، حتى إذا وصل إلى مكان يبعد عن الطفل مسافة كافية ، توقف وأخذ يتجسس عليه . فرآه يحدق إلى كسرة الخبز من بعيد ، ثم يتناولها خلسة ، ويلتهمها .

كان الصبي متجمعاً على نفسه ، جذعه الخائص مقمط بقميص من قماش الكاكي الذي يلبس في الصيف ، وساقاه الهزيلتان تخرجان من فتحتي سروال طويل مسرف في الطول . ان فرحا ملائكياً قد أضاء قسماته ، والتفت بوجهه نحو العمود ، لم يفهم عمر ما الذي حدث له : لقد غص حلقه ، فهرع إلى فناء المدرسة الكبير وأجهش يبكي .

ـ ٢ ـ

ـــ أهذا هو الغداء ؟ . .

كانت « عيني » تقشر عكوبا بلديا قصيراً شائكاً .

ـــ نعم هذا هو الغداء ! . .

ـــ في أي ساعة نأكل ؟ . . هي الآن الحادية عشرة والنصف . لعن الله أبا العكوب وأمه ! . .

وهم عمر بأن يخرج .

ـــ اذهب . الرجال لم يخلقوا للبيت .

كانت الأم تفكر في سي صلاح ، مالك البيت ، الذي يكره أولاد المستأجرين أشد الكره . كان سي صلاح قد حظر على الأولاد أن يلعبوا في فناء البيت ، فإذا فاجأهم فيها فرق شملهم وراح يقرع أهلهم . وكان هؤلاء لا يجرءون أن يردوا عليه ، فإذا رأوه تجمدوا في مكانهم أذلة ، أو اعتصموا بغرفهم لا يبارحونها . كانوا يحترمون مالك البيت احتراماً يبعثهم عليه خوف ليس له حدود . وكانت زوجة سي صلاح ، وهي امرأة عجوز شمطاء ، تصاولهم أثناء غيابه بصراخها

الذي يشبه صراخ العقاب .

إن وجود عمر في البيت ، في هذه الساعة ، نائبة من النوائب .

وبقي عمر .

ــ ألا تستحي ، يا بنت ؟

وحاولت « عيني » أن تمسك به من ذراعه . ولكن جهودها ذهبت سدى . فقد تملص منها . وفجأة رمته بسكين المطبخ التي كانت تستعملها في تقشير عكوبها . فأعول الصبي . وسل السكين من قدمه دون أن يتوقف ، وهرع يخرج من الغرفة ، والسكين في يده ، ولعنات « عيني » تلاحقه .

ـ ٣ ـ

ان هاتين العينين الواسعتين ، عيني الصبي المقمط بقميص الكاكي تعبران عن تساؤ ل نهم ، كأنه تساؤ ل حيوان خائف. وكان عمر يقرأ في هاتين العينين الانتظار ، والأمل الراعش ، والقلق . إلا أن بسمة قد أضاءت وجهه شيئاً بعد شيء . وظهر تحت جناحي أنفه أخدودان قاسيان مددا وجهه .

جاء عمر نحوه قدماً . ووضع شيئاً في كفه الضيقة الصغيرة . فأغرق الصبي نظراته في نظرات عمر ، دون أن يقول شيئاً .

ــ أغمض عينيك ، وافتح فمك .

بهذا أمره عمر ، فأغمض الصبي عينيه ، وفتح فمه . فأسرع عمر يخرج من قاع جيبه ملبسة ويضعها على لسانه . ثم اختفى .

لم يكن يجرؤ عمر ولا أحد غير عمر أن يتعرض لتلك الفئة القليلة من أبناء التجار والملاك والموظفين الذين يرتادون المدرسة ، دون أن تناله يد المعلمين بعقاب شديد . ان من الخطر أن يهاجمهم أحد : فإن لهم بين التلاميذ والمعلمين حاشية تتملقهم .

كان أحدهم ، واسمه ادريس بلخوجا ، وهو صبي غبي متكبر ، لا يعرض أثناء كل فترة من فترات الاستراحة بين الحصص ، خبزاً فحسب ، وذلك وحده شيء كثير ، بل كان يعرض كذلك فطائر ومربات . كان يستند بظهره إلى جدار ، ومن حوله بطانته ، ويأخذ يلتهم طعامه في رصانة ووقار . ومن حين إلى حين ، يميل أحد الصبية على الأرض ، ليلتقط ما يسقط من بين يديه من فتات . ما رأى أحد ادريس يعطي شيئاً في يوم من الأيام : فكان عمر لا يفهم لماذا يتجمعون حوله إذن هذا التجمع ! ترى أهو احترام غامض يوحي إليهم به مخلوق يستطيع أن يأكل كل يوم متى جاع ؟ أكان هؤلاء الصبية مفتونين بالقوة المقدسة المتجسدة في هذا الطفل الرخو الغبي ؟

كان لإدريس رفيق يحمل عنه حقيبته الجلدية المطرزة بالفضة والذهب ، عند الخروج من

المدرسة في الساعة الرابعة . وكان هناك آخرون يذهبون إليه في الصباح عند اقتراب موعد المجيء إلى المدرسة ، ليرافقوه في الطريق ، ثم لا ينفصلون عنه إلا حين يدق الجرس . وكانوا يتنافسون على الاقتراب منه ، وطوبى لمن يتاح له أن يضع يده على كتفه !

وكان من عادته أن يشتري قضامة وبذراً وفلافل ، حتى لقد كان يملك نقوداً أيضاً . كان يشتري من البائعين الصغار الذين يتلبثون في شارع التلاميذ المظلم ، قبيل الساعة الواحدة ، خمسة قراطيس من القضامة أو ستة ، فيوزع على كل واحد من رفاقه حبة واحدة . فإذا تشكي هؤلاء الرفاق أو سخروا ، أخذ يهر بصوت أقوى من صوتهم قائلاً :

ــ وأنا ، ماذا يبقى لي إذن ؟ . . أتريدون أن أعطيكم كل شيء ؟

وكان في كل صباح بلا استثناء يذكر لرفاقه ، بعد أن يشبع ، ما أكله في الليلة البارحة ، ثم يذكر لهم في فترة الاستراحة بين الحصص بعد الظهر ، ما تناوله من طعام في وجبة الغداء : لم يكن يخرج موضوع كلامه عن فخذ خروف مشوي بالفرن ، وفراخ ، وكسكسي بالزبدة وبالسكر ، وعن حلوى باللوز والعسل مما لم يسمع أحد منهم بأسمائها من قبل . هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ . . لعل الغبي لم يكن يبالغ .

كان الأطفال يقفون زائغي الأبصار مبهوتين وهم يستمعون إلى حديثه المليء بذكر هذه الأطعمة . وكان هو لا يني يكرر تلك القائمة الطويلة من أسماء الأطباق التي تذوقها ، مما يصعب تصديقه .

إن الأعين كلها تشخص إليه ، وتتفحصه تفحصاً غريباً . ويسأله أحدهم لاهثاً .

ــ أكلت وحدك قطعة كبيرة من اللحم هكذا ؟ . .

ــ أكلت وحدي قطعة كبيرة من اللحم هكذا . .

ــ وخوخاً مجففاً ؟ . .

ــ وخوخاً مجففاً . .

ــ وعجة بالبطاطس ؟ . .

ــ وعجبة بالبطاطس . .

ــ وبازاليا باللحم ؟ . .

ــ وبازاليا باللحم . .

ــ وموزاً ؟ . .

ــ وموزاً . .

ويسكت السائل .

كان عمر يطوف في ساحة المدرسة باحثاً . أين صاحب القميص الكاكي ؟ . . والتقى بعدد من رفاقه ، فكان يصدمهم صدماً عنيفاً ، وكانوا يتعلقون به عند مروره ، وينادونه . ولكنه

لم يعثر على أثر من آثار الصبي .

وحلف فجأة أنه لن يراه بعد اليوم أبداً . كان في العادة يلمحه مستنداً إلى ذلك العمود نفسه في رواق المدرسة . وكان صاحب القميص الكاكي يبدو مبعداً ، فهو يظل طوال الوقت متنحيا عن الصبية الآخرين .

ان الجرس الذي يعلن نهاية فترة الاستراحة يوشك أن يدق، الهياج في ساحة المدرسة بلغ ذروته . اللعب ازداد عنفاً . صيحات الصراخ تثقب الجو . هذه هي العلامات التي تسبق الدقائق الأخيرة من فترة الاستراحة : ان عمر يعرف ذلك بغريزة التلميذ .

أحسن من هذا بفاجعة . وكان لا يزال يبحث عن صاحب القميص الكاكي .

وأحس فجأة بأنه لا يرتبط بالحياة إلا بروابط غامضة . غدا كل شيء من حوله غريباً . إن صاحب القميص الكاكي لا وجود له في أي مكان . ما عساه يصبح بدون صاحب القميص الكاكي ؟

ودوى صوت الجرس . واصطف عمر مع رفاقه .

انه يتخيل صاحب القميص الكاكي عند أهله دون ريب ينتظره . . ويتخيله جالساً إلى « المائدة[1] » ، ويتخيله لاعباً في فناء بين كبير .

ضرب المعلم الهواء بعصاه الرقيقة المتخذة من غصن زيتون . ودخل التلاميذ إلى الفصل مصطفين اثنين اثنين .

وجه عمر نظراته إلى أمام وارتعش فمه . ومع استمرار قلقه وخوفه تخيل أن صاحب القميص الكاكي قد مات .

ولكن في اللحظة التي كان يغلق فيها باب الفصل ، لمح عمر قامة الصبي النحيل تجتاز ساحة المدرسة مهرولة .

ـ ٤ ـ

ما أن جلس التلاميذ على مقاعدهم حتى أعلن المعلم بصوت كأنه صوت البوق أن الدرس درس أخلاق .

ـ أخلاق .

الدرس درس أخلاق . إذن في وسع عمر أن ينتهز هذه الفرصة ليمضغ الخبز الذي كان في جيبه ولم يستطع أن يعطيه للمقمط بالقميص الكاكي .

سار المعلم بضع خطوات بين مناضد التلاميذ . فتبددت الضوضاء الصماء ، ضوضاء ضرب الأرض بالنعال وخبط المقاعد بالأرجل ، والنداءات والضحكات والهمسات . وخيم

---

(١) يطلق اسم المائدة في اللغة الدارجة بالجزائر على منضدة مدورة واطئة يجلس اليها أفراد الاسرة للطعام .

.الهدوء المؤقت على القاعة كأنما بسحر ، فإذا التلاميذ يحبسون أنفاسهم ، وينقلبون إلى أولياء صالحين . ولكن رغم سكوتهم ورغم اجتهادهم ، كان يتموج في الجو فرح خفيف مجنح متراقص كالضياء .

سر الأستاذ حسن ، فسار إلى منبره ، وأخذ يقلب أوراق دفتر كبير ثم قال :

ــ الوطن . .

لم يكترث الصبية بالنبأ . انهم لا يفهمون . وعسكرت الكلمة في الهواء تهتز .

ــ من منكم يعلم معنى كلمة : الوطن . .

فقامت حركات عكرت هدوء الفصل . فضرب المعلم إحدى المناضد بعصاه ، فأعاد إلى القاعة النظام . بحث التلاميذ فيما حولهم ، وطافت نظراتهم بين المناضد ، وعلى الجدران ، ومن خلال النوافذ ، وفي السقف ، وفي وجه المعلم . ظهر واضحاً أن الوطن ليس في أي مكان من هذه الأمكنة التي طافت بينها نظراتهم . ان الوطن ليس في الفصل . ونظر التلاميذ بعضهم إلى بعض . ان منهم من كان يضع نفسه خارج المنافسة ، ويصبر راضياً سعيداً .

رفع إبراهيم بالي اصبعه . ها . . . إذن هو يعرف . لا غرابة . انه يعيد سنته ، فلا بد أن يعرف .

قال إبراهيم :

ــ فرنسا هي أمنا الوطن .

كان صوته الأخنف هو الصوت الذي يصطنعه كل تلميذ حين يقرأ . فحين سمع التلاميذ هذا الكلام ، أصبحوا يقرقعون جميعاً أصابعهم ، أصبحوا يريدون جميعاً أن يتكلموا : ودون استئذان ، رددوا العبارة نفسها متنافسين .

كانت شفتا عمر مزمومتين ، فهو يعجن في فمه لقمة من الخبز فرنسا ، عاصمتها ، باريز . انه يعرف هذا . الفرنسيون الذين يراهم في المدينة ، قادمون من تلك البلاد . وإذا أراد أحد أن يذهب إلى هناك أو أن يعود من هناك ، عليه أن يجتاز البحر ، أن يركب باخرة . . البحر ، البحر الأبيض المتوسط . انه لم ير البحر في حياته ، ولا رأى باخرة . ولكنه يعرف : يعرف أن البحر مساحة كبيرة من الماء المالح ، وأن الباخرة نوع من خشبة كبيرة عائمة . وفرنسا ، رسم ملون بعدة ألوان . ولكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه . . ان أمه في البيت . . انها « عيني » . وليس له أمان اثنتان . « عيني » ليست فرنسا . ليس ثمة أشياء مشتركة بين أُمه وفرنسا . لقد إكتشف عمر الكذبة . فرنسا ليست أمه ، سواء أكانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن . انه يتعلم أكاذيب ، تحاشياً لعصا الزيتون الشهيرة . هذه هي الدراسة . الانشاء : صف سهرة إلى جانب الموقد . . ان الأستاذ حسن يقرئهم نصوصاً تتحدث عن أولاد مكبين على القراءة في جد ونشاط ، نور المصباح ينصب على المنضدة . . بابا غارق في أريكة يقرأ جريدته ، وماما تطرز . ان عمر

مضطر إلى أن يكذب . وها هو ذا يكمل وصف السهرة ، النار تتأجج في الموقد ، رقاص ساعة الحائط يدق ، جو البيت دافىء لذيذ بينما المطر يهطل في الخارج ، وبينما الريح تعصف ، والظلام دامس . ما أمتع الجلوس في البيت أمام نار الموقد . . وهكذا : صف البيت الريفي الذي تقضي فيه إجازة الصيف : نبات اللبلاب يتسلق على جدران واجهة البيت . الماء يزقزق في الساقية عند المرج القريب . الهواء نقي . ما أسعد المرء باستنشاق الهواء ملء رئتيه ! موضوع آخر : الفلاح . ها هو ذا يدفع محراثه فرحاً وهو يغني فترافقه في الغناء قبرة تغرد . . المطبخ : هذه آنية الطهي مصفوفة منظفة ملمعة كأنها المرايا . عيد الميلاد : شجرة عيد الميلاد المزروعة في البيت ، خيوط الذهب والفضة ، الكرات ذات الألوان المتعددة ، اللعب التي يعثر عليها في الأحذية . فطائر « العيد الصغير » ، الخروف الذي يذبح في « العيد الكبير » . . هكذا الحياة . .

كان التلاميذ يقولون : أحسن تلاميذ الفصل من يعرف كيف يكذب خيراً من غيره ، من يعرف كيف يرتب كذبه .

كان عمر يفكر في طعم الخبز الذي في فمه . وراح المعلم يعيد فرض النظام ، على مقربة منه . ان صراعاً دائماً يقوم بين القوة المنطلقة المتموجة التي تمور في الطفل ، وبين القوة الساكنة المستقيمة التي يريدها النظام وبدأ الأستاذ حسن الدرس :

ـ الوطن هو أرض الآباء . هو البلد الذي نسكنه منذ أجيال .

وتوسع الأستاذ حسن في الموضوع ، فشرح وفسر . وكان الصبية يسجلون كلامه ، بعد أن حبس ما في نفوسهم من رغبة في الحركة حبساً قوياً .

ـ ليس الوطن هو الأرض التي نعيش فوقها فحسب ، بل هو كذلك كل ما على هذه الأرض من سكان ، وكل ما فيها بوجه الاجمال .

يستحيل أن يفكر المرء في الخبز طوال الوقت . سيحتفظ عمر بحصة الغد لصاحب القميص الكاكي . هل يشمل الوطن صاحب القميص الكاكي أيضاً . . المعلم يقول هذا . . انه لأمر غريب مع ذلك أن يكون المقمط بالقميص الكاكي . . ثم أمه ؟ وعيوشة ؟ ومريم ؟ وسكان دار سبيطار ؟ هل هؤلاء جميعاً يعدون من الوطن ؟ . . وحميد سراج أيضاً ؟ . .

ـ وحين يأتي من خارج الوطن أناس أجانب يدعون أنهم هم السادة ، فإن الوطن يكون عندئذٍ في خطر . هؤلاء الأجانب أعداء يجب على جميع الأهالي أن يدافعوا عن الوطن ، وأن يقدموا حياتهم ثمن ذلك .

أي بلد هو بلده ؟ . . ان عمر يود لو يسأل المعلم ذلك ، كي يعلم . أين أولئك الخبثاء الذين يدعون أنهم هم اسادة . . من هم أعداء بلده ، من هم أعداء وطنه . . ولم يكن عمر يجرؤ على أن يفتح فمه لطرح هذه الأسئلة ، بسبب طعم الخبز .

ـ إن الذين يحبون وطنهم ، ويعملون في سبيل خيره ، في سبيل مصلحته ، يسمون وطنيين .

واكتسب صوت المعلم نبرات فخمة أخذت تدوي في القاعة .

وكان يذهب ويجيء . .

هل الأستاذ حسن وطني ؟ . . هل حميد سراج وطني أيضاً ؟ . كيف يمكن أن يكون كلاهما وطنيين ؟ . ان المعلم من الوجهاء ، بينما حميد سراج شخص تلاحقه الشرطة في كثير من الأحيان . . أي الاثنين هو الوطني ؟ . ظل السؤال معلقاً بلا جواب .

ودهش عمر حين سمع المعلم يتكلم باللغة العربية ، هو الذي كان يحظر عليهم أن يتكلموا بالعربية . . عجيب . . هذه أول مرة . . شده عمر ، رغم أنه لا يجهل أن المعلم مسلم ـ فاسمه حسن ـ ورغم أنه لا يجهل أين يسكن . حتى لقد كان لا يعرف هل هذا المعلم يستطيع حقاً أن يتكلم بالعربية .

وقال المعلم ، بصوت خافت يخالطه عنف محير :

ـ ليس صحيحاً ما يقال لكم من أن فرنسا هي وطنكم .

عجيب . . لقد كان عمر يعرف أن ذلك كذب .

وسيطر الأستاذ حسن على نفسه . ولكنه ظل يبدو مضطرباً خلال بضع دقائق . كان يلوح عليه أنه يهم بأن يقول شيئاً آخر أيضاً . ولكن ما عساه يقول . . أليس ثمة قوة أكبر منه تمنعه من أن يقول ما يريد قوله :

وهكذا لم يعلم الصبية ما هو وطنهم . .

ـ ٥ ـ

في الساعة الحادية عشرة ، على أبواب المدرسة نفسها ، قامت معركة بالحجارة ، وتتابعت على الطريق الذي يحاذي أسوار المدينة .

ان هذه المعارك العنيفة ، الدامية أحياناً ، تدوم أياماً بكاملها . ان المعسكرين المتقاتلين ، وهما صبية من أحياء مختلفة ، يضمان عدداً من الرماة الممتازين . ان الصبية الذين تتألف منهم جماعة عمر يفوقون الآخرين مهارة وخفة وجرأة . انهم هم الموهوبون أكثر من غيرهم ، رغم قلة عددهم . فإذا قيل : أولاد « الرحيبة » ، تصور الناس شياطين لا يطمع أحد في ردهم إلى الصواب . كم مرة ظلوا يلاحقون خصومهم حتى وصلوا إلى قلب المدينة ، وحتى وصلوا إلى « البحيرة الكبيرة » ، يثيرون الرعب في صفوف سكان المدينة الوادعين المسالمين .

كانوا ، في هذه الأيام من الشتاء ، أشبه بقطعان من بنات آوى ، يهاجمون بعض

مستودعات الخشب ، فينهبون منها عدداً من الألواح يوقدونها . انهم يغذون بها نيراناً كبيرة أضرموها في أراض بور ، وتجمعوا حولها كباراً وصغاراً يطلقون صرخات غريبة تقطع الصمت .

لم يكن عمر يعرف أمكنة لألعابه غير الشارع . وما كان يمنعه أحد ، وخاصة أمه ، من أن يهرع إلى الشارع حين يستيقظ من النوم . لقد انتقل أهله من بيت إلى بيت عشرات المرات ، ولكن كان يوجد في كل حي مكان بين الأزقة والمقاسم التي تبنى ، يتخذه أولاد الحي ساحة للهوهم وعبثهم . كان عمر يقضي هنالك أوقات فراغه ، أي النهار كله ، ذلك أنه كان في كثير من الأحيان يرى أن ليس في المدرسة ما يشوقه ، فيمضي يلحق بالصبية الآخرين . لو خطر ببالك أن تقول لأمه أنه ليس من الحكمة في شيء أن تترك ابنها يتسكع في أي مكان ، وان ذلك قد يحرفه عن الطريق القويم ، وقد يكسبه عادات التشرد والكسل ، لدهشت . ومن يدري ؟ . . أن الصبي لا يستسلم لنزواته فحسب ، بل يتأثر كذلك بصبية أكبر منه سناً ، وأشقياء مستهترين عابثين سارقين يعيثون في هذه الأحياء فساداً . ان سن هؤلاء وقوتهم يتيحان لهم أن يسيطروا عليه . إن هؤلاء السفهاء الذين لا يخافون شيئاً ولا يخجلون من شيء يطوفون في المدينة باحثين عن ضربات سيئة يحاولونها ، وعن مزحات خشنة يمزحونها . انهم لا يفوتون أبداً فرصة الاسترسال في الوقاحة التي يتلفف بها قلقهم الغامض .

وانهم ليزدادون خشونة واستخفافاً حين يرون أناساً محترمين وقورين . ان هؤلاء ينظرون إليهم نظرة شزراء ، ويعدونهم صبية فاسدين لا يصلحون لشيء ولا يتورعون عن ارتكاب كل عمل . . ولكن الصبية لا يعبأون . .

حتى إذا التقت فئة منهم بفئة دارت رحى المعركة بينهم كالمسعورين . وكان ينتهي ذلك بتفجر الدم في أكثر الأحيان كان هناك من ينتهي بهم الأمر إلى تلقي لطمة حصى على الوجه أو على الجمجمة . فإذا تفجر الدم في أحد المعسكرين أخذ صبية المعسكر المقابل يرفعون سيقانهم إلى أعناقهم وهم يطلقون صرخات كبيرة في فرح وحشي ، ويصيحون صيحات طويلة : هو . . هو . . علامة الاحتقار ، ويشفعون الصيحات بقفزات سريعة نشيطة . ويقترب الآخرون من الضحايا في أسف ، وقد هبطت أذرعهم خرقاء على أجسامهم . انهم يحتفظون بالحجارة في أيديهم مدة طويلة ، وتظل جيوبهم محشوة بالحجارة أيضاً . وينظرون في وجوه الجرحى متفرسين ، ثم يبتعدون دون أن ينبسوا بكلمة . . ويأخذون يتخففون من حجارتهم ، ويتخففون في الوقت نفسه من عذاب الضمير الذي خالط نفوسهم لحظة . انهم يمضون على انتعاش قوي ، بينما الجرحى يجهشون في بكاء صاخب . والشجعان منهم يشدون أسنانهم ويصمتون . ولا يتركون ساحة المعركة إلا مسلحين بحجارتهم كلها .

إن عمر أصبح يخاف من هذه المعارك منذ انشق صدغه ذات مرة .

كان الصغار من الأطفال يجندون لالتقاط الحجارة التي يتراشق بها الخصوم من ساحة

المعركة التي أقحموا فيها بالقوة .

إن الكبار الذين يقاتلون يملكون كثيراً من المرونة والمهارة ، فإذا وقفوا أمام العدو وجهاً لوجه ، رأوا المسار الذي تسير فيه الحجارة مقبلة عليهم، فتحاشوها في الوقت المناسب . أما الذين يجمعون الحجارة فإنهم مائلون على الأرض ، فلا يستطيعون أن يتقوا الحجارة المتساقطة . فإذا أصابهم حجر لم يعبأ الكبار بذلك أكثر مما يعبأون بسقوط حجر على جدار .

إن المرء يصادف في كل مكان من الشوارع أطفالاً من هؤلاء الأطفال النكرات المصاريد لعمر يظفرون حفاة الأقدام . إن لهم أعضاء كأعضاء العنكبوت وهناً، وإن أعينهم لتتقد من الحمى . وكثيرون منهم يستجدون الأكف بشراسة أمام الأبواب وفي الميادين . ان بيوت تلمسان متخومة بهم ، وبصياحهم هي أيضاً متخومة .

- ٦ -

اليوم خميس . هو يوم عطلة ، وليس على عمر أن يذهب إذن إلى المدرسة . إن « عيني » لا تعرف كيف تتخلص من ابنها . لقد وضعت في وسط الغرفة « كانوناً » مليئاً برماد الفحم ، فالرماد يشتعل في عناء . ظن الناس أن البرد قد ولى ولكن الشتاء ما لبث أن عاد إلى المدينة عودة مفاجئة ، وجعل يجز الهواء بملايين الشفار الحادة . والثلج هاطل لا محالة في تلمسان متى انخفضت درجة الحرارة في شهر شباط (فبراير) .

كان عمر يضع قدميه المتجمدتين على البلاط . وعيني عارية الساقين حتى الركبة ، ترتدي قميصاً رقيقاً مشموراً فوق سروال من الخام ، وقد شدت كتفيها بمنديل خلق ممزق . انها تؤنب عمر ، وهي ترتعش من فرط الاضطراب :

ـ عمر ألا تريد أن تهدأ ؟

كان عمر يحضن الكانون ، ويحرك قاعه ، فتتقد بعض القبسات في الرماد قليلاً . انه يدفىء يديه ، فتبيضان شيئاً بعد شيء ، ضخمتين كالثمر المسرف في النضج ، ثم يطبق بهما على قدميه . ان منظر البلاط الأحمر القاني مزعج . ان عمر منكمش على نفسه أمام الموقد .

كان الموقد يخمد في الغرفة المظلمة الرطبة . ان عمر لا يدفىء إلا يديه أما القدمان فإن فيهما حكاكاً لا سبيل إلى مغالبته . ان برداً ساكناً يخدش جلده خدشاً .

وأسند ذقنه إلى ركبتيه ، وأقعى إقعاء تاماً يجمع الدفء . ان اليتيه القاعدتين على جلد قصير من جلود الخراف موجعتان . وغفا أخيراً وهو متجمع على نفسه ، عارف على ألم أن ليس في البيت طعام يأكله ، إذ لم يبق ثمة إلا قليل من كسر خبز كانت قد جاءتهم به الخالة . ان الصباح

الأدكن ينقضي دقيقة بعد دقيقة .

وفجأة دبت في ظهره رعشة ، فاستيقظ على تخذر في ساقيه ونمل شديد . ان البرد يقرص جسمه قرصاً لا رحمة فيه . والموقد ذهب حملته عيني .

كانت عيني مقرفصة في الطرف الآخر من الحجرة ، وقد وضعت الكانون على إحدى فخذيها وأخذت تدمدم بينها وبين نفسها .

فلما رأته يفتح عينيه ، إنفجرت قائلة :

ــ هذا كل ما تركه لنا أبوك ، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشيء : ترك لنا البؤس . غيب وجهه في التراب ، وسقطت علي جميع أنواع الشقاء . . الشقاء هو نصيبي طوال حياتي . . هو الآن هادىء في قبره . . لم يفكر يوماً في إدخار قرش واحد . . وهأنتم تتشبثون بي كالعلق الذي يمتص الدم . لقد كنت غبية . . كان ينبغي أن أترككم في الشارع ، وأن أهرب إلى جبل خال مقفر .

رباه . . من ذا الذي يستطيع أن يوقفها الآن عن هذا الكلام ؟ . وكانت نظرتها السوداء المعذبة تتقد . وعادت تدمدم :

ــ الشقاء هو حظي من الحياة .

كان عمر صامتاً .

لا شك أنها حاقدة على أحد . ترى من هو ؟ . وأخذت تكيل الشتائم المقذعة لأشباح . . أصبح الصبي لا يفهم شيئاً من هذا الغضب الذي ما يني يزداد . هل في الغرفة شخص آخر ؟ . نعم ، هناك الجدة . . ولكن . .

كانت الجدة ماما راقدة وراء عمر . لقد تسلموها أمس . آواها ابنها ثلاثة أشهر ، وجاء الآن دور عيني لتعيلها ثلاثة أشهر أخرى . ان الجدة ماما مشلولة . ولكنها محتفظة بصفاء فكرها : ان نظرتها الزرقاء الواضحة لا تزال على حالها القديمة من الالتماع ، حتى لتكاد تكون نظرة باشة . ومع ذلك فإن عينيها ، رغم ما يشع فيهما من بريق الحلم والنبل ، تتجمدان في بعض اللحظات على تعبير بارد قاس . وكانت تحيط وجهها الصغير العجوز المتورد النظيف ، بمنديل من شاش أبيض . وكان ينبغي أن تساعد الجدة في كل شيء : في تناول الطعام ، في الالتفات ، في قضاء الحاجات .

ان عمر يرتعش على غير شعور . ووضعت عيني الكانون على الأرض . واستدارت في مكانها ، ونظرت إلى الجدة :

ــ لماذا لا يبقيك ابنك عنده ؟ . . كان يهتم بك حين كنت لامرأته خادمة خلال سنين . حتى إذا ما أصبحت ساقاك لا تقويان على حملك ، رماك كما ترمى الزبالة ، أليس كذلك ؟ . لقد

أصبحت لا تصلحين لشيء . . هذا هو الموضوع . .

كانت عيني منتصبة على ركبتيها تقذف حقدها في وجه الجدة . . وحاولت الجدة أن تهدئها :

ــ عيني ، بنتي ، يا أمي الصغيرة . . لعن الله ابليس ، انه هو الذي يضع في رأسك هذه الأفكار .

ــ ليت الموت يأخذك . لماذا لم ترفضي أن يحملك إلى هنا ؟ .

ــ ماذا كان في وسعي أن أفعله يا ابنتي ؟ .

ــ امرأته هي التي أرسلتك إلي . انه مستعد لأن يلعق قدميها . انها هي التي تعمل لتطعمه ، أما هو فيقضي وقته في التسكع بين المقاهي . . ابن الكلب . . اسكتي ، لا أريد أن أسمع صوتك . . اسكتي ، اسكتي . . ان الله قد ألقاكم على حشرة تلتهمني .

كانت عينا الجدة تتضرعان . ود عمر لو يركض إلى الشارع ، لو يهرب . أراد أن يصرخ . إلا أن وجه أمه وقف بينه وبين الباب . فانبطح على الأرض ولم يتحرك بعد ذلك . كان يهم بأن يقول . فعسى أن يسمع صوته الجيران ، فيهرعوا وينقذوه من أمه التي تريد أن تصهره بلا رحمة . ولكن أمه لم تلمسه . فظل راقداً على الأرض ، إلى أن قالت له بصوت حاد :

ــ انهض ، تعال .

فنهض ، واقترب منها ببطء محسوب . فأومأت إليه برأسها ان ينهض الجدة .

فأنهض الجدة مع عيني . كان يتساءل : ترى ما الذي سيقع ؟ وفيما هو يتبع أمه قلقاً ، لاحظ أنها تجر الجدة إلى الخارج . وكانت الجدة لا تنفك تتوسل كالمجنونة قائلة :

ــ عيني ، عيني ، بنتي . .

كانت عيني تجرهما كليهما ومضيا يحملان المرأة العجوز ، فاجتازا بها الدهليز ، حتى وصلا إلى المطبخ ، وهنالك أفلتتها عيني ، فسقطت على البلاط .

كان عمر يرتجف . ان في ضراعات الجدة خوفاً لا يوصف . . ان فيها من الذعر ما جعل الصبي يشعر بحاجة إلى أن يعول هو أيضاً .

كان مطبخ الطابق حجرة كبيرة ، جدرانها سود ، وأرضها بلاط كبير تتراكم عليه أشياء كثيرة من كل نوع ، وليس لها باب . ان ضوءاً ضعيفاً خائفاً يدخل إلى الحجرة . أما البرد ، فهو ههنا قاتل . . .

وبدا على عيني أنها اكتشفت ما كانت ترغب فيه . أخرجت كرسياً مغبراً من بين ركام الأشياء ، فوضعته وراء ظهر الجدة ثم أجلستها عليه . وقالت لابنها وهي تبتعد :

ــ تعال أنت . .

وتركا العجوز . ان وجه الجدة يمتقع ، وان نظرتها تهتز . كانت عيناها تقولان : « الموت . . الموت . . . » .

أعول عمر .

ـ أأنت مجنون فتصرخ هكذا ؟ .

قالت عيني له ذلك ، وانقضت عليه .

وهمست في أذنه :

ـ تعرف ماذا سيقع لك . .

فأحنى عمر رأسه ، ثم قال فجأة :

ـ لا يهمني . .

وهرب . فأسرعت تركض وراءه . ولكنه اجتاز فناء البيت بوثبة واحدة ، ووصل إلى الرواق ليهرب إلى الشارع . فلما بلغت أمه الباب ، لم يكن في وسعها أن تطارده إلى أبعد من ذلك ، لأن حجابها لا يغطي وجهها ، فلم تستطع أن تزيد على أن تشيعه بسيل طام من الشتائم واللعنات .

ـ اخرسي يا . . . عاهرة .

وانطلق في الشارع . وصل إلى الزقاق بعض المارة . فانسحبت عيني . حتى إذا صاروا أمام البيت ، رجتهم من خلال الباب أن يجيئوا لها بابنها . ولكن عمر كان قد ابتعد . كان يركض بأقصى سرعة . فلما عادت عيني إلى غرفتها ، أغلقت بابها ، فأصبح الصبي لا يمكن أن يرجع دون أن تشعر برجوعه .

ـ ٧ ـ

ظل عمر يتسكع في الشوارع إلى أن قدر أن غضب أمه لا بد أن يكون قد هدأ . فعاد إلى دار سبيطار ، وفيما هو يتسلل نحو الغرفة ، لمحته عيني ، فوثبت فوراً تطارده . فهرب وأخذ يجدف :

ـ يلعن أبوك ، يا ملعونة ، تلعن أمك . .

وركض إلى الشارع مرة أخرى . . ان ريحاً ثلجية تكنس الزقاق الضيق . وبحث عمر عن مكان يختبىء فيه من صفع الريح . عدل عن العودة إلى دار سبيطار الآن . انه حانق أشد الحنق من طرده على هذه الصورة .

هذا مدخل عمارة كبيرة . اندس عمر في المدخل . ولبد بين مصراع الباب المفتوح وبين برميل الزبالة . ان قدمه تؤلمه . والجرح الناكىء الذي أصيب به في ذلك اليوم الماضي يوجعه .

والريح تصفر في هذا البيت بلا توقف .

ما عساه يصنع الآن ؟ .

ان البرد يلعق وجهه . كان في مثل هذه اللحظات يتمنى لو يعثر على أبيه ، أبيه الميت . ولكن الحقيقة التي اكتشفها كانت لا تطاق أن أباه لن يعود أبداً إليه ، ما من أحد يستطيع أن يرد إليه أباه .

لن يقضي الليلة كلها في الشارع . ان معاقبته عند رجوعه إلى البيت أصبحت لا تخيفه . . لا ضير . . يمكن أن تصنع به أمه ما تشاء ، فلن يعترض ولن يقاوم . انه كالميت ، فما من شيء مما يقع له يمكن أن يهمه . . كان لا يتألم . أصبح لا يتألم . ان قلبه من صخر . لقد قرر أن يسلم نفسه لضربات أمه ، دون أن يحاول التهرب من احداها ، سوف يعرف حدود مقاومته . . ان في نفسه الآن تحدياً . لسوف يرى من الذي سيتعب قبل الآخر : أمه التي تعذبه أم هو الذي يحتمل العذاب ؟ . . كان واثقاً من أنه لن يتخاذل ، وأنه سيصمد إلى النهاية .

نعم : يجب عليه أن يعود ، لا شيء غير هذا . فيم الهرب ؟ . .
ولكن لماذا لا يقتل نفسه . . لماذا لا يرمي بنفسه من أعلى سطح . . ونظر فيما حوله . لا أحد في الدهليز . وانطوى على نفسه حتى صار كالكرة ، من أجل أن يصبح في ركنه أصغر . نعم ، نعم ، يجب أن يموت . من الذي يعبأ به ، بعدئذٍ . . حادث صغير ، ثم لا يحفل بالأمر . لن تستطيع أمه أن تعثر عليه . هذا خير « مقلب » يمكن أن يدبره لها خياله .

ودوى إلى جانبه وقع أقدام . فانتفض . ثم ما لبث سكون الليل أن خيم .

كيف يستطيع أن يكون في بيته ، في غرفته ؟ وأخذ قلبه يدق ، ضخمًا ثقيلاً . . ترى هل إذا رآه أحد إلى جانب برميل الزبالة ظنه متسولاً ؟ . لا . . في هذه العمارة التي يقطنها فرنسيون ، إذا شعر أحد بوجوده ، لن يظن إلا أنه « حرامي » صغير . . لسوف يهيج عليه سكان العمارة ، بل سوف يهيج عليه الحي بأكمله ، بل تلمسان كلها .

وتسلل إلى خارج العمارة . لم يره أحد . عليه الآن أن يعود . ليس هذا كله إلا لعباً . ليس ثمة ما يدعو أمه إلى ضربه . انها لم تفكر في تعذيبه في لحظة من اللحظات .

سمع عمر صرخات حادة وهو يقترب من دار سبيطار . عرف الصوت . انه لم يذق طعاماً منذ الصباح ، فساقاه الضعيفتان جداً أصبحتا لا تقويان على حمله .

كانت الصرخات صرخات أمه تطلقها في الفضاء واقفة عند الباب :

ــ عمر . . عمر .

هكذا كانت عيني تنادي بأعلى صوتها .

وكان الناس يمرون صامتين لا يبالون . وكانت نساء محجبات بمناديل بيضاء حتى لكأنهن

الأشباح ، يتوقفن قليلاً ، ثم يحثثن الخطا مسرعات . وصل عمر أمام البيت . رأته عيني . توقف وقد استبد به خوف شديد .

ــ ادخل .

ظل عمر ساكناً لا يتحرك . واستند إلى الحائط ، لأنه كان يشعر أن قواه قد خارت . واشتدت صرخات أمه .

وعادت إلى خياله صورة الجدة ممددة على بلاط المطبخ ، عاجزة عن الحركة ، متقدة العينين بالخوف . أما تزال حية ؟ . هل ضربتها امه ؟ . وأحس أن كل شيء ينهار من حوله . ومرة أخرى أراد أن يترك الحياة . وبكى بكاءً رفيقاً . واجتازت أمه بقدميها العاريتين وذلذل ثوبها ، الشارع مسرعة . انها الآن أمامه بملاءتها . ولكن الظلام دامس .

جرته عيني من ذراعـه . فاجتازا الزقاق ودخلا إلى البيت . وما كاد يجتازان الدهليز حتى سقط .

أنهضته أمه . ونظر الصبي إلى وجهها الشاخص إليه يسأله . نقلته إلى الغرفة . وضعـته على جلد الخروف . ثم مددته جاعلة رأسه على إحدى ذراعيه . لم يتحرك عمر .

وابتعد وجه الأم . ولم ينبس الصبي بكلمة واحدة وهو راقد على مضجعه . وبدا له أنه راقد منذ قرون . وحين انطفأت في رأسه الجلبة وضوضاء الأصوات التي كانت تملؤه ، أحس أنه مهجور وحيد ، منبوذ من الحياة . وسمع بضعة أصوات قريبة منه كل القرب . ما هذه الرعشة التي تسري في جسمه كله . . ان شيئاً يقول له انه سيهوي أو يزول . . فتح عينيه قليلاً .

كانت أمه تصلي . ظلت واقفة متجمدة مدة طويلة ، وفجأة ركعت ثم سجدت .

ان عمر يحس بألم في عينيه . أصبح لا يستطيع أن يرى شيئاً لأنه عاجز حتى عن الابقاء على تباعد جفنيه .

وساقاه ترتعشان في غير انقطاع . وأخذ يؤلمه الاضطجاع أشد الألم . متى يرتاح ؟ .

ــ ٨ ــ

جاء شهر آذار . ان الأحد الثاني من هذا الشهر يوم لا ينسى في حياة دار سبيطار . .

أفاق عمر من نومه مذعوراً ، وهب واقفاً على قدميه . إن دار سبيطار تغلي . الضوضاء تملأ أصغر زوايا البيت الواسع ، وتصل إلى أعتم أركانه ، بينما يطرق الباب الخارجي طرقاً عنيفاً متواصلاً لا يصبر .

خرج عمر وأختاه من الغرفة . وهرعت عيني نحو الدربزين الحديدي الذي يحاذي

الدهليز ، وهي لا تزال وسنى لا تعرف أين تضع قدميها . ان غدائر من شعرها تتموج فوق رأسها كالعوسج لا يستطيع المنديل أن يحبسها .

ـــ ماذا جرى ؟

وأصلحت شعرها .

انه هرج لا يفهم : السكان يندفعون من غرفهم مسرعين ، متلاحقين ، ويتجمعون في فناء البيت . وشوشات ، وصيحات مفاجئة ، وبكاء أطفال صغار ، ووقع أقدام حافية . . كل ذلك كان ينتشر في الدهليز والفناء والحجرات ، في هذه الساعة الساكنة الرطبة الكثيفة من الصباح . ان أولى أشعة الفجر تظهر . كان الظلام يتبدد خفية .

ضربات مطرقة ، ثم ضربات أرجل ، تهز الباب الكبير ذا المسامير . . بغير انقطاع . . والباب يظل مقفلاً . لم يحاول أحد في داخل البيت أن يقترب من الباب . كانوا يتساءلون :

ـــ ماذا حصل ؟ ماذا وقع يا ناس ؟

قفز عمر إلى السلم ، واختفى بسرعة ، قبل أن تستطيع أمه الاتيان بحركة .

ـــ عمر . . عمر . . ارجع . . حمى سوداء تأخذك . .

غاص الصبي في جمهور النساء الذي تجمع في الفناء ، ووقف عند مدخل الرواق .

ـــ صه . . صه . .

هكذا صاحت أصوات مختلفة تأمر عيني بالصمت :

وصاحت زينة :

ـــ اسكتي يا عيني ، دعينا نسمع ما يجري . . ما هذه المصيبة ؟

ولكن عيني لم تلق بالاً إلى الأوامر التي تصل إليها من كل صوب ، بل استمرت تصيح مؤنبة مقرعة :

ـــ عمر . . ارجع إذا كنت لا تريد أن أقطعك تقطيعاً . .

ولم تجدها تهديداتها . . كالعادة . .

وسرعان ما قام في البيت اضطراب قلق راعش . النساء يتشاورن فيما يجب أن يفعلنه . أيفتحن أم لا ؟ واستولت الحيرة على الحشد كله وجاءت العجوز عائشة إلى الفناء ، بخطا صغيرة ، متحاملة على نفسها ، متسندة على الجدران . ورفعت عينيها إلى السماء . قالت بصوت خافت :

ـــ احمنا يا رب ، إذا كنت تريد أن تقبل دعائي .

وركعت . وأخذت شفتاها تتمتمان .

تقدم الرجال بضع خطوات . انهم لم يمضوا إلى أبعد من العتبة في كل غرفة . ان بعضهم

لا يزال مشغولاً بشد حبل سرواله العريض .

وحزمت امرأة أمرها قائلة :

ــ والله لأفتحن الباب، فنرى من هذا . .

ان سنية هي التي حلفت هذه اليمين : ان سنية لا تهاب شيئاً . . انها تفعل دائمًا ما تقول .

ــ لا يمكن أن يكونوا غير الشرطة . . ألا تسمعين ضجتهم ؟ ما من أحد غيرهم يأتي على هذا النحو . .

قال رجل ذلك بصوت عال ثم صمت .

وقدر جميع الناس ما قدر .

لا يمكن أن يكونوا غير الشرطة .

شقت سنية الباب ، وأخرجت منه رأسها : انهم الشرطة حقاً . عشرة عساكر ـ متجمعون في الشارع الضيق . . وهمت سنية بأن تتراجع . ولكنها استجمعت قواها ، وسألتهم ما الذي جاءوا يبحثون عنه هنا . . انها لجريئة ، سنية هذه . . قالت :

ــ ليس عندنا لصوص ولا مجرمون في هذا البيت . فماذا تريدون ؟

قال أحدهم :

ــ ماذا نريد ؟ أخلي الطريق . .

وغورت طائفة الشرطة في الدهليز . كان يخب بينهم رجل قصير سمين يرتدي بدلة بلون بني فاتح ، ويتحاشى أن يلمسه أحد مخافة أن تتسخ ملابسه .

تفرقت النساء مذعورات ، واختفين في مثل لمح البصر في الحجرات الأولى التي صادفتها . لقد أفقدهن الخوف صوابهن ، فكأنهن سرب من العصافير روع على حين غرة .

ووجد عمر نفسه وحيداً في فناء المنزل . ان دمه يطرق صدغيه . شرطة . . ان قلبه يهم بأن يخرج من صدره . ود لو يستطيع أن يصرخ ، وهو متسمر في مكانه : « ماما » واخضل جبينه . وأعول فجأة يقول :

ــ الشرطة . . الشرطة . . ها هم الشرطة . .

وقال بينه وبين نفسه : « ماما » ، أتوسل إليك ، لن أضايقك بعد الآن ، احميني ، احميني . .

تمنى في عنف وحرارة أن تكون أمه « عيني » إلى جانبه ، لكي تحيطه بما للأم من قوة هائلة ، لكي تبني حوله سياجاً لا يمكن أن يجتازه أحد . . ان رجال الشرطة يخيفونه أشد الخوف . . انه يكرههم ، هؤلاء الشرطة . . أين أمه ؟ أين هي تلك السماء التي تحرسه؟ . .

وظل يصيح :

ـ شرطة . . شرطة . .
شعر فجأة أن في إمكانه أن يطلق ساقيه للريح ، فركض يختبىء عند لالا زهرة .

ان رجال الأمن يحتلون فناء المنزل . وها هم أولاء يتوجهون بالكلام إلى السكان قائلين :

ـ لا تخافوا . . لا تخافوا على أنفسكم . فنحن ما جئنا لنؤذيكم . وإنما نحن نؤدي واجبنا . في أي غرفة يسكن حميد سراج ؟

إن الشرطي الذي خاطب سنية في أول الأمر ، تكلم هذه المرة باللغة العربية .

لم يجب أحد . لكأن دار سبيطار قد خلت من سكانها في لحظة واحدة . لكن المرء يحس مع ذلك أنها يقظى منتبهة .

ـ إذن فأنتم لا تعرفون . .
كان الهواء يزداد كثافة كلما طال الصمت . ان رجال الشرطة يحسون أن دار سبيطار أصبحت عدوة على حين غرة . ان دار سبيطار تعتصم بخوفها وبتحديها . ان دار سبيطار التي عكروا نومها وهدوءها تكشر عن أنيابها .

وأخذ رجال الشرطة يقرعون البلاط المصوت بنعالهم . ان الصدى يوسع الفراغ الذي يمتد بين سكان البيت ورجال السلطة . .

وفجأة فتح باب في الطابق الأرضي ، فأحدث فتحه قرقعة قوية ، وظهرت من الباب قامة قصيرة ، هي قامة فاطمة . فهرع إليها رجال الشرطة حملة ثقيلة ، فقالت لهم :

ـ لا تتعبوا أنفسكم . أخي ليس هنا . .
أحاط بها اثنان منهم ، فلم يؤثر ذلك فيها . ودخل آخرون إلى غرفتها في مثل لمح البصر .

عندئذٍ ، أخذت النساء تعود إلى فناء البيت ، واحدة بعد أخرى . قالت عائشة ، بدون أي وجل :

ـ ماذا فعل الفتى ؟ . . اننا نعرفه مذ كان يجري في الشارع ، ما أخذنا عليه شيئاً في يوم من الأيام . انه لا يسيء إلى نملة . وبأي شيء يمكن أن يسيء . .

أكانوا يفهمون ، أم كانوا لا يفهمون ؟ المهم أن رجال الشرطة لم يتحركوا . وكانت عيونهم الفارغة لا تلبث على شيء .

ان البيت يغلي غليان خلية النحل ، فالنساء يتحدثن فيما بينهن في آن واحد . وتضخمت الضوضاء .

فتش رجال الشرطة الغرفة ، بعد أن أدخلوا إليها فاطمة . وفي هذا الوقت ، انطلقت أصوات بكاء من الركن المظلم الذي كان عمر قد لطا فيه ، فتذكر الصبي عندئذٍ انه قد لجأ إلى

غرفة لالا زهرة . انه لا يعرف لماذا لجأ إلى هنا . ولكنه كان مسروراً . انها امرأة شهمة ، لالا زهرة هذه . انه يحبها كثيراً . ان في وجهها من معاني الرقة واللطف ما لم يلاحظ مثله في غيرها . ان الابتسامة لا تختفي من محياها .

واستمر البكاء . كانت « منون » المريضة ، راقدة هنالك ، منذ طردها زوجها وأرسلها إلى أمها . ان أمها العجوز هي التي تسهر عليها . قالت لالا زهرة :

ــ الحمد لله على نعمه .

وكانت نظراتها متجهة إلى فناء المنزل .

وكانت « منون » تردد وهي تنتحب :

ــ لن أراهم مدى الحياة ، لن أراهم يا أمي . .

ارتعش عمر لسماع هذه الكلمات التي تتردد بلهجة تعبر عن اليقين المطلق : بدا له أن أمراً حاسمًا قد وقع . أحس عمر بذلك إحساساً غامضاً .

ونظر إلى الجسم الراقد . كانت لالا زهرة جالسة حول المريضة جلسة القرفصاء ، تقبلها من حين إلى حين متأثرة أشد التأثر ، وتغمض لها عينيها بيديها .

ــ ستشفين يا حبيبتي . . بعد شهر . . وستعودين إلى صغارك . . إذا هدأت نفسك . . الطبيب قال ذلك .

كانت المرأة العجوز تحدث ابنتها كأنها تحدث طفلاً .

بذل عمر جهداً كبيراً حتى يظل ساكناً هادئاً . وارتفع صوت منون يقول وقد فاض بالحزن :

ــ أعرف أنني سأموت . . يا أمي . . لن أراك بعد ذلك . . ولن أرى أولادي . .

وخفضت صوتها ورددت تقول: « لن أراهم . . » ثم هدأت . وبعد فترة من سكون أخذت تغني بصوت خافت :

إذا تحطم الليل
حملت دفئي إلى الجبال الوعرة
فنضوت ثيابي على مرأى من الصباح
كتلك التي نهضت
تمجد أولى قطرات المياه
غريبة بلادي
التي تنطلق فيها رياح كثيرة
أشجار الزيتون تصطخب حولي

وأنا أغني :
أيتها الأرض المحروقة السوداء
أيتها الأم الأخوية
لن يبقى ابنك وحيداً
مع الزمان الذي ينشب في القلب أظفاره
اسمعي صوتي
يتسلل بين الأشجار
ويحمل على الثغاء الأبقار .

وفجأة عادت منون تبكي . أرادت أمها أن تتكلم . لكنها لم تزد على أن هزت رأسها . ونظرت إلى عمر ، ثم نظرت حولها كأنها تلتمس العون والعزاء .

كان صوت منون يدندن في تلك اللحظة مرثاة لم تكن تصلح إلا لها . ثم قالت :

ــ لن تروا بعد الآن أمكم يا أولادي .

ان وجه لالا زهرة الوديع ، يظهر الآن متعباً .

وأحس الصبي ان هذا التعب ليس إلا جزءاً صغيراً من ألم كبير .

بعد لحظة الخوف الأولى ، أخذت النساء تتجرأ وتستخف برجال الشرطة ، وقد حبسن أزواجهن في الحجرات .

وظهرت فاطمة . ان الشرطي الذي كان ممسكاً بذراعها ، قد دفعها إلى خارج . أخذت فاطمة تندب وتنوح ، وتلطم فخذيها لطمًا قوياً . ان شكاتها تصاعد حادة ثاقبة . . ان دار سبيطار تهتز كلها من اللعنات التي يقذفها فم فاطمة فتتراجع في كل جانب من جوانبه . ان سكان البيت تنخلع قلوبهم وعقولهم بتأثير هذا الصوت الحاد . . . وعندئذٍ قامت في البيت كله ضجة مقلقة . ان هذا النحيب الذي يعبر عن الكره والغضب يؤذن بالشقاء الذي هجم على دار سبيطار واقتحمها بخطا واسعة .

ان رجال الشرطة ينبشون الأوراق التي كان حميد سراج قد جمعها عند أخته . كانوا يجمعون هذه الأوراق ، ومن أجل ذلك قلبوا الغرفة عاليها سافلها .

توقفت فاطمة عن الصراخ ، وأخذت تندب في رفق :

ــ ويلي عليك يا أخي . . ما الذي سيقع لك ؟ . . ما الذي سيصنعونه بك ؟ . . ويلي عليك يا أخي . .

كان يأسها الطافح ، الرتيب ، الثقيل إلى أبعد حدود الثقل ، يسير كعربة متعبة .

وكانت منون تهذي في غرفتها بصوت ضعيف . لقد اختلط عقلها منذ بضعة أيام . فقدت

وعيها ، انها تجهل الآن ما يقع حولها . وكانت لا تزال تردد :

ــ لن أراكم بعد الآن يا أولادي .

وعاد غناؤها إلى شفتيها رقيقاً عذباً ، يمزق القلب :

جاء هذا الصباح من أصباح الصيف
هادئاً أكثر من الصمت
أشعر بأنني حبلى
يأيتها الأم الأخوية
النساء في أكواخهن
ينتظرن صياحي

ورددت عدة مرات ، دون أن تدرك معنى ما تقول :

أيتها الأم الأخوية
النساء في أكواخهن
ينتظرن صياحي .

كان عمر حائراً لا يعرف كيف يمكن أن يقدم معونة ما . ورجال الشرطة يملأون الدار الكبيرة بحركاتهم . ترى متى يذهبون ؟ . . وأصغى مرة أخرى إلى الغناء الذي ارتفع في ظلام الغرفة :

يقولون لي : لماذا . .
لماذا تمضين إلى زيارة عتبات أخرى .

كزوجة مطرودة ؟
لماذا ، أيتها المرأة ،
تهيمين على وجهك حائمة .

حين تطوف انسام الفجر بالربى ؟

وفجأة ، في أعلى المنزل ، انفجر صياح امرأة أخرى . انها عاتكة .. المجنونة البائسة ، ترسل صرخاتها الغامضة في الهواء . صوت حاد يترجع بلا توقف ، ويثقب القلوب الموجعة ، قلوب سكان البيت . وأخذ الهواء يهتز .

حمحم الرجل القصير السمين يقول :

ــ نحن لم نجيء إلى هنا إلا للتفتيش . هذا كل شيء . .

أصبح عمر لا يطلب قطعة من الخبز مغموسة في ماء العين : حين تنصب علينا الكوارث ، نذهل عن الجوع . أصبح عمر لا يفكر .

لقد تطامن جوعه ، أصبح جوعه الآن بعيداً ، لم يبق منه فيه إلا ما يشبه غثيانا غامضاً لا يهدأ.

ان به دواراً . كان يمضغ لعابه ويبلعه . ان هذا يولد في نفسه ميلاً غريباً إلى القيء . انه لا يجد في داخل نفسه إلا فراغاً ، وفوق هذا الفراغ تتأرجح ذكرى ما أكله بالأمس . ولكن كيف يمكنه ، وهو فيما هو فيه من مثل هذا الاشمئزاز ، أن يحتمل قليلاً من الطعا م . . لن يستطيع أن يبصق هذا الرماد المتخلف عن الساعات الطويلة التي لم يذق خلالها طعاماً ، لن يستطيع أن يبصقه تماماً .

أنا التي أتكلم ، يا جزائر .
قد لا أكون إلا أتفه نسائك .
ولكن صوتي لن يتوقف .
عن النداء في السهول والجبال .
انني هابطة من الأوراس .
فافتحن أبوابكن .
يا أيتها الزوجات الأخويات . .
قدمن لي ماء بارداً . .
وعسلاً وخبز شعير .

ما كاد الغناء يترجع مرة أخرى في الغرفة ، حتى اقتحمها رجال الشرطة ، وجمدوا لا يتحركون . انهم لم يميزوا أول الأمر شيئاً في الظلام . ولكن ترددهم لم يطل . فما هي إلا لحظة ، حتى قلبوا كل شيء .

اقتربوا من لالا زهرة وابنتها المتمددتين على الأرض ، فجروا المريضة التي كانت مكشوفة إلى منتصف الفخذين ، وفتشوا المكان الذي ترقد عليه .

ودوت انتحابات منون ، وتحولت إلى نداء حار تجاوز الغرفة المضطربة . ان صرختها الحزينة التي ودت لو تطرد بها الداء الذي ينهش صدرها ، قد انفجرت أقوى من الضجة والجلبة اللتين جاء بهما رجال الشرطة ، وفجأة عاد الصياح غناء :

جئت لأراكم
لأحمل إليكم السعادة ،
الا فليكبر أبناؤكم ،
ولينبت قمحكم ،
وليختمر خبزكم ،

ولتنعموا بالحياة لايعوزكم شيء ،
ولتحالفكم السعادة .

تحير رجال الشرطة ، وانقطعوا عن التفتيش ، وتركوا الغرفة ، وعادوا مرة أخرى إلى الفناء .

كانوا قد منعوا فاطمة من الدخول إلى غرفتها . فقرفصت تنتظر في فناء البيت ، ومن حولها أطفالها . فتشوا كتب حميد فاستولوا على بعض المؤلفات وعلى جرائد قديمة وأوراق ، ثم حملوا جزءاً من هذا كله ، وبعثروا الباقي في الغرفة والفناء . ومضوا . فاستطاعت فاطمة أن تعود إلى غرفتها .

كانت الشرطة تجيء إلى الحي لألف سبب وسبب: وكانت تقبض على شباب وكهول ، لا يراهم بعد ذلك أحد .

لا تزال تتعالى في دار سبيطار صيحات الاحتجاج من الشيخ العجوز بن ساري . ولكن رجال الشرطة كانوا قد ذهبوا . كان بن ساري يصيح :

ـ لا بد أن أمثل أمام القضاء . ما يسمونه قضاء ليس إلا قضاءهم . . هو قضاء ما أوجدوه إلا ليحميهم ، ليضمن سلطتهم علينا ، ليحطمنا ، ليذلنا . أنا في نظر قضاء كهذا مجرم دائمًا . لقد حكم علي هذا القضاء من قبل أن أولد . أنه يحكم علينا دون أن يكون في حاجة إلى ذنوب نرتكبها . هذا القضاء قد أوجد ليحاربنا . . انه ليس قضاء جميع البشر . لا أريد أن أخضع لهذا القضاء . . اللهم اننا لن ننسى هذا الحقد . . لا ولا السجون التي يسجن فيها أعداؤ نا رجالنا . . الدموع تصرخ في وجه عدالتكم هذه . . الدموع والأحقاد . . ولسوف تردها إلى الصواب . . ولسوف تنتصر عليها . انني أقولها على رؤ وس الاشهاد : كفى . . كفى . ان هذه الدموع ثقيلة الوقع في القلوب . . ومن واجبنا أن نصرخ . . ان نصرخ في آذان جميع من في آذانهم صمم . . إذا كان قد بقي في هذه البلاد من في أذنيه صمم . . ولقد فهمتم أنتم . . فما هو جوابكم ؟ . .

ـ ٩ ـ

صبت عيني في طبق معدني كبير الحساء المغلي الذي في الحلة . . انه حساء بالشعيرية المفتتة والخضار . ولا شيء غير هذا . . لا خبز .

لم يكن عندها خبز .

صاح عمر :

ـ أهذا كل شيء ؟ . . حساء بلا خبز ؟ . .

كان عمر واقفاً عند فرجة الباب ، مباعداً ساقيه ، ينظر إلى المائدة والطبق الذي تفوح منه رائحة الفلفل الأحمر . . وقدامه أمه وعيوشة ومريم .

وردد يقول في غضب وحسرة هذه المرة :

ــ أهذا كل شيء ؟ . .

قالت عيني :

ــ لم يبق عندنا خبز . الخبز الذي جاءتنا به لالا نفد منذ أمس . .

ــ فكيف نأكل الحساء يا أمي ؟

ــ بالملاعق !

وانغمست الملاعق في الطبق فلم يلبث عمر أن قرفص إلى جانب الآخرين .

إنهم يلغون صامتين ، في إطراد يشبه أن يكون آلياً ، الحساء الذي يسلق أفواههم بمرقه الساخن كانوا يشرقونه شرقاً ويبلعون ، فيحسون بدفء طيب ينساب في أجسامهم . إنه لذيذ ، حساء الشتاء . .

ــ على مهلك يا بنت . .

ــ من ؟ . . أنا . .

سألت عيوشة هذا السؤال وهي تنتفض . وغصت بالحساء ، بينما تخضب وجهها بالحمرة من المرق السخي . ولكن ذلك لم يحملها على التوقف عن تناول جرعات كبيرة بملعقتها . وقالت :

ــ أنظري إلى يا مريم . .

فقالت عيني عندئذٍ لمريم مهددة :

ــ ليس الطعام لك وحدك يا مريم .

وأضافت عيوشة تخاطب أختها :

ــ كلي الطعام كله إن شئت ! . .

فرفعت مريم رأسها ، وهي صغراهم ، فرأتهم جميعاً يحدقون إلى بياض عينيها . فخفضت رأسها .

إن الفلفل الذي تضيفه عيني إلى الحساء بهاراً يلذع ألسنتهم . يشربون ، ثم يشربون ، ثم يشربون ، فتنتفخ بطونهم . من أجل هذا إنما تصنع عيني حساء كهذا الحساء .

سرعان ما نفذ الحساء القليل الذي وضعته عيني على المائدة فأصبحت الملاعق لا تقحف إلا قاع الصحن .

إن جوعهم يستيقظ الآن . إن هذا الطعام اللاذع الذي التهموه قد أثار جوعهم .

تخاطف الأولاد الصحن ، وراحوا يجففونه في همة ونشاط . استطاعوا أن يحصلوا على بضع

قطرات أخرى من الحساء . وكان لا بد لهم بعد ذلك من الاستعانة بالماء ، يملأون به معدهم . فمالوا على القادوس الكبير الذي كان موضوعاً إلى جانب عيني ، فأكملوا بمائه شبعهم .

وحين رأتهم عيني يقتربون ، أوصتهم بقولها :

ــ تمخطوا أولاً يا أولاد .

وسرعان ما ابتعدوا عن المائدة ، وزحف كل منهم إلى ركنه . ثم تمددوا على الأرض واحداً بعد الآخر . وخيم الصمت في الغرفة .

كانت عيني جالسة على جلد خروف ، باسطة ساقيها أمامها .

انقضت بضع دقائق على هذه الحال . وأفاقت عيني من تأمل لا موضوع له ، فسألت عيوشة أن ترفع هذه المائدة بسرعة .

ــ دائمًا أنا . . ليتني أموت . . عسى أن أرتاح بعد ذلك .

قالت عيوشة ذلك ، وطلبت من مريم أن تساعدها في رفع المائدة .

أمسكت البنتان بالمائدة ، ومضتا بها إلى المطبخ . . الصغير تتقهقر وعيوشة تدفعها أمامها .

إن سكان البيت يقبعون الساعة في غرفهم : دار سبيطار تستريح في هذه الفترة من النهار . هذا وقت القيلولة . يكاد المرء يحس في هذه الأيام الأولى من شهر آذار ، انه في فصل الصيف .

كل واحد في الغرفة قد أوصد نفسه على فكرة شخصية .

كانت عيني تقول لنفسها :

ــ لا شك أن بطوننا واسعة جداً .

لقد رقدوا جميعاً دون أن ينظر بعضهم إلى بعض . كانوا يقولون لأنفسهم : وجوه كلاب . وجوه نحس . وجوه صفراء .

انهم في الأيام الأخرى التي يعلمون أن ليس عندهم فيها ما يأكلونه ، يتمددون على غطاء أو على جلد خروف ، أو على الأرض ، أو على البلاط . . دون أن يسألوا عن شيء ، فهم يلزمون صمتاً عنيداً ، فإذا جاء وقت الطعام ، تظاهروا بأنهم يجهلون ذلك . وكانت مريم تبكي قليلاً في بعض الأحيان .

إنهم في سائر النهار أقل جهامة : : حتى إذا اقتربت ساعة الطعام ، عاودهم شاغلهم الوحيد . فانقطعت مريم وانقطع عمر عن اللعب ، وارتسمت على وجوههم معاني الغضب .

كانت عيني ، فيما مضى من زمان ، تستطيع أن تهدئهم بحيلة ماكرة : كانوا يومئذٍ صغاراً .

كان يكفي أن يكون عندها قليل من فحم ، عند المساء ، حتى تملأ الحلة ماء ، وتدع الماء يغلي على النار ، وتطلب إلى أولادها الذين ينتظرون بفارغ صبر ، أن يهدأوا قليلاً . انها تقول لهم

من حين إلى حين :

ــ اصبروا قليلاً .

فكان الأولاد يزفرون زفرات اذعان . وكان الوقت ينقضي .

ــ سيكون الطعام جاهزاً بعد لحظة .

وفيما هي تقول لهم ذلك ، يغلبهم نعاس لا حيلة لهم في دفعه ، فتطبق أجفانهم بثقل كأنه ثقل الرصاص . وكانوا ينامون . . ثم يغرقون في سبات عميق . . إن صبرهم لا يمكن أن يدوم مدة طويلة . . نعم كانت الحلة لا تحوي إلا ماء يغلي .

وكانت زليخة ، التي تسكن تحت ، تلجأ إلى هذه الحيلة نفسها مع أولادها . . وهم أربعة صبيان لا يكادون يقوون على الوقوف على أقدامهم الرخوة . كان الخبز يعوزها في أحيان كثيرة ، كما كان يعوز عيني . وكانت تصرخ قائلة لأبنائها :

ــ ماذا تريدون مني ؟ ماذا تريدون من هذه المسكينة ؟ انكم تجلبون لي العار . أين عساي أبحث لكم عن خبز ؟

وكانت تتناول عندئذٍ قبضة من الفاصوليا الجافة ، فتقذفها لهم في أرجاء الغرفة ، فيرتمي الصغار على الأرض يبحثون عنها ، حتى إذا عثر أحدهم على واحدة من تلك الحبات البيضاء المبعثرة ، راح يقضمها . وكان الصغار يهدأون ، وكانت الأم تنعم عندئذٍ بالراحة إلى حين .

ــ هيه ؟ تغديتم ؟

سألت الجارة هذا السؤال وهي تقف على درجة المدخل . فأجابتها عيني بقولها :

ــ لا تقولي ، يا عزيزتي زينة ، أننا تغدينا ، بل قولي أننا خادعنا الجوع . نحن نتمنى لو نتغدى ، طبعاً نتمنى . .

قالت عيني ذلك ، وبدا عليها أنها تغرق في تفكير عميق . أكانت كلمات الجارة هي السبب في ذلك !

ثم أردفت تردد :

ــ اننا نقضي وقتنا في خداع الجوع .

وضحكت في صمت .

فعلقت الجارة على كلامها تقول :

ــ وتسكتون الجوع ، أليس كذلك ؟ هذا ما نفعله نحن كل يوم . .

لا شك أنها أرادت أن تقول انها معتادة على هذا هي أيضاً .

وتابعت عيني كلامها دون أن تنتبه إلى ما كانت تقوله زينة :

ــ كان بودنا لو نأكل في هذه الساعة أكثر مما أكلنا . . نعم . اننا لا نصل حتى إلى قليل من

الفول أو البازاليا ، مع أنها لا تكاد تكلف شيئاً في هذه الأيام .

فأمنت الأخرى على كلامها تقول :

ــ من ذا الذي لا يتمنى أن يحصل على شيء من الفول أو البازاليا .

ثم تابعت :

ــ ان ابني حمادى يعمل . ولكن ذلك لا يجعل الأمر أسهل في الحقيقة . .

قالت عيني :

ــ أما عندنا يا أختي فأنا التي أعمل للأسرة كلها . آه . . يا ما رأيت . . يا ما رأيت . .

كانت هذه الجارة تصطنع الأدب والتهذيب دائمًا ، وكانت تعامل عيني بمزيد من التوقير والاحترام أيضاً .

قالت :

ــ وأنا ؟ أتظنين أنني لم أر شيئاً ؟

أخذت زينة تتحدث بلهجة البوح والافضاء ، ولكنها ما لبثت أن توقفت عن الكلام . انها تتردد . لا لأنها انتهت من الحديث ، بل لأنها نظرت إلى عيني وصغارها فرأت أن لهم نصيبهم من الشقاء .

ــ انهم ثلاثة رجال ، أولادي . والنساء ثلاث أيضاً : أنا وابنتاي . وليس بيننا إلا واحد يأتي بطعام إلى المنزل . ولكن ابني الثاني هذا لا يستطيع أن يطعم خمسة أشخاص ، رغم كل ما له من قوة . الذين لا يعملون لا بد لهم من ذلك أن يأكلوا .

لم يكن يسر زينة أن تزعج جيرانها بهذا الحديث . وودت لو أنها لم تنطق بهذا الكلام الزائد . وودت لو يمنعها أحد عن هذا الحديث ، لأنها لم تكن تستطيع أن تتوقف عنه من تلقاء نفسها .

قالت عيني محتجة ، وهي تحاول أن لا تقل عن جارتها أدباً ولباقة :

ــ اسمحي لي . . لو كنت في مكانك لما قلت هذا الذي تقولين .

كان الأولاد الراقدون على الأرض ساكنين ، لم تنفرج شفاههم عن شيء ولا قاموا بحركة من الحركات . كانوا يسمعون الحوار خفية . ونهضت عيوشة قليلاً ونظرت إلى المرأتين ، ثم عادت إلى وضعها .

أجابت الجارة :

ــ لك ما تشائين ، والأمر في النهاية واحد . .

قالت عيني تعتذر :

ــ ذلك انني صريحة ، أعلن ما يجول بخاطري ، وأعبر عما يعتلج في قلبي . أظن أن من

واجبي أن أقول لك أنك ظالمة قليلاً .

قالت الجارة مؤ يدة :

ــ انني لمعجبة بك أشد الاعجاب . انني أعرف ما تقومين به من عمل مرهق . وأنت في الحق فخر أسرتك وأنت نجدة لها من السماء . انك أنت المعيل للأسرة . فعلى الذين يعيشون معك ، على الذين يعيشون من عملك أن يعتزوا بك . . انني لمعجبة بك أشد الاعجاب . .

ــ نعم ، أنا التي أعمل هنا لجميع أفراد الأسرة . . وهأنت ذي ترينهم بأم العين . . كانت الكبرى لا تزال تبول على نفسها حين تركهم ليْ أبوهم .

قالت عيني ذلك ، والتفتت تشير إليهم باصبعها . أحس عمر أن هذا الذي تتحدث عنه أمه للجارة هو معجزة الدنيا . ونهضت عيني ، ربة هذا العمل وصاحبته ، والتمع في عينيها شعور حقيقي بالزهو الخيلاء . وابتسمت في تواضع .

أضافت عيني تقول :

ــ قلت انني أعمل من أجلهم . صحيح . ولا شك أنني أتعب وأتحطم ، وأكسر رأسي تكسيراً . . ولكن هذا رزقهم . رزقهم الذي يحق لهم . يجب أن يصل حتى إلى أفواههم . ما من أحد يستطيع أن ينتزعه منهم .

هل كسر الخبز اليابس التي تهبها لهم الخالة حسنة من حقهم أيضاً ؟ قلب عمر هذا السؤ ال على جميع الوجوه ، ولم يستطع أن يجيب عنه . لا بد له أن يصدق ذلك : وإلا فكيف يفسر أن لالا تجيء من تلقاء نفسها ، في كل يوم من أيام الخميس ، وهي ذاهبة إلى المقبرة ، لتحمل إليهم هذه الكسرة من الخبز اليابس ؟ .

كانت زينة تصغي إلى الحديث ، وقالت لها عيني في توقير :

ــ من أجل هذا قلت أنك ظالمة قليلاً . فأنت وأولادك إنما تأكلون ما قسم لكم .

أجابت الجارة الطيبة :

ــ صحيح . . ولكن الانسان كثيراً ما ينسى هذه الأمور .

ــ وإذا نسي يئس .

أحس الصغار إحساساً غامضاً باعتزاز بأمهم .

وعادت عيني تردد :

ــ أنا التي أعمل . واني لأفني في ذلك دمي . ولكن هذا واجب .

لا أشك في ذلك . ألم أقله دائمًا ؟ أنك إمرأة شجاعة ، نشيطة : أنت تتولين بنفسك عجن خبزك ، وصنع كسكسك ، وغسل غسيلك . إنك تعرقين في سبيل أن تعيلي أولادك .

ومضى وقت . واستأنفت زينة تقول :

ــ ولكنني أعتقد أننا ، وإن استمتنا في العمل . .

نهضت عيني ، وحملت جلد الخروف الذي كانت جالسة عليه ، وقعدت إلى جانب جارتها ، كتفاً إلى كتف وقالت :

ـ لن نصل إلى ذلك ، فلسنا نملك من القوة ما يكفي لهذه المهمة .

وسألت عيني :

ـ ذلك لأن . . ماذا قلت ؟ .

ـ القرش أبعد منالاً من أن نصل إليه ، نحن المساكين . وقد نتعب حتى تتحطم عظامنا من التعب ، دون أن نصل إليه . أما إذا لم نعمل . . هه . . تريدين أن تعملي لكي تأكلي ؟ انتظري إلى غد . . هذا ما يقولونه لك دائمًا . . والغد لا يأتي أبداً . .

قالت عيني :

ـ صحيح .

كانت تبذل جهوداً واضحة من أجل أن تفكر . لم تكن قد توصلت بعد إلى تحريك أفكارها .

هتفت عيني تقول :

ـ هذا ما يجب أن نعرفه .

فأجابت الجارة موضحة :

ـ كان المرحوم زوجي يقول ذلك . وكان يحاول أن يشرحه للآخرين : فكانت النتيجة أن ألقي في غياهب السجن . كم مرة ومرة .

ـ ألأنه كان يقول هذا الكلام ؟ .

ـ نعم لا لشيء آخر غير هذا الكلام . .

ـ لا يلقى امرؤ في السجن لأنه يقول كلاماً صادقاً .

ـ قولي . . لماذا جاء إلينا في هذا الصباح رسل الشقاء هؤلاء ؟ ألم يجيئوا للقبض على حميد سراج ؟ .

قالت عيني تشتم :

ـ بلية من السماء . . لعنهم الله جميعاً ، ولعن من أرسلهم . .

ـ هل حميد قاطع طريق ؟

لم تجد عيني ما تقوله .

قالت زينة تشرح :

ـ لم يعد عاراً أن يذهب امرؤ إلى السجن في هذه الأيام . وإذا ألقي هذا الرجل في أعماق السجن ، فإنه لفخر أن يذهب إليه بعده من يذهب .

ـ زينة ، أختي . .

ـ أقول لك الحقيقة . .
ـ الذي أخافني أنا ، إنما هو السمين القصير .
ـ هو المفوض . هل لاحظت ؟ أن له عينين تأباهما الوحوش .

ظهر الاستغراب في قسمات عيني ، حتى صار وجهها في هذه اللحظة أشبه بوجه فتاة صغيرة . قالت بصوت خافت :

ـ إننا نرى كم يقاسي رجالنا . .

قالت الجارة مؤيدة :

ـ كان زوجي مثل حميد . لا بد أن حميد قال بعض الأشياء . لا شك أنه قال أشياء كثيرة .

ان زينة هي التي جاء دورها لتبدو مزهوة . ولكنها ظلت ساهمة . ودت عيني لو تنتهز هذه الفرصة لتعود إلى الموضوع الأول الذي كان يدور عليه الحديث . لم تنس هي الأخرى زهوها .

ولكن المرأتين أخذتا تفكران معاً في حميد . ترى ما الذي سيقع له بعد أن جاءت السلطات تبحث عنه ؟ .

في الأوقات الأولى ، لم يشعر أحد بوجود هذا الرجل ، الذي لا يزال شاباً . لقد سكن هذا البيت منذ قليل . تم مجيئه إلى هذا المنزل بغير ضجة . لم يسمعه أحد يتكلم . كان لا يظهر نفسه إلا في كثير من التحفظ ، وقد عد ذلك منه آية من آيات التهذيب . شيء غريب . لقد كان يلتزم الصمت ، وحقاً لم يكن ينتبه إليه أحد . ولكن حين عرف في المنزل أنه آت من تركيا ، انصبت الأعين كلها عليه حتى لكأن كل فرد يستغرب كيف لم يلاحظ فيه ذلك من قبل .

كان مظهر حميد سراج ينم عن سنيه الثلاثين . ورغم البساطة التي تضفي على وجهه معاني السذاجة والطيبة ، لم يكن بالمرء من حاجة إلى ملاحظة مرهفة حتى يدرك أنه رجل رأى كثيراً ، وعاش كثيراً ، كما يقال . كان في هيئته هدوء وحزم ، على غير استخفاف مع ذلك . كان يتكلم بصوت خافت جميل الوقع في الأذن ، بطيء بعض البطء . وهو قصير القامة ، ولكنه ممتلىء الجسم .

ان المرء يتوقع أن تكون استجاباته سريعة، وأن يكون كلامه متدفقاً طلقاً . حتى إذا رأى مشيته البطيئة ، وحركاته الثقيلة القوية ، وسمع صوته المتحفظ ، شعر بشيء من الاستغراب . ان حياته تبدو لمن يقاربونه ملأى بالأسرار . لقد أخذ إلى تركيا وهو لا يزال صبياً صغيراً في الخامسة من عمره ، وذلك أثناء الهجرة الكبرى التي جعلت عدداً كبيراً من الناس في بلادنا يهرب إلى تركيا ابان حرب ١٩١٤ ، حين جعل التجنيد إجبارياً .

وفي تركيا اختفى حميد سراج وهو في الخامسة عشرة من عمره ، لا يعرف إلا الله أين اندس . وغاب بضع سنين ، دون أن يرسل شيئاً من أنبائه لا لأبويه ولا لأخته الوحيدة التي بقيت

في الجزائر . وعادت أسرته من تركيا دون أن تعرف شيئاً عن المصير الذي آل إليه .

وفي ذات يوم ظهر . وأخذت الشرطة تراقب روحاته وغدواته .

إن أغرب ما فيه هو تعبير عينيه الخضراوين ، الصافيتين أشد الصفاء ، اللتين يبدو أنهم تنفذان في الناس والأشياء نفاذاً عميقاً . وكان صوته ، حين يتكلم ، يثبت الكلمات التي يلوح أن نظرته الغريبة تقرؤ ها في الأفق البعيد . . . ان غضونا تخدد وجهه منذ الآن ، وان شعر رأسه يتساقط ، فيتسع من ذلك جبينه ، ويبدو عالياً علواً كبيراً .

كان يندر أن لا يرى المرء في جيوب سترته العريضة القديمة الرمادية كتباً كانت أغلفتها وصفحاتها تنفصل ولكنها لا تضيع ، لأن حميدا لا يدعها تضيع أبداً . وهو الذي أعار عمر ذلك الكتاب الذي عنوانه « الجبال والرجال » . فراح الصبي يفك رموزه في صبر واناة ، صفحة بعد صفحة ، دون أن تخور عزيمته ، واحتاج إلى أربعة أشهر لإتمام قراءته .

كانت الجارات تسألن في أول الأمر :

ــ أين تعلم القراءة ؟

ثم يضحكن مقهقهات . فتجيبهن فاطمة ، اخته ، بقولها :

ــ تعلم القراءة بنفسه ، وحده . . . فإذا كنتن لا تصدقن ذلك ، فما عليكن إلا أن تجئن لترين . .

فكن يقتربن من عتبة الباب ، فتمد الطلعات منهن رؤ وسهن وراء تقويرة الستارة التي تغطي الباب ، ثم يتراجعن بسرعة خجلات ، في الليل إنما كان يقرأ حميد سراج على ضوء مصباح صغير . ان الليل هو فترة الهدوء . ان جو الهياج في دار سبيطار يتطامن منذ الساعة الثامنة من المساء . ان المرء ينتظر هذه اللحظة ليتنفس الصعداء .

في هذه اللحظة كانت النساء تمضي تتلصص على حميد في كثير من الأحيان . انه ما ينفك يقرأ . وكن يرجعن من هذا التلصص راكضات ، بحركات كأنها حركات سرب من الطيور روع . . وأثوابهن تحف حفيفاً كبيراً .

ــ نعم ، صحيح . .

ــ رأيناه بأعيننا .

وكن يضحكن لا لأن شكا يراودهن الآن بل لأنهن يرين أنه أمر مستغرب أن يقرأ رجل كتباً . لماذا ينفرد هو بهذا ، بين جميع الرجال الذين يعرفنهم ؟ .

هذه الكتب الكبيرة ذات الصفحات الكثيرة المطروسة باشارات مرصوفة سوداء صغيرة ، كيف يمكن أن يفهم منها المرء شيئاً ؟ .

قالت إحدى النساء لفاطمة :

ـــ غريب أخوك يا فاطمة . انه ليس كرجالنا ؟ فلماذا ؟ لعله يريد أن يصبح عالماً؟ .

فانفجرت النساء ضاحكات مقهقهات .

ولكنهن شعرن نحو حميد بمزيد من الاحترام ، شعرن نحوه باحترام جديد لا يستطعن هن أنفسهن أن يفهمنه ، احترام يضاف إلى الاحترام الذي يشعرن به فطرة تجاه كل رجل . أصبحن ينظرن إلى حميد نظرتهن إلى رجل يملك قوة مجهولة . وتعاظم الاعتبار الذي يتمتع به حميد في نظرهن تعاظمًا لا يكاد يتصوره الخيال .

وكان أزواجهن يحيون حميد باحترام كبير أيضاً . ان العلم يتمتع في بلادنا بتقديس عظيم ، تقديس يبلغ من العظم أن أناساً من أدعياء العلم يستغلونه بسهولة ، كما يستغله أناس من أدعياء النبوة .

وكان حميد لا يلاحظ شيئاً من هذا كله ، كما لم يلاحظ ، في الأيام الأولى ، فضول النساء .

كان سكان دار سبيطار لا ينتبهون إليه حتى ذلك الحين إلا انتباهاً غامضاً متسلياً (على أن الحق يقتضينا أن نذكر أنصافاً لهؤلاء الناس البسطاء أن ذلك الانتباه لم يكن فيه شيء من الانتقاص لاحترام الرجل أبداً) . اني لأذكر أن فضولهم (والفضول لم يعوزهم حقاً) لم يشتمل يوماً على سوء .

غير أن ثمة سؤالاً كان يشغلهم حين يجيء ذكر حميد ، وهذا السؤال هو : لماذا يقرأ حميد هذه القراءة كلها ؟ ولم يستطيعوا يوماً أن يأتوا بجواب شاف عن هذا السؤال .

تابعت زينة كلامها تقول :

ـــ طبعاً ، كان مثل حميد سراج .

ولم تتح لعيني أن تقول كلمة واحدة . كانت تتحدث بدون أي مراعاة ، فإذا هي تطعن كرامة عيني ، على غير شعور منها .

وكررت تقول :

ـــ مثل حميد تماماً . . يدخل ، ويخرج ، ولا يلاحظ شيئاً ، ذلك كل ما كان يجيده . كان لا يعرف الراحة .

وأظلم وجهها . وشيئاً فشيئاً اتقد فيها غضب أصم . ولكنها كانت لا تستطيع مقاومة تعبها .

ـــ كان رجلنا لا يأكل ولا ينام ، مثل حميد ، كان لا يحيا إلا من أجل هذه الاجتماعات ، كان لا يعيش ، لأنه كان لا يفكر إلا في هذا . كنا نبقى أياماً وأسابيع لا نراه في البيت . وكنا لا نستطيع أن نقول له شيئاً . كان لا يتكلم كثيراً ، وكان كلامه يقل يوماً بعد يوم . كنا لا نجرؤ أن نقول له أن خبزنا نفد . كان يتألم . وكان في بعض الأحيان يأخذ يتكلم . كان كلامه عندئذٍ أشبه بالماء يتدفق في مجرى صخور صلبة . كان يتكلم . . ويتكلم . . وكنا لا نفهم دائمًا . ومن

نحن ؟ ما أنا إلا إمرأة مسكينة . . إننا لم نتعلم ، ولم نهيأ للفهم . وكان يعود من اجتماعاته السرية متبدلاً . ان في رأسه فكرة تعذبه . وكنا في بعض الأحيان نلاحظ في عينيه معنى من معاني النصر . كان ذلك شيئاً رهيباً . كانت له لحظات . وكان عندئذٍ لا يستطيع أن يمسك نفسه عن الكلام ، فيدمدم قائلاً : « انتصرنا عليهم . . اضطروا إلى الرضوخ » .

فكنا نقول : « أي انتصار تعني ؟ » . فلا يجيب . . لا يضيف على ما قال كلمة واحدة . ويعود يغرق في التفكير . ظننا في أول الأمر أنه يشرب أو يعاشر . ما أكثر ما تخيلنا ! ولكن لا . . وكنا نؤثر أن يكون ذلك هو الواقع . . في حقيقة الأمر . . كنا نؤثر أن يعاقر أو يعاشر بدلاً من تلك المناقشات في قيعان الدكاكين والمقاهي والبيوت في الأحياء البعيدة . ثم أصبحنا نخاف منه . . بدأت الشرطة تسأل عنه . ولكنا لم نجرؤ أن نفتح أفواهنا بكلمة . وما عسانا نقول له ، يا أختي عيني ؟

كان يرى أننا نموت جوعاً . . وهو امرؤ يفهم أشياء كثيرة . . كثيرة جداً . كان هو الذي يدل الناس على طريقهم . كان الناس يأتون إليه يلتمسون النصح . أما فيما يتصل به هو ، فكان غارقاً في الظلام . كان يقول : « هذه الاجتماعات ، هذه الروحات والغدوات ، هذه الغيبات الطويلة ، إنما هي من أجل حياة أفضل » . وما دام الأمر كذلك ، فهل كان في وسعنا أن نمنعه من أن يفعل ما يريد ، خاصة وأنه في سبيل تبديل حياة الناس الفقراء ، وفي سبيل جعلهم سعداء . وما كان أشد غضبه حين كنا نقول له أنه ينخرط في هذه الأمور أكثر مما ينبغي . . كان يريد أن يقلب العالم ، لو أوتي القدرة على ذلك أو يموت . . أو ما لا أدري أيضاً . . يا لي من إمرأة تعيسة . . كنا لا نفهم شيئاً من هذه الأمور . كنا ندعه وشأنه ، ونصمت . وحين كان الأولاد يبكون لأنهم صائمون لم يذوقوا طعاماً منذ أمس ، كنت أحس أنني على وشك الجنون . ان هؤلاء الذين ترينهم الآن كباراً ، لم يكونوا يومئذٍ إلا جش شعير . كيف أحملهم على الصبر ؟ كنا قد بعنا كل شيء ، وأصبحنا لا نملك شيئاً . . ثم ذهب .

انه ، حين مات ، لم يترك لنا ما نأكله في الليلة الأولى بعد موته .

كان في لهجة زينة ، في آخر الحديث ، من وقار الصوت ، ما أوجد في الغرفة جواً غريباً من الصفاء ، عدا ما كان في هذه اللهجة من أصداء تعب لم يهدأ .

ــ وطبعاً لم يكن السبب في أن زوجي بقي بلا عمل ، هو أنه بلا قوة أو بلا كفاءة . . وإنما كان السبب هو أن له أفكاراً تتدفق في رأسه .

ــ طبعاً ذلك هو السبب .

كانت عيني قد أصغت إليها صامتة طوال تلك المدة .

فقالت :

ــ لا أشك في أنه كان ذا قوة وكفاءة .

ــ كانت له أفكاره . لم يكن ثمة ما نأخذه عليه . كان يريد أن يسير على ما تمليه عليه

أفكاره ، وحافظ دائماً على شرفه وكرامته . لم يكن ثمة ما نأخذه عليه .

قالت عيني :

ــ إذن لم يكن الذنب ذنبه .

وعادت إلى الصمت .

ــ طبعاً . . لا . . من ذا الذي قال أن الذنب ذنبه ؟

ــ إذن كان الذنب ذنب من ؟

ــ تسألينني الذنب ذنب من ؟

ــ نعم ، الذنب ذنب من ؟

ولم تستطع المرأتان أن تبعدا هذا السؤال الذي طرحتاه خلسة ولا أن تجيبا عنه وتوضحاه .

وثنت عيني ذراعها تحت رأسها . . ثم لم تصبر على هذا الوضع . فتمددت حيث هي ، في المكان الذي كانت جالسة فيه تتحدث إلى جارتها ، وأخذت تنظر إلى السقف حائرة .

ونهضت الجارة تريد أن تذهب . فهزت عيني كتفيها قليلاً وقالت :

ــ روحي ابحثي كان الذنب ذنب من ؟

فأدارت الجارة ظهرها ومضت وهي تهز رأسها .

ــ ١٠ ــ

منذ فتشت قوى الشرطة دار سبيطار ، لم يطرأ أي حادث جديد يعكر حياة البيت الكبير . كان حميد سراج يستدعى إلى القسم كثيراً ، وأصبح ذلك أمراً مألوفاً .

ووصل الربيع ببطء ، فاطلع أولى الأوراق النحيلة الراعشة في شجرة الكرمة التي كانت أغصانها المتشابكة تكلل فناء البيت .

وإلى دار سبيطار نفسها تسللت عذوبة حادة خفية بين الجدران القديمة الرمادية ، ومضت تعتصم بقلوب السكان . ان الناس في دار سبيطار لم يدركوا حقيقتها فوراً . ولكنه الربيع . كانت أول الأمر شيئاً يسيراً ، ثم تعاظمت حتى لكأنها مقدار رائع من الخبز .

وجاء شهر آب ببياضه الخانق فحل محل أضواء الربيع . ان عمر الآن في إجازة الصيف: ثلاثة أشهر لا يقرب فيها المدرسة .

تشبه دار سبيطار أن تكون بلدة . رحابها الواسعة جداً تجعل من المتعذر على المرء أن يقول

ما عدد السكان الذين تؤ ويهم على وجه الدقة . حين شق قلب المدينة ، وأقيمت شوارع حديثة ، حجبت العمارات الجديدة وراءها تلك المباني القديمة المبعثرة التي بلغت من تراصها انها تؤلف قلباً واحداً : المدينة القديمة . ودار سبيطار الواقعة بين طرق ضيقة صغيرة متلوية كأغصان النبات المتعرش ، كانت لا تبدو للناظر إلا قطعة من ذلك القلب الواحد .

انها بيت كبير عتيق ، موقوف على سكان همهم الأكبر اختصار النفقات . واجهة ليس فيها شيء من تناسق ، تطل على الشارع الضيق الصغير ، وبعد الواجهة رواق المدخل وهو رواق عريض مظلم ، أخفض من الشارع ، وهو ينعطفّ حتى يحجب النساء عن أبصار المارة . ويتصل الرواق بفناء على الطراز القديم في وسط بركة ماء . وفي الداخل تزيينات كبيرة على الجدران : قيشاني أزرق ذو أرضية بيضاء ، وعلى صف من أعمدة من الحجر الأسود تقوم في جهة من الفناء دهاليز الدور الأول .

كانت عيني وأولادها يسكنون بعضهم فوق بعض ، كسائر الناس هنا . ان دار سبيطار ملأى كخلية نحل . وقد انتقلت الأسرة من بيت إلى بيت عدة مرات . وكانت في كل مرة تقع على مسكن كهذا المسكن ذي حجرة واحدة .

كانت الخالة حسنة تزورهم في صباح كل يوم من أيام الخميس .

وفي الوقت نفسه كانت توافيهم منصورية التي يطلقون عليها جميعاً اسم بنت العم الصغيرة .

ان منصورية تفاجىء الجميع هكذا ، هؤلاء وأولئك ، فيجلسونها ، وتأكل ما تجد من طعام .

أما الجدة ، فإن الأشهر الثلاثة التي يجب أن تقضيها عند عيني قد انقضت منذ زمان طويل . ولكنها قد تركت لعيني منذ ذلك الحين . فقد رفضت بنتاها استردادها . قالوا حين جاءت لحظة أخذها أنه ليس من الحكمة في شيء تنقل العجوز المسكينة من بيت إلى بيت دائمًا . فإنها قد ضعفت ، ولن تعيش طويلاً ، وأبسط وسيلة هي أن يعيلوها وهي عند عيني ، ما دامت موجودة عندها الآن ، إذا هم أرادوا أن يرحموها . سيجيئونها بطعامها ، وسيعنون بها ، وسينظفونها . قالوا لعيني :

ــ لن ينقصها شيء ، سترين . لسوف تكون كأنها عندنا . لن تزعجك ، ولن يكون عليك أن تنفقي من أجلها شيئاً .

هذا ما قالوه . ولكن منذ اليوم الذي استقرت فيه الجدة عند عيني ، انضمت إلى الأفواه الثلاثة التي كان على عيني أن تطعمها .

ومن حين إلى حين كانت تأتي هذه البنت أو تلك من بنتيها الأخريين فتظل تبكي ثلاثة أرباع الوقت ، وتظل تندب هذه الحياة الحزينة ، ثم تمضي إلى شأنها دون أن تفعل شيئاً . وكانت عيني

تقرص أختيها بكلام يمزق القلب ، وتعيرهما على مسمع من جميع النساء ، فما تعرفان كيف تسكتانها ، وترتعشان وتحاولان أن تهدئاها :

ــ اسكتي يا عيني ، اسكتي يا عيني . الجارات يسمعن كل شيء .

ــ أنا إنما أقول هذا الكلام ليسمعنه .

وتصرخ في مزيد من القوة .

ولم يكن هذا ليصلح الحال كثيراً ، ولا شك أن عيني كانت تفهم ذلك ، ولكن المشاجرة على هذه الصورة كانت تسري عنها قليلاً . وبعد فترة من الوقت أصبحت أختاها لا تزورانها ، أما الأخ فأمره أيسر : انه لم يضع قدميه في بيتها مرة واحدة .

وكان عمر لا يزال يذهب إلى المدرسة « الفرنسية العربية » ، ولكنه كان يتخلف باطراد ، فكانت عصا المعلم تهوي على راحتيه ، ومأبضيه ، وظهره ، فتلذعه لذعاً .

في ذلك النهار ، فاجأه الفجر نصف نائم : كان الضياء الطري الجديد يتسلل إلى البيت الكبير . ان الفناء والحجرات والسلالم والأورقة تشكل مجموعة غريبة معقدة تزخر بالضجة متى طلع الضياء . ها هو ذا أحد الأبواب في الطابق الأعلى ينفتح . ثم يسود الصمت . . وتنقضي دقيقة . . دقيقتان . . ويظل الصمت مخيّماً إلى أن يهتز على حين فجأة باب المدخل الذي يستند إلى إطار من الخشب غير محكم التثبيت في الجدار . زقزق الباب في أول الأمر ، ثم انفتح أخيراً . وبلغت قوة رده انه قرقع قرقعة هزت أعماق البيت :

لقد خرج مولاي عليّ أول الخارجين . ان مولاي عليّ عامل من عمال شد « الفرامل » في قطارات البضائع على خط تلمسان ـ عوجا . وبعد أن خرج أخذت خطوات متفرقة كثيرة تقرع بلاط الفناء . وانطفأت أصوات . كان الباب الخارجي لا ينفك ينفتح ويغلق منذ تلك اللحظة . كثيرون تركوا المنزل الواسع . ذهبت يمينة بنت سنوسي إلى سوق الغزل تبيع رطلي الصوف اللذين غزلتهما في الليلة البارحة . وخرجت من البيت أيضاً ابنتها عمارية ، وصالحة بنت نجار . انهما تعملان في مصنعين من مصانع السجاد . ومضى خمسة صبيان أو ستة إلى مغازل بيبنير .

لقد انشق نوم دار سبيطار بضربات فأس ، واستقر النهار فقيراً في جسوم السكان . كانت النساء تود لو تظل راقدة . . بسيقانها التي يرثى لحالها . .

وانطلقت أصوات النساء وصيحات الأطفال من كل مكان . وبدأت الأحاديث وضجات نضح الماء ، واللعنات الأولى . .

تمنى عمر لو يطول النوم . كان يريد أن ينام . وكان يظن أنه نائم . ان الأركان المعتمة من الغرفة ، التي لا يزال يتلفف فيها الظلام ، تتحرك في رفق . الأجسام تترك النوم وهي تئن ، ومنها تفوح رائحة قديمة ، رائحة دخان ثقيل حاد . لقد تقدم الضحى ، فما يمكن أن يستمر المرء في النوم مطمئناً . ان النهار يقف بالمرصاد على كل باب .

فوجىء عمر بسماع صوت أمه في الغرفة . لا شك أنها تتحدث مع جارة لها ، بصوت خافت .

كانت تتحدث بلا توقف . وكان يبدو أن هذه الدمدمة الرتيبة لن تنتهي . ان في نبراتها كثيراً من الجد . ان الكلمات التي تنطق بها عيني تبدو آتية من مكان بعيد جداً ، من زمان آخر . ليس لألفاظ هذا الحديث كبير شأن . فما هي إلا ذلك النوع من الشكوى العتيدة ، التي يمكن أن يحسبها المرء دعاء يتلى . . والتي أصبحت تحاصر عمر ولا تكف عن ملاحقته وعن تعذيبه أثناء الوسن الذي يستسلم له .

وسكتت عيني ، وتكدس في الغرفة صمت لا تصدع فيه . لم يستطع عمر أن يستأنف نومه . وظلت عيناه مبحلقتين في الظلام .

وجاءت من الفناء شمس خفيفة تزاحم الظلام . وتماوجت رائحة قهوة في الهواء الطري ، هواء الصباح . ان المرأة جالسة هنالك في قاع الغرفة . . أهذا وهم ؟ كان عمر يظن أنها ذهبت . أكان يحلم ؟ ان عيني تتحدث بلا توقف . ونهض الصبي وهو لا يزال طائش اللب من النوم . فرأى الشكلين الغامضين الغارقين في عتمة الغرفة ، بينما النهار يسطع في الخارج .

كانت عيني تشد المنديل الذي يغطي رأسها . ان الحنة تصبغ شعرها الذي كان يجب أن يبدو أشهب . وأمامها يلتمع طبق من نحاس أصفر عليه بضعة فناجين من مطلى الخزف . ومن جهة عمر ، تبعثرت أغطية ملقاة ، وقطعة كبيرة من قطن أشهب ، وجلود خراف . انها لا تزال تحمل طابع الأجسام التي كانت نائمة عليها .

وبعد لحظة من انقطاع سببته حركة الطفل ، عادت المرأتان تتحدثان كلتاهما . فهم عمر أن الحديث يدور على مسألة زواج ابنة عمه . ومالت زينة على عيني فقالت لها كلاماً اضطربت له . وصمتت المرأتان ان عمر لا يفهم شيئاً . وابتعدتا برأسيهما قليلاً عن الجهة التي هو فيها .

صاحت عيني فجأة :

ــ لن يهدأ بالي إلا حين أعلم .

ــ سأقول لك كل شيء .

انهما تتحدثان عن ابنة عمه . . ثبت له ذلك شيئاً فشيئاً .

واستأنفت المرأة تقول :

ــ يظنون أن أحداً لم ير شيئاً . لقد رأوها . وأراد مراد أن يقتلها ، فجرحها . كلبة . . كلبة . .

والتفت زينة لتبصق : تفو . . فسألتها عيني :

ــ أأنت على يقين ؟ لقد سمعت بالأمر . ولكني لم أشأ أن أصدق شيئاً . يجب على المرأة أن

لا تفتح عينيها إلا لتنظر إلى رجل واحد هو زوجها . ينبغي أن نقيم جداراً منيعاً بين الفتاة وبين العالم .

كان يبدو على عيني حزن صادق من هذا الذي يقال لها . وكانت ترى أن عليها أن لا تظهر حزنها أمام الجارة . وراح عمر ينظر إلى المرأتين الجالستين ، وظل يراقبهما على غير قصد . كان يدرك أن مرضاً قد ألم بابنة عمه ، بجسمها أو بروحها ، وأن عليها أن تكفر عن اسوائها بأي ثمن .

نهض عمر ، ومضى نحو عتبة الباب ، فتلقفته أمه ، وسألته :

ــ إلى أين ؟

فأجابها :

ــ إلى المرحاض . .

وعادت عيني تتهامس مع المرأة في كثير من الاهتمام . ان هذه المرأة الثانية هي الأرملة التي تجاور غرفتهم .

هبط عمر إلى الفناء .

ان المراحيض تقع في المطبخ المشترك . وسرعان ما وقفت على باب المرحاض إحدى النساء تنتظر أن يخرج عمر . هذا مكان لا تهدأ فيه الحركة أبداً . ثقب واحد لجميع الناس . أمر لا يصدق . أخذ عمر يفكر طارداً من ذهنه صورة المرأة التي تحرس الباب منقبضة الوجه . وحين خرج اصطدم بها . فصاحت تقول :

ــ أيجب أن ينتظرك الناس نصف يوم بكامله ؟

ــ روحي اعمليها في الشارع إذا كنت لا تحبين أن تنتظري !

وفي تلك اللحظة وصلت عيوشة إلى المطبخ ، فهتفت تؤنبه قائلة :

ــ عمر . . عمر . .

ودمدمت المرأة :

ــ رأس يهودي .

ودخلت المرحاض وهي تشمر تنورتها .

وأضافت أخته تقول :

ــ ما بالمرء حاجة إلى أن يراك حتى يعرف أنك هنا .

وترددت في الهواء قرقعة أطباق تتصادم . ان الصحون تغسل في هذه الساعة من النهار . وكانت خدوج تنظف البيت ، وتسكب قواديس الماء على أرض الفناء وعلى الجدران إلى مستوى الركبة ، ثم تأخذ تحك الأرض بالمقشة في همة لا تكل .

وبينما كان عمر يجتاز الرواق ليعود إلى الغرفة ، خيل إليه أن أحداً يقوم ببعض الاشارات

وراء ظهره ، التفت فإذا هو يرى زهور . كانت زهور تحك ذراعيها العاريتين في أعماق غرفة أهلها . ان أمها هي زينة ، المرأة القصيرة التي تركها منهمكة في الحديث مع عيني . كانت الفتاة تبدو حائرة مرتبكة مضطربة أشد الاضطراب . فقرر عمر أن يبتعد . ترى أهي على أهبة الخروج ؟ وهمت زهور أن تقول له شيئاً ، ولكنه في هذه اللحظة اتجه فجأة إلى غرفته ، فلما التفت إلى الوراء مرة أخرى لينظر إليها ، غردت تقول بصوت ضعيف :

ـ عمر ، تعال ، أرجوك .

وكررت نداءها ثلاث مرات . فمضى إليها في آخر مرة . اقتربت منه . انه يحس بدفء جسمها ينفذ فيه وقد وقفت أمامه . وفجأة ضربته بركبتها ضربة قوية على حالبه . فإذا هو يصرخ صرخة صغيرة ، ويرتمي على الأرض ناشجاً منتحباً .

مالت عليه زهور وكممت فمه بيدها . ان عليه ألا يتحرك حتى لا يختنق . سكن عمر . وها هي ذي يد الفتاة تنزلق على جسمه في سهولة ويسر . وأحس بجسدها يستلقي إلى جانبه بصوت كأنه خشخشة الحرير . حبست زهور أنفاسها ، وسكنت كما لا يسكن المرء إلا حين ينام . إن رائحة سكرية دافئة تخرج منها : رائحة ثمرة ناضجة لم تمسسها بعد يد . وحاولت عدة مرات أن تدغدغ الصبي ، ولكن جهودها ظلت دون جدوى : انها لم تستطع أن تغلب التردد الذي كان يشل حركاتها . وبعد لحظة انهضت رأسها واستندت إلى كوعها . فلما مالت قليلاً على عمر لاحظت أنه كان يحدق إليها . كان الصبي يحس إحساساً خفياً بأنه مشدود إلى هذا الجسد ، جسد المرأة وقد استسلم . ان عذوبة هائلة تتجمع فيه ، ثم تستحيل أخيراً إلى إحساس بالغربة . وشعر عمر فجأة بطمأنينة لا عهد له بمثلها من قبل طمأنينة أحس أنها مألوفة له غير جديدة عليه . ولكنها طمأنينة عجيبة ، فإن عمر ما لبث أن أحس بضيق ، ثم سرعان ما صار الضيق إلى قلق وخوف .

ـ لا ، لا ، لا تبك . أنا لم أشأ أن أزعجك . أنت أخي .

قالت زهور ذلك وانقلبت عليه من جديد . وأصبح صوتها أعمق غوراً وأشد بححا . أخذت زهور تدلله ، كأن ذلك واجب يقع على عاتقها ، وكأن عمر طفل صغير . ان ألفاظاً خطيرة تخرج من فمها ، فتلف عمر وتغمره ، ولكن عمر لا يفهم معناها .

ـ كفى ، كفى ، لا تبك . لم أتعمد ذلك تعمداً ، أنت أخي .

وأخذت تهدهده . كانت كأنها تفكر في شيء آخر ، كأنها ماضية بخيالها إلى أمكنة أخرى . ان ألماً بعيداً يعود فيستيقظ في نفسها . من ذا الذي جعلها حزينة هذا الحزن كله ؟

ـ وهذه قبلة يا عمر . لن تبكي ، أليس كذلك ؟ لن تحزن ، هه ؟

قالت له ذلك ، واستندت إليه ، فانسحق ثدياها على كتفه . أحس عمر برائحتها . أعجبته هذه الرائحة ، رغم أنها ولدت فيه ميلاً غامضاً إلى التقيؤ صعد إلى حلقه ، وقلب قلبه .

غير أن ما سره أكثر من أي شيء آخر هو أنه أدخل يده في تقويرة غلالة الفتاة ، فلمس كشة الشعر الأسود الأجعد الذي تحت الابط . ضحكت زهور . ثم أخرجت يده وما كان أشد دهشتها حين قبلها الصبي بدوره ، فإذا وجهها يتجهم ، ثم إذا هي تدفعه عنها ببطء ، ولكن بقوة ، وتنهض واقفة .

ــ لا تظل راقداً هنا يا أخي الصغير . وعلي أن أسارع فأرفع الفراش لقد انقضى أكثر من نصف النهار .

إن الفراش الذي كان عمر مستلقياً عليه ، ممدود في وسط الغرفة .

ونهض عمر ، وهم بأن يمضي ، ولكن الفتاة أمسكت به ، وقالت له :

ــ أنا ذهبة إلى بني بوبلان . سيأتي صهري قره علي ليأخذني إلى هناك . لقد تحدث في هذا إلى أمي ، فأختي مرهقة بالعمل ، ويجب أن أساعدها ، فإذا شئت جئت معي ، كالمرة الماضية . . إسأل أمك هل تسمح لك أن تجيء معي .

ــ كم يوماً تبقين في بني بوبلان ؟

ــ أربعة أيام . . أظن . .

ــ ١١ ــ

أصبح عمر يخلو إلى زهور في أحيان كثيرة ، وكان في كل مرة يكتشف ذلك العالم من الحب الذي يثير في نفسه القلق . كان لا يتحدث في هذا الأمر إلى أحد . ولا شك أنه أمر خارق في دار سبيطار . ومن أجل ذلك اتخذت هذه العاطفة عند الفتى طابع السر والتخفي . وكان الحب الذي يشد عمر إلى زهور ينبت كما تنبت زهرة على صخرة متوحشة .

أخذت بكرة البئر تتحرك في المطبخ تحت . وأخذ القادوس ينزلق . ها هو ذا القادوس يرتطم بالماء . وها هو ذا صوت الماء يتموج حين يرتفع القادوس . ان ضجة مضطربة تملأ البيت . ولقد صنعت عيني قليلاً من القهوة هذا الصباح . أما عمر فكان نصيبه قطعة من الخبز . ان عيني لا تشتري القهوة إلا لنفسها حين يتوافر لها شيء من مال . وعيوشة ومريم تتحدثان بصوت عال متدفق مع غيرهما من الفتيات تحت . ولكنهما صعدتا إلى الغرفة فوراً ، واستأنفتا عملهما ، حين سمعتا أمهما تناديهما صارخة . ان صوت عيني يأخذ في الانتفاخ حاداً متوعداً مهدداً ، متى نادت ثلاث أو أربع مرات فلم يلب نداءها أحد .

ان الرجال يخرجون بكرة ، فما يرون في البيت إلا نادراً ، ولا يبقى في المنزل إلا النساء . ان الفناء الذي تغطيه أغصان الدالية المتشابكة يغص بهن . انهن يملأنه بذهابهن وإيابهن ويزحمن المدخل . أما في المطبخ فإنهن لا ينقطعن عن الثرثرة حول البئر إلى غير نهاية . وإذا كانت كل غرفة من الغرف تؤوي ضوضاء الأطفال طوال الليل ، فإنها تعيد هؤلاء الأطفال سيرتهم الأولى متى

طلع النهار ، سيلاً من الفوضى لا يوصف سواء في أعلى أو في أسفل . انهم يتعاقبون واحداً وراء واحد كأنهم القرود وقد التمعت وجوههم بالمخاط . والذين لا يقدرون منهم على المشي بعد ، يزحفون على الأرض وقد ارتفعت آليتهم في الهواء . انهم جميعاً يبكون أو يزعقون . فلا الأمهات ولا غيرهم من النساء يرين أن من المفيد أن يلتفتن إلى هذا كله . ان الصراخ الذي يفجره الجوع أو تفجره العصبية لا ينقطع سيله ، وفي وسط هذا الصراخ ترتفع في بعض الأحيان صيحات حزن ويأس . وكان كل هؤلاء الأطفال يهربون إلى الشارع .

ـ ١٢ ـ

حين دخل عمر مسرعاً ، كانت عيني تشد كوعها إلى جسمها ناهضة لاستقبال العمة حسنة . وتعانقت المرأتان : وراحت عيني ترحب بالزائرة وتدعو لها بدوام الصحة قبل أن ينتهي العناق . وراحت تطبع على خديها قبلات يصعب على المرء أن يحصي عددها ، ثم أخذت تتساقط من فمها الأسئلة المعادة المكرورة : « كيف حالك ؟ » ، « كيف حال فلان » ، « كيف حال فلانة ؟ » ، « كيف حال . . » ، وكانت الأجوبة المهيأة تنهمر في الوقت نفسه : « الحمد لله . . الله يحفظك . . » .

كانت العمة حسنة تتنفس في عناء من صعود السلم ، فلم تحاول أن ترد تمنيات عيني بمثلها . ان العمة حسنة تطفح من كل جهة . وكان وجهها السمين الثقيل يلتمع بقطرات العرق الثقيلة تسيل من تحت عصابتها المقرفة ومناديلها الخضراء وشالتها الوردية . وكانت غضون وجهها تشكل مسارب لعرقها حتى منتهى العنق . وكانت عيناها تطرفان في ألم : ان دموعاً كثيفة تنحدر من جفنيها المقرحين . وقد هرعت عيني إلى استقبالها مسرعة ، لا تدخر وسعاً في التحرك والاضطراب حولها. أما لالا (كذلك كان يسميها الجميع ، حتى عيني) فكانت لا تزيد على أن تتنفس في عناء . ولعل عيني لم تبذل من الحركة والاضطراب مع ذلك كل ما كانت تقتضيه آداب اللياقة .

ــ تعالي ، لماذا لا تدخلين ؟ اجلسي هنا .

وألقت عيني نظرات حولها ، ثم تناولت جلدين من جلود الخراف كانت مطوية نصفين ، ومنضدة في ركن من أركان الغرفة .

قالت لالا آمرة :

ــ هاتي . ولكنني ما جئت هنا لأعسكر شهوراً . لقد أتعبني الصعود كثيراً . أف . . لم يبق لي من القوة ما يمكنني من الوصول إلى هنا ، يا أختي . دعي ، دعي . يريحني القعود هنا عند الباب : لا أدري كيف تستطيعون أن تعيشوا . . أف . . أف . .

ثم أضافت وهي تهم بأن تجلس على الأرض :

ــ إذن فقد عدلت عن الذهاب إلى المقبرة عدولاً تاماً ؟

ــ ما عساي صانعة هناك يا لالا ؟ ان أعمالي كثيرة . ان الرجل الذي يمكن أن أزور قبره لم يترك لي لا مزارع ولا بيوتاً فأبكيه . من مات ارتاح .

ــ كلامك حق . بقاؤك في بيتك أولى . ان النساء لا تلتقي في المقبرة إلا لتحرك ألسنتها . ليس يجديك أن تضيعي وقتك مع هذه النسوة الحمقاوات المهذارات . ان لك أولاداً ، فاعتني بهم . لقد مات زوجك وكان الموت غطاءً ذهبياً له . ففيم ينفعك أن تذهبي إلى قبره تتأملينه هل تعرفين ماذا تقص النساء في هذه الأيام ؟ انني لأتساءل من أين تأتي هذه الشيطانات بهذه الأنباء : ان رجالاً كثيرين سيعتقلون .

ــ ياه ! . .

وجلست لالا متلفعة بحايكها الواسع المصنوع من صوف أبيض ، وأخرجت من الدكة التي تحزم خصرها منديلاً جففت به وجهها . وأخذت تتروح بالمروحة وهي لا تستطيع أن تنطق بكلام آخر .

حتى إذا استردت أنفاسها ، جعلت تكرر :

ــ لا إله إلا الله .

إن رائحة ناعمة كرائحة الحمام تخرج من جسمها عرقاً وتجتاح الحجرة .

وأخرجت العمة حسنة من ثنايا حجابها لفة صغيرة قدمتها إلى عيني .

ــ وهن يقلن أن عدداً من الرجال قد اعتقل منذ الآن ، في كل مدينة من المدن . ان هؤلاء الرجال يعملون في السياسة ويقلقون الأذهان ، فمتى وضعوا حيث يجب أن يوضعوا هدأ بال الناس واستراحوا .

ــ هوه . . لالا . .

ــ هه ! . . يريدون أن يتحدوا الفرنسيين . هل عندهم أسلحة ؟ وهل في رؤوسهم علم ؟ على رسلك ! انهم لا يملكون إلا جنونهم وفقرهم ليبقوا ساكتين ، ذلك أجدى لهم . فهل يقدرون على أن يقاتلوا الفرنسيين ؟

ــ لا نعرف .

ــ أما أنا فأعرف . هؤلاء أناس حمقى أغبياء . ان ما يريدونه هو أن يحلوا محل الفرنسيين . فهل يعرفون كيف يحكمون ؟

قالت العمة حسنة ذلك ، ثم نفخت نفخة احتقار :

ــ أف ، أف . .

قالت عيني :

ــ حميد . . جاءت الشرطة تفتش عنه مرة أخرى . . منذ ثلاثة أيام .

فانفجرت العمة حسنة تقول بصوت كأنه صوت مدفع :

ــ لأنه يعمل في السياسة . .

واهتز جميع ما في وجهها من لحم وهي تطلق من فمها هذه العبارة . ثم أضافت زافرة :

ــ أولى به أن يبحث عن عمل ، وأن يبني أسرة ، ذلك خير له من أن يضيع وقته في الدعوة إلى ترهات ستفضي به إلى السجن . . ألا تعتقدين بأن هذا أفضل ؟

ــ ليتك رأيت يا لالا حين دخلت علينا الشرطة فجأة أول مرة . . . لقد بدأنا نعتاد هذا الأمر الآن . .

ــ لماذا ، يا أختي ، يسيء إلى نفسه وإلى غيره على هذا النحو ؟ إنني لا أفهم . ليس هناك إلّا السجن مكاناً يؤوي رجلاً مثله !

ــ لالا ، ماذا تقولين ؟ . . أف . . ما عسى أن يصير إليه حال أخته المسكينة إذا هم سجنوه حقاً ؟

قالت العمة تبدل مجرى الحديث :

ــ أين البنات ؟

تحت .

أولى بهن أن يساعدنك قليلاً ، ذلك خير لهن من الهذر مع هؤلاء النسوة اللاتي لا عقول لهن .

ــ عمر يساعدني قليلاً ، وهن يغسلن بعض الملابس .

كان عمر متربعاً عند قاعدة ماكينة الخياطة فعلاً ، يشذب بالمقص حوافي القماش التي رمتها إليه أمه بعد أن ضفرتها .

ــ وهذا ، أهو ماض في اتقان المهنة ؟ لن يتحسن الحال إذا لم يجئك بعشرة ملاليم . ما هذا الصبي إلا أنثى ، بل ان الأنثى لخير منه . انه يظل مدسوساً في البيت طوال الوقت . مسكينة أنت يا عيني . . انك ضحية هؤلاء الأولاد الذين يمتصون دماءك بلا رحمة . انك لن تصلي بمعونتهم إلى شيء البتة .

قال عمر دون أي اهتمام بما قالته عمته :

ــ أنا أذهب إلى المدرسة وأتعلم أشياء كثيرة . . انني أريد أن أتعلم ، حتى إذا كبرت ربحت مالاً وفيراً .

قالت لالا مؤنبة :

ـــ دعك من هذه الأفكار . ان عليك أن تعمل كالحمار إذا أردت أن تعيش فحسب . وهل الذين لم يذهبوا إلى المدرسة في يوم من الأيام يموتون جوعاً ؟ التعليم ليس لأمثالك يا دودة . . ما الذي تظنه في نفسك حتى تطمح إلى التعليم ؟ قملة تريد أن ترتقي فوق مستواها . . إخرس يا ابن السكير . ما أنت إلا غبار ، إلا قذارة تلتصق بنعال كرام الناس . وأبوك ، هل ذهب إلى المدرسة يوماً ؟ وجدك ، وأجداد جدك ؟ وأسرتك كلها ؟ وجميع من نعرفهم من الناس ؟ اما أن تصبح رجلاً واما أن تسحق سحقاً . عليك أن تحتمل قسوة الآخرين ، وأن تستعد لرد القسوة بالقسوة . لا تأمل في أن تصبح سعيداً . من أنت ، من أنت حتى تحلم بالسعادة ؟ لا تأمل أن تعيش حياة مطمئنة ، لا تأمل .

كانت عيناها الضاربتان إلى زرقة تضطربان في وقبيها كسائل كثيف عكر . وكانت الزاوية القاسية من فكها المثني على مرارة تضفي على وجهها كله ضرباً من العنف والشدة .

وقالت له أمه تنصحه بلهجة الامتثال للعمة جسنة :

ـــ اعتبر بما يقال لك .

ـ ١٣ ـ

كانت لالا تقبض بيدها العجراء على سبحة ذات حبات سود مصقولة ، لا تتركها في لحظة من اللحظات . انها تظل تزلق هذه الكرات بين أصابعها من الصباح إلى المساء بحركة آلية .

واستولى عليها نعاس مفاجىء . ان شفتيها تتحركان وحدهما . وأصبح المرء لا يدرك إلا وسوسة حبات السبحة يتساقط بعضها على بعض واحدة بعد الأخرى .

قالت وهي تستيقظ فجأة :

ـــ ستذهبين إذن إلى هناك ؟

فأشارت عيني برأسها أن نعم .

ـــ ستأتين بقطع ؟؟ ولكن هل تعرفين ما الذي تعرضين له نفسك ؟ ان جميع النساء اللاتي يمررن بالجمارك يعرين ، ويفتشن ، لمعرفة ما يحملن . فهل تريدين أن تقع لك قصة سيئة وأن يعلم بها جميع الناس ؟ . . ما عساك صانعة إذا حكم عليك بغرامة وصودرت الأقمشة التي تحملينها ؟ أنا لا شأن لي بالموضوع على كل حال .

كانت عيني تأمل أن تصل إلى « عوجة » دون أن يعوقها عائق . وقد طلبت إلى أولادها أن لا يتحدثوا بهذا الأمر إلى أحد . فما كان ينبغي أن يعرف سكان البيت لماذا هي ذاهبة إلى « عوجة » . انها لا تشعر بأي خجل من القيام بالتهريب . وإنما الخوف من العين الحسود . ان من تلاحقه العين الحاسدة لا يجني غير المصائب .

قالت لالا تنصحها :

ـ أطيعيني . يجب على المرء أن يبقى ساكن البال هادئاً . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك .

ان امرأتين من الجيران قد نقدتا عيني بعض المال ، لتشتري لهما أقمشة تصنع بها كل منهما أربعة فساتين . وراحت عيني تحسب أمام لالا الربح الذي ستجنيه من هذا الأمر . ان عيني لا تعرف الحساب ولكن ابنها عمر كان قد أجري لها كل العمليات الحسابية ، فكانت تكررها أمام لالا ، وكانت لالا تصغي إليها مذهولة ، وقد ظهر في وجهها الاهتمام والجد . ان الأرقام التي تذكرها عيني قد فتنت العمة حسنة . وقد أصبحت عيني خبيرة في التعامل مع هذه الأرقام ، من فرط ما اجترتها منذ بضعة أيام إلى الآن . .

قالت لالا أخيراً :

ـ إذن فاذهبي ، ولكن لا تنبسي بحرف هنا . لا تطلعي على هذا الأمر أحداً . وأسأل الله أن يعينك وأن يحميك ، فإنك تعيلين أطفالاً يتامى .

فوعدتها عيني بالتزام نصيحتها :

ـ سأذهب هذه المرة ، ثم لا أكررها أبداً . ذلك أنني قد ارتبطت بوعد قطعته لهاتين المرأتين .

قالت ذلك ثم أخذت تشكو مر الشكوى من الحظ الذي ألقي على عاتقها عبء ثلاثة أطفال . متى يكبر عمر ، ابنها ، فيحمل عنها بعض هذا العبء ؟ البنت لا يمكن الاعتماد عليها ، وإنما يجب إطعامها . حتى إذا شبت عن الطوق أصبح واجباً أن تراقب مراقبة دقيقة ، فهي في سن البلوغ أسوأ من حية . فما أن تغفلي عنها قليلاً حتى ترتكب الحماقات . ثم لا بد لك أن تفصدي عروقك حتى تهيئي لها جهازاً قبل أن تتخلصي منها .

هكذا رددت عيني تلك النغمة ، كما رددتها قبل ذلك عشر مرات ، مائة مرة ، ألف مرة . وكانت بنتاها تعملان مع ذلك ، وتساعدان في إعالة الأسرة . ولكن الأم لا تكف عن شكاواها المعادة المكررة .

قالت لالا :

ـ حين تعودين ستذكرين لي كيف استطعت أن تجتازي الجمرك . إن عندي بعض المال . . أوه . . مقدار قليل طبعاً . . بضعة قروش . أعطيك إياها لتشتري لنا عدداً من قطع القماش .

ـ نعم يا لالا ، وسترين مقدار الربح الذين تجنيه .

هذا ما كان . أن لالا تبدأ باستنكار عمل من الأعمال في حماسة قاطعة جازمة ، وما هي إلا لحظات ، حتى تنسى كل شيء . ان عمر يجد أن ذلك أمر غير معقول : أن يكذب المرء نفسه

دائمًا ، وأن يعيش في تناقض متصل . لقد كان عمر يلاحظ هذا التذبذب فيمن حوله من الناس طوال النهار . وكان على ثقة أن أمه التي أمرتهم مهددة متوعدة بأن لا يفضوا إلى أحد بشيء من أمر رحلتها المرتقبة ، ستكون أول من يمضي يقص أدق تفاصيل هذا الذي تنويه على كل من يجب أن يسمع . والعمة حسنة من جهتها ، لن تتأخر عن البوح به إلى كل من تعرف .

قالت لالا ، وهي تفكر الآن في شيء آخر :

ـ لقد بدأت بالاستعداد للعرس .

لقد خطبت بنتها الصغرى منذ سنة تقريباً ، وكانت الاستعدادات للزفاف موضوع تعليقات لا نهاية لها ، حتى أصبحت كلمة الزفاف لا تعني إلا « هذا الزفاف » كأنه لا يمكن أن يكون هناك زفاف آخر .

وأضافت لالا تقول :

ـ انني استعد الآن للعرس . وأنت تعلمين ما هو دورك فيه .

فأمنت عيني على كلامها .

وأردفت لالا قائلة :

ـ لن يكون هناك زفاف أجمل منه . سيشده به الناس ، فيمضون ينشرون أنباءه في المدينة كلها . لن ندخر وسعاً . سيقوم هو (هكذا كانت تسمي زوجها ، كما تقضي بذلك آداب الكلام) بتضحيات كبيرة تليق بمكانتنا . اننا مضطرون إلى هذا يا عيني ، ولا بد لنا منه . ان لنا مركزاً يا أختي ، ويجب أن نحافظ على هذا المركز . ما العمل ؟

سأل عمر :

ـ في أي يوم سيكون العرس ؟

فأجابته أمه :

ـ إخرس ، أنت .

وقالت حسنة لتغير مجرى الحديث ، لأن الموضوع الذي كان يدور عليه الكلام موضوع خطير :

ـ أرجو أن تكون مواظباً على عملك وأن تقوم به على أحسن وجه .

ان أحد أبناء العمة حسنة كان قد وضع عمر عند حلاق من الحلاقين ، فكان على عمر أن يذهب إلى الحلاق كل يوم بعد الظهر عند خروجه من المدرسة ، عسى أن يتعلم سر قص شعور الناس . ولكن عمر كان قد نسي أن يذهب إلى الحلاق منذ بضعة أيام . وكانت العمة حسنة تجهل ذلك .

ـ كن جديراً بالثقة التي أوليناك . اننا لم نحصل لك على هذا العمل إلا في كثير من العناء . من حسن حظك أننا استطعنا أن ننتزع لك هذا العمل الذي سيكفل لك مستقبلاً محترماً عطراً .

حلاق في مركز المدينة . أليس هذا رائعاً ؟ مستقبل عظيم ، يا طرح ؟ عليك ان تعترف لي بجميل كثير أنا التي ألححت ذلك الالحاح كله على عبد الكريم من أجل أن يجد لك هذا المكان . ماذا أنت لولاي ؟ كن جديراً باهتمامنا هذا بك . اعمل .

ـ أشكر لك يا لالا أنك كفلت لي ذلك السبيل إلى تحصيل الرزق ، وهو أن أبل ذقون الفلاحين ووجوههم . وقد برعت في هذا الفن منذ اليوم الأول ، حتى دهش بعملي صاحب المحل ودهش به الفلاحون أنفسهم . غير أنني لم أحب هذا العمل فلم أعد إلى الحلاق بعد ذلك اليوم أبداً .

فانعقد لسان العمة ولم تعرف ماذا تقول .

أما أمه فقد شعرت من سلوكه بالعار . انه لم يبرهن على جدارته بما أولى من ثقة .

قالت العمة حسنة :

ـ دعونا من هذا الموضوع ، ولن نتكلم فيه بعد الآن .

ثم أضافت :

ـ وذلك التنبال حميد سراج ، هل صحيح ان السلطات ألقته في السجن ؟

ـ لا ، يا لالا .

ـ سيظل إذن يحشو أدمغة الناس بالألفاظ كما كان يفعل ، في كل ركن من أركان الشوارع . ان الذين يصغون إليه يضيعون أوقاتهم ، وينفخون رؤوسهم هواء .

ـ إذا نحن فكرنا في الأمر لم نر في ذلك شيئاً غريباً . يا للمسكين .

ـ ما تغيرت أنت .

ـ لقد فهمنا أشياء كثيرة . وإذا تحقق ما يقوله ، كان هو السعادة لجميع الفقراء .

ـ إنك تصدقين ما يقوله هؤلاء الشيوعيون . . وستظلين على هذه الحال إلى آخر حياتك . ألا ترين ما يؤول إليه ؟ انه السجن . ماذا يجنون من ذلك كله . السجن .

ـ لا يسع المرء إلا أن يتألم قلبه حين يرى هذه الأمور .

وانزعجت لالا انزعاجاً واضحاً ، وعادت تتحدث في الشؤون التي تهمها :

ـ سيقول جميع الناس في هذه السنة : ان هذا العرس قد فاق في روعته وبهائه كل ما شوهد قبل ذلك من أعراس . خسارة أن تلك الحيوانة جنات ، أخت زوجي ، قد ماتت . لا شك أنها كانت ستموت حين ترى العرس ، غير أنها كانت ستموت من الحسد والغيرة ، لا من مرضها الذي قضى عليها . خسارة . .

أما دور عيني في هذا الزواج فلن نقول عنه إلا كلمتين قصيرتين ، الحق أن عيني كانت في قرارة نفسها غير راضية عن هذه الاستعانة بها في غير تحرج . كانت لالا قد قررت أن تعهد بطبخ الطعام إلى طاهيتين ، ولكنها كانت تخشى التهريب ، فهي تريد من عيني أن تتولى عد شرائح

اللحم ، وأن تراقب الخادمات المكلفات بالقلي وأن ترصد المتطفلات اللائي يدخلن المطبخ .

قالت لالا :

ـ إذا لم نتنبه فسيختفي الطعام كله تحت ملابسهن .

كانت عيني تعرف ذلك .

ـ ١٤ ـ

كانت لالا ، رغم حبها للتوفير والاقتصاد في كل شيء ، واحدة من الناس الذين يأكلون كل يوم . وكان شبعها في كل يوم من الأيام يضفي عليها مهابة ، ويحمل على احترامها . وكانت تساعد عيني وأطفالها على احتمال لحظات العوز ، فتمدهم بين الفينة والفينة بقطع من الخبز الأسود هي كسر يابسة متسخة في بعض الأحيان ، ولكن الأم تخضلها بالبخار وتحضرها فيصبح في الامكان أن تؤكل ، محتفظة بروائح أنواع الطعام التي لمستها على مائدة العمة حسنة . وواضح أن مجيء العمة حسنة كان ينتظر بفارغ صبر . لقد كان عمر يذهب إلى عمته من حين إلى حين في مواعيد مطردة (ولكنه يراعي أن يجعل زياراته متباعدة) ، فإذا وصل إلى باب البيت ناداها قبل أن يدخل ، لأنه يخاف التوغل في هذا المنزل الذي يخيم عليه صمت عميق ، وكانت العمة تعرف صوته ، فتأمره من أعماق البيت بأن يدخل .

حتى إذ مثل أمامها مرتبكاً أشد الارتباك ، أخذت تمطره بوابل من الأسئلة :

ـ إلى أين كنت ذاهباً ؟ لماذا جئت ؟ من أرسلك ؟ هل تريد شيئاً ؟

فكان يحاول أن يجيب دون أن يستطيع إبداء أسباب معقولة ، فيقول :

ـ جئت ، هكذا ، فقط . .

وكان يبلغ به الخوف حداً بعيداً ، فما يفهم أحد غيره ماذا قال . وكان يدرك من طريقة لالا في طرح أسئلتها أنها لا تشجعه أبداً على الاجابة ، والجدال معها ليس بالأمر السهل على كل حال ، ثم أن أسئلتها لا تقتضي في حقيقة الأمر أي رد ، وما هي إلا لحظة حتى تنصرف عنه وتأخذ تدمدم أدعيتها . وهي تتوقف في بعض الأحيان بين دعاءين لتستأنف وعظها وإرشادها .

وكان عمر يدمدم أخيراً بأطراف شفتيه قائلاً :

ـ لا ، لا ، هل لك أن تعطيني قطعة من الخبز ؟

فتتوقف لالا عندئذٍ عن دمدمة أدعيتها توقفاً تاماً ، وتجعل تتفرس فيه ، وهذه هي اللحظة التي كان يخشاها الصبي أكثر ما يخشى .

ثم تنهض من مجلسها وهي تستعين الأولياء والصالحين ، متشكية من آلام الروماتزم التي تصلب ظهرها ، وتمضي إلى خزانة صغيرة ، فتستل منها قرصاً كبيراً من الخبز ملففاً بفوطة ندية ،

ثم تتناول سكيناً فتقطع قطعة من هذا الخبز الذي كان عمر يحتفظ في فمه دائمًا بطعم رطوبته ورائحته العفنة قليلاً . ما كان ألذه بمذاقه هذا ! . .

وكانت لا تلبث أن تأمر الصبي بأن يعود إلى بيته .

ـ إذهب ، لا تبق هنا ، ولا تتسكع في الشوارع ، وحذار من العربات أيها الغبي !

فكان عمر يسيطر على فرحه ، ويمضي مسرعاً ، وفي يده قطعة الخبز .

ان العمة حسنة تسكن في الطرف الآخر من المدينة . وكانت إذا جاءت إلى البيت ، مكثت فيه طوال فترة الصباح ، رغم أنها تحتج احتجاجاً صارخاً ، وتحلف منذ تدخل انها لن تبقى أكثر من ربع ساعة ، أو دقيقة واحدة ، وذلك من قبيل مراعاة اللباقة . لقد كانت لالا تحاول أن تساعد عيني ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل كبير شيء ، وما من أحد كان يمكن أن يفعل أكثر منها لو كان في محلها .

ظل الحديث ممسكاً بالعمة حسنة حتى ساعة الظهر . ان المرأة العجوز تنسى نفسها ، وها هي ذي قبل أن تفكر في النهوض والذهاب ، تسأل عيني عن حال منصورية ، ابنة عمها الصغيرة . فتطمئنها عيني في غموض قائلة انها زارتها منذ مدة غير طويلة .

ـ ولكنها لا تزال سوداء يا لا لا ، سوداء .

ـ أعرفها ، مسكينة . يعتقد المرء حين يراها أنها لم تستحم منذ عشر سنين . هكذا هي . أرسليها إلي إذا جاءتك مرة . لها عندي شيء .

ماذا ؟ اتخبىء لالا بعض الأشياء لابنة العم الصغيرة ولا تفكر فينا ؟ هل نحن أصبحنا أغنياء ، نحن ؟

قالت عيني ذلك لنفسها ، وانقرض قلبها ، واحست حقاً انها مظلومة .

ومع ذلك تريد مني أنا أن أعمل في حفلة الزفاف ، كأنني عبدة لها . ان الناس يسمحون لأنفسهم بكل شيء في معاملتنا . ولم تشأ حسنة أن تذكر ما الذي تنوي أن تعطيه لابنة العم الصغيرة .

فلما أرادت لالا أن تنهض ، كان نهوضها مشكلة من المشكلات . تقوست أول الأمر مستندة بيديها على الأرض ، ثم رفعت اليتيها الضخمتين بداية للنهوض . فأخذت عيني تستحلفها أن تبقى للغداء قائلة لها :

ـ تذهبين بعد الظهر حين تخف حرارة الجو . ان المرء ليحترق إذا خرج في مثل هذه الساعة .

وجعلت عيني تتوسل إليها بجميع ما يقال من كلام في مثل هذا الظرف للامساك بضيف . ان العرف يقضي بذلك . مسكينة عيني . ماذا كان عندها من طعام تقدمه ؟

ومن تحت كتلة اللحم والأقمشة ، من تحت لالا ، خرج صوت نحيل يقول :

ــ لا أستطيع . . هف . . هف . لا . . لا . . يا عيني . وإلا زعلت كنائني ... يجب أن أذهب . وإذا كان عندك طعام فاحتفظي به لكم . ما من داع إلى أن أقاسمكم إياه .

ومع ذلك ظلت عيني تحاول أن تلبثها للغذاء . وأخيراً استطاعت لالا أن تنهض على قدميها وأن تلملم أطراف حايكها عليها ، مرددة اسم الله مرات كثيرة أثناء ذلك .

ــ ١٥ ــ

الأطفال يسكبون قواديس الماء على البلاط ، فما يكاد الماء ينتشر حتى يتبخر موجة حارة . لقد استحالت الغرفة إلى فرن يقبعون فيه يائسين . انها قاسية ، هذه القوة العمياء التي تغرقهم ، فما يفرغون من مغالبتها .

قالت عيوشة :

ــ يستحيل ترطيب الجو في هذه الشمس المحرقة .

لا بد من مزيد من الماء .

قالت عيني :

ــ لا بد من الماء ، لا بد من ماء كثير . نحن هنا في جهنم بل أشد . انزلوا إلى تحت وأتوا بما تستطيعون الاتيان به من ماء . هيا عجلوا ولا تبطئوا .

وكانوا يترنحون كالسكارى .

قال عمر :

ــ لا داعي إلى هذا ، فالشمس لن تنقطع عن تسخين الجو مهما نصب من ماء .

ان من الصعب على المرء أن يتنفس هذا الهواء .

وقالت مريم متباكية :

ــ أأظل أذهب وأجيء طوال الوقت ، أحمل الماء وأصبه على الأرض ؟ ان الدرج أسوأ من سلم . . وقدماي تنقليان من فرط سخونته . .

ولكن مريم ظلت تفعل ما كان يفعله الآخرون . كان عمر يأتي بالماء في حلة ، وكانت عيوشة ومريم تحملانه في صفائح . وكل شيء في الطريق بين البئر التي ما ينفكون يديرون بكرتها بغير انقطاع وبين الغرفة غارق في الماء . ان عمر يرفع إناءه على قدر ما تسعفه قواه ، فكلما صعد درجة وضع الاناء على الدرجة التي بعدها فاندلق منه بعض الماء . ويصل عمر إلى أعلى الدرج أخيراً رغم كل شيء ، ثم يغور من هناك في الغرفة خافضاً رأسه .

وكانت عيني وحدها لا تتحرك . انها مسمرة أمام ماكينة الخياطة ، وكانت الأشياء المطرزة

تخرج من تحت ابرتها كأنها سبحات ، وكانت تحض أبناءها على حمل مزيد من الماء ، بصوتها ، دون أن ترفع بصرها عن عملها . ان جسمها يهتز على إيقاع الماكينة فلو رآها راء لقال انها حالمة . ولكن كان يكفي أن يقل الذهاب والاياب في الغرفة بعض الشيء حتى تتوقف عن عملها ، وتلقي على أولادها نظرة فإذا هم يستأنفون عملهم ، فيسفحون الماء على الأرض وعلى الجدران العالية ، ثم يسفحونه . وتعود الماكينة إلى الدوران ، ويعود كتفا الأم إلى حركتهما الرتيبة . ان عيني تعمل منذ الآن وكأنها نائمة رغم دقة الحركات التي تقوم بها .

حسب المرء أن يدخل مرة إلى غرفتهم الحقيرة حتى يدرك ان الطراوة مستحيلة فيها . غير ان عيني كانت في حاجة إلى الطراوة حتى تستطيع أن تعمل . وانها لمعجزة أن أحداً من سكان هذه الغرفة لم يقتله الحر إلى الآن .

الهواء في الخارج يهتز ويتساقط غباراً بلون الرماد . وكل شيء مغمور بجحيم من الضياء . الأطفال يصطدمون بجدران من هذه الحرارة اليابسة ، حرارة شهر آب . والسماء تفور وتغلي وتتقيأ زوابع من الذباب الذي تجتذبه روائح القعور . ان هذه الأيام تصب على الحي رائحة نتن رقيق مقيم ، رائحة جثة عفنة ، لا تطردها هبات الهواء ولا يطردها انخفاض الحرارة في الليل .

الصمت يدور ثم يدور كرحى طاحون . البيت الضخم اخرس لا ينطق . السكان لا يتزاحمون . انهم جميعاً يغلقون أبوابهم ويعتصمون في أعماق غرفهم في هذه الساعة من النهار . وفي قاع هذه الغرف حيث يلوح أن الناس حبسوا الظلمة ليعتصموا بها ، تترجع أنفاس عدد لا يحصى من البشر .

أولاد عيني وحدهم واقفون غير جالسين . على أنهم رغم حماستهم يشعرون بنوع قاتم من الاعياء . وهمهمة آلة الخياطة تملأ جو الغرفة في عناد . وضاق الأولاد ذرعاً في آخر الأمر فجلسوا على الأرض ليتنفسوا قليلاً . وأخذ عمر يراقب البلاط الذي يجف ، يراقبه في دهشة كالحة . ان أسماله مبللة . ولكن لا ضير . انه لا يريد الآن شيئاً البتة ، وهذا الاحساس بالرطوبة على جلده يخفف عناءه . واستمرت الأخت الكبرى تذهب وتجيء كمكوك الحائك بين الماء والغرفة ، حاملة قواديسها بطرفي ذراعيها . ورأى عمر أخته مريم تضحك ضحكاً شديداً حتى لتعجز عن النهوض، فسرت إليه عدوى الضحك فأخذ يضحك .

لاحظت عيني اللعب الذي يسترسلون فيه ، فشبكت ذراعيها ونظرت إليهم نظرة حولاء دون أن تترك ماكينتها ، وقالت وهي تهز رأسها هزاً خفيفاً بطيئاً :

ـــ ماء ، لا تتوقفوا . . .

فكفوا عن ضحكهم فوراً .

ونهضت. فكان لا بد من الهروب منها .

قالوا لها :

ـ في وسعك أن تركضي .
وتملصوا من بين أصابعها تملص الماء ، لقد كانوا يقلدون حركات وجهها المشوشة .
ـ عمر ، حذار . سوف تندم . تعال إلى هنا . خير لك أن تجيء .
وكانت تحدق إليه بعينين دون أن تتوقف عن الصراخ . أتراها تكف أخيراً عن هذا الزعيق ؟
ـ هذه أنا يا عمر ، هذه أنا نفسي ، هذه أنا .
صاحت بهذا وهي تضع سبابتها تحت عينها اليمنى لتقول ان من العبث أن يرجو شيئاً من رفقها به وعفوها عنه .
ـ لن يضيرك الانتظار .
ـ انني أزعجك .
كان واضحاً أن خير ما يمكن أن يفعله هو أن يفر . وها هو ذا فعلاً يصير في الشارع بوثبتين ، قبل أن تستطيع إحدى أختيه أن تتشبث به لتدفعه إلى أمه عنوة . وثب وترك أخته تصرخ ما شاء لها أن تصرخ .
أما مريم فقد زحفت إلى أمها مثل كلبة . ومن الشارع سمع عمر زعيقها .
صحيح أن عيني قد ولدتهم جميعاً ، ما من أحد ينكر ذلك ، ولكنها لم تستشرهم في الأمر . هل طلبت أنا شيئاً ؟ انني لم أكن أجيد الكلام يومئذٍ ، والمهم على كل حال ان الأمر قد تم فوجدت ، أفلا تدع لنا شيئاً من الهدوء والسلام على أقل تقدير ؟ لا ، لن أسمح لأحد أن يدوس على قدمي ، ولو كان أمي التي أرضعتني لبن ثدييها . بهذا حدث عمر نفسه ، وقرر أن ينتظر خارج البيت .
ليتك ترى عيني حين تمسك بواحد من أولادها ، ولو كان هو هذه العصا الطويلة ، عيوشة . كانت عيني إذا قبضت على واحد من أولادها تسلخ جلده سلخاً من شدة الضرب ، مقبلة على عملها هذا بهمة جبارة لا تلين . كان من الأفضل أن لا يخطر ببال إحدى النساء في مثل هذه الأحوال أن تتدخل وأن تصيح في وجهها قائلة ان هذا ليس من العدل في شيء ، وأن تربية الأولاد لا تكون بهذه الطريقة . فإن عيني تزيد عندئذٍ عنفها ، إذا أمكن المزيد .
ـ كيف ؟ ألا أستطيع أن أضربهم ؟ ليسوا أولادي ؟ ما هذا الذي تقولين ؟ لا أستطيع ؟ من ذا الذي يمكن أن يمنعني من ضربهم ؟ أليسوا لي ؟
وكانت عيني أثناء انهماكها في ضرب أولادها تلتفت إلى الجيران الذين وقفوا على مسافة منها ينظرون إليها :
ـ سأمص دمكم ، يجب أن يكون هذا ماثلاً في أذهانكم . انني أعرف كيف أربي أولادي . أعرف كيف أنشئهم على الاحترام . هل تظنون انني واحدة من تلك النساء اللائي

يدعن أولادهن بغير تهذيب ؟

قال عمر بينه وبين نفسه :

ـــ لسوف تصفى هذه الأمور كلها في يوم من الأيام .

وكان يلعب أمام البيت بانتظار أن تهدأ الزوبعة وأن يزول الخطر : فإذا هو يسمع على حين غرة أصواتاً كثيرة تنفجر في داخل البيت دفعة واحدة .

فدخل ليرى ما حدث . فرأى النساء قد تجمعن في الفناء ، وأخذن يجعجعن وهن يلوحن بأيديهن في تشنج . ان أكثرهن يتجهن بأبصارهن إلى غرفة عيني . وهذا بعض آخر يتناقش في الأمر ثم ينضم إلى الحملة . ان الصرخات لأشبه بطلقات رصاص تنفجر قوية مدوية .

لم يفهم عمر شيئاً . لا شك أن هذه الاحتجاجات تنصب على أسرته .

ـــ لم يعد في الامكان احتمالهم. انهم يسممون حياتنا .

وأخذت إحدى ساكنات الطابق الأرضي تهاجم عيني لهذه الضجة التي تحدثها ماكينتها :

ـــ ما هذا ؟ إن الصخب لا يدع لنا راحة. ان زوجي يظل طوال الليل مؤرقاً لا يغمض له جفن بسبب هذه الضجة. والمسكين في حاجة إلى النوم ليستطيع أن يعمل جاهداً في الغد . انها لا تكل من الخياطة حتى منتصف الليل. أيتها المخلوقات ! البلية كلها من هذه الماكينة الجهنمية .

ـــ بل البلية هي أولاد الحرام هؤلاء الذين يظلون ينجرون مع قواديسهم طوال فترة القيلولة .

ـــ وأمهم لا تحاول أن تهدئهم ، هذه المرأة السليطة .

كانت الأصوات الحانقة تترجع قاسية ثم أصبحت آخر الأمر شكاوي حادة عنيفة .

منذ مدة طويلة لم يسمع في البيت صخب كهذا الصخب . كانت النار مختفية تحت الرماد منذ عدد من الأيام . لم يكن ذلك يخفى على أحد . كان يحدث من حين إلى حين أن يقع شيء من الأخذ والرد . ولكن النساء لا يروي غليلهن هذا . فكانت أعصابهن تتوفز وكانت دماؤهن تفور إلى أن طفح الكيل ، فانفجرت الصاعقة في آخر القيلولة من هذا اليوم بعد الظهر . كان لا بد لهم من هذا وإلا أصابهن جميعاً جنون .

كان بينهن من لم يقلن شيئاً ، غير أنهن كن يخرجن من بين أسنانهن جميع أنواع الشتائم واللعنات . انه لا بد من معاقبة نفاق هؤلاء . وهذا عمر يخرج لهن عضوه الصغير ، ويقوم بحركات بذيئة . فلما رأينه جعلن يصوتن نائحات نادبات وهن يشرن إلى الشيء بأصابعهن .

فشتمهن عمر ، وبصق أمامه .

عندئذٍ قام في دار سبيطار اضطراب هائل ما انفك يتسع .

واجتذبت الوعوعات نساء أخريات من البيوت المجاورة . لقد اعتادت هؤلاء النسوة أن

يتجمعن متى حدث انفجار . انهن يتزاحمن الآن جماعة خرساء عند مدخل البيت . ومن فرط استعجالهن لم يتسع وقت أكثرهن لوضع الحجاب ، فهذه ألقت على رأسها منشفة ، وهذه غطته بشالة ، وتلك لم تزد على أن شمرت حافة تنورتها من خلف وسحبتها على رأسها تغطيه . وتقدمن بلا تحرج حتى بلغن وسط الفناء . ان المرأة لا تقوى كثيراً على مقاومة البشائر الأولى التي تؤذن بوقوع مشاجرة . واللائي لم يستطعن أن يأتين من الشارع هرعن يطللن على البيت من السطوح . عناقيد من بشر تتدلى لتصغي وتسمع .

كانت عيني قد تركت ماكينة الخياطة ، لتصاول في هذه المعركة المحتدمة . فهي ترد على هذه وتارة على تلك ، تساعدها في ذلك بنتاها . ان النساء المجتمعات عاجزات عن مغالبتهن هن الثلاث ، رغم كل ما تقذف ألسنتهن . كانت عيني وفرختاها تصبان عليهن كلاماً يقد من قلوبهن مزقاً حية .

وفي أثناء ذلك كانت امرأة ذات مشية معرقصة ، وأثواب متراكمة على جسمها تراكم قشور البصلة على البصلة ، كانت هذه المرأة تجر نفسها قلقة إلى وسط الفناء من دار سبيطار . لم يلاحظها أحد في أول الأمر . ولكن حين رأى الحشد هذه المخلوقة السوداء المكورة ، صمت صخبه على حين فجأة ، وجمدت النسوة فاغرة أفواههن ، وراحت تتباعد لتفسح لها الطريق . ووقفت العجوز أخيراً ، ووضعت يديها على وركيها ، وحاولت أن ترفع رأسها نحو عيني . ولكنها عدلت عن ذلك . انها مالكة البيت . يا له من صمت . .

وقالت أخيراً بصوت كأنه صوت بنت صغيرة :

ــ من أنت ؟ من أنت يا من تسمحين لنفسك بأن تعكري صفو بيتي ؟ انك لا تزعجين هؤلاء الناس إلا أنهم خير منك ، فأنت تحسدينهم . أسكتن أنتن ، واتركن لي الكلام . لقد انتظرت هذا اليوم مدة طويلة ، فاتركيني أقول ما بقلبي . انك تنغصين علينا مسراتنا وأفراحنا . ونحن جميعاً قد ضقنا بك ذرعاً ، ضقنا ذرعاً بهذه النظرات التي تلقينها علينا . لقد أصابتنا عينك الحسود بكثير من الأذى . هيا اتركي بيتي أنت وأولاد الحرام ، أولادك هؤلاء ، وإلا أخرجت بالقوة .

وارتفعت أصوات بعض النساء تؤكد كلام العجوز ، بينما كان لون عيني يمتقع .

وأجابت عيني قائلة :

ــ أنا ؟ أنا أحسدك أيتها العجوز الهرم ؟ أتظنين أنني أحسدك ؟ الا انني لأرثى لحالك وأشفق عليك . أما أفراحك فلست أعكرها ، ولكن الله سيعكرها . أذكري أنك تقربين من قبرك يوماً بعد يوم ، كيف لا ترقبين الموت وقد دب فيك منذ الآن ؟ مالك تقضين وقتك كله في تأمل جدران بيتك ! ألا ليت هذه الجدران تسقط عليك . يا شقية ، ضعي الله في قلبك ، واعلمي أن الموت معلق فوق رأسك . « تفو » عليك أيتها الضفدعة السامة المؤذية !

ـ الموت يأخذك أنت ، ويأخذ أسرتك كلها ، ويأخذ جميع أقربائك ! أنا هنا في بيتي يا لعاقة الصحون . سأريك من أنا .

ـ أنا أعمل لأطعم أربعة أفواه . فهل عملت أنت يوماً واحداً من حياتك يأيتها المرأة العقيم ؟ طبعاً لا . .

ـ أمثالك في المواخير ، فهي المكان الوحيد الذي يصلح لك وتصلحين له .

ـ نحن فقراء ، ولكن سمعتنا نظيفة والحمد لله .

ـ ما أنت إلا شحاذة .

ـ لعلك تنسين يابالوعة طافحة أن أخاك قد فطس في السجن . كومة لصوص .

كان قلب عيني يوشك أن ينفجر حنقاً .

ـ سكوت ، صمت ، يا نساء .

إن زينة هي التي أصدرت هذا الأمر من الطابق الأول . فارتج على النسوة وأخذن يتأملن هذه المزعجة التي جاءت تفسد كل شيء . ترى ما الذي تريده هذه أيضاً ؟

ـ اسمعوا . لقد اعتقلوه . بنتي زهور ، وهذه هي ، رأت رجال الدرك يكبلون يديه بالسلاسل . وفي وسعها أن تقص عليكم النبأ .

قالت زينة ذلك ، ودفعت ابنتها إلى الدربزين . فرفعت النساء رؤوسها مندهشات .

ـ من الذي اعتقل ؟

لم يعرفن من التي طرحت هذا السؤال غير أنهن تنبأن بالأمر جميعاً فانقبضت قلوبهن انقباضاً رهيباً . ان البيت كله قد أدرك الموضوع من هذه الصرخة ، فرانت عليه غيوم قاتمة من حزن قالت زينة مندهشة :

ـ من هو ؟ أتسألن من هو ؟

فلم يجبها أحد . أكن يصطنعن الغفلة والجهل ؟

وكررت زينة تقول في احتقار :

ـ ألم تفهمن ؟

وهنا انفجرت فاطمة تصرخ :

ـ آي . . . أخي .

انطلقت صرختها فجأة ، وما انفكت تتسع :

ـ آي أخي ، ويلي . . أخي . . أي . أي . أي . .

في هذا الجو الذي كان مشحوناً بالقلق والحقد والشقاء ، ألمت بدار سبيطار لحظة من شرود . ان العدو يترقب خارج البيت الكبير . انه ينتظر أن تحين ساعة ليثب . نسيت النساء مشاجرتها في لحظة . انطوت دار سبيطار على نفسها .

وأخذت زهور تقص ما سمعته دون أن تراه بعينها ـ في بيت أختها بقرية بني بوبلان . كانت

هابطة من القرية حين انتشر الخبر : وهو أن حميد سراج قد قبض عليه كما قبض على عدد من الفلاحين . وأصبح الناس في القرى لا يتحدثون إلا عن هذه الاعتقالات .

قالت إحدى النساء :

ــ ألم يكن الخال محمد رجلاً يعرفه جميع الناس في المدينة ؟ ألم يقبضوا عليه في الشهر الماضي في الشارع دون أن يعرف سبب ذلك ! ألم تذهب زوجته إلى « الأمن العام » بعد اعتقاله ببضعة أيام ؟ كانت تريد أن تعرف شيئاً عن أنبائه ، وأن تحمل إليه بعض الطعام . فما كان أشد دهشتها حين رأت الطبيب العجوز برتويل يخرج . أليس معروفاً أن برتويل هو طبيب الموتى ؟ وبعد الظهر نقلت جثته إلى المستشفى العسكري . لم يكن الخال محمد حتى ذلك اليوم قد دخل محكمة من المحاكم في حياته كلها . وقد وصل إلى مقر الشرطة سليمًا معافاً ، فإذا هو يخرج منه بعد ثلاثة أيام جثة هامدة .

ــ ماذا تقولين ؟

طرحت فاطمة هذا السؤال ، وأخذت تضرب فخذيها وهي تنتحب . كان عمر في هذه الأثناء يأخذ اللعب مأخذ الجد . انه فرح بالحياة مسترسل فيها ، مشغول بذلك إلى درجة كافية . انه يعيش حياته هدراً ان صح التعبير ، يقبل على كل أمر من الأمور على ما يريد له هواه .

انه لا يبالي شيئاً ولا يحفل بشيء ، يشفع له بذلك أنه طفل .

وكان الجوع الرهيب لا يتركه يوماً من الأيام ، فليس في البيت شيء يأكله . وكان يبلغ من فرط الجوع في بعض الأحيان أن لعابه يتحلب في فيه زبداً . كان همه الوحيد إذن هو أن يعيش . . أن لا يموت .

وقد اعتاد في أثناء ذلك أن لا يشبع أبداً . ألف الجوع وألفه الجوع ، حتى أصبح يعامله معاملة الصديق للصديق ، فلا كلفة بينهما . لقد قامت علاقتهما على أساس من اللباقة المتبادلة الخفية اللطيفة التي لا يستطيع إلا التعارف الواسع أن يولدها بين أناس يسيء بعضهم الظن في بعضهم الآخر أول الأمر ، ثم يحسون أنهم قد خلقوا بعضهم لبعض . وبفضل هذا التفاهم قلب عمر أنواع اللامبالاة التي تنشأ عن الخوف والكسل ، قلبها إلى حب . فلو خطر بباله أن يفصح عما في أعماق نفسه لقال ، ولا شك ، هذا الكلام : « ايه أيتها الأم الحبيبة ، أيها الجوع لك مني أرق الكلمات . . » .

كم مرة ركع على قدمي الجوع في المساء ، وقد غرقت نفسه وعيناه في تحية واسعة ، بينما الجوع يبتسم له ويبتسم . . ويقترب منه ، ويغمره بوجوده السمح الرحيم . ثم إذا بنوم يقظ يرفق في عينيه ، فينام والجوع يهدهده بحركات خفيفة ، خفيفة جداً .

ــ ١٦ ــ

حين عاد الهدوء قليلاً ، سمع عمر أمه تطلق النداء تلو النداء . لقد عيل صبرها فصوتها

يرتج ويرتجف وهي تنادي أولادها واحداً بعد آخر . كانت تهيب بهم من خلال الضجة التي ما زالت ترين على البيت أن يعودوا . ان الغضب مستبد بها . وما هذه باللحظة التي يجوز فيها أن لا تطاع . ان طاعة أولادها تحمل لها العزاء وتخفف عنها ما بها .

لقد شقيت عيني في حياتها كثيراً ، وعانت من البؤس منذ عدد كبير من السنين ما جعل أعصابها تتهدم تهدماً في هذا الكفاح المرير الذي تخوضه كل يوم .

وأخذ أولادها يستجيبون للنداء ، فكلما وصل إليها أحد منهم دفعته إلى داخل الغرفة ، وضربته على منكبيه . غير أن مريم لم تصل . لم يقلق أحد لتخلفها ، فلا بد أنها آتية آخر الأمر .

واشتدت حلكة الظلام . ان عدداً من النساء العنيدات لا يزلن في حديث تحت .

وأخذ ألم الجوع يشتد شيئاً بعد شيء ، وأخذت أمعاء الطفلين تقرقر . فطلبا إلى أمهما أن تعطيهما شيئاً يأكلانه ، طلبا إليها ذلك في أول الأمر على خجل . أن عيني تبدو مهدمة محطمة . ثم توسلا إليها توسلاً . فنهضت الأم ووزعت عليهما كسراً قديمة من الخبز ، مع نصف خيارة وقليل من ملح . قشر عمر قطعة الخيار . ولكنه لم يرم القشر ، بل وضع بعضه على جبينه وصدغيه فشعر من ذلك ببرودة شديدة ، وأكل الباقي . ثم رش على اللب ملحاً وعضه .

ان الشفاه تطقطق في هدوء .

ونظرت عيني إلى الباب ، ثم نادت وفمها مليء بالطعام :

ــ مريم ، مريم .

لقد رفعت صوتها في النداء عالياً بحيث يمكن أن يسمع من بعيد ثم عادت تصيح :

ــ يا رب السماء ، تعالي كلي يا مريم ! ماذا تفعلين ؟

ما من شيء يدل على أن البنت في البيت .

فهتفت عيني تقول :

ــ لا شك أنها خرجت . أفي هذه الساعة ، يا رب ! آه ما أشقاني ! ما أشقاني !

وعادت تمضغ لقمتها في بطء .

وقامت بعد قليل فرفعت الستارة التي تحجب الباب ، فرأت ابنتها مريم على بعد خطوة من العتبة . هبطت درجة المدخل . ان ابنتها تنظر إليها ساكنة في مكانها لا تتحرك .

ــ ما بك ؟

ــ إذا كانت هذه النسوة تتكلم هذا الكلام كله ، فلأنها لا تعرف كيف تسكت . إلا أن الموت أفضل من هذا .

كان صوت مريم ضعيفاً ، كأنه آتٍ من عالم آخر :

سألتها عيني :

ــ ألست جائعة ؟

ــ بلى .

ــ إذن فتعالي كلي .

ــ لماذا لم تناديني ؟

كان وجه مريم جامداً لا يعبر عن شيء . فلما رآها عمر على هذه الحال ، لما رأى ظلال نفسها ترتسم على وجهها ، أحس بخوف ، دون أن يعلم لماذا . كثيراً ما اتفق أن اكتشف في نفسه تمزقاً كهذا التمزق ، فكان في كل مرة يدفعه عن نفسه في حزن شديد . وعادت نظرته تنصب على أخته . انه يرى في عينيها رجاء . هل الرغبة الوحيدة التي تجيش في نفس مريم هي أن تترك الحياة ؟

واستغرب أن تراوده هذه الفكرة . وها هي ذي تلتفت إلى وراء قلقة ، كأنما لتحدق إلى الليل .

كل ذلك الماء الذي سكبوه على الأرض لم يجدهم في شيء . كانوا جميعاً يعرفون ذلك . هذا حر شديد يسقط عليهم في المساء . ان أجسامهم رطبة لزجة .

وبدأت ليلة لاهثة . قامت البنتان ، تستحثهما أمهما ، فمدتا في وسط الغرفة جلود الخراف . التحق عمر بالجلد المخصص له . وكان مصباح كهربائي معلق في السقف بلا صحن ، يثب بنوره الظلام . ان عمر ، من خلال عينيه المغمضتين ، يحس بحد هذا النور ينفذ في لحمه . وفيما هو ينام تراءت له امرأتان . أهما زينة وبنتها زهور ؟ انهما تتهامسان مع عيني . شعر باضطراب وانزعاج غريب . ان نظرات النسوة الثلاث تثير فيه الحمى . لا يزال الحديث المخنوق السريع مستمراً . انه تلاوة رتيبة . وابتردت ركبتاه فجأة ، في لحظة .

بدا له أن هؤلاء النسوة يخشين الكلام . انهن يختلسن النظر إليه في صمت من قاع الغرفة . حنق عمر على هاته الدخيلات . هذه الغرفة التي كان يأمل أن يهدأ فيها ، ها هو ذا مضطر إلى أن يكرهها بسبب هذه الأشباح القاعدة . ما شأنهن وأمه ؟ وهذا شخص يتكلم في فناء البيت . وفجأة أصبح من المستحيل على عمر أن يحتمل نظرات هذه النسوة أكثر مما احتمل .

ان قرطاً من نور وصمت يطوقه . والنور والصمت ليسا إلا ظلمات . لم يدم هذا إلا لحظة واحدة ، ثم سرعان ما نسي عمر آلامه . هذا هو الفناء يعج بالنساء ، يجتذبهن جو الهياج والفضيحة الذي لا يزال يخيم على دار سبيطار . الأصوات يختلط بعضها ببعض ، ولا تصل إلى اتفاق . محاورات تبدأ في دمدمة خاطفة ثم تنفجر في اندفاع من كل حدب وصوب . ان النساء اليوم هائجات هياجاً غريباً . ما بال هذا الجمهور مستاء ؟

ان احداهن تقول له :

ــ اخرج من هنا يا عمر . . . لسوف تلاحقك اللعنة طوال حياتك .

وهذه أخرى تلطم فخذيها كأنما ثمة مأتماً . انها تطلق في الهواء شكاة حادة تشقق الليل ،

كأنها زئير موت . ان النساء جميعاً تصر إصراراً قوياً على أن تدوس كل ما على الأرض في الغرفة حول عمر .

وانهن ليرسلن صيحاتهن بأصوات بلغت من الحدة والحداد أن الصبي ظل خلال ساعة لا يشغله شيء غيرها ، ناسياً ألمه . وعاد إلى نفسه فأدرك أنه ما من صوت يصل الآن إلى الغرفة . حاول بألف صورة وصورة أن يفهم ما حدث . ان الصمت الذي أعقب ذلك الصخب كله يحيره ، يحيره أكثر مما حيره ذلك الكلام المضطرب الذي كان يصل إلى مسامعه منذ لحظة . أحس أن ذلك كله كان يأتي من عالم آخر . وفي معدته كان الطعام الذي تناوله ـ الخبز والخيار ـ يزداد ثقله شيئاً بعد شيء .

ـ ١٧ ـ

كان عمر قد انتهى إلى تشبيه بيت سبيطار بسجن . ولكن ما حاجته إلى كل هذا الايغال في التفكير ؟ أليست الحرية قائمة في كل فعل من أفعاله ؟ كان يرفض أن يتناول من يد الجيران قطعة خبز يتصدقون بها عليه ، فهو حر وكان يغني إذا شاء ، ويشتم هذه المرأة التي يكرهها ، إذا أراد ، فهو حر . وكان يقبل أن يحمل خبز تلك المرأة الأخرى إذا أحب ، فهو حر .

ولكنه رغم الشعور العنيف الذي يهيئه له مظهر الاستقلال هذا ، كان يحس أن الأمور لا تجري على النحو الذي يرضيه . ان غريزة حاقدة عنيدة صافية دائمة اليقظة كانت تدفعه إلى التمرد على كل شيء . كان عمر لا يقبل الحياة على نحو ما تعرض له . كان ينتظر من الحياة شيئاً آخر غير هذا الكذب وهذا النفاق ، وهذه الكارثة التي يدركها ، كان ينتظر من الحياة شيئاً آخر . وكان يتألم ، لا لأنه طفل ، بل لأنه قد ألقي في عالم يستغني عن وجوده . ان عالماً كهذا ، عالماً يفرض نفسه فما يمكن رفضه ، لا بد أن يكرهه . ان عمر يكره هذا العالم ويكره كل ما يرتبط به ويمت إليه بصلة .

لم يكن يصدق كلام الأشخاص الكبار ، ولا كان يعترف بما يسوقونه من حجج ، ولا كان يحترم ما يأخذون به أنفسهم من جد . وكان يكذب ما يظهرونه من ثقة . حين كانوا يلقون عليه نظرة السيطرة والسيادة ، كان في سره يعزي نفسه بأنه لا يزال صغيراً ، وكان يمني نفسه بأنه سينتقم متى تقدم في السن وبلغ مبلغ الرجال . ان ما يقوم في أذهان الآخرين عنه من أنه طفل صغير طيب ، أو شخص سيء ، ليس ناشئاً إلا عن لبس .

ومع ذلك فإن شيئاً ما كان يمنعه في عناد عن إدراك الحياة كاملة ملأى . ان هناك حجاباً يمنع عنه هذا الاكتشاف . وكان يذعن لهذه الحياة في يسر هو ذلك اليسر الذي يتجلى لدى الأطفال نوعاً من الانفصال . على أنه وقد حاصرته القوى الغامضة التي تهدد وجوده ، كان لا يتقدم في هذا

العالم الذي كان عالمه إلا في كثير من الاضطراب والحيرة .

كان أهله ، وجميع أولئك الذين يضطربون من حوله إلى غير نهاية ، يذعنون فيما يظهر لهذا المعتقل . انهم يحاولون أن يضيقوا حياتهم وأن ينزلوا بها إلى مستوى الحياة في زنزانة من سجن . صحيح أن كل واحد من هؤلاء الناس كان له في أعلى السقف من زنزانته كوة صغيرة ينزل عليه منها نور ضعيف . ولكن ما من أحد كان يخطر بباله ان يتساءل من أين يأتي هذا النور . هل كان ينبغي لأحد أن يرفع عينيه إلى أعلى ؟ هل كان يتسع وقت أحد لأن يرفع عينيه إلى أعلى ؟ مستحيل ! كانوا جميعاً ينتقلون من عناء إلى عناء وأنوفهم في التراب ، وما ينفكون يتحركون كأنهم النمل في ذهابه وإيابه بلا انقطاع . غير ان بعضهم ، وهم أناس مجانين . . إذا نظرت إلى الأمر من جميع وجوهه ، كانوا يقفزون إلى تلك الكوة ، لا يدري أحد لماذا ، فيتشبثون بقضبانها الحديدية التي تحول بين أحد وبين الخروج منها ، وينظرون إلى السماء الزرقاء صارخين : ماذا ؟

كانت دار سبيطار تعيش حياة طائشة عمياء ، حياة يهزها الحنق والغضب والخوف في كل لحظة . كل كلمة تقال في هذه الدار فهي شتيمة أو نداء أو اعتراف . وكان أهل الدار يحتملون ما يحدث فيها من اضطرابات في مذلة . ان الحجارة في هذه الدار تعيش أكثر من القلوب .

كانت عيني تقول في كثير من الأحيان :

ـــ نحن فقراء .

وكانت النساء الأخريات من سكان هذا البيت تقول مثل هذا الكلام .

ولكن لماذا نحن فقراء ؟ لا أم عمر ولا النساء الأخريات كانت تجيب عن هذا السؤال . وكان بعضهم يقول أحياناً : هذه قسمتنا ، أو : الله أعلم . ولكن هل هذا إيضاح ؟ كان عمر لا يفهم كيف يكتفي أحد بمثل هذه التفسيرات . لا ، ان تفسيراً كهذا التفسير لا يوضح شيئاً . هل كان الأشخاص الكبار يعرفون الجواب الحق ؟ هل كانوا يريدون أن يحتفظوا بهذا الجواب مخبأ في صدورهم ؟ هل هذا الجواب لا يحسن إعلانه ؟ كان الرجال والنساء يخبئون أشياء كثيرة ، أما عمر الذي يعد هذا الموقف موقفاً صبيانياً ، فكان يعرف ما يخفون من أسرار .

انهم خائفون ، وهم لذلك يحبسون ألسنتهم عن الكلام . ولكن مم هم خائفون ؟

انه يعرف كثيراً من هؤلاء الناس : أهله وجيرانهم وجميع الذين يملأون دار سبيطار ويملأون دوراً أخرى كدار سبيطار ، وأحياء أخرى كالحي الذي تقع فيه دار سبيطار ، كل أولئك فقراء . ما أكثر عدد هؤلاء الفقراء !

ـــ نحن كثير ، وما من أحد يبلغ من البراعة في العد ما يكفي لإحصاء عدد هؤلاء الفقراء !

ان انفعالاً غريباً قد قام في نفسه حين خطرت له هذه الفكرة .

وهناك أغنياء : أولئك يستطيعون أن يأكلوا . وبيننا وبينهم حاجز . . حاجز عال عريض

كسور من الأسوار .

ان الأفكار تزدحم في رأس عمر مضطربة جديدة ، ثم تغيب في فوضى كبيرة .

وما من أحد يثور ويتمرد . لماذا ؟ الأمر غير مفهوم . . ومع ذلك فما أبسط هذا التمرد . هل هؤلاء الأشخاص الكبار لا يفهمون إذن شيئاً؟ الأمر بسيط مع ذلك . . بسيط . . انه بسيط .

وظل الصبي يردد : بسيط . وطفقت هذه الجملة الصغيرة تترجع في دماغه الموجع ، وتترجع ، حتى لكأنها لا تريد أن تغيب . .

ـ لماذا لا يتمردون ؟ لماذا لا يثورون ؟ أهم خائفون ؟ مم هم خائفون ؟

ان الجملة تتردد في رأسه بسرعة مدوخة .

الأمر بسيط ، بسيط .

زيغان لا نهاية له . . وهذه ذكرى حميد سراج وهو يتحدث إلى جمهور كبير ، تقوم في ذهن عمر . كان حميد سراج يقول يومئذٍ : الأمر بسيط .

ـ ١٨ ـ

المقر الواقع في شارع « باس » مزدحم بالناس . والصمت عميق ، فلو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها . الناس يصغون : انهم رجال من القرى ، فلاحون حملوا إلى هذا المكان رائحتهم الحادة القوية ، رائحة الأرض المفلوحة والحقول . انهم ينصتون بلا حراك . ان واحداً يتحدث . جلابيبهم السمراء الخشنة تنشر بخاراً يكثف به الجو ، ويثقل به هواء المقر الرطب . ان الجلابيب قد امتصت كل المطر الذي انهمر على ظهورهم في الصباح وهم آتون من قراهم سيراً على الاقدام . وقد تجولوا قليلاً في المدينة قبل أن يتلاقوا في هذا الاجتماع . ان المتكلم يتكلم في آخر القاعة . وفي الجو الداكن تتصاعد أنفاس السجائر ، وإلى المكان يتسلل نور ضعيف من نافذة عالية . انهم يسمعون الكلام واضحاً .

« ان العمال الزراعيين أصبحوا لا يستطيعون أن يعيشوا بهذه الأجور الزهيدة التي يتقاضونها . انهم سيتظاهرون بقوة » .

وضرب الخطيب على ذلك أمثلة بأراض يعرفها الفلاحون . « يجب أن نتخلص من هذا البؤس » . ان عباراته الواضحة تدخل الطمأنينة إلى النفس : ان كل ما يقوله حق . ان رجلاً يتحدث على هذا النحو ، يثق الناس به . ليس فيما يسوقه من حجج أي شيء من هوى أو غرض .

« العمال الزراعيون هم أولى ضحايا الاستغلال الذي يعيث في بلادنا فساداً » .

ان لهجته تطلب من كل فرد من الأفراد أن يفهم ، فما يظل شيء من الأشياء غامضاً . يجب توضيح كل أمر وتبديد كل ابهام . قال الخطيب : ان العمال الزراعيين مقبلون على معارك كبيرة . ان لهجة الخطيب هي لهجة من يخاطب كل فرد من أفراد الجمهور على حدة . فهو يتحدث بالأمر إلى هذا ، ثم إلى ذاك ، ثم إلى الثالث ، وهكذا دواليك .

« الأجور لا تزيد على ثمانية أو عشرة فرنكات . لا ، هذا مستحيل ، يجب المبادرة فوراً إلى تحسين ظروف معيشة العمال الزراعيين . علينا أن نعمل بقوة وعزم للوصول إلى هذا الهدف » .

ان في أعين الرجل نظرات عميقة .

« ان العمال المتحدين سيعرفون كيف ينتزعون هذا النصر من المستعمرين ومن الحكومة العامة . وهم مستعدون للنضال » .

في هذه اللحظة دخل سرب من الأطفال على رأسهم عمر الذي سرعان ما أحس بيدي رجل تقبضان على كتفيه النحيلتين . والتفت عمر فرأى فلاحاً واقفاً وراءه ممسكاً به . لم يعد يستطيع أن يتحرك وكذلك الصبية الآخرون . وعندئذٍ عدلوا عن التنادي وعن العدو في مختلف الجهات . ان هؤلاء الرجال فلاحون ، ولكنهم لطاف رقاق الحاشية حقاً . وراح الصبية يفعلون مثلما يفعلون ، فكلما انقضى الوقت ازدادوا رصانة وجداً . ان الرجل القابض على عمر يرخي يديه شيئاً بعد شيء دونما شعور . صارت يداه خفيفتين . وما لبث عمر أن أصبح لا يحس بوجودهما . لقد رفعهما الرجل عن كتفيه . ان هدوءاً كبيراً يشيع في نفس عمر . أصبح عمر لا يعرف منذ أية لحظة أخذ ينصت . وانه ليسمع كلام الخطيب ، فكأنما هو يتعرف فيه ما بنفسه .

« يقول المستوطنون . . ان سكان البلاد لا يعملون إلا إذا ماتوا جوعاً ، فمتى ملكوا ما يسدون به جوع يوم واحد ، حملهم كسلهم على ترك العمل . ولكن الحق ان الفلاحين إنما يعملون حتى الآن من أجل هؤلاء المستوطنين . ان هؤلاء المستوطنين يسرقونهم . انهم يسرقون العمال . ولا يمكن أن تستمر الحياة على هذه الحال . » .

قال بينه وبين نفسه : صحيح . وفجأة ارتعش . لقد رأى حميد سراج . ان حميد سراج هو الذي يتكلم . انه هو . . هو حميد .

هذه الكلمات التي تشرح الواقع ، هذه الكلمات التي تعلن ما يعرفه جميع الناس وما يراه جميع الناس ، غريب حقاً أن يوجد بين رجالنا من يقولها ، غريب ان يوجد بين رجالنا من يقولها على هذا النحو الهادىء الواضح ، من غير أي تردد .

لقد بلغ شقاؤ نا من الشدة أنه أصبح يعد هو الحياة الطبيعية لشعبنا لم يكن هناك من يشير إلى هذا الشقاء ، من يدل عليه ويرفع صوته في استنكار . أو هذا ما كنا نظنه على الأقل ـ وها هم

أولاء أناس يتحدثون عنه على مسمع منا ، ويضعون عليه الاصبع قائلين : هذه هي العلة . ونحن لا يسعنا إلا أن نجيب : نعم . هؤلاء رجال أقوياء . انهم علماء بالأمور ، وانهم شجعان . انهم يعرفون الحقيقة كما نعرفها نحن . ولكنهم يمتازون علينا بأنهم يستطيعون أن يتكلموا فيها وان يعرضوها كما هي . إذا حاولنا نحن أن نفتح أفواهنا لنتحدث عنها ، ارتج علينا وذهلنا عن أنفسنا . لأننا لم نتعلم الكلام بعد . وهذه الحياة هي حياتنا مع ذلك ، نحياها كل يوم من جديد . وإذا كنا نحسها إحساساً أقوى حين يكون المحراث أو الفأس في أيدينا ، إذا كنا نحسها إحساساً أقوى في الثمار التي نقطفها وفي سياق القمح التي نقطعها بالمنجل فإننا حين نلقى رجالاً كهذا الرجل يتحدثون إلينا عنها بهذا العلم ولا يكلموننا عن أمور بعيدة تربكنا ، نعرف كيف نجيب : نعم هذه هي الحقيقة . ذلك أننا نفهم . ان ما تنطق به أفواههم هو حقاً الحياة التي نعيشها . انهم يوحون إلينا بالثقة . هؤلاء الرجال الذين نعرف أنفسنا في أقوالهم نستطيع أن نكلمهم وأن نمشي وراءهم . نستطيع أن نتقدم معهم بخطوات قوية إلى أمام .

كانوا حقاً يعيشون الحياة التي وصفها حميد سراج . لقد صعد عمر عدة مرات إلى بني بوبلان مع زهور التي كانت أختها متزوجة رجلاً من الجبل . ان المزارعين في بني بوبلان يعيشون في يسر ، كما في منزل قره علي. ولا كذلك في الجهة الثانية من سفح الجبل . في ذات يوم استحم عمر مع رفاقه في الحوض القائم على حدود أراضي قره ، حيث ينساب الماء في الخضرة بين أشجار التين والتوت والميس . هناك يبدأ طريق منحدر إلى الريف . وقد خطر ببال عمر فجأة أن يسلك هذا الطريق ليرى إلى أين يؤدي . وكان يتوقع أن يرى بعد هذه المزارع مزارع أخرى . ولكنه لم يلبث أن سقط إلى درب سبدو . ان سفح بني بوبلان يقع في هذا الموضع . صدق حميد . ان الناس هنا يعيشون في ثقوب بالجبل ، رجالاً ونساء وأطفالاً وبهائم . وفوق رؤوسهم كانت هنالك مقبرة فالأحياء يعيشون تحت الأموات .

ـ ١٩ ـ

سلاسل أبنية بعيدة تنتصب وراء فرجة الباب السوداء ، وترتسم في ظلام الليل من جانب . ان وضوحها يخدش الفكر . رأى عمر هذا المنظر ، فاستيقظ في قلبه شعور بشيء نسيه ، كالألم الذي يحس المرء أنه ساقط عليه تواً ، فلا بد أن يزدحم به قلبه بعد قليل دفعة واحدة . غير أن ما ينسى لا يكون أبداً رهيباً إلى هذه الدرجة ، لا يكون كتلك اللعنات التي صبتها النساء على رأسه في ذلك المساء . . وفجأة تراءى لعمر كل ما في حياته من قسوة . لقد قضى عليه أن يحتمل هذه القسوة إلى الأبد .

في الخارج ليلة من ليالي آب . الأضواء تغمر قبة السماء من غير حرارة . ونظرة عمر إلى الغرفة الساطعة المظلمة التي يرقد فيها ، أن عتبتها غارقة في ضوء القمر الذي تصل أشعته إلى أرجل النائمين وتأخذ تلمسها على مهل .

ان عمر يتقلب على فراشه . انه أرق . ثيابه تزعجه . أن الاكال يستبد بسكان الغرفة جميعاً في الليل . فإذا الأظافر تنتقل بالحك على البطن والأليتين والفخذين مدة طويلة . ان البق يخرج من مخابئه ويتسلل إلى الفراش وما عليه متى تخيم الظلام . لقد رشت الجدران بالكلس . ولكن البق لا يزال يدهم النائمين . كانت عيني تشعل المصباح عدة مرات أثناء الليل ، فتسحق من هذا البق ما يتيسر لها سحقه . ان خطوطاً سمراء ترى في الجدران عند الصباح من أثر سحق البق باليد أثناء الليل . عبث . حتى بدون بق يشعر النائمون بأكال .

لقد نام عمر بقميصه ولباسه حتى لا يضطر إلى التعري على مرأى من أختيه . وكان غطاؤه من جلد قديم . فلما سادت الظلمة رمى عنه الغطاء ، وخلع ثيابه ، ورقد على البلاط عارياً كل العرى . انه يحس بطراوة خلال لحظات . وكانت أمه ، في ذات ليلة من الليالي ، قد أوصت أولادها أن يرش كل منهم فراشة بقليل من الماء ، فما كان من عمر ليلتئذٍ إلا أن أحال فراشه إلى بركة من الماء فمرض على أثر ذلك مرضاً شديداً ، فأصبح لا يرغب في تكرار هذا العمل .

ستارة المدخل مزاحة ، والنور يدخل من الباب فيشق في ظلام الغرفة الكثيف طريقاً عميقاً مضيئاً . ان عمر يتأمل السماء . كانت السماء تستحيل إلى تألق غامض تغرق فيه النجوم . كان عمر راقداً قرب أمه . وفي الجهة الأخرى كانت تنام أختاه . انه لا يجرؤ أن ينظر إلى هناك ، خشية أن تكشف له عيناه اللتان ألفتا الظلام أختيه العاريتين مثله . أخذ بهذه الفكرة لحظة ، ثم تحرك فيه شيء من قلق .

وفجأة هبت على جسمه نسمة من هواء طري . انه يسمع التنفس العميق المطرد يتردد من حوله . وباغت نفسه يعد النجوم ، فكلما خططت إحداها السماء أحس ذلك ابرة في قلبه . أغمض عينيه حتى لا تراه النجوم .

كان الحر الشديد ، الذي يصاحبه الجوع دائمًا ، يؤرق لياليهم . غير أن الجوع أشد رهبة من الحر . انه ماثل لهم دائمًا . وكأن هذا الجوع في جسم عمر أشبه بشعلة خفية لا تدرك ، تولد له نوعاً من نشوة . لقد خف لحمه فجأة وأسرف في الخفة ، وضعف وأسرف في الضعف ، فصار لا يسمح له أن ينغمس في كثافة الليل حيث النوم دم وشهوات . نبتة جذورها تتموج بين الأرض والسماء تمتص جسده ، فتفرغه كما تفرغ الثمرة من سنفها[1] . أشجار عجيبة كأنها الصواريخ ، تبلغ كمال نموها وتموت في بضع لحظات ، ولا يبقى ثمة إلا تلك النار الصغيرة البعيدة التي يحرق رأسها أرحامه ، بينما هو يهوم ضائعاً تائهاً في أمواج الليل الساكنة .

وتكلمت عيني فجأة . من تراها تخاطب ؟ من ذا الذي يسمعها ؟ أهي لا تكلم إلا نفسها ؟

---

(١) السنف : وعاء الثمرة .

ـ ان هذا العمل يهد صدري هداً . أصبحت لا أطيقه . لقد خارت قواي ، وضعفت ساقاي . كل ما أكسبه لا يكفي لشراء ما نحتاج إليه من خبز ، مع انني لا أدخر وسعاً ، وأعمل ما استطعت إلى العمل سبيلاً . فيم هذا كله ؟

أدرك عمر أن عيوشة كانت تنصت لكلام أمها . لم تنبس أخته بكلمة . وانصت هو أيضاً . أن كرباً شديداً لا يطاق يمسك به . أين كانت أمه ، في أي ليل كانت ؟ ان عيوشة لم تنم . ولزمت عيني الصمت طويلاً .

انها هي التي تحدث هذه القرقعة الضعيفة : تمد ساقيها على البلاط أو تضع ذراعيها وراحتيها على الأرض . ان الأرق يعذب عيني . كان عمر يرقب في الظلام أيسر حركة من حركاتها ، ولكنه يريد أن لا تعلم أنه يقظان . فلما عادت تتكلم كانت دهشته من ذلك كدهشته في المرة الأولى من أمر لا يتوقعه .

ـ لن نبقى على هذه الحال يا عيوشة . احرسي أنت الأولاد ، وأغيب أنا . لقد قررت أن أذهب إلى عوجة . سآتي بعدد آخر من قطع الحرير . كثير من النساء يذهبن بغير انقطاع . فلماذا لا أذهب أنا أيضاً ؟ ان أختي ماما لا تسافر عبثاً . ما من أسبوع إلا وتسافر مرة على الأقل . أتظنين ان هذه السفرات لا تعود عليها بنفع ؟ أكانت تترك عجوزها وأولادها وتقوم بهذه الرحلات كلها لولا أنها تجني منها ربحاً ؟ لا شك أنها تكسب مالاً . وهذا مؤكد . سأذهب أنا أيضاً . وستتولين أنت حراسة الأولاد أثناء غيابي .

أجابت عيوشة بصوت ضعيف :

ـ نعم يا أمي .

تقع مدينة عوجة على مسافة تسعين كيلو متراً في الجهة الثانية من الحدود . فالذين يستطيعون أن يدخلوا منها إلى الجزائر بأقمشة مهربة ، يبيعون بضاعتهم هذه في الجزائر بأسعار عالية ، فيجنون أرباحاً طيبة ، إلى أن يقبض عليهم فيدفعوا ثمن مغامراتهم باهظاً . غير أن المهربين لا يتوبون عن هواهم ، والحق أن التهريب هوى ، وان يكن بالنسبة إلى سكان الحدود مورداً من موارد الرزق أيضاً ، مورداً خطراً ولكنه ضروري . وأحياناً ما يؤدي الاصطدام برجال الجمرك إلى كوارث أن كثيراً من الرجال والنساء يتعاطون أعمال التهريب هذه . على أن حظ النساء المتدثرات بملاءاتهن (الحايك) كان أكبر من حظ الرجال في اجتياز الحدود دون أن يلاحظهن أحد . وكانت شرطة الحدود لا تطلب إليهن إبراز أية بطاقة . (من ذا الذي رأى امرأةً من النساء سكان هذه البلاد تنحني أمام إجراء من الاجراءات الرسمية ؟) ولكن هل ترى تستطيع أمه أن تفلت من رجال الجمرك ؟ لقد استطاعت أن تجتاز الحدود في المرة الأولى ، ولكن هل تراها تستطيع ذلك في هذه المرة أيضاً ؟ ان عمر يثور على هذا ويرفضه رفضاً قاطعاً بكل ما أوتي من قوة . تذهب إلى السجن . . هي ؟ مستحيل . . ان المرء يستطيع أن يسرق ، وان عمر يرى الناس من حوله يسرقون دائماً ، وهو لا يجد في اختراق القانون أي منكر ، ولكن عمر

يحس بخوف شديد يقشعر له جسمه متى يخطر بباله العقاب الذي يترتب على ذلك . انه يخشى الألم . لقد كان جسمه يحس بالألم حين يتألم غيره ، وذلك بعدوى غريزية . لا ، لن تذهب أمه إلى عوجة . ان عمر لا يستطيع التسليم بهذا الأمر والاذعان له .

فهل يجب عليه أن ينقل إليها مخاوفه ؟ هل يجب عليه أن يحاول صرفها عن هذا المشروع الذي عقدت عليه النية ؟ انه ليعلم ، واأسفاه أنه سيصمت وأنه سيخفى اضطرابه . وهبه أفصح لها عما بنفسه ، فإنها لن تزيد على أن تسخر منه وتهزأ به . ذلك أمر لا شك فيه . فإذا ألح فلا بد أنها سوف تقرعه وتؤنبه . انه صبي صغير ، فما ينبغي له أن يقحم نفسه في هذه الأمور . ان الحياة جد لا يرحم . ثم لقد كان بينه وبينها حواجز أخرى .

قضت عيني تلك الليلة في إعداد خططها . لسوف تقوم بالتهريب ، وقد سبق أن سمعها عمر تبسط مشاريعها للالا . انها من أجل لالا انما تسافر في هذه المرة .

كانت تحاول أن تكافح . انها تجتر أفكارها بغير انقطاع . ما السبيل إلى كسب مزيد من المال ؟ كان عمر لا يستطيع أن يصدق أن أمه يمكن أن تقبل السجن بهذه الخفة من أجل أن تزيد دخل الأسرة .

ان المبلغ الذي كانت تتقاضاه أجراً على عملها كان من تفاهته يثير الحنق حقاً . ولا مخرج من هذا العسر الذي كانوا فيه . انها تخيط سيقان أحذية القماش منذ بضعة شهور ، ومع ذلك لم يشبع أفراد الأسرة مرة طوال هذه المدة . وكان عمر يساعد أمه في عملها . ولكن ذلك كله لم يجدهم شيئاً . وقد فكرت عيني ذات مرة أن تبيع ماكينتها . ولكن الماكينة كانت ملجأهم الوحيد الذي يحميهم من العوز الكامل . فلم تلبث عيني أن غيرت رأيها وعدلت عن بيع الماكينة .

ترى لو باعت عيني ماكينتها أكان يكفي ثمنها لإطعام خمسة أفواه أكثر من مدة قصيرة ؟ فما عسى أن يصيروا إليه إذن بعد أن ينفقوا آخر قرش من ثمن الماكينة ؟ هذا ما تساءلت عنه عيني ، ثم انتهت إلى الحفاظ في كثير من العناية على ماكينتها التي حصلت عليها في أوائل عهدها بالزواج حين كان يجني الشهد من زهر البيلسان !

ان هذه الماكينة تذكرها بالأيام السعيدة القليلة التي عرفتها طوال حياتها الزوجية .

لقد بدأت عيني تستغل ماكينتها لإعالة أسرتها منذ خمسة عشر عاماً ، أي قبل وفاة زوجها بمدة طويلة . ظلت تدرز الأحذية للحذائين زمناً طويلاً ، ثم جاءها عمل من رجل إسباني يقال له جونزاليس ، يملك مصنعاً لصنع أحذية ، وكان لا بد لها من قبول هذا العمل ومن الرضا بالأجر القليل الذي تعطاه . . بل ان حظها سعيد ما دامت تجد عملاً ، ولو ترددت قليلاً في الرضا بهذا الأجر لفر العمل من بين يديها فراراً ، فما أكثر اللائي يتمنين أن تزيد حصتهن مما يوزع عليهن منه . لذلك طفقت تخيط سيقان أحذية القماش هذه نسيجاً أبيض صلباً ، بغير هدنة ولا راحة .

لكن عيني كانت قد بدلت عملها عدة مرات .

عملت مرة في غزل الصوف ، أخذت تصنع العراقي ، ثم راحت تصنع لبادات تلبد باليد . وهي الآن تدرز بماكينتها . كانت لها إذن حرف كثيرة . ولكنها لم تستطع يوماً أن تجني من عملها ما يكفي لسد الرمق . والأسرة كلها عالة عليها ، حتى الجدة بعد الآن .

لقد اشتد نحولها حتى صارت عظاماً طويلة لا يكاد يكسوها لحم . ان كل ما يصنع فتنة المرأة قد زال عنها منذ مدة طويلة . لقد ذبلت ذبولاً تاماً . وقسا صوتها وتصلبت نظرتها .

ان عمر يصحبها بعد الظهر من أيام السبت إلى الاسباني جونزاليس يا لهذا الرجل ما كان أضخم كرشه . . أما خداه فكانا أشبه باليتين ينتفخ بهما وجهه .

انه في يوم السبت يحاسب النساء اللائي يعملن له ، ويدفع لهن أجورهن . وكانت عيني تلتفت إلى ابنها عمر ، بينما الرجل يحسب فتقول له :

ــ احسب أنت أيضاً ، لنرى هل حِسابه صحيح !

كان عمر يأتي مع أمه خصيصاً ليتأكد من أن المبلغ الذي يدفعه الرجل لأمه هو المبلغ المستحق لها فعلاً . ان أمه لا تعرف الحساب ولكن هذا لم يكن هو الغاية الوحيدة من ذهابه مع أمه إلى الرجل الاسباني . لقد كان عليه أن يحفظ عدد « الدستات » التي دفع الرجل أجرها ، والمبلغ الذي دفعه ، فإن أمه تخلط بين هذه الأرقام خلطاً كبيراً ، ولا تفهمها كثيراً .

حتى إذا عادا إلى البيت ، بدأت عمليات التثبت من صحة الحساب.

ــ وتلك التي صنعتها في ذلك اليوم ، هل أدخلها في الحساب ؟

ويأخذ عمر يراجع الحساب كله من أوله إلى آخره ليعرف هل أدخلت فيه تلك السيقان التي تذكرها أمه . ثم يقول :

ــ نعم أدخلها .

ــ وتلك التي حملتها إليه وحدها منذ أربعة أيام ؟

ــ ألم نضفها منذ لحظة ؟ أنت تعرفين أننا أضفناها ، فهي داخلة في الحساب .

ــ أردت أن أعرف هل أنت متأكد من ذلك .

ــ متأكد .

ــ مصيبة المصائب أن ننسى شيئاً مما قدمناه له . نحن حتى بدون هذا النسيان ، لا نتوصل إلى تدبير أمورنا .

وعلى هذا الحال تنقضي ساعات .

وكانت عيني في بعض الأحيان ، قبيل النوم ، أو حتى في صباح الغد ، بعد أن يكون كل

شيء قد حسب حساباً أخيراً ، تعود فتسأل ابنها بينما هم في حديث آخر .

ـ ألا يحتمل أن تكون قد أسقطت من حسابك « الدستات » الأربع التي أحضرها عامل جونزاليس إلى البيت بنفسه ؟ هذه الدستات الأربع لم آخذها أنا . فلعل الاسباني نسي أن يدخلها في الحساب .

فكان عمر يطمئنها ، ويؤكد لها أنها حسبت مع الدستات الأخرى . وكان يتيه في آخر الأمر ، فيؤثر أن يجيبها بنعم على كل سؤال تلقيه . هل في وسع أحد أن يجاريها في طريقتها هذه في الحساب ؟

وكانت الأم تضع المال الذي جاءت به إلى البيت في حضنها على الفستان المشدود بين ساقيها ، (انهم يملكون ما يشترون به خبزاً في ذلك اليوم) ثم تقول :

ـ هذا للدقيق ، هل ترون كم سندفع ثمناً للدقيق وحده ؟

ان مريم تحدق إلى قطع النقود والأوراق المختلفة ، وتسأل :

ـ كم ؟

ـ كل هذا . .

تقول عيني ذلك وتضع كومة من المال على حدة .

فتنادي الصغيرة أخاها عمر قائلة :

ـ أنظر . . كل هذا ثمن للدقيق وحده .

ـ طبعاً يا غبية .

ـ كيف يمكن هذا ؟

ـ هكذا !

ـ إذن لن يبقى لنا بعد ثمن الدقيق إلا قليل ، لن يبقى لنا شيء تقريباً . ذلك أن الكومة الثانية لا تزيد على أن تكون عدداً قليلاً من قطع النقد .

وتقول الأم :

ـ هأنتم ترون كم يكلفنا الخبز وحده . فلا تفكروا إذن فيما عدا الخبز . . وان كنتم تمنون أنفسكم عبثاً .

وتسأل مريم :

ـ لماذا لا تعملين أكثر مما عملت ، حتى نحصل على كومة كبيرة من المال ؟

ـ ألا ترين يا بنتي أنني لا أستطيع ؟

والحق أن عيني كانت تجهد نفسها في العمل . انها لا تكاد تتوقف عنه لحظة واحدة . كان الأولاد ينعسون في المساء فينامون ، وتظل هي ساهرة تعمل . حتى إذا استيقظوا في صباح غد ، وجدوها تعمل كذلك .

ــ نستطيع أن نشتري بعض اللحم يا أمي ، هه ؟ عظيم . . كسكسي باللحم المسلوق مع المرق . ما رأيك ؟

ــ اسكتوا هذه المجنونة .

ان عيني تتأمل ، ساكنة جامدة ، هذا المال الذي هو ثمرة جميع أتعابها .

وعمر يفكر في كل ما يمكن أن يأكلوه من طيب الطعام : عجة مصنوعة بالدقيق مع بصل وبقدونس مفروم ونثارات سمك ، أو سردين مقلي ، أو حتى بصل مقلي .

ومريم تعدد ما يمكن أكله مما لم يكونوا يأكلونه ، فلا تسمع إلا كلمات « اسكتي اخرسي » التي تقولها لها أمها ، وهي تظن أن أمها تصغي إلى كلامها .

وتخرج عيني فجأة من تفكيرها فتصيح :

ــ ماذا تقولين ؟ ألم أقتل نفسي قتلاً بالعمل ؟ أترين ان هذا غير كاف ؟ من أين آتى بالمال حتى نستطيع أن نأكل هذه الأشياء التي تذكرينها ؟ قولي، إذا كنت تعلمين . .

وتنفجر مريم باكية .

وتقول عيني وهي تئن :

ــ يا رب ، يا رب . أوف أوف . اسكتوها وإلا صنعت بها . . غير أن الصغيرة تزداد شهيقاً .

ــ أتريدون أن أعمل لصة ؟ أتريدون أن أمضي مع الذكور في « المدينة الواطئة » أهو ذنبي أننا لا نستطيع شراء شيء آخر ؟

ويلوح في الأم فجأة أن قدرتها على احتمال التعب قد نفدت .

لم يكن بالمدينة عمل كثير . الفعلة وعمال النول وصناع البوابيج يسجلون في قوائم العاطلين . ولكن لا يتقاضى منهم شيئاً بطبيعة الحال إلا أولئك الذين يذهبون إلى ورش العاطلين التي تنشأ لتعمل بضعة شهور . والمسجلون يقبلون في هذه الورش أسبوعين أو ثلاثة ثم يخلون المجال لغيرهم . والقوائم طويلة . وكثيرون ينتظرون دورهم والناس جميعاً جياع .

ان عمال النول ينقطعون عن أي عمل خلال الأسابيع الأخيرة من الربيع وخلال الصيف كله ، أي خلال نصف السنة تقريباً . لا عمل لهم طوال هذه المدة . وكذلك صناع البوابيج . ذلك أن هؤلاء جميعاً إنما ينتجون لسكان القرى . وسكان القرى لا يشترون إلا حين يفرغون من الحصاد . وهكذا فإن أصحاب الحرف من أهل المدينة يقضون نصف السنة في محاولة تسجيل أسمائهم في ورش العاطلين .

ولما كان عدد منهم يتعاطون الموسيقى أيضاً ، فقد كان هؤلاء يعزفون في الأعراس وفي حفلات الختان وفي المقاهي خلال شهر رمضان . غير أن ذلك لا يمنع أن يظل أبناؤهم جياعاً . فإن الليالي الطويلة التي يقضونها ساهرين يعزفون ، لا تدر عليهم شيئاً يذكر . وكانت نساؤهم

تعمل أيضاً . ولكن عمل الرجال والنساء جميعاً لم يكن ليدبر الأمور . وما ذلك لأن الجهد الذي يبذلونه قليل فلو قد كان الربح على قدر العناء لأصبحوا جميعاً أغنياء .

وكان بينهم مع ذلك من يشرب الخمر بالقليل من المال الذي يقع بين يديه، بل ان بعضهم ليسرف في الشراب أحياناً ، فيكون ذلك سبباً في استياء الحي كله منه ، وفي احتقاره له . كذلك كان محمد شراك مثلاً : كان محمد شراك ، وهو أحسن حائك وأشهر رياضي في المدينة يبلغ من فرط الشراب في أيام الجمعة والأعياد أنه يزعج المعجبين به ، ويأخذ يصوت كأن به مساً . كان الأطفال يتجمعون وراءه أسراباً هائجة وقحة ، ويأخذون يرمونه بالحجارة وهم يصيحون صيحات مجنونة :

ــ ديدو بوارشو ، ديدو بوارشو .

ــ أتظنونني سكران يا أولاد الحرام ؟

كان الرجل يقف ويرمي الأطفال بوابل من شتائمه . فإذا هم يولون هاربين دون أن يكفوا عن زئاطهم وعياطهم .

ويظل شراك واقفاً لا يتحرك . انه يترنح على ساقيه ، ويلوح لهم مهدداً متوعداً بحركة بذيئة . ثم يهمهم همهمة رضا وارتياح ، ويعود بعد ذلك يصرخ ساخطاً مغتاظاً وحده :

ــ حقيرون . . انكم لا تعرفون ما بقلبي . . ولا تعرفون إذن ما يحملني على السكر . . نهايته . . ولسوف أمعن في الشراب ، ما دمت لا أستطيع أن أعمل شيئاً . وليحدث ما يحدث !

وينتهز سي صلاح هذه الفرصة ، وهو رجل تقي ، شديد العناية بلحيته ، فيقترب منه ويأخذ يعظه :

ــ اسمع يا محمد . . كيف تجرؤ على أن تسلك هذا المسلك ؟ هل يجوز لمسلم مؤمن أن يفعل هذا الذي تفعله أنت الآن ؟ انظر . . أنظر في أية حالة مزرية تضع نفسك أمام أعين جميع سكان الحي الذين يحبونك ويقدرونك تقديراً عظيماً . . ولماذا هذا كله ؟ هل تعرف ، أنت على الأقل ، لماذا تسلك هذا المسلك ؟ أجبني . . أجب . . أيها التعس !

ولكن محمد الذي بلغ به السكر كل مبلغ لا ينتبه إلى أية وصية من وصايا الشيخ الذي راح يعظه وهو يلمس لحيته الكبيرة . وها هو ذا يضحك ويقول مستهزئاً :

ــ حياتي تنقضي بلا جدوى . ولن آسف عليها . أما المال فإليك هو . . خذ ما شئت منه .

قال محمد ذلك ونثر على أرض الشارع قبضة من قطع النقد بحركة مفاجئة . فسرعان ما انقض عليها الأطفال يجمعونها .

وان أحمد دزيري ، والد عمر ، الذي كان أثناء حياته نجاراً ممتازاً ، كان يسرف في الشراب

أيضاً . انه هو الذي صنع أكثر نجارات البيوت الجميلة في زمانه . ولكنه أخذ بعد ذلك يدمن الشراب ويكثر من السكر شيئاً فشيئاً . ومرض في ذات يوم وبقي راقداً في فراشه بضعة أشهر ، حتى مات .

ولقد مات منذ مدة طويلة ، فليس يحتفظ ابنه عمر بأي ذكرى عنه . حتى لكأن الصبي قد نشأ بلا أب ، فإنه لم يكد يعرفه . ولقد قيل أن الرجل أصيب بمرض في صدره لم يمكن أن يشفى منه .

وبقيت عيني أرملة تعيل أربعة أطفال : بنتين هما عيوشة ومريم وابنين هما جلالي وعمر . وما أن انقضت سنتان على موت الأب حتى لحق به جلالي وهو في الثامنة من عمره ، بعد أن أصيب بذلك المرض نفسه : مرض الصدر .

- ٢١ -

الليل الوعر الواضح يتلألأ على هون . ان جميع الليالي في هذه الفترة لها هذا الصفاء القاسي نفسه . النوم يستولي على عمر . ويفتح له نخروباً كبيراً في بياض الليل العميق ، ولكنه لا يريحه . ان شيئاً ما يتحرك في كل مكان حول عمر شاقاً إليه طريقاً . . .

كان يخيل إلى عمر أنه لم ينقطع عن الكلام إلى هذه الدقيقة . لقد تهدم قاع حلقه ، حتى لكأنه قشر قشراً . وما هي في الواقع إلا بضع كلمات ، كلمات عريضة لم تفهم ، يرددها هي نفسها ، ويصر إصراراً عنيداً على اجترارها إلى غير نهاية . انها تجتاز فكره كأعصار . طوال نومه ، بينما هو ماض قدماً في عالم مهدوم الأسوار ، كان يطلق نداءات كبيرة يخيل إليه أن شخصاً آخر يردها إليه على الفور بلا رحمة . وانه لمستعد في بعض اللحظات أن يحلف أن كلماته كانت كلمات شخص آخر لا يزيد هو على أن يرددها . وها هو ذا ينتقل على حين غرة إلى وسط شوارع كبيرة تسطع سطوعاً أسود . ان رجالاً متنقلين ، متلبدين في زوايا الشوارع ، يهجمون عليه ، ويتمسكون بتلابيبه عند كل خطوة يخطوها . وهذه صيحات قريبة ، ولكنها لا تدرك ، تنطلق في الجو . . ان فضاوات فارغة تتعاقب ويتلاحق بعضها وراء بعض . وأحس عمر أنه قد سلخ من الداخل سلخاً كاملاً وتفتق . لم يبق فيه إلا إصرار عنيد عنيف على التمسك بأهداب الحياة . . يريد أن يظل حياً رغم المعارك القاتلة التي يخوضها ، يريد أن يظل حياً .

هذا الذعر ، كان عمر يراه ، فهو الآن يترجع في نفسه . انه هناك ، هذا الذعر ، جالس على فراشه ، يطوي قدميه تحته . قال عمر لنفسه :

« هو خوف جدتي ما في ذلك ريب » كان يفهم من بعيد أن جدته خائفة ، خائفة من عزلتها ، من وجودها في المطبخ وحيدة مع دائها . كانت لا تكف عن التوسل والتضرع إلى ساعة

متأخرة من الليل ، بينما يكون جميع من في المنزل قد غرقوا في سبات عميق . وكانت تتوقف عن التضرع خلال بضع دقائق ربما لتعرف هل يستجيب لندائها أحد . أتراها كانت تتوقف أيضاً بسبب الخوف ؟ لقد أيقظت نداءاتها عمر من نومه . ما من أحد يجيبها ، ان البكم يخنق البيت العتيق خنقاً . تخيل عمر الظلمة التي تخيم في كل مكان ، مستندة إلى باب الغرفة ، مهددة عدوة . . ان هذا الشيء الضخم الذي لا يمكن أن يقول المرء ما اسمه يتربص في الفناء . هذا صوت الجدة يعود إلى الكلام في هدوء ، من بعيد . انها تثرثر تخلصاً من الكلال ، لا ذلك الكلال الجميل ، كلال الأجسام القوية ، بل كلال الشيخوخة . ان خواطرها التعيسة تشق لنفسها طريقاً في خلال الخوف ، والمرض ، والشيخوخة خاصة .

الجميع في غرفة عيني نيام . أنفاسهم ذات الايقاعات المختلفة تتصالب في الجو الكثيف . ومن حين إلى حين يتنهد أحد النائمين أثناء نومه . انها عيني .

وهذه شكاة تصل من قاع الظلمات . ان الجدة تنتحب :

ــ عيني ، عيني . .

ان المرء يحس من هذا الصوت ان العجوز فاقدة قواها .

ــ عيني . أتدعينني وحدي ، يا بنيتي ؟ ماذا صنعت من ذنب ؟ لماذا يا عيني ؟ لماذا ؟

ان الصوت يتلمس طريقه وكأنه يريد أن يختطف شيئاً لا يستطيع بلوغه . ما من أحد في الغرفة يتحرك . انهم جميعاً غارقون في الخدر الذي ينصب على الأشقياء انصبابه على فرائس حية ، بلا هوادة ، ليصير في آخر الأمر إلى اختلاط لا نهاية له . ان هذا القلق النهم الذي ينهمر من الجدة على قلب الفتى يبني حولهم قلعة بلا نوافذ ، عالماً مغلقاً إغلاقاً لا شفقة فيه ولا رحمة .

ان عمر يعرف مسبقاً ما سيحدث في الغد .

كان الطعام يحمل إلى الجدة في تلك الطاسة الحديدية التي كان دهانها المتشقق في عدة مواضع يرسم نجوماً كبيرة سوداء . كانت عيني تضع الطاسة بين قدمي أمها ، وفيها طعام اليوم ، دون أن تكون قد نظفتها . لقد تشكلت في الطاسة طبقة من الدهن تلتصق بجدرانها كأنها قشرة .

ــ لماذا صحت ذلك الصياح كله أثناء الليل ؟ أحرام أن يهدأ المرء معك دقيقة واحدة ؟ أأنت مجنونة !

هذا ما كانت تصبه عيني على رأس أمها .

وكانت الجدة تنتظر أن تبتعد ابنتها عنها .

انها تتقلص على نفسها ما دامت ابنتها أمامها . تخاف أن تنهال عليها اللطمات ، خوف طفل أو كلب صغير . انها مطوية طياً ، كأن ظهرها محطوم ، وقد وضعت رأسها على ركبتيها ،

وأخذت تطرف بعينيها من ناحية عيني دون أن تنهض رأسها . كان عمر جالساً على الأرض أمام قدميها !

ــ هيه . . ألا ترين انني آتية بطعامك ؟ أم أن ما آتيك به لا يرضيك . .

هكذا كانت عيني تصرخ في أذنها كأنه صوت الرعد ، وهي تدفع إلى أمها بالطاسة .

ولكن العجوز لا تتحرك . فكانت عيني تتناول الطاسة ، وتقبض على رأس الجدة ، ثم تدسها تحت أنفها . فتقول الجدة :

ــ نعم يا بنيتي . رأيت . لماذا تعاملينني هذه المعاملة ؟

فتقول عيني ، وهي تهزها دون مراعاة :

خذي كلي .

وتضيف إلى ذلك مدمدمة بين أسنانها :

« ليته سم » .

فكانت الجدة تقوم بحركات مضطربة دون أن تستطيع كبح نفسها ، فتتناول الطاسة بيدها التي ترتجف ارتجافاً مروعاً ، وتضعها على الأرض تحت الكرسي . وعندئذٍ تسحب عيني يدها التي تسند وجه العجوز ، فيعود الوجه يسقط على العظمتين الكبيرتين ، عظمتي الركبتين . لقد أصبحت العجوز عاجزة من ضعفها عن نصب جذعها . لقد تكسرت . لقد تحطمت تحطماً لا برء منه .

وتمضي عيني وهي تدمدم .

فإذا تأكدت العجوز أن ابنتها مضت ، حاولت أن تنهض رأسها ، وأخذت تنظر بعينها الزرقاء إلى عمر . كان لا يخفى على عمر أنها لا تكاد تدرك ما يقع لها . لقد أصبحت من الضعف بحيث لا تعرف كيف تحمي نفسها من عنف عيني . وفي نظرتها الغارقة التائهة كان يرتعش ذلك الشقاء الهائل ، شقاء بهيمة تشارف الموت .

وها هو ذا رأسها يسقط مرة أخرى . على أن ضياء نحيلا يلتمع في حدقتيها اللتين يغشاهما الضباب ، ضياءً نحيلاً كأنه شرارة سريعة . لقد عرفت أنه عمر .

تلك فرحتها بشعورها انه إلى جانبها . انها فرحة تنبع من أعماق عينيها وتتقدم نحوه مترنحة مهتزة .

ــ آه . . هذا أنت يا عمر ؟ لم يبق لي غيرك .

كانت تنطق بهذه الكلمات وهي شبه نائمة . لقد أصبحت الجدة منذ مدة لا تنتبه إلى شيء ، إلا حين يحمل إليها الطعام ، فهي تضطرب عندئذٍ بعض الاضطراب ، ثم تدور برأسها ، وتمد ذراعها ، وتأخذ كل جراياتها من الاناء الموضوع بين قدميها . كانت ، بأصابعها التي تتلمس الأشياء تلمس الأعمى ، تنقل ما تستطيع نقله من الاناء إلى فمها الذي ينفتح من

جانب ويأخذ ينفتل وينعقف . انها تأكل وهي تئن . وكانت ثيابها ملطخة ببقعة كبيرة من الدهن . ، في الموضع الذي يستند إليه فمها . وكان فتات الطعام الذي يعجز فمها عن الامساك به ينتشر عليها في كل صوب .

وكان عمر وعيوشة يدمدمان دائمًا حين كانت عيني تزجر الجدة .

ــ لماذا تسيئين معاملتها إلى هذه الدرجة ؟

فكانت الأم تنظر إليهما وتصيح متعجبة :

ــ أنا ؟ أنا أسيء معاملة أمي ؟ متى أسأت معاملتها ؟

فكان الطفلان يحتاران ماذا يقولان ، ثم يطرقان برأسيهما ، وهما يرددان : متى ؟ متى ؟

وتقول الأم :

ــ اسمعوا . . لقد عملت حتى الآن غاية استطاعتي . انكم ترون ذلك في وجهي وترونه في جسمي ، وأنتم ترون كذلك أن النتيجة أخيراً صفر . لا شيء إلا مزيد من التعب ، وإلا مزيدٍ من العجز عن العمل . وبعد أن يعمل الانسان طوال حياته ، لا يبقى في النهاية إلا أن يعيش في مأوى للعجزة أو أن يتسول . فإذا جاء الموت عندئذٍ كان ذلك خيراً . ان الموت هو لنا غطاء من ذهب . أما إذا لم يجيء الموت ، أما إذا كان الموت لا يريدنا ، وظللنا أحياء دون أن نستطيع القيام بعمل من الأعمال ، فتلك كارثة . وفي مثل هذه الحالة إذا لم يأت الموت إلينا ، فيجب علينا أن نذهب إليه ، بل يجب علينا أن نشتريه بالمال إذا استطعنا ذلك . اننا نكون قد عشنا واكتفينا من العيش ، نكون قد عرفنا أنواع البؤس والشقاء ، ولم يبق في هذه الحياة الدنيا ما يحملنا على التمسك بها . لن تأسف قلوبنا عندئذٍ على ضياع سيء ، لـن نحزن عندئذٍ على ضياع شيء حين يصبح أحدنا عاجزاً عن العمل ، فإنه يستطيع أن يقول انه قد مات وانتهى الأمر . وفي هذه الحالة ينبغي أن يأخذنا الموت بأقصى سرعة . لأننا نكون قد عشنا أكثر مما يجب أن نعيش . فمتى تم هذا جرت الأمور في مجراها ، وعادت إلى نصابها .

لم يفهم الأولاد .

فأضافت عيني تقول في حرارة وحماسة :

ــ ماذا ؟

فأجابت ابنتها الكبرى :

ــ تقولين . . . ان الانسان يظل يعمل ، حتى إذا أصبح لا يقوى على العمل ، انتهت حياته . . قد يكون هذا خيراً ، ولكن في بعض الأحيان قد لا . . .

ــ قد لا يكون خيراً ؟ كيف لا يكون خيراً ؟ الانسان الذي أصبح عبئاً من الأعباء ، الذي يأكل على حساب الآخرين ، الذي يحتاج إلى من يخلع له ثيابه . . . كيف لا يكون موته خيراً وخاصة حين يكون الآخرون فقراء ؟ . . .

كان الأطفال ينظرون إلى أمهم جميعاً ، ثم يلتفتون بأبصارهم إلى باب الغرفة ، إلى ناحية المطبخ . وهمت عيوشة بأن تحرك يدها كأنها تريد أن تمنع أمها من الكلام . ترى ماذا يحدث لو وصل هذا الكلام إلى مسامع الجدة ؟ كان الأطفال واثقين من أنه يكفي أن تلفظ هذه الكلمات أمام الجدة حتى تقتلها حتماً .

والتفتت عيني إلى ناحية المطبخ هي أيضاً .

قال عمر بينه وبين نفسه : متى أصبح إنسان عبئاً .

وكان عمر يساعد جدته في كثير من الأحيان . ومعنى ذلك أنه كان يساعدها على أن تعيش . انه لم يشعر في يوم من الأيام بأنها عبء . رب امرىء يطعم أسرة بكاملها ثم يكون عبئاً . هل الطفل عبء ؟ انني لا أستطيع أن أفهم هذه الأمور !

وكانت الجدة في بعض الأيام لا تشرع في تناول طعامها ، بل تترك ذراعها متدلية فوق الطاسة ، وتنهض رأسها خلال لحظة قصيرة . وتنظر حولها هنا وهناك ، وتهز يديها الحانقتين فوق البلاط العاري ، وتأخذ تئن مدة طويلة .

فكانت عيني تقول لأولادها :

ــ أتسمعون ؟

فيظل الأولاد في الغرفة ، تاركين جدتهم في وحدة المطبخ .

ــ انها متى احتاجت إلى شيء تدعوني أنا .

قالت عيني ذلك ، ثم أشارت إلى عمر :

ــ اذهب إليها واعرف ماذا تريد . ولكن لا تبق هنالك مدة طويلة .

كانت الجدة تمضغ جملاً مبهمة غير متميزة ، وهي لا تزال تئن . انها تشتكي وتتوجع . وخيل إلى عمر انها تريد من خلال عباراتها المشوشة أن تذكر انها مهملة . كانت تقول ان كلاباً تأتي إليها أثناء الليل ، وتظل تحوم حولها ، وانهم لا يصدقون كلامها مع أنه حق . ان هذه الكلاب تنهش ساقيها متى خيم الظلام في البيت .

ان عيني التي سبق ان سمعت منها هذه القصة ألف مرة ومرة ، كانت تجيبها بأن ذلك أضغاث أحلام ، وكانت تتهمها أحياناً بأنها تكذب . كانت تعتقد أن العجوز تريد بذلك أن تلفت إلى نفسها أنظار السكان ، وأن تستدر شفقتهم .

وكانت تختم كلامها لها بقولها :

ــ هذه خيالات مجنونة ولن تقنعي أحداً بصدق خرافاتك هذه .

ولكن عمر فاجأ كلباً من الكلاب ذات مساء يصعد نحو الجدة . لا شك أن رائحة الطعام الذي في الطاسة هي التي تجذبه إلى هناك . ان الجدة عاجزة عن منافسته على الطعام ، وعاجزة كذلك عن طرده . وبدا الحيوان للصبي ضخماً ضخامة هائلة في ضوء بقية من شمعة كانت مثبتة

على الأرض تنشر نوراً مهتزاً دامياً . استطاع عمر مع ذلك أن يسيطر على خوفه فنهر الكلب وطرده .

ومنذ ذلك الحين أدركوا أن رائحة تفسخ قوية لا يعرف مصدرها ولكنها تدرك من بعيد لشدة حاسة الشم عند الكلاب هي التي كانت تجتذب الكلاب . ولما أصبحت هذه الرائحة قوية تزكم الأنوف فهموا أنها صادرة عن الجدة نفسها . فقررت عيني أن ترفع عنها الأغطية التي تلفع ساقيها وقدميها .

كانت ساقا العجوز المجمدتان اللتان لا تتحركان قد انتفختا انتفاخاً شديداً ، وأخذ يخرج منها نوع من سائل يشبه الماء . وكانت الخرق التي تلفها لا تبدل ، فلما نزعت عنها عيني هذه الخرق ، رأت مع أولادها دوداً كثيراً كأنه النمل يقرقر في اللحم الأبيض الرخو .

عالم الليل ، هذا العالم الصارم الخانق ، تنهدم في هذه اللحظة جدرانه : ان النهار يطلع .

ونام عمر شيئاً فشيئاً تهدهده نسمة الجوع الحارة الخفيفة . لقد أدرك في باطن شعوره ان النهار يقترب ، فارتاح إلى ذلك وسرى عنه . ان جسمه ليسترخي هادئاً مطمئناً . هذه لحظة الخلاص . انه الآن يستسلم للنوم . ليس عليه الآن إلا أن يغوص في النوم ، ليس عليه إلّا أن ينام ، أن ينام ، أن ينام . .

ـ ٢٢ ـ

مضى يوم. ثم ثان. ثم ثالث. البؤس يجعل الناس في دار سبيطار حزانى . وسكان غرفة عيني لا يزالون كما كانوا دائمًا، مع زيادة قليلة في الفقر. انتصاب الأطفال أصبح أضعف وأوهن. الوجوه في البيت تتحفر وتزداد سمرة. الأعين لا تزال متسعة ومتمددة فيها التماع حمى. ومع ذلك كان عمر يصادف في المدينة أناساً يبتسمون ، وتلوح فيهم مظاهر الصحة والشبع والاكتظاظ . ان عمر يلاحظ هؤلاء الناس مستغرباً . انهم فرحون بينما الناس يعيشون في شقاء وبؤس وعوز . لا شك أنهم يتبادلون فيما بينهم نظرات سريعة حين لا يراقبهم أحد . .

لقد ازداد الكلام الآن . ان البنتين تعملان منذ شهرين في مصنع للسجاد . أصبحت عيوشة تحمل إلى البيت أجر الأسبوع ، وكذلك مريم ، غير أن أجر مريم أقل من أجر عيوشة ، لأنها أصغر منها سناً . كانت البنتان تضعان المال الذي تجيئان به في يد الأم . وكانتا تقترحان عليها ما يمكن شراؤه من أشياء . أصبح من الممكن شراء زيادة قليلة من الدقيق قطعاً . وكان عمر يصغي إلى كلامهن منصتاً ، ويقول بينه وبين نفسه : ليتنا نستطيع أن نحصل على مزيد من الخبز ، على خبز كثير .

وأصبحت البنتان تشتهيان كل شيء ، ما دامتا تجنيان بعض المال ! « ربما استطعنا أن نشتري قليلاً من اللحم من حين إلى حين . أليس كذلك يا أمي ؟ مرة في الأسبوع على الأقل . ربما نستطيع أن نشتري بيضاً . أنه أرخص ثمناً من اللحم . نصنع عجة بالحمص . والفاصوليا أرخص من البيض أيضاً . وشيئاً من الرز . ما رأيكم أنتم ؟ بهذا المال الذي معنا . . . » .

كانتا تتكلمان دون أن ينضب لكلامهما معين .

وكانت عيني تصغي إليهما ، وتدع لهما أن تتحدثا ما شاء لهما هواهما . انهما تتدفقان في قول كل ما تريدان قوله . وأخيراً تقطع الأم هذه الثرثرة كلها في حزم . صحيح انهما تحملان إلى البيت بعض المال . ولكن هذا أمر لا يحسب حسابه .

ها هما تسألان :

ــ ما رأيكم أنتم ؟

فتقول عيني :

ــ ان الأم هي التي لها القول الفصل ، أليس كذلك ؟ الأم هي التي تتكلم . وانها لتقول لكم : ان صنع أربعة أرغفة في اليوم يعني أن علينا أن نشتري ثلاثة كيلو من الدقيق كل يوم . طيب . معنى هذا أن علينا أن نشتري الدقيق أولاً وقبل كل شيء .

وتأخذ عيني تعد المبلغ . ان عمر موافق على رأي أمه . الخبز قبل كل شيء . ويجب الحصول على أكبر مقدار ممكن منه . ان أحلامه لا تذهب إلى أبعد من هذا المدى .

وتضيق أختاه ذرعاً ويفرغ صبرهما فتقولان أخيراً :

ــ ما أجمل الحياة التي كان في وسعنا أن نحياها لو لم يكن علينا أن نشتري هذا المقدار كله من الخبز !

إنهما لا تفكران إلاّ في اللحم ، والبيض ، والرز . أما قليل من الخضرة المسلوقة بالماء ، وأما طبق من اليخنة المتبلة ، فذلك لا يعنيهما . ان عيني وعمر يريان أن قليلاً من الحساء لتبليع الخبز كاف . فهناك أجرة البيت وثمن النور ، لا بدّ من دفعهما : ستون فرنكاً في الشهر .

كانا عائدين في ذلك اليوم الى البيت . عمر يحمل على ذراعه قفة مملوءة بالحشائش والخضر المتنوعة لمها من أوضمة السوق ، وعيني تحمل قادوساً طافحاً بالماء يشد ذراعيها الى أسفل ، من فرط ثقله . وتسير وراء ابنها متدثرة بحايكها الأبيض الذي كانت حواشيه تزداد تفتقاً يوماً بعد يوم . عمر يجيء بالطعام ، وأمه تجيء بالماء من العين للشرب . ذلك لأن البئر في البيت قريبة من المراحيض كل القرب ، يتسرب منها اليها شيء ، فعيني لا تحب ان تشرب من ماء هذه البئر . فلما وصلت عيني الى الباب وضعت القادوس على الأرض في ثقل وعناء ، ونادت ابنتها بصوت مهتاج . لقد أصبحت عاجزة عن التقدم خطوة واحدة أخرى . فهرعت عيوشة ، وهي تطلق صيحة فرحة من داخل البيت . فاغتاظت عيني وقد أخذ منها التعب كل مأخذ . ان مزاجها الآن

لا يسمح لها باحتمال شيء من عبث الأطفال . وكانت عاجزة عن الكلام من فرط اللهاث .

أما عمر فكان يشعر بموت في نفسه من طول ما نبش أكوام الفضلات في السوق المسقوفة . كان يذهب الى السوق بحثاً عن خضر يمكن الانتفاع منها ، فإذا عثر على شيء منها ، أخذ يلتقطه ويدسه في قفته ، وكان يعود من هذه الجولة وقد امتلأ قلبه حقداً وضغينة . لقد كان عليه ان يقوم بهذه المهمة كل يوم في الساعة الحادية عشرة عند خروجه من المدرسة .

وحين سمع فجأة صوت اخته يرن فرحاً ، اشتعل قلبه غيظاً . هو أيضاً لم يطق المزاح . وكان غضبه ينفجر شتائم . ولكن سرعان ما قالت لهما عيوشة في قوة وصرامة :

ــ صه !

وأشارت اليهما بحركات عريضة من ذراعيها ان يدخلا بسرعة . ثم مدت أذنيها الى ناحية فناء البيت ، كأنما هي تخشى ان يسمع كلامها أحد . ان الفتاة مهتاجة اهتياجاً شديداً . واستغربا هذه الأحوال العجيبة واحتارا في تفسيرها . صاحت عيني تقول :

ــ ماذا ؟ انطقي ؟ قولي ما تريدين أن تقوليه ، ثم اهدئي .

فدمدمت عيوشة :

ــ لا يا أمي . يجب أن لا يعلم الجيران بالأمر . أخاف من أعينهم ! فقالت عيني تأمرها :

ــ خذي القادوس ، ولنصعد الى الغرفة .

لقد ضعف صوت عيني ، وأصبح متردداً . انها توجس شراً . كثيراً ما كان توجس الشقاء هذا يلم بها ويغرق قلبها . فكانت تهبط في مثل هذه الأحوال من أقصى درجات التنبه الى أعمق درجات الوهن والخور .

قالت مدمدمة بين أسنانها :

ــ ما نحن في حاجة الى مزيد . لقد أجزل الله لنا العطاء ، وأنعم علينا بجميع الخيرات .

كانت عيني كسائر النساء ، إذا قالت الخيرات عنت المصائب .

ــ حسبنا ما عندنا منها ، لقد أصبحنا لا نعرف أين نضعها . لقد آذتنا العين الحسود بما فيه الكفاية وأكثر . . هه . . هه . .

فأجابتها عيوشة قائلة :

ــ صحيح يا ما . ان الانسان لا يستطيع أن يفعل في هذا البيت شيئاً دون أن تتجسس عليه ثلاثمائة عين .

قالت عيني تنهر ابنها :

ــ تقدم ، أنت . مالك مسمراً هكذا كالأبله ؟

فتبعهما عمر في طواعية . وجرت عيوشة تعود خفيفة بخطوات صغيرة رغم ثقل القادوس الملآن . كانت تحمل القادوس أمامها بكلتا اليدين . وتحرص أشد الحرص على أن لا تتكسب منه قطرة واحدة . وكانت فيما هي فيه من نفاذ الصبر تحث أمها على الاسراع . ان رنة من الرضا

والسرور تشيع في صوتها ، وهي ما تنفك تعجز عن اخفاء هذا السرور ، رغم كل ما تبذله من جهد . قالت الأم لنفسها : ربما لم يقع شيء رهيب .

وتوسلت اليها عيوشة وهي تجتاز الفناء مسرعة :

ـ أسرعي ياما .

وتلبث عمر قليلاً ، وسأل أمه :

ـ ما هي العين ياما ؟

ـ شيطان يأخذك .

وقالت عيوشة :

ـ سترين ياما .

كانت قد وضعت القادوس في الغرفة وقفلت راجعة .

ـ سترين ، ستدهشين ، ستدهشين كثيراً .

أصبحت أعينهم بعد الضوء الساطع في فناء البيت ، لا تميز شيئاً في الظلام الذي يغرق الغرفة . لكأنهم غطسوا الآن في ماء مظلم مريح . انهم لا يزالون مبهورين من سطوع النور في الخارج .

ونادى صوت من داخل.. انها مريم التي تراهم ولا يرونها :

ـ ياما ، ياما ، تعالي شوفي .

ان تلك النبرة نفسها تشيع في صوتها ، نبرة الفرح المكظوم .

سألت عيني :

ـ ماذا ؟ ماذا يوجد ؟ ما الذي جرى في بيتي ؟ إنني لم أخرج إلا منذ لحظة ، انني لم أغب إلاّ مدّة الذهاب إلى العين والاياب فوراً ، فمالي أرى كل شيء قد اضطرب وانقلب . أكاد أنكركما ولا أعرفكما . ماذا حدث ؟ قولا ؟

قالت ذلك بصوتها الحاد المنكر المعهود .

قالت لها بنتاها :

ـ تعالي ، تعالي انظري بعينيك .

إن عيوشة لا تفكر الآن في كبت فرحها .

فقالت لها أمها :

ـ في أي جهة أنت ؟

واستمرت مريم تنادي :

ـ ياما ، ياما .

ـ لا شك ان شيئاً قد وقع . لقد جنت بنتاي .

قالت عيني ذلك ، ثم صرخت :

ـ ماذا يوجد ؟ هل تنويان أن تتكلما أم لا ؟
وعادت الصغيرة مريم تنق :
ـ ياما ، ياما .
فقالت الأم :
ـ غبية ، بلهاء... ما لها تصيح هذا الصياح : ياما ، ياما ؟
ان الضحك يصعد الى الصغيرة بلا نهاية . وراحت تردد كأنها الصدى :
ـ ياما ، ياما .
فجاءت صرخة من الطرف الآخر من الغرفة تقول :
ـ ماذا ؟
ورفع عمر صوته قائلاً :
ـ انها تطلب إلينا أن نسرع فننتظر . فلنذهب اليها لنر ما عندها .
ـ اخرس أنت .
هكذا قالت له أمه مهددة .

كانت عيوشة ترقص . انها تركض من أول الغرفة الى آخرها ، ملوحة بيديها ، منادية أمها بعبارات رقيقة . ثم دارت حول نفسها على قدم واحدة ، وظلت ترقص .

فلما ألفت أعينهم عتمة الغرفة ، رأوا مريم جالسة قرب سلة من الخيزران في مثل حجمها ، وقد أدخلت ذراعها في عروة السلة كما يمسك المرء بذراع صديق . ان هذه السلة ذات الكرش الضخم تبدو مترعة . لم ترعيني في حياتها سلالاً كهذه السلة . من أين تراها جاءت ؟ من أتى بها ؟ وما الذي فيها ؟

انفجرت عيوشة تقول وهي تترجرج :
ـ بطاطس . بطاطس ياما . بطاطس .
وتحولت كلماتها الى غناء لا ينفك يتسع حتى لكأنه غناء مجنون . ونظر بعضهم الى بعض مستطلعين ، وأخذت الأجوبة تتوالى .
ـ بطاطس .
ـ وفي السلة أيضاً خرشوف .
ـ وكذلك فول .
ـ وطماطم .
ـ كل هذا .
ـ وفيها لحم ياما . لحم . لحم . انظري ياما . صرة كبيرة .
ـ ألحم أيضاً ؟
البنتان تدوران وهما تغنيان ، وتتجولان في الغرفة ذهاباً وإياباً : بطاطس . خرشوف . .

لحم . . لقد ذهبت السعادة بعقليهما .

وكانت الأم وحدها محافظة على هدوئها . بل كانت تبدو طائشة اللب من فرط الدهشة . ان الأولاد لا يعنيهم المصدر الذي جاء منه هذا الخير كله ، بطبيعة الحال . حسبهم أن هذه الأشياء كلها قد أصبحت في بيتهم ، فهي لهم . أما عيني فقد ظلت خرساء لا تنطق بحرف .

لعلها كانت تتساءل من أين هبط عليهم كل هذا . ولاحظت بنتاها انها ساردة تفكر . ولكنهما لم تتعبا من الصراخ والغناء والرقص . حتى لقد أخذتا تتدحرجان على الأرض . وأخيراً هدأتا .

فجذبت الأم بنتها الكبرى وأجلستها أمامها :

ــ احكي لي الآن كل شيء . من أين جئت بهذه الخضر وهذا اللحم ، من أين جئت بهذه السلة كلها ؟

وتلاحق الاستجواب مدة طويلة .

سؤال فجواب فسؤال فجواب . وكانت تقطع الحديث صيحة دهشة لا تنقطع : صحيح ؟ انظري . وما كان أكثر صرخات السرور التي تشتمل على شيء من الشعور بالخجل إزاء هدية تبلغ هذا المبلغ من الروعة والكرم . وطفقت عيني نفسها تطرف بعينيها وتحرك يديها كما تفعل ابنتها .

وكانت من حين الى حين تطلق صيحات تعبر عن الريبة : ها هاي !

إن الأم والبنت تتبادلان هذا الصوت : ها هاي .

الأم تقول :

ــ ها هاي .

فتقول البنت

ــ ها هاي .

وسألت الأم ابنتها :

ــ هكذا ؟

فأجابت عيوشة :

ــ هكذا .

وعادت تروي القصة من جديد .

ــ هكذا قال. كذا ، وكذا .

انها تقص الحكاية مرة ثانية . وهذه هي الحكاية :

صاحت احدى الجارات تنادي عيني ، ثم صاحت جارة أخرى تناديها أيضاً . فأجابت عيوشة من أعلى بأن أمها خرجت ، وسألت :

ــ من أجل ماذا ؟

فقالت المرأتان :

أحد بالباب يسأل عنكم تحت . ألم تسمعيه ؟ انه ينادي منذ ربع ساعة ، لا شك ان حلقه أصبح يؤلمه من فرط ما نادى . هو رجل .

ولم تكن المرأتان تريان عيوشة .

قالت عيوشة :

ــ لم أسمع شيئاً . كنت مشغولة . لا يستطيع المرء ان يسمع من هنا أحداً . سأرى .

وأردفت عيوشة تتم رواية القصة :

ــ حقاً انه رجل . كان يتكلم هكذا .

قالت عيوشة ذلك ثم قلدت الرجل لأمها ، باصدار أصوات كأنها النباح . وفجأة استبد بها ضحك شديد قطع حديثها . ثم أضافت :

ــ وقفت وراء الباب حتى لا يراني . ظننته شخصاً غريباً . كنت لا أعرفه . وسألته من وراء الباب ماذا يريد . فأجابني بما ذكرته لك . انه ليس جميلاً جداً . .

فقالت عيني غاضبة شاتمة :

ــ كوليرا تأخذك . . ما هذا الكلام وأنت في هذه السن .

ــ ولكن هيأته تدل على انه رجل طيب ، وكان يضحك : أليست عيني هنا ؟ خسارة . . انها ابنة خالتي . قولي لها ان مصطفى ابن خالتك جاء يزورك . آه . . كنت أتمنى لو أجدها في بيتها . أنت لا تعرفينني ؟ قولي لها انني مصطفى ، ابن لالا خيرة . آى ، يا ابنة خالتي المسكينة . انني لم أرها منذ مدة طويلة جداً . هكذا كان يصيح بصوته العجيب . كان وجهه يدل على الطيبة . لا أدري هل هناك كثير من الرجال في مثل لطفه وأدبه .

ومد مصطفى سلة الخيزران من شق الباب لعيوشة .

ــ كانت السلة من الثقل بحيث ان ذراعي كادتا تنكسران حين حملتها وحدي . وذهب .

ــ لا تنسي ان تقولي لأمك انني ابن خالتها مصطفى . اننا جميعاً نقدر بنت خالتنا عيني . أسفا . اننا لا نراها كثيراً . عجيب هذا الزمان . نحن في زمان لا يزور فيه الانسان أهله . مع السلامة يا أولاد ، كونوا في صحة جيدة .

وحين عادت عيوشة بالسلة الى الغرفة ، حرصت على ان لا تلفت اليها فضول الجارات .

ــ من حسن الحظ انه لم يكن بالفناء واحدة منهن . أليس هذا من حسن الحظ ، هه ؟

ــ آه . . انه ابن خالتي .

لقد قررت عيني أخيراً أن تتكلم .

ــ نعم هو مصطفى ، ابن لالا خيرة . يا للمصادفات : اخرج في اللحظة التي يجيء فيها . جدته وأمي اختان شقيقتان . ماذا قال أيضاً ؟

مرة أخرى قصت عيوشة كل ما وقع .

ــ ان وجهه يدل على انه رجل طيب القلب ، وكان يضحك .

هذا ما كانت تضيفه عيوشة الى قولها في كل مرة .
وكانت الضوضاء المبهمة الغامضة التي ترجع في البيت تحتفظ بحديثها الذي لا ينتهي .
قالت عيني تدمدم :
ــ أظن انه يجب أن أدعو زينة لترى .
فاعترضت عيوشة تقول :
ــ هذا رأيك ؟ لا أدري . . أما أنا فلا أرى هذا الرأي .
ــ مسكينة زينة . . ان لها قلباً لا مكر فيه ولا خبث . انها تحبنا حباً صادقاً . لسوف يسرها هذا الخير الذي هبط علينا .
حاولت عيوشة ان تشرح رأيها قائلة :
ــ ذلك انها اذا عرفت ، اذا عرفت . .
فقاطعتها أمها تقول مندهشة :
ــ ماذا . . اذا عرفت ؟ . .
قالت عيوشة فيما يشبه الأنين :
ــ هوه . . ياما . .
ــ يجب ان أناديها .
ان عيني مصرة على أن تنادي زينة :
ــ أليست خير جاراتنا ؟ ألم تكن طيبة القلب دائمًا معنا ؟ يجب ان أدعوها . . في مثل هذه المناسبة .
وأخذت تنادي زينة بأعلى صوتها وهي في مكانها :
ــ زينة ، زينة ، زينة . .
وكانت عيناها تبتسمان ابتساماً لا يدرك .
فقالت عيوشة محتجة أيضاً :
ــ لعلها ليست في البيت .
وارتفع صوت من بعيد . ان زينة تجيب أخيراً :
ــ من يناديني ؟
فأجابتها عيني :
ــ . . نحن ننتظرك . . تعالي .
وقالت للأولاد :
ــ سوف تجنون من الدهشة . سترون . ستضحكون كثيراً .
ونفد صبر عيني ، فأرسلت عمر الى جارتها التي لم تهرع لتلبية ندائها بالسرعة التي تريدها .
قال عمر للمرأة :

ـــ تقول لك أمي ان تستعجلي .

فقالت زينة دهشة :

ـــ أتراها تريد أن أركض ركضاً ؟ ليس لي ساقان يا بني . ماذا هنالك ؟ لما لا تأتي هي ؟

وكانت زينة تستحث خطاها مع ذلك وهي تقول ذلك الكلام . فما ان وصلت العتبة ، حتى بادرتها بقولها :

ـــ انظري .

ـــ ماذا أنظر ؟

وما هي إلّا لحظات حتى كانت جميع نساء دار سبيطار يتحدثن معاً البعض واقف في وسط الفناء ، والبعض على أبواب الغرف ، واللاتي يسكن في أعلى مستندات بأجسامهن على الدرابزين الحديدي . شاعت النقنقة حتى لم تدع أحداً غير مشارك فيها : انهن يتحدثن عن السلة التي تلقتها عيني . وكانت عيني تشعر بالظفر ، وتحاول ان تخفي زهوها ، ولكن هذا الزهو كان أقوى منها ، فهو يظهر صارخاً في شخصها كله .

وتروح عيوشة تقص الحادث الخارق ، فتقاطعها أمها لتتولى اتمام القصة بنفسها ، والنساء أثناء ذلك لا ينقطعن عن التعليق على الحادث .

وفي المساء اجتمع عدد من النساء في غرفة عيني ، ينصتن لها وهي تقص عليهن ماضيها ، شبابها . لقد كانت قبل زواجها سعيدة . وتحدثت عن جميع أقربائها ، الأحياء منهم والأموات . كان يوماً متعباً ذلكَ اليوم .

فلا عيني ، ولا ابنتها ، استطاعتا ان تنطقا بكلمة واحدة في الغد : لقد بح صوتها من فرط ما تكلمتا أمس .

ـ ٢٣ ـ

حدث شيء من تبدل . أصبحت عيني في الأيام التي تلت ذلك اليوم تجلس الى الجدة مدة أطول . المرأتان لا تتشاجران الآن . كفت الجدة عن شكاواها المتعبة . ان عيني لطيفة ، انها ألطف النساء طرا . لقد دهش أولادها . ولكن هل لطفها هذا شيء جديد حقاً ؟ لقد سبق ان رأوا المرأتين على وفاق . كانت عيني حين تعانق أمها تبدو هي الأم الطيبة القلب الرقيقة العاطفة . فلماذا يعجبون الآن إذن ؟ لماذا يبدو لهم لطفها شيئاً جديداً ؟

كان عمر يفكر في الجدة . وكان يفكر في أمه ، ويفكر في الكلام الذي قالته عن الجدة كيف كانت . لقد عرّفهم ذلك الكلام بأمور كثيرة عن الجدة . لقد لقيت هي أيضاً كثيراً من العذاب .

كانت تقول عيني : ما أكثر ما قاست ! ما أكثر ما قاست !

أما ابنها فهو ابن عاق. لطالما ركضت في سبيله ركض طفلة صغيرة. كانت تقضي أياما كاملة في السوق تشتري لزوجة ابنها ما تأمرها بشرائه. وكانت لا تجد

بأساً في ذلك . حتى إذا جاءت تأكل ، أخذ هو وامرأته يتشاجران . إنهما يحاسبانها على ما اشترته قرشاً قرشاً ، فإذا لم يتوصلوا الى ضبط الحساب ، أخذ الابن يصرخ ، وأخذت امرأته تتظاهر بأنها تريد تهدئته ، وما ذلك منها في حقيقة الأمر إلاّ صب للزيت على النار . انها أفعى . أفعى أقول لكم . وتبتعد العجوز المسكينة عن المائدة وينهضان هما عن الطعام . وأمي المسكينة لا تجرؤ أن تعود لتأكل وحدها . انها تنتظر طويلاً . ولكن أحداً منهما لا يعود . كانت تنهض دون أن تأكل ، وكان ابنها يذهب الى عمله دون أن يأكل . وكانت امرأته تبقى بلا طعام . حتى إذا خرجت حماتها ، سخنت الطعام ، وطفقت تزدرده وحدها . هكذا كانت حياة أمي . وهأنتم أولا ترون الحالة التي آلت اليها الآن . لماذا ؟

كانوا متحلقين جميعاً حول الجدة ، ومعهم ابنة العم الصغيرة . وبينما كانت ابنتها تقول ذلك الكلام ، كانت الجدة قد دفنت رأسها بين ركبتيها . وفيما كانوا جميعاً يفكرون في هذا المصير الذي كتب على الجدة ، قالت ابنة العم الصغيرة :

ـ حين يصبحون عاجزين عن الحياة ، فانهم يحسّون ذلك . يفهمون حالا . . .

لماذا كانت بنت العم تقول هذا الكلام ، بينما هم جميعاً يغبطون أنفسهم على طول عمر الجدة التي كانت تقاوم الأنواء وتصمد لمد الحياة وجزرها . .

ـ انهم يترددون . ومن الصعب ان نعرف ما يدور بأنفسهم . ولكن الأمر يقع هكذا . . انهم يفهمون . .

ما الذي كان يجبر بنت العم الصغيرة على أن تقول هذا الكلام ؟ وتوقفت أخيراً . إلاّ أنها ما لبثت أن أضافت :

ـ حين يصبحون عبئاً . . على الآخرين . . انهم عبء حتى على أنفسهم . .

ومدت يدها فأنهضت رأس الجدة . انها تحاول ان يظل جذعها منتصباً . لعلها كانت تشعر بما كان يشعر به الأطفال : إذا اتجهوا بالكلام الى جدتهم وهي دافنة رأسها في ركبتيها أحسّوا انهم لا يكلمون أحداً . كانت منصورية تريد أن ترى وجهها . وتابعت تقول :

ـ وإذا فهموا كان معنى ذلك انهم بدأوا يسلكون الطريق .

كانت الجدة إذ تسندها ذراعا منصورية ، قائمة متصلبة . غير أن ثقلاً هائلاً أخذ يجذبها فجأة إلى أمام ، فانهار جذعها ، واستطال وجهها من فرط انخفاضه كأنه وجه حيوان .

وكان يبدو مع ذلك ان الجدة تفهم كل ما يقال من حولها .

لقد تقدم الصيف كثيراً ، وأصبح لا يستطيع أحد أن يقترب من الجدة ، فان الرائحة التي تخرج منها لا تطاق . ان هذه الرائحة تستقر الآن حولها ، وما من شيء يمكن أن يبددها .

فمتى غربت الشمس انتشرت الرائحة ، والتصقت بأنسام الليل الرطبة ، وتسللت حتى إلى أولئك الذين يقبعون في الغرف . لقد أصبحت الرائحة تشيع في دار سبيطار كلها ، ونفذت منها حتى الى الحجارة .

وفي ليالي الصيف تلك ، كانت الجدة تطفق تثرثر وحيدة . انها تظل تدندن مدة طويلة ، ثم تأخذ تهمهم بصوت متهدج مرتج . لقد أصبح سكان البيت منذ مدة لا يفهمون ما الذي تريد أن تقوله العجوز بهذا الكلام . ما من ليلة تنقضي الآن إلّا وتأخذ الجدة تحاور نفسها فجأة بغير سبب .

إن دمدمتها التائهة تتدحرج في حلقها مدة طويلة ، محدثة صوتاً كأنه صوت الأمواج ترتد الى وراء .

ما الذي كانت تقوله ؟ ماذا كانت تريد ؟

وأدركوا أخيراً انها تتشكى . فهي تقول انهم يهملونها إهمال شيء غير ذي فائدة . وأصبح كلامها هذا الذي تقوله بلهجتها القديمة يستحيل الى انتحابات تملأ دار سبيطار . ليس يتشكى الآن انسان ، بل الليل كله يتشكى وكل ما يطوف في الليل ، بل الدار كلها وكل ما في الدار الثقيلة الحزينة التي لا تجد الى العزاء سبيلاً . إن صوت الجدة يشق الطريق لنازلة كانت منذ الأزل .

وفي وسط هذا الهذيان ، هذيان الظلمات وآلام العالم ، كانت عيني تصيح بأمها أن اسكتي . فتجيبها الجدة :

ــ أهكذا يا بنتي ؟

وكان كلامها يعود عندئذ مفهوماً .

ــ اسكتي يا عجوز النحس .

ــ أليس لك قلب ؟ ألست تشفقين على أمك التي ولدتك ؟ أتنامين وتتركينني ؟

وتنادي الجدة عمر وتقول له في أنين :

ــ أنت وحدك ترحمني .

ثم تسأله ان يجيء الى قربها .

لقد اشتد انتفاخ قدميها حتى صارتا الى ضخامة هائلة . انهما ساكنتان تحتها ، ملفقتان بالخرق . كان يندر أن ترضى الجدة عن وضع من أوضاعها فوق الكرسي . فكان عمر يحاول ان يحركها بعض الشيء اذا استطاع : يمسك بها من أبطيها وينهضها قليلاً . ولكن الجدة ثقيلة ثقلاً فظيعاً . ان عمر لا يستطيع وحده ان يفعل لها شيئاً ، انه لا يكاد يزيد على تحريكها قليلاً .

وفي مثل تلك الساعة من الليل ، كان يستحيل على عمر ان يواجه الظلام الحالك ليصل اليها .

أصبحت الجدة منذ مدة تتكلم كثيراً . ولاحظوا انها في صراع خفي مع قوة كبيرة . دهشت الأسرة كثيراً . كانت المرأة العجوز ، رغم ما هي عليه من ضعف جسمي هائل ، تدخر هذه القوة الخرساء الصماء التي تهاجمها . لا شك ان قوة أخرى ، قوة لا يعرف كنهها ، كانت تساندها في معركتها هذه .

وانتهى الصراع أخيراً دون أن يتوقع ذلك أحد . عادت الجدة نحو عالم الأحياء ، تاركة الضفاف الغارقة في الضباب التي همت بأن تسقط عنها ، عادت هادئة راضية البال مطمئنة . ونظرت الى جميع الذين حولها فعرفتهم ولم تنكر منهم أحداً . ان ألقاً يشع منها . انه نوع من الفرح .

إن ابنة العم الصغيرة امرأة قزمة دلفت الى الشيخوخة هي أيضاً ، ان شعرها الأجعد يبيض . وهي مبتسمة دائماً . حقاً أن وجهها يشبه وجه امرأة من الزنوج . لونها أصفر ، أو قل انه شاحب قشب . وهي تمت الى الأسرة بقربى بعيدة ، ولعلها لا تمت إليها بأية قربى . ولكنها كانت تخاطب عيني بقولها : « يا ابنة العم » . مسكينة منصورية . لقد كانت تحبهم حباً صادقاً . ولكنها قذرة قذارة رهيبة . إن ثيابها قد بلغت من سواد الوساخة انها تخيف حقاً . كانت تحبهم على كل حال . انها لا تذهب الى الحمام كثيراً . ثم ان حالها لا تتبدل كثيراً حين تخرج من الحمام ، بل تظل سوداء ، لأنها لا تغير الأسمال الوضرة التي على ظهرها .

وقد وصلت في هذا الصباح الى بيت عيني ، وأخذت تبتسم . هكذا كانت تعيش منصورية . تذهب الى هؤلاء ثم تذهب الى أولئك . هؤلاء يعطونها كسرة ، وأولئك يعطونها أشياء قديمة . ان وجودها لا يكلف أحداً كبير نفقة .

وفي ذلك اليوم كان في بيت عيني طعام : قبضة من الأرز قد حافظت عليها عيني محافظتها على بؤبؤ عينيها . أخرجتها اليوم من مخبئها ، لأن المناسبة تستحق ذلك .

قالت لأولادها :

ــ ما دامت ابنة العم الصغيرة هنا ، فالأفضل أن نأكل هذا الأرز اليوم . يسر المرء ان يعثر على أشياء خباها ثم نسيها . لا داعي الى اخفاء هذا الأرز مدة أطول .

وكان هنالك خضر . كان قد بقي شيء من الخضر التي جاء بها ابن الخالة مصطفى منذ ثلاثة أيام . ولكن هل تصدقون ان ابنة العم الصغيرة أرادت ان تتركهم حين علمت ان عندهم طعاماً .

قالت عيني :

ــ أبداً ! ليست هذه القبضة من الأرز شيئاً ، ولكن ستبقين على كل حال .

لقد أدركوا جميعاً ، عيني وأولادها ، ان ابنة العم لا تحرص الآن على الذهاب إلّا لأنها عرفت ان عندهم طعاماً . كأنها لم تأت إلّا لتأكل ثم تمضي . مسكينة ابنة العم الصغيرة . انها تبتسم لكل واحد منهم ، ولا تحفل بما يقولونه لها .

وكأن مائدة ملكية تنتظرهم جميعاً .

كان واضحاً انها ستذهب . ولكنها ظلت جالسة ، متربعة ، منتصبة الجذع . ان الأولاد يتأملونها . كانت تضحك ، وهي تنظر تارة الى عيني ، وتارة الى الأطفال . . ثم تعود فتنظر الى عيني . انها تنظر اليهم جميعاً ، وتضحك لهم ضحكتها تلك الصغيرة التي تخرج من طرف

الشفتين ، وتتصلب مزيداً من التصلب وهي تنصب بجذعها . ومن حين الى حين كانت تقول :

ــ آه يا بنت عمي .

ثم تضيف :

ــ كم أحبكم جميعاً يا بنت عمي ، أنت وأولادك . يشهد الله أنني أحبكم كثيراً .

وكانت منذ وصولها قد ذهبت الى الجدة تراها وترتبها . لقد شدتها من ذراعها لتقف. فاستراحت عليها الجدة بضع ثوان . ثم أعادتها منصورية الى كرسيها المثقوب ، ونظفت لها وجهها ، وصففت شعرها .

كانت الجدة تسميها بابنة العم ، كما يسميها الأولاد ، وكانت لا تكل من ترديد قولها ان منصورية تعنى بها .

ــ الله يحفظك برعايته يا بنت العم . الله يحميك بعنايته .

قالت منصورية :

ــ لا شك ان حياتنا طالت كثيراً . هل تعرفين ماذا يقول الناس ؟ يقولون ان من تطول حياته كثيراً يصبح عبئاً على نفسه وعلى غيره .

ولم تقاطعها الجدة . أتراها سمعتها ؟ وعادت منصورية تقول :

ــ كان المرء ، وقد ألف أن يعيش ، لا يحب أن يهجر ما ألفه .

وصمتت . ثم رددت بصوت مختلف كل الاختلاف :

ــ صحيح . . الانسان يألف أن يعيش .

وهزت رأسها . انها الآن وحدها الى جانب الجدة في المطبخ .

ــ ما فكرت في هذا الأمر من قبل . .

وأرادت منصورية ان تعتذر . فزادت من انتصاب جذعها ، واستأنفت تقول للجدة وهي تميل على أذنها :

ــ آمل مع ذلك ألاّ تؤاخذيني .

ثم صمتت مرة أخرى ، وزمت شفتيها ، فازداد وجهها صغراً على صغره . يا لهذا الوجه المسكين ! لون أغبر ، وخدّان كأنهما حفرتان . لا شك أنه لم يبق في فمها أسنان .

ونهضت واقفة . غير أنها ترنحت . فما لبثت أن عادت تجلس . ونهضت مرة أخرى ، فرجعت الى عيني وأولادها . كانت لا تزال تبتسم . ألا ما أعجب ابتسامتها ! امرأة هرمة تريد ان تموت .

ــ لعلهم على حق أولئك الذين يأكلون ولا يحبون من لا يأكلون .

لم يكن أحد يتكلم . ولم يكن قد سألها أحد شيئاً . وها هي ذي تقول هذه الكلمات الآن . لا شك ان هذه الكلمات ليست بنت الساعة لا شك انها لم توافها عفواً . لا شك انها قد شغلتها فترة من الوقت فلما خرجت من فمها الآن ، بدا عليها انها في أشد الدهشة من أنها قالت كلاماً

كهذا الكلام . واتجهت جميع الأنظار اليها تتفرس فيها . هل سألها احد سؤالاً ، ما من أحد طرح عليها أي سؤال . ومع ذلك فقد كان ثمة سؤال ، غير انهم لا يستطيعون ان يلقوه أو لا يعرفون ان يلقوه . ان السؤال قائم . ان رؤوسهم تحمله وتجره . ولم يدركوا السؤال ، لم يتعرفوه إلاّ حين تكلمت بنت العم الصغيرة على هذا النحو :

ــ إنهم يخافون من الجياع . لأن الجوع يبعث في الذهن أفكاراً ليست كأفكار جميع الناس . فيقولون : « لا يعرف إلاّ الشيطان من أين جاءتهم هذه الأفكار الغريبة » . أليس صحيحاً هذا ؟ أقول لنفسي أحياناً : قد يتعود الانسان ان يحيا ، وقد يألف ذلك ويميل إليه ، والحق ان الحياة سيئة جداً . وشيئاً فشيئاً أقول لنفسي : لماذا لا يكون لنا نحن أيضاً نصيباً من السعادة . والطعام هو سعادتنا ، ألا يمكن ان نحصل على الطعام فحسب ؟ لعل في ذلك سعادتنا ، فان لم تكن هذه هي السعادة فعلام لا يكون في ميسورنا ان نأكل قليلاً ؟ وحين أقول : نحن ، لا أقصد المجتمعين الآن هنا ، بل أقصدهم وأقصد غيرهم من الناس . خواطر . . أليس كذلك يا أولاد ؟

« أقول الذين لا يأكلون » هذا ما يقولونه . وربما كان صحيحاً ، أليس كذلك ؟ على كل حال هذا شعوري . وهذا ما يجب ان يقال » .

حملق الأطفال . أدهشهم أن يروا بنت العم الصغيرة تقول هذا الكلام الذي لا يفهمونه فهمًا واضحاً . هذه أول مرة تطنب في الحديث هذا الاطناب كله . لقد أذهلهم كلامها إذهالاً شديداً . أما هي فقد خفضت رأسها كأنها خجلى مما قالت :

لا بد من الاعتراف بأن شيئاً جديداً قد وقع ، لا بد من الاعتراف بأن الأمور قد تبدلت . أمنصورية تتحدث على هذا النحو ؟ لقد تغيّر العالم إذن . من يعرف ما الذي تبدل ؟ ودّ عمر لو يفهم . لا شكّ أن بنت العم الصغيرة كانت هي نفسها لا تعرف .

وراحت منصورية تردد وهي خافضة رأسها :

ــ ألا يقولون هذا ؟ الا يقولون هذا ؟

كان سؤالها يعلو كأنه أنين ، بينما كان يبدو لهم جميعاً أن وجهها يتلفع بضباب وانه يزداد اسودادا . الأمر واضح . انه ضباب الجوع ، ما في ذلك ريب . حين يستولي هذا الضباب على أحد فإنه يصبح في لحظة من اللحظات عاجزاً عن التخلص منه . ان عمر يعرف هذا . ويعرفه كل الذين جاعوا . حين يغطيك هذا الضباب تماماً ، فإنك لا تشعر بعدئذ حتى بالجوع . وبعد لحظة تتمزق حجب ، ويبدو لك كل شيء ملتمعاً في سطوع شديد : ترى العالم ، ولكنك تراه عندئذٍ مختلفاً كل الاختلاف عن الصورة التي تركتها عليها قبل أن تغوص في هذا الغمام الهادىء الصامت .

وأصبحت بنت العم الصغيرة لا تئن . لعلها قد وصلت الى تلك اللحظة التي يتبدد فيها الضباب فجأة ، فإذا العين ترى عالماً هادئاً يتألق بكل ما فيه من نيران . وارتعش جسمها ارتعاشات مبهمة . ان بنت العم الصغيرة تحاول بحركات مضطربة ان تتخلص من نسيج

العنكبوت الذي يحيط بها . ثم استندت يداها أخيراً الى المائدة .

عرفوا انها تريد ان تنهض .

وقالت متنهدة :

ـ يجب أن أقوم .

فلم يعرف أحد ماذا يفعل .

لم يعرف أحد من الأولاد ، وكانوا الآن وحدهم معها في الغرفة ، ماذا يقول لها .

المجهول يتساقط متزاحما من جميع أركان العالم ، يضرب الغرفة بأمواجه .

إن مصيبتها بالحياة تنتشر عليهم طافحة فائضة . ما كان يخطر لهم ببال انها عميقة هذا العمق كله !

إذا كان الانسان يتعود ان يحيا ، فهل يعرف منذ متى صارت له هذه العادة ؟ انه ليتفق للانسان أن يريد هجر هذه العادة التي ألفها . ومنذ تلك اللحظة ينفصل عن الحياة فلا تعنيه الحياة .

عجيب . . هذا ما أرادت أن تقوله .

لم يبق ثمة ما تنتظره ، ابنة العم المسكينة ، بل لم يبق ثمة ما تخافه . ان الشيخوخة تشبه النوم . إنها الآن نائمة ، والحياة هي التي تبدو لها حلمًا من الأحلام . وهذا جسمها يمحى منذ الآن . لقد تبدلت هذه العجوز . إنها الآن غير نفسها .

لعلها أرادت أن تقول هذا أيضاً . ولكنها لم تقله .

وفي هذه اللحظة ظهرت عيني تحمل بين يديها إناء من آجر . إنها قابضة على عروتيه بأطراف أصابعها . انه ساخن . كانوا يعرفون أن به أرزاً قد طبخته الأم بقطرة من الزيت وكثير من الماء . ان هذا يجعل الرز كالعجين .

ولكن ما قيمة ذلك ؟ إنهم لا يحفلون بأمور شكلية تافهة من هذا النوع . ولقد كان على الرز بصل ، وكثير من الثوم ، وكان عليه فلفلة ، وربما كان فيه طماطم أيضاً ، وأوراق الغار . يا سلام . لا شكّ أنه طعام عظيم . ولكن الإناء صغير يكاد يستقر في حفرة الكف . وكانوا ستة . آه لو كان عندهم خبز . إذن لبلعوا لقمة كبيرة من الخبز مع ملعقة صغيرة من الرز .

قالت عيوشة :

ـ الجو خانق . ولكن لا بأس . ان المرء لا يريد خيراً من الاختناق إذا كان ذلك في أثناء الطعام .

لقد كانت بنت العم على حق حين قالت أن أفكاراً غريبة تطوف في الذهن أحياناً .

ولكن عمر كان يفكر :

ـ صحيح إن أفكاراً كثيرة تطوف في الذهن . ولكن هذه الأفكار ليست من الغرابة في شيء . . هي أفكار تقول حسبنا ما عانينا من جوع حتى الآن ، كفانا هذا الجوع كله الذي ذقناه .

ان المرء يريد ان يعرف حقيقة الأمور ، كيف تقع ولماذا تقع . . فهل هذه أفكار ؟

قد تكون أفكاراً . غير أن هناك ستة أشخاص ينهش الجوع لحومهم نهشاً ، عدا الآخرين الذين يعدون بالآلاف والآلاف في خارج هذه الغرفة ، في المدينة ، وفي طول البلاد وعرضها . طبيعي أن تجول في الذهن أفكار .

ــ ليس بالأمر المعقد أن يكون هناك ستة أشخاص جياع . الجوع شيء بسيط : هو الجوع ، لا أكثر ولا أقل .

إذن ؟ إذن كان يريد أن يعرف ما هذا الجوع ولماذا هذا الجوع ؟ الأمر بسيط في الواقع . كان يريد أن يعرف لماذا يأكل أناس ، ولا يأكل أناس آخرون .

لقد شعرت عيني بلحظة من التردد والحيرة حين عادت من المطبخ حاملة طبق الرز ، فرأت بنت العم الصغيرة . واتجهت عيني الى المائدة التي كانت قد وضعت في الغرفة بين جمهرة الأطفال .

أن لجميع الفقراء حواس مرهفة . كانت بنت العم الصغيرة تبذل جهوداً من أجل أن تنهض . وحين صارت واقفة على قدميها وهي تترنح قليلاً مدت وجهها جهة الصغار . بدا وجهها تائها خلال بضع ثوان ثم بضع خطوات وهي تهتز وتتأرجح . كانت تقترب من الباب . وصلت الى الستارة ذات الأزهار الحائلة ألوانها . ان ضوء النهار يجعل هذه الستارة شفافة . رفعت طرفاً من الستارة ، ثم توقفت ، وأدارت وجهها نحوهم . كانت مائلة برأسها إلى أمام . كانت تريد أن تندس تحت هذه الستارة التي لم تستطع رفعها إلاّ في كثير من العناء . لو رآها راءٍ لقال أنها تعاني ألماً في البطن ، وأنها تنحني هذا الانحناء لضغط ذلك الألم .

دمدمت تقول :

ــ تكلمت اليوم كثيراً ، تكلمت أكثر مما ينبغي . لا تؤاخذوني ولكنني لا أريد أن تمسكوا بي . لقد شكرتكم وحييتكم ، ويجب حقاً أن أذهب .

لم يجبها أحد . وظلت هنالك .

كانت مصرة على أن تذهب . ومع ذلك لو رآها أحد لظن أنها تتردد . انها تنظر الى عيني التي كانت جالسة مع أولادها حول المائدة .

ــ صحيح .

أطلقت عيني هذه الكلمة كأنها شكوى مخنوقة . تحولت عينا بنت العم الصغيرة . لم ينبس أحد من الأولاد بكلمة .

أراد عمر أن يناديها ، ولكن لم يخرج من حلقه إلاّ صوت أبح . عجيب . أهو أيضاً ؟ وهمهم : م م م . . . انه لم يقو على التخلص من شباك العنكبوت التي تحيط به . ولم تتكلم عيوشة ولا تكلمت مريم .

كانت عيني تتابع بنت العم بنظراتها ، فوضعت قبضة يدها على جلد الخروف الذي تجلس

فوقه ، كأنما هي تهم بأن تنهض أخيراً لتمنع بنت العم الصغيرة من الذهاب . هذه هي الفكرة التي قامت في رأسها : أن تحبسها عن الخروج وان تجلسها بين الأولاد .

وفكّر الأولاد بينهم وبين أنفسهم متسائلين : ولكن أهذا كل شيء ؟ أيكفي ان تطلب منها البقاء ؟

ولم يرخ أحد منهم أسنانه . ما عساهم يقدرون أن يصنعوا ما دامت أمهم صامتة لا تقول شيئاً ؟ مم عساهم يخافون ؟ أيخافون أن يحجزوها لتأكل معهم؟ . .

قالت عيني :

ــ ابقي يا ابنة عمي . لن تذهبي بعد أن جئتنا بالطعام . ابقي . هل ينتظرك في بيتك عمل من الأعمال ؟

سألتها هذا السؤال الأخير من قبيل الأدب واللياقة .

وتابعت تقول :

ــ لن تذهبي . لئن كان الطعام لا يكفينا جميعاً ، فليس لهذا من قيمة . الغداء قد حضر ، الطعام قد غرف ، وسيؤكل كله سواء أبقيت أم ذهبت . . يستوي أن نكون خمسة أو ستة . .

ثم قالت وهي تلف الأولاد بنظرة :

ــ انه ليسرنا أن تبقي .

وكانت نظرتها تشتمل على ابتسامة غريبة .

ــ سيسر الأولاد كثيراً ببقائك .

تنهد عمر . وعادت عيني تتكلم :

ــ ابقي . ليس وراءك أي عمل . لن تذهبي . لئن كان الطعام لا يكفينا جميعاً ، فليس لهذا من قيمة . سيسرنا ان تبقي . . سيفرح الأولاد ببقائك . .

كان يبدو على عيني انها لا تستطيع انهاء ما بدأت تقوله . كانت تتكلم للكلام . ولعلها كانت تتكلم . ذلك واضح . كانت الراحة تشيع في قلبها .

وأخذت منصورية تهمس كأنما هي تريد أن تتجه بالكلام الى عيني وحدها . ولكنهم كانوا يتحدثون جميعاً في آن واحد ، في صخب ، فلم يسمع أحد ما قالته . ولو انتبهوا الى تعبير وجهها لقدروا انها كانت تريد أن تفضي اليهم بالسبب الذي يجبرها على الذهاب . ولكن احداً منهم لم يدرك هذا التعبير في وجهها . لعل ذلك كله لم يكن حتى الآن من قبيل الأدب والملاطفة .

أما الآن فإنهم يخافون أن تتركهم .

قالت بنت العم عندئذ بصوت واضح متميز :

ــ نعم ، هو ذلك .

وظلت الأنظار كلها منصبة على طيفها .

وصاحت عيني دون ان تنهض :
ــ عودي لزيارتنا . .

ــ ٢٤ ــ

كان سكان دار سبيطار قد سمعوا صوت صفارة الانذار عدة مرات متتالية خلال الأسابيع الماضية . كانت صفارة الانذار هذه تجرب باطراد . وقد قيل لهم ان الحرب ستندلع . لا شك ان الحرب ستندلع : لقد ألفوا في دار سبيطار هذه الفكرة . وكانوا يتحدثون في الأمر في كل مناسبة .

كان يقال ان الذي سيشهر هذه الحرب رجل قوي جبار . ان شعاره وهو ذلك الصليب المعقوف الذي يشبه عجلة ، يملأ جدران المدينة مرسوماً بالفحم أو بالطباشير . وكان هناك صلبان رسمت بالقطران وكتب الى جانبها : يعيش هتلر . ان الانسان يصادف هذا الصليب وهذه الكتابة أنى توجه . ان هذا الرجل اسمه هتلر قوي قوة هائلة لا يستطيع أحد أن يقيس نفسه به . وهو ماض يستولي على العالم كله . وسيكون ملك العالم كله . وهذا الرجل الذي يبلغ هذا المبلغ من القوة صديق للمسلمين فمتى وصل الى شواطىء هذه البلاد ، أدرك المسلمون كل ما يتمنون ، وحظوا بسعادة كبرى . انه سيحرم اليهود من أملاكهم ، فهو لا يحبهم ، ولسوف يقتلهم . سيكون حامي الاسلام ، وسيطرد الفرنسيين . ثم ان الحزام التي يشد جسمه قد كتبت عليه الشهادة : لا إله إلّا الله ، محمد رسول الله . ان هذا الحزام لا يتركه لا في نهار ولا في ليل . وهو لذلك لا يمكن ان يغلب .

كانت تجارب صفارة الانذار قد دخلت حياة الناس ، فمتى أخذت تدوي قيل :
ــ هي ذي تصرخ .
ويروح أنينها الطويل يدور في الفضاء ويدور .
ــ هي اليوم مصابة بزكام .
ــ مصابة بزكام ؟
ــ بسبب الرطوبة .
ومع ذلك كان يخيل الى الناس حين يشتد صفيرها انهم يسمعونها أول مرة .

كان ذلك في يوم من أيام شهر ايلول . الوقت بعد الظهر . عمر يمر بميدان البلدية . وها هي ذي صفارة الانذار تطلق زئيرها الوحشي . انها موضوعة فوق سقف مبنى البلدية . بدا صفيرها عريضاً ثم أخذ يعلو ويزداد حدة ، ويتصاعد نحو السماء كأنه قذيفة ، فيظل معلقاً بها بضع ثوان ، ساكناً ، حتى لكأن السماء نفسها هي التي تطلق ذلك الصوت الحاد المزعج ، ثم اذا هو يهبط على حين غرة .

كان عمر لا ينسى أبداً ، حين يمر بالبلدية ، أن يصعد درجات سلم المدخل من احدى الجهتين ليقفزها دفعة واحدة من الجهة الأخرى . انه الآن على الدرجة العليا قد تجمد في مكانه وذهل عن أمره .

تذكر في لحظة واحدة الاحساس الغريب الذي سرى فيه حين انطلقت صفارة الانذار أول مرة . لكأن صفعة أو ريحا قوية هبت عندئذ على حين غرة . فإذا هو يرى نفسه في أسفل السلم وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا قوياً . واندفع أخيراً في الشارع ، وجعل يجري وقد استبد به خوف شديد . كان وهو يعدو في خلال المدينة يرى رجالاً ونساء يجرون في جميع الجهات مثلما يجري . هل كانوا يعرفون لماذا يجرون ؟ هل كانوا يعرفون أين يذهبون ؟ وكانت النساء تبكي وتتلاقى وقد احمرت أعينهن . وتتابعهن طريقهن ، وانتحاباتهن تترجع في أرجاء الشوارع . الرجال يبتعدون مسرعين . الأبواب الحديدية تغلق . المخارج الرئيسية تغص بالأجسام . الناس يغذون الخطا . انهم يسيرون صامتين وقد أظلمت وجوههم . بعضهم يسأل مستفهمًا في أصواتهم ارتعاش يشيع الشك في كل كلام يقال .

وما هي إلّا لحظة حتى خلت الشوارع . ان عمر يعدو في مدينة مقفرة . وهو من حين الى حين يصادف رجلا من رجال الشرطة ، أو كلباً تائهاً . يا له من فراغ . . ان الحياة قد انسحبت من مدينة تلمسان التي تغرقها شمس باهرة .

أصبحت المدينة فجأة أشبه بمدينة قد خلت من الحياة منذ آلاف السنين . شوارعها الواسعة هي الآن طرق خالية قديمة صمتت ضوضاؤ ها منذ زمان بعيد . مبانيها معابد ديانة مندثرة . صمتها الواسع هو سكينة الموت يتلألأ في وضح النهار . لقد غارت حياة تلمسان في الحجارة .

ان هذا الصمت اليقظ وهذه الوحدة العارضة اللذين جاءا بعد ذلك الاضطراب الأول ، يحملان الى عمر أصداء مهددة . هكذا ظهر الخطر ظهوره المباغت وسط هدوء غريب .

كان عمر يزداد اقتناعاً بأنه لن يصل الى دار سبيطار ، وبأنه لن يفرغ من العدو في خلال هذه المدينة التي كانت تستحيل ببطء الى سور رهيب . لا بد ان شيئاً سيقع له قبل ان يصل الى البيت . كان الخطر يبدو له شبحاً عالياً يضم المباني والحدائق بعضها الى بعض . ويسرع عمر . أن أنفاسه لتنقطع من فرط الجري . ان الشبح الضخم يلاحقه في وثبات مفاجئة متقطعة . فيشعر الطفل بوجوده في ظهره . ان الكارثة التي استدعوها بهذه الصفارة قد وصلت أخيراً .

ووصل عمر الى دار سبيطار ، ودخل مسرعاً ، فلما صار أمام أمه ، استلقى بوجهه على الأرض ، واستطاع أخيراً ان يجهش باكياً وقد أخذ جسمه يرتعش ارتعاشاً شديداً . فتناولته عيني بين ذراعيها وشدته اليها . فإذا باضطرابه يهبط فجأة . ان فراغاً مريحاً يستولي عليه الآن . هو ذلك الفراغ نفسه الذي كان يشعر به منذ قليل . أخذ عمر يصغي الى دقات قلبه السريعة . وانتظر قليلاً ، ثم أخذت عيناه تنفتحان شيئاً فشيئاً . انه ليجد نفسه على حدود بلاد عجيبة . انه

يشعر بأنه يستيقظ من نوم . لم يبق لشيء من قيمة . كان العالم قد تمزّق بزئير ذلك الوحش الذي لا وجه له .

ــ هي نهاية العالم ، هي نهاية العالم .

ان المرأة التي قالت هذا في اضطراب ، كانت تتجه بالكلام الى عيني ، ثم أضافت :

ــ في القرن الرابع عشر ، ما ينبغي لأحد ان يحاول النجاة بنفسه . هذا ما قيل . ألسنا في القرن الرابع عشر ؟

قالت عائشة العجوز :

ــ أيفنى العالم كله إذن ؟

ــ نعم يفنى العالم كله ايتها المرأة .

ــ العالم كله ، ونحن أيضاً ؟

ــ جاء يوم الحساب . . جاء يوم القيامة . .

وخرست النساء ورفع بعضهن الأعين الى السماء وتدوى فجأة ضجة رهيبة . فترتمي عاتكة على الأرض في وسط الفناء دفعة واحدة .

ويقوم حولها هرج ومرج . بعضهن يحاول ان ينهضها وان يهدئها ، وهي تلهث وتتخبط في هياج شديد ، ويسيل لعابها من فمها وتقول في حشرجة :

ــ القرن الرابع عشر . . الشيطان ، الشيطان .

حتى إذا نقلت الى غرفتها هدأت في طرفة عين . ان عاتكة تصيبها نوبات كثيرة ، فإذا انتهت النوبة من هذه النوبات نسيتها ولم تذكرها وعادت الى حديثها المألوف ، حتى لقد تبدو بعد النوبة أقرب الى المرح .

واستأنفت النساء حوارهن :

ــ هذه علامة على أن الحرب واقعة .

ــ حتمًا .

ــ أية علامة ؟ ما وقع لعاتكة ؟ انه ليس علامة على شيء .

ــ هذا رأيك أنت .

ــ كفى خرافات . انها دائمًا هكذا ، عاتكة . نحن نعرفها منذ مدة طويلة . لماذا يكون هذا علامة على شيء؟

ــ صه . . صه .

ان أصوات رجال ترتفع في الشارع الصغير قرب البيت . هذا صوت عميق وقور . انه صوت رجل متقدم في السن . وأدركت النساء انه صوت سي صلاح .

عودوا الى بيوتكم . كل هذا الذي يحدث لا شأن لكم به .

ويجيبه آخر :

ـ هي الحرب مع ذلك . ليست الحرب بالأمر الهين .

ويجيب ثالث :

ـ جاء يوم الحق .

ـ نعم هي الحرب . لا يمكن انكار ذلك .

واستؤنف الحوار بمزيد من الارهاق :

ـ أصبح الناس في أيامنا هذه لا يؤمنون بالله . أصبحوا لا يؤمنون بالله . . هذه كارثة .

ـ هي كارثة حقاً .

ودمدم سي صلاح في رصانة :

ـ الآن عودوا الى بيوتكم . أولياء أمورنا يعرفون ما يفعلون .

ـ سمع الله لك . ولكننا على ثقة من ذلك .

ـ لا . . لا . . نحن الذين سنجني المصائب والكوارث . علينا نحن ستقع المصائب والكوارث .

ـ علينا بأعمالنا نهتم بها وننصرف اليها . ان لدينا أعمالاً سنظل منهمكين فيها الى آخر العمر . دعونا من هذا الكلام كله .

وفي دار سبيطار خرجت عاتكة مرة أخرى من غرفتها مشرقة الوجه ، وهي تقول لاهثة :

ـ هي نهاية العالم .

ورددت النساء وقد روعتهن النبوءة :

ـ بعد أربعين يوماً .

ظلت عاتكلة تعول في وسط البيت وهي تحرك يديها بإشارات كثيرة . وهرعت بنات هذه المرأة المسوسة الى أمهن ، فجررنها الى الغرفة . لقد أصيبت في هذا اليوم بنوبتين اثنتين . لم يسبق ان وقع لها ذلك أبداً من قبل .

حين هبط الليل خرج عمر لشراء قرص من الخبز من الفرن العمومي .

كان خروجه لشراء الخبز من أحب الأمور الى نفسه ، أما خروجه لشراء أي شيء آخر ، فكان يضيق ذرعاً به ، ويتهرب منه وما ينفك يقول متذمراً حين يكلف به :

ـ دائماً أنا ؟ أليس في البيت أحد غيري ؟ لماذا لا تكلف عيوشة أو مريم ؟

على قدر ما كان يحب التملص من الأعمال الأخرى ، كان هذا العمل يرضيه ويطيب له .

ووصل عمر الى الفرن . ما أشد فرحته برؤية الأرغفة ممدودة فوق الأرض على ألواح من الخشب وصفائح من المعدن تنتظر أن يدسها في الفرن رجل مسود يخرج كتفاه ورأسه من الحفرة التي في القاع . ان الفران واقف أمام الفرن المتأجج يحرك ذراعيه بغير انقطاع ، يدفع الى الداخل جاروفاً طويلاً من خشب ثم يسحبه . انه يدخل الجاروف محملاً بأقراص العجين ، ثم يخرجه وقد فرغ منها . ان الخبز في هذه المغارة العميقة بياضاً غامضاً ، ويملأ أركانها الغائرة في الظل

برائحته الذكية .

كان عمر يتلبث أمام هذا المشهد ، لا يمله ولا يكل منه . انه منظر منعش رائع .

وكان يجب ان يحمل الى البيت قرص الخبز وهو لا يزال ساخناً تطقطق قشرته . فينتزع منه أثناء الطريق نواتئه الصلبة وما تحرق من زواياه ، ويأخذ يقضمها . كان لا يسمح لنفسه أن يعود الى البيت بالرغيف ناقصاً ، وإلاّ كان يسيء القيام بالعمل الذي ندب له . ألا ما كان أكبر سروره بحمل الرغيف الطيب الى البيت ! ان عمر يحتضن الرغيف بصدره ، فالرغيف يدفىء صدره وينشر رائحته الطيبة التي تثير شهوة الأكل .

كانت المدينة لا تزال مزدحمة كخلية نمل . لكأن جميع سكان تلمسان قد تواعدوا على اللقاء في الشوارع . ان الشوارع تغص بالناس .

فبعد ذلك الفراغ المفاجىء الذي قام بعد الظهر ، خرجت من الخوف جماهير الرجال والنساء والأطفال وراحت تمشي في شوارع المدينة على هون . والغسق القائم المذهب الذي يرين على أمسيات شهر أيلول كان يحمل هو نفسه جواً من الجد والرصانة . ان إحساساً جديداً بالأشياء والكائنات التي نسيت الى ذلك الحين ، قد قام فجأة ، فهو يقرب الناس بعضهم من بعض . كل هذا كان يمكن ان يبدو مضحكاً بالأمس . ان سكان تلمسان على ميعاد . انهم يخرجون الى الشوارع على اتفاق : أن من السهل أن يتخيل المرء ان هناك أمراً على جانب عظيم من الخطورة يجب ان يقوله الناس بعضهم لبعض . غير أنهم لا يزالون ينتظرون الشخص الذي يتقدم الى الكلام أول المتقدمين . ولم يحدث هذا طبعاً . ما الذي كان هذا الجمهور الضخم يريد أن يعبر عنه ؟ أكان يريد أن يحتج على قيام الحرب ؟ إذن لماذا ، لماذا يصمت ولا يتكلم ؟ انه يرفع رأسه في بطء : أنه متأكد من نفسه ، متأكد مما يحمله في نفسه ، ولئن لم يكن بارعاً فإنه لقوي شرس . لقد ساعدوهم دائمًا على أن لا يفكروا . والآن تنبجس أمامهم مغامرتهم مليئة بالوعيد ، غامضة عنيدة ، ويظل جميع هؤلاء الرجال وجميع هؤلاء النساء عراة أمام أنفسهم . كانوا قد تركوا قلوبهم متهيئة ، في راحة . ولكن الشقاء يلمسهم الآن بقبضته ، فيستيقظون . ما عدد الذين كانوا يحسون عندئذ أنهم أحياء ؟ ها هم أولاء يأخذون يضحكون من هذا اللقاء ، رغم أن مرارة لا تزال في أفواههم .

حين اكتشف عمر هذا الجمهور الذي يكاد يكون سعيداً ، نسي الخبز الذي خرج ليشتريه . وجرفه هذا السيل العارم من الناس ، ولم يشعر بأي خوف رغم انه أصبح بعيداً عن البيت . لقد اندس في قلب الحشد . استسلم رغم قصر القامة وضعف الطفولة ، لهذا التيار الذي كان يجتازه ويحمله في ذلك الاتجاه نفسه .

لم يعد طفلاً . لقد أصبح جزءاً من هذه القوة الخرساء الكبرى التي تؤكد إرادة البشر ضد دمارها . كانت جميع الشوارع تصنب هذا الحشد في ميدان البلدية . فهنالك كان يجتمع سكان

تلمسان . ان ألوف الأقدام تقرع أرض الشارع ، فتحدث ضجة صماء لا تنفك تتردد الى غير نهاية . وأصوات الناس كأنها همهمة مصنع يسمع صريف آلاته من بعيد وهي في أوج حركتها ونشاطها . ان أضواء المدينة لم تسطع بعد ، والحشد يسير في ظلمة لا تزال تشتد . أصبحت الوجوه لا ترى ، ولكن الناس يمشي بعضهم حذو بعض . انهم يتعارفون بأصواتهم ويتواصلون من فوق الهامات :

ــ أأنت هناك يا كريمو ؟

ــ نعم ، وأنت ؟

ــ أنا أيضاً هنا .

ــ أهي الحرب أم ماذا ؟

ــ هي الحرب .

ثم يقوم حديث آخر .

ــ هي الحرب يا قادر ، يا زنيم ، فما عساك صانعاً ؟

ــ اصنع ما يصنعه سائر الناس . نذهب الى الجبهة .

ــ وهل تعرف على الأقل كيف تمسك بندقية ؟ ما عساك صانعاً إذا أعطيت بندقية ؟

ــ تأتي أنت فتعلمني . .

وهذان رجلان من الفرنسيين يتكلمان قرب عمر :

ــ إذن لقد غرروا بنا ، هؤلاء الخنازير .

ــ قلت دائماً انهم كانوا يكذبون حين يحلفون ان الحرب لن تقوم . لقد قالوا انهم قد انتهوا الى اتفاق في ميونيخ .

ــ يجب ان نعرف الآن كيف نتخلص من الورطة . ان الحرب في ظهرنا الآن .

كان يبدو للناس ان لعدم إضاءة الأنوار معنى أيضاً . انهم الآن يضفون معنى على أي أمر من الأمور، على كلمة تلقى عرضاً ، على المصابيح التي لا تشتعل ، على سير هذا الحشد سيراً متقطعاً . لذلك ما أن أضيئت شوارع المدينة فجأة ، حتى انطلقت جميع الصدور تقول : ها . . كأنما هي تخففت من حمل رهيب .

والواقع أن مصابيح الشوارع قد أضيئت ذلك المساء في موعدها لم تتأخر عنه .

وانتهى الأمر الى ما يشبه الاحتفال بعيد . ان عبقاً مسكراً يرغي الهواء . والناس يتحركون ويضطربون ، كأن أمواجاً كبيرة تحملهم على صدرها . انهم يتكلمون ويضحكون ضحكاً قوياً .

عاد عمر الى البيت في ساعة متأخرة . فلما رأته أمه سألته بصوت حانق :

ــ أين الخبز الذي ذهبت تشتريه ؟

آي ! ان عمر كان قد نسي الخبز نسياناً تاماً . قال لنفسه : أين كان عقلي ؟ سوف يستأنف

الصراخ ، والشتم ، والضرب . .

كانت أمه خارجة عن طورها .

ولكن قل لي ، أين كنت ؟ أين كنت حتى هذه الساعة بينما نحن ننتظر ؟ قولوا لي : ألا يستحق القتل ، هذا الكلب المتسكع . . هيا اذهب حالاً لاحضار الخبز . وأنا أنصحك ان لا تضع قدميك في هذا البيت ، ان لم تعد بالخبز .

لقد قامت الحرب ياما .

ــ ألأن الحرب قامت لا نأكل ؟

لم يكن يريد أن يقول هذا . ان أمه لم تفهم . ولم يتوصل الى التعبير عما بذهنه :

ــ الحرب . . الحرب . .

لم يستطع أن ينطق بأية كلمة أخرى .

أتراك أصبحت معتوهاً ؟ مفهوم أنها حرب .

وكانت الجارات لا تزال تثرثرن رغم انهن في ساعة متأخرة من المساء :

ــ حين كان ابناؤه وبناته يذهبون الى حفلات الرقص ، ولا يفكرون الا في زينتهم . كان الألماني منهمكاً في صنع الأسلحة . وهذه هي النتيجة الآن .

ــ يا له من شقاء يحل بفرنسا المسكينة .

ــ ما كانت تستحق هذا .

مضى عمر الى الفرن العمومي يعدو متاهة الشوارع الصغيرة المعتمة : ان الفرن مغلق . الساعة الآن هي التاسعة على الأقل . ان عمر يعرف أين يسكن صاحب الفرن : انه يسكن في القاع من طريق مسدود تائه . ولكن يستحيل على عمر ان يخاطر فيذهب الى هذا البيت وحده ، ولو قطعوا رأسه .

وقف عمر عند مدخل الطريق ، آملاً أن يظهر أحد المارة ، فيرضى أن يقوده الى ذلك المكان . وأخذ يسائل بنظراته الشارع . ما من أحد يمر . وراح ينادي الناس الذين يراهم مروراً من بعيد ، يناديهم بصوت مرتعش ، ويبكي يائساً . هل يمكن أن يصحبه أحد الى بيت صاحب الفرن .

ومرّ أخيراً رجل عجوز ، فأمسك بيد عمر ، ومضى به الى بيت الفران ، وهو بيت ذو باب مربع .

واضطرّ عمر أن يطرق الباب طرقاً قوياً خلال مدة طويلة قبل ان يفتح له .

همهم صوت من داخل البيت يسأل :

ــ من ؟

ــ أنا عمر .

فتأفف صاحب الفرن تأففاً شديداً وقال له :

ــ أفي مثل هذه الساعة تأتي لأخذ خبزك ، يا شقي ؟ الى هنا ، الى البيت ؟ هيا امش الآن . وتعالى لأخذ رغيفك في الغد من الفرن .

فأخذ الطفل ينتحب استدرارا لشفقة قدور . ولكن قدوراً عاد يغلق الباب في وجهه دون أن تلين قناته . فمنعه عمر من اغلاقه بالوقوف أمام المصراع الثقيل ، وأخذ يبكي بدموع صادقة .

ــ عم قدور ، الله يخليك ، تعالى اعطني خبزي ، الله يغنيك ، ان شاء الله تحج الى مكة .

يا له من شيطان . . انه لم يستجب لدعاء الصبي إلّا بعد لأي وعلى مضض . خارت قوى عمر من فرط التوسل والتضرع ، وفقد كل أمل في أن يراه يخرج من جحره الأسود .

حضن الصبي رغيفه بكلتا يديه في صدره ، ومضى مسرعاً الى البيت . كانت الشوارع الصغيرة الخالية قد عاد اليها وجهها الليلي . ان عمر يسير دون تعجل حقيقي ، ولا يشعر بأي قلق . متنبه الى الهدوء الذي يحيط به كأنه ماء مهدىء . ان شعوراً بالأمن والطمأنينة قد استولى عليه . انه يحس بأنه في عالم أخوي . الأزقة تنفتل ويتداخل بعضها في بعض الى غير نهاية . ومن حين الى حين تحفر فيها مصابيح الكهرباء بقعاً عميقة من نور . ان هذه الإضاءة التي تصطدم بجميع البيوت المواربة ترسم منظراً كأنه لعبة من لعب الصبر والسر . وارتعش عمر . أمن فرح ؟ لا ندري . ومع ذلك فانه لفرح هذا الذي يهزّ قلبه . ان هذا الاحساس يسري فيه أمواجاً واضحة . من أين جاءته هذه السعادة التي كانت منسية في نفسه ؟ الحرب : تخيل عمر ذلك الحشد الكبير الذي كان يطالب من أعماق نفسه باشعال المصابيح . ما كان أعظمها من راحة حين اشتعل النور في الميدان فجأة . . الحرب . . كان عمر لا يعرف ماذا تعني كلمة الحرب . ان الحرب ، وشيئاً آخر كانا يشيعان في قلبه فرحاً خفياً . ان عمر يمخر عباب احساسات تقوده الى شاطىء أرض مجهولة . ان ما كان يملأ جو المدينة من جدة في ذلك الأصيل لا يزال يختطف فكره . عجيب لقد أحسّ فجأة بأنه شبّ عن الطوق منذ أخذت تدوي صرخات صفارة الانذار . ولئن ظل يعرف انه طفل ، فانه فهم ما معنى أن يكون المرء رجلاً . غير ان هذا الاتصال الحميم المفاجىء بما سيكونه في المستقبل قد زال بسرعة . لقد فتح عمر عينيه مرة أخرى على أفق الطفولة الذي يعيش فيه ، ثم لم يخطر بباله ان يرتد نحو ذلك المستقبل الملفح بظلام لا يمكن ان تنفذ فيه أية قوة .

ووصل عمر أمام باب دار سبيطار . ان الباب مفتوح . وصاح عمر بأعلى صوته ينادي أخته :

ــ عيوشة ، عيوشة .

وابتلع فم الظلام الكثيف العميق نداءه .

انتظر عمر . ثم نادى مرة أخرى :

ــ عيوشة ، لماذا لا تأتين ؟ أنا هنا .

وانقضت بضع ثوان ، ثم سمع الصبي وقع خطا قدمين عاريتين على البلاط .

قالت له اخته من آخر الدهليز :

ــ أدخل .

ــ حمارة . الا تسمعين حين تنادين ؟

ــ وأنت أيها البنت الصغيرة ، هل من الضروري ان تأتي امرأة لتقودك ؟

ــ كفى . . غبية .

وانطلقت ضحكة صغيرة في الظلام كأنها شرارة . وقالت عيوشة ساخرة :

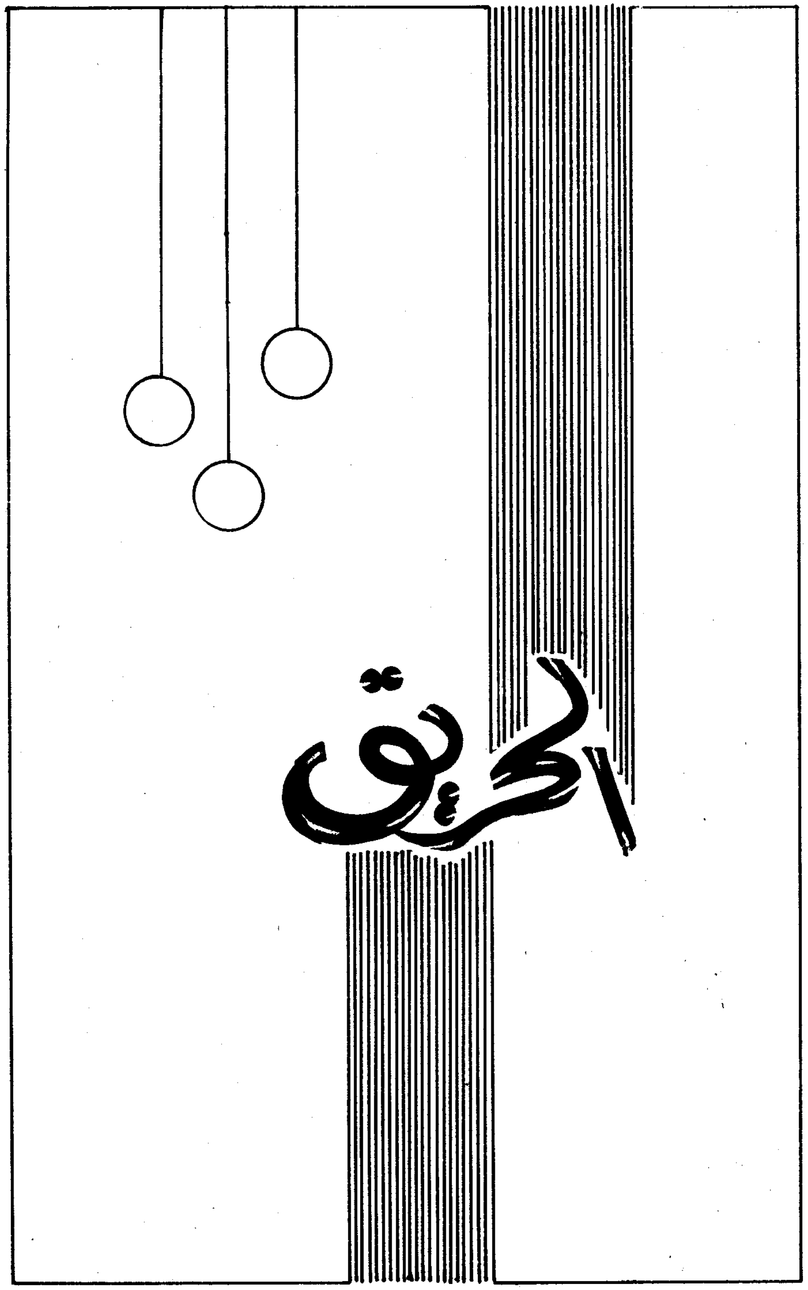
ــ انظروا كيف يجيد اصدار الأوامر . يا له من رجل !

وحين صار عمر في وسط البيت شعر براحة . ان الضوضاء الحية التي تحرك دار سبيطار في أول الليل تصل الى عمر من الحجرات المنارة . ودفع الصبي اخته دفعة مفاجئة ماكرة فجعلها تتراقص وتتواثب في فناء البيت . ثم سار نحو الغرفة . ها هو ذا يزيح ستارة المدخل ويمد قرص الخبز الى أمه :

قالت عيني :

ــ عفريت !

أدرك الصبي ما يختفي وراء هذه الشتيمة من حب وحنان ، فابتسم وقعد مع القاعدين أمام المائدة ، وأخذ يراقب أمه وهي تقطع الخبز على ركبتها .


الحريق

تمهيد

ما أن تصل إلى أمام « بيت النور » حتى تمضي مصعدا في منحدرات حجرية مهدتها الرياح . ان نوامي مخشوشنة من نبات الدس والمصطكى تتعثر بها قدمك وتنزلق عليها . وهذه هي الطريق الوعرة التي يسلكها بنوأرنيد مع حميرهم الصغيرة . هذا هو السور الجنوبي من أسوار « المنصورة » التي لم يبق منها إلا جوانب أبراج . الأرض خاوية . وتلك ضوضاء مبهمة ترقى اليك من السهل . حتى إذا بلغت من تصعيدك رابية يقال لها « عطار » أطللت من هنالك على أرجاء فسيحة . ففي المشرق ، ترى « شرفة الغراب » الكبير تنتصب برأسها المخروطي فوق ما يحف بها من ذرى . وفي الشمال ، يمتد المشهد الى ما وراء طريق « وهران » والسكة الحديدية ، فيشمل أراضي « صفصف » و «حنايا» و «عين الحوت»، التي تغطيها أشجار الكرمة وحقول القمح . وتلك جبال « طرارا » الزرقاء الخفيفة المتموجة تقوم عند آخر المدى حاجزاً بين البحر الأبيض المتوسط والسهول الداخلية العالية . وعلى مسافة أقرب ، يقع بصرك على سهول « أمامة » و «الكيفان» و «بريا». ان أواخر موجات الزرع المتسارعة من الأفق ، لتفنى هنا ، على سلسلة جبال بني بوبلان . ووراءها فوراً ، تنبسط أرضٌ خلاء تناثرت عليها جبال حزينة .

إنك لتدرك من الشعور القوي الذي تعانيه في هذه الأماكن ، أنك اجتزت حدوداً ، ونفذت الى عزلة . انك تتقدم الآن في أرض براح ، تدمدم فيها الرياح بين الجرائد الشائكة من زعانف النخيل ، وكأنما تضيئها باقات من أشجار الرتم المنورة . وتنظر الى الشمال ، فترى ظهر جبل « السطح » مفلوحاً ومزروعاً قبل ان ينخفض أمام الأراضي البكر ، كأنه عماد يسند ذلك الجزء (أعني الجزء الأدنى كله) الذي يحتله الفلاحون من جبال بني بوبلان ، ان هؤلاء الناس يعيشون على أطراف الوهدان الصالحة للفلاحة ، المعلقة في الجبل ، النائية الآن عن العالم ، رغم أن المسافة التي تفصلها عن تلمسان لا تزيد على ثلاثة كيلومترات .

إن حياتهم تنقضي أيام زراعة ورعي لدى المستوطنين الفرنسيين . وهي حياة تبلغ من طابع القدم ، ويبلغ أصحابها من بساطة العيش درجة تحسبهم معها آتين من قارة منسية . إن الأرض هناك في الأعالي صعبة المراس لا ماء فيها ، قاحلة تختنق ظمأ ، ولا تكاد تستطيع سكة المحراث القديم ان تحزها .

والفلاحون كثيراً ما تلم بهم المجاعة . وحين يهبط الليل ، فيبتلع الظلام تلك الأكواخ الحقيرة التي يسكنها هؤلاء الفلاحون ، تنطلق بنات آوى مطوفة في الأرجاء ناعبة . غير أن هذا الوجه القاسي الذي للجبل يكتسي في بعض الأحيان جمالاً خاطفاً . وذلك حين يقع بصرك على عصابات عارمة من أطفال يرتدون أسمالا خلقة ، ويضطربون في خفة ورشاقة بين الوحل أو غبار الطريق .

لم توجد الحضارة قط . ما يظن حضارة فهو وهم باطل . ان مصير العالم على هذه الروابي هو الشقاء . أشباح عبد القادر ورجاله تهوم فوق الأراضي الظمآى وأمام أطيان عظيمة تختنق المآوي السود التي تأوي الفلاحين .

ولكننا الآن في عام ١٩٣٩ ، في صيف عام ١٩٣٩ .

لقد التقى عمر هنالك بأطفال أشقى منه ، أطفال كأنهم الجراد من فرط هزالهم ونحولهم . ان ملابسهم لا تعدو أن تكون خرقاً مجمعة . أما أقدامهم فتحميها نعال من جلود الشياه مربوطة بحبال من الحلفاء ، وربما ركضوا حفاة بغير شيء في الأقدام أكثر الأحيان . أن أعينهم الكبيرة التي يمتزج في حدقتها الأشهب والأخضر تبحلق بحلقة غريبة في هذه الأراضي المجدبة التي تركت لهم . ان ما يلوح فيهم من جد وصرامة قد بدا لعمر شيئاً غريباً عجيباً . ألعابهم ليست هي الألعاب المألوفة عند أطفال تلمسان . الحيوانات هي رفاقهم ، لا رفاق لهم سواها . وهم مغلقون ، يحسنون الصمت ، ويحتقرون كل ما ليس من الريف .

كان أطفال هذا العالم الحزين مبكرين في نموهم مثل عمر . إن إدراكهم للشقاء يلمع . في أعينهم مثلما يلمع في عيني عمر ، وان يكن قد حصل لهم ذلك على نحو آخر .

على أنهم يختلفون عن عمر في أن أحاديثهم تشتمل على تعبيرات ولهجة لا تلاحظ لدى أطفال المدن في مثل هذه السن . وهم يصرون على جدهم إصراراً عنيداً . إنها الرصانة المعهودة في الفلاحين . كان عمر يحس بينهم أنه طفل صغير جداً . إنهم ليرعبونه بهذا الاندفاع العارم الذي يظهر فيهم عند ملاحقة هدف من الأهداف : قتل الطيور او قيادة القطعان أو تحدي الأوروبيين . وقد اكتشف بين هؤلاء الصبية من أبناء الفلاحين رفاقاً له لم يمانعوا في قبوله بينهم البتة . غير انهم استغربوا أن يعرف القراءة وان يقول كلاماً بالفرنسية ، وفوجئوا بما يعرفه من معلومات خاصة . انه يقول مثلاً بأن الأرض كروية لا مسطحة ، وهذا مخالف للبداهة . وهو يقول ايضا أن الشمس ثابتة ، وأنهم هم الأطفال ، يدورون حولها مع الأرض ، وهو يعرف أشياء

كثيرة عن البلاد البعيدة . وقد شرح لهم كذلك كيف يتكون المطر ، فما لبث الفلاحون عندئذ ان استنكروا كلامه قائلين انه زندقة . ولشد ما أذهلهم حين قام أمامهم ببعض العمليات الحسابية . غير أن القرويين لاحظوا أخيراً جهله ، فهو لا يعرف شيئاً عن الأشجار والنباتات ولا يعرف شيئاً عن الحيوانات والزراعات وأعمال الحقول . .

وفي أثناء ذلك كانت تنبثق في نفسه معرفة حياة الأرض ، الغريزية اللاشعورية . إن طاقة عجيبة ، دفاقة قوية ، غمرته في بني بوبلان . هناك في أعلى الجبل ، عرف حياة العالم الكبرى بصوت الشيخ العجوز كومندار .

الجزء الأول

ـ ١ ـ

الظلام يطفح من الفجاج ساكناً . وهذه بضعة أصوات تشق طريقها في الهواء الرقيق ثم تضيع في الصمت . ان رجالا يضطربون هنالك تحت ، وثم حيوانات يختلط صراخها في الأعماق ، وما تنفك تتحرك وتغيب في ظل أزغب يتموج بين الأشجار . لقد أحس عمر بطراوة نافذة تهب على وجهه وعلى ذراعيه العاريتين .

وضم عمر راحتيه أمام فمه بوقا ، وصاح بصوت قوي :

ــ هيه ، زهور ، أنظري أين أنا .

إن الأرض منبسطة من جهة واحدة ثم تنخفض فجأة . كان عمر واقفاً في وهدة الحقول يتأمل بيت أسرة محمد ، وهو قشرة من الأرض جافة بيضاء . وكانت زهور تجهد على الطريق الضيقة متدثرة (بحايكها)، دائرة حول المزرعة .

الحقول تدخل في الليل على قدر تراجع خط من البياض يشتعل في آخر الأرض . وعلى مقربة من ذلك يقوم السهل المرتفع الواسع، سهل لالا ستي الذي لا ترى منه الا جبهته الثقيلة الماثلة الحادة . ان غابة الصنوبر تبدو إلى جانبه ملفعة بنعومة ريش كبير ، رغم انها أعلى منه .

وسطعت الشمس لحظة أخيرة ، وأحاط الهواء الحار بالذرى . ان ضوء النهار يصعد على الجبل شيئاً فشيئاً نحو القمر . وما لبث الغسق أن خيم . إن شعوراً بالسكينة يرين على قلب عمر . وما انفك الظلام يزداد كثافة في المشرق . ان موقدا بلا شعلة كان يحرق الأراضي والجبال في الشرق ، ثم هو الآن يتجمع على نفسه كورقة تحترق .

لم يمض عمر مع زهور إلّا حين سمحت عيني لابنها بذلك . أصبحت عيني لا تطلب من ابنها ان يبقى في البيت . لا شك أن الصبي أخذ منذ تلك اللحظة يعد الدقائق ، ولا يطيق على الانتظار صبراً . إنه ليتفق له الآن كثيراً أن يصعد الى بني بوبلان في صحبة زهور . وأن هذه

الرحلات لتوري في قلبه مشاعل من الفرح .

كان يقفز ويرقص . وكان ضحكه ينفجر صاخباً . والسيارات يتلاحق بعضها وراء بعض في الطريق ، فإذا خطرت واحدة منها أخذ يتواثب على ألف صورة وصورة ، ويصيح مقلداً أصوات زماراتها . فإذا مرت سيارة كبيرة من سيارات النقل التي تلهث من فرط ما حملت ، أخذ ينفخ نفخاً شديداً ليقلدها حتى تكاد تتحطم أضلاعه من شدة النفخ . وكان عمر يتمسك بها أحياناً فيقطع مسافة طويلة من الطريق ، وكانت زهور في مثل هذه الأحوال تخلع عنها حجابها ، فتطويه حتى يصير أشبه بكرة ، وتأخذ تركض في إثر الصبي . انها تركض بلا حايك . . يا ويلها اذا علمت أمها أنها تسير بلا حايك ، ولو في هذا الطريق المقفر . . .

كانت تنبعث في عمر حياة جديدة . وكانت دار سبيطار تبدو له في هذه اللحظة أشبه بسجن رهيب ، وتلك النسوة اللاتي تقلبن الدار أثناء فورانها المألوف رأساً على عقب ، يبدون له غيلانا لا تحتمل ولا تطاق . انهن أقرب الى بهائم متعجرفة منهم الى البشر . كان يحس حين يلاحظهن في بعض اللحظات بانزعاج شديد يخنقه خنقا ، وكان يشعر في لحظات اخرى بفيض من الحزن والمرارة في قلبه : لا شك ان ظروف السجن التي تحيط بهن تزيدهن غرابة وشذوذاً .

أخذ عمر يدفع الباب ذا المصراع الواحد ، الذي لا ينفتح إلّا في بطء فلما رأت (ماما) الصبيين يدخلان ، صاحت صيحات صغيرة في دهشة :

ــ هه . . . هذه زهور . . . هذا عمر .

وأقبلت على الصبي فقبلته ، ثم قبلت أختها .

إن (قره علي) وامرأته لا يزالان الى هذه الساعة يقومان ببعض الأعمال . ان شغل النهار يشارف على النهاية .

لم يمسح عمر اللعاب الذي يخضل خديه . انه أشبه بزهرة طرية تتفتح على جلده وينعشها هواء المساء .

ــ أأنت جائع ؟

ــ نعم .

وقادته ماما الى الغرفة التي فيها المؤونة (وهي حجرة ضيقة رطبة) فتناولت قبضة من التين الجاف وضعتها في يده مع قطعة من فطير .

وسألتها ماما عن سكان (دار سبيطار)، ثم استأذنت . كانت تنهي كنس الأرض بمقشة من سعف النخل . تستطيع الاختان أن تتحدثا على مهل فيما بعد .

إن فناء البيت ، وهو من تراب ممهد ، يشكل مستطيلاً كبيراً . فعلى الضلعين الطويلين من هذا المستطيل تقوم مساكن من حجر ولبن مطلية بالكلس . وما يرمي الى خارج الفناء من بعر وزبل يصبح ملتقى صاخباً للدجاج وسائر الطيور .

وهبت نسمات من الهواء فبعثرت كل شيء .

قال قره :

ــ ما ينبغي أن يضيع شيء ، حتى ولا هذا .

قال ذلك وهو يشير بيده الى الروث الذي كانت ماما ترميه ، وأضاف :

من الممكن أن نتخذه وقوداً .

وعادت المرأة الشابة تثرثر مع أختها .

لقد اقتيدت ماما بنت قدري من دار سبيطار ذات يوم الى بني بوبلان في زفة كبيرة . حدث ذلك منذ عدة سنين . . وليست الآن سعيدة ، ولا هي في حقيقة الأمر شقية ، ما دامت قد تزوجت . كانت في ذلك اليوم ، على لطفها ودمائتها ، ذات أبهة وعظمة ، يزينها الذهب ويكسو وجهها الطلاء . ان غرفة كبيرة ستكون غرفتها ، وستكون المؤونة كلها لاشرافها . وقد غرقت حياتها الآن في الجبل . ان المرء يعيش في بني بوبلان ساعات هادئة . ليس هناك إلاّ أربعة بيوت ، وقد حفرت الأيام حول كل بيت هوة من صمت . ليست بنو بوبلان قرية ، حتى ولا كفراً صغيراً .

بنو بوبلان تجري الأيام الجميلة فيها هادئة ، والضياء يتأرجح فيها مضطرداً . .

هذه الحياة ، هذه الأرض . . كان لا يعرفهما عمر إلاّ قليلا ، وذلك منذ كشف له عنهما ذلك الرجل الذي يسمى كومندار . وإلى هذا الرجل انصرف ذهن الصبي حين وصل هذه المرة ، متسائلاً عماً حل به . ولولا ان الغسق قد شمل الأرض لهرع الى حيث يقوم كوخه . ما من شك انه كان سيجده هنالك ، جالساً عند حدود أراضي قره ، تحت شجرة البطم الكبيرة ، يضفر حبال الحلفاء على عادته . إن مأواه المصنوع من أوراق الشجر والأغصان يرتفع فوق منحدر خفيف ، ويشرف على الطريق الكبير كله ، وعلى ما بعد الطريق الكبير ، يشرف على « دشرة » الفلاحين ، وهي موضع يسمى أيضاً بنو بوبلان .

إن عمر لم ير كومندار واقفاً في يوم من الأيام . كان الشيخ العجوز يلف ساقيه المبتورتين عند الركبتين بخرق بالية يشد فوقها عصائب من المطاط الأحمر . فإذا نظرت الى هذين الجذلين رأيتهما يشبهان بالسمك والمظهر قطعتين من عمود . لقد بترت ساقا كومندار إبان الحرب القديمة . وإلى جانبه لا تزال ترقد عصوان صغيرتان . ان عمر لم ير هذا الرجل ماشياً في يوم من الأيام .

إن كومندار ينتمي الى هذه الأرض ، كهذه الأشجار المتفرقة التي حوله سواء بسواء . وحين أصبح قره صاحب هذه الأرض ، فعثر عليه في هذا الموضع نفسه ، لم يعرف ماذا يقول له . حتى إذا قرّر بعد ذلك أن يطرده كان الأوان قد فات . لقد أدرك قره أنه لا سبيل له الى طرده .

وقد جاء للرجل هذا الاسم ، اسم كومندار ، من حياة عسكرية طويلة كلفته بتر ساقيه

آخر الأمر . ومنذ أصبح الناس يطلقون عليه اسم كومندار ضاع اسمه الحقيقي من ذاكرتهم . ان كومندار قد رأى النار من قرب في الحرب القديمة . وظل ثلاثة أيام بلياليها تحت كومة من الجثث . لقد صارع ، وظل يئن ويعول ثلاثة أيام . ثم استطاع بالزحف ان يخرج من كداسة الموتى . وهكذا انتصر على الموت . إلاّ أنه فقد ساقيه . فلما عاد الى بني بوبلان لم يكلم الناس والبهائم بعد ذلك الا بصوت مرتجف . ان الفلاحين يحيونه التحية العسكرية ، ويسمونه كومندار .

لقد كان كومندار يشبه شجرة من حديد حين كان عمر يقترب منه ، كان الشيخ يحدثه طويلا عن العالم . إنه لا يحمل لهذا العالم إلاّ الصداقة والاحترام انه ، وهو جالس وحده تحت شجرته وسط الأرض ، لا ينفك يساعد المخلوقات التي تملأ هذه الأرض . لقد سمع في الحرب القديمة نداء الرجال الذين كانوا يريدون ان يعيشوا . وظلّ هو نفسه ثلاثة أيام بلياليها مع الجثث ، وأحسّ بالتفسخ يصل إليه .

لا ، إن الشيخ لم يكن يأنف من التوجه بالكلام الى عمر . وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين عمر وهذا الرجل الذي ينصت لضوضاء الأرض ويفهمها . كان الصبي يترك النساء والرجال ليلحق بالحياة الكبرى التي يحياها العالم . كان الشيخ كومندار يعلمه الكلام الذي يجب أن يعلمه عن الخليقة .

قال له ذات يوم :

ـ لا بأس . . سيان ان تفهم وألاّ تفهم في هذه اللحظة يا بني . فإنما المهم أن تفتح الآن أذنيك وأن تحفظ ما أقوله لك ، حتى إذا اشتد ساعدك ونضج عقلك في المستقبل ، أفدت منه وعرفت كيف تنفقَ حياتك . . نعم ، في المستقبل . . حين تصير رجلا . .

اشتعلت نيران في الطرف الآخر . إن نساء لا يرين ، يثرثرن في الظلام . ان ألسنتهن تشحذ على مسن الهواء . وهذه أصوات أخشن تختلط بأصواتهن . إنها أصوات رجال . ولكن ، ما من صوت من هذه الأصوات ، سواء أكان صوت رجل أم صوت إمرأة ، يستطيع أن يغطي ذلك الصوت الآخر الأبح ، الذي كان يبدو أنه يجهل كل ما في العالم من ضوضاء كان هذا الصوت يترنم بأغنية ، تتردد فيها نغمة عالية علوا غريبا ، نغمة تفيض حزناً وأسى .

صاح واحد من آخر القرية :

ـ انتظر قليلاً .

قال (بادعدوش) هذا وهو يلوِّح مهدداً بعصا نحو الجهة التي يأتي منها الغناء . واستمر الصوت يغني :

تسلل صوتي بين الشجر

فأصغ اليه يخير البقر

ـ انتظر أن يصل العم بادعدوش ، ليريك كيف يجعل البقر من أمثالك تخور وتجأر .

وراح (بادعدوش) يطلق نداءات مدوية وقد نفد صبره :
ــ سليـ. . . مان. سليـ . . . مان .

وظهر سليمان من الظلام ، عاقداً يديه وراء نقرته ، مدندنا أغنيته بصوت خافت ، وفي وجهه الذي لا يكاد يبين في الظلام يشع تعبيره عن فرح . كان يهتز في أعماق عينيه المزمومتين التماع ضعيف . وكانت هذه النشوة تختفي في لحية تأكل وجهه كله تقريباً .

صمت سليمان . انه يكبح ابتسامة تلمع في نظرته الغريبة . قال بادعدوش :

ــ أصبحت منذ مدة تكثر من الغناء يا سليمان .

فأطلق سليمان ضحكة بلا صوت .

ونظر الرجلان كلاهما الى الأراضي الممتدة أمامهما . وبدون أن يقول أحد منهما كلمة واحدة ، قعدا معا في آن واحد على المنحدر المعشب . أن القرية التي أولياها ظهريهما أشبه بصدفة من ظل . وعلى جنبيها تتموج نفحات دخان ذكي الرائحة من سوق الذرة .

الظلمات تكثف تحت ذرى جبال يبرز جانبها في سماء حزين بلا ضوء ولا ظل ، ومخضوضر الى غير نهاية ، وفي آخر السهل ، على بحيرة من حجر أشهب قاتم ، يطرف قبس صغير من ضياء . إنها مزرعة مسيو فيلار وبعدها تستريح في الضباب أضواء مدينة تلمسان وقراها .

قال الشيخ :

ــ حين تعوزنا الواجبات ينهشنا الضجر نهشا ، فنأخذ نغني أغاني حزينة ، ونحن لا نعرف متى نتوقف عن الغناء . لا حيلة لنا في هذا . اننا ندلل ضجرنا ، ونحنو عليه . يستطيع الانسان بذلك أن يعمر طويلا . ويأتي يوم نكتشف فيه هذا الأمر . فإذا لم نستجل واجباتنا في ذلك اليوم واضحة ، كنا نجر حياتنا جرا لا فائدة فيه ولا جدوى منه ، الى أن. . إلى أن يحين حين « البعث ». على أنني أحسّ أن اللحظة التي سنفهم فيها واجباتنا الجديدة أصبحت قريبة فلن تلبث أن تأتي .

كان (سليمان مسكين) يصغي دون أن يكف عن الدندنة وهو مطبق فمه . كان يفكر في أقوال العجوز . وزالت ابتسامة عن شفتيه شيئاً فشيئاً .

حواشي الأرض غارقة وراء ضباب الصيف . الحقول أقلعت ، وقد قطعت قلوسها . قرية بني بوبلان الأدنى تبحر ، السماء متلألئة .

وكان العم بادعدوش ينتهز فرصة هذا الصمت هو أيضاً ، ليتأمل كلماته التي قالها . سأل :

ــ وقره علي ؟ كيف أصبح حال هذا الرجل ؟
وما لبث أن أضاف يقول :
ــ لا أدري . . يظن المرء انه يكفيه أن ينظر إليه حتى يعرف طبعه . والحق أن المرء قد ينفق

حياته كلها قبل أن يصل إلى سبر نفسه كاملة ، وأعتقد . .

فقاطعه سليمان قائلاً :

ــ عفوك . . أنني لأخشى ألا تكفيني حياتي كلها من أجل ذلك : ما لنا ولنفس قره . . حسبنا القمل الذي علينا ، فلا حاجة بنا الى البحث عن قمل في رؤوس الناس . ليس يهمني كثيراً أن أعرف كيف تركبت نفس قره .

ــ على كل حال . . أقول لك . .

ــ دعنا من هذا . ولنحاول أغنية من الأغنيات ، أغنية صغيرة . فذلك أحرى بنا وخير لنا .

هذا ما قاله سليمان . فأجابه الآخر .

ــ أراك تسرف في الغناء . . ما عسى يخرج من هذا كله ؟

ــ أغنية صغيرة . هيا . أغنية صغيرة فقط ، يا بادعدوش .

انتصب «سليمان مسكين» ورمى الشيخ بنظرة تواطؤ ، قائلاً :

ــ أغنية فقط .

ثم تمطى ورنح رأسه قليلاً .

وأعاد سليمان عصابته الى مكانها وقبب صدره ، ثم ألقى نظرة أخرى على العم بادعدوش ، كاشفاً عن أسنانه ، فهتف الرجل العجوز يشجعه .

وأخذ سليمان يغني ، عاقدا يديه وراء ظهره ، جاعلاً كوعيه في الهواء :

ــ يا ياما يا دميمة

ودار على نفسه

فقاطعه بادعدوش ، قائلا بصوت معول :

ــ لا ، لا ، ما هذه . .

ولكن سليمان لم ينثن عن عزمه ، وتابع يغني :

يا ياما يا دميمة

غني لنا أغنية جميلة

فالقدر تغلي

والطعام طيب

إن تعبيراً عن حزن صادق عميق يرتسم الآن على قسمات بادعدوش وضحك سليمان . ثم دار على نفسه وهو يقرع الأرض بقدميه ، وظل يضحك ضحكاً صاخباً في أنف الفلاح العجوز المحملق .

إن وجه با دعدوش يثير ضحك سليمان أكثر فأكثر . وسليمان لا ينفك يدور على كعب قدمه بلا توقف ، وهو يردد لازمته :

القدر تغلي
والطعام طيب
ان الطعام طيب

وفجأة انفجر با دعدوش يضحك هو أيضاً ضحكاً قوياً هزّ جسمه هزّاً شديداً .

ــ هيه سليمان ، كفى . . هيه هيه هيه سليمان . كفى اذهب .

ثم صاح يقول وهو يشير الى المزارع الراكعة في السهل المظلم :

ــ وأنتم هنالك . . أصمدوا ، اصمدوا . .

ان رائحة قوية تفوح من الحقول بينما الظلام يشتد في السماء حلكة . ان ليلة باردة متلألئة تطرد اهتزاز النهار الواسع ، وتحل محله . وتحت النجوم تبدأ جولة في الزمان الكثيف وفي وسن الأرض .

وامتلأ جو الليل بنبرات أسيانة عميقة : إن أغنية أخرى تصل إلى هذا المكان من بعيد :

ماذا جرى لك يا حصاني
يا حصاني . .

فانقطع سليمان فجأة عن حركاته . وأخذ يصغي إصغاء شديداً نهِمًا ، نسي معه بادعدوش . ثم طرأ على وجهه تغير . لكأنه يتذكر أمراً لا تظفر ذاكرته الضعيفة باستعادته . وانتظر . ولم يخرج خلال كل ذلك الانتظار لا عن صمته ولا عن انتباهه .

دام ذلك بضع دقائق ، كان خلالها ذلك الصوت نفسه لا ينفك يطلق شكاته القاتمة الحزينة :

ايه حصاني . . ايه حصاني
انه الرجل الوحيد ، الذي لا امرأة له ولا أولاد ، انه كومندار الذي يغني .

الأراضي العالية غارقة الآن في الظلام . وسرعان ما نشرت رطوبة الأرض أغطيتها ، فإذا الأرض بحر من ضباب يتأرجح على هون .

ارتعش سليمان رغم ان الجو لم يكن بارداً ، وانتصب قليلاً ، وتمطى ، ثم استرد هدوءه . ومرة أخرى ، راح ينصت مغمضاً عينيه ، مستنداً بظهره الى جذع شجرة ، دافعاً رأسه الى وراء . إن با دعدوش يرى صدره يعلو ويهبط ، ويرى تفاحة آدم البارزة تتحرك في عنقه . وأمسك سليمان بغصن من الأغصان واهتزت شفتاه بارتعاشة خفيفة .

كان الصوت البعيد يتموج خلال الليل ، وكأنه ينبع من قلب الجبل ثم يظل يرتفع ويرتفع بلا توقف . وأخذ سليمان يرافق الغناء بدمدمة صماء جاعلاً وجهه أمام با دعدوش ، وظهره الى السهل :

ماذا جرى لك يا حصاني ؟

ما الذي ينقصك ؟

ان الغناء يخنقه . فما أن وصل الى النغمة العليا حتى سكت ، وهزّ رأسه يمنة ويسرة في يأس . .

ان الأنغام الأخيرة تنتهي بنبرة كأنها انتحاب . وكان با دعدوش يلاحظ صاحبه الفلاح ، ففهم أنه لا ينبغي له أن يخرجه من حال النشوة التي هو فيها .

شد سليمان على قلبه بكلتا يديه والها . ثم رفع عينيه الى السماء ، وفتح ذراعيه إلى آخر مدى كأنما يريد أن يحضن عالم الليل كله .

ثم انتصب في تحد ، ونشق الهواء في يأس ، وبلعه في غضب وحميا ، ونفثه في عنف . وظلّ يرتعش لحظة من الزمان ، وهو منحن الى أمام يستقبل ريح الليل التي أخذت تهب . وانطلق يقول بكل ما أوتي من قوة :

نحن نرقب النهار
ومن أعماق الأعين
ننظر الى الليل وهو ينتشر على الجبال
حالكا لا يشتعل
نيران
نوقدها كل مساء
في مواقد منازلنا
نيران فرح بين الجبال
تصل الى حدود العالم .

ان سليمان يتأرجح الآن ، وحركات جسمه تساير تثنيات صوته . لكأن جسمه كله كان يغني ، انه يترنح ترنح سكران أسرف في الشراب . وهو يلتفت بوجهه تارة الى الظل المتناثر في الليل المضيء ، وتارة الى الظلمة الحالكة في الروابي ، فإذا تعابير شتى تتعاقب على وجهه واحداً بعد آخر ، فهو متجمد القسمات ، أو مظلم العينين ، أو هادىء النفس ، أو فرح مرح .

النجوم ذات الأسنان
ترمي الأرض بنبالها
ورجال يسيرون في الليل
يجوبون هذه الذرى
الملأى العارية
ما غناؤهم إلّا دمدمات

كان بادعدوش مائلاً برأسه على صدره وقد سرت فيه حمى غريبة . ان ما يظهر في وجه سليمان من تعابير قد فتنه عن نفسه ، فهو لا يستطيع أن يتحول ببصره عنه .

وفجأة قام العم با دعدوش يسير في الظلام كعملاق متحدب ، فكتفاه هابطتان ، وظهره مقبب . لكأنه حشرة ضخمة عجيبة تهم أن تتجمع على نفسها . وقطع الخطوات القليلة التي كانت تفصله عن سليمان ، قطعها في هدوء وبلا جلبة ، ثم انصب بقامته عالية علوها كله .

حملق سليمان مسكين بعينيه اللتين ليس لهما قرار ، وتأمل با دعدوش في رفق وعذوبة كما كان يتأمله من قبل ، واستمر يغني بصوت ازداد الآن اتساعاً :

جميع اليمامات المحتشدة
جميع الكواكب المتلاحقة في السماء
المدينة كلها ، الشوارع والحقول ،
النساء اللاتي يلدن صائحات ،
هؤلاء جميعاً يحيون السجن
والباب الذي يدخل منه السجين .

إن دوامة تلف الأرض لفاً . نفس با دعدوش الخشنة الجافية تدرك ذلك ، تدركه إدراكاً حاداً كل هذه الحدة لأنها خشنة جافية .

وركع العم با دعدوش . جرى هذا المشهد بسرعة محيرة . الليل هادىء . الفلاح العجوز ينظر الى سليمان الذي وضع احدى يديه على كتفه .

خر الشيخ با دعدوش ساجدا عند قدمي سليمان مسكين في وضع خضوع ومذلة . وشملهما الليل الأخرس الذي كان يزداد عمقاً وشمولاً .

ـ ٢ ـ

ملأ صوت زهور فناء البيت . كان ألق الشمس يغرق مدخل المغارة . لم يكد عمر يفتح عينيه بعد حتى رفت خيوط من ضياء جفنيه . وتمطى . ان شعوراً بالراحة والرخاء يسري في جسمه كله . وكان لا يزال يتردد في تعرف تلك الأمكنة . وارتفع صوت الفتاة مرة أخرى . انه ينضم الى صوت الحياة فيطيل فرحة الفتى . شعر الصبي بأنه الكائن الداخلي لزهور : طيف وحشي يتحرك عند انبثاق النهار .

ووصل ، وهو يفرك عينيه ، الى المرأتين اللتين كانتا جالستين تحت شجرة التين في الخارج فشدته زهور اليها ، وأحاطت بذراعها كتفيه .وصبت له ماما قهوة باللبن ، ووضعت الى جانب فنجانه قطعة من الخبز . تملص الطفل من ذراع زهور .

قالت ماما لزهور :

ــ دعيه ، لا تضايقيه .

وقالت لعمر :

ــ هل تجيئنا بالذرة ؟

ــ حالا .

ــ لا ، لا داعي الى السرعة أيها الصغير . . اشرب قهوتك أولا .

خرج عمر . ان القرية غارقة في طراوة الصباح . ان سياجا من الذرة يحيط بحقل البطاطس الواسع الذي يمتد فوق البيت . سيقان عالية ملفوفة بأوراق حادة قاطعة . ان هذه الكتلة من النبات تغطي الأرض بنسغ أخضر. قطع الصبي بضع سبلات وهو يرضض النباتات . وكان من أجل ان يثق بأنها ناضجة ، يزيح القشر ويفحص الحبات ، فإذا رأى ان بياضها قد حال وصارت صفراء كالعاج ، انتزعها .

وعاد عمر الى البيت ممتلىء الذراعين بالعرانيس مع أوراقها . وكانت زهور قد أعدت فرنا . . فأخذوا يقشرون السبلات ، وينزعون عنها فرعها . لم يبق بالكانون الا بصوات ، فوضعت الذرة عليها لتشوى .

دمدمت ماما تقول للصبي :

ــ صفراء ذابلة تلفها غلف ، ماهيه ؟ ان حزرت حزرت ، وإن لم تحزر وقعت . .

فصاح الفتى يقول قبل ان تكمل ماما كلامها :

ــ الذرة ، الذرة .

تلك أحجية معروفة .

وهتف الصبي مطالبا :

ــ واحدة أخرى .

ــ عندي بيت من حديد ، في داخله عبيد ، ان حزرت أعطيتك ، وان لم تحزر بالسوط ضربتك . ما هو ؟

طفق الصبي يفكر ، والاختان ترقبانه . وعجز في آخر الأمر عن الإجابة ، فقالت ماما تكشف عن الجواب :

هو البطيخة يا مغفل .

وانفجرت ضاحكة .

قالت زهور آمرة :

ــ هاتوا السوط ، هاتوا السوط .

وتظاهرت بأنها تنهال عليه بالسوط ضربا . فكان الصبي الذي لم يستطع أن يحزر ، ينظر إليها مقطباً حاجبيه .

قالت :

ــ نعم ، هو البطيخة .

ــ واحدة أخرى .

قالت الأم :

ــ ولكن هل تعرف ماذا يقال ؟ يقال ان الذين يقصون حكايات أثناء النهار يصاب أولادهم بالقراع .

قالت ذلك ووضعت أصبعها على فمها تطالبه بالسكوت .

ومضت المرأتان الى مشاغلهما . وبقي عمر يراقب الذرة تشوى . تناول غطاء قدر من القدور ، فأخذ يهوي به النار . وكان من حين الى حين يرفع سبلة من السبلات شويت من أحد جانبيها ، فيديرها على الجانب الآخر ، والموقد يدوي بانفجارات من حين الى حين . كانت ماما ترتب الغرفة ، وكانت زهور تقشر الخضر . وما هي إلّا لحظة ، حتى عادتا معاً ، وتربعتا أمام الكانون .

ــ هات هات . أنت نائم . أنظر كيف يجب ان تفعل .

قالت زهور للصبي ذلك ، وأخذت الغطاء من يديه ، وحركته تحريكاً قوياً فوق الموقد فتأججت النار ، وأخذت الذرة تفرقع بسرعة .

غطست العرانيس بعد ذلك في ماء مملح بضع لحظات ، ثم سُحبت . كانت حباتها متراصة كالأسنان المصفوفة . وأخذوا يعضونها فامتلأت بحباتها أفواههم فوراً . انهم يقضمونها ، فيحسون بمذاقها ملحاً ودقيقاً وشواء في آن معاً .

أدهش عمر ان تكون الحياة جميلة بمثل هذه السهولة . وكان يحس هذه الدهشة في كل صباح يطلع على بني بوبلان الأعلى . إن قلبه يتفتح لأمواج الحياة التي تتدفق على الريف . كان يلاحق يقظة الحشرات في العشب ، ويحصى حركاتها ، ويسحق أوراق النعناع البري بين أصابعه ، ويستنشىء منها رائحة الأرض المشبعة بالرطوبة . وكان يتقرى بقدميه مسير الندى من خلال انشوطة نعله المخضلة . وكانت الشمس تبسط سلطانها على الريف . لقد أنجز أهل البيت بسرعة جل العمل الذي كان عليهم ان ينجزوه في ذلك الصباح ، فقالت زهور لنفسها : « لعل خير ما أفعله الآن هو أن أنزل الى الجارات أسلم عليهن » وكانت تفكر في ذلك ، ولكن قره ، زوج ماما ، وصل من الحقل في هذه اللحظة الى البيت . وبسرعة ودت زهور ان تتوارى ، ولكنها أمسكت عن ذلك . انها لا تجرؤ الآن على أن تتحرك ما دام قرة في البيت وهي تشعر من جراء ذلك بنقمة لا تطاق فنهضت وقبلت يده حين مر بالقرب منها . كانت زهور تحس بحرج مضن حين يكون عليها ان تقترب من قره. وها هي ذي ماما على انشغالها تبادر الى أن تطلب اليها تقديم طعامه . هذا وقت تناوله فطور الصباح . انه يأتي الآن الى البيت ليأكل حتى اذا فرغ من طعامه عاد الى الحقل .

إتجهت الفتاة الى الغرفة المشتركة التي لم تكن في حقيقة الأمر إلّا مغارة رفعوا أمامها جداراً فإذا هي تبدو كأنها غرفة . كان قرة جالسا هنالك فوق مقعد صغير ، متكئاً بظهره على صوان قديم

مزين برسوم أزهار وأوراق . فدفعت زهور أمامه منضدة صغيرة مدورة وضعت عليها قرصا من فطير الشعير . ووعاء مملوءا باللبن . ان قره علي يرى في حقوله منذ منبلج الفجر . انه يحب أن يعمل في الأرض حين يكون الليل لا يزال جاثمًا فوقها .

وفيما كان قره يأكل ، جعلت الفتاة تتجول في الغرفة خلسة . انها تنظر الى وجه الرجل في بعض اللحظات ، فتشعر بصدمة خفيفة . انها لم تسمح لنفسها يوماً ان تتفرس فيه صراحة ، ومع ذلك كانت تحس احساسا واضحاً ان وجهه الأشقر وملامحه الثقيلة المسطحة وفمه الشاحب ، تلاحقها في هذه اللحظة أنى تحركت .

طوف عمر بين الحقول طويلًا ، والخروف « معشو » يجري وراءه . ذهب الى نبع شجرة التين ، وقصف العصافير هنالك بالمقلاع ، ان الريح في ذلك المكان تسري من ورقة الى ورقة تشيل الثقل المتموج المتلاطم الذي تحمله الأشجار . ليس يدري عمر كيف يتم هذا . ولكنه كان يفاجىء اللحظة التي يحصل فيها : ان الريح تدور عندئذ في غير توقف ، فيتجمد عمر في مكانه منصتا .

وتذكر عمر دار سبيطار ، فتخيلها قاسية شريرة على عهده بها . انها ترتفع حوله فجأة في هذه الحقول ، وتأخذ تبحث عنه بكل ما فيها من أيد ممدودة . ان الأرواح الخبيثة التي تسكن الدار الكبيرة تحاصره من جميع الجهات ، وترسل الى قلبه نفثاتها المسمومة . دام ذلك لحظة قصيرة . لحظة تراءى له كل شيء في أثنائها أسود قاتما .

ثم غاب الحلم الثقيل في هواء الصباح العليل . آه . . يجب على عمر ان يشبع نفسه في هذه الحقول وهذه السماء . .

انه يعرف الآن أين تبدأ الأشياء على وجه الدقة ، يعرف الآن اين يقع ذلك الخط الذي بعده لا يجوع الانسان ، والذي قبله يشعر بحرقة في دمه وبشدة لا تفارقه . ذلك الخط انما ترسمه وتغطيه في آن واحد أمواج المزارع ، وأوراق الشجر ، ونبضات الينابيع ، وسمط المراعي .

اشتد الحر في الظهيرة . وحين عاد عمر الى البيت كانت المرأتان تعدان المائدة : انهما لا تنتظران الآن غيره. ان عمر، وقد امتلأت جيوبه بالحجارة واللوز الأخضر والحشائش وتناثرت على شعره أوراق الأشجار، كان يبدو أشبه بجني صغير. ومضى عمر رأساً الى صحفة على المائدة فنقر منها بضع زيتونات سوداء طرية تلتمع بزيتها .

فلما انقضى الظهر مضى يلقى رفاقه . لم يكن أحد من رفاقه هؤلاء من سكان بني بوبلان الأعلى ، وانما كانوا جميعاً من بني بوبلان الآخر ، بني بوبلان العمال الزراعيين . انه يؤثر أن يتجول معهم في تلك الأراضي التي تفوح منها رائحة دافئة ، يلاحقون الحيوانات التي تخاف ، ويرمون الكلاب بالحجارة فتهيج الكلاب ولكنها تتهيب القذائف المتساقطة فتظل بعيدة . وكان يحلو للصبيان ان يسمعوا من مسافة بعيدة شتائم هاشمي ، الراعي الذي يرعى ماعزه خلال

الجبل ، تلك العزلة المتوحشة التي ترين على منطقة لالاستي . ان الصبيان لا يرونه ولكنه يستطيع من مكانه ذاك العالي ان يرقب كل شيء لكأن صوته في هذه اللحظة ينبع من السماء .

ومضى الصبية يتجولون في مكان آخر . قطفوا توتاً من الأسيجة الشائكة وأكلوه وهم يرتعشون في ظل الحفر : ان هذه الثمار البرية تتقاطر على اللسان عصارة حامزة حريفة . وكان البرقوق الأبيض ، والأحمر ، والضارب الى لون البنفسج ، يتساقط في وفرة غزيرة تحمل على الزهد فيه ، فكانوا يحملون مؤونتهم منه في أوراق عريضة من أوراق شجر التين .

أما ثمار الكرز الرائعة التي كانت تنوء بحملها أغصان الأشجار في بساتين المستوطنين ذات الأسيجة ، فقد أثارت شهوة الصبيان ، وأغرتهم بها ، فاقترح بعضهم ان يتجاوزوا الأسيجة ، ولكن عمر اعترض على ذلك . قال انه لا يسرق ، ويريد ألا يسرق في يوم من الأيام . وأكثر من ذلك ان هذه البساتين للأوربيين ، وهو يحب ان يستطيع النظر الى هؤلاء الأوربيين وجهاً لوجه ، لا يغض طرفه حين يراهم : لا شك ان الأوربيين يتمنون ان يعرفوا ان العرب لصوص يسرقون . كان عمر يحرص على أن يسلك سلوك الرجال وعلى أن يتكلم كما يتكلم الرجال .

وتدورت أعين الصبيان حين سمعوا هذا الكلام ، ثم ابتعدوا وهم يدمدمون .

ابتعدوا يثبون بعضهم على ظهور بعض ، وثبة بعد وثبة ، لاعبين لعبة «سبت سبوت» ولكنهم انقطعوا عن اللعب انقطاعاً تاماً على حين غرة : ان لقلاقا يسير في احد الحقول باحثاً عن ديدان أو ضفادع ، فما لبثوا ان انفجروا يصوّتون جميعاً في آن واحد قائلين :

بيقق شقَ شق شق شق
في البيادر هيا نلعب
يا طاحونة
قمحا وشعيرا أعطيك .
يا نحلة يا قيثار !

كان لعمر بين هذا الجمع صديق في مثل سنّه اسمه سعيد. انه صبي اسمر صاحب عبقرية مدهشة في تسلق الأشجار . فما من غصن من الأغصان مهما يكن نحيلا الا ويبلغه في وثبة . انه يثب وثبته في مثل لمح البصر كالقرود ، وأصحابه من حوله قد تدورت أعينهم من فرط الدهشة . وما هي الا لحظة حتى يغيب بين الأوراق ، فما يسمع بعد ذلك الا رنين ضحكه ، ثم يرى قفاه يتأرجح في أعلى الشجرة في المكان الذي تتفرغ فيه الأغصان . انه يرقص في الهواء ، ثم إذا هو في اللحظة التالية يهبط إلى الأرض .

كان عمر وسعيد على وفاق في مشربيهما . فما أكثر ما رآهما الناس يظهران في بني بوبلان الهادئة صاخبين لا يستقران على حال . وحجرة الطين التي يسكنها أهل سعيد تقع في أول الممر الذي يؤدي الى قرية الفلاحين ، فكانت خضرة ، أم سعيد ، تجلس أمام باب هذا الكوخ ،

وبين ساقيها المتباعدتين طاحونة ما تنفك تديرها . ان عمر لا يستطيع ان يتخيل هذه الأم الا عاملة في تدوير هذه الرحى الثقيلة بهذه الطواعية في جسمها . كانت الأم تظل طوال النهار تطحن شعيراً ، أو ذرة أو فلفلا أحمر جافاً .

فحين وصلا اليها في أصيل ذلك اليوم ، كانت ممسكة بالقبضة الخشبية المغروزة في الرحى ، تديرها تارة بهذه اليد وتارة بتلك . فوثب سعيد على كتفيها ، فانحنت الى أمام ، دون أن تنقطع عن إدارة الرحى . وشد الصبي عنق امه بذراعيه ، فلم تكف عن العمل وظلّ جسمها يتحرك مع يدها .

أخذ عمر ينظر في عينيها الغائرتين ، وقسماتها النحيلة . كانت الرحى تطحن قوى هذه المرأة كما تطحن الحبوب التي تدس فيها . ولكن خضرة ، وهي تتأرجح تأرجحها ذاك ، لم تنس ان تدندن لابنها أغنية من أغنياتها ، بصوت مختنق ، بينما هو متشبث بظهرها كأنه لا يزال رضيعا .

في حديقتي
بذرت بذور اليانسون ،
فاستهوى العصافير شذاها ،
فجاءت الى حديقتي
هششت على العصافير أطردها
العصافير الحمر الحزينة
لن تهاجم بعد اليوم طفلي

وخارت قواها أخيراً ، فاستلقت على الأرض ، فشعر عمر ، حين أراحت عظامها على هذا النحو ، شعر بحزن رهيب يملأ جوانب نفسه . خيل الى عمر ، حين رأى هذه المرأة التي يشيع في وجهها الأسى ، والتي تستلقي على الأرض مستسلمة هذا الاستسلام الكامل ، خيل اليه أنه يرى ميتة .

ـ ٣ ـ

كانت نار قريبة بيضاء تضيء الفضاء ، وكانت الحقول تتقبض ووثب حصان ضخم نحو السماء وجعل يصهل . وصمتت الأرض القديمة . وانطفأت النار البيضاء .

الجداجد وحدها ما تنى تثقب النهار بمثاقبها .

ــ هل رأيته ، الحصان الذي اجتاز السماء ؟

ــ لا يا كومندار ، ما من حصان يمكن أن يطير . أنت تحلم . الشعل التي تتساقط من السماء ذهبت بلبك ، فتراءت لك أشياء .

ــ أنت لم تر شيئا . لذلك تقول هذا الكلام .

تمدد عمر في الظل الممزق الذي تلقيه شجرة من أشجار الزيتون . لماذا لم ير شيئاً ؟ قص عليه كومندار ما رآه الفلاحون ذات ليلة . قال :

« كان قمر الصيف يزبد فوق الوهاد السوداء المنفغرة بين الجبال . لم يعد الوقت ليلاً . وكان الجو والأرض يتألقان ، وكان في وسع المرء ان يستبين كل حزمة من عشب ، وكل مدرة من تراب . وكان الجو والأرض والليل تتنفس لهاثاً غير ملحوظ . وفجأة ترجعت في الأرجاء أصوات حوافر تقرع الأرض . انتصب الفلاحون جميعاً على أقفيتهم . ازداد اقتراب وقع الحوافر . انه كالرعد يتدحرج من أقصى المقاطعة إلى أقصاها . لم تأخذ أحداً من الفلاحين سنة من النوم بعد ذلك . استقر بعضهم أمام أكواخهم . فرأوا تحت أسوار « المنصورة » حصاناً أبيض بلا سرج ولا لجام ولا فارس ولا عدة ، يهتز عرفه بعدو جنوني . حصان بلا لجام ولا سرج ، بهرهم بياضه . وغار الحصان العجيب في الظلام .

« وما كادت تنقضي دقائق معدودات ، حتى دوى عدوه من جديد يطرق الليل ، عاد الحصان يظهر تحت أسوار « المنصورة » وعاد التطواف بالمدينة القديمة المندثرة . كانت الأبراج الاسلامية التي قاومت الفناء تلقى ظلالها الكثيفة في الضوء المعتم .

« ودار الحصان بالمدينة القديمة مرة ثالثة . حتى إذا مرّ بالفلاحين أحنوا رءوسهم جميعاً ، وامتلأت قلوبهم اضطراباً وحلكة لكنهم لم يرتجفوا هلعاً . فكروا في النساء والأطفال . قالوا لأنفسهم : « عدوا في الليل يا حصان الشعب ، عدوا الى الشمس وإلى القمر في ساعة النحس ونذير الشؤم » .

كان عمر راقداً على العشب الحار ، فأخذته سنة . فلما رآه كومندار غارقاً في نوم عميق ، صمت عن الكلام .

ودمدم يردد لنفسه وحدها تلك الفكرة التي تلح عليه : « ومنذ ذلك الحين ، أصبح الذين يلتمسون لأنفسهم مخرجاً ، الذين يبحثون عن أرضهم مترددين . الذين يريدون أن يتحرروا وأن يحرروا أرضهم ، أصبحوا يستيقظون كل ليلة ويمدون آذانهم منصتين . ان جنون الحرية قد صعد إلى رءوسهم . من ذا يحركك يا جزائر ؟ إن شعبك يمشي في الطرقات يبحث عنك » .

جرى الخروف « معشو » هنا وهناك ، فمن هنا عشبة ومن هناك زهرة . ثم اتجه نحو الصبي ، وأخذ يطوف عليه بمنخريه الأسودين الرطبين ، ثم قعد . ان رائحة دسمة قاتمة تنتشر من الخروف وغطاء ثقيلاً على المكان الذي قبع فيه الصبي والحيوان . وازداد الحر كثافة .

واستيقظ عمر . فإليك ما قاله له كومندار عن قرية بني بوبلان وسكانها :

« قد لا تكون «بني بوبلان» مكاناً رائعاً . ان سكان المدن لا يعرفون عنها شيئاً ، رغم ما اشتهروا به من أنهم علماء بكل شيء . والحق ان علمهم ببني بوبلان أقل من علمهم بما عداها أيضاً . في أقصى الشمال ، وفي أدنى الشرق ، وفي أي مكان من العالم لا يعرف الناس عن بني

بوبلان كبير شيء . من الذي يتكلم عن بني بوبلان ؟ لا أحد ذلك أن من يريد أن يتكلم عنها ، ينبغي له ان يعرفها . وكلما عرفها كلما تأملها ، لاح له أنها مكان يحلو العيش فيه ، ولا أقول انها مكان رائع . إن الإنسان يتنسم هنا هواء الجبال . وإذا شعرت هنا بالوحدة فهي وحدة غير التي تستولي عليك حين تعيش في مدينة كبرى .

« هي وحدة أخرى. . وحدة الطرق المحصبة الغبراء التي تملأ البلاد . حقول الكرمة ، التي تحف بها الأسيجة ، تمتد أمامك ههنا على مدى البصر . ومن مسافة الى مسافة ، يظهر كوخ بائس من أكواخ الفلاحين . هذه الأكواخ كلها متشابهة . يلوح لك فيها شيء من الحزن يلاحقك بغير انقطاع . ان الفلاحين لا يتركون بني بوبلان أبداً . وإذا تركوها لم يصلحوا بعدها لشيء . في أصواتهم حنين رائع ، وتحيتهم تزخر بالحرارة . ولكن الاستعمار يجرح : عيونه خائفة لا سبيل إلى خلاصها من هذا الخوف ، وعيون الرجال قاسية لا سبيل الى خلاصها من هذه القسوة . ذلك ان المستعمر المستوطن يرى أن عمل الفلاح من حقه تماماً ، بل أنه ليريد أن يكون الناس أنفسهم له . ولكن الفلاح ، رغم ان ملكه اسمًا ، هو في حقيقة الأمر سيد الأرض الخصبة البهائم والمحاصيل والحياة في كل مكان ، من انجابه . الأرض امرأة. . سر الإخصاب واحد ، في أخاديد الأرض وفي أرحام الأمهات على السواء . والقوة التي تخرج من الأرض ثماراً وسنابل هي بين يدي الفلاح .

« قوي مخيف هو . لا بد له يوماً أن يحمي بالسلاح بيته وحقوله .

« أما النساء في بني بوبلان فقد لوحتهن الشمس حتى صرن بلون العسل . انهن كالذهب . ومع ذلك لا شيء من هذا يدوم لهن طويلاً . ان اللعنة القديمة تلاحقهن . فما أسرع ما تصبح أجسامهن أجسام حمالين ، وما أسرع ما تتحفر أقدامهن التي تطأ الأرض ، فإذا هي ملأى بشقوق عميقة . جمالهن يذبل في مثل لمح البصر ، بطريقة أو بأخرى . ولا يبقى لهن من آثار الجمال إلّا صوتهن البطيء العذب الرخيم . غير ان جوعاً رهيباً يسكن نظراتهن .

« وفي بني بوبلان يتفق للرجال ان يلتقوا جماعات صغيرة قرب القرية ، يتبادلون الأخبار بعد ان افتقدوا العمل بالمزارع . ان وجوههم تصبح صامتة خرساء . وهم في هذه اللحظات يبخلون جميعاً بالكلام ، ولا يديرون ألسنتهم الا بجملتين أو بثلاث :

« ــ نحن نعمل في الكروم . .

« ــ أنا أعمل في مزرعة ماركوس . .

« ــ لم يبق هنا عمل . . لم يبق عمل .

« ــ يمكن الذهاب الى منطقة أخرى .

« ــ من يدري . . ربما كانت البطالة سائدة هنالك أيضاً . .

« وهم يتجولون في دروب الريف التي تعمي الأعين ، يتجولون في بطء ، وأذرعهم

تتواثب . انهم يتبادلون التحية في مودة .

هذا واحد يصيح :

« كيف حالك يا قدور ؟ لا شك أن هذا الحر شديد عليك .

فيجيب الرجل المدعو باسم قدور ، يجيب وهو يهز رأسه :

ــ الحر خانق والبطن خاو ، هذه حالي .

فتدوي في الفضاء ضحكة غير مألوفة :

ــ والله صحيح . . حلوة هذه . .

« ويضحك الرجل مرة أخرى بصوت اخفت . لم تعد أعينهم قادرة على أن تتلاقى . .

« وتمضي أيام . فتأتيهم الأنباء في ذات صباح قائلة ان اثنين منهم أو ثلاثة أو أربعة معا ، قد قتل بعضهم بعضا بالمطارق ، عند حافة طريق أو حول عين . ليس هذا بالغريب . هواء الجبل خفيف ودم الرجال حار . وتظل أعينهم مجنونة أياماً برمتها . فكذلك تجري الأمور .

« ولست ترى على الجملة الا أناسا خضعا متواضعين ، لا ينزل أحد منهم نفسه في غير منزلتها . ان تلمسان لا تنجب الآن الا تجارا . فما هو موقف هؤلاء التجار ؟ أنهم لا ينفكون يباهون بعظمة ماضية . ولكن ما هم الآن ؟ ان الفلاح يسعى الى شيء أقرب الى الجد والرصانة ليس يجدي المرء في شيء أن يعرض على الناس مطامعه ودعاواه .

« اسمع مثلاً ما تستطيع الخالة خدوجة أن ترويه لك عن الماضي ، بل اسمع ما ترويه الجدة أم الخير . ان حياة الجدة أم الخير يرجع عهدها الى تلك الأيام المتوحشة ، أيام الحرية ، التي سبقت مجيء الفرنسيين . ان أم الخير عليمة بما كان عليه ماضينا . فإذا تكلمت امتلأ الهواء بأطياف لا ترى وبأصوات . فأنت يا من تسمع كلامها ، اعلم أن هذه الأصوات الأليفة هي أصوات ناس من عصر آخر .

ان ما تسبره أقوال أم الخير : التي تتردد في الليل الواسع الهادىء ، انما هو ماضي الفلاحين ، ولكنه أيضاً ماضي الجزائر الذي كان ماضيك .

« ستقول لك أم الخير ان جدها كان محاربا عظيًا ، فارساً كبيراً ، حكيًا أحكم من سائر الحكماء ، يعلو بعدله وخيره وبسالته خاصة على سائر رجال القبيلة . . غير ان هذا كله ليس شيئاً ذا بال . لقد كان جدها أكثر من ذلك : كان انساناً ملكاً .

« ذلك عن ماضي الفلاحين . غير ان الفلاحين لن يدعوا انهم كانت لهم في الماضي قيمة كبيرة . ان الفلاحين أناس صغار بسطاء .

« ذلك عن الماضي . . ولكن لنعد الى الحاضر .

هل «بني بوبلان» أفضل ، لأنها من الريف ؟ ان المرء لا يدرك أحياناً أن انتماءه الى المدينة خير من انتمائه الى الريف . والحق ان انعزال الانسان في ريفه انعزالا تاما أمر لا قيمة له البتة .

ولكن الاسراف في الانحباس بين جدران مدينة من المدن ، ليس خيرا من ذلك فانما المهم ان يعرف المرء ماذا يريد . فإذا وجد في الريف وفي المدينة على السواء ، رجال ينهضون ليشقوا الطريق الى حياة جديدة ، لم يكن ثمة فرق بين المدينة والريف . ما ينبغي لأهل الريف ان يحترقوا وأن يجفوا على الأراضي ، وما ينبغي لأهل المدن ، سجناء الجدران ، أن يتفسخوا في ميعة العمر .

« قد تكون «بني بوبلان» أفضل ، ولكن أهلها لا يعرفون اليقين . لم يشعلوا النار في العالم بعد ، وليس في نيتهم ان يفعلوا . ولكنهم بدأوا يتكلمون عن وطأة المظالم ، وبدأوا يفهمون أن الأجور التي يدفعها لهم المستوطنون هي البؤس عينه . انهم يتحدثون عن هذا في جميع المناسبات ، أثناء العمل وفي استراحة الظهر ، حين يلتقون في الطرق ، وحين يعودون الى بيوتهم وصغارهم عند المساء ، في السوق يوم الاثنين ، وفي الأيام الطويلة التي يقضونها بلا عمل مكرهين . والسخط يكبر شيئاً بعد شيء . الريف كله يعيش في جو لا يبشر بهدوء . ومن الناس من يحلف بأغلظ الايمان ان السجن خير من هذه الحياة .

« ثم ان بني بوبلان ليست بالشيء الذي تسر رؤ يته الناظرين . إنك لا ترى هنا الا أكواخا وخصاصا ، وعدداً قليلاً من بيوت الحجر يسكنها المزارعون ولا تكاد تختلف عن مساكن الفلاحين . ان الناس لا يحرصون أن يتكلموا عن ماضيهم . في هذا المكان كانت تقوم في الماضي مدينة « المنصورة » التي لا تزال نرى جدران سورها ، ولا نزال نرى برجها المغربي . صحيح ان تلمسان مدينة قديمة : فالبيوت فيها هرمة يرجع عهدها الى مئات السنين . ولكن الناس أيضاً هرمون في تلمسان . الوجوه في بني بوبلان بسيطة كل البساطة مألوفة كل الألفة . الفلاحون يمضون الى أعمالهم دون ان يطلب منهم ذلك . فلهذا خلقوا . وهم في أذواقهم وميولهم أعفاء قانعون معتدلون . ولكن حذار أن تسألهم ان يحنوا ظهورهم صاغرين . . ان سكان بني بوبلان اناس حليمون بسطاء بطيئو الكلام ، ولكن كل كلمة في أفواههم موزونة . والعمل عندنا دائم ، والفراغ قليل . ان بني بوبلان منطقة عادية ليس فيها ما يلفت النظر . قبضة من الناس لا يمتازون بشيء خارق غير مألوف ، ولكني استطيع أن أقول على وجه التقريب أن كل ما يصنع الجزائر قائم فيهم ».

ـ ٤ ـ

كل شيء قد بدأ بذلك الاضراب الذي قام به العمال الزراعيون في شهر شباط الماضي . وكان المزارعون في بني بوبلان الأعلى يشاهدون الأحداث التي تقوم في السهل كأنها لا تتصل بهم ولا تعنيهم . انهم هادئون صامتون لا يقولون شيئاً . ألوف الهكتارات من الأرض كانت تصير ملكا لمستوطن واحد من الفرنسيين . وهؤلاء المستوطنون جميعاً سواء : لقد وصلوا الى هذه البلاد

بأحذية مثقبة نعالها . ان الناس هناك لا يزالون يذكرون الحالة التي كانوا عليها حين توافدوا الى هذه البلاد . وها هم أولاء الآن يملكون مساحات من الأرض لا تعد ولا تحصى . وسكان بني بوبلان في أثناء ذلك تقطر أجسامهم عرقاً ودماً من أجل ان يزرعوا قطعة صغيرة من الأرض ، جيلاً بعد جيل . فهذا يملك حماراً أو حمارين ، وربما ملك بغلاً ، وهذا يملك بقرة أو بقرتين . ورب مزارع من المزارعين مثل ، بن أيوب ، يضم اسطبله بقرتين كبيرتين من الأبقار النورمندية . ما من أحد من بني بوبلان الأعلى كان يتصور ان هذه الحياة سيطرأ عليها تبدل .

ثم إذا بهذا العالم الصغير الراكن الساكن الهادىء يتحرك . لقد قام الفلاحون بإضرابهم . إن البلاد تفيق ، تخرج عن ركودها ، فتسير في أول الأمر سيراً بطيئاً ، سير من صحا من نوم طويل ثقيل . انها تسير في طريق الحياة .

كان بن أيوب في بعض الأيام ينظر طويلاً إلى الأعماق البعيدة من السهل ، فيدرك الحقيقة واضحة : يدرك ان الثورة الحقيقية تتجمع في أيدي المستوطنين . أما هو فإن أرضه لا تبدأ إلّا على الجنبات الوعرة من الجبل ، مثله في ذلك مثل سائر المزارعين في بني بوبلان . ولقد كانت الأرض تنتج ، ولكنها كالنساء الضاويات في الأعالي ، لا تدر إلّا قليلاً من اللبن . ان بني بوبلان وحقولها المعلقة فوق مجاري السيول وحقولها الوعرة الملتصقة بالصخر ، تقع على عتبة الأراضي البور .

والمزارعون في بني بوبلان لا يكدسون شيئاً من أوراق النقد التي يصدرها « مصرف الجزائر »، لا ولا يجمعون ذهباً أو فضة . إنهم يقيمون أودهم لا أكثر من ذلك ولا أقل . لم يدخروا قرشاً في يوم من الأيام ، وعليهم أن يعملوا عملاً قاسياً مجهداً .

أما من أجل دفع الضرائب ، فلا بدّ لأحدهم من أن يبيع حلى زوجته ، وأن يضيف اليها ملابسه الشخصية ، وان ينتزع من الفراش صوفه ، وان يكمل المبلغ بثمن ما في بيته من جلود الخراف . كانوا يبيعون كل ما في وسعهم أن يبيعوه ، اللهم إلّا الأرض .

وإذا استطاع أحدهم الآن أن يجني ما يسد الرمق ، ان يكسب كسرة الخبز التي تقيم الأود ، فذلك كل ما يتمناه . وحتى في هذا كانوا يقتصدون بعض الاقتصاد .

ولكن الأرض مع ذلك ليست عاقة . انهم هناك في الأعلى لا يضنون بالجهد ولا بعرق الجبين . واذا استطاع أحدهم ان يدخر بضعة قروش ، فإنما هو يأخذها من طعامه ، يقتطعها من معدته . ولا بد من هذا . . كذلك هم الآن ، فهل يجب ان يظلوا على هذه الحال مدى الحياة ؟ انهم منذ الآن في عسر وضيق ، لا يكاد يستطيع أحدهم ان يحرك كوعه قليلاً . ان الحياة التي على هذا المنوال لا تستحق ان يحياها الانسان . متى احترمت الأرض احترمتك . أعطها العمل ، ترده لك أضعافاً مضاعفة . أما كنز الذهب فأشبه بترك الفريسة والقبض على الظل . كيف تستطيع أن تضع خير جزء من دمك ، ومن قوتك التي لم تكف عن العمل يوماً ، ومن أحلامك المضيئة ، كيف تستطيع ان تضع هذا في ركن مظلم وأن تدعه يتخمر هنالك ويفسد ؟ إنك لو فعلت ذلك

لتلطخت نفسك ببقعة لا تسمى باسم ، ولا تبرأ ولا تشفى كمرض من أمراض البلاد الحارة .
انظر أمامك كيف يسيل الثراء الذي لا ينضب له معين ، على هذه الأراضي الشاسعة الخضراء . .
صحيح ان الأرض وما عليها من نبات وحيوان ، الأرض الواسعة الرحبة ، هي ملك لله يعطيه من يشاء من عباده . ولكن الذي يملك قطعة صغيرة من أرض يكون قد حظي برضا الله ، فملك اليسر ورغد العيش والحرية . هناك إنما يجد الاستقلال الحق .

بهذا كان مزارعو بني بويلان الأعلى يحدثون أنفسهم ساعات طويلة ، وهم يبذرون بذورهم أو يقضبون الأشجار او يعنون بالبهائم ، وحتى في أثناء النوم . كانت هذه الفكرة تنبض فيهم نبض الدم في الشرايين ، وكانت تغذي في نفوسهم رغبات بطيئة كثيفة ، وشهوات لا تخطر ببال . انهم يمضون من عمل الى عمل ، وقد لازمهم هذا الحنين الى الأرض التي كانت تصبو اليها نفوسهم ، وتصور أمام أبصارهم سراباً يرونه كل يوم .

وفي هذا الوقت كان الفلاحون لا يزالون يتحدثون عن الاضراب الذي قام في شهر شباط ولم يدم مدة طويلة ، وانتهى الى نهاية محزنة . ان اثنين من ذويهم قد اعتقلا أيامئذ ولا يزالان في السجن دون محاكمة ولم تعتقل السلطات هذين الاثنين فحسب ، وإنما اعتقلت كذلك رجالاً آخرين من المراكز المجاورة .

ان معمر الهادي ، ذلك الرجل الوقور ، لا يزال في هذا اليوم أيضاً يسدي نصائح الاعتدال والهدوء الى الفلاحين الذين تجمعوا عند حدود القرية وكانوا مثله لا يعملون . قال معمر الهادي :

ــ ينبغي للانسان ألّا يتحول بفكره عن العمل ، وعن الجهاد في سبيل المعيشة ، هذا الجهاد الذي يستنفد وحده كل ما يملك من قوى . يجب على الانسان ألّا يفكر في مصيره وفي غده ، يجب عليه ان ينسى مصيره وغده ، فكذلك قال الأوائل بحق . هذان رجلان منا قد انتهيا الى السجن . لماذا ؟ لأنهما وضعا في ذهنيهما آراء وأفكار .

أراد سيد علي ان يعترض ، ولكنه تفكر في الأمر ، فأحجم . انه لا يريد أن يقحم نفسه في مشاجرة لا معنى لها . ثم انه يعرف عقم مثل هذه المناقشات .

ومع ذلك أجاب معمر بقوله :

ــ وإذا لم يكن في بيتك كسرة من خبز ، فهل المطالبة بهذه الكسرة من الخبز اشتغال بالسياسة أيضاً ؟ كسرة خبز ، ما هي ، ما كسرة الخبز بالشيء الكثير ، ومع ذلك فإن هذا الذي ليس بالشيء الكثير هو عندنا كل شيء . إذا قلت الخبز ، فقد قلت الحياة . من أجل ذلك كان الخبز كل شيء عند أناس مثلنا .

كان الآخرون مصيخين بأسماعهم .

فقال معمر :

ــ إذا كان هدفك ان تعيش فحسب ، فأخفض رأسك وأعمل . هذه هي الوسيلة التي لا

وسيلة سواها .

وهنا صاح علي بن رباح قائلاً له :

ــ عفوك . عفوك . . أعتقد إن عليّ أن أقول أنني غير موافق على ما تقول . الناس في هذه البلاد طينة كريمة . قلوبهم لا تزال سليمة لم تشبها شائبة . كل ما كابدنا من بؤس ومن شقاء لم يفسدنا . إننا لم نخفض رؤوسنا في يوم من الأيام ، فلن نخفضها اليوم . كل رجل من هؤلاء الرجال الذين تراهم حولك هو الآن أشبه بالبارود ، يكفي أن تسقط عليه شرارة . .

قال بادعدوش العجوز :

ــ بارك الله فيك .

وتدخل سيد علي قائلاً :

ــ إننا نرى في هذه الأيام أموراً كثيرة خارقة . ولكن هذه الأمور ليست بالأمور التي يستحيل فهمها . انها مرتبطة أتم الارتباط بالمظالم القديمة والجديدة التي تقع على الفلاحين .

قال هذا الكلام وهو يحدق الى معمر ، مع اتجاهه بالحديث الى الآخرين .

ثم صاح يقول :

ــ ان لكم عيونا ترى ، فانظروا حولكم . انكم ما زلتم شباباً . ولسوف تعلمكم الحياة أموراً كثيرة ، لسوف تدلكم على ما تغير في هذه البلاد .

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت بادعدوش ، وقال في همهمة كأنها هدير حجارة تتلاطم :

ــ ان أموراً غريبة تحدث لدى الفلاحين . ان تبدلات تطرأ . نحن القدامى نتذكر عهدا كان يستحيل فيه حتى ان نتصور ان شيئاً من الأشياء يمكن ان يتغير . حين ينخفض بصر الشيخ العجوز ، فإن دماغه يزداد نشاطاً ، فيظهره على كل شيء .

قال عزوز علي :

ــ ولكن اذا ظلّ صرح المظالم قائمًا في مكانه ، فما من شيء يكون قد تغير .

فقال بادعدوش الشيخ الذي بدا أنه لم يسمع كلام عزوز علي ، قال متنهداً :

ــ آه . . ليت واحداً فقط يعرف كيف يقص على الناس قصة الحياة الحزينة الشقية التي يعيشها الفلاحون . الا ما أكثر ما يستطيع عندئذٍ ان يقوله . وليته بعد أن ينتهي من الكلام عن الفلاحين المساكين ، يتحدث عن حياة الأبهة التي يعيشها المستوطنون الفرنسيون ، ليسري عن مستمعيه ويروح عنهم .

بالقرية جسر صغير كانت جماعة الرجال واقفة تحت افريزه . وكان عدد من النساء لا يزال الى هذه الساعة قرب العين ، ذلك أن الماء الساقط من العين في الشتاء والصيف معا خيط نحيل ، فالفلاحات يتلبثن بالمكان هنالك وقتاً لا نهاية له . فيثرثرن ويلقين على الرجال نظرات سريعة مختلسة .

وهذا بعضهن عائد من العين . ان أجسامهن صلبة خشنة . انهن يرتدين ثياباً من

القطن ، والمنديل الملون العريض الذي يحيط برؤوسهن يحجب عن الناظر فروعهن . انهن يتقدمن بخطا بطيئة . ان القادوس الملآن الذي تشده كل واحدة منهن الى كتفيها بحبل ، يقصم ظهرها . انهن يخطرن واحدة بعد أخرى ، على صف واحد ، في بطء وصمت ، ثم يغبن في الطريق الوعر المؤدي الى القرية . إلاّ ان احداهن انفصلت عن رفيقتها ، وتقدمت بضع خطوات نحو الرجال ، ثم وقفت على مسافة منهن دون ان تنبس بكلمة واحدة .

ــ ما من أخبار جديدة يا زهرة . عودي الى البيت .

ــ أعود الى البيت ؟

وكان واضحاً ان الرجل أراد أن يقول لها شيئاً آخر . وانتظرت المرأة . غير أن سيد علي أشار بيده ، ولم يزد على ما قال كلمة واحدة . فابتعدت المرأة ، وأدركت رفيقتها التي كانت تنتظرها على بعد ، واتجهت المرأتان كلتاهما نحو القرية بتلك الخطا الهادئة نفسها .

قال أحد الفلاحين :

ــ هنا ، في هذا المكان نفسه ، اعتقل زوجها .

قال جاره :

ــ شهدت ذلك أنا أيضا .

وقال بادعدوش في همهمة بحاء :

ــ ما كان أبشعه من مشهد !

وسأل عيساني عيسى :

ــ ما الذي تفعله الآن ؟ أريد أن أقول : كيف تعيش ؟

ان عيساني عيسى لا يسكن بني بوبلان . وإنما هو عامل مستقر في مزرعة ماركوس ، فهو لا يعرف كيف كانت تسير الأمور في القرية .

فقال بن سالم عادة :

ــ انها لا تملك الا عينين تبكيان . كان زوجها يعمل ، فيكسب ما يكفل حياة الأسرة . . أما الآن ، بعد غياب زوجها ، فان . . فان الناس تساعدها ، هي وصالحة . . ان لكل منهما أطفالا ، ثلاثة أو أربعة . ولكنهما تعرفان كيف تصبران على المحنة .

وعاد فلاح يقول :

ــ كان هنالك كثير من الناس في ذلك اليوم .

فأجاب جاره :

ــ وكان سكان بني بوبلان يرون ما يجري .

فقال الأول :

ــ جميع من حضروا شهدوا الأمر .

فأجاب الثاني :

ـ رأينا كيف عذبوهما .
ـ لم يكن اعتقالا عادياً كاعتقال اللصوص أو القتلة .

الواقع انه لم يكن اعتقالاً عادياً . كانت النساء عائدات من العين بعد أن ملأن منها . وكان الرجال ذاهبين يسقون البهائم . وكان العمال يضعون أكواماً من السماد على صفوف الدوالي في كرم مسيو بيار . وفجأة رأوا ذينك الفلاحين بين جنود الدرك ، يسيرون بهما في الطريق نحو المدينة .

تلفت النساء والرجال ليروا الجمع . قال عامل يسمى أحمد بن سماحة :
ـ غيبتهما طويلة .

وعاد الى عمله . انه بعد أن قال كلامه ذاك لا يريد ان ينظر الى السجينين . .

وقدر جميع العمال الزراعيين ما قدره احمد بن سماحة من ان هذين الفلاحين اللذين يسيران في الطريق المغبرة ، سيغيبان غيبة طويلة .

وقد تجرأ أحد الناس فوجه كلمة الى السجين من بعيد ، على سبيل التحية . ولكن الناس كانوا يقدرون ان السلطات أصبحت في هذه الأيام الأخيرة لا تنتظر منهم إلاّ إشارة واحدة حتى تقبض عليهم . كان هذا واضحاً كل الوضوح . كان يفقر الأبصار . ان السلطات والشرطة والمستوطنين الفرنسيين لا يتمنون أكثر من أن يرفع أحد هؤلاء الفلاحين اصبعه بحركة يسيرة . . آ . . انهم لا يتمنون أكثر من هذا . أدرك الفلاحون ذلك وفهموه .

وظلّوا هادئين لا يحركون ساكناً . ما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهم شيئاً . ان الآخرين هم الذين يبحثون عنهم ، ويتحرشون بهم . كان الفلاحون يقولون بينهم وبين أنفسهم : « لم نقل شيئاً . هذه أفواهنا . ها نحن أولاء نضع أيدينا على أفواهنا فما تخرج منها كلمة واحدة . هذه أيدينا . هذه أيدينا مبسوطة . ليس فيها شيء . أيد مسالمة . اننا لا نطلب إلاّ أجوراً أعدل . هل من الشر أن يطالب الانسان بما يسد رمقه ، لا أكثر ؟ هل من الشر أن يطالب الانسان لأطفاله بطعام يقيم أودهم فحسب ؟ هل ذنبنا ان أطفالنا يكون كثيراً ؟ هل هذا ذنبنا ونحن نضع قوتنا تحت تصرف من يشاء ؟ أين الشر إذن ؟ من الذي يريد الشر ؟ من الذي يسعى الى الشر ؟ من الذي كان أول من أراد الشر ؟ هذه أفواهنا . اننا نضع عليها أيدينا » .

وكان الفلاحون يعرفون ماذا يرون من رأي في هذه الاعتقالات ، وما الذي ينبغي لهم ان يفعلوه في مثل هذه الأحوال ؟ انهم لم يتحدثوا عن ذلك الى هذا اليوم ، ولكنهم يعرفونه كأنهم قد اجتمعوا قبل ذلك منذ مدة طويلة ، فانتبهوا اليه : وهو أن يكونوا يدا بيد . كلمة واحدة : الاتحاد .

لقد رأوا السجينين يذهبان ، فلم ينطقوا بحرف . ظلوا هادئين لا يحركون ساكناً ، وكانوا جميعاً يعرفون ـ دون ان يقول أحد لأحد شيئاً ـ ما الذي ينبغي لهم أن يفعلوه . بضع ثوان كانت

كافية : لقنوا الدرس وحفظوه في الصدور .

والسجينان لم يردوا كذلك تحية الذي حياهما في صداقة . يجب ان نفهم ماذا يعني ان يكون المرء سجيناً . لو كنا في مكانيهما لما فعلنا غير ذلك . ان يسير المرء مكبل اليدين بقيد ، فذلك أمر لا يقع كل يوم لشرفاء الناس . لم يردا التحية . هذا أمر يقع لهما أول مرة . إنهما لا يعرفان كيف يفكران ولا ماذا يفعلان . لا يمكن أن نقول أنهما كانا يشعران بالخجل والعار ، ولا انهما يغضان الطرف حياء . وإنما كانت بهما دهشة كبيرة . لاحظ أن السلطات شديدة السخط إذا سخطت ، انها أشد سخطاً من كل ما يمكن أن يخطر لك ببال . لا يعرف المرء ماذا يمكن أن تفعل إذا هي ثار حنقها . لذلك كان الأفضل ألّا يردا التحية ، ولو استاء هؤلاء الأصدقاء . كان يكفي أن يتبادل رجلان كلمة مودة وصداقة حتى تهتاج السلطات سريعة التأذي .

كان السجينان يفهمان ذلك ، فذهبا دون أن يردا التحية . على انهما كانا يحسان أثناء مرورهما بما يشعر به الناس نحوهما من حب وعطف . ان الفلاحين الذين لم يتحركوا كانوا يشعرون نحوهما بشعور الصداقة ، حتى لقد بدأوا يشدون على أسنانهم من الغضب . ليس على السجينين أن يظنا فيهم الجبن ، فلو ظنّا ذلك لألحقا بهم إهانة فظيعة ، إهانة لا تمحى مدى الحياة .

أما رجال الدرك فكانوا يسيرون دون أن يلقوا نظرة واحدة على يمينهم أو شمالهم . كانوا يظنون أنهم يقودون رجلين الى مكان هم السادة فيه . (ولكنهم في الواقع على خطأ). ان الحقول ، والقرية ، والمدينة ، وحتى السجن ، ان كل ذلك سواء . ان هذين الرجلين يظلان في بلدهما . انهما ينقلان من مكان إلى آخر ، ولكنهما يظلان في بلدهما . واضح أن رجال الدرك كانوا لا يفهمون هذه الحقيقة . ذلك أنهم ليسوا في هذا البلد .

ربما كان هذا هو السبب في أنهم كانوا يحسون انهم مضطرون الى أن يسيروا على هذا النحو . لم يكونوا مزهوين . أليسوا هم أصحاب القوة ؟ ولكن يا لها من قوة !

حين زجّ بالرجلين في السجن ، كانت السلطات تشتبه في جميع سكان بني بوبلان . كانت السلطات تحس ، وهي على حق في ذلك الاحساس ، ان هذين الرجلين لا يعملان ولا يعكران صفو الأمن العام وحدهما .

قال سيد علي :

ــ طويل صبرنا .

فقال بادعدوش أيضاً :

ــ لسوف تريكم الحياة ما تبدل من أمرنا . أكنا نجيء الى هذا المكان نتحدث عن هذه الشئون كلها ، لولا أن شيئاً قد تبدل ؟ قولوا . . .

فقال معمر الهادي في غيظ وحدة ، وهو ينظر الى العجوز بعينيه المغمضتين نصف إغماض من وهج الشمس :

ـ نحن أناس نجيد الكلام . . نحن جميعاً نجيد الكلام ، حتى بادعدوش . ولكن . . يجب ان نكون على حذر . .

قال بن سالم عادة :

ـ طفح الكيل ، لذلك نحن نقول هذا الكلام . كلام كل واحد منا يخرج من أعماق قلبه ، ويعبر عن أصدق ما بنفسه .

قال معمر :

ـ نحن لا نعرف ما نقول . كلامنا لا يعبر عن أصدق ما بأنفسنا . . وإنما نحن نتكلم، ونتكلم. نحس أن الكلام يريحنا، أو نظن ذلك . .

قال عزوز علي :

ـ هو كلام وكفى . كلام بريء . اغفروا لنا هذا العيب . نحن نود لو نعمل . أننا نرى الشر أيضاً . وربما أكثر . ذلك أننا ، جميعاً في المواقع الأولى ، نعرف كل ما نكابد من آلام . ولكننا نحب ان نتكلم . أهي جريمة ان نتكلم ؟ هو كلام وكفى . كلام بريء . سامحنا . .

ولكن ماذا نعلم نحن عن الخير والشر ، نحن الفلاحين ؟ نظن أننا نفعل شيئاً ، وان لنا قيمة . هه . . اننا نحب الخطب الجميلة ، نحب الكلام الجميل ، وخاصة حين نكون نحن الناطقين بهذه الخطب الجميلة وهذا الكلام الجميل . وهذا بعينه هو ما يفقدنا صوابنا ، ويطيش لبنا . مع أننا لم يكن لنا في يوم من الأيام أية قيمة . .

انتفض بادعدوش حين سمع هذه الكلمات ، وقطع حديث معمر بقوله :

ـ هذه هي العادة عندنا في القرى: نزعم دائمًا انه ليس لنا قيمة ، وما نفتأ نردد ذلك : متى فرغ الفلاح من أعمال الحقول، قعد ولم يفعل بعد ذلك شيئاً ، الى أن يأتي الموسم الجديد . هذا ما نقوله دائمًا عن أنفسنا . ونقول أيضاً ان الذنب في هذا هو ذنبنا ، فنحن نكره العمل .

قال بادعدوش ذلك ثم التفت نحو الآخرين سائلا :

ـ أليس كذلك ؟

وإذ لم يجبه أحد ، تابع كلامه :

ـ ما حياة الفلاح ؟ انه متى حل الشتاء ، أوى الى كوخه أو إلى مغارة مظلمة ، يرتجف من البرد هو وذووه . وأظن أن الأمر هو كذلك في غير هذا المكان ، أظن انه كذلك حيثما يوجد فلاحون فقراء ، سواء في الشمال أو في الجنوب ، في الشرق أو في الغرب . وتقولون هذه قسمة الفلاح ، إلاّ أنكم لتهينون الحياة بهذا الكلام . يا أصحابي ، كفى إهانة للحياة .

وتنهد بادعدوش ثم صمت . انه يلقي على الناس حوله نظرات مهتاجة ، ولا يستطيع ان يكظم غيظه .

لم تبدُ على الفلاحين الآخرين رغبة في الكلام ، ذلك لأنهم ليس في أذهانهم ما يقولونه ، أو لأنهم كانوا يؤثرون الا يضيفوا الى ما قيل شيئاً .

لا شك ان كل واحد من هؤلاء الرجال كان في حاجة الى التقدير . انهم يطلبون هذا التقدير من أنفسهم ، ولهم على ذويهم حق . كيف تريد من غريب أن يحترمك إذا كان أهلك لا يحترمونك ؟

وقطع بادعدوش الصمت وعاد يقول :

ـ ما أكثر ما يتجنون على هذا الفلاح . الفلاح تنبال كسلان . لكي يعمل يوماً يجب ان يرتاح عشرة . متى كسب قوت ثلاثة أيام ترك العمل ، وراح يعيش كما يعيش الضب . الفلاح رائحته كريهة . وما الفلاح إلّا بهيمة . الفلاح فظ غليظ . الفلاح كذا ، الفلاح كذا . . والفلاح راض عن حاله ، راض بما قسم له . فان أردت أن تستبدل بحياته حياة اخرى نيرة سعيدة محترمة رفض ذلك . كذلك هو الفلاح ، وكذلك سيظلّ . ثم ان كل ما يمكن ان تنفحه به من أمور جميلة ، يتدهور بين يديه رأساً ويصير على صورته . انه لا يستطيع العلو فوق هذا المستوى الذي يعيش فيه . ولكن المصيبة ان هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام لا يدعوننا ابدا نجرب تلك الحياة الجميلة . ذلك انهم يعيشون على ظهورنا كالقمل . هذا هو السبب . ان كان خبزنا أسود ، ان كانت حياتنا سوداء ، فإليهم يرجع السبب في سواد خبزنا وسواد حياتنا جميعاً . ولكن هذا القمل في رأسه أفكار عظيمة . أظن انه في جميع البلاد على هذه الشاكلة . لا بد انه يقول في كل بلد فيه فلاحون يخصبون الأرض : الفلاح راض بما قسم له . أفنحن أمة على حدة ام جنس على حدة ؟ إلّا ان هذا هو ما ينبغي أن يعرف فإذا صحّ ان الفلاح راضٍ عن حاله ، لم يكن علينا إلّا أن نسلم بذلك قائلين : تلك قسمة الفلاح ، سيظل طوال حياته يعيش على هذه الأرض نفسها ، تحف به هذه السماء نفسها ، تحد نشاطه هذه الجبال نفسها ، وتقوم أراضي المستوطن الفرنسي سوراً من حوله لا مخرج له منه ، يعاني الفقر ويستقبل بجسده الأمطار ، ويتحمل الحر المحرق ، ويكابد ألوان القلق والخوف ، فكل ذلك قسمته ، كل ذلك نصيبه الذي ورثه عن آبائه ، ولا سبيل له الى الخلاص منه بالعمل الشريف ولو استمات فيه . وهكذا تصبح المظالم طبيعية كالمطر والهواء والشمس ، سواء بسواء .

قال بادعدوش ذلك ، وقد أصبح صوته في آخر كلامه يقرقع قرقعة قاتمة .

واستقبلت أقواله بصمت عام شامل . ولكن ماذا هنالك ؟ ها . . . انه معمر الهادي .

قال معمر الهادي مدمدماً :

ـ قد يتراءى لكم أنني سمحت لنفسي بأن أسيء القول فيكم ولكن ليس هذا ما أردت . لا ، ليس هذا ما أردت . عفوكم . .

قال ذلك دون ان يزيد عليه شيئاً ، ومضى . لقد أحسن صنعاً . آن له أن يذهب .

ـ انهم على الأقل يعرفون ماذا يريدون ؟

كذلك سأل قره . ثم صمت . هذه عادته . يلقي أسئلة ، ثم يعتصم بالصبر . لم يجبه المزارعان الآخران .

ان الذين يملكون في أعلى بني بوبلان بضعة فدادين من الأرض كانوا يتناقشون على هذا النحو . وقد جاء قره علي الى جيرانه يحدثهم وفي نفسه نيات معينة .

ـ يقولون ان أجورهم ضئيلة . فلنسلم بهذا . انا شخصياً ، كان يمكنني أن أوافقهم ، وكان يمكنني أن أعترف لهم بذلك لولا . . .

وهنا توقف عن الكلام ، ومد عنقه ، وقرب وجهه من وجهي الرجلين حتى كاد يلامسهما ، وأمعن النظر فيهما موسعا حدقتيه وأردف يقول ، وهما ساكنان لا يتحركان :

ـ . . . لولا ان عدو الله هذا الذي يسمى حميد سراج يجر معه جميع فلاحينا . هذا هو الأمر الخطير . لماذا تراهم متفقين جميعاً ، لو كان كل ما يريدونه هو المطالبة بزيادة قليلة في الأجور لكان يمكن أن يكون ذلك حقاً وعدلاً ، ولما كان في ذلك شر كبير . ولكنهم يتجمعون ويعتصبون ، فذلك هو ما يجب أن نفكر فيه ملياً ، ذلك هو الشيء الهام ، لا كونهم يطالبون بزيادة فرنك أو فرنكين . وحميد سراج هو الذي ألقى في روعهم فكرة التجمع ، ولولاه ما دار في خلدهم هذا ، ولا خطر لهم على بال . لولاه ما اتحدوا هذا الاتحاد الذي نراه الآن . ولكن ما الذي يؤملونه ؟

قال بن أيوب :

ـ عفواً إذا قاطعتك ، فإنما أريد أن أقول كلمة واحدة ، واحدة لا أكثر . اذا كان العمال يطلبون زيادة في الأجور ، أفلا يكون أمراً طبيعياً أن يتحدوا .

وقال بو شناق سائلاً كذلك :

ـ فأي شر في هذا ؟

فقال قره :

ـ أي شر ؟ أي شر ؟

حقاً أي شر في هذا ؟ إذا كان في هذا شر فأين هو الشر ؟ لماذا يعد ذلك شراً ؟ وماذا يعرف ، هو قره ، عن هذا الشر ؟ كيف يعرف ما هو شر وما ليس بشر ؟

ذلك ما حاد في خاطر الرجلين وهما صامتان .

ـ أي شر ؟ أتسألون : أي شر في هذا ؟

اذا كان يعرف الضرر من هذا ، فليقله . ولكن أتراه يعرفه ؟ أهو يعرفه ؟ إذا كان يعرفه فليتكلم .

لا شك انه يرى شراً كثيراً حيثما اتجه ببصره . ولكن ما باله يظل صامتاً كالأخرس لا ينطق ؟ لقد كان يقلب في رأسه طائفة من الأفكار .

وقال أخيراً :

ـ أي شر في هذا ؟ الشر فيه هو انه قد لا ترضى عنه السلطات .

ها . . . السلطات . . .

وظل الرجلان محتفظين بملامحهما الهادئة .

ان سؤالاً يقوم في ذهن هذين الرجلين . وقد أوشكا ان يطرحاه عليه . ثم اكتشفا فجأة ان هذا السؤال لا يطرح على قره ، بل يطرح عليهما . فقررا ألا يطرحاه ، كأنهما من ذلك على اتفاق سابق . وقال كل منهما بينه وبين نفسه :

ــ ها . . . إذن هي السلطات ؟

ــ والآن ما عساكما فاعلين اذا اضطررتما الى زيادة أجور عمالكما ؟

نفعل ما نقدر عليه لمساعدتهم ، ما هو في وسعنا ، لا أكثر .

ــ فتزداد مطالبهم في المستقبل شططا ، ويكون الذنب في ذلك ذنبكما . يكفي ان تزيدا الأجور شعرة واحدة . .

ــ ما تقوله لن يغير رأينا . وللمستوطنين الفرنسيين انما يجب ان يقال هذا الكلام . أما نحن فلسنا نملك لا مئات ولا ألوف الهكتارات من كروم العنب وحقول القمح . المستوطنون هم الذين يمكن أن يهمهم هذا الأمر ، بل انه ليهمهم حتماً . أما نحن ؟

ــ إذن أنتما مع الفلاحين ؟

ــ لسنا معهم .

ــ ولستما ضدهم ؟

ــ ولسنا ضدهم في الحقيقة .

ــ فكأنكما إذن معهم .

ــ قلنا اننا لسنا معهم ، ولا نحن ضدهم .

قال أحد المزارعين يسأل :

ــ ما هي الإساءة التي نالونا بها ؟

ــ ان بوشناق هو الذي سأل هذا السؤال . كان الدور دوره في هذه المرة . وأضاف :

ــ يعملون عندنا يوما فندفع لهم أجرهم . وإذا لم يعملوا لم ندفع . لأنهم لا يسيئون إلينا البتة .

وتابع بن أيوب يقول :

ــ ولماذا ؟ أليسوا اخوتنا في حقيقة الأمر . من ذا الذي يتمنى الشر لأخيه . . من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

قال قره :

ــ ولكن ما داموا يتحدون هذا الاتحاد ، فمعنى ذلك أنهم يبيتون أمراً . لا أعرف ماذا يبيّتون ، ولكننا لا نستطيع ان نقول أنهم لا يبيّتون شيئاً . انهم يريدون بنا شراً ، هذا كل ما أعرفه . انهم يريدون وقوع مكروه ، وسيقع هذا المكروه أخيراً . ولو كان هذا المكروه واقعاً على رؤسهم وحدهم ، لهان الأمر ، غير أنه سيقع على أناس لا شأن لهم بهم ، سيقع على رؤسنا نحن .

ونظر كل من مزارعي بولان الأعلى الى صاحبه .

فتشجع قره ، وتابع يقول :

ـ ماذا يريد هؤلاء الأفراد ؟ انهم ناقمون . . ناقمون على أحد ، بل ناقمون على الناس جميعاً . . نعم ناقمون على الناس جميعاً . انهم جميعاً جياع . . فهل ندعهم يفعلون ما يريدون على ما يشاء لهم هواهم ؟ لو تركناهم ، لأصبحنا في مأزق لا نعرف كيف نخرج منه .

وأحسّ قره بنشوة الظفر ، فأشرق وجهه ، وتابع يقول :

ـ نعم ، وليس هناك من سبيل الى حماية أنفسنا من هؤلاء إلّا أن يعتقلوا . . أو أن يعتقل بعضهم على الأقل ، أعني أصحاب الرؤوس الصلبة ، الذين يدفعونهم ، الذين يقودونهم ، أما الباقون فهم قطيع يقاد وليس له رأي . خراف . وإنما المجرم الأكبر ، المجرم الرئيسي ، هو حميد سراج . ان حميد سراج هو الذي ألقى في رؤوسهم هذه الأمور . انهم أناس سذج أبرياء ، فلاحو بلادنا . لا يمكن ان يخطر الشر ببالهم من تلقاء أنفسهم . انهم حملان يقودها حميد سراج الى المسلخ . هذه هي النتيجة التي سيصلون اليها .

ومرة أخرى نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر ، بو شناق وبن أيوب ، فابتسما ، فلاحظهما قرة فابتسم هو أيضاً ، ثم قال مؤكداً :

ـ أناس مثله يجب اعتقالهم . حقا . . رجال مثله ، إذا لم يعتقلوا قام جياع المدينة يضعون أيديهم في أيدي جياع القرى ، فاتحدوا . إني لأقول لكم ان هذا خطر علينا ، خطر كبير ، وما أراكم مدركين فداحة هذا الخطر . فمتى تستيقظون من نومكم ؟ متى تفيقون من اطمئنانكم ؟ إنكم إذا لم تستيقظوا قبل فوات الأوان ، فستكون يقظتكم بعده أليمة موجعة . أنا قره ، أقول لكم هذا .

قال ذلك وحدق إليهم . ثم أردف :

ـ ثقوا انهم لن يتورعوا عن شيء . لن يتورعوا عن السرقة ، وهذا واضح لا يحتاج الى دليل . لقد كانوا دائمًا لصوصاً وسيظلون كذلك . تفو . . ولن يتورعوا عن استعمال المطرقة ، واستعمال غير المطرقة مما لا يعلمه إلّا الله . . . لا شك انهم سيقتلون ، ولا شك أنهم سيرتكبون جرائم سياسية .

بهذا صاح قره أخيراً .

وتبادل المزارعان النظرات مرة أخرى .

لاحظ قره من ملامح وجهيهما انهما مستعدان للاستماع إليه . فاستمر يتكلم . أصبح الآن لا يستطيع التوقف عن الكلام . اندفع يشرح ما يعنيه بقوله : الجرائم السياسية . كان مزارعو بني بوبلان الأعلى لا يعرفون لهذا التعبير أي معنى ، بل كانوا يجهلون وجوده أصلاً . ففهموا من قره الآن انه يعني عدم احترام السلطة ، عدم اعتبارها .

ولاحظ قره تلك الابتسامة نفسها في وجه الرجلين كليهما .

قال له أخيراً بن أيوب :

ــ أنت ما الذي يهمك من هذا كله ؟ ما شأنك وشأن السلطة حتى تقلق عليها هذا القلق كله ؟

وابتسم الرجلان ، وتبادلا النظرات .

ولاحظ قره في أعينهما أنهما راضيان ، وانهما من شدة الرضا في انفعال . فعاد يردد أقواله بغير شراسة ، وفي حلقه غصة وانتحاب انه يتكلم الآن بصوت لا ينفك يزداد تملسا . ثم احتار وارتبك .

كان الرجال الثلاثة واقفين لا يتحركون ، عند حافة حقل الطماطم الذي كان بن أيوب يرويه .

إن الماء ، الماء الذي من ذهب ، يسيل بين صفوف أشجار الزيتون بغير خرير . ومن مسافة الى مسافة ، ترى شجرة من أشجار الكرز فارشة أوراقها الخضراء الشاحبة ، أو سافرة عن خشبها الأملس اللماع . وهذه أصوات في مربعات الحقل تعكر الصمت من حين الى حين . انها أصوات ضفادع تجذبها الرائحة التي تفوح من الماء الطري . وكلما تقدم الماء ، ترامت الى الآذان أصوات جافة يابسة لا تدري أهي طقطقة حطب يشتعل ، ام هي خشخشة عشب تدب عليه هامة من الهوام . انها أصوات الأرض الظمأى تشرب الماء في شراهة . غير انك لا ترى الماء نفسه ، الماء الرائق الشفاف ، انك لا ترى إلّا سمطاً واسعة من رطوبة سوداء .

ومن عدة جهات ، من أعلى الأراضي المزروعة ، ومن منحدرات السفح ، ومن الحقول الممتدة الى تحت ، كان المزارعون الآخرون من سكان بني بوبلان يرون هؤلاء الثلاثة وقد اجتمعوا يتحدثون . كانوا يستطيعون ان يراقبوهم من مسافة بعيدة دون ان يتحركوا ودون ان يظهروا . قالوا يحدثون أنفسهم : بوشناق ، قره علي ، بن أيوب . . غريب انهم يتكلمون منذ ساعة على الأقل . فهل الأمر الذي يتكلمون فيه جد . هل يتسع وقتهم للحديث هذه المدة الطويلة . وبن أيوب خاصة ، كيف يتسع وقته للكلام واليوم دوره في السقاية . وتوقف بابا عن حفر فدان الأرض الذي كان يحفره بين الصخور . ان دوره في السقاية يأتي بعد بن أيوب . قال يحدث نفسه : ليتني أعرف ماذا يدور هنالك . لأذهبن اليهم .

وترك مكانه ، ومضى إلى حيث الثلاثة يتحدثون .

ــ السلام عليكم يا رجال . كيف الحال ، ان شاء الله بخير؟ أهي دردشة ؟

ــ وعليكم السلام ورحمة الله .

هكذا ردّ الرجال الثلاثة التحية معا وهم ينظرون الى القادم الجديد واقترب منهم بابا .

ثم جاء دور عيسى .

ـ عافاكم الله .
ـ عافاك الله وبارك في أبيك وأمك .
وقال بن أيوب لمن انضم اليهم أخيراً :
ـ أهلا بالجار قدسي . أأنت لا تزال على قيد الحياة ؟ اننا لم نرك منذ دهر . . .
ـ هي زوبعة الحياة تجرفنا وندور معها .
ووصل أيضاً مزارعان آخران . انهما الجاران بلقاسم نجار ومحمد . لقد التأم شمل سكان بني بوبلان الأعلى جميعاً .

مال بن أيوب في هذه اللحظة على الأرض ، وتناول قبضة من تراب احد الأخاديد ، ثم بسط راحة يده يري الرجال الآخرين هذا التراب الأسمر ، بسطها وطاف بها على أبصارهم بحركة دائرة من يده ، وقال بصوت خافت ولهجة هادئة تفيض بالحزن :
ـ سيأتي وقت يحاسبنا فيه أولادنا حساباً عسيراً . سوف يلعنوننا . إنني لأنظر إلى المستقبل فأرى أحفادي غاضبين حانقين يصبون على أجدادهم اللعنات . إنني لأراهم يتقدمون إلّي ، فماذا يقولون ؟ يا رب يا قادر .

وبدا على الرجل الشيخ ان منظراً رهيباً قد تراءى له ، فهدّ نفسه هدأ . عاد يقول بصوت أصم :
ـ إذا تركتم أرضكم ، فإن أولادكم ، وأحفادكم ، وأولاد أحفادكم ، إلى آخر جيل من أجيال ذرياتكم ، سوف يحاسبونكم حساباً عسيراً . إذا تركتم أرضكم فلن تكونوا جديرين بهم ، ولن تكونوا جديرين بهذه البلاد ، ولن تكونوا جديرين بالمستقبل .

قال ذلك أمام سائر مزارعي بني بوبلان الأعلى مجتمعين .
ـ ألسنا كالأجانب في بلادنا ؟ والله أنني ، أيها الجيران ، لا أقول إلّا ما أفكر فيه وأشعر به . كأننا نحن الأجانب ، وكأن الأجانب هم أهل هذه البلاد . انهم بعد أن ملكوا كل شيء ، يريدون ان يملكونا نحن أيضاً دفعة واحدة . وانهم ، وقد اتخموا من ثروات أرضنا ، يرون أن من واجبهم ان يحملوا لنا البغض والكراهية . صحيح انهم يعرفون كيف يزرعون . لست أماري في هذا . ولكن ذلك لا ينفي أن هذه الأراضي أراضينا . لقد انتزعت منا سواء أكنا نفلحها بالمحراث ام كنا لا نفلحها البتة . وهم الآن بعد ان استولوا على هذه الأراضي ، أراضينا ، يخنقوننا خنقاً . ألا تعتقدون أننا كمن أدخل الى سجن وأمسك بخناقه ؟ أصبحنا لا نستطيع ان نتنفس ، أيها الأخوة ، لا نستطيع أن نتنفس .

إلّا أن بن أيوب لرجل . انه رجل حقاً . هو الآن شيخ هرم ، ولكن ما من أحد هنا يستطيع أن ينكر انه كان طوال حياته رجلاً ، وانه لا يزال رجلا . انه رجل شهم شجاع ، صريح اللسان ، صادق القلب ، لا يداهن ولا يداجي . انه قاس ، صلب . ان وجهه وجه مقاتل قوي الشكيمة . لا شك انه كان محاربا . ان شاربيه الطويلين الأبيضين يتهدلان على الجانبين تهدل

جلد السوط . هذا مقاتل أصبح فلاحاً ، ولكنه اذا دعا الداعي يسترد كل ملامح المحارب . . . كل ملامح المحارب الغافي تحت جلده .

لا يزال بن أيوب يعمل كثيراً . انه من أولئك الذين يضوون من فرط ما يبذلون من جهد في العمل . وما من أحد يستطيع أن يمنعه من قول ما يريد قوله . انه لا يستطيع ان يسكت عن الشر حين يرى شراً .

وأنك لتعرفه من بعيد في أي وقت من الأوقات حين تنظر الى الحقول ، فترى الحزام العريض الأحمر الذي يتلفف به مزنر أعلى سرواله ورفارف قفطانه الأشهب الضارب الى زرقة . انه لا يكاد يرتاح من العمل إلّا بضع دقائق من يوم الجمعة عند صلاة الظهر .

ونظر بن أيوب الى جيرانه واحداً بعد آخر . انهم صامتون . إن عينيه لا تشتملان الآن على تلك الضحكة التي كانت تلتمع فيهما منذ قليل شرارات متوهجة .

ـ الذي لا يزال يستطيع ان يتنفس هنا منكم ، فليسمعني صوته . من منكم يستطيع ان يتنفس ؟

قال ذلك وهو يطوف بنظره مع سؤاله على الحضور . لم ينبس احد منهم بكلمة . وأظلم وجه بن أيوب ، وقال :

ـ في كل يوم ينتزعون قطعة من لحم أجسادنا ، فما يبقى في مكان اللحم المنتزع إلّا جرح عميق تنزف منه حياتنا . انهم يميتوننا ببطء ، يفصَدوننا عرقاً عرقاً . أيها الجيران ، لأن تموتوا خير من ان تتنازلوا عن أراضيكم . لأن تموتوا خير من أن تتركوا شبراً من هذه الأراضي . إذا تركتم أرضكم تركتكم فعشتم انتم وأبناؤكم بؤساء الى آخر الحياة .

كذلك قال بن أيوب في نهاية ذلك النهار . وتفرق المزارعون وفي قلوبهم قلق وجزع .

ولم تفت قره كلمة واحدة من هذا الكلام .

ـ ٥ ـ

وفيما كان كل منهم عائداً إلى أرضه وحيداً مع نفسه ، كان يقلب في فكره الأقوال التي سمعها من بن أيوب . وتذكروا عندئذ ما سبق ان قاله لهم أخيراً .

« حياتنا هذه ليست حياة . حياتنا التي نعيشها من أقدم أسلافنا ليست الآن حياة . إننا نعيش في ملل وضجر ، فاقدين القدرة على الحياة . آباؤ نا وأجدادنا وآباء أجدادنا كانت عليهم جميعاً واجبات . كانت الحياة عندهم لا تخلو يوماً من الواجبات . يدفعني إلى قول هذا الكلام ما نعرفه عنهم ، وما ترامى إلينا من أخبار زمانهم ، وما كانوا يرونه من رأي في الحياة . وشعورهم

بتلك الواجبات هو الذي جعل منهم رجالاً . أما نحن فإننا لم نجد خيراً من التحلل من واجباتنا : نأكل كالبهائم ، ولا نفكر في شيء البتة . لم يبق ثمة واجبات . نحن أناس أصبحوا بغير أعباء ينهضون بها . فالحياة تبدو لنا عقيما غير ذات جدوى وأعمالنا تبدو لنا عقيمًا غير ذات جدوى . نحن أنفسنا نسير على هذه الأرض بغير جدوى . أصبحنا لا نجد في الأعمال التي نقوم بها أي فرح . أصبحت أعمالنا قديمة بالية . وأصبحنا لا نجد في صداقاتنا أي فرح كذلك . لا ولا فرح فيما يتبادله بعضنا مع بعض من كلام ، ولا في رؤ ية أولادنا يكبرون ، ولا في النظر الى الأرض التي نملكها وهي تثمر وتعطي خيراتها . ذلك كله دليل على أننا في حاجة الى أعباء جديدة . اننا لا نعيش ولا نعمل إلّا بحكم الضرورة ، من أجل ألّا نطفىء الشعلة ، منتظرين أن تقبل أيام أفضل من هذه الأيام . أما الفرح ، فلا . . وستعود الينا الحياة بفرحها متى اكتشفنا أعمالاً جديدة نقوم بها ».

هل الجار بن أيوب على صواب ؟ هل هو على خطأ ؟

ستبدي الأيام لنا ذلك .

هذا ما كان مزارعو بني بوبلان يقلبونه في أذهانهم في ذلك المساء الهادىء .

وانقضت بضعة أيام . وفرغ صبر عيسى وبوشناق ومحمد ونجار ، فمضوا مجتمعين إلى بن أيوب .

قالوا له :

ــ أذكر لنا ولو عملاً واحداً من الأعمال الجديدة التي طالما حدثتنا عنها .

ــ خذوا هذا المثال . ان معظم فلاحينا يحرثون الأرض عمق ابهام . وينبغي لهم الآن أن يحرثوها عمق ذراع .

قال بن أيوب ذلك ، وحدق الى الرجال الأربعة .

ــ هل تفهموني الآن ؟

ــ طيب طيب ، وغير ذلك ؟

ــ هذا كل شيء . .

فصاح محمد :

ــ آ . . . نعم .

وقال بوشناق :

ــ ما تقوله يدور في ذهني .

ــ أما أنا فأقوله لجميع الناس ، لجميع الناس .

ــ هو اذن كذلك . . يجب ان نأخذ جميعاً في حرث الأرض عمق ذراع .

ــ نعم : نحفر أخاديد عمقها ذراع .

وعاد بوشناق يقول :

ــ ذلك عمل يحتاج الى رجال جدد .

ووافقه نجار بقوله :

ــ لن يفهم هذا إلّا رجال جدد والحق يقال . .

وقال عيسى سائلاً ، بعد ان ينطق بحرف :

ــ هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟ قل لي : هل عندنا هؤلاء الرجال الجدد ؟

ــ فأسرع بن أيوب يقول :

ــ قد يكونون عندنا، وقد لا يكونون . انظرت حقاً فيما حولك لنرى أليس عندنا هؤلاء الرجال ؟

ــ نظرت حولي ؟

ــ يجب ان ننظر الى أنفسنا ، وان ننظر حولنا . فلا شك اننا واجدون رجالا سيدهشون العالم ، وسيدهشوننا .

قال بن أيوب ذلك ، وفكر لحظة ثم أردف :

ــ من أجل هذا قلت : ينبغي لنا بعد الآن ان نحفر أخاديد عمقها ذراع .

وعندئذٍ أخذ بوشناق يقول :

ــ حياتنا تغتني يوماً بعد يوم بأحداث شتى غير مألوفة . اننا نشهد عصراً جديداً . ولعلنا لا نشهد هذه الأحداث فحسب ، بل نسهم كذلك اسهاماً كبيراً في صنعها . نحن . . والعالم أخيراً . النتيجة واحدة على كل حال .

قال محمد معلقاً :

ــ انسان هذه الأيام يفكر أكثر مما يحسن التعبير . الانسان الجزائري يفكر الآن كثيراً . أرجو ألّا يخرج من هذا إلا خير .

فأجاب بن أيوب :

ــ لن يخرج منه إلّا خير ، أيها الجار محمد . لن يخرج منه إلّا خيراً . صدقني .

فقال محمد مؤكداً :

ــ أخذت الروح العظيمة تهتز في أرضنا .

ــ ٦ ــ

ــ ليس في الدنيا بلد كبلدنا .

قال بادعدوش ذلك وجسمه يهتّز من أمام الى وراء . ولم يجب الفلاح الشاب عن كلامه بشيء .

ـ اذهب حيث شئت ، فإذا وجدت بلداً كبلدنا قل لي أي بلد هو . لا ، لا أظن أنك واجداً بلداً كهذا البلد .

كان في الأراضي العليا . حجارة عارية . حجارة وريح . وذلك الظهر الأصيل من شهر آب ما ينفك يزداد حدة على الجنبات البيض من الشاطىء الصخري .

وراح هاشمي يشتم ويجدف غضبا .

ثم انطفأ الصوت الأبح في حلقه .

ذلك كل شيء .

كان الشيخ الهرم جالساً على صخرة كبيرة ككيس من القمح ، مائلاً بجذعه الى الأمام . وكان هاشمي ينظر إليه . إنه طويل ، محترق .

ـ نعم ليس في الدنيا بلد يشبه بلدنا .

فصاح الفلاح الشاب فجأة :

ـ با دعدوش !

كان الفلاح الشاب يبدو مهتاجاً أشد الاهتياج .

ـ أود لو أوافقك على رأيك ! لم لا ؟ هل زرت بلاداً أخرى !

ـ لأقول ليس في الدنيا بلد يشبه بلدنا ؟ لا ، لم أذهب الى أي بلد آخر ، ولكنني أعلم علم اليقين أنه ليس في الدنيا بلدا كهذا البلد .

كان الرجلان قد استندا بظهريهما الى صخرة من الصخور . هي صخرة بيضاء من جانب ، سوداء من جانب آخر ، تطل على الطريق . ان الفلاح العجوز والفلاح الشاب محتميان بجانبها الأسود . الريح تهب على جبال أخرى قائمة عند الأفق . والرجلان يتفرسان في الصخر وفي القرية المنكوبة تحت ، وفي السهل العالي المتكلس فوق .

ابتسم هاشمي .

كان وجهه لا يزال يحتفظ بما يعبر عنه من جد كجد الأطفال .

قال الشيخ :

ـ الذين زاروا جميع البلاد حدّثوني : ليس في الدنيا بلد كبلدنا .

بانت أسنان الفتى ، الصغيرة المصفوفة . وهطلت أشعة الشمس كأنها الكلس الحي . ووضع الحر الشديد في الأفواه مذاق هواء ساخن ممتزج بحجارة .

وعاد با دعدوش يقول :

ـ لا ، لا ، ليس في الدنيا بلد واحد مثل بلدنا .

كانا يستنشقان رائحة السعتر التي تحملها الريح ، ويستنشقان خاصة تلك الرائحة التي تخرج من الحجارة .

ـ إذن كذلك ، يا با دعدوش ؟

طرح الفتى هذا السؤال على الشيخ .

هاشمي أسمر ، ولكنه ليس أشد سمرة من با دعدوش . با دعدوش أشد سمرة منه . با دعدوش يشبه أن يكون أسود . وجه الفلاح الشاب يكاد يبدو الى جانب وجهه أبيض . وهو كذلك أقرب الى الوداعة والرقة .

ــ هل ذهبت إلى بلاد أخرى يا با دعدوش ؟

ــ لا ، ولكنني طوفت في أرجاء بلادنا طولاً وعرضاً ، في جميع الاتجاهات عظيمة بلادنا . رأيت أنواعاً من الناس ، رأيت جميع أنواع الناس ، رجالاً ونساء . رأيت فيها أشياء كثيرة ، بلادنا لا تقاس بها بلاد أخرى .

ــ ولكنك عدت الى بني بوبلان .

ــ أجاب العجوز :

ــ لم لا ؟

ــ لا استغرب أن تعود ، فهنا ولدت وهنا نشأت وترعرعت .

قال هاشمي ذلك وهو يشير بيده الى السهل الممتد أمامهما .

ــ لم لا ؟

ــ وهأنت ذا الآن عجوز ، تعود الى أرض آبائك وأجدادك ، ولا تنوي أن تتركها .

ــ علام أتركها أيها الشاب ؟

ــ اثرت إذن ارض أبائك وأجدادك على سائر البلاد ؟

ــ لم لا ؟

ــ أنت اذن تؤثر مكاناً على آخر ؟

ــ لم لا ؟ هي بلادي أينما ذهبت .

هزّ هاشمي كتفيه ولزم الصمت .

كانت مدرة كبيرة من التراب الأحمر متكومة عند قدميه ، وكان هو يتربع على حدبة الصخرة القائمة عند هذا المستوى نفسه . فمال الى أمام ، وشد بيده الكبيرة السمراء كشة من العشب النابت في الأرض ، وهشّ بها على العنيزة الحمراء ، فظلت العنيزة متمددة على الأرض لم تتحرك . ثم راح يداعبها فمد الشكة الى منخريها المبتلين ، ففتحت شفتيها ومدتها الى أمام وقبضت بها على العشب . ثم أغمضت عينيها ، وظلت تمضغ لقمتها فيما يشبه النوم مدة طويلة :

ــ إن حر هذا الظهر جاف جفاف الحجارة .

رفع هاشمي رأسه ، ولاحظ با دعدوش . ثم قال :

ــ قد لا يكون في الدنيا بلد كبلدنا . . ولكنك لا تستطيع أن تدّعي ان المرء يجد في هذا البلد عملاً .

كان سطوع النهار يدخل رأسي الرجلين كأنه أجزاء حجارة . وكانت نظراتهما تثبت في عناد على انصهار السمط الشهباء في السهل ، في عبوس وكآبة .

انعكاس ضوء المساحات الشاسعة يغسل النهار . البياض يطالعك حيثما توجهت ببصرك . الشمس نفسها تفنى وتنتشر في الفضاء .

وأرتعش شيء ما في وجه با دعدوش العجوز .

اختلج وجهه اختلاجات صماء .

وبحث الفتى عن عشب لعنيزته . مال مرة أخرى الى الأمام ، حتى أوشك أن يركع . . وانتصب با دعدوش بجذعه الطويل . .

قال هاشمي :

ـ في هذه البلاد التي لا نظير لها لا تجد من تعمل عنده .

قبب الرجل العجوز صدره .

ـ وأنت رجل عجوز وليس لك أحد يعينك .

وجمد با دعدوش ، المنتصب الجذع ، على هذا الوضع : يداه موضوعتان على الركبتين ، وجسمه الطويل ضاو ، محروق بالشمس ، حزين ، وقميصه ملتصق بصدره من هبوب الريح .

وكان أناس سود يمرون على الطريق في ذلك الوقت من العصر .

قال با دعدوش بصوت متوجع :

ـ هاشمي .

نداء لا يعرف له سبب . ونظر الشاب الى با دعدوش . ان نوعاً من الأنين قد خرج من صدر الشيخ . وانه ليكاد يكون قائمًا من شدة انتصاب جذعه . ويداه قلقتان كأنهما تحاولان ان تتشبثا بالريح .

ـ أنا لا أجد عملاً . ربما . أنا عجوز ، وليس لي أحد يعينني . جائز . ولكنني اعتقد انه ليس في الدنيا بلد مثل بلدنا .

كان الشيخ يتكلم بحزن شديد .

ـ ستجيء أيام سود . . ولكن ستجيء أيضاً أيام بيض .

كان في هذه اللحظة رقيقاً عذباً ، بينما هو يبتلع الريح في حزن . وكان ينعطف شيئاً بعد شيء . وقد أطلق هذه الكلمات الأخيرة في الهواء بلهجة حادة .

قال الفلاح الشاب :

ـ ستجيء أيضاً أيام سود .

ونظر إلى با دعدوش الشيخ ، وقد لاح وجهه في الظل أسود تماماً . كان الشيخ العجوز ينظر الى بعيد يلاحظ هذا البلد .

ثم قال مسلما ، بلهجة تشبه أن تكون عاطفية :

ـ نعم هكذا نعيش في بلادنا يا بني !
فسأله الشاب :
ـ ماذا تقول ؟ كيف نعيش في بلادنا ؟
ـ لا نغتني فيها .
ـ ولكن ليس هذا هو الموضوع . ان في وسع المرء أن يعيش دون أن يغتني ، وربما كان ذلك أفضل . وانما المهم أن نعمل ، انما المهم أن نجد عملاً . .
فحول با دعدوش رأسه ، وقال :
ـ يجب أن أذهب يا بني . انهم ينتظرونني تحت . هم في حاجة إليّ .
أخذت الحجارة تهتز تحت أقدامهما بقرقعة تترجع على طول المنحدر الوعر . ان هاشمي وبا دعدوش يثبان من صخرة الى صخرة . كانت الشمس تصلب الجبل كقرص من فطير .
صاح العجوز وهو يغالب بصوته الريح :
ـ ها هاي . . ليس يهمني أن أكون عاطلاً عن العمل! . .
ثم أصبحت المناقشة مستحيلة . ان الريح ترد الكلمات الى الأفواه . ولولا ذلك لأضاف با دعدوش الى جوابه قوله : إذا كان لا يعمل الآن كثيراً فانه يعرف أناساً لم يعملوا طوال حياتهم تقريباً . . لأنهم لم يستطيعوا أن يجدوا عملاً . . وان حياة الناس تنقضي على هذا النحو . . وان الأمر هو كذلك في البلاد كلها . . ولكن با دعدوش أصبح لا يستطيع الكلام بسبب الريح . ومهما يكن من أمر فإن الذين كان يريد أن يتكلم عنهم خاصة ، ليسوا أولئك الذين لم يعملوا مرة واحدة .
ذلك أنه ، هو با دعدوش ، قد حمل المعول طوال حياته . وها هو ذا الآن شيخ هرم . صحيح انه لم يشارف على نهايته . ولكنه كان يحس انه قد بلغ من الشيخوخة حداً بعيداً . لم يعد صالحا للعمل كما كان في ماضي أيامه . وأصحاب المزارع يعرفون ذلك .
وهتف يقول :
ـ ليست البطالة شر ما في الأمر ، ليست البطالة . . أنا لم أكن عاطلاً عن العمل دائمًا . ولئن طفت الجزائر من أقصاها إلى أقصاها ، فما ذلك إلاّ حرصاً مني على أن لا يقال . .
وانقطعت أنفاسه فتوقف عن الكلام . كان لا بدّ له من أن يبلغ ما هم أن يقوله .
فلما استطاع أن يعود الى الكلام قال :
ـ إن الكروم والمزارع تتطلب عملاً مرهقاً . . ذلك شر ما في الأمر حين نعمل .
قال ذلك وهو يشير الى البلد بحركة من يده . ثم أردف :
ـ هل بسبب البطالة دب الي الهرم أنا الماثل الآن أمامك ؟ وأصبحت بلا معين يعينني ؟ ولا شيء أدخره للأيام التي بقيت لي من عمري ؟
ـ طبعاً لا .

ـ انك لترى أنني أجهدت نفسي في العمل طوال حياتي ، ثم هأنذا الآن شيخ هرم .

لعله أراد أن يقول : لقد دب إليه الهرم بعد أن ظل يعمل طوال حياته ، وها هو ذا لا يملك قرشاً واحداً .

وصاح يقول أيضاً :

ـ كذلك جميع الذين يعملون ؟ جميع أولئك .

ونظر الى الكروم والمزارع الكبرى المنبسطة تحت .

ـ هل تعرف يا هاشمي .

ـ ماذا يا با دعدوش ؟

ـ ان المستوطنين الفرنسيين أشقياء . .

هل . . .

وهبت ريح شديدة فذهبت بالسؤال .

قال الفلاح العجوز :

ـ لقد عملت طوال حياتي كما يعمل عبد من العبيد . . أجهدت نفسي في العمل بأراضيهم كما لم يجهد نفسه أحد . ولم أخف منهم .

ـ أنت على حق ، على حق تماماً .

ـ بل لقد كنت لا أعبأ بهم البتة ، هل تعلم ذلك ؟ وإنما الذي خنقني انهم يستولون على كل شيء . .

فقال هاشمي :

ـ صحيح. انهم يستولون على كل شيء . .

ـ كانت لي أرضي . هي قطعة صغيرة من الأرض . أنت لا تتذكرها طبعاً .

ـ لا أتذكرها ، ولكن لا بدّ أنها كانت قطعة صغيرة جداً من الأرض . .

ـ ولكنها كانت أرضي أنا ، وكانت لي بهائمي . وكان لي بذاري . . وكانت لي بقرة صغيرة من أبقار هذه البلاد . .

ـ صحيح ؟ كان لك بقرة ؟

ـ كان لي بيت صغير أيضاً . وكنت أعيش حياة سعيدة مع زوجتي وابنتي الصغيرة ريم . . انك لا تتذكر هذه الأشياء . . فلم تكن قد ولدت بعد .

ـ أنا أعرفك منذ أزمان . . لعلني كنت في تلك الأيام صبياً صغيراً ولكني أتذكر ابنتك الصغيرة . كانت لطيفة .

ـ ثم أخذ مني الفرنسيون كل شيء .

ـ آه من هؤلاء الفرنسيين .

وتوقف الفلاحان وأخذا ينظران الى الأفق . انهما الآن يفكران في شيء آخر .

استدار الشاب حتى قابل بوجهه الشمس ، فظهرت البقع السوداء التي تحت عينيه . كانت الملاريا تنهشه نهشاً . إن نظرته متقدة محمومة . وبدا وجهه الذي أخذت تنبت عليه لحية جعداء ، بدا أصفر ضاربا الى خضرة بلون الزيتون .

ـ كنت شابا قوياً مثلك يا هاشمي . ولقد عملت كثيراً كما يعمل عبد من العبيد .

ـ طبعاً يا با دعدوش .

ـ هم الذين يدخرون مالاً .

ـ طبعاً . .

ـ وما ينفكون يتضخمون حتى ليتساءل المرء أين تراهم يتوقفون عن هذا التضخم .

ـ هؤلاء الأشقياء . .

ـ إنهم يسممون حياة الذين يعملون من أجلهم .

ـ انهم لأشقياء حقاً يا با دعدوش .

ـ وبينهم من هم أصدقاء لنا !

ـ أصحيح ؟

ـ بينهم من يقولون انهم أصدقاؤنا الوحيدون .

ـ أصحيح ان بينهم من يقولون هذا الكلام ؟

ـ انهم لأشقياء حقاً .

ـ صحيح . . وهم يجمعون جبالاً من المال .

ـ هو ما قلت .

ـ هل صحيح انهم رموك كما ترمى الكلاب ؟

ـ ذلك ما فعلوه . كنا لا نريد أن نذهب ، فطردونا بالقوة . نعم رمونا رمياً .

ـ آه .

ـ هذا ما حدث .

ـ يا لهؤلاء المستوطنين الفرنسيين !

ـ نعم .

ـ يفعلون ما يريدون .

ـ ستجيء أيضاً أيام سود .

ـ أصبحت شيخاً هرماً ، فقالوا انك أصبحت لا تنفع في شيء ، وما من داع الى إعالة أحد ، أليس كذلك ؟

ـ هو كذلك .

ـ أما أنا . فما زلت شابا ، وما زلت أصلح لشيء ، أليس كذلك يا بادعدوش ؟

ـ أنت شاب ، وتصلح . . .

ــ ولكن المستعمرين أناس . .

ــ نعم . والفلاحون أناس سعداء . . فيجب عليهم ان يساعدوا هؤلاء المستعمرين الأشقياء .

ونظر الرجلان أحدهما الى الآخر متغامزين . وفي الطريق كان بعض الناس يتجمعون ، فما لبثوا ان صاروا أشبه ببقعة سوداء في الضياء الساطع .

قال الشيخ :

ــ أسرع يا بني .

واستمرا يهبطان .

ــ ولكن المال . . يا با دعدوش . . لعن الله المال . . لعن الله المال إلى آخر الدهر . ان المال يجعل القلب قاسياً حتى لكأنه قطعة من عظم .

ــ آه . . المال .

ــ طبعاً .

ــ وهؤلاء أصدقاء قدماء . أخذوا أرضي ، وبيتي . أخذوا كل شيء . اننا نتكلم في أشياء لا نفهمها . المال يجعل الناس أشقياء .

ــ هيه .

ــ أشقياء كثيرا .

وصمت الشيخ . لكأنه كان يفكر أيضاً في شيء آخر . يميناً أنه كان يفكر في شيء آخر . في هذه اللحظة أيضاً ، كان يفكر في شيء آخر .

وتنهد أخيراً يقول :

ــ يا لهم من تعساء . . حين لا يبقى هنالك مستعمرون ، فسيكونون حقاً تعساء .

وكان الشيخ با دعدوش يبدو جائعاً جوعاً قوياً ، الى شعوره بالحر الشديد . لحيته أشبه بكشة من الشوك . ومن عنقه المغضن يتهدل قميص وسخ ذو قب مقور .

كان هاشمي قد جعل ظهره للريح ، واستند بيده الى عصا غرزها في الأرض ، وثنى ظهره ، فهو ينظر الى الماعز الذي يتشمم الحجارة فوق ، وينظر الى العجوز وهو يتكلم . انه ، وقد التفت نحو الظل ، يبدو أسمر الوجه . وكان يبتسم وهو يصغي . وكان الشيخ العجوز يتكلم دون ابتسام .

وفي الطريق ، تحت ، لم تكن جماعة الرجال السود قد تحركت من مكانها .

قال با دعدوش للشاب :

ــ وداعاً .

ومضى إلى أولئك الرجال الذين اصطفوا في ظلّ الأشجار .

فشيعه هاشمي بقوله :

ـ صحبتك السلامة .

وعاد الفلاح الشاب يصعد في ذلك الطريق نفسه الى الجبل الذي تفرق فيه ماعزه . النهار الآن في أشد ساعاته سطوعاً وتوهجاً .

الشيخ با دعدوش يسير في الطريق وحيداً وهو يقفز ويتواثب . إن حركته الخفيفة لا تنبىء عن تقدم هذا الرجل الطيب في السن . لكأنه واحد من أولئك الرعاة الشبان الذين يضربون في أرض هذه البلاد .

اقترب با دعدوش من الرجال وكأنه وثب اليهم وثبة واحدة . ها وهو ذا الآن أمامهم . ذلك هو با دعدوش حقاً . آ . . با دعدوش يا له من رجل ! كان أهل البلد إذا رأوه صاحوا : آ . . جاء الماكر . والحق أن المرء حين يراه أول مرة لا يسعه إلّا أن يقدر أنه كذلك .

إن له أنفاً دقيقاً . والحق انه ما من شاردة ولا واردة مما يجري في الحقول ، تغفل عنها عيناه اللتان تشبهان عيني قط . ووقف با دعدوش أمام جمع الفلاحين متلفعاً بقميصه الواسع الأكمام وسرواليه العريضين المبقعين المصنوعين من نسيج الكتان .

ـ ما كنتم تتوقعون أن تروني . ولكن هأنذا أمامكم مع ذلك !

ـ آ . . . با دعدوش ؟ كيف الحال . أهلاً وسهلاً . تعال ، اقترب ، إذا لم تكن خائفاً منا .

هكذا صاح به علي بن رباح . فأضحكت هذه المزحة البريئة جميع الرجال . وأردف علي بن رباح يقول :

ـ في امكانك أن تقترب من أخوتك . أنت أيضاً إنما ولدتك الأرض أنت فلاح ، بل ان في وسعي أن أقول انك فلاح أكثر منا جميعاً . وما من فلاح يخشى الاتصال بأهله .

جثا با دعدوش فوق الأرض الجافة بعيداً عنهم بعض البعد ، وهو يلتفت إلى جانب ، ويحدج الجمع بطرف عينيه ، ويغرز في التراب أصابع قدميه التي يرتكز عليها جسمه .

ما أشد ما يظهر في هذا الوجه الأزغب من حيوية يضاف إليها تعبير عن رهافة آسيوية .

كان با دعدوش جالساً جلسة من هو في صحبة سادة من سكان المدن .

أكان يريد إذن أن يظل بعيداً عنهم ؟ إنهم لم يسيئوا استقباله ولا آذوه بكلام . فما الذي به إذن ؟

يجب على المرء أن يحترس من روح السخر اللاذعة التي يتصف بها هذا الشيخ العجوز . أتراه يعد الآن مزحة من مزحاته تلك التي تشبه الشوك ؟ كذلك هو العم با دعدوش : وحينما ترتسم في وجهه علائم الجد ، يجب الاحتراس منه .

وظلّ با دعدوش بعيداً عنهم على وضع من الامتثال والاذعان . والآخرون يشعرون

بالخجل ، ولكنهم مع ذلك يضحكون .

لماذا يظلّ ساكناً لا يتحرك ولا ينبس بكلمة ؟ ماذا هنالك ؟ ما الذي جرى ؟

لعله لم يكن يقصد أي خبث . ان كل ما يبدو من هيئته أنه يريد القول لهم ان من الخطل ، ومن أكبر الخطل ، أن يظنوا انه لم يعد يصلح لشيء . قال :

ـ أنا الرجل الوحيد الذي يعرف كل شيء في هذا البلد : البهائم والحجارة والرجال . أنا في هذا البلد أول الناس طرا .

فقال بن سالم عادة معترفاً :

ـ ما في ذلك شك .

آ . . ان الشيخوخة تفهم أموراً كثيرة . وان شق عليها في بعض الأحيان أن تعزم أمرها . ثم انه ليس بالشيخ الهرم . . أمثله يعد شيخاً هرماً ؟

ـ اقترب إذن ! ما بقاؤك هنالك وحدك ؟

فابتسم با دعدوش وقال :

ـ لا داعي الى هذا . تخطئون اذا نسيتمونا نسياناً تاماً لأننا أصبحنا شيوخاً . . أظن أننا لا نزال قادرين على أن نفعل شيئاً ما . بل أنني لعلى يقين من ذلك . ما زلنا قادرين على فعل أشياء كثيرة . سيثبت لكم صدق ما أقول في يوم من الأيام .

قال با دعدوش هذه العبارة الأخيرة مدمدماً . كان لا يريد أن يلح ، ولم تزحزحه توسلات الفلاحين عن مكانه .

وتابع يقول :

ـ نعم ، لقد جئت لأنني شعرت أن من واجبي أن أكون بين رجال تعيش قلوبهم وتتألم . نعم جئت لأنني اعتقدت أن من واجبي . . . .

ذلك ما كان يريد أن يقوله لهؤلاء الرجال . وأضاف انه امرؤ له عزته وله كبرياؤه . . وانه لا يحتمل ولن يحتمل . . . وان شخصاً مثل با دعدوش لا يجوز تجاهله . وانه جاء لأن هذا واجب . . متى شاخ الرجل ، لم لا يهتم به أحد ؟

ـ حقاً انه لمن الخطأ أننا لم نبلغك . ولكن لن يعقد اليوم اجتماع .

مسكين با دعدوش . لم يكن الفلاحون في ذلك اليوم عاقدين اجتماعاً . كل ما في الأمر أنهم قرروا أن يلتقوا ليتفقوا على موعد لاجتماع ضخم .

كان با دعدوش ، كسائر الرجال هنا ، يكابد تلك النار التي تسكن الصدور . كانت الرغبة في القيام بعمل ما تثوى في أعماق خواطره ، وتوجه جميع أعماله على غير شعور منه . ما قيمة ان نحيا اذا كانت الحياة لا تنفع في شيء ؟ ان في كل صدر كلمة احتجاج ، كلمة واحدة ، حية قوية .

كانوا قد التقوا منذ قليل ، يتحدثون ويتنافسون ، حين وفد عليهم قره . ما من أحد هنا لا يعرف قره علي .

اتجه قره علي الى بن سالم عادة ، فسأله :

ــ هل تعرف من هو حميد سراج ؟

فود الفلاحون جميعاً أن يجيبوه بقولهم :

ــ فيم هذا السؤال ؟

لقد قذف قره علي بسؤاله كما يقذف بحجر ، دون أن يعبأ بما كانوا يقولونه ، ودون أن يعنيه هل كان هؤلاء الرجال يتناقشون في أمور تهمهم .

لم يتحرج أي تحرج ، وطرح سؤاله ذاك كأنما هو حق من حقوقه . كان فكره يردد على مسامعه أن هذا حق من حقوقه ، وأن على الفلاحين أن يجيبوا عن السؤال .

وعندئذ وقع ما لم يكن في الحسبان . ان علي بن رباح تولى الجواب عن بن سالم عادة فقال :

ــ ليس عندنا يا سي قره أي جواب عن سؤالك !

قال ذلك بلهجة هي عند من لا يرى فيها شيئاً من مكر ، لهجة امتثال واذعان .

ولكن المجنون الذي علق برقبته جرس ، المجنون الذي في رأس قره علي ، اهتاج اهتياجاً شديداً ، فخاطب علياً بينه وبين نفسه بقوله أترد عليّ بلهجة باردة خشنة أيها الوقح ؟ لا يزال بين أسنانك لبن أمك ، وقال يخاطبه أيضاً بينه وبين نفسه : « لا أعرف من هي الأنثى التي ولدتك ، لكنني أعرف أباك : هو شخص حقير . وأنا أعرف إذن أن أمك قاذورة من القاذورات . وأخت أبيك وأخت أمك هما أيضاً من القاذورات . صنف دنيء ، كلكم ».

إن قره يريد أن يوقفهم عند حدّهم . هؤلاء الفلاحون ، إذا أنت تنازلت لهم عن شبر ، أخذوا عشرة . ولكن حذار ، ان قره ليس ممن يمكن التمادي عليهم . صحيح انه قروي ، ولكنه ليس قروي الأصل والمنبت ، وإنما جاء الى القرية من المدينة كسائر مزارعي بني بوبلان الأعلى ، « في حين ان هؤلاء العرب الجبليين أصلهم من الصحراء أو من الشياطين . أنهم يستنجون بالحجارة بدلاً من الاستنجاء بالماء كما يليق بالمسلمين الأشراف ».

بهذه كان قره علي يحدث نفسه .

والحق أن هؤلاء الرجال الذين يراهم أمامه ، لهم كل ما للأرض التي انبتتهم من مظهر ولون وحتى رائحة . انهم من قمة رؤوسهم ذات العمائم إلى أخمص أقدامهم التي تنتعل البوابيج ، ليس فيهم شيء صاف رائق إلاّ هذه الأعين التي مثلها كمثل الينابيع ، لا أعمار لها .

ولم يحرصوا على الاسراع في اغضابه ، لأن الحديث الذي كان يدور بينهم يهمهم أمره .

قال علي بن رباح مرة أخرى بصوت عال واضح مفهوم :
ــ لسنا مضطرين الى الإجابة عن سؤالك يا سي قره .
فأجابه :
ــ إذن أنت تعلم شيئاً .
ثم تنهد قره علي ، رجل بني بوبلان الأعلى ، وأردف يقول :
ــ نعم ، لا بدّ أنك تعرف شيئاً . انه يجيء الى هذا المكان في كثير من الأحيان .
ولم يبادله الكلام أحد .
ــ أنت ، بل أنتم جميعاً ، تحومون حوله كالذباب حين يجيء . لقد رؤوكم . أنتم جميعاً . وفي بيوتكم أيضاً .
فقال علي بن رباح :
ــ هبنا نعرف ، فما أنت من نقول له .
ان في هذه المناقشة التي بدأت بدءاً سيئاً ، شيئاً غريباً مثيراً لا يفسر .
ــ أأنت يا ابن رباح ، تواجهني بهذه الوقاحة ؟
ــ لقد دهش قره أشد الدهشة من أن صبياً ـ صبياً فيما يرى ـ يقول له هذا الكلام ، والصبي فوق ذلك من الفلاحين . .
ــ أنت . لا تعرف من هو حميد سراج . . ثم تتكلم كأنك رجل من الرجال .
قال علي بن رباح :
ــ أنا ابن رباح . ولست أريد طبعاً أن أخل بواجب احترامك .
ثم أضاف :
ــ ولكن اذا علمنا شيئاً ، فما أنت بالذين نسعى اليه من أجل . . .
وسلم قره علي مرة أخرى بأن الفلاحين ليسوا إلاّ حميراً . قال لنفسه « بل انه ليس من المؤكد أن لهم أرواحاً » .
كان الفلاحون يصغون الى هذه المناقشة محملقين . وهذا واحد منهم يضغط منخريه بين ابهامه وسبابته ، وينفخ نفخاً قوياً عدة مرات ، فيخرج من انفه صوت كأنه صوت بوق ، ثم يهز أصابعه ويمسحها بزغب جلبابه .
ما هكذا يعامل قره علي . ان علي بن رباح يعرف ذلك ، والآخرون يعرفونه أيضاً . انهم جميعاً يعرفون ذلك حق المعرفة . انهم لا يريدون ولا يستطيعون ان يهينوه عامدين . وكان هو يستفيد من هذا ليفرض نفسه .
ــ ان شاربه . . ان وجهه هو الذي . . كيف أقول ؟ هو الذي كان يحمل الفلاحين ، بما فيه من وقار كوقار قاض من القضاة ، على أن يحترموه بغريزتهم .
كان علي بن رباح يود من صميم قلبه لو يكلمه بلطف ومودة ، لولا ما كان يضمره قره من

نية الشر . ما من أحد هنا إلّا أدرك المعركة التي تنشب على حدود هذا الصمت . لقد أحسّ الفلاحون بتهديد يسلط على رؤ وسهم . وكان في ذلك من قوة المفاجأة والعنف أن كلا منهم أسرع في إلقاء نظرة قلقة على وجه صاحبه وكأنما هو يقول له :

« أنظر أمامك . . هذا هو ابليس». وراحوا يرددون بينهم وبين أنفسهم : « ليتك تموت أيها الرجل الخبيث . ليتك تسقط في قدر تغلي . ليتك تقع في مرحاض ، أيها الكافر . ليت شاربيك يحترقان في جهنم شعرة شعرة ».

وظلّ الجمع هادئاً مع ذلك . واحتقن قلب قرة غيظاً . انهم جميعاً صامتون . وقلب قره يفور ويغلي حنقاً .

وظهرت لأبصارهم في تلك اللحظة عربة كبيرة . لم يجب قره بكلمة واحدة . وها هو ذا يمضي بخطا واسعة .

لم يفهم الفلاحون شيئاً من هذه المناقشة . كان يبدو لهم ان جميع الناس ، وقره أيضاً ، يعرفون حميد سراج .

فلما تركهم تذكروا انه لم يلق عليهم السلام حين وصل . وكذلك حين ذهب . اللهم انهم لا يحرصون على أن يظهر احترامه لهم ، معاذ الله . أرض الله واسعة .

ولكن هؤلاء الرجال جميعاً كانوا في أشد الظمأ الى الحب الأخوي . وما أن ذهب قرة حتى عادت اليهم شجاعتهم ، وحتى اتخذت الحياة مرة أخرى معنى واضحاً في أنظارهم . ان الخبز ، حتى يكون نيئاً أو محروقاً ، يبدو لأمثال هؤلاء الظمأى طيباً لذيذاً .

ولكن من أي خبز هو هذا الرجل ، قره ؟

وغاب قره وراء منعطف من الأرض . وأبطأ سيره . إن أضواء ساطعة تتموج في الطريق . ورأى قره اقتراب العربة الضخمة الهائلة الطويلة المبنية على عجلات كبيرة ، مع حمولتها من الزبل . انها تبدو عالية علو ثلاثة بيوت يركب بعضها فوق بعض . وعلى القمة كان خادمان من خدم المزارع واقفين وفي يد كل منهما مجرفة . فلما مرّا بالفلاحين ألقيا عليهم السلام في فرح ظاهر . كانت العربة تنشر رائحة حارة .

قال أحد العاملين الزراعيين صائحاً :

ـ أنتم يا أولاد أمكم . فيم تضيعون أوقاتكم هنا ؟ ليخرب الله بيت أجدادكم .

سمع قره هذا الكلام وهو يمشي في الطريق الضيق المؤدي الى بني بوبلان الأعلى . كانت العربة تسير وسط ضوضاء كأنها ضوضاء طاحون . وعرف قره هذين الرجلين المتسنمين ذروة الزبل .

حدث قره نفسه قائلاً : « شعب عظيم . ما أعظم رجال هذه البلاد الذين لا يجيدون إلّا الشتائم ! ».

وانطلقت ضحكات من الجهتين ، من قمة العربة ، ومن الجمع الواقف في الطريق .
قال العاملان يمزحان :
ـ هل تنتظرون أن يزهر الملح .
انهما شابان فارعا القامة ، قويا الجسم ، يرتديان لباساً واحداً هو سروال منتفخ يصل الى المآبض ، وقميص على الصدر متسخ بالتراب ، وقبعتان صغيرتان فوق الرأس .

أجابهما الآخرون :
ـ ليتكما تختنقان ، أيها السافلان .

وصبوا عليهما سيلاً منهمراً من الشتائم المنتقاة ، وهم يغمزونهما . وانفجر ضحك عام شامل وسع الصدور . لم يفهم اللذان يعملان في مزرعة ماركوس ان الفلاحين كانوا يطلبون منهما شيئاً من التحفظ والتستر .

قال قره لنفسه :
« ليتني أعرف حقيقة الأمر . . اني مستعد لأن أدفع ثمن ذلك غالياً جداً . . و . . و . . ليتني أملك عربة كهذه العربة . . مع كل ما عليها . يا لهؤلاء الفلاحين ما أدناهم ! لقد أصبحوا لا يحترمون من هم أعلى منهم مقاماً ، وأرفع شأناً . أصبحوا يسمحون لأنفسهم بكل شيء . ولماذا ؟ لأنهم وجدوا مستوطنين فرنسيين يستطيعون أن يكسبوا من العمل في مزارعهم مالاً . . مالاً لا يعرفون ماذا يصنعون به . أصبحنا لا نستطيع السيطرة عليهم . أصبحنا لا نستطيع أن نكلفهم . انهم يكسبون من المال ما يشاءون ، وهذا ما يجعلهم وقحين ».

وأصاخ قره بسمعه ، آملاً أن يلتقط كلمات أخرى « يظنون ان كل شيء مباح لهم ، هؤلاء النتنون . كيف ينسون بسرعة أنهم فلاحون أبناء فلاحين ، لا يعرفون إلاّ البؤس . أنظر إلى هذين الحقيرين النجسين . أنظر كيف يقفان فوق هذه العربة كأنهما صاحباها .».

وكان المزارع لا يرى الدرب رؤية واضحة ، فقد كانت تحجبه الأشجار . فتوقف عن سيره ، وسمع القهقهات . ان عاصفة من اللعنات والشتائم تنفجر . وظلّ قره واقفاً وقد نفد صبره واشتدّ حنقه .

« أنظر . . أنظر كيف يلعنون ويسبون ، ثم لا تقطع ألسنتهم جزاء هذا الكفر . يا لهم من فجرة ! إنني لأراهن على قطع رأسي إنهم يفعلون عامدين . لا شك ان هناك أمراً يخفونه ».

صعدت العربة طريق سبدو ، ثم انعطفت الى الشمال فلم يسمع قره بعد ذلك شيئاً . غير أن فكره ظلّ يسير . لقد لاحظ قره حركات الفلاحين في المنطقة ، ولاحظ الاجتماعات التي كانوا يعقدونها . ولم يخطىء ظنه في حميد سراج الذي كان يراه يتردد على الفلاحين أحياناً كثيرة . ان البلد كله يتهامس في السر . وكان مزارع بني بوبلان الأعلى يعرف ما الذي يجب عليه ان يعمله .

قال كومندار : الحياة قصيرة . أسأل الله أن يمد في عمرنا . فلسوف نرى أموراً جديدة كثيرة . أنا كومندار أقول لك هذا الكلام . إن شيئاً ما قد تغير في هذا العالم . لك أن تصدقني ولك ألّا تصدق . لقد رأينا ما حدث وما لن يحدث بعد الآن . أنا لم أطف في الجزائر كلها ، أنا لم أطأ أرض وطننا كله حين كنت لا أزال قادراً على ذلك . ولن أستطيع أن أفعل ذلك . ولكن قلبي يحدثني بكل شيء . لقد زار قلبي جميع أرجاء البلاد ، زار جميع المدن وجميع القرى ، وعاد من زيارته يبلغني أن ثمة شيئاً جديداً . ألا ما أطول ما صبرنا !

هكذا تحدث كومندار .

ـ تقول لنفسك : ما قيمة عشرة أكواخ . فاعلم إذن أنه بني بوبلان الأدنى كله ! منذ مائة سنة (ربما أكثر من ذلك وربما أقل) لم يكن أحد هنا البتة ، ذلك ان بني بوبلان لم يكن له وجود . اسأل شيوخ القرية يقولون لك أنهم جاءوا الى هذا المكان يستقرون فيه واحداً بعد واحد . أما قبل ذلك فكان للفلاحين حقول شعير ، وبساتين تين ، وغياض ذرة ، وجنائن خضر ، وكروم زيتون ، ثم انتزع منهم هذا كله . منذ تلك اللحظة أصبح يقال عن الفلاح انه كسول وأنه يترك الأرض للقصب والعناب ونخيل المقل ، وانه عاجز عن صنع أي شيء نظيف منتج ! وهذه مزايا الحضارة يا بني ! آه ما كان أحذقهم في تجريد هؤلاء الفلاحين من كل شيء في سبيل مصلحتهم وفي سبيل الحضارة ! كان هناك غول شره لا تراه الأعين ، ما ينفك يبتلع بين فكيه الفاغرين أشلاء كبيرة من هذه الأرض التي سقوها بعرقهم وبدمائهم ، يبتلعها على ذهول منهم وغفلة ، من حيث لا يحتسبون . انه « القانون ». أينما توجهوا صفعهم « القانون ». وهم دائماً مذنبون في نظر « القانون ». لوائح « لقانون » تحاصرهم من كل جهة ، وتعترضهم في كل مناسبة . « القانون » يشق طريقاً يقطع مزارعهم كما يقطع الدولاب أجسامهم . القانون يحرم عليهم امتلاك أراضيهم . القانون تبدل ، هكذا يقولون لهم ، هناك قانون جديد . . ألغيت سندات التمليك القديمة . لا يرث أحد أرضاً عن أسلافه . الحبس صودرت . وكذلك أراضي المشاع . ثم قالوا للفلاحين : من كانت له شكوى ، فليراجع المحاكم . هناك محاكم . المحاكم تنصفكم . يكفي أن ترفعوا قضية . القانون يحمي حقوقكم إذا كانت لكم حقوق . القانون الجديد الذي صدر بالعدل والمساواة بين الجميع يدافع عنكم إذا اقتضى الأمر ذلك . وأجاب أولئك الرجال الطيبون : ولكن كيف نلجأ الى القانون ، والقانون هو الذي يجردنا من أملاكنا ؟ ان الذين صدقوا ذلك الكلام عانوا من الشقاء ما لا يوصف ولا يحد . فقدوا البقية الباقية من أملاكهم ، وبعضهم فقد عقله كذلك . وأصبح يكفيهم الآن أن يجدوا مكاناً يستلقون فيه على مقربة من السهول الخصبة المروية . فإذا وجدوا هذا المكان ، تلبثوا فيه ولم يمضوا الى أبعد من ذلك . والذين يستطيعون أن يعملوا في أقرب مزرعة من مزارع المستوطنين الفرنسيين ، يشغلون المغاور

القديمة التي في الجبل ، بينما الطامحون منهم يبنون لأنفسهم أكواخاً من طين وقش . وهذا هو « بني بوبلان » الأعلى . هكذا تكون ، يا بني . وهكذا حلّ في الأرض ناس محل ناس ، هكذا طرد أصحاب هذه الأرض من أرضهم وأصبحوا غرباء عنها . وثمة فلاحون آخرون أقصوا مع سكان بني بوبلان في وقت واحد ، ولا يزالون إلى الآن يسيرون . وهناك آخرون اقتربوا من المدن . ما من يوم يمر إلاّ وترى أسرة من الأسر تقترب من المدينة ، الأب يحمل على كتفيه صرة ، والأم تشد الى ظهرها رضيعاً . غير أنهم سيصبحون قوة رهيبة . انهم الآن يؤجرون أنفسهم لأولئك الذين جردوهم من أرضهم ، ويقولون : « كذلك كانت مشيئة الله . ولكن الله سيهدينا إلى الطريق القويم » لم تع ذاكرة الانسان لعنة أشد نكراً من هذه اللعنة .

هكذا تحدث كومندار .

وكان عمر ينظر الى الشيخ العجوز ، فيحسّ من حوله تلك الحشود من الناس وتلك البلاد التي نوديت من بعيد . ان هؤلاء الرجال المنتشرين في كل اتجاه يوحون اليه بالصداقة . إنهم الآن صامتون . انهم يسمعون كلام كومندار ويفهمونه . ولكن طاقتهم الرهيبة تحملهم على الصمت ، انهم يعيشون حول كومندار ، والأمل يستحثهم من كل جانب .

ـ ٩ ـ

بعد انقضاء مدة من الزمان على ذلك ، كان علي بن رباح وسليمان مسكين جالسين يدخنان على الأكمة التي علقت بها القرية . وكان بادعدوش قد تركهما منذ قليل ومضى الى المزارع المجاورة عساه يجد فيها عملاً ، رغم أن الأمل في ذلك ضعيف . وفي تلك اللحظة نفسها كان قره علي يرقى اليهما مصعداً في طريق سبدو . فما أن رأى الفلاحان هذا المزارع حتى نهضا ، وأخذ أحدهما وهو علي بن رباح . يلقي نظرات على جهة الرجل ، ثم قال :

ـ إلى اللقاء يا سليمان . ألم تشم رائحة ما ؟ إن رائحة كريهة قد زكمت أنفي منذ لحظة وحبست أنفاسي .

فأخذ سليمان مسكين يضحك . وذهب علي بن رباح . فلما وصل قره علي فصار أمام سليمان ، كان لا يزال يضحك وحيداً . قال المزارع :

ـ سليمان ، سليمان ، لقد سبق أن قالوا أنك أمرؤ معتوه ، فلم أصدق ، أما وأنني أراك تضحك وحيداً ، فهأنذا أكاد أصدق .

ـ لا شيء يا مسيو قره ، لا شيء ، صدقني . هو فلاح كان معي وذهب منذ لحظة ، لأنه شم على حين فجأة رائحة كريهة .

قال سليمان مسكين ذلك وانفجر يقهقه من جديد .

ــ رائحة كريهة ؟ شم رائحة كريهة ؟

ألقى الرجل الضخم هذا السؤال وهو يتشمم فيما حوله ، ثم أضاف قوله :

ــ لم أشم شيئاً .

ــ كيف يا مسيو قره ؟

ان ضحكاً لا سبيل إلى قطعه آخذ بخناق سليمان مسكين . فنشق المزارع بمنخريه الواسعين نشقة كان لها صوت كأنه صوت قصبة .

ثم أخذ ينظر إلى سليمان مسكين بعينين قلقتين ، فقال سليمان ملحاً باخلاص ساذج :

ــ شم ، شم ، فستجد أن ثمة رائحة كريهة .

وكانت نظرته ملتمعة ببريق أخضر .

ــ نعم ، نعم ، هي قذارة ما تركها هؤلاء الفلاحون المناحيس في هذا المكان . ان الفلاحين لم يوجدوا على هذه الأرض إلّا ليوسخوا كل شيء . ولو ذهبوا الى الجنة لملأوها ببرازهم .

فرفع سليمان مسكين ذراعيه وقال :

ــ انظر يا مسيو قره الى جنائن الزيتون ، والمراعي الخضراء ، وكروم العنب ، ألا ترى أنها جميلة ؟ إنني لأنظر إليها فأحس بقلبي ينفتح ويتسع . أحسّ بسهل فسيح من الرضا ، بأقيانوس من السرور بجبل من الكبرياء . نعم أحسّ بكبرياء عظيمة . فمن أين يخرج هذا كله ؟ من أذرع الفلاحين . هل هذا كله ثمرة اناس خلقوا ليوسخوا الأرض كما تقول ؟ إنهم في الحق يجملون الأرض ويزينونها . ويمكن القول أن وجودهم يجعل من الأرض جنة .

وأنهى كلامه بصوت قوي يقول :

ــ ولكنهم مبعدون من هذه الجنة التي يخلقونها .

فصاح قره علي يقول معولاً :

ــ كل هذا كلام . ما أكثر الكلام ! فكر فيما تقوله يا سليمان . ماذا تعرف أنت يا آخر فلاح من الفلاحين . هذه كلها أراض كانت في الماضي قفراً خاوياً . نعم كذلك كانت : أدغال عوسج ، ودوم . . ولم تكن تنبت فيها بطاطسة واحدة .

ثم عمل فيها رجال .

ــ صحيح . ولكن بفضل من ؟ بفضل الفرنسيين . الفرنسي انسان عظيم ، انسان عاقل حكيم . لكأنه واحد من الأوائل . . فهو الذي أنشأ أول مزرعة ، وغرس أول كرم . كان الفرنسي يعرف ماذا يعمل .

ــ وبلغ من حسن معرفته بما يعمل انه لم ينشىء مزرعة واحدة وكرماً واحداً ، بل سرعان ما أنشأ عشر مزارع ، فمائة ، فألفاً ، وغرس مثل هذا العدد من الكروم أيضاً . .

ــ هذه الكهوف التي يعصرون فيها العنب ، وهذه العنابر التي يخزنون فيها القمح

والشعير ، لا شكّ أن أجدادك لم يتصوروا مثلها . لم يكن هناك رجال يعملون في ذلك الزمان . كان قد نالهم الصدأ والفساد جميعاً .

ــ أجانب يملكون البلاد .

ــ أليس السكان سعداء ؟

ــ لا أدري ؟

ــ هنالك عمل لجميع الناس . ترى ما الذي كان يمكن أن يصير إليه الفلاحون بدون ذلك ؟ هه ؟

ــ لا أعرف ما الذي كان يمكن ان يصيروا إليه . ولكنني على يقين من أن حالهم كانت ستفضل الحال التي هم عليها الآن .

ــ اعترف بالحقيقة يا رجل .

ــ الحقيقة ؟ من الذي يعرف شيئاً عن الحقيقة ؟ أنت ؟ أأنت تعرف ما هو حقيقة وما ليس بحقيقة ؟ الحقيقة . لسوف تعرف ما هي . انظر الى هؤلاء الرجال الذين كنت تسميهم منذ قليل قملاً . ألم تكن تسميهم قملاً ؟ إذن فاعلم أنهم هم الحقيقة نعم ، هؤلاء الرجال الذين لا يملكون شبراً من الأرض هم الحقيقة .

فرفع المزارع الضخم يده ، وكاد يضعها على كتف سليمان مسكين ، ولكن حركته ما لبثت ان اضطربت كأنما هو هم أن يلمس ناراً تحرق على أن هذه الحركة الأخوية التي لم يكملها قد قربته مع ذلك من سليمان ، وقال :

ــ تكلم ، تكلم ، أيها الفلاح الحاذق في الكلام . لقد قسم الله لكم هذا الحظ .

كان مسيو قره قشف الوجه كسيدة متقدمة في السن . وكانت ملابسه المبرقشة الحائلة تدل على انه ميسور الحال بغير رخاء أو رفاه . وكان له شاربان ضخمان يمتدان على وجهه . وكان وقاره هو سلاحه ودرعه ضد سكان بني بوبلان الأدنى . وكان يحس أن الفلاحين الذين يعدهم في أسفل السلم ، لا يبذلون له كل ما يستحق من احترام .

ان زاويتي فمه تتهدلان في احتقار وازدراء تحت خديه الثقيلين المحشوين بشعر أشقر .

ثبت سليمان مسكين وقفته على كعبيه .

وقال المزارع متابعاً كلامه :

ــ وكان ثمة نزاع كثير في عهد القبائل ، وكانت ثمة عصابات من اللصوص في الجبال والروابي .

ــ زمان العصابات من اللصوص انما هو هذا الزمان ، مسيو قره . كيف لا يعرف هذا رجل مثلك يا مسيو قره ؟ ولكن لا ، انك لا تستطيع ان تعرفه .

ــ ولماذا ترى أن زمان عصابات اللصوص هو هذا الزمان ؟

ــ لأن المستوطنين الفرنسيين لصوص ، ولأن القائد لص ، ولأن رجال الدرك لصوص ،

ولأن المدير لص ، ولأن مسيو قره . .

ــ مسيو قره ماذا ؟

ــ لص أيضاً . جميع هؤلاء لصوص ، وليس بهم حياء ولا خجل .

فلما سمع قره على هذا الكلام أظلم وجهه ، وقال :

ــ أنت لا تتكلم إلّا لتبرهن على ان لك شأناً وقيمة .

ــ أبداً ، وإنما أقول الحقيقة . إن كل واحد منكم يريد أن يلقننا دروساً ، وأن يعطينا نصائح ، كل واحد منكم يتدخل في حياتنا ، وينزل نفسه منزلة القاضي الذي يفصل في الأمور ، وأنتم جميعاً لصوص .

ضاق قره ذرعاً بهذا الكلام ، فأشاح عن محدثه ، ان عيني سليمان تطرفان قليلاً ، وتلتمعان . وأردف يتابع كلامه مستنداً إلى المنحدر ، بصوت يبلغ الآن من الخفوت ان قره علي لم يدرك في أول الأمر ما يقول :

ــ لا يا عزيزي مسيو قره ، لا يا عزيزي مسيو قره ، ليس صحيحاً ما قلته عن الأزمان السالفة . لم يكن كل شيء في تلك الأزمان سيئاً ربما كان في تلك الأزمان السالفة . لم يكن كل شيء في تلك الأزمان سيئاً ربما كان في تلك الأزمان أمور سيئة ، ولكن لم تكن كل الأمور سيئة . واليوم ماذا ترى ؟ لكأن يوم الساعة يوشك أن يأزف ، هذه الأزمان طيبة للأغنياء والأجانب . . لخمس أسر أو ست . . أو لعشرة في أكثر تقدير . أما الفقراء ؟ آه ما أكثر الفقراء! . . نحن لم نكن ، أنا وأبي وأمي وأخواي ، الا فلاحين . وفجأة جاء هؤلاء فأخذوا أبي . لعل ذلك لم يكن إلّا خطأ . لقد كان أبي رجلاً مسالماً طوال حياته ولكنك تعرفهم ، تعرف هؤلاء الجنود والحرس والدرك والضباط . . لعنهم الله جميعاً .

ــ هوه . .

ــ هوه ؟ قد تكون أنت خيراً منهم ، أو لا تكون كذلك .

ــ ها . . هوه . . كيف تجرؤ على قول هذا الكلام ؟

قال المزارع ذلك ، ورمى الفلاح بنظرة حانقة . ولم يكن في الحقول أحد البتة ، فما زاد على ذلك شيئاً .

ــ أنا لا أجرؤ أبداً يا مسيو قره . وما كان لي أن أسمح لنفسي بشيء . ولكنني سأقول لك ما بنفسي ، ما دام الله قد أرسلك إليّ . وستصغي إلى كلامي .

ــ طيب ، بسرعة ، بسرعة ، لأن ورائي . .

ــ ربما كان سبب ذلك هو الحصان الذي أراد القائد أن يأخذه . أنا لم أعرف حقيقة السبب إلى الآن . وإنما المهم أنهم أخذوا أبي . وقد أخذوا مع أبي عدداً كبيراً من الناس ، بعضهم شيوخ وبعضهم شباب . وكان بعض هؤلاء مجرمين حقاً ، ارتكبوا ذنوباً جديدة فأرجعوهم الى السجن . ولكن الآخرين ، ومنهم أبي ، كانوا أناساً أبرياء لم يقترفوا جرماً . ومع ذلك

أخذوهم . من أجل ذلك الحصان أخذوا أبي . لقد رفض أبي أن يهدي الحصان الى القائد . هل القائد نفسه كان يريد الحصول على هذا الحصان لأن حاكمًا آخر أقوى منه كان يطمع فيه ؟ لا أدري . . المهم أن أبي قد انتزع من أسرته بسبب حصان شقي . أرسلوا أبي بكسر الحجارة على طريق كابين . . ثم اذا بامرأته ، أمي ، تصبح أماً بلا رجل ، واذا بنا نحن ، أبناءها ، نصبح يتامى بلا أب . لماذا ؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا ؟ الحصان هو السبب . كان الحصان كل ما يملكه أبي في فقره وبؤسه . كان هذا الحصان كثيراً على فلاح . كان ثروة ينوء بحملها الظهر . كان كثيراً على فلاح . وقد قال سكان القرية ذلك لأبي ، قالوا له : « يا أحمد ، ان حصانك أجمل من ان تملكه أنت . لن تلبث السلطات ان تنظر اليك شزراً بسبب هذا الحصان ». وذلك ما وقع . وقد حذروه أيضاً بقولهم : « لا يعلم أحد ما الذي سينتج عن هذا ». ثم علموا ما الذي نتج عنه . لقد أخذ أبي . ولم تره بعد ذلك امرأته ولا أولاده ولا القرية . وأصبحت أمي لا تستطيع أن تأكل ولا أن تنام وهي تفكر فينا نحن أولادها . وكانت تتوقع كل يوم أن يعود . وقلت أنا لأمي العجوز : « هيا بنا نجمع عفشنا وأمتعتنا ، ونرحل . ان الله لم يشأ أن نبقى في هذا البلد ». وتركنا القرية . لم نكن نملك بالقرية لا حجراً ولا شجرة . فرحلنا غير آسفين على شيء . أرض الله واسعة . ولكننا حملنا معنا محبة هذه القرية . لقد كتب علينا ان نرحل ، فكان لا بدّ أن نرحل . مشينا بضعة أيام . الشرب لم يكن أمره صعباً . كنا نشرب من ماء الينابيع . ولكن الحصول على الطعام لم يكن بهذه السهولة . لن ندع شيئاً إلّا أكلنا منه . أكلنا من كل شيء : جذور التلجودة ، توت الفرصاد . . وأكلنا خبزاً كان يتصدق علينا به أناس تأخذهم بنا شفقة . وأكلنا من أوراق شجر الخطم ، ولوزاً أخضر وثمار رمان . وطلبنا الصدقة . ورأينا فقراء أفقر منا . وكان أخواي يسقطان على الأرض من التعب . وكنت أنا أحسّ في كل يوم أنني أوشك أن أموت ، من فرط ما أعاني ، قضينا سنين نضرب في الأرض ، ونجوب الطرق . وكنا نلجأ الى أكواخ القش نبيت فيها إذا سمح لنا بذلك . ولكن لم يكن يسمح لنا بالمبيت فيها مدة طويلة . وماذا كان في وسعنا ان نعمل ؟ إن الذين يطردوننا يجيئون الينا مع كلابهم وخدمهم وبنادقهم . فما نلبث ان نستأنف المسير ، لأننا اصطدمنا بالسلطات . كبيرة أمنا الجزائر . ذهبنا الى كل مكان . ومات الولدان . دفنا أحدهما في موضع ، والآخر في موضع ثان . فلما أصبحت وحدي مع أمي ، لم استطع أن أرى ما تكابده من آلام . كان خليقاً بالصخر ان يبكي حين يشاهد ما بها . ينبغي لك أن تصدق ما أقول . كنا نسير على الأقدام في الصحراء . ذهبنا الى الشرق والى جبل التل . وسكنا في البراكات التي تحيط بالمدن الكبرى . وحرثت الأرض ، وعملت في جني الزيتون والبرتقال وقطف العنب .

وبعد تلك السنين كلها من الطواف في الأرض على غير هدى ، اشتد بنا الحنين الى البلد . فعدنا سائرين على الأقدام أنا وأمي . وأذكر أننا كنا ذات مرة على أبواب احدى المدن . كانت أمي المسكينة هزيلة ضاوية متسخة ممزقة الأسمال . أغمضت عينيها ، وأسلمت روحها اللطيفة

لبارئها . دفنت أمي ، وعدت الى القرية . أود لو أعيش أربعين سنة أخرى . صحيح ان الأعمار بيد الله ، وما من أحد يستطيع أن يتحكم فيها . ولكنني أود لو أعيش أربعين سنة أخرى . هكذا كانت كلمة واحدة كافية لانتزاع أبي منها ، وتشريدنا في أقاصي الدنيا . هل كنا نعرف سبب ذلك ؟ أبداً . . والآن أصبحنا نعرف . فانظر مقدار الأذى الذي ألحقه بنا أصدقاؤك . ولكنني لا أهابهم ولا أخشاهم ، إذ لم يبق لي شيء أخاف ضياعه . وكبيرة أمنا الجزائر . قد تقول لي عد الى بيتك فلا أعود ، أولا : لأنني ليس لي بيت ، وثانياً : لأنه ما من أحد يستطيع أن يمنعني من التسول واستجداء قطعة من الخبز آكلها ، اذا أنا أردت ذلك . لا تستطيع أنت أن تمنعني من ذلك. وعلام يمنعني أشباهك ؟ هل من الواجب بعد كل ما مضى ان نمنع حتى من التسول ؟ اذهب الى السلطات فقل لها على لساني هذا الكلام كله. فلست أعبأ بذلك . انني مستعد للذهاب الى المعتقل إذا لزم الأمر . لست أخاف أن يقال عني أنني كيت وكيت . أنت تطلب مني أن أعود الى بيتي ، لا داعي الى ذلك . وأنت تظن انني أهذر . حين تمتلىء أعين الشرفاء من الناس بالدموع يصبح قلب أمثالك من حجر .

قال قره وقد سئم من حكايات الفلاح :

ــ القدر هو الذي أراد ذلك .

ــ أي قدر ؟ أي قدر ؟

ــ علي أنا أعرف ؟ القدر . . أعني ما يسمى بالقدر .

ــ أنا لا أفهم هذا الكلام . . ولكنني أسألك هل الذي قصصته عليك حدث أم لم يحدث ؟

ــ لنفرض انه حدث .

قال قره ذلك وهو يرفع صوته .

أراد المزارع أن يقرع سليمان مسكين وان يؤنبه على هذه الثرثرات . فأصغى سليمان الى كلامه وهو يصطنع هيئة النادم ، كما يليق ذلك بفلاح يمثل أمام شخص خطير الشأن رفيع المقام . وكان هناك فلاحون آخرون اجتذبهم وجود قره ، فأخذوا يشهدون هذا المشهد من وراء سطوح القصب وجذوع الأشجار .

قال سليمان مسكين ، رداً على هذه المواعظ :

ــ اسمع يا مسيو . دعك من التدخل في شؤون غيرك ، وإلاّ نتفت لك شعر شاربيك .

ثم رفع يده فشد أحد شاربي المزارع وهو يقرق على نحو بذيء ، ثم شد الشارب الثاني شداً أقوى من ذلك أيضاً ، ودار حول الرجل الضخم . ظلّ قره على حيث هو مشدوهاً فاغر الفم . ثم حاول ان يفرض احترامه على هذا الفلاح الوقح ، فأهاب به أن يكف ، ولكن سلطته لم تجد نفعاً ولم تسفر عن نتيجة . أراد أن يضربه . هيهات . وكان الفلاحون قد أخذوا يتلوون ويتعقفون .

كان سليمان يصيح :

ــ يا له من شعر أشهب جميل . شعر أشهب جميل . هأنذا أنتفه .

وانفجر ضاحكاً ضحكة طويلة ألقت الذعر في وجه قره علي . كان الفلاحون يحرصون على أن يظلوا مختبئين . وهرع بعضهم الى القرية يشد على خاصرتيه من فرط الضحك ليذيع النبأ في الناس .

ولم يستطع المزارع ان يهرب إلاّ بعد لأي . ولولا أنه هرب لنتف سليمان جميع شعر شاربيه .

صاح به سليمان بعد أن ولى الأدبار يقول :

ــ عليك بالاهتمام بشئونك وحدها اذا كنت تريد ان ترى ذقنك تشوى في يوم من الأيام .

وكان المزارع قد نسي كل ما يجب لشخصه الكريم من احترام وتوقير ، فجعل يعدو عدواً سريعاً ، وغاب وسرواله الكبير المنفوخ يهتز ذات اليمين وذات الشمال .

وانتشر الخبر بمثل سرعة البرق . ما عسى الناس يظنون بعد ذلك ؟ لقد ضحكوا ملء أشداقهم . ومنذ ذلك اليوم أصبحوا كلما صادفوا صديقاً من أصدقاء السلطة ، يقولون لأنفسهم وهم يقرعون الركب :

ــ دعه . . لا بد انه ملاق سليمانه المسكين .

أو يقولون :

ــ المهم ان لا يقع بين يدي سليمان مسكين . وإلاّ فلن يتخابث ولن يصطنع المكر بعد أن يلقاه .

حاول قره علي عدة مرات ان يظهر للناس بعد ذلك اليوم . إلاّ أنه كان كلما ظهر انهمر على ظهره وابل من الضحك ، حتى اذا التفت الى وراء لم يسمع شيئاً ، ولم ير أحداً . لكأن أرواحاً من الجن هي التي تلاحقه بسخرياتها . وكان ينظر الى الناس مستفهمًا مستطلعاً ، فيقترب الفلاحون منه ، ويتفرسون في عينيه وينتهي الأمر بأن يفقد قره علي ، صبره فيدمدم ويسعل : احم . . احم . . ولكن نوبات السعال هذه لم تكن تجديه نفعاً . وها هم الفلاحون يشيحون بوجوههم عنه ، ويولونه ظهورهم .

وصرح لهم قره علي عندئذ انه يرى ان كل فلاح يصل أسبابه بأسباب سليمان مسكين فهو عدو للحكومة وعدو للاسلام .

فعقب أهل بني بوبلان على هذا بقولهم :

ــ معنى ذلك أن الناس جميعاً هم في رأيه كذلك . . القرية كلها . . أليس صحيحاً ؟ أما أن كل من يصل أسبابه بأسباب سليمان مسكين فهو عدو للحكومة في نظره ، فله أن يقول ذلك . . وأما انه عدو للاسلام ، فاللهم كلا ثم كلا . .

لقد قال كومندار أن على عمر أن يعرف هذه الأمور كلها . ان عمر راقداً الآن تحت شجرة البطم الكبيرة ، على حافة حقل قره . لكأن هذا العصر من شهر آب وقف عند الزمان الأزلي مليئاً مثقلاً مشحوناً . النعناع البري والنباتات ذات الرائحة العبقة تجف وتيبس . لا شك ان هذا العصر ليس له نهاية ولا بداية . . . ان الفتى قد أضاع منذ مدة طويلة كل ذكرى عن الوقت . كل شجرة ، وكل حجر ، وكل حنية من حنايا الريف ، قد انصبت في مادة ساكنة لا تتحرك . وفي قراره هذا الخدر الذي لا يوصف ولا يحد كان يسير النهار بغير قياس . وفي ظل شجرة البطم الكبيرة هذه ، في ظلها الخفيف ، كانت نظرات الصبي ترصد حضور الموت صامتاً أخرس .

هل كان عمر يعرف هذه الأمور حقاً ؟

إن الأطفال يتظاهرون أحياناً بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً البتة .

وانتزع الصبي كشة من العشب وهو منصرف الى تأملاته . ونظر الى الحشائش التي قطفها ، ثم أخذ يمضغها في رضا وارتياح . انه يعرف الأمور . وأخذ ينكش بأصابع قدمه العارية التراب الطري الندي من ذلك المكان . انه يتعرف شجرة البطم . ها هو ذا يمد ذراعه ويلمس الشجرة : انه يتعرف القشرة التي تنمو حول الشجرة ويشد براحة يده شداً قوياً على جذعها . فتسقط منه قطعة خشنة : انه يفهم هذا أيضاً . وأنت الريح في أذنيه أنيناً خافتاً . أن أوراق الأشجار قد استدارت تصارع الريح العنيفة . وسمع عمر همهمتها .

قال كومندار : « حين صارت الشمس فوق رؤوس الحصادين توقفوا عن العمل . فلما انتصبوا قائمين سقط ظلهم على أقدامهم . كانوا جميعاً سوداً . تركوا الحقول ومضوا يجلسون تحت الأشجار . وانتظر آخرون قليلاً : تركوا الآلة الكبيرة وحيدة وسط جداول النار التي تتكون في حقول الحصاد : ان الآلة الكبيرة تتحدى كل شيء . فكأنها بأجزائها الكثيرة التي من حديد ومن خشب ، المشابهة لأذرع عفريت هبط من السماء ، تبدو نائمة في الحقول هي أيضاً . هذه القضبان الحمراء القاني لونها ، وهذه الأسنان الجديدة القاسية التي من فولاذ ، وهذا العرى وهذه الدمامة كلها ، هذه العطالة وهذه القوة ، كل هذا الذي اجتمع في كائن من معدن لا وجه له . ولكن له أذرعاً ومخالب وأفكاكاً ، هذا كله كان يلوح ان وجوده هنا إنما يرجع الى مصادفة لا يدرك كنهها ولا يفهم سرها .

ووراءها ، من بعيد ، تقريباً على الحدود التي ترى من مزارع القمح الممتدة ، كان حقل المستوطن الفرنسي ماركوس ، وبيته العتيق الذي بناه جده ، وظاهر هذا البيت المتشابه ، وافريزه وفتحاته ولون آجره القديم الوردي الحائل ، وسقفه القرميدي المغطى بطبقة من الطحلب ، كان كل ذلك يبدو أنه هو الوجه الحقيقي للجزائر ، ولكنه ليس الا السطح الظاهر . . . وللجزائر

مليون وجه آخر .

هذا أيضاً ، يفهمه عمر . كان عمر ينظر الى هذه المزارع التي تمتد أمامه ملتوية تلوي تضاريس هذه البلاد ، فيرى القش المشوي الميت يزفر زفير اللهب وهو يتأرجح مع هبات الريح ، ويرى أكوام العشب المحمرة تبدو تارة كالذهب حين يأخذ في الانصهار ، وتارة كالشعر تهزه الأرض على كتفيها في استرخاء وهي متهالكة على نفسها من شدة الحر ، وبينما كان جريان الزمان يمضي في طريقه من قلب الصبي ، ويثير في نغمته الودود الأسيانة ، كانت الآكام تنتصب في المغرب شهباء مبقعة بألوان كألوان البنفسج ، مع ما عهد فيها من عـداوة وبغضاء .

قال الرجل العجوز كومندار : « كذلك تجري أمور العالم في كثير من الأحيان » .

أصبح عمر لا يدري أهو في البلد الذي تراه عيناه أم في بلد القمح الذي كان يصنعه له كومندار .

إن لعمر ذهناً يقظاً وجسماً سليماً . وهو الآن سائر في السنة الحادية عشرة من عمره . ليس وجهه بالجميل جمالاً خاصاً ، غير أن فيه نعومة ورقة توشكان أن تبلغا أقصى ما يمكن ان تبلغه النعومة والرقة في وجه من الوجوه . وكان عمر يملك غريزة عجيبة لا تخطىء . وفي هذه اللحظة ، بينما كان كومندار يتكلم ، كانت رائحة حديد الآلة تغزو منخريه . انه الآن متمدد على العشب يفكر : هكذا تجري الأمور . حقول القمح ذهبية شقراء ، بلون الخبز المجمر ، وفيها منذ الآن سنابل محترقة . وهذا هو بيت الفرنسيين ، بيت المستعمرين الذين يملكون كل شيء ، الأرض وبيادر الحصاد ، والأشجار ، والهواء ، والرجال فوق ذلك كله ، وكذلك الطيور ، وربما كانوا يملكونني أنا أيضاً . كل شيء في هذا الكون راسخ متين ثابت مستقر ، كل شيء يبدو قائماً في مكانه من هذا الوجود الرحب الساطح الكبير ، الأرض وهذه المزرعة ، هذه السماء المهتزة وهؤلاء العمال الذين يذهبون ثم يعودون الآن لأن عليهم أن يستأنفوا العمل ، هذه الآلة وتلك الروابي العارية وهذه الأنفاس التي تخرج من صدري ، كل شيء في هذا العالم يبدو مرتبطاً منظماً .

جمد النهار على تأمل الفتى : الطيور بين أوراق الأشجار ، الركون والدعة ، دقات تسمع من بعيد ، همهمة رتيبة : ساعة من العصر في الفضاء الساكن الحميم .

قال كومندار : « وما حدث بعد ذلك تصعب متابعته . ان صوتاً معولاً رهيباً قد انطلق يشق الهواء الهادىء . ويملأ الحقول بحنق ضخم . كانت الآلة تهز مفاصلها الفولاذية الكبيرة في وحشية أن رجلاً قد انطوى فيها فهو يتحرك محاولاً أن يتملص منها ، ولكنه يظلّ معلقاً بها وقد انغرزت أسنانها في جسمه .

وأخذت قطرات ضخمة من الدم تنهمر ببطء على السنابل التي حلقت منذ لحظة . ثم نزلت النهاية نزول الصاعقة . ان هذا الجهاز المعقد من الأذرع والروافع قد تفضفض دفعة واحدة وهو يقرقع قرقعة شديدة : فانخبط العامل على الأرض وانسحقت عظامه . انه لم يعد إنساناً بل

أشلاء سوداء . وهرع كلب كبير وهو يوعوع ، وتجمد أمام الجثة في دهشة ، ثم أخذ ينبح نباحاً طويلاً . وما هي إلّا لحظات حتى امتلأت الحقول بالناس ، على هدوئها في تلك الساعة ، كأنما الأمر سحر . نبع عمال من كل جهة من الجهات ، فزاد بهم عدد الذين كانوا يعملون هناك ، وأخذوا يتزاحمون في دائرة مضطربة مهتاجة يحاولون ان يتكلموا جميعاً في آن واحد . ان كلا منهم يروي الآن قصته التي وقعت له ، ويناقش ويشرح ».

كان عمر يرى هو أيضاً هذا الحشد ، ويرى جثمان الرجل في وسط الدائرة بارداً كل البرود . لقد فات الأوان . أوان ماذا ؟ العامل مات منذ الضربة الأولى ، منذ اللحظة التي ارتطم فيها بالأرض .

قال كومندار : « تحطمت كليتاه ، وتهشمت عظامه كلها تقريباً . كان الدم يرشح من جسمه بغير انقطاع ، فيسقي الأرض ببقع حمراء لامعة ».

التفت عمر نحو الأرض لاهثاً .

واستأنف كومندار حديثه :

« وظلّ الكلب الأسود الكبير هناك . كان يهتّز ويلهث كقاطرة ، وكان لسانه الكبير يتهدل من فمه بطوله كله . كان يمد رأسه الضخم ، فيرى ارتعاش فمه الكثيف . واضطراب عضلات رقبته القوية . وطفق عدد من الفلاحين يحاول طرد الكلب . ان صاحب الكلب هو صاحب المزرعة .

قالوا :

ـ اذهب يا كلب النحس . ملعون انت وأصحابك .

رأى عمر الكلب وهو يبتعد ثم يتوقف ثم يتقدم نحو الجميع برأسه الضخم ويهمهم واقفاً على قوائمه المتباعدة ممتلئاً بحرارة جهنمية .

قال كومندار : « وخرج مسيو أوجوست وهو رجل في الخمسين من عمره ، خرج من بيته راكضاً . وها هم أولاء يرونه واصلاً إليهم بخطا سريعة بعد أن أغلق الباب الكبير . ان وجهه وهو وجه رجل شبعان ، يلتمع التماع شعره الوردي ، وعلى ساقيه القويتين يجثم جذع عريض . ان كرشه يطفح فوق حزامه .

فلما صار أمام الجمع اقترب منه الكلب الأسود الكبير .

« قال بعض الفلاحين :

« ـ مساء الخير ، مسيو أوجوست .

« ـ وقع شيء رهيب يا مسيو أوجوست . تعال انظر .

« فأمسك مسيو أوجوست بطوق الكلب بحركة آلية ، فجعل الكلب يشد الرجل شداً قوياً وهو ينبح نباحاً مسعوراً . لم يظهر الفلاحون أية علامة من علامات نفاد الصبر أو علامات

العداوة ، فهم لا يزيدون على ان ينظروا بأعينهم منتظرين ما سيفعله الفرنسي . وأخذ مسيو أوجوست يطلق الشتائم واللعنات وهو ممسك بكلبه ».

قال كومندار :

« وفي تلك اللحظة وصل فرنسي آخر يترنح على ساقين قصيرتين عجيبتين . انه مسيو ماركوس نفسه ، الرجل الذي كان الفلاحون لا يلمحونه إلاّ لماما . وارتفع صوت مسيو ماركوس ، المرتج ، ارتفع واضحاً صارماً ، فسرعان ما سيطر على صيحات الوكيل ، الذي صمت أخيراً .

« ــ لا يلمسه أحد . هلموا أنتم . الى العمل جميعاً . أسرعوا . .

أصدر مسيو ماركوس أوامره هذه كلها باللغة العربية . ولاح على الرجال أنهم لا يستطيعون تحويل أبصارهم عن هذه الجثة الممزقة ، عن هذا الجثمان الساكن . ومع ذلك تفرقوا شيئاً فشيئاً . وقال مسيو ماركوس بالفرنسية في هذه المرة ، متجهاً بالكلام الى وكيله :

« ــ هاتوا غطاء من البيت . وألقوه عليه . إلى أن يصل رجال الدرك . ولن يتأخروا عن الوصول . أما هؤلاء فيجب أن يعودوا جميعاً الى أعمالهم . استبق واحداً أو اثنين منهم للاجراءات . ولا تدعهم يتكلمون كثيراً . سأتولى شرح الأمر لرجال الدرك بنفسي ، فيفهمون ان الحادث يرجع الى طيش الفلاح .

ثم التفت الى العمال قائلاً :

ــ الى العمل . الى العمل ، وإلاّ حسمت أجور الساعات الضائعة .

كان الاضطراب الذي يهزّه يشعل بالحمرة خديه الصغيرين .

ــ شيء مزعج والله . كنت أنوي ان أكون في المدينة في الساعة الثالثة . . ومرّ الفلاحون أمامه بوقار وامتثال . وحياه كل منهم بوضع يده على جهة القلب من صدره ، فكانت التحية تعبر عن اللباقة والاحترام . ولكن مسيو ماركوس لم يحفل بهذه المظاهر كلها . ان مسيو ماركوس سيد من كبار السادة ، فهو سليل أسرة من المستعمرين ، عظيم نبيل . انه بالدم والثراء ابن عم عدد من السادة المشهورين هم أصحاب مساحات شاسعة من الأراضي وورثتها .

كان عمر يعرف مسيو ماركوس . لقد حاول ذات يوم ان يدخل أراضيه من أحد الأسيجة ، فوقعت عليه نظرته الشاحبة حادة كأنها شفرة سكين ، وبدت للصبي مثقلة بالقسوة . ففهم عمر ان عليه أن يسارع الى الهرب . ولكن النظرة التي وقعت عليه كانت تطوف في غير هذا المكان . ان مسيو ماركوس لم يره . لقد كان يحلم .

روّع عمر إذ تصوّر أن هذا الرجل يملك آلة مثل هذه الآلة . فكر في الموت الذي تسببه . تخيل اضطراب العمال والانفعال الرهيب الذي هزّ نفوسهم في ذلك الظهر الهادىء الذي كان يخيم على البلد كله لا حركة ولا رعشة . ان الوعيد الذي حلق عندئذ في الهواء ، مسلط فوق

الرؤوس كقبضة عمياء ، كلعنة .

كان على الصبي أن يفهم هذه الأمور كلها ، لذلك كان يفكر ويطيل التفكير ، وهو مستلق على العشب يصغي إلى كلام كومندار الذي كان يتحدث عن حياة الفلاحين المقضي عليها بالهلاك . كان عمر يعرف هذه الأمور حقاً ، دون أن تكون به حاجة الى التفكير في كل منها على انفراد . لقد سبق أن أدرك عقله العلاقة بين هذا الموت وبين ذلك التعب الشقي الفقير الذي تعانيه أمه ، وأدرك العلاقة بين حياة الفلاحين وبين جوع دار سبيطار . وها هو ذا يتخيل رجال الشرطة وهم يدخلون ذات صباح الى دار سبيطار .

قال كومندار :

« الذي مات مات ، وعرف مم مات » .

قال عمر بينه وبين نفسه : أما كل ما عدا ذلك فلا يزال كما كان من قبل . لم يتبدل شيء ، إلاّ أن عاملاً زراعياً قد غاب ، فنقص عدد العمال واحداً . هذا هو الموت . وهذا هو سببه : سببه هؤلاء الناس الذين يعيشون في بلادنا مستعمرين . ما موت فلاح ؟ تمزق وحشي سريع . . ثم لا شيء بعد ذلك . وتسير الأمور كما كانت تسير . ترى ما الذي سيصير اليه هذا كله : حياة أهل بني بوبلان ودار سبيطار ، وهؤلاء الفرنسيون ، وهذا الموت ؟ . .

ترك عمر لفكره ان يسترسل غائصاً في حلم الموت ، وهو متمدد على العشب . وقال يخاطب نفسه : اللهم يا قادر ، يا من يحيط بعلمه كل شيء ، أنا أيضاً أعلم وأرى ، فأفهم كيف تجري الأمور ، أفهم انها غريبة بسيطة وفظيعة ، جميلة ورهيبة ، وأنها واضحة ومألوفة . ولكن ما الذي سيحدث بعد ؟

وفيما كان الصبي يحدث نفسه بهذا الكلام ، سمع ساعة المنصورة تدق الثالثة فتساءل : ترى هل استطاع مسيو ماركوس ان يكون بالمدينة في الساعة الثالثة من ذلك النهار بعد وقوع الحادث .

قال كومندار :

« ما أكثر ما نحب ان نعرض بؤسنا . أليس هذا ما يقوله عنا أولئك الذين يحرصون على ألاّ يتغير شيء ؟ نعم . . يكفي ان يتغير أي شيء يسير مما هو قائم ، حتى يداخل نفوسهم الخوف .

نظر عمر الى كومندار ، وتساءل عن هذا العجوز المشدود الى هذه الأرض بلا ساقين ، ألا يشعر في بعض الأحيان بضجر مهلك لا خلاص منه . » .

ثمانية أو عشرة جالسون تحت شجرة قديمة من أشجار التوت . ثمانية أو عشرة من رجال القرية ، ومعهم مزارع نزل من بني بوبلان الأعلى . ان انحدار الوادي يبلغ الظل الساقط من الشجرة . النهار متعب والسماء صافية بلا غيوم ، والحر شديد يفرغ الفضاء . هي الساعة الثالثة

بعد الظهر .

الطريق يتثنى ، تحت ، ويتلوى ، ثم يغيب في الأفق البعيد الذي يتهزز في خلال ضباب ساخن . صمت الريف المقفر يسطع سطوعاً قوياً . وفي الحقول الحجيرة التي يملكها مزارعون من أهل البلاد تنتصب سوق القمح قصيرة هزيلة .

قال سيد علي وهو يشير بيده الى سوق القمح :

ــ لقد أمتصت كل شيء ، امتصت كل ما في هذه الأرض ، ولن تزداد علواً .

كان بن أيوب أحد أفراد الجمع . انه هو المزارع الذي نزل من بني بوبلان الأعلى . وإليه إنما اتجه سيد علي بالكلام . كان الفلاحون يقدرون مشاعر الصداقة التي يحملها لهم بن أيوب . لقد جاء يشارك في اجتماعهم . انه لن يتردد عن تلبية طلبهم حين ذهبوا يدعونه الى المشاركة في هذا الاجتماع ، بل قال على الفور :

ــ « طبعاً » ومضى يتبعهم تاركاً العمل لأولاده .

وفي أثناء الطريق أبلغه الفلاحون ان حميد سراج هو الآن في بني بوبلان .

فقال المزارع :

ــ إننا نحن أبناء القرى ، نقدر الرجال بعلمهم وعقلهم . فإذا كان من أهل العلم والعقل فأهلاً به وسهلاً . سنظل دائماً في حاجة الى رجال من أمثاله الى جانبنا .

فلما وصل بن أيوب الى مكان الاجتماع حياه الحاضرون في أدب . وأعجب حميد سراج بما يلوح في وجه هذا الرجل العجوز ، الذي لا يعرفه ، من إمارات النبل والشهامة .

قال حميد سراج بينه وبين نفسه :

« أن به ما بأصائل الخيل من قوة وصلابة . على ان مسحة من الحزن كانت تغشي نظرة الرجل العجوز ، عجب لها حميد سراج » .

قال بن أيوب :

ــ سيسمق قمحنا متى تحررت أرضنا .

فأخذوا جميعاً يتكلمون . ان با دعدوش يتنهد من حين الى حين وعلي بن رباح يتدخل بكلمة بين الفينة والفينة .

قال با دعدوش فجأة :

ــ ما أشد ما كانت تشعر به هذه الأرض من آلام ، لو كانت حية . قال ذلك وطاف ببصره على الحقول الذاوية ، المجرودة ، هنا وهناك .

فقال بن أيوب وهو يهز رأسه :

آ . . . نعم ، لشد ما كانت تكابد من آلام . .

فسأل سليمان مسكين :

ـ عن أي شيء يتكلمون ؟
فصمتوا جميعاً .
وابتسم با دعدوش ابتسامة طيبة ، غير ان الحاضرين أدركوا انه حزين يائس ، ولاح عليه انه لم يسمع السؤال . قال :
ـ لا شك انها حية . ولا شك انها تعاني آلاماً شديدة .
قال با دعدوش ذلك وهو يتحرك ويهزّ في الهواء ذراعيه الطويلتين اليابستين . وأضاف وهو يشمر كميه الواسعين الى كتفيه :
ـ اسمحوا لي . أنا رجل عجوز ، ومن حقي أن أقول ، كل شيء . لذلك يجب عليكم ان تغفروا لي كلامي . هاكم ما أريد ان أقوله : رغم أننا قرويون وأننا بذلك نستحق شيئاً من العطف فان تكبر سكان المدن أقوى من أن يشجعنا على الدخول في باب الصداقة .
ـ يا لها من بداية . وتساءل الحضور ما عسى ان يكون الختام بعد استهلال كهذا الاستهلال .
ان با دعدوش لا يستعمل الألفاظ النادرة إلّا لماما في ظروف نادرة . والفلاحون يحملقون من الدهشة حين يسمعون منه مثل تلك الكلمات .
وتساءل الفلاحون عن با دعدوش : أين تعلم هذه الألفاظ ؟ قال أحدهم يخاطبه :
ـ تكلم يا با دعدوش كما يتكلم سائر بني آدم . فما أنت الا فلاح !
إن (بن سالم عادة) هو الذي قطع عليه الكلام محاولاً منعه من التأثير فيهم . وتابع با دعدوش يقول في فخامة وهو يلتفت الى حميد سراج :
ـ إن هذا السيد الحاضر هنا رجل من أهل المدن ، لا نشك في أنه عالم ومتبحر في جميع العلوم . . هذا لا نشك فيه ، انه رجل عظيم من سكان المدن . .
صاح بن رباح :
ـ ما هذا يا با دعدوش . . انت مخطىء . لقد انحرفت عن جادة الصواب ، إذا جاز لي أن استعمل هذا التعبير ، حميد هو أخونا جميعاً .
فأجاب با دعدوش ؟
ـ طبعاً . وهذا يشرفنا كثيراً . وأنا أعترف بأن من الممكن ان يكون ابني ، بل انه ليطيب لي ان أسميه ابني ، مع أجزل الاحترام الذي يجب له علي . أنا لا أريد أن أقول ما قلت للإساءة إليه ، صدقوني ، ان شعوري لصادق ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن ، درس كثيراً ، ولا شك انه قرأ كتباً كبيرة . وإذا جاء إلينا نحن الفقراء ، نحن البؤساء ، نحن الفلاحين ، بعد أن حصل ذلك العلم كله ، فلأن في تلك الكتب التي قرأها شيئاً قاده إلينا .
ابتسم حميد ابتسامة ضعيفة . وكان الجميع يتفرسون في تلك التعابير الغريبة التي تظهر في وجه با دعدوش . وكان با دعدَوش . ما ينفك يرسم بذراعيه في الهواء حركات عريضة بطيئة .

كان الفلاحون ينظرون مقطبين . لقد أذعنوا لإرادته ، فليقل ما يريد أن يقول . .

ــ . . . واذا كانت العلوم التي أخذها من الكتب ، وإذا كانت المعارف العميقة التي أطلعته عليها الكتب ، قد فتحت له الطريق الينا نحن المساكين الذين لا نساوي شيئاً ، اذا كانت تلك العلوم وتلك المعارف قد قالت له إننا خير من بعر البقر ، فلا شك أننا نستطيع ان نثق به وأن نطمئن إليه . ولكن هذا السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن . فيجب علينا أن نشرح له ، يجب عليه ان يعلم أن . . .

وشعر الفلاحون بالقلق .

وتابع با دعدوش يعبر عن فكرته في عناد قائلاً :

ــ يجب على هذا السيد الحاضر هنا أن يعلم مع أنه ما من شيء جديد قد حصل الى الآن في هذا العالم يمكننا نحن الفلاحين ان نتحسر على جهلنا به رغم أننا لا نساوي شيئاً .

فما أن قال با دعدوش هذا الكلام حتى انطلقت الضحكات من كل جهة . أما هو ، با دعدوش ، فقد ظلّ محافظاً على وقاره . الحق ان قلبه ما كان يشتهي أن يضحك . وكان وجهه المشدود يعبر عن حزن قاتل .

ــ ولكن السيد الحاضر هنا رجل عظيم من أهل المدن . .

وصعق الفلاحون ، وأصبحت وجوههم الآن حزينة مظلمة . كيف السبيل الى وقف با دعدوش .

ــ . . . هلا شرح لنا كيف يقبل سكان المدينة الاتفاق مع الفلاحين ؟

طرح با دعدوش هذا السؤال ثم صاح : آ . . وملأ الضحك عندئذ كل تجاعيد وجهه . وتابع يقول :

ــ انهم يقترحون علينا ان نتحد ، وان نؤلف حركة واحدة من أجل ان نهزّ عن أجسامنا الحشرات التي تأكلها . وأنا أقول انه من الممكن ان يبرأ العالم من الداء الذي به . والجديد يطرد القديم ما في ذلك شك . ولكن كيف يمكن ان يتفق سكان المدن مع الفلاحين ؟ لعل السيد الحاضر هنا يستطيع أن يشرح لنا هذا الأمر . .

قال حميد سراج :

ــ انما نحن اجتمعنا لنتناقش معا في هذه المسائل . فليس الغرض من هذا الاجتماع ان يلقى واحد منا خطباً طويلة وأن ينصت له الآخرون . يجب ان يشارك كل واحد في المناقشة وأن يبدي رأيه . .

صاح با دعدوش :

ــ هذه فكرة عظيمة . ولكن هل في وسع الجميع ان يعبروا عن رأي ؟ إذا كنت تقصد الشيوخ ، فنعم ، ذلك ان للشيوخ حكمة وتجربة . أما الآخرون ، الآخرون ، فهل هم كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك وقطب حاجبيه تحدياً وهو يطوف بنظراته على الحضور . .
قال بعضهم :
ــ فلنبدأ المناقشة . لقد تأخرنا كثيراً .
فقال با دعدوش ، مصرّاً على تجاهل ما قيل :
ــ هأنذا أبدي إذن رأيي . إذا أمكن ان يتحد الفلاحون وسكان المدن ، أمكن الانتقال الى عالم أسهل . ولكن ذلك لا سبيل الى تحقيقه . إننا نعرف ماذا ينتظر منا (صاح يقول ذلك في حدة) اننا نحن الذين سنحيي هذه الأرض ، نحن الذين سنبعثها . ان هاتفاً خفياً يقول لي اننا مدعوون الى تحقيق هذا الهدف . .
وصمت با دعدوش فجأة ، وغرق في تفكير عميق .
قال سليمان مسكين بصوت رقيق :
ــ هل لي أن أطرح سؤالاً ؟
كان سليمان قد التزم حتى تلك اللحظة موقفاً مليئاً بالتحفظ .
ــ سأكون سعيداً ، سأكون سعيداً جداً إذا عرفت هل نحن في اجتماع ؟ أو أن الأمر لا يعدو أن يكون لقاء بين فلاحين جاءوا الى هذا المكان ليتحدثوا فيما هب ودب من أمور . أرجو ان تلاحظوا أنني أطرح سؤالاً لا أكثر . ولست بالمتنطع الذي يومىء الى شيء أو يعرض بأحد .

جاء هذا الكلام وسط الصمت الذي أعقب كلام با دعدوش ، فكان بما فيه من براعة ومكر أشبه بماء بارد انصب على أجسام هؤلاء الفلاحين . أراد كل واحد منهم أن يرى ما عسى أن يقوله جاره أو يفعله ، وتجمع الانتباه كله حول سليمان مسكين . فالتفت سليمان الى حميد سراج ، فقال حميد سراج :

ــ اقترح افتتاح جلسة الاجتماع .
فصاح عزوز علي :
ــ بل ينبغي ان نعدها مفتتحة .
فقال عدد من الحضور :
ــ نعم ، نعم . .
وقال المزارع موافقاً :
ــ ان ذلك يجنبنا كثيراً من الكلام الذي لا طائل تحته ، وإنما ينبغي أن تجري الأمور ببساطة وفي غير تعقيد .
قال حميد سراج :
ــ في هذه الحالة يجب أن يكون للجلسة رئيس يديرها ، فيعطي الدور في الكلام لمن يرى منا أن في ذهنه شيئاً يريد أن يعرب عنه .
فقال أحدهم :

ـ رئيس ؟ ما شأن الرئيس في اجتماع فلاحين ؟
ـ لم نفهم . . نعم ، ما هو الرئيس ؟
ـ ما هو الرئيس ؟ ألم يقل لك منذ لحظة ، أيها الجاهل ، ان الرئيس هو الذي يعطي الدور في الكلام لمن يريد أن يتكلم أثناء الاجتماع ؟
فاعترض با دعدوش قائلاً :
ـ غير أنني لا أحتاج الى رئيس من أجل أن أتولى الكلام . انني أتولاه وحدي .
فقال علي بن رباح :
ـ قيل لك ان الغرض من ذلك هو تجنب الفوضى . وستسري هذه القاعدة على الحضور جميعاً ، لا يستثنى منها أحد ولا تستثنى منها أنت .
فقال أحد الفلاحين معلقاً :
ـ كذلك نحن معشر الفلاحين . نرغب صادقين في تحسين أحوالنا بل وفي تبديل العالم ، ثم نعجز عن عقد اجتماع من الاجتماعات في هدوء .
ـ اشرح لنا . . لماذا . .
فأجاب حميد سراج :
ـ سأقول لك . .
فانطلقت أصوات تطلب الصمت :
ـ صه . . صه . .
ـ لقد اجتمعنا هنا لنتناقش في أمور تهمّنا . ومعنى ذلك أن كثيرين منّا سيريدون أن يتكلموا ، فإذا تكلمنا جميعاً في آن واحد عجز من في الشرق عن سماع كلام من في الغرب ، واستولى الاضطراب والاختلاط على أقوالنا رغم ما تحمله من حسن النية . لذلك لا بدّ من رئيس يرأس الجلسة اذا كانت الأمور التي نريد أن نتناقش فيها تهمنا ، فهذا الرئيس هو الذي يسمح بالكلام لمن يطلب الكلام ، وهو الذي يسهر على ألّا يشوش اجتماعنا مشوش .
ـ كلامك صحيح أيها الأخ . .
ـ الله يرحم أجدادك .
ـ رئيس ، رئيس ، من يكون الرئيس ؟
ـ بن أيوب . .
ـ سيد علي .
ـ لا ، با دعدوش .
وضحك الجميع .
سيد علي ، سيد علي .
وردد عدة أشخاص يقولون :

ـ سيد علي ، سيد علي . .

فسأل حميد سراج :

ـ هل يوافق الجميع على أن يكون سيد علي رئيس الجلسة ؟ وهل سيد علي موافق على ذلك أيضاً ؟ إذن انتهينا . سيد علي هو رئيس الجلسة .

قال علي بن رباح :

ـ سيكون أمراً مؤسفاً حقاً ألّا نستطيع تسيير الأمور الآن كما ينبغي أن تسير . . ها . . عفواً . . أنا لم أطلب الكلام . . هل يسمح لي الرئيس بالكلام ؟ أقول : سيكون أمراً مؤسفاً حقاً ألا نستطيع الوصول الى جوهر الموضوع من جانب أو من آخر .

قال سليمان :

ـ ليس هناك إلّا أن نعرف فوراً الذي يجب علينا أن نقوم به من عمل ؟ .

فقال علي بن رباح :

ـ أبداً . . وإنما يجب أولاً وقبل كل شيء أن نتفق . يجب أن يفكر كل واحد منا بكل حرية ، وأن يعرب عن رأيه . ولن ننتهي إلى تقرير ما يجب علينا أن نقوم به من عمل إلّا بعد ذلك . وإلّا لم تجر الأمور على ما نحب .

قال با دعدوش مستاء :

ـ ما هذا الكلام أيها الشبان ؟ حقاً أن الشبان شبان في كل زمان ومكان . طبعاً أنا موافق . موافق وموافق . وإلّا لم تروني في هذا المكان .

قال المزارع الذي لم يكن قد فتح فمه بكلمة منذ مدة :

ـ كذلك نحن معشر القرويين ، كذلك نحن من زمان طويل : إذا طلب إلينا أن نقوم بعمل من الأعمال ، أخذنا نتناقش ، ونتحرى جميع الأسباب والحجج التي تعفينا من العمل . نكتشف العقبات والحواجز في كل مكان ، ونبحث عن الاعتراضات على كل شيء ، ونلتمس جميع الأدلّة التي تبرهن لنا على انه ما من سبيل الى فعل أي شيء من الأشياء ، وأنه ما من وسيلة الى التحرر من حالة السكون، سكون الصخر، التي صرنا إليها. حتى لكأن لسان حالنا يقول: فليبق كل شيء على ما هو عليه أبد الدهر. فإذا رأينا أمراً معوجاً ، إذا رأينا أمراً لا يسير على ما نحب ونرضى ، قلنا هي مشيئة الله ، ولا مراد لمشيئته . حتى اذا فرغنا من مثل هذه الأقوال الجميلة ، رضينا عن أنفسنا وخلدنا الى الراحة ! كذلك نحن معشر القرويين . . قولوا لي من فضلكم : ما هو العمل الذي نكون قد قمنا به حتى نخلد بعده الى الراحة ؟ اننا نحسّ أننا حققنا ما علينا ، وان الواجبات قد سقطت عنا . والحق أننا لا نبالي شيئاً ولا نكترث بشيء ، ولا نبالي حتى بحياتنا ، رغم انه قيل: اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا .

قال المزارع هذا الكلام وهو ينظر الى الفلاحين واحداً بعد واحد ، وفي عينيه نوع من رجاء صامت أو ضراعة خرساء ، فإذا بجميع هؤلاء الرجال يصبحون على حين فجأة مهمومين مغمومين . والتفت المزارع الى حميد سراج وأردف يتابع كلامه :

ـ أرجو ألاّ يجعلك هذا الكلام تسيء الظن بنا ، فتخاف أو تتثبط عزيمتك . وأرجو ألاّ تستاء .

ثم أضاف يخاطب الفلاحين :

ـ اننا في حقيقة الأمر متفقون . متفقون خاصة على ان نعمل ، ولكننا درجنا على ان نتكلم كثيراً قبل ان نعمل أي شيء . نحن أناس نحب الكلام . أرجو خاصة ألاّ تستاءوا مما أقول .

وكان يبدو على با دعدوش العجوز انه حانق تقريباً ، ولكن عينيه الصافيتين ظلتا فرحتين .

وختم المزارع كلامه بقوله :

ـ نحن أناس حزانى ، والحق يقال .

ـ فقال له با دعدوش وهو ينظر اليه بعينيه الجذلتين اليائستين معاً :

ـ حزانى ؟

فأجاب المزارع يردد في هدوء وحلم :

ـ حزانى جداً . . . إننا مستعدون دائماً لأن نرى كل شيء من جانبه المظلم السيء . . .

فتلقى العجوز هذه الكلمات بوجهه دون أن يجيب عنها بشيء . وأردف القول وعلي الكبير يتابع كلامه بقوله :

ـ نحن ما ننفك ننتظر شيئاً جديداً ، ثم ما ننفك نيأس من الحصول عليه . .

قال با دعدوش مرتبكاً ، وقد أخذ ينظر في يديه على حين فجأة :

ـ هذا صحيح .

فأضاف المزارع يقول دون ان يحول بصره عن العجوز :

ـ قد يكون صحيحاً ، ولكن ما معناه ؟

فقال با دعدوش دون أن يرفع رأسه :

ـ ها . . . نعم . .

ـ وهذه هي النقطة الهامة ، هل فهمت ؟

قال القولو علي الكبير هذا الكلام ، وهو يطوف ببصره على الفلاحين :

ـ النقطة الهامة هي ان هناك شيئاً يؤلمنا . هذا ما أعتقده . قد لا أستطيع أن أشرحه ولكنني أعتقده . ما الذي نفعله حين نذعن ونعد كل شيء ضائعاً ؟ نفعل الشيء الذي نكرهه أشد الكره . . يخيل إليّ ان هذا هو الأمر . وذلك بعينه هو ما يجعلنا حزانى جداً . . إلاّ أنه لأمر واضح مفهوم . . ولكن من قال ان كل شيء قد ضاع ؟

ونظر حميد سراج الى المزارع الذي صمت .

وراح المزارع يتأمل الحقول الحزينة التي تختنق بين الصخور . هذا شبح الجزائر . . هذا هو الواقع ، واقعه . أما الأراضي الغنية الثقيلة المتعبة بالزراعة فانها تبدو لعينيه حلمًا من الأحلام . وفي هذه اللحظة أصبحت نظرته رقيقة ، حانية ، فارغة ، تائهة . . وأكاد أقول مؤثرة .

وتابع المزارع :

ـ اننا نراقب أنفسنا ، فنقول : كذلك هو شعبنا . أليس صحيحاً ؟ أليس هذا ما نقوله ؟

قال المزارع ذلك وضحك على مضض ، وأيد الآخرون كلامه وهم ينتظرون تتمته :

ـ يخطر ببالي واحد من الناس ليس إلّا مزارعاً هو قره ، فأقول لنفسي أحياناً : ألا أننا لشعب حزين ، فلولا أننا شعب حزين أكنا نقول : كذلك هو شعبنا ، مشيرين الى رجل واحد هو قره ؟ أكنا نقول ذلك ؟ والآخرون الذين ليسوا مثل قره ، أهم جميعاً أصفار ؟

ثم قال القولو غلي الكبير بقوة :

ـ ما أظن ان في الدنيا مكانا يحتقر فيه هذا الجنس من الناس كما يحتقر عندنا . . صحيح ان عددهم كبير . . .

شعر جميع الفلاحين بغضب وحزن ، وشعروا بقلق .

وأضاف القولو غلي الكبير يقول :

ـ فإذا كان هؤلاء محتقرين ، إذا كانوا يحتقرون في هذا البلد أكثر مما يحتقرون في أي بلد آخر . . . إذا كنا ننغص عليهم حياتهم ، فلماذا نقول أننا شعب حزين ؟

لا شك ان المزارع قد قال هذه الكلمات في سبيل مصلحتهم جميعاً ، ولكنها أيقظت في قلوبهم حزناً كبيراً وغضباً كبيراً . فكانوا ينظرون اليه مهتاجين .

ثم راح المزارع يتحدث عن نفسه . قال انه ولد في تلمسان ، حيث ولد أبوه ، وولد جده ، وولد أبو جده ، وان ماضي أسرته في تلمسان قديم قدم تلمسان نفسها ، وان هذه السلالة الطويلة من كبار القولو غلي ، قد زرعت الأرض السخية في السهول ، وان أملاكها تحت الشمس كانت تعد في الماضي بالفدادين . ثم ها هو ذا ينتهي به الأمر ، هو القولو غلي الكبير ، الى ألّا يملك إلّا هذا الجزء الصغير من الأرض في الجبل . نعم ، قطعة صغيرة من الأرض ، وفي بني بوبلان الأعلى . انه مزارع ، مع انه ولد بمدينة تلمسان ، مع انه من تلمسان . طيب . وعلى كل حال فهو يقيم الآن في بني بوبلان بين جبل عطار وطريق سبدو ويملك أرضاً ليس لها شأن يذكر ، ولا تكاد تكون شيئاً . وهو أب لثلاثة أولاد كبار . وحين يطوف في أرضه يشعر رغم كل شيء بالزهو . فهو يقول لنفسه عندئذٍ ، من فرط شعوره بالزهو ، انه ملك . وهو يسمي أولاده تارة باقات الزهر ، وتارة أسود الفلاة . غير أنه لا يحسّ ان هذا كل شيء ، ولا يبدو له انه يكفي المرء ان يحسب نفسه ملكاً وان يكون له ثلاثة أولاد هم أشبه بباقات الزهر أو بالأسود . انه يحسّ أيضاً بأنه غير راض عن حاله ، ويحس بالكثير من خيبة الأمل . انه يحس ، نعم هذا هو احساسه ، بأنه مختلف عن مزارعي بني بوبلان الأعلى ، ويود لو يرتاح ضميره بأي ثمن .

ـ يخيل إليّ أن ضميري لن يهدأ أبداً .
قال ذلك وصمت دون ان يتم كلامه .
ثم قال :
ـ وقد اشتد هذا في نفسي منذ رأيت سلوك قره . يخيل إليّ أن راحة ضميري ما انفكت تقل منذ ذلك اليوم .
قال با دعدوش :
ـ صحيح كلامك أيها السيد .
فنظر اليه القولو غلي الكبير من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، ومن أطراف يديه الضخمتين الى شعر حاجبيه الكبيرين .
وعاد الفلاح العجوز يقول له :
ـ اعتقد أنك على حق فيما تقول .
فقال القولو غلي الكبير عندئذ انه يود ان تهب على الناس روح جديدة فتحملهم على القيام بأعمال تبعث على الدهشة ، بأعمال جديدة أيضاً ، بأعمال ليست من تلك الأعمال المألوفة ، بل هي أحدث جدة وأخطر شأناً . وانه يتمنى في هذا اليوم ، لنفسه وللآخرين ، روحاً وثّابة وأهدافاً عليا . اذا كان الناس حزانى فلأنهم تعوزهم روح جديدة وأعمال كبيرة . ان العالم لا يطلب إلاّ تحقيق أعمال كبرى . فلا عجب اذن ان يحسّ ، هو القولو غلي الكبير ، بأنه وحيد مع حزنه : ذلك لأنه لا يحقق أي عمل من تلك الأعمال التي تبدل العالم . الأعمال الكبيرة والنفس الجديدة . هذا ما يتمناه .
بهذا ختم الرجل كلامه .
ثم ما لبث أن أردف يقول :
ـ ان العالم يتحمل مظالم كثيرة . آه ما أكثر ما يتحمل هذا العالم من أذى أيها الأخوة . انني أتألم أيها الاخوة ، انني أتألم أيها الاخوة .
فقال سليمان مسكين :
ـ أنت تأخذ على الناس اذن أنهم لا يعرفون كيف يعيشون .
ـ فأجابه القولو غلي الكبير :
ـ هو ما تقول .
ـ ولكن قبل أن يعرف اخوانك كيف يعيشون ، يجب أن يتمكنوا من أن يعيشوا . ما رأيك ؟
ـ صحيح ، صحيح .
ـ فهل نحن نعيش ؟ نحن والآخرون . . من نعرفهم ومن لا نعرفهم وهم السواد الأعظم ؟هل نحن نملك حرية الحياة ؟

ـ لا نملكها .

ـ نحن لا نملك اذن حرية العيش كما نريد .

ـ اسمح لي : لو امتد عمري مائة سنة فسأظل أقول ما قلت .

ـ حسن أن تقوله . قل ما تشاء أن تقول . ولكنني واثق أننا لا نستطيع أن نلوم أحداً على انه يعيش كما نعيش ، إلاّ إذا كان حراً .

ـ أنا من جهتي مستقل بشخصي . أنا حر حين أريد .

ـ قد تظن انك حر بشخصك . ولكن شعبك ليس حراً ، وأنت إذن غير حر أيضاً . ذلك انه لا وجود لك الا في شعبك . هل في وسع ذراعي هذه ان تعيش بغير جسمي ؟ أبداً . ومع ذلك قد نتوهم حين نرى حركتها انها مستقلة ، أو قد نتوهم ان هذه اليد مستقلة عن الذراع ، أو قد نتوهم ان هذه الأصابع التي تقبض على ما تريد القبض عليه ، قد نتوهم انها مستقلة . كذلك شأنك أنت بين اخوانك .

ـ على كل حال سوف يسعدني كثيراً ، سوف يسعدني كثيراً جداً ان أرى جميع الناس كالباقات . ولكنني أرى بانتظار ذلك أننا نهين الحياة .

فقال عيساني عيسى :

ـ انما اجتمعنا اليوم هنا من أجل ان نخلص العالم من الإهانة .

كان ذلك أول اجتماع . وكان حميد سراج يفهم ان عليه أن يصغي الى كلام هؤلاء الرجال . ليس بالضائع هذا الوقت الذي ينفق في هذا الكلام ! أليس لهذا الحديث صلة كبيرة بموضوع الاجتماع ؟ طبعاً . وان حميد سراج ليتعلم من هذه الأحاديث أشياء كثيرة . كان يدرك ان الفلاحين يتكلمون بصراحة ، دون تحرج ولا خوف ، وانهم يعبرون عن طريقتهم الحق في النظر الى الأشياء . وهذا هو الأمر الأساسي .

ولكن بينما كان الحضور يتساءلون عن هذه المناقشة بين الرجلين هل تطول ، اذا بين سالم عاده يرفع صوته قائلاً :

ـ لماذا لا تتكلمون عن المستوطنين الفرنسيين ؟ كل ما تقولونه سليم حكيم . ولكن ما فائدة هذا كله ؟ انكم لم تقولوا حرفا واحداً عن هؤلاء الذين نشقى بسببهم . انهم هم مصدر بلائنا كله . فإذا تحدثتم عن الشقاء الذي نعانيه دون ان تقولوا شيئاً عن المسؤولين عنه فأنتم تتعبون ألسنتكم سدى . نحن أناس حزانى ، هذا كلام صحيح ، وأنا أقوله لنفسي ، وأقلبه في رأسي . وذلك لأننا نفكر في شقائنا ولا نفكر في مصدره ، وإنما ينبغي لنا ان نتحدث عن أولئك الذين هم أصل البلاء . معذرة أيها الاخوة جميعاً . اذا قلت ما قلت فلأن هذا هو ما يجب في رأيي ان يقال .

ـ لماذا لا تتكلمون عن المستوطنين الفرنسيين ؟ كل ما تقولونه سليم حكيم . ولكن ما فائدة هذا كله ؟ انكم لم تقولوا حرفا واحدا عن هؤلاء الذين نشقى بسببهم . انهم هم مصدر

بلائنا كله . فاذا تحدثتم عن الشقاء الذي نعانيه دون ان تقولوا شيئاً عن المسئولين عنه فأنتم تتعبون ألسنتكم سدى . نحن أناس حزانى ، هذا كلام صحيح ، وأنا أقوله لنفسي ، وأقلبه في رأسي . وذلك لاننا نفكر في شقائنا ولا نفكر في مصدره ، وانما ينبغي لنا أن نتحدث عن أولئك الذين هم أصل البلاء . معذرة أيها الاخوة جميعا . . اذا قلت ما قلت فلأن هذا هو ما يجب في رأيي ان يقال .

لفظ بن سالم عاده هذه الكلمات بلهجة مفاجئة عنيفة . وكان وجهه الناتئة عظامه يعبر عن كل شقاء الجزائري الذي سلب رزقه ، ولكن أحدا من الرجال لم يرفع صوته بكلمة .

ان بن سالم عاده فلاح في دمه حرارة . يجب ألا يؤاخذ كثيرا . انه لا يحقد على أحد .

ولكن ها هوذا السؤال قد طرح . أمر غريب : لكأن احدا ما كان يتوقع ذلك .

دهش الرجال جميعا . وليس فيهم الان ما كان فيهم منذ قليل من هياج . لا . وانما أصبحوا على حين فجأة أكثر وجوماً وتفكيراً .

استرد حميد سراج ثقته وطمأنينته . لقد طرحت المشكلة حيث ينبغي أن تطرح . وأراد سراج أن يجيب بن سالم عاده أول المجيبين ، ولكن سيد علي كان قد شرع في الكلام :

يقيني انه ما من بلد من بلاد الدنيا أحيط فيه أناس بالمودة والعاطفة مثلما أحيط بها الفرنسيون في بلادنا . فكيف رد الفرنسيون على هذه الصداقة التي كانت ـ وأقسم على ذلك بهذه الارض التي تضمنا الآن ـ صادقة مخلصة ؟ كيف رد الفرنسيون على هذه الصداقة ؟ ردوا عليها بالاستخفاف بنا ، والازدراء لنا . لم يشاءوا أن يعاملونا معاملة الند للند ، بل عاملونا في احتقار . نحن أناس نقيم وزنا للصداقة التي نمحضها خالصة ، لذلك لم نساوم ، بل أعطينا أنفسنا في غير تحفظ . ولمن أعطينا انفسنا ؟ لأناس برهنت الايام على انهم ليسوا أهلا للصداقة ، فهم يدوسونها بالاقدام . لقد نصبوا أنفسهم آلهة وأرباباً وأرادوا ان نتجه اليهم بالعبادة . رحم الله اجدادك يا بن سالم ، فقد أتحت لي فرصة الافصاح عما بنفسي .

ليس سيد علي إلّا فلاحاً ، ولكن تلك هي الكلمات التي قالها : أناس يدوسون الصداقة بالأقدام .

كان سيد علي رجلاً يحترمه أهل المنطقة ويقدرونه . كان ، كعدد آخر من الفلاحين ، يفصل في شؤون الناس ، يصلح بين زوج وزوجة يسوي ما يقوم بينهم من خلاف. وأكثر الأمور التي كان يتولى الفصل فيها أمور تتصل بالشرف . وكانت آراؤه ناضجة واعية ، فكان الناس يأخذون بها عامة . ويحمدون الله على أنه رزقهم رجالاً مثله يرشدونهم الى جادة الصواب .

وطلب سيد علي الكلام مرة أخرى ، وقال :

ــ كان من حقنا نحن أن نقبل صداقتهم أو أن نرفضها . فإذا هم يقلبون الآية . لماذا ؟

لأننا محضناهم صداقتنا في غير تحفظ . والحق انهم يظلون هم المدينين ، ونظل نحن الـدائنين . ان لنا في أعناقهم ديناً . فكيف ترونهم يردون الدين ؟ إنهم في خير الأحوال يتصدقون علينا تصدقاً ، وذلك أقسى على النفس من الاحتقار . ورب قائل يقول : دعك من هذا الكلام ، أفليس بينهم أناس شرفاء صادقون ؟ فأجيب : بل ان بينهم أناساً كذلك . ولكن هؤلاء لا يبالون شيئاً ، والنتيجة هي انهم يطلقون أيدي الآخرين تفعل ما تشاء ، يطلقون أيدي هؤلاء الناس الذين لم تحمل الأرض من هم أشد شراهة منهم ولا أضعف ضميراً . وهم بذلك شركاء لهؤلاء الناس ، يتحملون مثل الذي يتحملون من تبعات كبار ، سواء بسواء . أفليس طبيعياً والحالة هذه أن نهب الآن فندافع عن أنفسنا ؟ حتى أولئك الذين يقارفون أعمالاً هي من أعمال قطاع الطرق قد استطاعوا ، وليسوا بالأغنياء ، أن يلقوا على ظهر فرنسا هذه الأعمال التي يقارفونها ، ولكنهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك لولا ان الجميع لا يبالون . هذه الآثام الحقيرة التي ترتكب على أرضنا أليست ترتكب باسم فرنسا ؟ ألا يتم سلب الناس أرزاقهم باسم فرنسا ؟ ألا يـودع الابـرياء في السجـون باسم فـرنسا ؟ ألا يجـوع الناس بـاسم فـرنسـا ؟ ألا تـرتكب جرائم القتل باسم فرنسا ؟ لقد اقترن اسم فرنسا بأعمال حقيرة . ولن يستطيع أحد بعد الآن ان ينتزع من رؤوسنا ان هذه الجرائم يجب ان تعزى الى فرنسا في آخر تحليل . ماذا يهمنا نحن ان تكون فرنسا عظيمة مجيدة أو ألّا تكون كذلك . نحن نتساءل : وهي راضية عن هذا أم غير راضية ؟ فان كان هناك أناس غير راضين فليرفعوا صوتهم . اننا نحب أن نسمعهم قليلاً .

قال الفلاح هذه الكلمات الأخيرة بصوت قاس وهو يتجه بها الى خارج الحلقة . ثم أردف يقول في رصانة :

لم يستطع الاضطهاد في يوم من الأيام ان ينتصر على الشعوب .

فقال حميد سراج :

ــ أن اتحاد الشعوب سيمزق هذا الاضطهاد في جميع البلاد .

ــ أصبح شعبنا منذ مدة طويلة لا ينتظر شيئاً من فرنسا وما يريده الآن إنما يطالب به نفسه ، يطالب به ذاته .

قال حميد سراج مقاطعا :

ــ طبعاً . ولكنني أعتقد أنك تنسى شيئاً . ان عندهم ، هم أيضاً ، رجالاً كثيرين مثلنا ، في بلادهم نفسها. هل تعرف ماذا يقولون ؟ إنهم ضد سلطاتهم .

فقال سيد علي دهشاً :

ــ ماذا . . ماذا تقول ؟ لا ، انني لا أصدق هذا الكلام .

ــ الأمر بسيط : ان عدداً كبيراً من الناس في بلادهم يعملون بأجر زهيد لا يذكر ، فهم جياع ، وهم يلاحقون ويعتقلون . . في فرنسا .

قال علي بن رباح بصوت عال :

ـ هل هم سكان أصليون ؟

ـ إن شئت . وهم مثلنا تقريباً . لقد عملت أنا هناك ، ورأيت بعيني . هناك بين الفرنسيين أناس فقراء . . صدقني .

فلم يسع سيد علي إلاّ أن يقول :

ـ كلامك هذا يدهشنا ويحيرنا يا حميد .

وغرس الفلاحون نظراتهم في عيني حميد سراج ، وانتظروا .

ـ هذا هو الواقع . . أقسم لكم بحق هذه النعمة .

قال حميد سراج ذلك وهو يرفع ابهام يده في الهواء مشيراً الى الحقول المتدرجة على الروابي . ثم أضاف :

ـ أقسم لكم بحق هذه النعمة القريبة منا . . اقسم لكم .

وأطرق الفلاحون يفكرون . ان هؤلاء الفلاحين رجال لا يسبر لهم قرار . انهم ليسوا من صخر بارد . انظر الى كل ما يحيط بهم : الحقول المبعثرة ، الشمس والأمطار ، البذور التي في التراب ، الماء الذي يسقي الأرض ، السحب التي تتحرك في السماء ، الأشجار التي تتلقى هبوب الريح .

قال سيد علي :

ـ أعد ما قلته . أولئك السكان الأصليون في تلك البلاد ، ماذا يقولون ؟

ـ ما ذكرته لكم منذ لحظة : انهم ناقمون على سلطاتهم ، يريدون التخلص منها . إنها توقع فيهم مظالم كثيرة .

قال ابن أيوب :

ـ السلطات التي تحكم هنا وهناك واحدة ؟

ـ نعم ، هي سلطات واحدة تظلم هنا وهناك في آن واحد . فصاح با دعدوش يقول :

ـ إذن ففي جميع البلاد سكان أصليون أرقاء . . انني لا أستطيع أن أصدق هذا الكلام . هل كل بلد من البلاد له سكانه المملوكون كالعبيد الأرقاء ؟

فقال حميد سراج مؤكداً :

ـ ان التضامن مع الذين يعملون ويتألمون ويناضلون واجب . ثم ان هذا التضامن قائم فعلا .

وفي هذه اللحظة بدا على سيد علي ان فكرة مفاجئة قد أشرقت في ذهنه ، فصاح يقول بلهجة مظفرة :

ـ ولكن السلطات التي تحكم هناك هي سلطاتهم هم ، أما هنا . . فالذين يحكمون أجانب .

فقال حميد سراج :

ـــ صحيح . ولكنهم يقولون عن سلطاتهم هناك أنها أشبه بالأجانب .

ـــ غريب .

قال سليمان مسكين :

ـــ . . . لا مانع أبداً أن يقوم اتفاق بيننا وبين السكان الأصليين هنالك . . ما دام رأيهم ورأينا في السلطة واحداً .

واضطرب الهواء في أصيل ذلك اليوم . واهتزت أوراق شجرة التوت اهتزازاً قوياً كأنها أيد مفتوحة تستقبل الريح . وكان بن أيوب ما ينفك ينظر الى حميد سراج أثناء الأحاديث . انه لم يفهم نوع هذا الانسان كل الفهم . غير ان شيئاً من مودة رصينة خفية قامت في نفسه إزاءه . ثم جاءت لحظة انفضاض الاجتماع ، ونهض الرجال .

تلك أول مرة يتناقش فيها الفلاحون على هذا النحو . ان عاطفة ممتعة قد نشأت في نفوسهم . هم يشعرون الآن بالدهشة . ويحسون انهم غسلوا وتطهروا ، وأصبحوا خفافاً . كانوا حتى ذلك الحين لا يلتقون إلاّ للكلام في واجبات صغيرة ، وأعمال قديمة ، وعادات عتيقة . لقد قال بن أيوب : نحن في حاجة الى روح جديدة . إلاّ انها روح جديدة هذه التي يحسون تدفقها فيهم الآن . وهذا دعاء اعتراف بالجميل يقوم في قلوبهم . انهم يحملون جميعاً مشاعر الشكران لحميد سراج .

قال الرجل العجوز الذي ابتعد بعد انفضاض الاجتماع في صحبة بن أيوب يسأل رفيقه :

ـــ هل أنت طالب علم ؟

فهتف القولو غلي الكبير :

ـــ أنا ؟ طالب ؟

ـــ لاحظ أن من الممكن ان يكون المرء طالبا ومزارعاً في آن واحد . أليس كذلك ؟

قال با دعدوش ذلك معترضاً بغية اقناع صاحبه .

فإذا هو يسمع القولو غلي الكبير الذي يسير بجانبه يضحك : ان ضحكته أشبه بصوت احتراق القش .

وكانت عيناه النافذتان تلتمعان فرحاً .

قال له با دعدوش وهو يلتفت اليه :

ـــ لا داعي الى الضحك .

وعاد القولو غلي الكبير يتحدث عن نفسه من جديد ، فقال مرة أخرى انه ولد بمدينة تلمسان كآبائه وأجداده ، وتحدث عن أرضه في بني بوبلان الأعلى ، وعن أبنائه الثلاثة الذين يسر جمالهم الأبصار ، والذين هم باقات زهر وأسود في آن واحد ، وتحدث عن نفسه . كان في هذه المرة يضحك ضحكاً عالياً وهو يعيد هذا الحديث . وردّد القول ، وهو يقهقه ، بأن ذلك كله لا يعني انه لا يشعر بالعظمة والزهو حين يطوف في أرضه ، رغم ان ضميره غير مرتاح وأضاف الى

ذلك وهو لا يزال يضحك انه لا بدّ من وعي جديد .

قال القولو غلي الكبير ، وهو فيها يشبه التفكير :

ــ نعم ، أعتقد ذلك .

ثم تحدث بعدئذ عن العالم بوجه عام .

ــ أصبحنا ونحن نقوم بواجباتنا لا نشعر بلذة وارتياح . واني لأعتقد صادقاً أن حياتنا فقدت معناها . أننا لا نعرف إلّا الواجبات القديمة .

ــ أحقاً أنك لست طالب علم ؟

كان با دعدوش يريد أن يعرف هذا الأمر .

وكمن يتوقع جواباً ينكأ له جرحه ، صمت ولم يقل بعد ذلك شيئاً ، وظلّ صابراً حزيناً كبهيمة عجوز . ونظر في الوقت نفسه الى يديه الضخمتين . غير أنه أضاف يقول بنوع من التوسل لشدة رغبته في سماع الجواب :

ــ إذا كنت طالباً حقاً ، فلا شيء يمنعك من أن تقول ذلك .

فأجابه بن أيوب :

ــ هل سيمائي طالب علم ؟ لست بالجاهل طبعاً ، فأنا أستطيع ان أقرأ مكتوباً . ولكنني لست طالباً . لقد تعلمت في الكتاب حين كنت صبياً غير أني لست طالباً . . حقاً لست بطالب .

ــ ١١ ــ

سطوع شهر آب ينصب في جميع الجهات جدراناً مخلعة تبهر الأعين ، فالحياة كلها هنا مسجونة بين هذه الحيطان . جناح الحرارة الثقيل يخفق وضياء الظهر المتلألىء يهزّ هذا العناء الأحمر الى غير نهاية أمام الأبصار .

إن عمر ينتظر منذ خمس دقائق طوال. لم يكن في ذهنه إلّا فكرة واحدة، رسخت فيه واستقرت. لم يعد يتحرك. ان في وجهه حرونا غامضا. وفي قسماته المنتفخة، كقسمات الطفل ، ما يشبه النوم . ان لطخات من الشمس تخترق ، في المكان الذي هو فيه ، أغصان أشجار التين المورقة التي تتكاثف وسط الحقل ، وتشكل قبة فوق النبع .

والأرض المتوهجة تلهث من حوله في كل صوب . وتلك الحقول تنتهي هناك ، عند الأفق ، على جبال شاحبة .

كانت فكرة عمر تطارده . ثم توقف مجرى تفكيره فجأة ، وأخذ ينتظر في غير مبالاة . لا جدوى من التفكير . على انه لا يعرف مع ذلك ما الذي يوقفه . ماء النبع يغور أمامه في كتلة كبيرة من الانعكاسات ويستحيل فجأة الى زبد مدوخ عندما تحرك نسمات الريح أوراق الأشجار فوقه ،

فإذا بأشجار التين تحك الهواء بحليبها المر وتنشر رائحة حادة .

كان الصبي مثبتاً نظراته على (زهور) الواقفة في وسط النبع ، وقد شمرت ثوبها وراحت تصب على ساقيها الماء براحة يدها . كانت زهور منحنية ، لا تشعر بوجود عمر بين أشجار التين الساكنة ، ولا يبدو عليها انها ترى هذا الماء ، ولا الرمل والحصى والحجارة في قاعه . وكانت ربلتا ساقيها تشتدان كلما ازداد جذعها انحناء ، وكان بدنها يزداد بياضاً بمقدار علوه فوق الساقين نحو الفخذين .

ان عمر يحتذي خفين ملطخين بطين جاف ، وقد ثقب ابهام قدمه وجه الخف ، وبليت النعل فأخذ قنبها يتفكك خيوطاً . ان عمر هذا الفتى لا يتجاوز الحادية عشرة في أكثر تقدير ، غير انه من الواضح أن جسمه الذي لا يتناسب طوله مع سنه كان يربكه . هذا عنقه يخرج من قميصه الممزق ليناً صلباً .

شيء خارق للعادة : ان زهور ، اذا هي ردت بصرها عن الأرض ، لا ترى إلّا صورة مختصرة غليظة لجسمها ، منعكسة على الماء . ساقان غاطستان الى وسطهما ، فكأنهما طرفان ضخمان مفصولان طافيان على الماء، يبدوان أشد بياضا من بياضهما في الواقع . وكانت زهور تضحك ، فما تتأثر من ذلك قسمات وجهها الجامدة أي تأثر . وقدماها تسحقان الرمل . فيلتصق الرمل بجلدها علقات صغيرة . وحاولت زهور ان تعرف في هذا الماء الذي كان كالمرآة : هل تستطيع أن ترى بين ساقيها وفخذيها شيئاً آخر ؛ فانحنت فلم تر وراءها الا صورة اليتيها البارزتين ، أما من الامام ، فثمة وجهها المحتقن قليلا وركبتاها اللتان تتقدمان .

قالت بصوت رصين دون ان تغير وضعها :

ــ عمر .

حاولت ان ترى من تحتها الصبي الذي كان يختبيء وراءها بين الجذوع النحيلة والأغصان الملتفة .

ثم رددت وهي تنشق الهواء في شخير :

ــ عمر . . فيم تنظر ؟ أنت هنا منذ ربع ساعة .

وشخرت مرة أخرى .

ــ هيا أذهب .

ثم انتصبت واقفة ، فتهدل شعرها على وجهها شباكاً متداخلة ، وجمعت أطراف ثوبها كالصرة بين فخذيها والتفتت برأسها الى ناحية الصبي . كان حب الاطلاع ينهش الصبي نهشاً ، وهذه ضحكة كانت ستنطلق مرحة قوية في الدقيقة التالية ، في الثانية التالية ، تخرج من أعماق نظرة الفتاة .

ـ قلت لك اذهب . هيا اذهب . ما وقوفك هنا ؟ اذهب . يا لك من غبي . لكأنك تنام في وسط هذه الأشجار .

وقطب الصبي وجهه . لا ، لا ، في زحمة أوراق الأشجار ، والأغصان المعرشة ، والجذوع الفتية البيضاء ، لم يكن يلوح على وجه الصبي انه نائم ، لا . . غير أن الصبي لم يكن يتحرك .
كان الضوء الساطع يظهر الأشجار المنعكسة على الماء القائم الذي يجدده تلألؤ متحرك ، كان يظهرها غير ذات صلابة ولا سمك .

وكان يبدو على الفتى رغم كل شيء انه يود لو يهرب ، ولكنه ما أن يهم بأن يفعل حتى تسمره نظراته في مكانه . وظل عمر متشبثاً حيث هو . ان ساقيه . وقد أصبحتا كاللباد ، تنفذان في الأرض . وجسمه معلق في الهواء . كان لا يستطيع ان يفر ولو أراد ذلك بكل ما أوتي من قوة . ثم انه لن يجديه نفعا ان يحاول الفرار ، فانه ان حاول ذلك لم تطاوعه ساقاه . كان يتموج تموجاً خفيفاً لا يدرك ، وكانت عيناه تعبران عن قلق كبير .

ثم تحرك عمر حركة بسيطة ، وقد زال بأسه . شدّ إليه باحدى يديه واحداً من تلك الأغصان اللينة ثم خلاه يضرب الأوراق ، وتقدم يسير على رؤوس أصابعه . وما هي إلاّ لحظة حتى ضرب بيديه الهواء الذي وراءه ، وأسرع يركض تحت أشجار التين بخطا خفه الصماء الخفيفة . وهناك اصطدم بزهور التي تركت الماء حين رأت الصبي على هذه الحال . كانت قد أرخت ثوبها ، فهو يتهدل الآن على ساقيها . واصطنعت سيماء الجد دفاعاً عن نفسها . ولكن هذه السيماء لم تلازم وجهها مدة طويلة ، وسرعان ما حل محلها الدهش فالضحك . وقف عمر أمامها مباعدا ساقيه ، وانصب في مكانه وقد عقد عزمه على الصراع .

قالت له زهور مهددة :
ـ ستبقى هادئاً ، هه ؟ وإلاّ فسأنادي بأعلى صوتي .

وما لبثت ان ندمت على ما قالت ، لأن ما قالته حمق وغباء . إن عمر لا يجهل انها إن صاحت فلن يسمعها من البيت أحد . وتنفست زهور تنفساً عميقاً ، وتهيأت لاظهار العنف ، لأنها لاحظت أن الفتى قد أعدّ نفسه لمثل هذا العنف في زهو وصلف .

وفيما كانت الفتاة تقرب يدها على وجه عمر وهي تنوي ان تداعبه ، انحنى الصبي في قوة ونشاط ، وأمسك بثوبها محاولاً ان يرفعه ولو تمزق اربا اربا ، فما لبثت زهور ان تشبثت بأطراف الثوب مستميتة تريد ان تظل مستترة . ومن أجل ان تعزز مقاومتها ، طوت جسمها وثنت ركبتيها حتى لامستا صدرها . وفي هذه اللحظة أخذت أشجار التين تهتز وتتحرك من هبوب الريح عليها . فأصاخ عمر بسمعه ، دون أن يكف عن شد ثوب زهور . ان الفتاة قد كورت نفسها الآن بعنف ، فكلما ازدادت تجمعاً على نفسها ألفت كرة في وسط جسمها . فتركها الصبي . ولم

يكن عليه ، وهي في هذا الوضع ، إلّا أن يدفعها الى الوراء دفعة يسيرة حتى يرميها على الأرض ممددة بطولها كله . وكذلك فعل .

فلما ارتمت على هذا النحو ، هرع إليها وجعل يدغدغها تحت الأبطين وعلى الأضلاع ، فصفعته على خده ، فأخذ يعضها عضاً خفيفاً في كل موضع من جسمها بغير تمييز ، في الذراعين ، والعنق ، الخ . فكانت زهور تضحك وتتوسل وهي مستسلمة . سكن عمر . ترى هل سكونه تمهيداً واستعداداً للغدر بها ؟ نض عمر عن الفتاة ثوبها على قدر ما استطاع ، حتى ظهر له النهدان . وحين رأى بطن زهور العاري طافت في ذهنه على حين فجأة صورة حصان ، حصان فخم ، عجيب ، مشئوم بعض الشؤم ، إلّا انه حيوان يسمح له بجميع الآمال .

لم تحرك الفتاة ساكناً . أسلمت جسمها الناعم للضوء . كان عمر مضطرباً ممزقاً . وبدا جسمها القارس البياض دافئاً وناعمًا من تحت .

وقبل ان تلاحظ زهور شيئاً ، دسّ الفتى تحت قميصه قطعة صغيرة من قماش أبيض ، وجدها على جسمها ، وهي أشبه شيء بحيوان حي أحس عمر بحرارته . وظل عمر راكعاً أمام جسد زهور الممدد ، وقد طاش صوابه وأخذ يلهث قليلاً . انه ينظر اليها منذ عدة دقائق ، مستسلمًا لتلك القوى الملتهبة التي سرت فيه دون ان يستطيع منها فكاكاً . لا حيلة له في ذلك .

وزهور مستلقية على ظهرها لا تتحرك حتى لكأنها نائمة . ساقاها وحدهما منتصبتان ، تجيئان وتذهبان من شمال الى يمين ومن يمين الى شمال ، بحركة ما تنفك تبطؤ شيئاً بعد شيء . والباقة الصوفية السوداء التي تغطي أسفل بطنها تظهر ثم تختفي مرة بعد أخرى . والصبي يكويه ألم أخرس . انه يتأمل بطن زهور العاري .

وفجأة بصق الصبي ثلاث مرات بعزم مخيف : تفو ، تفو ، تفو . ثم نهض ومضى بسرعة وهو يشد بيده الى صدره صرة صغيرة . هرب يعدو على الطريق الضيق المزين بنور الشمس ، هرب وكأنما هو يمشي على حبل مشدود ، وكانت سرعته في الجري ما تنفك تزداد .

قالت زهور بصوت عال :

ــ مجنون . انه يركض ركض من ألم به جنون على حين فجأة ، وسيحسب انه ليس في الأرض كلها مكان واحد يمكن أن يركن إليه .

وضحكت بصمت وطافت بنظراتها على قبة الخضرة التي كانت ترتعش من حولها ، ورأت السماء الزرقاء التي يخالطها بياض . ظلت زهور مستلقية ورأسها على حافة الماء ، وجسمها لا يزال عارياً حتى الثديين ، تحت النور الحاد وأوراق الأشجار المضطربة . وانقضت على هذا لحظات طوال . ان في عينيها الآن نوعاً من الدهشة . انها كالنائمة المفتوحة العينين ، يحملها نهر مضيء لا يقاوم ولا يغلب .

ومدت ذراعها ببطء ، فغطستها في الماء ، ثم أخرجتها وقد امتلأت بوحل مسود ناعم

يتساقط من بين أصابعها قطرات ، ما بقي منه وضعته على جسدها وأخذت تدلكه به في عناية . وتناولت من الماء قبضات اخرى أسالتها على جسمها ، وظلت تدلكه بها في انتباه مركز . وأخيراً نهضت فطيرت ثوبها عن رأسها دفعة واحدة . . انها الآن عارية كل العرى . وها هي ذي تنزل الى الماء . ان الرمل يجذب قدميها وهي ما تنفك تتقدم في النبع . ساقاها ووركاها يصفعهما الماء البارد فجأة . اغتسلت من الوحل وهي تدلك جسمها في رفق مرتعشة . كانت تغرق الماء بباطن يدها فتصبه على كتفيها حتى اذا صار الماء الذي يسيل على جسمها رائقاً كماء النبع ، خرجت وهي تقرع أسنانها من البرد . ثم ألقت ثوبها على جسمها فستره كله . وملأت وعاء الحليب بالماء وقفلت راجعة .

كان عمر لا يزال يركض في الحقول المنبسطة التي تصطفق أمام عينيه اصطفاق الرايات . ان الجسم وظله يركضان معاً . وكرة القماش التي سرقها من زهور قد سقطت منه أثناء هروبه دون ان يراها ، وتدحرجت الى حفرة تدحرج بهيمة لم تروض . ولكنها تركت على جلد الصبي رائحة عفنة أصبحت في حياته سراً . أنظر الى عمر من بعيد : ليس الآن إلاّ جرادة تتواثب في غبار أحمر ذهبي اللون .

ـ ١٢ ـ

طال صيف ١٩٣٩ . هذه أيامه الأخيرة تسير متثاقلة جميلة . لقد انتهى الحصاد منذ مدة طويلة ، وعرى القش ، وأخذ تراب الأرض الأسمر المغطى بالقش يتفلع .

ان الخضر لا تزرع في هذا الوقت الا في أراضي السقي . فإلى أن يحل الفصل الجديد من السنة تحسب الغلال . لم تكن محاصيل هذا الموسم رديئة .

قال قره لجيرانه :

ــ كان محصول القمح والشعير طيباً هذا العام . يجب أن نعترف بذلك .

وكان قره يحسب ويحسب . لقد انتفخ رأسه بالأرقام . انه يحصي بذهنه الأكياس التي استطاع ان يملأها ويصفها في مخزنه . غلة ممتازة . واللبن ؟ ما كان يخطر له ببال انه سيجني منه ما سيجني . . انه لذيذ حقاً ؟ لبنه الكثيف الدسم الذي يكاد يكون زبدة كله . . لم يبع (قره) منه الى الآن شيئاً ، وإنما تركه لاستهلاك البيت .

والكرز والبيغارو . . آ . . ما كان أجمل هذا الموسم ! . لقد كان المحصول رائعاً حقاً . حتى أن أسر المزارعين قد أكلت منه ، أكلت من الكرز المنقور الذي أكلته العصافير فلم يحمل الى السوق . . وقد هبط قره الى تلمسان من أجل اخته وابنة أخته ، فقدم لهما من هذا الكرز . وسيذهب اليهما بعد مدة قصيرة يحمل اليهما الزيت الذي ستدفعان ثمنه مالاً طيباً حلالاً . أما الكرز فلم يأخذ ثمنه . رفض رفضاً قاطعاً ان يأخذ ثمنه . حلف بالله أنه لن يتقاضى ثمن الكرز

ريالاً واحداً .

وفكر قره في الزيتون . في هذه السنة . . ما من أحد في البلاد يستطيع أن يقدره . . الى ان يحين موعد القطاف . وقد رضي المستوطنون الفرنسيون بالمنصورة ان يبيعوه محصول الزيتون على شجره . إنه لا يستطيع ان يتنبأ الآن بمقدار الكسب الذي سيجنيه من ذلك . ولكن قره كان فرحاً بالصفقة . لقد تولى ، هو ، تقدير ثمن المحصول ، فلم يتعنت الفرنسيون وارتضوا تقديره .

قال بينه وبين نفسه :

ــ هؤلاء أناس أبرياء ، وسيظلون كذلك ما لم يفتح العرب أعينهم . . والحمد لله على انه ما من سمسار ولا دلال خطر بباله الى الآن ان يحوم حولهم . وفكر قره في نفسه مشفقاً : « اذا استطاع مسلم ان يجني ربحاً من الأرباح ، فإنما يتم له ذلك لأن اخوانه لم يروه » . . وقد قطع له المستوطنون الفرنسيون وعوداً للسنين المقبلة ، بتوصية جاءتهم من مكاتب المديرية . قال قره لنفسه : من ذا الذي يدري ما عسى ان يقع وإشاعات الحرب تقرع الأسماع ؟ وتذكر الحرب الماضية !.

كان بوشناق ، وبن أيوب . . يجريان هذه الحسابات نفسها في الحجرة المظلمة من قلبيهما . وكانا خلال تلك الأيام كلها ، يمضيان إلى عملهما صامتين .

إن الأملاك تبدأ هنا من سفح لالاستي والمرتفعات المجاورة ، وتجري في باطن البلاد ، الى ان تنتهي بعد طريق سبدو عند القواعد الأولى من السهل . والمزارعون يقتاتون باليسير من الطعام ويعيشون عيشة فقيرة . غير ان الحياة في بني بوبلان تجري مجراها الذي لا تتحول عنه . هادئة : جادة ، قوامها حسابات دقيقة ، ومشروعات يستقصيها أصحابها طويلاً ، وشهوات متجددة قوية ، وأعمال يومية لا بدّ منها للابقاء على الحياة .

وبدأ الخبر يذيع في تلك اللحظة . فأخذت البيوت تهمهم في الداخل همهمة غريبة . هي الحرب ، فيما يقولون .

هذا الشبح الهائل الذي نزل نزول الصاعقة ، هذه القوة المتلمسة الهائجة ، هل يدري أحد كيف هبطت؟ . . ودهش الناس في بني بوبلان . ولئن انقضت الصدمة الأولى بعد ذلك كما حدث في تلمسان وفي القرى والضياع النائمة حولها ، فان الحياة لم تعد الى مجراها الرتيب الذي كانت تجري فيه من قبل .

لقد سافر ابنا بن أيوب جند كبيرهما والصغير في آن واحد . ان الكبير ، واسمه جلالي ، أنهى خدمته العسكرية بفرنسا منذ ثمانية أشهر ، وهو الآن يذهب الى الحرب تاركاً زوجة وطفلتين .

« الحرب ؟ ما شأننا نحن بها ؟ انها تنشب في بلاد بعيدة . في فرنسا . . ومن يدري الى أين تمتد! . . إننا نعنى بأمورنا ، نزرع خضرنا ، فما صلتنا بما عدا ذلك؟ » هذا ما كان يقوله الناس في

بني بوبلان الأعلى .

وتحدث بعضهم عن الاعتقالات أيضاً . والذين كانوا يعتقدون انهم يفهمون الأحداث أكثر من غيرهم قالوا ان ذلك نذير شؤم .

قال قره لزوجته :

ــ هي حرب كسائر الحروب . لقد وجدت الحروب منذ وجد العالم ، وستظل قائمة ما ظلّ على وجه الأرض بشر .

فأجابته بقولها :

ــ لماذا ؟ ألا يرحم الله مخلوقاته ؟

فلم يفهم الرجل . وتساءل : ماذا حدث لعقل هذه المرأة ؟ ما لها وللتفكير في هذه الأمور؟ . .

ــ يا امرأة ، هذه أمور فوق ما تطيقين فهمه .

ــ كيف ؟ أيذهب الشباب الى موت محقق ، ولا نقول كلمة واحدة . . شباب في ريعان الصبا كابن اختك وابني بن أيوب ، وقادر محمد . .

ــ أما ابن اختي فانني سعيد بذهابه الى الحرب . يجب ان يذهب الى الحرب . ستعلمه الحرب الحياة . ستقلل الحرب اهتمامه بدهن شعره بالزيت ، وبالتجول في الشوارع عاري الرأس مرتدياً الثياب الفرنسية .

قالت المرأة بينها وبين نفسها : « يا لك من عقرب عجوز . ان هؤلاء الفتيان الذاهبين الى الموت قد يكونون أولادك . نعم . . لقد كنت دائماً تحسد الناس » .

كان قره علي قد تجاوز الخمسين ، أما زوجته فعمرها أقل من نصف عمره . انها في الرابعة والعشرين .

ظلّت الزوجة صامتة ، وتابع الزوج كلامه :

ــ قلت لك ان هذه الأمور فوق ما تقدرين على فهمه ، انها فوق ما نقدر على ادراكه نحن . هذه أمور لا يعلمها حق علمها إلاّ الله . هي أمور أكبر منا . .

قال ذلك وصبره ينفد شيئاً بعد شيء . ولكنه تماسك . فقالت الزوجة عندئذ بصوت حاد مرتعش :

ــ إن الله لا يقول اقتلوا بعضكم بعضاً .

ــ اسمعي . قد يكون صحيحاً ان الله لا يقول هذا . غير ان هناك رجالاً يحكموننا ، وهم يعرفون ماذا يعملون .

ــ هؤلاء الذين يحكموننا ليسوا عادلين .

ــ حلي محلهم إذن .

قال ذلك وقهقه ساخراً .

ـ حلي محلهم ، وبصري الناس بما يجب عليهم ان يعملوه .

فلما سمعت المرأة هذا الكلام ، لاح الجد في وجهها . انها لا تقبل ان يتهكم عليها أحد . قالت :

ـ ما أنا إلّا امرأة ضعيفة . . ولست أطمع في ان أحل محل أحد البتة . ولكنني أقول ان السلطة التي تعمل هذا العمل ليست عادلة . ولو كانْ لكم ذرة من شرف ، انتم معشر الرجال ، لخجلتم من ان تقبلوا هذا الأمر . هذا شأن الرجال . اذا تكلمت امرأة سخروا منها . يظنون انهم دائما على صواب ، مع انهم قد يجانبون الصواب . يكفيهم من امرهم أنهم رجال!!

ظلّ قره يتفرس في زوجته مدة طويلة ، ثم قال :

ـ ـ كلامك لا يضيف الى الأمر شيئاً ولا ينقص منه شيئاً .

قال هذه العبارة في استخفاف وغير مبالاة ، ثم أضاف :

ـ هذا كله لا قيمة له .

ـ لماذا ؟ هل خلقنا الله لتظل أفواهنا مكمومة ؟

ـ لأنك تهرفين بما لا تعرفين .

ـ لأنك تريد ان تظل أفواهنا مكمومة ؟

ـ أنت تهذين .

ـ طيب ، سأضع على فمي كمامة .

تذكر قره أسباب الحرب التي شرحها له عبد الله البقال منذ بضعة أيام . فأراد ان يذكر هذه الشروح لزوجته . ولكنه عدل عن رأيه . انها امرأة . ما عساها تفهم من كل ما يمكن ان يقوله لها ؟

في اليوم الذي تلقى فيه جلالي بن أيوب الأمر بالسفر ، لبست زوجته الحداد . وكذلك فعلت امه ، فارتدت ثوباً قاتماً . رجلان ينتزعان منها دفعة واحدة . وقد دقّ هذا القدر نفسه باب أسرة محمد أيضاً .

انتحبت النساء في البيتين انتحاباً طويلاً ، وبكين وهن يلطمن أفخاذهن حزناً وحسرة . وترددت أصداء صيحاتهن في الجبال تمزق الهواء . وعلم النساء بالنازلة التي حلت .

وبينما كان النساء يعولن ويلطمن صدورهن في البيت كان الرجال يتجمعون في الخارج . انهم يلتقون فوق مسطح ممهد من الأرض يحيط بالمساكن . يلتقون مقرفصين دون أن يقول أحد لأحد منهم شيئاً . ولقد جاء قره ينضم الى جيرانه . مضى الى وسط الجمع نظر الى هؤلاء وأولئك دون ان ينبس بكلمة . قرفص هو أيضاً تحت شجرة من أشجار التوت .

عجيب حزن هؤلاء النساء . انهن لا ينقطعن عن النحيب وراح قره علي يلقي على الصحب نظرات سريعة من حين الى حين ، بينما كان نوع من الحنان يجتاح نفسه دون ان يكون له

موضوع بعينه .

فتيان يزخرون بالقوة والحياة يسافرون . الحق ان هذا لا يعنيه كثيراً . انه يفكر في أمر آخر . وفكره يتمطى ثقيلاً ثقل ثور . يستطيع ان يقول الآن ان له في السلطات آمالا . فكيف يحقق هذه الآمال هذا هو الأمر الذي يعنيه . انه لا يدري بعد كيف يحقق لنفسه تلك الآمال . وفي الوقت متسع على كل حال . ترى هل يشتبه فيه جيرانه ؟ لقد أحسّ قره ان بن أيوب تخامره ريبة ، فهو فاتر في معاملته منذ بضعة أيام . تذكر قره اجتماعه بالمدير . لقد استدعاه ممثل الحكومة في الربيع الماضي أثناء الاضراب القصير الذي قام به العمال الزراعيون . ولكن لعل الهواجس التي تراوده بصدد بن أيوب ليست الا هواجس . وطاف بنظراته على الجميع يلتمس جواباً عن شكوكه . ان عينيه اللامعتين اللتين صبغت أجفانهما بالكحل ، أشبه بعيني قط وحشي . وانتشر فكره انتشار ماء أصم . تلك أول مرة خلال حياته يجتاز عتبة دار الحكومة .

قال له المدير في تلك المناسبة :

ــ لا بد لكل بناء من أساس . ونحن نريد لبنائنا أساساً اخلاقياً هو الاتحاد . اننا لا نستطيع ان نعمل إلّا إذا تعاونا يداً بيد ، بل قلباً بقلب .

وذكر المدير يومئذ ان هناك قوانين جديدة تتصل بالسكان الأصليين توشك ان تصدر ، وان عدداً من القوانين القديمة سيصيبه تعديل . وأردف المدير يقول :

ــ لا شك ان هنالك لفيفاً من الانفصاليين الخطرين او من الحالمين الأغبياء ، يعملون ما استطاعوا لتشويش عقول الشرفاء من الناس . وهذا أمر قبيح خال من الشرف .

قال المدير ذلك ثم نهض . وشكر لقره ما يقدمه للسلطات من معونة ، وأضاف :

ــ لن تعرف هذه البلاد إلّا الافلاس والدمار ما لم نبذل جهودنا متعاونين مع أصدقائنا .

مدّ المدير يده من فوق المكتب العريض الذي يفصل الرجلين ، فلم يستطع قره ان يلمس إلّا أطراف أصابعه من فرط عرض المكتب ثم مضى الى الباب متراجعاً ، لا يجرؤ ان يولي الشخصية الرسمية ظهره ، وهو يرفع يده الى جبينه في نوع من التحية العسكرية مرة بعد مرة .

فهم قره عندئذ ان له ان يطمع في جميع الآمال ، ثم انه كان يعرف ذلك منذ اللحظة التي نوى فيها ان يطلع السلطات على أعمال تلك العصابة الوقحة التي كانت تستعد مع حميد سراج لاحداث الاضطرابات . كانت هذه الفكرة التي راودته تشق طريقها في نفسه برفق وهدوء وغموض . ينبوع من نار مجهولة يتفجر في الظلمات . وانتظر قره ليفكر في الأمر بمزيد من الجد .

تخيل قره ان بن أيوب ومحمد سيتعذر عليهما ان ينهضا بأعمالهما بعد غياب ثلاثة رجال . وتصور أرضهما وقد أهملت كثيراً . فشعر بالارتياح . لا شك ان جاريه سيسيران الى الدمار . اما هو فسيضاعف نشاطه وعمله أثناء ذلك . وفكر قره في البقرتين الفرنسيتين الثقيلتين اللتين يملكهما بن أيوب فتمنى لو كانتا له .

إن البقرات الثلاث التي يملكها تبدو الى جانبها هزيلة : انها نحيلة ضامرة ، لا بل هي أشبه بعجول أذواها الجوع . انها ، وهي ثلاث ، لا تدر من اللبن ثلث ما تدره بقرة واحدة من بقرتي بن أيوب . . ناهيك عن الفترات التي تجف فيها أضرع هذه البهائم الحقيرة . ان قره يكره بن أيوب ، لأنه منذ مدة قصيرة . . ولكن لهذا حكاية اخرى . . . ومهما يكن من أمر ، فان قره حلف «ليحصلن على بقرة كهاتين البقرتين» وسيبر بيمينه .

بكت زوجته مع الباكيات من النساء . وقالت للعجوز طعمة التي حاولت ان تهدئها :

ــ دعيني ، لقد طفح قلبي . انني في حاجة الى البكاء .

ــ أنت صبية يا بنتي ، وما فقدت أحداً ، ففيم البكاء ؟ اطردي أبليس من نفسك .

ــ انما أبكي على نفسي ، وعلى حياتي .

كانت النساء تتأوه بصوت خافت ، وتئن أنين البهائم الجريحة . لقد بحت أصواتهن وتقرصت وجوههن من خدش الأظافر . وجاءهن بعد الظهر عدد من الباكيات أخذن يرددن بنبرة رتيبة متكررة :

ــ فلتطحن وحدك ان شاء الله يا من تبكي النساء وأطفالهن وتقتل الأزواج يلعنك الله . ولتبك عيناك دموعاً . ولتذب عيناك من فرط البكاء . ولا ينزل الشقاء الا عليك وحدك ، وليحرق لحمك ، فلا تجد أخا يمد يده اليك لينجدك . ولينصب عليك كره البشر كلهم فلا يبقى لك صاحب .

وكان بعضهن يطلق اللعنات مصحوبة بعويل وصراخ : آي . . آي . . ويضاعف لطم الصدور بالأيدي .

وصرخت صفية ، أم الشابين ، نادبة ناعية ، لاطمة فخذيها :

ــ الله يلعنه . الله يلعنه .

واستمرت تصيح :

ــ ما هذا العذاب . لقد احترق قلبي ، وأصبح من رماد .

واستيقظ في قلوب النساء ألم قديم . فأجهشن جميعاً في البكاء ، حتى اللاتي لم يجند زوج لهن ولا ابن . التفتن نحو صفية يبكين . وارتفع صوت صفية مرة اخرى :

ــ أولادي ، أولادي ، أخذوا أولادي .

وعادت تلطم فخذيها وذراعيها وتمزق وجهها .

وقالت احدى النساء بعد لحظة :

ــ صفية ، هدئي نفسك قليلاً يا اختي .

ــ افعل ما استطيع يا أختي .

ثم هدأت صفية . ووضعت احدى يديها في الأخرى وهي ساكنة سكونا تاما على حافة الفراش .

واقترب منها عدد من الجارات ، فلم تقو على ان تكلمهن . انها لا تستطيع إلّا ان تدمدم في أنين : « أولادي ، أولادي » .

ودخلت بضع نساء كن قد تجمعن أمام الباب ، بينما ظلت الأخريات في مكانهن واقفات . كان هؤلاء مصطفات صفاً واحداً وقد وضعن على رؤسهن المناديل . وكن يرفعن ايديهن الى أفواههن من حين الى حين متأثرات . وكانت صفية مصعوقة منهوكة القوى ما تنفك تئن أنينها الرتيب .

وكان هناك نساء اخريات يتحركن في فناء البيت ذاهبات آتيات كأنهن في جنازة . .

ثقل صمت القرية خلال الأيام التالية وظلت كثيرات من الزوجات والأمهات منذ ذلك اليوم يرتدين ثيابهن القاتمة ويغطين رؤسهن بالمناديل السود .

الجزء الثاني

ـ ١٣ ـ

حدق الشرطي بعينيه الصغيرتين المخضلتين الى حميد سراج . وهز في الهواء يديه الخارجتين من كمي سترته الزرقاء . لاحظ حميد هذه النظرة الغارقة المحاطة بلحم ابيض . وكانت القاعة ملأى برجال آخرين من الشرطة . ان أصواتهم المبهمة تجلجل منذ لحظة في مقر الشرطة معكرة جوه الادخن . وثمة رائحة راكدة من روائح الانسان التصقت بالجدران السمراء وبقطع الاثاث الفقيرة والكتاب . ان هذه الرائحة تدل على أن الوف الناس قد مروا بهذا المكان . وكان حميد هادئاً ساكناً ، لا يبالي شيئاً ، ولا يهتم بما سوف يقع .

واقـتـرب منه رجال الشرطة المتجمعون قرب باب الزجاج ، وأحاطوا به .

وجاء عدد آخر من رجال الشرطة من آخر البهو . ورأى حميد رقم الشرطي . أما ما عدا ذلك فلم يكن يبدو على حميد انه يلاحظ وجوده . وما هي الا لحظة حتى التف حوله عدد من رجال الشرطة وأحاطوا به . ونظر الى عدد منهم خرجوا من الظل ، فعرفهم لأنه رآهم قبل ذلك عدة مرات في الشارع . وفي هذه اللحظة أحس كأن أحلاماً مشلة قد شملته ، أو كأن الهواء أصبح ثقيلًا جداً . لا لأنه خائف منهم ، أبداً . . ولكنه الاشمئزاز . لقد رأى أن ثمة شيئاً قد مات في هذه الوجوه التي أمامه .

كان « الرقم » يتحدث منذ مدة ما ، وكان زملاؤه يتزاحمون حوله . واستمر « الرقم » يهدر ويثرثر .

ان حميد لا يصغي اليه . ان جداراً عالياً قد قام في نفسه ورفع « الرقم » يده وهوى بها على وجه حميد في صفعة قوية . اهتز رأس حميد . ولكنه لم يطرف بعينه .

صاح « الرقم » :
ـ وهذا واحد من هؤلاء القذرين .

سمعه حميد في هذه المرة . وتفرس فيه . فأدرك أن « الرقم » لم يحتمل نظرته . لاحظ انه ينحني انحناءة من يثني ركبته أمتصت الحدقة الحائرة الإهانة . هوى « الرقم » بقبضة يده على وجه سراج فأحدث فيه دوياً . وأخذ عدد من رجال الشرطة يضربون .

ان حميد واقف أمامهم صامتاً ، متجاهلاً اللطمات التي تقع عليه . قال في نفسه : ليس في هذا غير ما كنت أتوقع .

وازدادوا إحاطة به ، وتحلقوا حوله كأنهم مادة جامدة . وتلقى حميد ضربة أقوى من الأولى . فقال حميد بتأثير الصدمة ، وقد إتقد وجهه بعد أن ظل الى ذلك الحين شاحباً :

ــ لم تفعلون هذا ؟

وانهمرت الضربات عليه انهمار المطر . ترنح حميد ، وانقذف الى جانب . فعاد وجهه شاحباً . قال :

ــ أقذار .

وفي هذه اللحظة نفسها سقط على الأرض ، تركهم يضربونه . ولكنه حاول ان يحمي نفسه ، حتى لا يجهزوا عليه اجهازاً تاماً . وكانت الضربات تدوي في رأسه ، في جسمه . فاستولى عليه خدر . اصبح لا يحس وجود أنفه ، ولا عينيه . غير أنه يشعر بأذنيه تحترقان احتراقاً . وكان دمه يسيل رطباً حاراً .

لم يتحرك . أصبح لا يحاول أن يتقي اللطمات القوية . وبصق عليه « الرقم » . .

وصاح آخر يقول :

ــ يا وسخ ، يا ابن القحبة .

وركله أحدهم بحذاءيه الضخمين ، فاقتدى به آخرون . ان جسمه الآن ممدد على البلاط ، وضربات « البساطير » تهوي عليه من كل جانب . شيء واحد كان يطوف بذهن حميد ، فكرة واحدة ظلت واضحة في نفسه : هي أن لا يهلك . ان يظل حياً .

أصبح الآن لا يرى شيئاً . الدم يقطر في عينيه .

ثم خيم الهدوء ، وأعقبه صمت رهيب طويل . هذا شخص يأتي فتسمع خطواته من بعيد . حاول حميد أن يفتح عينيه . فلم يستطع ذلك ، من فرط تورم عينيه . أن الضوء المحمر الذي كان حميد يحس منذ قليل أنه غير كاف ، أصبح الآن يؤذيه ويجرحه . رأى حميد أحذية سوداء . أنه مفوض الشرطة في زيه العسكري . يا لهذا الجسم الضخم ! اقترب الجسم الضخم أكثر من ذلك . حديدة النعل تقرع الأرض بصوت جاف . ابتعد رجال الشرطة . انهم ينظرون الى وضع رئيسهم بصمت مطبق .

نهض حميد سراج ، وترنح على ساقيه . حاول ان يمسح بيديه الدم الذي كان يغطي وجهه . نظر اليه المفوض نظرة لا تعبر عن شيء ، وتابع طريقه .

أفاق حميد سراج فوجد نفسه مسجوناً في زنزانة . انه في حاجة الى أن يبول . هي حاجة قاهرة ، يزيدها لجاجة أنه عانى برداً شديداً طوال ليلته . لقد سكب عليه رجال الشرطة عدداً من قواديس الماء لتزول عن جسمه آثار الضرب .

لقد استجوبوه عدة مرات : سألوه هل يعرف أحداً من الاشخاص الذين سموهم له . فكان لا يجيب بشيء ، فيأخذون بضربه ، ثم يستأنفون الاستجواب .

هذه جدران جديدة من الضباب تحاصره . كل هذا آت من عالم آخر ، من عالم هارب ، فما أن يحاول الفكر الامساك به حتى يزول . عالم لا منطق فيه . غير ان هذه الحجرة هي الآن له .

لقد سبق أن رآها في مكان ما ، لا ريب في ذلك . ولكن أين ؟ انه لا يعرف أين رآها ، لا يتذكر أين رآها . ان في هذا المكان شيئاً لا يستطيع أن يميزه تمييزاً واضحاً . آه . . أمر يهيج الاعصاب . أهذه حجرة موتى ؟ . . أنا لست ميتاً .

شيء كالموت . ظل حميد ممدداً طوال الليل بثيابه المبتلة التي كان يحس انها ما تنفك تضيق عليه . ما السبيل الى الخلاص من هذا الكابوس ؟ ها هو ذا يعرفها ، هذه الغرفة . الا ان فيها خلاء عجيباً وقضاء غريباً . . آه من هذه الحجرة . . لا تحاول ان تدخلها ، لا تحاول أن تجيء فترى ما فيها . لكأنها ضائعة تحت الأرض على عمق آلاف من الأذرع . لا يمكن الايغال الى ما هو أعمق منها .

وكان هنالك أيضاً تلك الجدران العجيبة ، البيضاء أو الشهباء . أن حميد على يقين تام من أن هذه الحجرة تشبه حجرته شبهاً ليس في الحسبان . غير أنه . . . لا يتذكر الآن أين سبق له أن رآها . آه من هذه الحاجة الكاوية الى التبول .

ان ثقلاً رهيباً يجثم على صدرك ، ولا تكاد تستطيع ان تتحرك . انك تتقلقل قليلاً . البرد . البرد . تحلم بانك ميت ، تضحك في هدوء ورفق . تتقلقل قليلاً مرة أخرى . هو برد الصباح . تقول هذا ضاحكاً . البرد . البرد . البرد .

أنغرس الضوء في جسم حميد انغراس الشوك لعل هذا ينقذه من الموت . فتح عينيه مرة أخرى ، بعد أن عاد فأغمضهما لحظة . ان هذه الساعة هي الساعة التي يأخذ فيها ضوء الصباح الأشهب يتسلل الى دار سبيطار ، هي الساعة التي تأخذ فيها الأصوات الاولى المتعثرة بالنوم تتسرب من الحجرات الموصدة الى الخارج تسرباً لا يكاد يدرك .

لقد نام حميد سراج مدة لا يستطيع ان يحدد طولها . هي مدة طويلة من غير ريب . لقد غطس دفعة واحدة في حفرة سوداء شق النعاس بابها ، فهوى فيها ، وأطبقت عليه . نوم مفاجىء . ما من شيء حي حول النائم ، وها هو ذا الفراغ الذي ابتلعه (كأن الزمان قد أفلت من كل قياس) يتقيؤه الآن لاهثاً .

ان حميد يشعر بأوجاع في كل جزء من أجزاء جسمه ، في الكتف ، في الاضلاع ، في

الوجه ، في الساقين . أما فكره فكأن ظلاً ميتاً قد امتصه ونشر حوله ضبابه . وأدرك حميد أن الضوضاء التي ظل يظن خلال مدة طويلة أنه يسمعها انما كانت في رأسه . انها صوته ولكن هذا الصوت يبدو آتيا من مكان آخر ، متشوهاً متضخمًا مليون مرة . كان يتكلم . ان صوته لا يدخل الاشياء ، بل يظل معلقاً في الفضاء لا صلة بينه وبين ما عداه . هو صوت لا يلامس قلب الأشياء .

سد أذنيه حتى لا يصل اليه هذا الصوت ، وانحبس في ذاته انحباسه في هذه الزنزانة . ولكن الصوت ارتفع في الجهة الأخرى من وراء قضبان الحديد . وفجأة انفجرت من صدره صرخة قاسية عريضة كان يحبسها منذ مدة . فاستيقظ الكره إذ ذاك في نفسه محملقاً بعينه العميقة .

خرج في بطء من البئر السوداء التي كان غاطساً فيها ، وأدرك أخيراً ما كان قائمًا في رأسه من هرج ومرج . لقد عذبوه بينما كان مغشياً عليه . فتح عينيه ، ونظر الى حاله : زنزانة مظلمة . كان يحس رغم يقظته من النوم ، ان هناك طبقات مجاورة من الفكر الذي أخذ ينبجس في داخله ، لا تزال غافية . هذه الطبقات وحدها كانت تحتفظ بذكرى التعذيب الذي انطبع على جسمه في تشوش عظيم وكأنه احتراق . وضع يده على ظهره فأدرك أنه عريان حتى الخصرين . وانقضت لحظة ، فاذا بصورة عمر تخطر أمام عينيه .

لماذا يتذكر عمر هنا ؟ انه ليس في حالة تمكنه من القاء هذا السؤال على نفسه . ثم طفت في خياله ذكرى مدينة الجزائر ، أيام كان يقطن فيها ، كان سائراً في شارع الحرية ، بعد أن حضر اجتماعاً من الاجتماعات . كانت الساعة هي العاشرة من المساء . كان المطر يهطل . لقد هطل المطر طوال ذلك النهار ، ولا يزال يهطل في المساء .

كان حميد يسير كالأعمى وقد احترقت رئتاه واحترق حلقه من الركض . ان سحاباً وابلاً لا يمكن تجاوزه كان قائمًا في الهواء أمامه ، يرجع القهقري بغير انقطاع .

وعادت صورة عمر مرة أخرى . كان حميد راجعاً الى دار سبيطار حين هوى رأس الصبي على بطنه . كان عمر يجري مسرعاً كماعز ، هارباً من البيت . طوقه حميد بذراعيه . وأنهضه عن الأرض . رفع عمر بصره اليه . وقال له :

ــ كان رائعاً .

ان صيحات عميقة من صيحات النساء تخرج من داخل البيت مع ضجة كبيرة .

قال حميد :

ــ ما الذي كان رائعاً ؟

ــ اجتماع هؤلاء الناس جميعاً ، وكل ما قلته لهم في مقر « الشارع المنخفض » . أنسيت ؟

بهذا صاح الفتى وقد غزته حماسة مفاجئة .

ـ آ . . . كنت هناك ؟

وسقط الصبي بين يديه ، وقد أصبح أثقل من أن يطيق حمله . فما أن لامست قدماه الأرض حتى وثب فاجتاز الرواق وصار في الشارع .

وغرق حميد في ظلمة الخبل شيئاً فشيئاً . انه يسمع صراخاً وصياحاً ، وان رعشة خفيفة تسري فيه من كل جانب . ان النداء الذي يسمعه في هذه العتمة قاس رغم ضعفه . فكأنه أنات طفل . وكان الطفل قد نضبت قواه ، ولكنه لا يزال يصرخ . استحث حميد خطاه ، فإذا هو يصل الى ثلاثة أطياف كبيرة أو أربعة كانت تهتف بصوت عال . قال أحدها :

ـ هيا . . . قل انك لا تحب هذا .

وارتفعت شكوى . كان الرجال يسيرون في وسط الطريق المعبد . وكان الشارع مقفراً في هذه الساعة من الليل . كان لا يبدو عليهم أنهم عابئون بالمطر . فاعتقد حميد خلال لحظة انهم عسكريون . كانت أحذيتهم تقرع أرض الشارع . واقتربوا من أحد المصابيح فانتصبت أشباحهم وتطاولت كثيراً . قال واحد منهم :

ـ خذ هذا يا قملة .

رأى حميد ، رؤية واضحة في هذه المرة ، ان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يتقاذفون الشيء الذي بدا له طفلاً ، كما يتقاذف اللاعبون كرة من الكرات ، فهذا يركله بقدمه ، وذاك يضربه بقبضة يده ، أو بركبته ، وكان الطفل ينجر على الأرض وهو يكاد يعجز حتى عن الأنين .

أصبح لا يستطيع ان ينهض . حاول الرجال ان يتقاذفوه وهم يتصايحون فقال أحد الثلاثة شاتماً :

ـ . . . يا للقذارة .

وراحوا يجرونه على أرض الشارع .

وانصب عليهم نور المصباح شديداً بعد بضعة أمتار . فاستطاع حميد أن يرى الصبي . انه ماسح أحذية أو حمال ، واحد من أولئك الذين يراهم المرء راكضين في شوارع مدينة الجزائر أعداداً غفيرة . كان الطفل متمدداً على الأرض . ان ثيابه الممزقة كانت مغموسة في الوحل ملطخة بالبقع السوداء . جمد الرجال الثلاثة وأخذوا ينظرون الى الصبي .

ووجموا لحظة صامتين كأنهم يترددون . ثم قال أحدهم ساخراً :

ـ إذا فطس هذا ، فهناك من أمثاله كثيرون . ملايين . ليست الفئران هي التي يعز وجودها في هذه البلاد .

قال ذلك وضرب الصبي المستلقي على الأرض بقدمه . فلم يصرخ الصبي ولم يئن . وعاد الرجال الثلاثة يضطهدون معاً هذا المخلوق الذي كان يبدو ميتاً .

صاح حميد قائلاً :

ـ قفوا .
وأسرع إليهم .
ـ ماذا فعل هذا الصبي ؟
ـ بنا نحن ؟ لم يفعل شيئاً . ولكننا نريد أن نكنس أمثاله جميعاً ، فبدأنا به .
وقال ثان مقاطعاً :
ـ هذا جدي ، هذا عربي .
فأجابه الأول :
ـ لعله يريد أن نعلمه كيف يعيش .
ـ دعونا من الآخر . .
ـ أتريد أن تبدأ بهذا ؟
ـ الدور دورك .
وتقدم الشخص الذي قال هذه الجملة الأخيرة ، تقدم من حميد وهو يصطنع تودداً زائفاً ، فأمسك بياقة سترته بين ابهامه والسبابة ، وتفرس في وجهه . وتقدم الآخران . قال الأول :
ـ صيدة جميلة .
ـ رجل جاوز طوره .
ـ يعد نفسه متحضراً .
انتزع حميد نفسه بعنف من الرجل الأول ، ثم عاد إليه مندفعاً بكل ما أوتي من قوة ، فجبهه بضربة في صدره فأسقطه . أطلق الرجل كلمة آه عميقة ، وتمدد على الأرض في ضجة صماء . ولم ينهض . وابتعد أحد رفيقيه وهو يصيح صياحاً شديداً .
وفجأة رأى حميد سكيناً تلتمع في يد الثالث الذي بقي واقفاً أمامه .
ـ انتظر يا وسخ .
قال الرجل ذلك ووثب على حميد ، وكان حميد ينتظره ، فانتقل من مكانه بحركة صغيرة ، فاتقى الضربة ، وإذا الرجل يختل توازنه ويهوي على الأرض معولاً ، أما لأن وثبته التي لم تلتق بشيء دفعته إلى الأمام في عنف ، وأما لأنه اصطدم ببلاط الرصيف . أخذ حميد يراقبه .
نهض الرجل . غير انه كان يرتعش ارتعاشاً قوياً .
ومضى حميد يحلم .
فكان ، وهو عار بغير سلاح في السجن ، يمضي في الليل ، فيلقى « أرواحاً خبيثة » تهاجمه وترهقه وتسخر منه . ان لجميع هذه « الأشباح » ـ المتبوعة بضروب الأذى التي أوقعتها في الناس ـ اسمًا مظلمًا جداً بالنسبة الى الجزائر . ليست أمواتاً وإنما هي أشباح تدوس الانسان الذي صرعه النعاس ، والألم ، أو غير ذلك من الأشياء ، تدوسه بأقدامها .
وكان هو يقول : سفلة . . أوباش . .

وكان يترك لهم جسمه المذلل العاري يدوسونه ما شاء لهم أن يدوسوه ، وكان يتقبل إهاناتهم كأنما هي شرف ومجد .

البرد شديد كأنه ضياء متجمد .

وسمعت أذنه شيئاً فصاح :

ـ من هناك ؟

فتراءى له ان ملايين الشعل الصغيرة تتلألأ من حوله ، ولكن بدا له في الوقت نفسه انها تنطفىء . قال لنفسه : آه . . الآن فهمت . انني في لونابارك . وما هي إلاّ لحظة حتى سمع صوتاً من تحته يصيح :

ـ هيه . . .

قال :

ـ هل هناك أحد ؟

وجعل ينظر باحثاً في انتباه . وهبط الليل مرة أخرى على اللهب الذي كان يشتعل ، فلم ير شيئاً .

صاح من جديد :

ـ هل هناك أحد ؟

فأجاب الصوت :

ـ ايه .

ـ وبعد ؟ أهذا كل شيء ؟

أجاب الصوت :

ـ ايه . . .

وقرر أن يبحث عن الصوت ، فنهض ، وقال سائلاً :

ـ من أنت ؟ أأنت مغسل الموتى ؟

أجاب الصوت :

ـ بل أنا الشرطي .

لقد دوّى الصوت من بعيد . الأرواح هي التي تضيء الآن ، ولكن حميد لا يرى شيئاً ، لا يرى أكثر مما كان يرى منذ لحظة على كل حال .

ـ لا شك أنك تتولى هنا الحراسة .

ضحك الشرطي ، وقال :

ـ لا بل أنا مرتاح .

ـ كيف ؟ أترتاح في لونا بارك ؟ . .

قال الشرطي :

ـ هو مكان هادىء مريح . واليانصيب جميل أيضاً .
ـ اذن ، فقد جئت هنا للاستجمام ؟

قال الشرطي :
ـ لا . . ليس هؤلاء موتاي . . هم موتى غيري . أنا ليس لي موتى الى الآن . ليس لي حتى هذه اللحظة الا أحياء . اني أفكر فيهم كثيرا . هل تعلم كم يسهل على المرء أن يحيل الحي ميتا . ان مصير أحيائي يهمني كثيرا .
ـ أليس بين هؤلاء الموتى جميعا واحد لك ؟ غريب . . ولكن ماذا ؟ كيف لا يكون لك بين هذه الجمهرة من الموتى ميت واحد ؟
قال الشرطي ممازحاً :
ـ نكتة ظريفة . أليس كذلك ؟
ـ أراهن ان لك بينهم موتى . لك بينهم اكثر مما تظن .
فوافق الشرطي قائلاً :
ـ الحق ان لجميع الناس بينهم قليلا . . أما أنا . .
ـ لا بد أن يكون لك بينهم أكثر مما للآخرين . قل الحقيقة ! أليس لك بينهم أكثر مما للآخرين ؟ أقصد : لكم أنتم .
ـ ها . . في هذه الحالة . .
وخيم الصمت لحظة . بدا على الشرطي أنه يثوب الى نفسه . قال :
ـ كيف يمكن هذا ؟
ـ طبعا . ليس يستحي الا أولاد الحرام .
ـ لست أفهمك .
ـ وستفهمني أقل من ذلك ، مع أن ما أقوله واضح كل الوضوح : أولاد الحرام وحدهم هم الذين . . .
ـ هذا سمعته . .
ـ فماذا تريد إذن ؟
ـ ما زلت غير مدرك .
وجاء الجواب في صورة صرخة نابعة من أعماق الليل :
ـ كيف يمكن هذا ؟
فلاحظ الشرطي :
ـ وبعد ؟
ثم تابع يقول :

ـ هكذا جميع الناس . حين كنت أنا طفلاً . .
انطلقت صرخة تشقق الظلام الدامس :
ـ أنت ، كنت طفلاً ؟
قال الشرطي :
ـ لم لا ؟ لماذا لا أكون طفلا قبل أن أصبح رجلاً ؟ ما وجه الفظاعة في هذا ؟
لا جواب .
ـ لماذا صرخت ، ولماذا تصمت الآن ؟
لقد استولى الغضب على الشرطي .
ـ أهو أمر عجيب انني كنت طفلاً ؟ ألم تكن طفلاً أنت ؟
ان صمتا عميقاً هو الذي استقبل كلماته .
ـ حقاً ليس ذلك بالأمر العجيب .
ـ وعاد الصوت أخيراً ينبجس من قرارة الليل . قال :
ـ وأنت ؟
ـ أنا ماذا ؟
ـ طفل جاع ؟ طفل ركض في الوحل المتجلد عاري القدمين ؟
ـ وبعد ؟
أضاف « الشرطي » بعد لحظة :
ـ نحن جميعاً كنا أطفالاً .
ـ لا أفهم .
قال الشرطي :
ـ خذ هذا المثال : ان الصبي عمر . .
وفي هذه اللحظة ارتفعت في الظلام صيحة مليئة بالحنق .
ـ الصبي عمر . .
ـ لماذا تزعق ؟ أي غرابة في ان أعرف صبياً اسمه عمر . مسكين هذا الصبي .
ـ ولكن عمر طفل أعرفه .
ـ طيب . هذا كل شيء .
فصاح الصوت فجأة .
ـ أنت تكذب . أنت تكذب . أنت تكذب . انك لا تعرف صبياً اسمه عمر ، هذا مستحيل . أنت تكذب . ولست تكذب فحسب ، بل أنت تسخر مني أيضاً ، وتخدعني ، إذ تزعم انك تعرف صبياً اسمه عمر . . أنت تحاول أن تستدرجني . . خاب فالك . عبثاً تدعي أنك تعرف هذا الصبي . أنت شرطي ، وان لم تكن الآن إلاّ روحاً . لا تنس هذا . لا يمكن أن تكون

قد عرفت عمر .

قال الشرطي :

ـ كيف ؟ أنا ؟

ـ أنت . .

وضحك الشرطي :

ـ هه . .

ـ اسمح لي ، اسمح لي . سأقص عليك حكاية ، عليك أنت ، أنت الشرطي .

ودوت عندئذ في قرارة الليل كلمات وكلمات ، قريبة جداً ، رهيبة ، تلاحقت في غير انقطاع . كانت الكلمات تعني : الخوف .

ـ هل تسمع حكايتي ؟

ـ نعم .

ـ فلماذا ، وأنت شرطي ، لم تتدخل لحماية ماسح الأحذية الصغير . مع أنك شرطي ؟

ـ كيف عرفت والظلام كان حالكاً ؟

ـ ولكنك ظللت مختبئاً .

ـ صحيح . لقد كنت حاضراً .

ـ رأيت كل شيء ، ثم لم تقم بأية حركة دفاعاً عن الصبي . شهدت المشهد كله في الخفاء ولم تتزحزح من مكانك .

ـ نعم . كنت أرى كل شيء .

ـ كانوا يقتلون طفلاً وأنت لا تتحرك .

ـ صحيح . ولكن لم يكن في وسعي أنا ولا في وسع احد غيري أن يعترض سبيل هؤلاء الرجال الذين لهم حظوة لدى « الحماية السامية ».

وأعقب الصمت هذه الكلمات ، انه صمت كصمت القبور .

ـ ارحمني . ما أنا إلاّ رجل فقير مضطر الى كسب رزقه . ماذا كان في وسعي أن أعمل ؟

ـ لا تحاول أن ترقق قلبي . ما أنت إلاّ شرطي ، لا أكثر من ذلك .

ـ طيب أنا شرطي . ليكن .

ـ وأنت ، ألم تأخذ أطفالاً الى السجن ؟ ألم تأخذ أطفالاً الى السجن ؟ أطفالاً في الثانية عشرة من سنهم . تذكر . كنت تلمهم من « السوق » من ناحية البحر ، أو تجمعهم من باب « بومدين » وكنت تقيد أيديهم الصغيرة بالسلاسل . أطفال في الثانية عشرة من سنهم . ففي بعض الأيام تقبض على ثلاثة منهم ، وفي أيام أخرى على أربعة ، تشد بعضهم الى بعض بجنزير وتسوقهم أمامك . كنت تريد أن توهم سكان المدينة بأن هؤلاء الأولاد من كبار المجرمين . . أو أنهم من اللصوص . ولم يخطئك تقديرك . كان أكثر المواطنين لا يطلبون إلاّ أن يصدقوك . كنت

إذن تعرف ماذا تفعل . ولكنك لم تكن تجرؤ على أن تدوس هؤلاء الأولاد بقدميك ما دمت تجتاز المدينة . ذلك ان هذه المدينة لم يكن فيها مواطنين فحسب ، بل كان فيها أيضاً رعايا ، حتى أن عدد الرعايا كان أكبر من عدد المواطنين . وكنت تعلم أن أعين الرعايا تنظر إليك وتشيعك في الشارع من ركن إلى ركن . وكنت تخشى هذه النظرة . حتى إذا خلوت بهؤلاء الأولاد في دار الشرطة ، اندفعت تعمل ما تعمله . هل تجرؤ أن تقول لي ماذا كنت تعمل ؟

لحظة صمت . ان الأرواح المتأججة ، أرواح موتى اللونابارك ، تشكل الآن موكباً كبيراً من شعل صغيرة . ان عددها كبير . وهي تغير اتجاهها ، ثم تتابع طريقها ، صغيرة ، ملتمعة كما كانت .

وعاد صوت الشرطي يسمع :

ــ أين أنت ؟ مد لي يدك .

ــ ارجع ، ارجع أيها الحقير .

ــ كيف هذا ؟

ــ يا قاتل الأولاد .

فأعاد الشرطي قوله :

ــ كيف ؟ مد لي يدك .

ــ ارجع أيها الضبع العفن النتن .

ومرة أخرى التمعت الأرواح دون أن تضيء .

صاح الشرطي :

ــ وأخيراً ؟ أأنت هنا أم لا ؟

ــ لست هنا . لست هنا من أجلك على كل حال .

ــ فهمت .

صاح الصوت :

ــ آ . . كنت تريد أن تلعب مع الأطفال ؟

ــ ولم لا ؟

ــ أية لعبة كنت تريد أن تلعبها معهم ؟ لعبة الموت ؟

وعاد الصمت يخيم .

ــ كيف ؟

ودوّى الصوت قوياً رهيباً كأنه يخرج من مكبر :

ــ قاتل . . .

قال الشرطي :

ــ أظن أنني تألمت الآن تألماً كافياً .

فزأر الصوت يقول :

ـ ماذا ؟

فقال الشرطين في أنين :

ـ بلغت من الألم درجة كافية . أود لو ألعب مع الأطفال .

ـ إلّا أنك لمهرج وقح . أتقول هذا الآن ؟ أنت لا تعرف كيف تخرج من المأزق . أنت الزيف كله . أنت الكذب بعينه .

وعاد صوت الشرطي وجلاً ملتمساً يدمدم مرة أخرى :

ـ هيه .

ـ هيه ؟ ماذا تعني بقولك هيه ؟

ـ أفلا تذهب ؟

ـ سأبقى لأؤ نسك .

ـ لا أريد أن تذهب .

ـ هل الشرطي هو الذي يصد ر هذا الأمر ؟

ـ لا أريد ، لا أريد .

قال الصوت :

ـ إذن أنا ذاهب .

ـ لا . اسمع : هل أوقعت بك ظلمًا ؟

ـ أي ظلم ؟ اتجرؤ على إلقاء هذا السؤ ال ؟

ـ ولكن .

ـ وجدت رجالاً مكبلين كالعبيد ، فطعنتهم .

ـ ها . . نعم . . لقد شرفت بهذا المجد .

ـ لن يشفق عليك ، لا أنت ولا ذووك .

قال الشرطي :

ـ انظر . ألا تراني أبكي ؟ الى أين تذهب ؟

ـ أنا ذاهب .

ـ لا أريد لا أريد .

ما من جواب :

صرخ الشرطي :

ـ لا أريد . . لا . أين أنت ؟

لا شيء . لا جواب . واستمر الشرطي يصرخ .

ان الأمور التي تنسى لا تكون أبداً في مثل هذا الهول . كان المطر يسيل على خديه

كالدموع . وكان يحسّ ركضهم وراءه . أبسط شيء ألا ينظر إليهم . .

كان الرجال الثلاثة يركضون مسرعين .

كانوا يصيحون في آن واحد :

ــ لنسلخن جلدك .

وكان يصلب ساقيه من حين الى حين . . فكلما أعوزته قدم ، صاح شاتماً . ليس حوله في كل مكان إلاّ خرير الماء على الأرض . وهذه أوساخ لينة منثورة في الشوارع الصغيرة . انه لا يفكر إلاّ في الهرب منهم . برز رجلان من ركن أحد الشوارع ، واتجها نحوه . توقف أحدهما . ووقف الآخر بعيداً . لعله ينتظره . وهذا واحد يبول فيسمع وقع بوله على الأرض . ثم لم يسمعهما بعد ذلك أبداً .

وعاد أدراجه ، بدلاً من الاستمرار في المضي الى أعلى المدينة . ثم وقف جامداً . وبصق . وأتاح لنفسه وقتاً كافياً للسعال . ثم استأنف سيره .

الشوارع متشابهة في الظلام : كأنها جدران . وفي آخر منعطف وجد نفسه في أدنى المدينة .

ويغزوه ألم نائم . انه الألم الذي سيعانيه بعد دقيقة .

كانت هناك مصابيح كهربائية تنير الأرض بأضوائها . قال : انقطع المطر . وهذا شارع آخر . انتهى ذلك كله . وهذه عربة أخيرة من عربات الترامواي تصل .

حقاً لقد انقطع المطر . ابتعدت عربة الترامواي سائرة في الشوارع الخالية مسرعة مقرقعة . تخدد الجليد بماء يتساقط عليه عنيفاً . وحين لامس الهواء الدافىء أدرك برد الليل . وحدق بنظره الى امرأة تلبس رداء زاهي اللون ان معها رجلاً وشاباً يصحبانها . نظر اليها واحداً بعد آخر . كانت نظراتها تعبر عن الضجر .

وألقى نظرة الى الخارج . غير ان داخل العربة المضاءة كان ينعكس على الجليد كله . وتجاوزت العربة لافتة من اللافتات ، وقطعت شارعاً منحنياً وعجلاتها تصر صريراً حاداً مزعجاً ، ثم اختفت .

إن الأمور التي ينساها المرء لا تكون أبداً في مثل هذا الهول . قال ذلك لنفسه ذاهلاً نوعاً من الذهول . ومرة أخرى تحركت معدته . وحين نزل في آخر موقف ، لم يكن في عربة الترامواي أحد . وتقدم في ظلمة الشارع مغمضاً عينيه . فكان يتعثر من حين الى حين ببلاطة من البلاطات . كان هادئاً . غير أن هذا التوتر في عينيه يؤلمه .

كان الليل مضطرباً هائجاً . السماء بيضاء وسوداء . وبعد ان صعد في الشارع مسافة عشرين متراً ، دخل بيتاً قديماً .

مشى في الظلام على غير هدى ، فصعد خمسة (طوابق) . صاح أحد الناس :

ــ من هنا؟ . .

كانت العجوز ايميليا تحاول أن تتكلم . غير أن صوتها ، وقد جاوزت الستين ، ظل مبهمًا غير واضح . وهزّت المرأة المشلولة قوابض سريرها فأجابها :

ــ هذا أنا .

فاتضح صوت العجوز وأكملت كلامها :

ــ قتلوا رجلا فوق .

سألها :

ــ من قتله ؟

ــ اقتتلوا . لا أدري . قيل انهم كانوا أربعة أو خمسة . وقد اقتتلوا .

ثم قالت :

ــ أهذه ساعات يبقى فيها المرء خارج منزله ؟

فدمدم يقول :

ــ يا لك من حمارة عجوز !

ــ أين كنت ؟

وضحكت ضحكة قصيرة ، ثم عادت تقول :

ــ لن يستيقظ بعد الآن .

ولم تضف الى هذا كلمة واحدة .

وألقى من آخر فسحة السلم نظرة الى مربع الضوء الوحيد الذي يلتمع في سواد الليل .

ومضى يسير ، وهو يشعر الآن بكلال واعياء . ان نافذة صغيرة فوق باب هذه (الشقة) هي التي تسقط هذا النور الأحمر المبهم . ان الأضواء مشعلة عند هؤلاء الناس في كل ساعة . لا شك انهم ساهرون على مريض . . ووصل الى بيته . فتح الباب . ثم دفعه وراءه . لم يقف في تلك الحجرة الأولى ، بل ظل يسير الى أن دخل الغرفة الأخيرة .

أشعل الضوء . خطر بباله أن يذهب الى المطبخ يعد بيضتين ، إلاّ أنه عدل عن هذا المشروع بعد لحظة . يجب أن ينام . والتفت ببصره نحو النافذة العالية الضيقة ، التي يتصور من خلالها السماء في قرارة الظلام . كان المطر قد عاد يهطل ، وكأنه لن ينقطع عن الهطول .

وفجأة رأى وجهه في مرآة ، فكاد يصرخ .

وارتمى على سريره بثيابه . دقت ساعة الجدار . تمسك بعوارض السرير . ارتعش . ان الرطوبة تتسلل فيه ببطء . وسمع وقع أقدام في غرفة أخرى ، بعيدة . ودقت ساعة الجدار مرة ثانية . . انتظر الدقة الأخيرة . دقت الساعة أكثر فأكثر ، في هذا الصمت الذي يضخمه تساقط المطر في غير انقطاع . يجب عليه ان يركض أيضاً . وهذا نشيج يهزه هزاً . كان لا يتقدم إلاّ في عناء . ان الليل والمطر دائمان هناك منذ مدة طويلة . وتجمع أشخاص كثيرون ، وأشعلوا ضوءاً . غير أن أنوارهم لا تفيد في الرؤية بقدر ما تفيد في إضاءة وجوههم . وقام صراخ ،

واضطربت أصوات . انهم بعيدون . وحاول بعضهم أن يلاحقه .

إنه الآن مائل فوق منضدة المفتش : السجائر قد حرقت خشب المنضدة في بعض المواضع وخلفت فيها نقاطاً سوداء . كان المفتش واقفاً . ان طوله لا يزيد على متر وستين سنتيمتراً ، لكن له بطناً ضخماً . المصباح الكهربائي عند مستوى صدره . قميصه الأبيض الذي تحت السترة قد فك زر (ياقته) . أطراف السترة غارقة في الظل . الآخرون صامتون جميعاً . النور الاصطناعي يصلب وجوههم التي بدت متعبة ، أخرج المفتش يديه من جيبيه وأسندهما الى المنضدة . كان قد رفع كرسيه الى الحائط . وأخذ يهدر كالطبل . . كان لا يسحب انفاساً من سيجارته ، ولكنه استمر يهدر . لا شك ان عقب السيجارة ، الملتصق بشفتيه ، كان قد انطفأ .

لم يكن خدّا المفتش محلوقين . ان له فمّا بارزاً . وشفته السفلى متهدلة . هل تراه يتوقف عن الهدير ؟

قالوا في أنفسهم : هأنت ذا ترى أنك أصبحت لا تستطيع أن تقرر شيئا ، لان كل شيء قد تقرر بدونك . سترى بعد قليل هل له الغلبة أم لك . تخيل ما ستكون أنت . هل تستطيع أن تتخيل ، هل تستطيع ؟

وكان الماء يقرقع في الخارج على الارض . وكان يقرقر عند فتحة بالوعة قريبة كل القرب .

ثم استحال كل شيء الى أغنية . ان دخانا مستقيما شفافا يتصاعد في وسط الحقول . وسماء الصباح ممتدة كسماء الليل : هي لينة ، والهواء حاد قاطع . ونهر لا يرى ينحدر من الجبل .

وأخذ النهار يحترق على رؤوس الاشجار . كانت الاغنية تتصاعد قوية ، بينما كانت الطيور تخدد الفضاء بصيحات قاسية . وما هي الا لحظة حتى انقلبت الاشجار المليئة بالعصافير الى صيحة واحدة متجهة الى السماء اللازوردية .

إنه فرح يصل بوثبه ، يصل من بعيد ، ثم لا يلبث أن ينسحب لكنه فرح على كل حال .

ما من فرح كهذا الفرح . بهذا حدث حميد سراج نفسه . وراح ينصت للأغنية العميقة التي لا يدري أكانت تنبع من نفسه أم من هذه الأرض .

ماذا كانت هذه القوة العارمة التي لا تقاوم ؟ ماذا كانَ هذا الأمن ؟

أحسّ أنه لا يمكن أن يموت . أحسّ انه ما من شيء يمكن أن يموت . . يا له من فرح ! يا لها من مفاجأة ! هذا اليقين الذي جاء دفعة واحدة! . .

راح حميد يتأمل السماء من خلال الكوة ، راح يتأمل السماء العالية جداً ، السماء التي كانت تتلألأ . . كان هذا الهواء المعطر آتياً من مسافات بعيدة قطعها . ايه أيتها الأرض الخفيفة القوية . .

وتذكر فلاحة عجوزاً اقتربت منهم ذات يوم بينما كانوا بضعة أشخاص في الحقول . تذكر كيف قالت بصوت عال حتى يصل كلامها اليهم :

ـ كبيرة أمنا الجزائر .
كانوا جميعاً يعرفونها . وسارت في طريقها دون ان ترميهم بنظرة واحدة .
ابتسم الرجال . وناداها أحد الفلاحين قائلاً :
ـ خالتي خيرة اسمعي . من تكلمين ؟ أتكلمين نفسك ؟
قالت العجوز الصغيرة :
ـ أكلم عصاي . غريب ألا يستطيع المرء أن ينطق بحرف دون أن يكون هناك من يلتقط كلامه . .
قالت ذلك وتجهمت لهم . وأضافت تسأل :
ـ ماذا تحملون لنا من أنباء ؟
انها تعلم ان حميد كان آتياً من المدينة . ولكنها لا تريد أن تظهر بمظهر من يسأله . فألقت سؤالها على الفلاحين في غير كلفة .
أجاب حميد ، وقد فهمها :
ـ الأنباء ما ترين . كل شيء يسير على خير حال .
ـ أهذا رأيك ؟ لا تطيب الحقيقة إلاّ مدفونة في بئر . هل تعتقد ان خيراً سيقع ؟
ـ طبعاً .
ـ أسأل الله ان يصدق ما تقول . لا يهمنا أن يطول الليل ما دام الصبح طالعاً لا محالة .
ومضت الخالة خيرة بخطا قصيرة عنيدة ، وظلّ الرجال صامتين لحظة من الوقت .

خيل إلى حميد أنه الآن في بيته بعد أسفار طويلة كثيرة . قال لنفسه : أنا الآن أرتاح بين أهلي وقد هجرت حياة التشرد الى الأبد . . انني أقبل أن يعلمني اخوتي كيف أضع قدمي أمامي . سأدعهم يقودونني ، وأن يأخذوا بيدي ، لنطأ الأرض . انني مؤمن بهم . الحمد لله .

لقد بقيت لي هذه الأرض وبقي لي هذا الشعب العظيم ، فأستطيع أن أتجه إليهما . نحوهما سأمشي بعد الآن . وحدهما سينقذانني . . ليأت ذلك اليوم الذي أستطيع فيه أن أجتاز جميع المدين وجميع القرى ، فأزور كل واحد من سكان المدن ، وكل واحد من الفلاحين . . فإذا رأيت قروياً يقبض على فأسه في صورة رائعة وقفت أتأمله ساعات وساعات . إن هؤلاء الرجال يوقظون الفرح في النفس .

أما (الزنزانة) الفظيعة ، ووجوه الحراس الجهمة الكالحة ، والجدران الرمادية ، ورائحة النتن والرطوبة التي تملأ دهاليز السجن ، وصيحات السجناء وأناتهم ، النافذة الصغيرة المنقوبة في الجدار السميك ، والوحدة الكئيبة . أما كل هذا فانه في ذلك الصباح لم ينتبه له .

يستطيع الآن أن يغفو . ويرتاح . ان نومه لم يقتل . لن يقضي لياليه بعد الآن في أرق

معذب . لقد أنقذ . فكر في الوسائل التي تبيح له أن يتصل بالخارج . لا يزال في وسعه ان يساعد رفاقه .

وأحسّ شيئاً فشيئاً ، إحساساً غريباً بأنه يتعلم الحياة من جديد في هدوء ورفق . لم يكن في أول الأمر قد وجد في نفسه إلّا عنفاً قاسياً يعميه . وهذا قلبه الآن ، وقد تكلس كالفحم ، يكشف زوايا مظلمة طرية . انه يرتعش . ان هذا المسير لا يزال يتم بكثير من الآلام والعثرات . وفي حذر وتأن تعرف المكان في هذه الزنزانة التي تتم له فيها اليقظة . كان عليه ان ينتصر على كل تعجل . كان عليه أن ينتظر قليلاً . إنه عائد من جحيم شعر فيه بحضور العدم حضوراً ملموساً .

ـ ١٤ ـ

انتشر الأمر بالاضراب في جميع القرى . ففي المنصورة ، وأمامة ، وبريا ، وصفصف ، وفي المنطقة كلها ، قرّر العمال الزراعيون ان يتوقفوا عن العمل . وهذه جماعات منهم تتناقش في الموضوع هنا وهناك .

وما لبثت دوريات الدرك والشرطة أن أخذت تطوف في الحقول . قال أحد المستوطنين الفرنسيين لرجال الدرك :

ــ يجب ان ندافع عن أنفسنا الآن .

لقد ضرب الشاب شريف محمد بالدبوس في مزرعة ماركوس فانشج رأسه ، وجرى الدم غزيراً على وجهه وثيابه ، وسرعان ما نقل الى كوخ من أكواخ الفلاحين يخبأ فيه . وسيق أربعة آخرون الى السجن .

ولقد شهر المستوطن الفرنسي ماركوس مسدسه وحمل العمال على العمل . وفي آخر النهار الأول . في نحو الساعة الخامسة من العصر ، كان جمع من الفلاحين قد احتشد عند حافة الطريق العام . انهم أكثر من خمسمائة فلاح . وقام عدد منهم يتكلم ويؤكد انهم سيمضون في الاضراب الى النهاية باجماع الآراء .

وحين أخذت جماعاتهم تتفرق ، وصل أحد المرابعين فقدم للمضربين كيسين من البطاطس ، وتعهد بأن يلبي مطالبهم .

وفي صباح الغد وصل وفدان من عمال المدينة ، أحدهما يمثل عمال البلدية ، والثاني يمثل عمال السكك الحديدية ، جاء هذان الوفدان لتحية المضربين ولاعلان تضامنهم معهم . وقد شفع عمال السكك الحديدية هذه البادرة الطيبة منهم بتقديم مبلغ ثلاثة آلاف فرنك : وتبرع واحد بمفرده من النقابيين بخمسمائة فرنك .

واجتمعت المنظمات النقابية في تلمسان فقررت تشكيل لجنة لدعم الفلاحين ، وأصدرت

نداء الى العمال ، ثم شرع فوراً في جمع التبرعات .

وبعد ثلاثة أيام كان ألف عامل ، في « حنايا » وحدها ، قد توقفوا عن العمل . ونظم عمّال نجربيه صفوفهم أيضاً واستعدّ عمال « عين الحوت » و «طه ماميت » للاقتداء بالمضربين . كان الاضراب يتسع شيئاً فشيئاً .

نحن في الأيام الأخيرة من شهر أيلول . لا يزال الجو صحواً الى الآن . الحقول اصطبغت بلون كلون الآجر . انها تقسو ، ولوقع الأقدام عليها صوت مشئوم . أينما تتوجه ببصرك لا ترى إلّا قشاً محمراً . العشب لا ينبت . الشمس الجزائرية الحمراء تقرض هذه الأرض حتى العظام ، وتحيلها تراباً ناعمًا . قحط الشتاء بدأ . العمال الذين يعملون بأجر يومي يتركون المزارع وينضمون الى رفاقهم المضربين .

وعلى مقربة من بني بوبلان تألفت في ذلك اليوم جماعة للنجدة بفضل جهود عدد من الفلاحين بينهم علي بن رباح قائلاً في ختام المناقشات :

ــ منذ خمسة عشر يوماً لم نر قطرة من الزيت في بيتنا . انني مدين للبقال ، وليس معي ما أدفعه له . إننا نموت شيئاً فشيئاً . إننا نطالب بحق الحياة لنا ولأطفالنا .

وهذا صبي أشقر ، يبدو في الثالثة عشرة من سنة ـ عيناه خضراوان وشعره أشعث ـ يأخذ بالكلام فيقول :

ــ ان طعامنا الشعير ، وفراشنا الأرض العارية . ليس عندنا ملابس . هذا البرنس العتيق هو ردائي الذي استتر به ، وغطائي الذي ألتحفه . أنني مضرب أنا أيضاً .

وصمت ثم أضاف :

ــ أمي لم تمت الى الآن .

وبعد الطفل جاء رجل فقال :

ــ أنا من دوار « عشبة » ولكنني عملت دائمًا هنا ، وأنا وأولادي وزوجتي ، لم يتركنا الجوع في أي يوم من الأيام . . فلو أخذتموني الى دكان بائع من باعة الطعام لأكلت كل ما عنده . ان أطفالي يموتون جوعاً . لذلك أقول : أمضوا في الاضراب الى النهاية . لقد بلغنا غاية البؤس . فما الذي نخشاه ؟ بالأمس القريب جاءني بيان الضرائب ، فإذا هم قد سجلوا علي ثماني مواعز ، ولم يكن عندي منها إلّا اثنتان . والآن لا أملك ماعزة واحدة . هذا هو الوضع .

واقترب با دعدوش بدوره . أن با دعدوش كان قد عمل في مزرعة فيار ، ثم طرد بعد ذلك من كوخه .

ــ رموا بنا الى الخارج أنا وزوجتي وأولادي وما لنا من أمتعة . ان ابنتي الكبرى ريم التي كانت تسير في عامها السادس عشر ، كانت تعمل خادمة في منزل مسيو فيار لقاء اطعامها فحسب . ولقد ظلت تعمل في منزلهم ست سنين . ثم مرضت ، فما كان من مسيو فيار إلّا أن

طردها ، غير مكتف بأنه أرهقها بالعمل . وماتت بعد قليل . وسألني هل عندي ابنة أخرى أقدمها إليه . أما أنا فقد رفض أن يعهد إلّي بأي عمل ، قائلاً أنني قد هرمت .

وتوقف با دعدوش عن الكلام ، وتقدم يقترب من الجمع ، ويمر أمام كل واحد منهم ، حتى اذا انتهى من ذلك مضى الى طرف من الأرض ، فانحنى عليها ، ثم اذا هو يعود حاملاً فوق رأسه كتلة كبيرة من الصخر ، وجعل يطوف على الحشد ، متنقلاً من فلاح الى فلاح ، وهو يهز كتلة الصخر بكلتا يديه . وتابع يقول :

ــ أنا هرم يا مخلوقات الله ؟

ألقى هذا السؤال على جميع من كانوا هناك :

ــ قولوا : أيعد رجل مثلي عجوزاً هرماً ؟

كان صوته يدوّي . وسار الى الصبي الذي يرتدي برنسا عتيقاً من برانس الرجال ، وقال له بصوت رهيب :

ــ هل يعد رجل مثلي عجوزاً هرماً ؟ تكلم يا بني . سيعلم الناس الحقيقة من فمك .

قال الصبي الأشقر بلهجة الموافقة والمصالحة :

لا ، يا عم با دعدوش . لست هرماً . لا يمكن أن تكون هرماً .

وعاد با دعدوش الى ناحية الأرض التي جاء منها بالصخرة ، فردها الى مكانها ، ولما رجع قال دون أن ينظر إلى أحد :

ــ ولقد رفضت أن أعطيه بنتاً من بناتي . أعلنت له أنني غير مستعد لاشقاء طفلة بريئة . انني رجل . أأنا رجل أم لا ؟ يجب ان أعرف !

قال ذلك ثم صمت وهو ممتلىء تحدياً .

وعاد يدمدم قائلاً :

ــ فلما رفضت ، قرر ان يطردنا جميعاً من الكوخ الذي سبق أن أعطانا إياه ، قرّر أن يطردنا دون أن يراعي جانبي أنا الذي أنفقت قواي كلها في خدمته ، ودون ان يراعي جانب ابنتي الميتة . والكوخ أنا الذي بنيته مع ذلك ، بنيته بيديّ هاتين .

قال ذلك وهو يرفع راحتيه العريضتين القويتين أمام وجهه ، فيعرضهما على الجمع . ونظر إلى هؤلاء الرجال المحتشدين بعينين تفيضان بحزن ومرارة . وارتعشت لحيته الموزعة خصلاً شعثاء ، بينما كان الفلاحون ينظرون اليه كالخرس صامتين .

ثم قال :

ــ ستدور الدنيا أيها الأصحاب . من ذا الذي يعرف ما سيقع غداً ؟

ولكن با دعدوش لم يشرح ما عساه يحدث ، ولا الآخرون سألوه عن ذلك .

جاء أحد المستوطنين الفرنسيين بغتة الى مقهى من مقاهي العرب ، يتبعه أبناؤه وبصحبته

عشرة من رجال الدرك ، وقد تسلحوا جميعاً بالبنادق ، فانتزعوا من المقهى بالتهديد من كانوا في حاجة اليهم من الرجال . ومضى رجال الشرطة يوقظون العمال من نومهم في الليل . وحرق عمدة احدى القرى عريضة تقدم بها الفلاحون بشأن المعتقلين : فعل ذلك بحضور رجال الدرك . فتقدم الفلاحون الى العمدة بعريضة أخرى .

وفتح أحد المستوطنين الفرنسيين مخزنه ، معلناً انه سيوزع على كل أسرة من أسر العمال الزراعيين كيلو من القمح . ولكن جميع الفلاحين كانوا قد اختفوا . ورفض أن يلبي نداءه أحد حتى الأطفال الذين لا يكادون يمشون . وعاد الرجالُ في أثناء ذلك اليوم ، عادوا وهم يشهرون في هذه المرة قبضات أيديهم . فاقترب منهم رجال الدرك وهم يخرجون مسدساتهم من أغمادها .

اعتقل اثنا عشر فلاحاً على الفور . وأطلق سراح تسعة منهم عند العصر بعد أن ضربوا بالهراوات .

وفي دوار سيدي موسى هجم رجال الشرطة على الفلاحين وأوسعوهم ضرباً . وصمد هؤلاء للضرب ، فما كان من رجال الشرطة إلاّ أن شهروا بنادقهم الرشاشة .

وفي أثناء الاستجوابات ، كانت الشرطة تلح في السؤال لمعرفة المحرضين على الاضراب . فكان الفلاحون يجيبون بقولهم :

ــ المسؤول عن الاضراب ؟ هو البؤس الذي نحن فيه .

وتحدث المستوطنون الفرنسيون عن الاخلال بالسيادة الفرنسية . وفي تلك اللحظة أعلن تسعة من صغار أصحاب البساتين انهم موافقون من حيث المبدأ على تلبية المطالب المعروضة وان كبار الملاك من المستوطنين أولى بأن يلبوا مطالب عمّالهم ، وأن تعنتهم لا مسوغ له .

ان القرويين يوصدون الآن أبواب منازلهم قبل هبوط الليل . إن قلقاً كبيراً يحلق فوق الريف .

لا أحد في الطرقات . لا فلاح في الحقول . البلاد صامتة .

لكن مزارع المستوطنين الفرنسيين تتلألأ أنوارها . وفي أفنية البيوت حركة لا تنقطع وضوضاء . ترى ما مآل هذا كله ؟

وقيل في احدى المزارع :

ــ يستحيل على المرء ان يعيش في بلد لا يعرف ماذا يجري فيه .

فما كان من ربة البيت إلاّ أن أجابت تقول :

ــ انني أدخل شقتي ، وأغلق بابي ، فتزول الجزائر من الوجود عندي .

أما لدى سكان بني بوبلان ، في أعلى الطريق ، فقد كان الصمت من العمق بحيث يظن المرء انه في قرية مهجورة .

ودوت في ذات ليلة صرخة : النار .

سرعان ما امتلأت السماء القاتمة فوق الكروم بأضواء حمراء . ان الأنوار الارجوانية تصطدم بضباب الليل ، وتصبغ الهواء الرطب ، وتجعل السماء أشد ثقلاً . أخذت البرية كلها ترتعش . ففي كل مكان همهمات سريعة واضطراب لا يرى ، ووجود يكشف عنه فجأة تكسر أغصان . وأخذ جريان العربات يهز الطرقات الصامتة شيئاً بعد شيء . كان هدير البرية هذا في أثناء الليل يصفع الهواء ، ويغور في الأفنية المظلمة ويرجف الأبواب الموصدة ، وينفذ الى قلوب الناس بقوة كقوة السيل .

أمام صف من الأكواخ الصغيرة التي كان يخرج منها لهب كبير ، كان عدد من المستوطنين الفرنسيين يقفون صامتين : كانت وجوههم تصطبغ بالحمرة من لحظة الى لحظة أمام التماع النار المهتز . ان أذرعهم متدلية . وفي أيديهم بنادق كبيرة يقبضون عليها . انهم واقفون في ترقب وانتظار . ووصل وراءهم عدد من الفلاحين . كانت النار الواسعة قد التهمت المساكن البائسة وأخذت تهضمها . وكان الرجال مبهورين قد ذهلوا عن أنفسهم .

وعلى مسافة بضع خطوات من النار كان هنالك فريق من الفلاحين أخذوا ينصتون في كثير من الانتباه لرجل كان يتكلم ، دون أن يحفلوا بوجود السادة :

ـ هلموا بنا .

ـ هلموا .

ان المستوطنين الفرنسيين يلقون على هذا الفريق من الفلاحين نظرات باهتة كابية . وظلوا جامدين في مكانهم كأنهم كتل من حجر الصوان . راحت أبصارهم تنتقل على اللهب ثم انتقلت في دهشة الى الفلاحين . ورفع أحد هؤلاء الفلاحين يده الضخمة ، وحركها يهيب بالقرويين أن هلموا ، ثم أسبلها .

ـ اذهبوا الى بيوتكم .

ان مسيو فيار ، الضخم القصير ، هو الذي قال هذا الكلام . والفلاحون أناس تعودوا الطاعة ، لذلك وقعت هذه الكلمات في نفوسهم موقع الأمر ، فتراجع بعضهم ، غير أنهم لم يبتعدوا ابتعاداً تاماً .

ووصلت من الحلقة المتراصة عدة أصوات ، أولها صوت الفلاح الذي كان يناقش منذ لحظة بصوت أبح ، قال :

ـ لا . . لا . .

لم يوجه كلامه الى المستوطنين ، بل وجهه الى الرجال الذين كانوا محيطين به . وسمعت كذلك دمدمات وهمهمات .

ـ لا ، لا . .

ان أصواتاً كثيرة تدوي معاً في آن واحد ، غير ان الكلام المتقطع الذي قاله الفلاح كان يغطيها جميعاً . لقد فرض هذا الفلاح نفسه على الآخرين بسلطته وسطوته . وما هي إلّا لحظة حتى تعالت النداءات من كل مكان تقول : هيا ، هيا . .

وسرعان ما تفرق الفلاحون في جميع الجهات . فهم يحملون التراب ببطون جلابيبهم ، وراحات أيديهم ، وبالأكياس المشدودة الى أجسامهم ، ويهرعون الى النار ثم يبتعدون مرة أخرى ، ثم يعودون الى الأكواخ التي تتصاعد منها ألسنة اللهب ، ثم يستأنفون هذا العمل في غير هوادة ولا مهادنة . وكان سليمان يركض مترنحاً ، وإلى جانبه تنسل ظلال أخرى في حركة متصلة مضطربة . وكان تأجج النار يزداد إزدياداً لا حدود له ، فكلما وثبت ألسنة اللهب وثبة جديدة انتفض قلب سليمان وقفز من مكانه . كان سليمان يحدث نفسه قائلاً وهو يرتعش : « يجب ان ننقذ ما يمكن انقاذه . ما أشقى حياة الفلاح! ». ثم يركض كالمجنون . كالسكران ، لا يكاد يفهم شيئاً مما يقع .

وترك المستوطنون الفرنسيون لهؤلاء الفلاحين ان يعملوا ما يريدون . وذلك بعد لحظة قصيرة من تردد . فنقل الفلاحون من التراب ما استطاعوا ان ينقلوا .

كلّم سليمان مسكين الرجل الذي كان الى جانبه ، فلم يجبه هذا بشيء ، فأمسك بذراعه ، فرأى دموعاً غزيرة تسيل على خديه ، وتختفي في لحيته الصغيرة الشاحبة اللون . قال له سليمان :

ـ وصل رجال الشرطة يا عزوز .

ولكن الرجل كان لا يرى بعينيه إلّا هذه الأكواخ المكلسة التي أصبحت الآن كومة صغيرة من رماد وفحم . لقد احترق كل شيء . انه لحريق مطهر نظّف المكان كله . ولكنه لم يتجاوز الأكواخ المعزولة القائمة في وسط الحقول . وتركت النار مربعات من الأرض محترقة .

إن النور الضعيف يضيء هذا المشهد ، ويسبغ على جميع الأشياء هدوءاً مألوفاً .

قال الرجل :

ـ هل علينا ان نحتمل رجال الشرطة أيضاً ؟

وحدث سليمان مسكين نفسه قائلاً : « ما كان للمرء ان يصدق أبداً أن أكواخ الفلاحين يمكن ان تحدث هذه النار الجميلة ». وعاد يتصور أعمدة الدخان تنتشر وتتلوى فوق الحريق . انها أعمدة لا تنتهي ، تعلو ألسنة رائعة من اللهب . والحقول التي حول الحريق تلتمع التماعاً قاتماً . كانت الرايات المشتعلة تصطفق ثم تتمزق تمزق الصراخ وكان تواثب النيران في خفة يغذو قلق الرجال . نعم لقد رأى سليمان ذلك كله بأم عينيه ، ولقد سمع سليمان صراخاً وصياحاً . انه لم يحلم .

لقد شب حريق ، ولن ينطفىء هذا الحريق في يوم من الأيام . سيظل هذا الحريق يزحف

في عماية ، خفياً مستتراً ، ولن ينقطع لهيبه الدامي إلّا بعد أن يغرق البلاد كلها بلألائه .

كان للمنطقة في ذلك اليوم وجه الأيام المشئومة ، واصطبغ ذلك الصباح بلون قاتم من ألوان الحداد . ولقد قضى الناس ليلتهم في أرق ، ففي وجوههم يبدو الآن حزن مظلم . كانت رؤوسهم فارغة ، وكان في أفواههم مذاق مرّ .

وها هم أولاء لا يشتهون أن يتكلموا ولا أن يتحركوا ، مثلهم في ذلك كمثل من أفاق من كابوس رهيب .

احتل رجال الشرطة الريف الأصم . وتوغلوا في حقول واسعة فارغة ، وضياع صغيرة مهجورة . والشك والخوف يمتدان أمامهم امتداد الضباب . انهم يمضون من مكان الى آخر مسرعين ، بنوع من التعجل الآلي . إن كل خطوة من خطواتهم تغرز زاوية مسنونة في هذه الأرض .

البلد هادىء . سليمان يطوف في الحقول . والفلاحون يسيرون على غير هدى الى أهداف غامضة . يلتقي بعضهم ببعض ، فلا يكادون يتوقفون . ان عدداً منهم يكتفي بأن يهزّ رأسه . وتفيض قلوبهم عياء ، فما ينفكون يسيرون ويسيرون ، صابرين الى أبعد حدود الصبر ، ورجال الشرطة يقتربون منهم ، ويدورون حولهم ، ويتفرسون فيهم .

قال سليمان لنفسه : « ان طاقات البلاد لم تستيقظ بعد » . كان الناس أشبه بمن غرق في حالة من حالات السرنمة . انهم يمشون وأمارات النوم تلوح في وجوههم . وتابع سليمان حديثه لنفسه قائلاً : « غير ان هناك ، في الأعماق ، نزوعاً عارماً الى التمرد والثورة ، نزوعاً طافحاً فائضاً ، يتهيأ لكي يزعزع النظام بأكمله ، ولكي يزعزع دعائمه الفولاذية . ولعل العناصر الفعالة في البلاد قد شرعت منذ الآن في النضال » .

وهرع سليمان الى الطريق العام ، ترك الدرب الأغبر ، درب مزرعة فيار ، وأدرك انه لم يتغير هناك شيء .

ان زرافات صغيرة منعزلة من الفلاحين كانت تتجمع في أحد الدروب الضيقة . ثم ان بعض الشيوخ كانوا يرفعون أيديهم الى السماء ، وهم يحركونها حركات ويقولون معلقين :

ــ لم كان هذا يا الله ، أيها القادر على كل شيء ؟ لو انهم ارتضوا الأجور التي كانت تدفع لهم ، لما وقع شيء مما وقع . أين الخير الذي جنوه في ذلك ، أين هو؟ . .

وهذا با دعدوش يتقدم ، وينتقل من جماعة الى جماعة ، قائلاً أنه لا يجب ان يناقش مسألة الأجور اليوم . انه ما ينفك يعلن :

ــ انما يجب الآن أن نكشف عن الجناة .

ــ فمن هم الجناة في رأيك يا عم ؟

ــ يجب ان نبحث عنهم !

ـ حقاً يجب ان نبحث عنهم . الناس جميعاً يعرفون ذلك .
ـ أقول لك الحق .
ـ ولكن ما رأيك انت يا عم ؟ هل الجناة بيننا أم هم ليسوا بيننا ؟
ـ هذا ما سنعرفه .
ـ نعم سنعرفه . ولا تكلف نفسك كثيراً من العناء ، وإلاّ تعبت وأنت رجل عجوز .
تابع الشيخ يقول بلا رحمة :
ـ شعوري ، شعوري انهم ليسوا بيننا .
ـ من هم اذن ؟
ـ يجب ان نبحث عنهم . .

ان الرجل الذي كان يصغي الى كلام با دعدوش ظلّ فاغراً فاه ، لا يعرف ما الذي يقوله ، أو ما الذي يهاب أن يقوله . وأخذ الفلاح العجوز يلاحظ وينتظر واذا بنوع من الشفقة على هذا الرجل الذي لا يزال شاباً يغزو قلب با دعدوش . وإذا بعينيه تتقدان اتقاداً شديداً ، وتولى با دعدوش اكمال الكلام بصوته المرتج الذي كان يتعكز على الألفاظ .

ـ لا شك انك تقدر أننا لن نعرفهم أبداً ما داموا ليسوا منا . ولعلك على حق في تقديرك . بل انك حتمًا لعلى حق . لن نعرف المجرمين . انهم لا يشعرون بشيء من القلق ولن يشعروا . هذا هو الحال . لقد آلفنا هذا واعتدناه ، أليس كذلك ؟ لا شك في انك قائل أننا ألفنا هذا واعتدناه ، وأننا لا حيلة لنا في الأمر ، وليس في وسعنا ان نعمل شيئاً . إلاّ أن المهم يا بني هو ان نعرف نحن من هم الأبرياء !

كانت عينا العجوز قد ضاقتا أشد الضيق وهو يقول هذا الكلام . ان وجهه الآن أشبه بوجه رجل آسيوي . تفاحتا خديه ناتئتان ، ومنهما يخرج حقل من الأخاديد والغضون . . لكأنه يضحك! . . ولكنه صامت صمتاً كاملاً . وكأنه مسرور أشد السرور بما وقع . ولكن ذلك التعبير نفسه لا يزال ملتصقاً بقسمات وجهه . وانقضت لحظة طويلة . ان التعبير الملتصق بهذا الوجه المليء بالندبات لم يتبدل أي تبدل . ان وجه با دعدوش لا يزال محتفظاً بذلك التعبير الفرح . انه ساكن سكوناً مخيفاً . ان لمعاناً بارداً كلمعان النصل يتلألأ بين أجفانه التي لا تكاد تنشق إلاّ قليلاً .

وكان الرجل الآخر يتفرس فيه أكثر مما يصغي إليه . وعندئذ استأنف الشيخ يقول . .
ـ نحن نعرف أين هم الأبرياء . انهم موثقون بالسجن ، والضرب . . والدم أيضاً . ان دمنا يسفح ، وسيظل يسفح ما في ذلك ريب وهكذا سوف تتحد صفوفنا . انه لأمر فظيع أن يكون المرء بريئاً في زمان كهذا الزمان .

وانقطع الشيخ عن الكلام ليحدق إلى الآخر . ان التعبير الفرح المخيف لا يزال مرتسمًا على وجهه . ولم يتحرك وجهه . إن رأي با دعدوش كان دائمًا أشبه برأي فلاح صيني .

ــ إنه لأمر فظيع أن يكون المرء بريئاً . لن نستطيع الافلات من دمنا . لن يفلت منا أحد . سوف تلبي البلاد كلها نداءه . انما نحن الأبرياء . وما يحل بنا اليوم إنما هو العدل .

وكرر الشيخ هذه الكلمات الأخيرة وجسمه كله ينتفض . ثم خفض لهجته فجأة ، ودمدم على الرجل بصوت حيادي متعجل قليلاً ، قال :

ــ فلنظل متحدين بالدم الذي بيننا . ذلك ما يجب ان يقال للناس كافة . ستصل الشرطة من لحظة الى أخرى .

وابتعد الشيخ دون ان ينتظر من الفلاح جواباً ، أو تأييداً . أو سؤالاً ، ابتعد وهو يتكلم وحده بكلمات مهمومة غير مفهومة تتخللها أصوات التعجب ، ابتعد وهو يسير بخطا متواثبة ، غريبة ، ويهزّ عصاه بحركة متقطعة .

ومضى با دعدوش بعد ذلك من جماعة الى جماعة متمهلاً ، لا يتعجل ولا ييأس كأن الأبد كله أمامه . كان يتجه بالكلام الى جماعة من جماعات الفلاحين ، وكأنه يهجم عليهم لإهانة دامية وقعت له . كان يقول في كل مكان بعنف مستبد :

ــ يجب أن نبحث عن الجناة . هذا ما يجب .

وكان أكثر الفلاحين يسمعونه دون أن يبدوا ملاحظة من الملاحظات الا ما كان أغرب عناد هذا الشيخ كان يتجه اليهم جماعة بعد جماعة ويصر إصراراً لا يلين على ان ينتبهوا له . كان يفعل ذلك دون أن يبدو انه من رأي أحد . كان جميع الذين يصغون إليه يتحولون عنه وقد انقبضت وجوههم . كانوا يبتعدون واحداً بعد واحد ، كأنما هم يحملون سراً من الأسرار . وكان هو يتابع مهمته بلا كلال ولا ملال ، متنقلاً من واحد الى آخر بخطا متواثبة كخطا الجراد ، ثم ما ينفك ينتقل وينتقل . ان إرادة أقوى منه تحرك ساقيه اللتين تخرجان من سرواله القروي ، وقد بلغا من النحول حدا عجيباً لا مزيد عليه . وكان يتوقف من حين الى حين ليرتاح قليلاً ، وقد أخذ رأسه يهتز . ثم يستأنف سيره لا يتعب ولا يني يردد تلك الأقوال نفسها .

وفي أثناء ذلك كانت سيارات وطيئة سوداء لها بطن كبطن النمس ، قد أخذت تجوب الريف .

ان الوجوه تظهر من خلال الزجاج . انهم رجال الأمن العام .

لاحظهم سليمان مسكين . انه يعرف هذه الوجوه . كانت كل عربة من هذه العربات تقف في مكان خاص فيثب جنود الشرطة منها بسرعة ، وينظمون أنفسهم وينظر بعضهم الى ما حوله . لقد سبق أن أتوا الى هذه المنطقة في أثناء الاضراب . ان لهم وجوهاً واحدة وملامح واحدة .

واتجهوا أول الأمر بخطا سريعة الى مزرعة فيار . ان الفلاحين الذين كانوا في طريقهم لم يلقوا عليهم نظرة واحدة . حتى اذا تجاوزوهم ، التفتوا الى الوراء وتابعوا طريقهم دون توقف .

قال سليمان مسكين يخاطب نفسه : « أرجو أن نصمد ».

ان فلاحي بني بوبلان يتنظرون على قلق محموم . ولكنهم يحافظون على هدوئهم . لقد برهنوا برهانا واضحاً أثناء هذا الاضراب على انهم يعرفون كيف يسيطرون على انفسهم وكيف يسلكون سلوكاً واعياً . وقد فوجيء المستوطنون الفرنسيون بذلك ، فقد كانوا يظنون ان الاضراب والفوضى سيذهبان بألباب الفلاحين في لحظة لهذا كانت دهشتهم مما أظهره الفلاحون من هدوء لا تقل عن دهشتهم من الاضراب نفسه .

وقد استمر هذا الاضراب الجديد بلا تخاذل ، رغم ان عدداً من الرجال عادوا الى الحقول . وهؤلاء كانوا بوجه خاص أناساً ممن ارتبطوا بمزرعة من المزارع منذ ولدوا . وقد دعمهم رجال من مراكش اجتازوا الحدود سراً ، ولم يمتنع المستوطنون عن تشغيلهم بأجور أقل ، رغم القوانين ، وذلك ليضربوا بهم عمال الجزائر . على ان هذا كله لم ينفعهم في شيء ، فقد صمد الفلاحون صموداً عنيداً ، ورفضوا العروض الفردية الخداعة ، ورفضوا المساومات السرية ، والتساهلات ، والربت على الظهور ، والكلمات المعسولة .

كان المستوطنون يقولون لهم ـ دون أن يسألهم أحد من الفلاحين شيئاً ـ كلاماً كهذا الكلام :

ـ أنا صديق للعرب يا أحمد . تعال أعمل . أنا أعرفك وأنت تعرفني . تعال . يجب ان تأكل ، ويجب ان تأكل امرأتك وأن يأكل أولادك . انا لست مثل . . .

يقول المستوطن الفرنسي ذلك ويذكر اسم مستوطن فرنسي آخر.

ـ أنا أدفع أجوراً طيبة ، وأنا صديق الـ . . .

أخذت الزراعة تتلف . ولكن الفلاحين الذين يفاوضون على انفراد كانوا يتملصون بمرونة ويتجنبون الأسئلة والعروض ببراعة . كانوا لا يريدون ان يفسدوا أمراً .

وها هم أولاء رجال الشرطة يحتلون الريف ، وها هي ذي مساكن العمال يشب فيها الحريق . .

والمستوطن الفرنسي الذي قال : « يجب ان تأكل امرأتك وان يأكل أولادك »، لم يعد في حاجة الى الالحاح ، فالفلاح الذي قال له المستوطن الفرنسي ذلك الكلام هو الآن في السجن .

ـ ١٦ ـ

ـ كيف وقع ذلك ؟ كيف ؟ تسأل كيف وقع ؟ إرادة القدر .

هذا ما قاله عزوز .

كان يبدو في صوته الاذعان والتسليم . وأصبح لا ينتبه لمن يحيطون به . انه غارق في التفكير .

وكان كل واحد ممن حوله يتأمل يديه اللتين تستريحان على ركبتيه مبسوطتين مقلوبتين . كان عزوز متربعاً على الأرض وقد اشتبك ساقاه اشتباك ذراعي المقص .

ان الفلاحين يجدون أنفسهم الآن أمام وقائع جديدة تتوالى من كل صوب وتنتصب بين جدران الطين الأربعة من هذا الكوخ . انها أحداث ، ولكن أي أحداث هي تلك الهواجس التي لا شكل لها ولا وجه، ان صح التعبير ، وهذا اليقين الذي لا يختلج فيه أي معنى واضح ؟ لعلها نداءات ؟ ولكن من أين عساها آتية ؟ أهي تنبيهات ولكن من الذي تراه يطلقها ؟

ما من احساس نفذ الى جميع القلوب نفاذاً أعمق من نفاذ هذا الاحساس بأن ثمة قدراً قد مثل الآن على حين فجأة . هذا العالم الذي شدوا اليه بجذور عميقة ، هذا العالم الذي كانوا جزءاً منه حياً ، صائر الآن الى موت نهائي ، ليبعث بعثاً جديداً . في هذه الساعة القلقة التي ينهار فيها كل شيء ، وينسد فيها الطريق الذي ألفوه دفعة واحدة ، في هذه الساعة يصبح هذا الطريق غير مسلوك ، وينفتح طريق المستقبل .

كان هذا الاحساس ينشأ في تلك الساعة الغريبة التي يحدث فيها الانهيار ، وتلوح فيها الكارثة .

قال الفلاح :

ــ لا يعلم إلاّ الله كيف حدث هذا الأمر . ما من مخلوق يستطيع ان يقول كيف حدث . ولكننا كنا نعرف أنه واقع لا محالة .

وكان الآخرون يفهمون انه لم يبق عليهم إلاّ شيء واحد هو أن يصمدوا . لقد فقد عزوز امرأته في الحريق . يجب ان نصمد مهما يكلف الأمر ، يجب ان نصمد لكل شيء .

وانتفض عزوز . ولاح عليه فجأة انه يتذكر شيئاً ما . قال :

ــ سامحوني أيها الاخوان . فيم بقائي هنا أتكلم ؟ أو أصمت ؟ لقد أحسنت وفادتي في هذا البيت ، فبارك الله في صاحبه . ولكن لم يبق ما أفعله هنا . ليس هذا البيت بيتي . يجب ان أذهب . لا شك ان الله يرى كل شيء ، ولكن سكوته في لحظات كهذه اللحظة أمر مخيف .

وبذل جهداً من أجل ان ينهض . فقامت الاحتجاجات من كل صوب :

ــ ابق يا عزوز ، ابق .

ــ لم تسترح يا عزوز . استرح قليلاً .

ــ ابق يا عزوز .

وقال أرديني صاحب الكوخ مؤكداً :

ــ أنت هنا في بيتك .

وهذا سليمان مسكين الذي كان متجمعاً على نفسه عند مدخل الكوخ ، هذا هو يقترب

من عزوز زاحفاً على يديه دون أن يكلف نفسه عناء النهوض :

ــ اسمع :

الجبال لا تزال صابرة
والانهار لا تزال صابرة
وسوف نقضي المساء ،
العروس تنسج الغلالة ،
التي يسجل فيها طلوع البشائر ،
بأي مكوك
تحيكين النسيج ،
الذي نمضي به على مهل ،
من الشباب الى الكهولة ؟

وفجأة سأل سليمان صاحبه بنظرة يتراءى فيها رجاء حار . ولكن عزوز ظل متلفعاً بالصمت ، عليه ألّا يرفض شيئاً ، وعليه ألّا يرفض صداقة الرجال خاصة . وهذا سليمان يضم يديه أمام وجهه ، ويستأنف الآمال في تدفق سريع متصل .

أيتها الخادم ، يا ذات اليدين المبرقشتين
والقدمين المبقعتين ،
أيتها الخادم التي تنشر أقمشة جديدة
نقد منها قمصانا ،
لمحو الآلام ،
قمصانا تخفف ما نلقى من عناء الحمل ،
انني انحني أمام يديك وقدميك .
وأعهد اليك
بحراسة الانسان والخروف
والفرح والصبر ،
والقربان والقلب ،
بجميع الأيدي الماهرة
وبكل ما صنعتموه
أيها العامل الطيب
والفلاح الطيب ، والغزالة الطيبة ،
والأم الطيبة

وتجلت الصرامة والقوة في وجه سليمان ، فهو يريد الآن جواباً . وكان الفلاحون ينتظرون أيضاً وقد خفضوا رؤوسهم . ان نظرة تائهة لا تدرك ، تتموج الآنَ في حدقتي عزوز . قال بعد

مدة طويلة وهو يتنهد :

ــ ان الله لا يبيح لنا ، نحن المسلمين ، ان نقنط .

واستأنف سليمان .

اني اعهد اليك
بحراسة أزمان الخير
انحني لأقول :
انك ستعودين
يا أيام الهدوء الكبرى ،
لسوف ننصب منضدتنا
في الميدان العام .
انني انحني أمامك ،
الجبال صابرة
والأنهار صابرة.

حين انتصف النهار اجتاز رجال الشرطة المنطقة كلها عائدين الى المدينة . لقد جاءوا الى هنا في الصباح ، وها هم أولاء يعودون وقد ساقوا عدداً من الفلاحين . لقد تجمهر الناس في طريقهم . وعند مداخل الأكواخ وقف عدد من عجائز الفلاحات . وأخذت كثرة من الصبايا والنساء ترقبهم . وفيما هن يعلقن على الكوارث كلها ، اذا هن يصمتن دفعة واحدة على حين فجأة . ان الموكب يقترب . اندفعن الى الطريق الذي سيمر به الموكب يردن أن يعرفن من هم الذين اعتقلوا . ان بعضهم يمضين الى الأمام أكثر من غيرهن حتى انهن ليختلطن بالرجال في بساطة . وازداد عدد الجمهور ، ولم تلبث الطرقات ان امتلأت بالفلاحين الذين اصطفوا على حافة الدرب بعد كثير من الذهاب والاياب . وفي بعيد دوت صرخات غير انسانية ، صرخات موت .

ثم انقطعت الصرخات بما يشبه السحر . وانقضت لحظة طويلة . لم يستأنف النحيب . ان الضغط الخانق الذي كان يجثم على الريف منذ أسبوع قد فقد الآن ثقله على حين فجأة . حدث ذلك على غير توقع ، دون أن يكون في الحسبان ، وقع في هذه اللحظة بالذات ، وأحسّ به جميع من كانوا بالحقول .

ووصل السجناء أخيراً ، فأصبحوا في متناول البصر . إن أصواتهم لا تسمع . قامت في الحشد حركة قصيرة ، وارتفعت صيحات أخذت امرأة من النساء تبكي . انها تنتحب في رفق وقد وضعت يديها المتشنجتين على وجهها .

وتقدم رجال الأمن وقد باعدوا أذرعهم ، يدفعون الجمهور الى وراء . فتراجع الناس .

ــ هؤلاء هم .

لقد أصبح الفلاحون فجأة هناك . فطوقهم صف من رجال الشرطة .

ــ ولكن لماذا لا يأخذون غيرهم ؟ لماذا لم يعتقلوا جميع الناس ؟

بهذا دمدم صوت أبح لاهث .

وخيم صمت كأنه صمت الموت . وصاح أحدهم ، من آخر الصف مهللاً .

كان رجال الشرطة والمعتقلون يسيرون صفوفا مرصوصة بخطا سريعة ، فما تنفك تظهر وجوه شهباء كأنها وجوه أشباح . ان أحد رجال الشرطة يسير الى جانب الموكب ، وقد وضع يديه في جيبي معطفه ، وراح يصدر أوامره . والفلاحون يسيرون متدثرين بجلابيبهم الملطخة بالوحل ، ساترين رؤوسهم بالقبعات . انهم ينظرون الى الأمام كأن هدفاً رهيباً قد نومهم . وفي قرارة الحجاج المظلم الغائر في أعينهم كان يبدو أنهم لا يزالون يترصدون أرضاً شب فيها الحريق . الفضاء أمامهم حر طليق .

وحين تقدم أحد الرجال مرة واحدة ، فيما يشبه التوسل ، وأراد أن يكلمهم رغم أوامر الحظر التي يصدرها رجال الشرطة ، حرك أحدهم يده بإشارة مبهمة ، وقال بصوت خافت هامساً :

ــ دعنا . ابتعد .

انهم يسيرون . واحد ، اثنان ، ثلاثة . . فضاء . فضاء كبير . هل الآخرون يتبعون ؟ هل هم جميعاً هنالك ؟

رباه ما أغرب هيئة هؤلاء الرجال ! من يسير هناك ؟ هذه الوجوه الناتئة عظامها الساكنة تحت القبعات ، هذه الجلابيب الخلقة المغبرة . . . آه . . أهذا ممكن ؟ انهم يسيرون . ومن حولهم تحفر منطقة حرام .

وارتدّ الجمهور مرة أخرى أمام وثبة رجال الشرطة الغاضبة الحانقة . ولكنه لم يلبث ان تقدم الى الأمام متموجاً . الرجال يوغلون في الطريق كالعميان ، بطرقات خطاهم السريعة ، مؤلفين كتلة موحدة .

وظلّ القرويون هناك مرتعشين مرتبكين . ان أحد رجال الشرطة يهز رشاشه بأطراف يده في اهمال . دمدم أحدهم يقول في اضطراب بويا ، بويا ! ان حلقه يبدو صدئا . ورجال الدرك الذين قد جاءوا أيضاً ، مروا أمامهم ضخاما ثقالا وقد نصبوا أكتافهم وأحكموا وضع خوذهم على جباههم .

ان الفلاحين الذين تركوا حافتي الدرب منذ رأوا وصول الشرطة والمعتقلين ، قد تجمعوا كتلة واحدة في طريق الموكب بحركة خفية لا تدرك . ان اندفاعة قوية عارمة قد حملتهم الى الأمام كأنهم مد البحر . كان يبدو عليهم انهم يريدون ان يطوقوا الموكب وان يعانقوه عناقاً خانقاً .

صاح رجال الشرطة :

ــ إلى الوراء ، الى الوراء . .

فنظر اليهم الفلاحون دون أن يتحركوا ، متجاهلين التهديد .

سألهم الآخرون :

ـ ماذا تريدون ؟ ان هذا الأمر لا يعنيكم .
فلم يجب الفلاحون بنعم أو لا ، واكتفوا بالنظر الى رجال الشرطة .
عندئذ أخذ رجال الشرطة والسجناء يتقدمون بخطا بطيئة .
ـ الى الوراء . . هيا . . الى الوراء . . فهمتم ؟
ولكن الفلاحين لم يتحركوا ، انهم يحدقون الى رجال الشرطة بأعين من حجارة .
ـ قولوا ماذا تريدون ؟
ولكن الفلاحين لم يجيبوا .
ـ فشهر رجال الشرطة أسلحتهم .
ـ إذا اقتربتم كثيراً . . فسوف تندمون .
بهذا حذرهم ذلك الذي كان يبدو انه رئيسهم . ثم التفت الى رجاله وقال :
ـ أبعدوهم !
فهجمت طائفة من رجال الشرطة على الفلاحين فدفعتهم في عنف وفظاظة .
ـ حذار ! ان الذين قبضنا عليهم أناس مجرمون . وسيكلفكم غالياً جداً ان تفكروا في مساعدتهم !
وبحركة مضطربة هجم رجال الدرك أيضاً على الفلاحين فأسقطوا عدداً منهم ، وبعثروا عدد آخر . ولكن الفلاحين ما لبثوا ان تجمعوا مرة أخرى . ووصل أشخاص آخرون اجتذبتهم حميا هذه الحركة .
أخذ أحد رجال السلطة يصيح بالناس الذين كانوا يزدادون توافدا على الموكب وازدحاما حوله :
ـ الى الوراء . . اقول لكم ابتعدوا الى الوراء !
ولكن عدد الفلاحين المتدفقين من الحقول كان ما ينفك يتضخم انهم ينظرون ولا يتحركون ، انهم لا يحتجون ، لا يعملون شيئاً البتة . وانما هم مسمرون في أمكنتهم . كان يبدو انه ما من شيء ، ما من قوة يمكن ان تصرفهم .
وكان الصمت في أثناء ذلك ما ينفك يثقل ويثقل ويزداد اقلاقاً . ليس في الحقول أناس كثيرون ، ومع ذلك كان الحشد ما يني يتكاثر لا يدري أحد كيف ! ان طائفة من الفلاحين تحف برجال الشرطة عن كثب ، وما تنفك تقترب منها .
إن أكثر هؤلاء الفلاحين شباب ، فبعضهم سليم الجسم شاحب الوجه ، واضح القسمات ، وبعضهم أميل الى الشدة والقسوة ، كأنما هبت عليهم جميع الرياح ولفحتهم جميع الشموس .
الناس لا يزالون يرقبون ويترصدون . مائة وجه من الوجوه تنم على اختلاج غامض . انهم جميعاً ينظرون في انتباه .
وما هي إلّا لحظة حتى قامت في الحشد همهمة قوية ، لم تلبث ان انقطعت فجأة .

صمت . ان رجال الشرطة يراقبون الفلاحين .
هذه امرأة تخرج من احدى الطرقات وتلتحق بالحشد . انها مخلوق صغير مغضن الوجه ناتىء الأسنان . انها تشق لنفسها طريقا بين الأجسام المتراصة وتلقي على رجال الشرطة نظرة تائهة . ثم اذا بها تقول وكأن صدمة كهربائية قد سرت فيها :
ــ عرفته ، عرفته .
قالت ذلك وهي تشير بيدها الى أحد رجال الشرطة .
ــ انه يجيء دائمًا حين يكون الأمر اعتقال عدد من رجالنا . عرفته . انه هو الذي يجيء دائمًا .
ومرّ أواخر الرجال واحداً بعد واحد .
ــ لماذا اعتقلوا هؤلاء الرجال يا كومندار ؟
ــ لأننا ، يا ولدي ، مجرمون في نظرهم .
ــ ولكننا لسنا مجرمين دائمًا . . فليعاقبوا المجرمين ، وليدعوا من ليسوا بمجرمين .
ــ ولكننا جميعاً مجرمون يا ولدي ، جميعاً . فهم يعاقبون بعضنا بالرصاص وبعضنا الآخر بالضرب أو السجن . . ويعاقبون بعضنا بالكلام وبعضنا بالجوع ، انهم يقتلونهم عند أول حركة يقومون بها . ويطردون ذوينا من النور ، يطردونهم من الأرض التي يزرعونها. ونحن لا ندرك ذلك . حتى اذا ألقوا أمام وجوهنا واحداً من موتانا فهمنا . اننا نشفق على الرجل الذي قتلوه ، ونشعر أمامه بالخجل والعار . ولكنهم يسوقوننا الى القبر نحن أيضاً ، شيئاً بعد شيء . . اننا مستعدون للنزول الى القبر دون ان ننطق بكلمة ، ودون ان نرفع خنصراً .
ــ شيء فظيع . .
ــ أبداً هو الآن شيء فظيع ، أما في غد فلن يكون كذلك . انظر الى كبار المزارعين الذين هم منا ، انظر الى تجار المدينة الذين هم منا أيضاً ، انهم لا يقولون شيئاً . يسقط رجل في هذا النضال ، فيلتزمون الصمت خلال لحظة . ولكنهم يستاءون ويتأوهون . ولا شك ان رجلا آخر سيمضي في طريقه . وتستأنف الحركة من جديد . ذلك انه ليس لأحد الا طريق واحد يسلكه . هو طريق ضيق ، نعم .
ــ ما الذي يجب ان نعمله حتى نعيش حياة غير هذه الحياة ؟
ــ يجب ان نحطم الاستبداد وان ندفنه . . اذا لم نقاوم أنواع الاستبداد هذه ، فلن يكون ثمة داع الى الشعور بالخجل والعار أمام الأحياء أكثر من الشعور بالخجل والعار أمام . . . هؤلاء الموتى .
ــ أهذا كل شيء ؟
ــ هذا كاف في البداية .
قال عمر :
ــ ولكننا العدد الأكبر .

ــ صحيح اننا العدد الأكبر . . وفي هذا العدد الأكبر يدخل النحاف والسمان ، الصغار والكبار ، الذين يخافون والذين يستبسلون . . عددنا كبير جدا . . ولكن لا بد من صبر طويل لرجالنا الشجعان الذين يستعدون للقيام بالخطوة الأولى .

كان الكلام المحرق الهادىء الذي يقوله كومندار ينفذ في قلب الصبي نفاذ مسمار .

قال عمر :

ــ ولكن اذا لم يصرح أحد بانه مستعد لأن يموت فان جميع الناس سيطعنون .

أجاب العجوز :

ــ أنا لم أقل شيئا . يجب ان نتحد وأن نكون صفاً واحداً تشد بعضنا الى بعض سلسلة واحدة .

ــ إلّا انهم لبهائم قذرة فيما أرى .

ــ لذلك يجب ان نحطم الأشرار .

ــ أهذا كل شيء ؟

ــ نعم هو كل شيء .

ــ ١٧ ــ

حين دخلت ماما الى الغرفة وجدت زوجها مشغولا بفتق الأجزاء البالية من بردعة . كان جالساً أمام الباب تحت المنحنى الذي تبرز منه نواقىء ضخمة كأنها رؤوس بشر . ان في داخل الحجرة ثقوباً عميقة تشكل خزائن صغيرة في الجدار توضع فيها الأواني وعلب البهار وغير ذلك من الأدوات المنزلية . ان رطوبة خفية تخرج من حيطان الحجرة . لم تستطع ماما ان تنظر الى زوجها وجها لوجه . رفع قره رأسه عن عمله وحدق اليها . استغرقت المرأة في عملها . تناولت طبقا من فخار كانت تريد ان تضع فيه قرص الفطير الذي هيأته . خفض قره عينيه دون ان يعبأ بها بعد ذلك ، وعاد يستأنف عمله في هدوء . خرجت ماما من المغارة بغير ضجة .

انقضت ثلاثة أيام على الليلة التي شبّ الحريق أثناءها في مساكن عمال مسيو فيار . لقد كان ذلك أشبه بحلم رهيب . كان الناس هنا لا يعرفون ما الذي وقع على وجه الدقة . ومما زاد قلق ماما شدة وأرماضا ان قره قد خرج من البيت في ساعة متأخرة من تلك الليلة . وبقيت امرأته في حجرتها وحيدة تشعر بأن الخطر يحف بها .

فلما عاد قره في أول الصباح ، سألته ماما وقد يبست أجفانها وتقرحت :

ــ ماذا هنالك ؟

ــ عمال أضربوا عن العمل ، وأحرقوا مزرعة فيار . يجب ان يتوقع المرء منهم كل شيء . لقد قلت ذلك دائما . يجب ان نتوقع ما هو شر من هذا أيضاً .

غصت ماما .

هذا ما قاله لها زوجها في ذلك اليوم . وفي الغد ، في الغد لا بعده ، علمت من الجيران ان هذا الكلام الذي قاله لها زوجها لا يشتمل على شيء من صدق .

ان الفلاحين لم يضرموا النار . ان أحدا من الناس لا يستحي ان يعترف بالحقيقة في هذه المنطقة حين يقع أمر من الأمور . صحيح انهم لا يصرحون بالحقيقة للسلطات . وما من احد من السكان يقبل ان يكون حتى شاهدا في قضية من القضايا . فكلما جاء رجال الحكومة ينشدون الحصول على بعض المعلومات عن بعض الأفراد قال جميع الناس انهم لا يعرفون شيئا البتة . كان رجال الحكومة يصدمون دائما بوجوه خرساء لا تنطق . ولكن التحرز وسوء الظن لم يوجدا في يوم من الأيام بين الفلاحين أنفسهم ، وانما كان هؤلاء الفلاحون يؤثرون ان يقول بعضهم لبعض كل شيء ، وكان ذلك خيراً وأبقى . ان المنطقة كلها يمكن ان تعلم بأمر من الأمور دون أن يتسرب شيء من انباء هذا الأمر الى آذان الشرطة .

فلماذا قال قره اذن ذلك الكلام ؟

ان ماما لم تفسر هذا الأمر لنفسها . وظلّ قره يهاجم الفلاحين مع ذلك . يقول المثل : اتهام الناس ظلما يحرق اخوتنا ، ولكن الذي يقذف الاتهام يحمل على كتفه عارضة من لهب .
وأخذت ماما تشمئز من زوجها .

ـ ١٨ ـ

اعتاد سكان دار سبيطار شيئا فشيئا على وجود الحرب . كان الوقت ينقضي دون ان يقع شيء مما كانوا يخشونه . ان رجالا يمتون اليهم بقربى كانوا يذهبون الى القتال في بلاد بعيدة ، ويموتون في تلك البلاد احياناً . غير أن سكان دار سبيطار كانوا لا يعرفون كيف يقطعون برأي في الخطر الخفي الذي يتكدس فوقهم .

لم يحدث إذن شيء . وعادت الحياة تجري في مجراها . وانقضت شهور لم تحمل الى الناس ما يبعث على القلق .

كانت الأشياء تتراكم . ان عدداً من الرجال يسافرون في كل يوم . وبعض الناس تركوا المدينة . فلوحظ سفرهم وأحدث ضجة خلال فترة من الوقت ، ثم اختفوا وابتلعهم المجهول . وانقضت أشهر أخرى ، والحياة تجري على تلك الوتيرة نفسها . انها الحرب السخيفة . غير أن هناك شيئا كان الناس يحسون انه آت من بعيد ، وانه ربما كان ذاهباً الى بعيد . . وهو موجة من

الأعماق لعلها كانت تستحيل الى عباب هائل . . ان هذه الموجة تقترب شيئاً فشيئا . الناس مأخوذون الآن بالمنظر المضحك المبكي ، منظر هؤلاء الرجال المجندين الذين تقنعوا ، فهم أنصاف جنود وأنصاف مشردين . انهم ينتعلون احذية بالية ممزقة ، ويرتدون الزي العسكري الصيفي وهم في أوج الشتاء ، وينامون على القش في الملعب الجديد والفنادق . وقد اضطر بعضهم الى دخول المستشفى مصاباً بنزلة رئوية . انهم يعيشون حياة عجيبة ، لا يفهمون شيئا مما يحملون عليه وما يعهد اليهم به من أعمال .

وكان عمر يقضي أيامه متجولا في أرجاء المدينة . هي أيام جوفاء ملأى في آن واحد . وهي أيام طويلة على كل حال . أيام ساطعة حارة تحتل مركزها تلك المشكلة القديمة ، مشكلة الخبز . ان الأمر الذي كان يفكر فيه عمر ، أو قل بالأحرى الأمر الذي كان يقلقه في غموض ، يمكن أن يعبر عنه على هذا النحو : أنا جائع ، جائع دائما ، لم أذق طعاما أسكت به جوعي . وكان السؤال الذي يلقيه على نفسه بغير هوادة هو : أتراني آكل بعد قليل ؟ أتراني آكل غدا ؟ وكان لا يستطيع طبعاً ان يجيب عن هذا السؤال . انه ليصعب على المرء ان يتصور بخياله الشعور الذي كان يولده في نفسه هذا الشك الذي يتجدد الى غير نهاية ، ويبدو باقيا لا يزول . أية معجزة كان يمكن ان تنقذ عمر ؟

الشمس تشوي المدينة وتجعلها كالحديد المصفح الحامي . وكان يتفق للصبي في كثير من الأحيان ان يقع على جماعات من الفلاحات أخذن ينتحبن بأصوات عالية وصرخات حادة . متحلقات عند حوافي « الملعب »، بينما كان أزواجهن أو أبناؤهن في داخل الملعب يمثلون أمام مجلس التجنيد . انه لمنظر حزين ، أصبح مألوفاً عادياً في أيام الحرب هذه .

وكانت عطلة الصيف تشارف على نهايتها رغم كل شيء . وأنبأ عمر أمه بأن العودة الى المدرسة قريبة . انه في حاجة الى ملابس نظيفة والى كتب . . . ان مطلبا من هذا النوع هو دائما تمهيد لمشاجرة بينه وبين عيني .

صاحت عيني تقول :

ــ دعنا أخيراً من هذه المدرسة ! لقد ضقت بها ذرعاً ! أتراك تأمل ان تصبح وزيراً ؟

كان العالم يعيش تلك الفترة من التاريخ ، حين جاء أروع فصل من فصول السنة . ان شتاء تلمسان ، القاسي المظلم ، الكاوي كقطعة من جليد ، لا يوافي المدينة الا في أواخر شهر كانون الثاني او بعده بقليل . وقبل ذلك كان ضرام مسعور لا يزال يتابع سيره المظفر من شجرة الى شجرة . فكل شجرة من الأشجار الآن مشعل يهتز ويتموج . ثم ذابت النار في احتدامها وهبطت . فكل شيء قد تطهر في ذلك التوهج ، وملامح البلد ترتسم منذ الآن في جو ناعم من وضوح مضيء ، ولون ساج .

كان يساعد عيني أناس من أهل الخير يكتمون أسماءهم في كثير من الأحيان . لقد مات زوجها منذ مدة طويلة . . وأصبحت الآن تقبل بوادر الكرم هذه في غير مرارة ، بل أصبحت تقبلها في شكر واعتراف بالجميل . كانت بهذه المساعدات تدبر أمورها يوماً أو يومين .

ولكن لا بد من الحياة في جميع الأيام ، وكان لا بد من الأكل في جميع الأيام . وتلك مشكلة من المشكلات . كانت عيني تعمل وتجهد نفسها بالعمل ، الظروف قد علمتها قيمة ما تقوم به من عمل .

لذلك كانت تعرض على ابنائها ما تتقاضاه في آخر الأسبوع أجراً على عملها . كانت تريد ان يروا هذا الأجر بأعينهم . انه أجر قليل . فكان الأطفال يعرفون بذلك ثمن ما تنفقه أمهم من قوة وصحة وحياة .

كانت تسألهم :

ـ لعلكم تظنون ان هذا الأجر قليل ؟ ذلكم ما يجنيه المرء بعد أن يكون قد هدم حياته بالعمل . . نعم ، هذا ما يجنيه ، ولا شيء غيره .

وكان الأطفال ينظرون الى المال ، ثم ينظرون الى أمهم ، ولا ينبسون بكلمة واحدة .

وأردفت عيني تقول :

ـ هأنتم ترون أن مبلغاً كهذا المبلغ لا يمكن ان يفيد في شيء ! هأنتم ترون أننا اذا اشترينا خبزاً فلن نستطيع أن نشتري زيتا ، واذا اشترينا زيتا فلن نستطيع أن نشتري خضرا ، واذا اشترينا خضرا فلن نستطيع ان نشتري بنا ! نعم ، هذه حياتنا ، هل رأيتم بأعينكم ؟

ويغض الأطفال أبصارهم لا يريدون ان ينظروا الى هذه «الدراهم» بعد ان صاحوا صياحاً كثيراً مطالبين برؤ يتها . لقد استقبلوا أمهم بفرح عظيم وتهليل كبير .

ما كان أشد احتفالهم بمقدمها ، وما كان أروع فرحتهم برؤ يتها ! غير انهم الآن يشيحون بوجوههم متعبين ، لا يعرفون ماذا يعملون !

كانت عيني قد صرت هذه الدراهم ، على عادتها ، في عقدة من منديلها القطني الواسع .

ولم يكن قد بقي منها الى اليوم شيء ، أو قل انه لم يبق منها الى اليوم الا قليل لا يغني ، فكأنه ليس شيئاً البتة . لقد وصلوا منها الى آخر قطرة . لم يعد في وسعهم ان يحصلوا على ريال واحد ! ذلك انه لم يبق في المدينة عمل . نعم ، لم يبق في المدينة عمل . وعبثاً يصدع المرء رأسه باحثاً عن عمل . أصبح الرجل الاسباني لا يكلف أحداً بدرز نعاله ، وأصبح الحائكون لا يعهدون الى احد بغزل صوفهم . . الأمر بسيط . لم يبق هنالك عمل .

الحجة إذن واضحة ، وانما ينبغي ان تجد سبيلها الى رؤوس هؤلاء الأطفال .

قررت عيني عندئذ ان تقوم برحلة من تلك الرحلات الغريبة ! لماذا لا تحاول التهريب مرة أخرى ؟ انها لا تستطيع ان تعمل شيئاً آخر . لقد استنفدت جميع الوسائل ، وأصبحت الآن على شفا الهاوية . فكروا في هذا الأمر قليلاً ، أنتم أيضاً ! انه لا بدّ لنا من طعام ، أليس كذلك ؟ إذن لم يبق إلاّ هذا الأمل : أن أسافر الى مراكش ، وان أعود من هنالك ببعض قطع القماش ، فأبيعها هنا . تذكروا ان ذلك ليس بالأمر السهل . انا لا أسافر حبا بالسفر . الرحلة أولا طويلة . وهي ثانيا تكلف مالا ! ينبغي أن أمكث بضعة أيام في عوجا . من هذه الناحية ، انا مطمئنة . لنا هنالك أقرباء . سأنزل عندهم رأساً . مساكين ! لقد أحسنوا معاملتي دائمًا . كانوا في كل مرة ينزلونني في بؤبؤ أعينهم ! والحق انهم أناس ميسورون . ان لهم عدة مخازن . تجارتهم مزدهرة دائما . وهم يكرمون وفادتي . أجزل الله عطاءهم ، وزادهم خيرا على خير . المهم انني لن أنفق اذن شيئا . حتى لقد حدث مرة ان دفعوا عني ثمن تذكرة العودة . ولكنكم لا تستطيعون ان تتصوروا بخيالكم ما هو الجمرك . يقال ان الصراط أدق من حد السيف وأرق من شعرة . الا ان الجمرك كالصراط يا أولادي . ادعوا الله لأمكم . ولكن الله يعرف الحال التي نحن فيها ، انه يعرف انكم يتامى ، وان أمكم تعمل ما في وسعها أن تعمله . سيعينني الله على اجتياز الجمرك . لا شيء يدفعني الى هذا الا اليأس . ستكتب لي الملائكة هذا في كتاب الحسنات . . أرجو ذلك . أما أنتم يا أولاد ، فسأدع لكم بعض الدراهم قبل أن أذهب سأترك لكم ما أنتم في حاجة اليه .

وكانت عيوشة ، وهي تعرف هذه الأحاديث ، تصغي في اذعان . وسألتها فجأة :

ــ ما هو المبلغ الذي ستتركينه لنا ؟

إن عيوشة ، أكبر أولاد عيني ، هي التي تتولى أمر العائلة في غياب عيني .

ــ المبلغ الذي سأتركه لكم ؟ هل تريدون ان أترك لكم ملايين ؟

ــ لم أقل ذلك ! ولكن يجب ان تتركي لنا ما يكفي لطعامنا أثناء غيابك .

ــ خذي ! هذا كل ما معي ؟

قالت عيني ذلك وحلت منديلها وأعطت ابنتها قليلاً من الدراهم فقعدت البنت على الأرض ، وعدت الدراهم في راحة يدها ، ثم رفعت رأسها نحو عيني :

ــ هذا لا يكفي الا للخبز بل لست أدري هل يكفي الخبز ؟ فأين ما نشتري به الأشياء الأخرى ؟

قالت عيني :

ــ هذا كل ما معي .

ــ الأنك تسافرين يجب علينا ان لا نرم الا خبزا .

فصفعتها أمها بنظرة شزراء ، دون ان تقول شيئاً . قالت عيوشة ناشجة :

ــ ان هذا لن يكفي أبدا .

فقالت عيني :

ــ هذا كل ما معي .

ــ ولكنك ستمكثين في عوجا ثلاثة ايام أو أربعة .

فعادت الأم تقول :

ــ هذا كل ما معي . لا زيادة .

فقالت الفتاة متشكية :

ــ كيف يمكن هذا ؟

كان هذا المشهد يقوم كلما تهيأت عيني للسفر .

ان عيوشة ممسكة بالدراهم في يدها ، وها هي ذي تتفرس في وجه امها ، ثم تتراجع الى الوراء . ان المشهد يمكن أن ينتهي بلطمات .

وقالت الفتاة :

ــ آه . . آه . . انها لحياة تحطم القلب ، هذه الحياة التي نعيشها !

كانت عيوشة قد أصبحت تلك الفتاة الطويلة النحيلة المتكسرة ، التي يعرفها الناس في دار سبيطار وفي غير دار سبيطار من بيوت الحي . ان لباسها ثوب يتهدل من أعلى الكتفين الى أخمص القدمين ، فيغطيها كلها . وان لها وجها رثاً أشهب ، وقسمات مهدمة فقدت كل ما للصبا من نضارة الصحة . غير أن ثمة فتنة حزينة مقلقة ، لا يدري المرء كنهها ، كانت تغني في وجهها عن فتنة الصحة . لعل صباها وذبولها المبكر ان يكونا مصدر هذه الفتنة . مسكين هذا الوجه الذي يجب عليه ان يجيب عن كل هذه الأسئلة المقلقة ! لم يكن لعيوشة غير هذا الوجه . ولم يكن لعيوشة الا هذا الوجه . انه هو بعينه دائما ، بثناياه الصغيرة المثيرة للشفقة التي تولدها فيه الابتسامة .

انهم الآن جميعاً ، ومن بينهم الجدة ، رهن باليسير الذي ستجنيه عيني من التهريب . وكان مما يدهش عمر أن أمه لم تقع حتى الآن بين يدي الشرطة ورجال الجمرك وجنود الدرك الذين يخفرون الحدود . وهو من أجل هذا السبب وحده مستعد كل الاستعداد للاعجاب بها .

لم تحتج عيني الى وقت طويل حتى تعد قفتها التي تصحبها في أسفارها ، وودعت عيني جميع النساء (لقد أصبحت لا تخفي عنهن أسفارها)، ومضت .

صاحت إحدى الجارات فجأة :

ــ هه ! عيني . .

فما أن رأى النساء جارتهن عيني التي كن يعتقدن انها وصلت الى عوجا أو أوشكت ، حتى أخذن يصرخن ويصحن متعجبات . وانهمرت الأسئلة على عيني من كل حدب وصوب .

ــ ماذا حدث لك يا عيني ؟

وهرع أولادها اليها يعوون ويرددون :

ــ ياما ، ياما . . يا أميمة .

واستبد ببعض الجارات شعور جنة بالفرح والمرح ، وأخذن يسائلن عيني وهن يضحكن ضحكاً شديداً تتساقط له دموعهن :

ــ أهلا وسهلا بعيني . لم نرك منذ زمن طويل . كيف حالك إذن ؟ ورحن يغمرنها بوابل من العبارات التي تقال عادة عند استقبال صديقة عزيزة بعد غياب طويل .

وقلن متهكمات :

ــ كيف حال أهل عوجا ؟

واستطاعت عيني اخيرا ان تقول :

ــ يا اخواتي لقد وصلنا الى نهاية الزمان ، وصلنا الى ما يسمى بيوم الساعة . .

فصاحت بعض النساء مذعورات :

ــ يا لطيف ، يا حفيظ . .

ــ أحلف لكن بأعز ما عندي .

ووضعت عيني يدها على عمر ، دون أن تنتبه له ، وعادت تقول مؤكدة :

ــ هي الساعة ، ما في ذلك شك . ان ما قيل هو الحق .

قالت عيوشة متوسلة :

ــ هوه ! ماما ! قولي لنا ما حدث . لا تدعينا في هذه الحيرة . ألا ترين ؟ البيت كله يريد ان يعرف ما حدث .

قالت عيني مترجية :

ــ دعيني أتنفس قليلا يا بنتي .

حتى اذا قررت ان تتكلم ، كانت النساء قد استعدت للاصغاء اليها ، لم تنبس واحدة منهن بحرف . ان ما سمعنه في ذلك اليوم يفوق كل ما كان في وسعهن ان يتصورنه بالخيال .

قالت عيني :

ــ لقد بدلت الدنيا غير الدنيا، يا اخواتي . ان هنالك أموراً تحدث وليس لنا بها عهد من قبل . هل تعلمن ماذا قيل لي في المحطة ؟ اقتربت من الرجل الذي يقطع التذاكر أريد شراء تذكرة السفر ، فقال لي : « يا خالة انه لا يسمح لأحد بالسفر بعد الآن دون ترخيص خاص »، ولكنني أجبته : ««انني اذهب دائما الى عوجا دون حاجة الى ترخيص »، فقال لي عندئذ : « هذا تغير يا خالة ». لماذا تغير ؟ هل يجب ان نعتقد ان الدنيا قد تغيرت أيضاً ؟ قال لي الرجل : « نعم يا خالة ، لقد تغيرت الدنيا ، تغيرت منذ أن قامت الحرب » قلت له : هكذا اذن . . تغيرت الدنيا حين أردت أنا أن أسافر الى عوجا ! فقال لي : « لم تتخذ هذه التدابير من أجلك خاصة » فقلت له: اذا لم تتخذ من أجلي خاصة فما هو السبب؟ قال: ما هو السبب؟ والسبب هو

الحرب . قلت له : ان لي في عوجا اسرة . وأريد ان أزور أهلي . أؤكد لك انني لا أذهب الى عوجا لأمر آخر . قال : لا بد لك من ترخيص ، وبدون ذلك لا أستطيع ان أعطيك تذكرة سفر . ترخيص . ترخيص . هذا ما قاله الرجل قاطع التذاكر . قلت له : ويلي من مسكينة . إذن لا أستطيع الحصول على تذكرة سفر ؟ ولكنني أؤكد لك ان هذه آخر مرة أسافر فيها ، لن أضع قدمي في القطار بعد اليوم . دعني أسافر هذه المرة الأخيرة . أنظر ! لقد أعددت كل شيء . هذه سلتي . وقد ودعت جميع من في البيت . ليس يليق أن أعود الآن أدراجي . ولكن الرجل قال لي : لا بد من ترخيص يا خالة . انا أتمنى ان أعطيك تذكرة ولكنهم سيوقفونك في الطريق . هذه هي المسألة . قلت له : ولماذا يكون قيام الحرب سبباً في منع الناس من السفر الى عوجا ؟ قال : هذه أوامر السلطة العليا يا خالة . لا يمكن أن يسافر أحد بعد الآن بدون ترخيص . جميع المسافرين مطالبون بالحصول على ترخيص . قلت بيني وبين نفسي : « ألا ليتهم يموتون هم وهذه الأوامر التي يصدرونها ، وهذه الحرب نفسها فوق ذلك » . وعندئذ أخذ الناس الذين كانوا ورائي ، والذين كانوا يريدون هم ان يسافروا أيضاً ، أخذوا يصيحون سائلين: «هل يجب ان نحصل على ترخيص أيضاً » فأجابهم الرجل : « لا بد من ترخيص لكل مسافر ، لا بد من ترخيص لجميع من يريد السفر » . فجعل الأشخاص الذين يقفون ورائي ، جعلوا يصيحون . آ . . أو . . أي . . عندئذ قلت للرجل قاطع التذاكر : هل رأيت ؟ فقال لي : « هل رأيت ؟ انهم يريدون جميعاً ان يسافروا بالقطار دون ان يحملوا ترخيصاً ، وهم لذلك لن يسافروا » . وعاد كثير منهم الى بيوتهم وانتظرت انا في ركن بالمحطة . ثم مضى جميع الناس ولم يبق منهم احد . عندئذ عدت الى قاطع التذاكر ، فقلت له : ها قد ذهبوا جميعا ولم يبق منهم احد ، ألا تستطيع والحالة هذه ان تعطيني تذكرة يا عم . وشفعت طلبي بأنواع من الرجاء والتوسل ، قلت له : أنعم الله عليك ، ومتعك بزيارة قبر النبي ، وجعل الجنة مأوى روحك بعد الموت . وقلت له : لعلك لم تعرفني . ان أمك لالا خديجة هي بنت أخت عمتي زازا التي تمت أيضاً بقرابة قريبة الى أبيك من جهة جدته . نحن إذن قريبان كما ترى . فقال : « كل ما تقولينه قد يكون صحيحاً . لست أعارض في هذا . ولكن لا بد لك من ترخيص يا خالة . ليس الأمر بيدي ، لا يجوز لأحد ان يسافر بعد اليوم بدون ترخيص . انها الحرب !»وهآنتن أولاء ترينني في البيت بينكن . من ذا الذي كان يمكن أن يصدق ذلك في هذا الزمان ؟ هل كان يمكنكن ان تصدقنه انتن ؟ . لقد قال قاطع التذاكر : «انها الحرب ، فلا بد لك من ترخيص يا خالة » . نحن نعلم انها الحرب . ولكن هل تمنعنا الحرب من الذهاب الى عوجا ؟ لقد كان الموظف لطيفاً دمثاً ، ولكنه لم يسمح لي آخر الأمر ان أركب القطار . ان المرء يتساءل : أتراهم يطالبوننا بعد الآن بترخيص من أجل كل شيء . . من أجل التجول في مدينتنا نفسها ، من أجل الخروج من البيوت . . من أجل الذهاب الى البقال . . من أجل حمل العجين الى الفرن ؟

ان عيني مرهقة ، وها هي ذي تتنبأ لنساء دار سبيطار المتحلقات حولها باقتراب أيام يختلط

فيها الحابل بالنابل . والنساء يتصايحن ذعراً من هذه العلائم التي تنذر بوقوع أحداث غريبة .

كان عمر يصغي الى حديث امه هو أيضاً ، فأحسّ فجأة ان عداوة لا يعرف كنهها ولا يستطيع تحديدها تحيق به . ان قوى مجهولة تحف به من كل صوب ، قوى تخفى عن الأبصار ولكنها توغل في العالم ايغالا بعيدا عميقا . من اي ليل داج تنبع هذه القوى ؟ ان عمر يحس انه محمول هو نفسه على ظهر امواجها العالية . ان هذه القوى تقتتل دون ان يصبح الظل ظلاماً دامساً ودون ان يصبح الضياء لهيباً ساطعاً . . انها تقتتل دون ان تنتصر احداها على الأخرى . لا راحة ولا هدنة . الحياة . الحياة .

لا يزال القلق يرين على الناس صاحياً يقظاً . ان جواً ينذر بسقوط العاصفة يخيم على تلمسان . تجسدت فجأة جميع المخاوف المتفرقة وامتلأت سماء المدينة بأنباء حزينة وصلت اليها على أجنحة سريعة .

لم يتخلص عمر وذووه بعد ذلك من الشعور بأنهم يعيشون في عالم محرم . لقد هبط الليل على هذا العالم على حين غرة ، فما يدري أحد متى هبط ولا كيف هبط . والليل يتراكم الان فوق الليل . وهذا الخدر الكبير يميت الان كل من يتطلع الى الحياة .

وأحسّ عمر بأنه يعيش بين أناس قاوموا المصير المشترك وحدهم ، فلم يموتوا وعاشوا بعده . هل يتهيأ سكان دار سبيطار ، وأهل تلمسان أنفسهم لخوض معركتهم الأخيرة ، هل يخرجون بعد قليل الى الفجر الذي يتجهون اليه مفتونين به منجذبين اليه فيما يشبه الهذيان ؟ ام انهم سيظلون آخر الأمر على ما هم عليه ، سكانا من سكان هذا العالم الذي فرض عليه الصمت ، ومات في الهواء الطلق ، وأخذت الشمس والريح تفرغه شيئاً بعد شيء ؟

كانت دار سبيطار تعيش مأساة شعب ممزق .

وصل النبأ ذات يوم . جاء فيه ان حميد سراج نقل مع أشخاص آخرين الى معسكر من معسكرات الاعتقال بالصحراء . قالت فاطمة أخت حميد سراج :

ــ أرأيتم كيف كان هذا الرجل ؟ لا يتوقف عن الركض من مكان الى مكان . حتى ولو ذهب الى خارج البلاد . كان يسافر من مدينة الى مدينة ، ويطوف البلاد قرية قرية ، ويتجول في الريف لا يدع منه ركنا ، ويتحدث الى الناس أثناء ذلك كله . ان هذا الرجل لم يكن يسعى الى ربح . ولم يكن ينشد نفعاً . لم يكن يهدف من أعماله إلى مصلحة لنفسه . انه لم يجن في يوم من الأيام قرشا واحدا . ولو شاء ، مع ذلك ، لأثرى ، ولجمع الملايين الى الملايين ، ولحظي بكثير من الاعتبار والجاه . وصمتت فاطمة . ان صمتها يتهيأ لاستقبال التعليقات ، غير ان النساء اللاتي كن يصغين اليها لم تفتح احداهن فاها بكلمة واحدة .

فتابعت تقول :

ــ ما الذي جناه بدلاً من ذلك ؟ السجن .

قالت ذلك بصوت هزته نبرة من نبرات الانتصار هزا غريبا .
ـ أليس مثقفا من كبار المثقفين ؟ ان الناس جميعا يعرفون ذلك كان ينصر الضعيف دائما . وكان يعين الناس بما يسدي اليهم من نصائح . بث في الرجال شجاعة الحياة . كان دائما الى جانب الفقراء ، وتحدى السلطات من أجل ان يساعد اقرانه . . ما الذي يمكن ان يؤخذ عليه ؟ ماذا يمكن ان يقال عن رجل مثله ؟ وها هو الآن في السجن .
قالت زينة :
ـ لماذا كان يريد ، يا عزيزتي فاطمة ، لماذا كان يريد هو أيضاً أن ينشر السلام في مملكة فاس ؟ ماذا يريد هؤلاء القوميون . . . وغيرهم ؟ ان الحاج مصالي قد قضى حياته في السجن ، قبل أخيك ؟ دعوا لابس القبعة يحكم ! أي بأس في هذا ؟
قالت احدى الجارات :
ـ انظروا إلى أحوالنا نحن المسلمين . كنت مارة في الشارع منذ مدة ، فسمعت بائعا من بائعي السكر يؤنب رجلا آخر بقوله : « حين تتعلم أكل الشيكولاته تعال الي . سأبيعك عندئذ شيكولاته . . سأبيعك الشيكولاتة حين تتعلم أكلها ، أما قبل ذلك فلا . . » مساكين نحن ! لم نتعلم أكل الشيكولاتة ومع ذلك نريد ان نحكم .
سمع النساء هذا الكلام ، فسرى بينهن مرح شديد .
وقالت مالكة البيت محتجة .
ـ اسمعي يا جارة . خير لهؤلاء ان يعملوا أولا ، خير لهم ان يصلحوا وان يحرثوا الحقول التي تركها لهم آباؤهم وأجدادهم . ليست تجديهم في شيء هذه الحركات كلها . حين كان العربي يتمدد على الوسائد ويشرب الشاي ، كان الفرنسيون يعملون ، ولا يضيعون لحظة من الوقت سدى ، ولا يضنون بشيء من جهودهم ومن قواهم . وها ان رجالنا يريدون اليوم ان يستردوا هذه الأرض قائلين : انها لنا . ما كان ينبغي لهم ان يتركوا الفرنسيين يعملون بدلا عنهم ، ولو فعلوا ذلك لما أخذ الفرنسيون منهم شيئا . هم الذين تركوا أرضهم ، فما يحق لهم ان يطالبوا اليوم بشيء .
وقالت امرأة أخرى من قاع المطبخ المشترك :
ـ كيف كنا ؟ تذكرون ذلك الرجل الذي كان يتلو الأدعية على القبور ، ذلك الشيخ الصالح الذي كان أعمى فوق هذا كله . لقد قتل وهو في المقبرة . انتن جميعا تعرفن ذلك ، ومن الذي قتله ؟ قتله المسلمون ، اخوانه . هل رأينا مسيحيين يقتلون مسيحيين ، او يهودا يقتلون يهودا ؟ طبعا لا . . فانظرن إذن الى هؤلاء الرجال الذين يريدون ان يحكموا! . .
قالت المرأة هذه الكلمات ثم اجتازت باب المطبخ الواسع وهي ترفع يدها بحركة بذيئة دون تحرج على مرأى من سائر النساء . وفي هذه اللحظة دخل بن ساري الى فناء البيت فرآها . فما كان من النساء جميعاً الا ان تصايحن دفعة واحدة مذعورات . آه . . . آه . . وعادت السفيهة

فاعتصمت في قاع المطبخ .

قالت فاطمة في وسط هذا الاضطراب :

ــ كل ما قارفه اخي من شر هو انه هب يساعد الناس .

قالت عيني :

ــ كلامك حق !

وقالت عائشة العجوز :

ــ كلامك صحيح يا بنتي .

فشعرت فاطمة عند ذلك بزهو كبير .

ــ وما هو الآن ؟ رجل في السجن لا أكثر . ولكن ليس فيه ذرة من شر .

توقف بن ساري . وهو يصغي الى كلمات فاطمة . فقال بصوت عال دون ان يتجه اليها خاصة :

ــ المسجونون هم الذين كان نزاعهم مع السلطات أشد من نزاع سائر السكان . لا بد ان يكون هناك مجرمون . ونحن جميعاً مجرمون نعم نحن جميعاً مجرمون ، لا يستثنى منا احد . ولن يغير من الأمر شيئاً ان يسجنونا او يطلقوا سراحنا . ثمة قوانين موضوعة . وقد وضعت على صورة عددنا معها بمجرد وجودنا مجرمين . نحن أناس خارجون على القانون . نحن اناس مخالفون للقانون نتآمر عليه بغير انقطاع . ان هؤلاء الذين يسجنون رجال متآمرون . هم انفسهم لا يستطيعون ان ينكروا ذلك . وسيظل حكم القانون محترماً .

ــ ٢٠ ــ

انقضى أسبوع على محاولة عيني السفر بالقطار دون ان تظفر بذلك . وأصبح من غير المؤكد ان تستطيع السفر بالقطار الآن . كان يبدو ان عصر الرحلات قد انتهى . وأصبحت تعاني من جرائه أمرين : فأولاً أصبحت لا تجد غير الخبز طعاماً ، ولا تجد سبيلها الى هذا الخبز في جميع الأيام . وثانياً أصبح بعض النساء يأتين الى دار سبيطار يطلبن عيني ، وأصبح ترددهن على دار سبيطار يزداد يوماً بعد يوم ، فكانت عيني تكلف أولادها أو جاراتها بان يقولوا لهن انها غائبة . كانت عيني تختبىء عن أعين هذه النسوة . كان هؤلاء المجهولات يجئن الى دار سبيطار حاملات مطالب رهيبة . وأصبح صياحهن يزداد عنفاً وحدة أمام باب الدار كلما انقضت الأيام تلو الأيام . ذلك انهن كنّ قد أسلفن عيني أموالاً لتشتري لهن الأشياء التي كانت تنوي أن تحملها اليهن من مراكش . أتراهن علمن بأنها لن تستطيع أن تغادر تلمسان بعد الآن ، فجئن جميعاً يطالبن بأن ترد اليهن ما لهن !

وفي ذلك الصباح جاءت زائرتان منهن ، فلم تكتفيا بالنداء أمام الدار الكبيرة بل مضتا الى

غرفة عيني فدخلتاها . كان عمر لا يزال نائماً . انها ساعة مبكرة جداً من الصباح . استيقظ عمر فجأة على أصوات صياحهما .

أمرأتان دميمتان ضخمتان ، متسربلتان بحايكين ناصعي البياض ، اقتحمتا الغرفة وانتصبتا فيها شديدتين كأنهما برجان . . انهما تملكان الثراء . إن هاتين المرأتين تلوثان بصحتهما الباهرة القاسية جدران هذه الغرفة العارية . لم تزيدا في أول الأمر على ان أزاحتا الستار المسدل على المدخل ، ولم تتوغلا أكثر من خطوة واحدة وكانت عيني جالسة على الأرض أمام طبق مشقق ، فبدت كالطلل المتداعي إزاء هاتين المرأتين اللتين تجسدان المال الخانق المهين ، واللتين خطرتا وفي عينيهما وفمهما السب واللعن ، والتهديد والوعيد . ان جسميهما الضخمين اللذين يسدان عتبة الباب يحجبان النور عن الغرفة حجباً تاماً . . وتقدمت المرأتان أخيراً ، فوقفتا في وسط الغرفة ، وعسكرتا أمام عيني وأولادها المحطمين الذين أخذ تقبضهم يزداد شيئاً فشيئاً .

فنهضت عيني كالصرصور بحركة مفاجئة ، وأخذت النساء الثلاث يتعانقن . آه . . ان هذه المعانقات والقبلات لم تكن إلا تصنعاً وزيفاً. انها كذب وخدعة . انها تقليد للمودة والعواطف الصادقة . ولكنها كانت محكمة مرتبة . كان واضحاً من ذلك ان المرأتين انما جاءتا للمشاجرة والمطالبة والتهديد . فيكفي ان ينظر المرء الى وجهيهما المتصنعين حين يدرك ذلك .

دعتهما عيني الى الجلوس وهي تشير بيدها الى جلود الخراف المفروشة على الأرض . فهزت المرأتان رأسيهما ترفضان الدعوة :

ــ لم نجيء لنقعد وإنما جئنا للحظة ثم نمضي .

فحلفت عيني ان تقعدا ، وحركت يديها تريد ان تجرهما من أذيال الحايك .

ــ لحظة قصيرة ! لن تبقيا هكذا واقفتين .

فأقسمت المرأتان لا تقعدان .

ــ قعودكما يشرفني كثيراً .

وصاحت احداهما أخيراً ـ وهي ذات خدين ضخمين مهتزين ـ صاحت تقول بصوت كصوت البوق :

ــ اختي عيني . لعن الله الشيطان . لعن الله الشيطان ! متى نحصل أخيراً على أثوابنا ؟ لقد جئنا اثنتي عشرة مرة . فهل نحصل عليها آخر الأمر ؟

وقالت المرأة الثانية وهي امرأة مترهلة ، تلتمع عيناها التماعاً غريباً في وجه شاحب ، قالت بصوت كصوت الرجال مقنع :

ــ لا تستشيطي عليها غضبا يا زهرا . دعيني أتكلم .

ثم التفتت الى عيني وقالت :

ــ ما عساك صانعة حين لا يبقى لك قرش مما أعطيناك من مال ؟

ثم قالت بمزيد من الرفق أيضاً :

ـ فكري في هذا يا عيني ، يا عزيزتي ، ما عساك صانعة حين يكون عليك ان تردي إلينا مالنا ؟

ـ صحيح . كلامك حق . ولكن لا تخشيا شيئاً . فلن يضيع من مالكما قرش واحد .

عندئذ استأنفت المرأة الثانية عواءها :

ـ كان عليك ان تسافري الى مراكش منذ أكثر من عشرة أيام فمتى تأتينا بهذه الأثواب ؟ أتظنين أننا سننتظرك الى ان يشاء لك هواك ان تسافري ؟ أجيبيني عن هذا السؤال . متى تأتينا بهذه الأثواب ؟ انا في حاجة اليها لعرس ابنتي ! ولكن لعل المال تبدد منذ مدة طويلة ؟ لن يدهشني منك ان يقع هذا لا أعرف كيف سأتصرف حين أعلم انك أكلت مالي . لأثيرنها عندئذ فضيحة . تأكدي من ذلك ! مستغلة ! نعم . ما أنت ألا مستغلة !

وأخذ النساء الثلاث يتكلمن فجأة في آن واحد معاً . أصواتهن المتفجرة المتكررة تهدم عذوبة الصباح الساجي . ترى هل كان يسمع بعضهن بعضاً ؟ أصبح عمر لا يفهم شيئاً مما يقلنه . كان لا يعرف إلا شيئاً واحداً . هو أن هاتين المرأتين تطالبان أمه برد مالهما اليهما ، وأمه تحتج احتجاجاً شديداً . وليس يهمهن اذن ان يفهم بعضهن بعضا فلقد كن يعرفن ماذا يردن ، وهذا هو الأمر الأساسي .

ان المرأتين تريدان اذن ان تجهزا بناتهما لأعراسهن . القضية اذن قضية جهاز ! هذه هي القضية الكبرى في حياة نساء تلمسان ، وهذا هو الهم الأكبر الذي يملأ رؤوسهن .

وفي هذه اللحظة ألقت المرأة التي اسمها زهرا نظرة على الأطفال ، وقالت ساخطة شاتمة :

ـ لا تقولي انك أطعمت بمالي هؤلاء الخنازير . .

فدمدمت الثانية قائلة :

ـ تمهلي قليلا يا زهرا .

فأجابتها عيني :

ـ لا تحاولي ان تكوني معي كصاحبك كلير ! (هكذا كانت عيني تسمى هتلر) . لن يجديك هذا ، أقول لك ذلك بصراحة .

وأضافت الى كلمة الصراحة ترجمتها الفرنسية Franchement من أجل ان تأخذها صاحبتها مأخذ الجد . .

وكانت عيني تهز يديها في الهواء هزّاً مرتعشاً وهي تقول تلك الكلمات ، فلما لاحظت ذلك نظرت اليهما في ذهول وخفضتهما ، ثم استأنفت تقول بصوت لاهث قليلاً :

ـ أنت تعلمين مع ذلك يا زهرا أنني لست كما تظنين . أنا لا أستطيع أن آخذ مالك لأعيش به .

فقالت المرأة الثانية مرة أخرى :

ـ أنا أوثر حديث التفاهم والمصالحة . أنا امرأة شريفة تفهم الأمور . ولكن لا بد لي من

الاعتراف بأنه لا سبيل الى المزيد من الصبر على كل حال ، أنا أوثر حديث التفاهم والمصالحة .

فأنبرت المرأة التي تسمى زهرا قائلة :

ــ الله نفسه لا يمكن ان يقبل هذا .

أحسّ عمر ، وهو مهتاج أشد الاهتياج ، بأن عدداً كبيراً من النساء ، هن الجارات ما في ذلك شك ، قد وقفن على باب الغرفة ، ان هؤلاء النساء قد اجتذبهن أمل الاستمتاع بشهود فضيحة من الفضائح ، فجئن ينصتن للحديث وراء الباب . استند عمر الى أحد كوعيه ومال يحاول ان يستشفهن من خلال شق الستارة . كن واقفات هناك يصغين الى المناقشة في ارتياح وجذل .

والتفتت عيني نفسها الى مدخل الغرفة ونادت النسوة اللاتي كن يقفن وراء الباب .

فما هي إلاّ لحظات حتى كانت نساء دار سبيطار جميعاً ، اللاتي توافدن واحدة في أول الأمر وزرافات بعد ذلك ، قد تجمعن في غرفة عيني وأمامها ، تجمعن هنالك ، وأخذت يشهدن ، صامتات ، المناقشة التي تدور على مرأى منهن ، وينتظرن اللحظة المناسبة للتدخل في الأمر .

اتجهت المرأتان الغريبتان اليهن ، وقالت إحداهما :

ــ يشهد الله يا اخواتي اننا أسلفنا مالاً . .

وأخذتا تعيدان على الجارات قصتهما منذ البداية . . فكانت الجارات يصغين اليهما إصغاء عميقاً ، وهن ساكنات لا يتحركن . وكن في أثناء ذلك قد اتخذن لأنفسهن أماكن جلسن فيها . ان عيني مضطربة ، ومن حين الى حين كانت احداهن تهز رأسها بإشارات عريضة متكلفة . وفجأة صاح عمر بصوت يفيض بالحنق قائلاً لهن :

ــ اذهبن يا . . ما انتن جميعاً إلاّ بنات كلب . .

فكانت هذه الكلمات نذير هرج ومرج . وأخذ النساء يشتمن عمر . قالت إحداهن :

ــ يفك حنكك ان شاء الله يا مشوه .

أصبح عمر لا يفهم شيئاً مما يحدث . كانت النساء ساكنات صامتات فإذا هن ينقلبن فجأة الى هائجات متحديات . وأخذت عيني تلهث بينهن . انهن يتكلمن جميعاً في آن واحد مزبدات مرغيات . لكأن فما ثانيا قد انشق في وجه كل واحدة منهن .

حين قال عمر ـ مشيراً الى المرأتين الغريبتين اللتين جاءتا هذا الصباح ـ « ينبغي للمرء ألاّ يسرق »، قالت الخالة حسناء سائلة :

ــ يا رب ! كيف تستطيعين ان تدبري أمورك في هذه الحياة ؟

كانت لالا تزور في ذلك اليوم عيني وأولادها ، بعد ان انتظروا هذه الزيارة منذ بضعة أيام تمنوها من أعماق قلوبهم . ان الخالة حسناء هي الآن في بيتهم، أمامهم ، وانهم لا يستطيعون في هذه اللحظة ان يزيدوا على ان يظلوا صامتين يصغون اليها في خشوع .

ان لالا مندهشة . كيف أمكن ان يمتلىء رأس هذا الطرح بأفكار كهذه الأفكار ؟ أتراه وضع هذه الأمور في دماغه منذ خرج من بطن أمه ؟ قالت مرددة ، وهي تشير الى الصبي بأصبعها : ان هذا الصبي لا يطمئنني . يا عيني كوني على حذر منه .

ورفعت لالا ذقنها الى فوق . ان هيئتها تعكس ما تحمله من احتقار كبير للنظريات السخيفة التي يدلي بها عمر . ونطقت بحكمها في جد ووقار قائلة :

ــ ستكون نهاية هذا الصبي نهاية سيئة . لسوف يتسول طوال حياته !

كانت أحكامها القاطعة كأحكام القدر ، لا تدع مجالاً لاستشفاف آمال فرحة في يوم من الأيام .

وأحسّ عمر بمدى ما تولده حقائق لالا في النفس من حزن ممض .

كانت لالا تقول لهم :

ــ ان عنتيل قد نهب وسرق ، ولكنه جمع ثروة .

وكان شعورها المخلص هو أن هذه النتيجة تمحو ما كانت تشتمل عليه الوسائل من ازعاج . وأضافت تقول :

ــ والآن لم يبق على عنتيل إلّا أن يفعل الخير ، وان يتصدق على الفقراء ، وان يحج الى مكة ، فبذلك يكفل لنفسه الجنة .

إذن لا بد للمرء حتى يمارس الفضيلة ممارسة مجدية من أن يبني في أول الأمر ثروة ؟ كلام واضح .

ان كلام الخالة يبث القلق في نفس عمر ، رغم انه لا يستطيع ان يقول لماذا . ومع ذلك أحب عمر ان يسمعها تتكلم . انها فطنة حصيفة . ان في أقوالها حزماً وجزماً . انها تقطع اسئلتك بقوة . وهي تدهشك بما تملكه من موهبة النفاذ الى أخفى أفكارك . وهي بطبيعة الحال ، تعلن لك بصراحة ما ليس في وسعك حتى ان تديره في خلدك وان تفكر فيه . صحيح ان ما تكشفه لهم عن أنفسهم وعن غيرهم ليس جميلاً . فهي تنسب الى الناس نوايا تبعث على الدهشة في أقل تقدير ، نوايا لا تشرف أصحابها البتة . ان ما تقوله يثير في نفس عمر شيئاً من الانزعاج دائمًا .

وقالت له مرة أخرى في صراخ قوي :

ــ كيف تراك تدبر أمورك في هذه الحياة ، أنت يا من لا تريد أن تسرق ؟ قل لي : ما عساك تفعل ؟ ان على المرء ان يعرف كيف يختطف خبزه من فم الكلب حين ينبح الكلب .

أخذوا يتبنون نظراتها أخيراً ، دون أن يعرفوا كيف حدث هذا ، يتابعونها دون أن يكون لهم حيلة في دفع ذلك عن أنفسهم ، لاحظ عمر أنه قد استبدت به آراء ما كان ليتمنى في حياته ان تكون آراءه ودّ عمر لو يومىء الى خالته ان تسكت ! ولكنه لم يأمل كثيراً ان تحفل خالته بايماءته .

ومع ذلك كان الصبي يحسّ ان خالته بريئة . لو سألته ان يقول لك كيف عرف ذلك ، لما

استطاع ان يجيب . ومهما يكن من أمر فأنه لا يشعر بأي فرح حين يسمعها تتكلم على هذا النحو . انه لأمر سهل كل السهولة أن يهاجم المرء الناس على أساس من الظن والتخمين كما تفعل هي الآن . ولكن عمر امتنع عن أن يقول هذا ، لما كانوا يكنون لها من اعتبار ، سواء بسبب سنها أو بسبب خطورة شأنها وعلو منزلتها . ثم انه كان يكفي الصبي ان ينظر الى اضطراب شاربيها حين تهتاج حتى يقتنع انه لا يستطيع ان يأخذ عليها شيئاً .

ليست هذه أول مرة يلاحظ فيها عمر من حوله فكرة اختراق القوانين على وعي وعمد . وكان عمر يحسّ دائمًا أن كل انسان يستطيع بالذكاء والحذق والحماسة ان يصل الى جميع المراكز التي يطمح اليها ويحرص عليها . فكان لا يستطيع أن يتصور أن على الانسان ان يسرق وان يخدع الناس وان يستغل الآخرين من أجل ان يحقق غاياته .

قال لنفسه : « حتى الجوع لن يدفعني الى استلاب ما ليس لي ».

كان يكفيه ان يتصور ضرورة السرقة حتى يشمئز . صحيح انه لم يصل الى معنى الشرف والأمانة بتفكير مقصود ، لكنه لم يخطر بباله في يوم من الأيام ان يسلك سلوكا غير شريف . الخير والشرف عنده صنوان . وكان يعرف مع ذلك ان كثيرا من الناس يسرقون وأن الذين يسرقون ليسوا أعلى الناس شأناً . وأولئك الذين لا يتورعون عن انتهاز أية فرصة من الفرص لزيادة ثرائهم الشخصي أولئك أنفسهم ينظرون الى العالم الذي حولهم نظرة تعال وتكبر . وضحاياهم الأولى التي لا يشعرون نحوها إلّا بالاحتقار والتنازل هي من هذا الشعب الذي يحيط بهم . وكان عمر يتخيل مائدة أولئك الناس على انها شيء رهيب فاتن كمنضدة الذبائح ، وليست تذبح على هذه المنضدة حيوانات شائعة كالخرفان والحملان والأبقار فحسب ، بل تذبح عليها كذلك النباتات البريئة ، والأشجار ، وأعشاب الأرض ، وحتى الانسان نفسه ، يذبح عليها جميع البشر الذين تظل أيديهم وأرجلهم تتخبط الى ان يشبع السفاح الذي لا وجه له ، يذبح عليها جميع الناس وأقدس ما في الانسان : كرمه ، واخوته ، وشرفه ، وشهامته ، وشوقه الى الحياة والبناء والتفكير ، يذبح عليها هذا كله ، ويوضع على مائدة الشيطان طعاماً يقطر منه الدم .

ومع ذلك فان بعض الناس ، وهم من أشرف الناس ، قد سيطرت عليهم الحالة النفسية التي كانت شائعة في ذلك الوقت . كانوا يغبطون الشيطان ويتمنون ان يكونوا مثله .

ان لالا تزورهم في أحيان كثيرة . فكلما جاءت حملت اليهم كسرا من خبز يابس ، تكون قد صرتها خفية في قطعة من قماش . وكانت تخشى ان يفاجئها « الآخر » (ان حسناء تطلق اسم « الآخر » على زوجها) فكانت تدسّ الصرة تحت حايكها . وكان زوجها العجوز لا يطيق ان تخرج من البيت فتيتة .

وكانت عيني تعرف كيف تضفي على لقم الخبز هذه منظراً شهياً . ان الطعام يعوز الأسرة ، فلا بدّ من الاكتفاء بهذه اللقم . ومن الخرافة ان ينفروا منها أو ان يزهدوا فيها . ولو خطر ببالهم ان

يفعلوا لبدا ذلك منهم شذوذاً لا محل له في نظر حسناء . أتنكرون نعم الله عليكم أيها اليتامى ؟ اسجدوا شكراً لله الذي يغرقكم بخيراته ! انهم سعداء الحظ ، انهم أسعد الأطفال حظاً . وكيف لا يكونون كذلك ؟ انهم ان لم يفرحوا بهذا الطعام الذي تتفضل به عليهم الخالة حسناء ، كانوا كمن يجحد النعمة ويهين العالم . فلا بدّ من أن يكونوا اذن سعداء .

وهذه القطع من الخبز التي كان يصعب تكسيرها بمطرقة كانت عيني تنديها بالبخار ، فتلين ، ويصبح لها مظهر طري كمظهر الفطير . وكان ينبغي التهام هذه القطع من الخبز المندى بالبخار ساخناً قبل ان تبرد . وإلاّ أصبحت عجيناً لزجاً لا أكثر . فكان الأطفال يزدرونها لقمًا كبيرة بعد ان يغمسوها في مصالة اللبن التي كانت أمهم تشتري منها قدراً كاملاً بفرنكين . وكان هذا الخبز وهذه المصالة طعامهم خلال عدة أيام من الأسبوع .

وكانت الأم ، في أحيان أخرى ، تنقع كسر الخبز في الماء فتتشرب الكسر الماء شيئاً فشيئاً وتنتفخ ، وتصبح قابلة لأن تتفتت . انها بعد ان تنقع في الماء مدة طويلة تكتسب مظهراً جميلاً كمظهر الثلج . على ان هذه الطريقة كانت لها مساوئها أيضاً . فان القطع المسرفة في القدم لم يكن يصل الماء الى قلبها ، فيظل قلبها يابساً كالحصى :

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الأولاد راضين بالتهام هذا الطعام . وكانت عمتهم تلقي في روعهم أثناء وجودها أن مجرد ذوق هذا الطعام بركة ، وان هذه السعادة لا ينعم بها جميع الناس ، فكان الله يخصهم بها وحدهم دون سائر البشر . وكانت لالا تنسى ان تقول ان جزءاً من هذه الكسر قد أخذ في الفتات الذي ترميه للدجاج وما كان ليزعجهم هذا الخبز على كل حال ، لو عرفوا انه مسروق من طعام الدجاج .

لا يعرف المرء الى أي حد كانت لالا واعية مكرها ، لا يعرف المرء إلى أي حد كانت واعية هذه الحيل التي يحملها عليها كرمها . ويجب ان نعترف بأنها كانت تبلغ من براهينها انها تأخذ تأكل معهم من هذا الخبز ، مقبلة عليه راضية عنه ، كما يجب ان يقبلوا هم عليه وأن يرضوا عنه .

وكانت عيني تنظر اليها وهي تفعل ذلك ، قائلة لنفسها : ان لالا هي التي تملك القدرة على جعل هذه البقايا مقبولة في أفواههم . وكان الأطفال يأكلون ولا يقولون شيئاً ، فتقدر عيني انها فهمت .

وفي بعض الأحيان ، وهي أحيان نادرة ؛ كانت الخالة تضيف الى صرتها قليلا من الدقيق ، فتعجنه عيني وتخبزه في اليوم نفسه . وكانت تقتصد في هذا الخبز الجديد فما تعطي أطفالها منه الا قطعة صغيرة مع قطعة كبيرة من الخبز الآخر . وفي أحيان أخرى كانت لالا تجيئهم بقليل من البن أيضاً ، أو بشظيتين كبيرتين من السكر ، أو بحلة فيها بقايا وجبة (وان تكن والحق يقال متخمرة قليلاً)، وكانت في بعض الأحيان تحمل اليهم بعض الفاكهة ، أو قليلا من الفحم . . .

ومهما يكن من أمر فان عمر كان يؤثر أن يأكل هذا الطعام على ان يفعل كما يفعل بعض الأطفال الذين يمضون ينبشون براميل الزبالة ويحملون الى أفواههم منها ما يجدونه فيها من بقايا . انه لا يود ان يحتقر هؤلاء الأولاد أبدا ، وقد يفعل ما يفعلون عند الاقتضاء ، ولكن الخجل هو الذي يصده عن ذلك ويبغضه اليه . على ان كثيراً من الصبية ، ومن الرجال أيضاً ، كانوا يستخرجون أكثر قوتهم من زبالة المدينة .

إن أرهاطا من الناس تقوم بغزوات الى الأماكن التي تفرغ فيها « طنابر » البلدية حمولتها ، وهناك على حوافي هذه المستودعات التي تشبه الروابي ، يرى المرء قرى عجيبة تزدهر ازدهار النباتات السامة على الفضلات . ان سكان هذه القرى يبحثون بين الزبالة عما يقيمون به أودهم . فلهم من كل ما تحمله « الطنابر » البواكير الأولى . وهنالك يلتمسون كذلك ما هم في حاجة اليه من أثاث .

ـ ٢١ ـ

خرج عمر من البيت حاملاً قطعة من الخبز . هذه عادته . انه كلما خرج ، في أية لحظة من لحظات النهار ، دبر أمره بحيث يحمل قطعة من الخبز ، فيأكلها خارج البيت ، في الشارع ، نقرة نقرة من داخل جيبه . ولقد اشتبهت فيه عيني منذ مدة طويلة ، وأدركت انه ينقص خبز الأسرة ، فكانت تمطره بوابل من اللوم والتقريع كلما عاد . كانت تلاحظ ان الخبز ينقص ، رغم انها تقفل بالمفتاح الصندوق الخشبي المدهون الذي تحفظ فيه كسر الخبز .

وكان عمر يطوف في شوارع المدينة وقد جعل خبزه قسمين ، قسما هو اللب يعده خبزا ، وقسما آخر هو القشر يسميه بالاسم الذي يريده ، فتارة يسميه لحما ، وتارة شيكولاته ، الخ . . ويأخذ يأكل خبزه بالادام الذي آثره .

إن كل لقمة من هذه اللقم التي يأكلها انما يأخذها من الآخرين ، من أختيه ، من الطعام الذي يسكتون به جوعهم ، من تعب امه وعنائها . ولكن ما العمل ؟ انه جائع . وكان يخرج الى الشارع حتى لا يرينه .

وكان يقف على عين من العيون هنا وهناك ، فيضع وجهه تحت الماء ، فيشرب ، ثم يستأنف طوافه في الشوارع .

كان لا بد ان يبقى في البيت . وكان أكثر السكان لا يتظاهرون بأنهم يأكلون الا ليوهموا الجيران بأنهم في بحبوحة ليس يعوزهم شيء .

وهناك صبية آخرون في الشوارع مثله ، فرادى أو عصابات ، متهيئون في كل لحظة لأن يفروا من رجال الشرطة الذين يطاردونهم ، انهم ينظرون الى الناس والأشياء نظرات غريبة ، وقد تسربلوا بأردية عتيقة مشمورة الأكمام عند القبضتين ، وانتعلوا أحذية ضخمة واسعة من أحذية

الرجال ، وشحبت وجوههم شحوباً شديداً . واتقدت عيونهم السوداء . انهم من فرط نشاطهم لا يكفون عن قتال بعضهم بعضا ، وعن مطاردة بعضهم بعضا . وأهل المدينة يحتقرونهم ويسيئون معاملتهم ، فلا بد لهم من أن يفروا في كل لحظة من ضيق الناس بهم وانزعاجهم منهم . وهم يتسولون ويستجدون الأكف في صراحة قليلة أو كثيرة ، وبعضهم يتعاطى السرقة . انهم ينظرون الى الرجال والنساء والأطفال من الأوربيين نظرات ثابتة ، ويتأملونهم في انتباه مركز شديد ، فيظهرون أكبر سنا من أعمارهم . انهم بغريزتهم يحدقون الى هذه الملابس الجديدة التي يرتديها الأوربيون ويحدقون الى أجسامهم النظيفة الصحيحة ، ويتفرسون في هيئاتهم التي تدل على انهم أناس لم يعرفوا الجوع ، وانهم يشعرون جميعاً بسعادة الحياة ويحسون بأنهم في مأمن من الأخطار ، ويتحملون بالأدب واللطف والتهذيب والرهافة تحليهم بثياب العيد . وأطفال الأوربيين عامة يخافون بعض الخوف من العرب . حتى ان أهلهم اذا أرادوا ان يهدئوهم قالوا لهم في كثير من الأحيان : أتسكتون أم ننادي العربي ؟

ولاحظ عمر اخيراً انه أصبح هو أيضاً ينظر الى الأوربيين كما ينظر اليهم رفاقه . وكانت نظرته تهم بالصراخ في وجوههم قائلة لهم شيئاً . وكان الأوربيون يشعرون دائما بان هذه النظرات الصارخة تلاحقهم في كل مكان .

ان جميع هؤلاء الأطفال الذين تحركهم حياة مبكرة ، قد ينطفئون شيئاً فشيئاً مع تقدم السنين ، من طول حمل البؤس ، والجهل ، والتعب المتراكم . . والسكر والسجون . ولكن لعل الأمر لن يكون كذلك بالنسبة لهؤلاء . .

انهم ينظرون الآن يقظين صامتين الى هذا العالم من القيود والموانع التي تحيط بهم في غير رحمة والتي يشعرون بقوتها اكثر مما يفهمونها . انهم ينبجسون من كل ركن من أركان المدينة تحركهم حماسة وشهوات لا يعبر عنها . وكانت الأشياء التافهة التي يرمونها اليهم ، كالعلب الفارغة وحطام اللعب والاعلانات المطبوعة تسكرهم بنشوة من الاعجاب ، فيتنافسون عليها في حنق يضفي على هذه الأشياء التي لا شأن لها قيمة عظيمة ، فكأنها مثل أعلى . فكان من يحتفظ بها منهم في آخر الصراع لا يخطىء اذا هو أخذ يلوح بها تلويحه بغنيمة حرب خرج منها ظافرا .

كان يسمح لعمر بأن يلعب هذا اللعب ما استطاع ، وان ينفق قواه على هذا النحو حراً طليقاً . لقد أصبحت حياة عمر تحديا صرفاً . ان غريزة حاقدة لا تنام كانت تثيره بسرعة على كل شيء وعلى كل انسان . كان لا يقبل الحياة على حالتها التي تعرض له ، وكان يحس ، لسبب من الأسباب لا يمكن التعبير عنه ، ان هناك شيئا اخطر شأنا وأعمق قيمة . وكان مقتنعاً بأنه لا يستطيع ان يصل الى هذا الشيء وهو بين ذويه ، ولكنه كان يرفض مع ذلك ان يصل الى هذا الشيء من دون ذويه . لم يكن يدخل في نياته ان ينبذهم بل كان يدرك انه يكون غريبا حيث لا يكون . لذلك كان عمر اذا طاش صوابه غضبا أو يأسا ، ولجأ الى أحضان دار سبيطار ، يحسّ انه يدخل روحاً كبيرة خافقة هي روح بلد بأسره . كانت طفولته تفارقه . وما هو الآن الا ثورة

وصيحة بين سائر الثورات والصيحات .

وقد اتفق له غير مرة أن ابتعد عن عصابة أطفال الحي مدفوعا بحب الاستطلاع . ترك رفاقه ذات يوم ومضى يتجول في نواحي السوق المسقوفة ، حتى اذا انهى جولته ذهب يجلس على مقعد في « ميدان البلدية »، ان عدداً كبيراً من المارة يجتازون في جميع الاتجاهات هذا الميدان الذي تظلله أشجار الدلب . ورأى عمر رجلا يقترب منه . ان الرجل اوربي يصحبه صبي صغير . دهش عمر حين رأى هذا الفرنسي وابنه يقفان أمامه ، ثم شعر بشيء من الخوف ، وداخل نفسه شيء من الخشية ، فأراد ان يقوم ويمضي ولكن الرجل سأله ان يصحبه الى السوق من أجل ان يحمل له بعض المتاع .

لقد سبق كثيراً لعمر ان نودي بصفير على تلك الطريقة الخاصة التي يستعملها الأوربيون حين يريدون ان ينادوا أحداً من سكان البلاد الأصليين : بست ، بست ! وكان في مثل هذه الأحوال يلتفت الى الوراء فيرى انهم ينادونه . انه رجل فرنسي هذا الذي أومأ اليه قائلاً :

ــ تعال احمل .

نظر الفرنسي الى عمر نظرة طويلة ، وهو يتردد ، ممسكا ابنه بيده . فسرعان ما شعر عمر بنار تحرق جسمه حرقا لا يطاق . ان احساساً بالعار والمذلة يسري فيه سريان التمزق على حين فجأة . شعر عمر بأن وجهه يحمر . كان عمر قد تعلم الكلام بالفرنسية . فكان في وسعه ان يقول انه ليس حمالا ، أو انه يجب الا ينظر الناس اليه نظرتهم الى حمال . ولكنه لم يستطع ان ينبس بكلمة واحدة . لقد فقد معرفته بالفرنسية دفعة واحدة . وقال أخيراً بصوت مختنق :

ــ نعم يا سيدي .

ولكن الرجل كان قد بدأ يتفرس فيه مرتابا . وسأله كم يطلب على الحمل اجرا . فقال الصبي :

ــ ما تشاء يا سيدي .

فبدا على الرجل عندئذ انه اطمأن . فأمره ان يتبعهما هو وابنه قائلاً :

ــ تعال إذن .

مشى عمر في أثرهما . حتى اذا وصلوا الى السوق التي يدخلها الفرنسيون خاصة ملأ الرجل الشبكة التي يحملها عمر ، بالخضار والفاكهة . انها خضار وفاكهة لا وجود لها في السوق الأخرى التي يشتري منها المسلمون .

ساعد الرجل عمر على رفع الشبكة الى كتفه وأمره ان يمشي أمامه .

سار عمر لا ينطق بكلمة ولا يفكر الا في جعل الشبكة متوازنة فوق كتفه . انه الآن يخشى ان يلقى رفيقاً من رفاقه ، فيفاجئه وهو يتعاطى الحمالة . لو رآه رفاقه على هذه الحال لأمطروه بوابل من السخر وشعر عمر بحزن شديد .

ووصل الثلاثة أمام احدى الفيللات بعد ان داروا دورة لدخول دكان بقال من البقالين .

دخل الرجل وابنه أولا الفيللا ، ثم أشاروا الى عمر ان ادخل . كان الرجل يراقب عمر . وهو قائم على ساقيه القصيرتين في خراقة ، وأخرج من جيبه قطعة من النقد دسها في يد عمر كأنه يدفع اليه صدقة . فرنك . . ان الطفل لا يدري أيقبله أم يرفضه . لم يحرك ساكنا . بدا على الرجل الارتياح . وخاطب عمر في تلك اللحظة قائلا :

ـ ما اسمك ؟ ما عمل أبيك ؟

قال ذلك في غموض وذهول . انه لم يلق هذا السؤال الا ليقول شيئا ما .

أجاب عمر بأن أباه ميت .

فأردف الرجل يسأله :

ـ ما عمرك ؟

ـ احدى عشرة سنة .

ولمح الرجل ابنه في الدهليز يحمل كتابا كبيرا من كتب الصور . فهتف يقول له :

ـ هل رأيت يا جان بيير ! ان هذا الصبي في مثل عمرك تقريبا .

ثم التفت الى عمر وقال :

ـ أين تعلمت الكلام بالفرنسية ؟

ـ في المدرسة يا سيدي .

ـ ها . . أنت تذهب الى المدرسة .

ـ أقصد . . كنت أذهب الى المدرسة . .

وتابع عمر يقول دون أي انفعال الآن :

ـ ولكني اضطررت الى تركها .

فقال الرجل في وقار :

ـ نعم ، لا بد للمرء ان يعيش .

ثم قال لابنه :

ـ هل رأيت ؟ ان هذا الصبي لا يستطيع ان يذهب الى المدرسة لأن عليه أن يعيش .

وتابع الرجل القاء اسئلته بتلك الطريقة الذاهلة نفسها ، كأنه يلقيها على مضض :

ـ كم تكسب في اليوم ؟

ـ هذا يختلف من يوم الى يوم . حين يكون الزبائن كثيرين يصل كسبي الى عشرين أو ثلاثين فرنكا .

تحير الرجل . شعر بضيق . بدا عليه انه يتساءل عما عسى ان يقوله فيه هذا العربي الصغير .

ـ وطبعا . . أنت تحمل كل ما تكسبه الى أمك ، لا تنفق منه شيئا فأجاب عمر بغير تردد :

ـ طبعا . . إلاّ حين يعطيني احد « بقشيشاً » .

ومرة أخرى صدم الرجل . ونظر الى ابنه وهو يهز له رأسه هزاً رصيناً علامة الاستحسان . بدأ الآن يضجر .

أراد عمر ان يسحق هذا الرجل بثقل إرادته . قامت في نفسه قوة غامضة عارية خالية من كل عاطفة ومن كل انفعال . انها حماسة غريبة وحشية .

كان الابن صامتا ، وهو يمسك كتابه بذراعيه . ويحدق الى عمر بعينيه الشاحبتين .

وخطرت للرجل فكرة . قال لعمر وهو يشير الى الكتاب الذي يمسكه ابنه :

ــ هل تحب أيها الصغير ان يكون لك كتاب من كتب الصور كهذا الكتاب ؟

لم يكن لعمر كتب في يوم من الأيام ، ولا خطر بباله في حياته ان يكون له كتب . وكانت الرغبة في الكتب لا تراوده لأن الكتب لم تكن تعنيه كثيراً .

غير انه أدرك الجواب الذي ينتظره منه الرجل فقال :

ــ طبعاً . . أريد . . ولكن كيف السبيل الى هذا ؟

فالتفت الرجل الى ابنه ، ونظر اليه صامتا ، ثم قال :

ــ اسمع يا جان بيير . هب هذا العربي الصغير سألك ان تعطيه كتابك ، فهل تهديه اليه ؟

فنظر الصبي الى أبيه ، ونظر الى عمر . ثم ما كان منه إلاّ أن عانق كتابه في عنف شديد يضحك ان يصدر من طفل مثله نحيل هذا النحول منطفىء هذا الانطفاء .

ــ هبه سألك أن تعطيه هذا الكتاب . . هو الذي ليس عنده كتاب . . أفما تهديه اليه ؟

فقال الصبي في أنين :

ــ هو لي .

وجعد وجهه وهم بالبكاء .

فقال له أبوه :

ــ نعم نعم ، هو لك . انا ما قلت ان عليك ان تعطيه الكتاب . هذا الصبي ليس في حاجة اليه .

ولكن هيئة الابن ظلت تعبر عن القلق .

ــ أنا ما قلت ان عليك ان تعطيه الكتاب .

قال الابن مصرا :

ــ الكتاب لي .

ــ طبعا هو لك . ما من أحد يفكر في أخذه منك .

قال عمر يقطع الحديث .

ــ على كل حال لن يتسع وقتي لقراءته ، أما هو . .

فابتسم الأب راضيا . ولكن الابن لم يطمئن إلاّ شبه اطمئنان ، فلا يزال وجهه متجهما ولا يزال يبدو على أهبة البكاء .

قال الأب :

ــ هل رأيت ؟ ان هذا الصبي أطيب قلبا منك . هو فقير ، ومع ذلك لا يريد أخذ كتابك . ولكن عليك ، كلما ثارت نزواتك وكلما تشكيت ، ان تتذكر ان هناك أطفالا يعملون ، وما حصلوا يوما على كتاب ولا على أية لعبة أخرى .

فردد الصبي يقول في عناد :

ــ الكتاب لي .

فقال الأب متنهدا :

ــ نعم نعم ، هو لك .

ونظر الى ساعته ، فقال لعمر :

ــ اذهب أيها الصغير .

فتح له الباب ، فاجتاز عمر العتبة ومضى .

ــ ٢٢ ــ

كانت ماما تنظف البيت وترتبه ، ذاهبة من غرفة الى غرفة ، محدثة نفسها بغير انقطاع . وكانت في بعض اللحظات تخرج الى فناء البيت فجأة دون أن تتوقف عن الكلام ، فتستشهد اختها الصغيرة زهور ، ثم تعود تلاحق دمدمتها في أعماق حجرة من الحجرات . ان زهور صامتة لا تقول شيئا . وكانت تسمعها تقول : « الشرف عندنا هو كل شيء ، هو فوق سعادتنا . هذه هي الحقيقة ».

ان طبقة ثقيلة من السحب تغطي السماء . وهذه طيور سوداء تدور في الجو ثم تدور في غير كلال ولا ملال ، وما تنفك تزعق . وثمة أصوات أخرى تأتي من الشاطىء الصخري المتغضن أمام المزرعة ، وتتردد أصداؤ ها في الهواء . وفجأة غمرت الشمس فناء البيت . هذا أول شعاع من أشعة الصباح .

ما الذي يحملها على أن تقول هذا الكلام ؟ ان زهور لم تصغ اليها حتى الآن . انه ليس يعنيها هي أن يكون الشرف غاية الحياة . انها لا تفهم من هذا الكلام شيئاً . أليس هذا ألفاظاً فحسب ؟ ان المرء يسمع هذه الألفاظ كل يوم ، ولا شك ان الصمت خير من هذا الكلام كله . ومع ذلك فان خوفاً مضطرباً كان يتسلل الى نفسها ، ولا تملك ان تسيطر عليه . ان أقوال اختها الكبرى قد بعثت في نفسها القلق ، كأنما هي تعبر عن خطر غامض يتربص بها . أليس وراء هذا أمر من الأمور ؟

كانت زهور تغرف اللبن الرائب من دن كبير أزرق بآنية من الأواني ، وتنقله الى الممخضة ،

حتى اذا ملأت باللبن ثلاثة أرباع المخضة علقتها بشجرة التين التي في الفناء .

وفي هذه اللحظة دخل قره واقترب من ماما .

ــ أنت تظنين أنني رجل لا ألاحظ شيئا ، أليس كذلك ؟ انني أرى زهور دائمًا ، فأدرك انها على كونها طفلة ، تصبح امرأة يوماً بعد يوم . . ما عمرها ؟

ــ لم تكن قد بلغت من العمر الا خمس سنين وشهرين حين توفي المرحوم أبي . وقد مات أبي منذ تسعة أعوام . انني أرى هذا كأنه وقع بالأمس . سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاماً وشهرين أو ثلاثة .

ــ حقاً لقد أصبحت امرأة ، امرأة جميلة .

وكان لا بد من تقديم طعامه اليه فتولت زهور ذلك . انه الآن يلتهم الخبز الأسود الذي يمتلىء به فمه مع جرعة كبيرة من مصالة اللبن تدفع الخبز وتقرقر في قاع حلقه . فلما فرغت زهور من حمل كل طعامه اليه ظلت واقفة على مسافة غير بعيدة ، تنتظر ان يطلبها ، بينما هو ماض في ازدراد طعامه . ألقت ماما نظرة سريعة على اختها الصغيرة التي كان قد اسمر وجهها . هكذا أصبح قره يتكلم عليها كل مرة بهذه الصورة . وشيء صغير في قلب ماما كان يبكي كسيراً ذليلا .

ماذا كان يريد زوجها في واقع الأمر ؟ أتراه كان يظن ان الصغيرة تستطيب هذا الكلام الذي يقوله ؟ انه مخطىء على كل حال . كانت أحاديث قره تنهش روح ماما نهشاً . ولكن ما الذي يمكن ان تأخذه عليه في الحقيقة ؟ هل كان على الأقل يعرف ما يقول ؟ يا له من فلاح شقي ، شقي ، يائس ! بهذا كانت ماما تهتف بينها وبين نفسها .

قال قره يتابع كلامه :

ــ جاءني اليوم من يخطبها .

فقالت الزوجة لائمة :

ــ هوه ! لم تقول هذا الكلام أمامها ؟ زهور ، لا تبقى هنا ، اخرجي فلما خرجت زهور من الغرفة خافضة رأسها ، سألت ماما زوجها :

ــ من الذي جاء يخطبها ؟

هكذا شأن النساء . انهن دائمًا متعجلات ، يردن ان يعرفن كل شيء في لحظة .

ــ لماذا لا تريد ان تذكر اسم من جاء يخطبها ؟ أهذا ممكن يا رب ؟

نظر الرجل أمامه وهو يهرس خبزه بين فكيه في بطء .

ــ سأرى .

زهور قاعدة على صندوق صغيرة في وسط فناء المزرعة تخض اللبن في غير توقف . ذهبت ماما لتجيء الى البيت بماء . الجو في الخارج ثقيل ، لكنه لا يبشر بهطول المطر . السحب التي فوق الجبال تحك السماء في هدوء ورفق . . العالم راقد على هدهدة الأرض كدولاب المغزل . ورمدة أشجار الزيتون المحاطة بأخاديد الحراثة السوداء ، وهي رمدة معدنية اللون ، تغطي شهب

الأودية . الماء الذي ينبع من مكان بأعلى القرية ، ويسمع خريره هنا ، يجري غير بعيد عن البيت . على مسافة خمسين خطوة . ان هذا الماء ينبع بين أشجار التين المعوجة ويجري في الحقول قدما نحو المزرعة ، فكأن هذه الأرض كلها راقدة بين يديه المتلويتين .

ظلت زهور في البيت ، تدفع الممخضة عنها وتجذبها اليها كأنها نواس ، فتقرقر ويخرج منها صوت كاب ، فكلما قامت بحركة من هذه الحركات احتك ذراعاها بثدييها اللذين يظهر نهودهما تحت غلالتها . ان لها وركين عريضين ، وجسما مكتنزا قويا . لم تكن زهور قبل بضعة أشهر إلّا طفلة صغيرة . وهذا نسغ قوي يجري في جسمها دفة واحدة ، فاذا بجسمها يتفجر في كل جهة ! وهي بيضاء بياضا يثير الدهشة . وشعرها كتلة سوداء ناعمة . ان الرجال تنقبض حلوقهم متى رأوها .وفجأة حكت زهور جسمها من فوق ثيابها. ثم شمرت جميع ملابسها وأخذت تحرث بطنها بأظافرها . كانت رائحة خفيفة من رائحة اللبن الخاثر تتموج في الهواء الرطب فتختلط برائحة أخرى أكثف منها هي رائحة الزبل وبول البهائم الآتية من الحظيرة الفاغر بابها أمام زهور .

وأخرج الفتاة من ذهولها ظل خفيف ضخم كان يسير اليها . كان هذا الظل يشبه في أول الأمر ظل لقلاق نحيل الى أقصى النحول ، ثم لم يلبث ان بدا كظل سلحفاة ضخمة . . وتحول الظل على صور أخرى أيضاً . انها خطوات قره ، البطيئة الصامتة . كان قره آتيا الى الفتاة من وراء . ان البوابيج ذات النعال القوية تحدث في بعض الأحيان هذا الصوت الذي يحدثه وقع قدميه العاريتين. . وقف قره الى يسار زهور . وعندئذ أدركت زهور انه كان متجها اليها . تحدث قره عن الزبدة ، وعن طعام الفطور ، وعن المقبرة ، وعما لا تدري أيضا من أمور ليست تعنيها . وكانت الفتاة لا تصغي اليه ، ولاحظت ان الكلمات التي يقولها تترجع في داخلها ترجعا ضعيفا .

كان قره يتكلم ، مائلا عليها ، وكانت هي لا تحاول ان تفهم ما يقول ، شاعرة بأن رجلا هو الذي يحيط بها الآن . وشمس الشتاء التي ظهرت في تلك اللحظة كانت شهباء لا نور لها ولا ثقل .

ان زهور باردة منقبضة النفس ، يبدو عليها انها تنصت في احترام هادىء ، بينما الكلام البطيء الذي يخرج من فم الرجل يصطخب عليها دون ان ينفد معينه . فلما رفعت رأسها أخيراً والتفتت الى قره لاحظت انه كان لا يحول نظراته عن ساقيها العاريتين . فأسرعت تضم ساقيها تحتها . سألها قره :

ــ ثم ماذا ؟

ولكن الفتاة ليس لديها ما تقوله . قال :

ــ لا أستطيع أن أتصور انك ستظلين تنتظرين أبد الدهر . يجب ان نزوجك .

ــ ليس لي من الأمر شيء .

وغضت طرفها . أدركت فجأة لماذا جاء اليها ووقف قربها . وما لبثت ان رفعت رأسها بحركة عنيفة متحدية . . وأخذت تحدق الى هذا الوجه الكبير الرخو الأخرس ، وجه قره . كانت

هيئة الرجل تعبر عن البعد والاكتئاب . وومضت في نفس الطفلة شعلة من كره . وسمعا كلاهما وقع خطوات ماما آتية من خارج البيت . يا له من كلب قذر !

وابتعد قره متأرجحاً . ان هذا الرجل ، رغم انه لا يبدو شابا ، يشعر من يراه بأن قوة شيطانية عمياء تسكن جسمه الكثيف . كانت ماما قادمة بقادوسيها المليئتين اللذين كادا يملخان يديها ملخا . فلما وصلت ألقتهما على الأرض في عنف ، مرتعشة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة . ألقتهما على الأرض في عنف كأنها ترميهما رميا ، فاندلق شيء من مائهما . فلما عادت تحملهما لتدخل بهما ، بقي منهما على الأرض دائرتان مبللتان سرعان ما شربهما التراب . وبخطوتين اجتازت ماما المسافة التي تفصلها عن الغرفة المشتركة . ونظرت الى الطفلة الجامدة الساكنة في وسط الفناء ، فما كان أشد دهشتها حين لاح لها معنى غريب في طريقة ترصد زهور .

قالت ماما لنفسها : « لا أستطيع أن أقول إلى أي حد تجرني زهور الى الاعتقاد ان هناك أشياء خطيرة . يجب أن أوضح لنفسي كل شيء . في هذا المساء نفسه سأفاتح زوجي . رباه ان هذه الطفلة تسبب لي قلقاً كثيراً . ان وجودها يهلكني ! ».

لم تستطع ماما أن تدرك بوضوح الى أي حد كانت أختها بريئة . حتى أن ما يلوح على زهور من صفاء يقلقها ولا يدخل الهدوء والسكينة الى قلبها . غير ان هناك أشياء يخشى المرء ان يكشفها . وكان من شأن هذا الانحسار الخفي الذي أصاب عاطفة الأخت نحو اختها بسبب ما يبدو على زهور من وضع غريب ، ان ماما تمنت في سرها ان تموت أختها ولكنها ما لبثت أن تماسكت .

كانت ماما نهبا لهذه الأفكار حين رأت الصبية تنهض وتدرك باب الدار . لماذا تراها تذهب تاركة البيت ؟ كانت غلالتها التي تلف أنوثتها المراهقة تلطم ساقيها أثناء ذهابها بخطا سريعة . سلكت زهور طريق النبع . ان فيما تلقيه على ما حولها من نظرات حانقة شيئا من نفاذ الصبر الذي يرى في الأطفال .

وأصيبت زهور خارج البيت بذعر . ان مذاقا كمذاق التراب يملأ فمها . بصقت . انها تشعر بهذا التشوش في هدوء وفي نوع من فقدان الاحساس مؤلم ممزوج بانتباه شديد . فلما وصلت الى النبع بعد أن سلكت اليه ممراً ضيقا . جثت أمام البركة التي يتجمع فيها الماء قبل ان يجري الى الحقول ويضيع فيها . ليس هذا النبع الا ثقباً صغيراً في الأرض ، يشبه صدغاً مشقوقاً . انه كعصفور يختلج على غير هدى ، دون ان يستطيع استرداد أنفاسه ، لأن يدين قد أمسكتا بخناقه . قالت زهور لنفسها : حين تتغازل الطيور في الجو تسقط على الأرض كأن صاعقة أصابتها . هكذا سقط العصفور . انني أرى حلقه ، وأسمع قرقرة شرايينه ، وهذا الخيط الناحل من الماء هو بلا شك شعاع من دم .

كانت زهور تصعد أحياناً من الأعماق التي تستكشفها ، وكأنها مغمضة عينيها . ان حولها

شيئا لا تعرفه يهمهم في قلب الجبال والأودية . ليس هو الريح ، انه يتحرك في الداخل ، ثم يصفع السهول ، ويصعد نحو الذرى . الأرض تهتز منه وكل شيء يرتعش ، والحقول العارية تختلج ، ويسمع المرء حتى في آخر الأفق رنين هذا السيل من القوى الآسرة التي ستغرق البلد في يوم من الأيام .

الجبل والسهل، والفجاج ، ترتسم في الأفق قاسية . الهواء حاد ، حتى ان المرء ليحس في بعض اللحظات ان جذوات تلسعه . والبذور لا تزال تنتفض تحت قشرة الأرض الباردة . صحيح ان أشجار الزيتون لا تزال مكسوة بالأوراق ، غير أن جميع الأشجار الأخرى هي الآن سوداء ، كأن أخشابها العارية النظيفة منتصبة كالجذور .

وفجأة سمعت زهور اسمها يترجع في الفضاء : زهور . زهور ! فما ان يغب واحد من هذه النداءات الطويلة في الهواء ، حتى ينشأ نداء آخر في جميع الجهات يغمر النداءات السابقة . ظلت الفتاة ساكنة لا تتحرك . انها ترتعد . ان هذه الصيحات التي ترجعها أسوار السماء تنفذ اليها في بطء . وارتفع الصوت من جديد . سمعت زهور النداء الأخير . وارتفع الصوت مرة أخرى في نداء متصل . ان الحقول ترتفع حتى تصل الى عقبة من الأرض يرى ترابها الأسمر . وفوق هذا تبدأ السماء . كانت ماما تركض على القمة التي يمكن ان يطل المرء منها على السهل كله .

كانت تصيح من بعيد :

ــ زهور ! زهور !

ــ أنا آتية .

ــ لا تستعجلي . ولكن يجب ألا تبقي وحدك هناك . تعالي .

الأرض التي تقضمها شمس كانون الثاني تستسلم للموت ببطء شيئا فشيئا . الانتظار يفرغ هذه الأيام الطويلة . ان الناس ينتظرون ان يهطل المطر لينقذهم . ان في المراعي منذ الآن ، خرافا قد رقدت على الأرض ومدت أعناقها ، يا له من لعنة رهيبة ، هذا القحط في فصل الشتاء !

وانطلقت الرياح . انها في عتوها وهذيانها تهز الجبال . اسقطت الرياح أواخر أوراق الأشجار ، وعصبت بثمار البلوط المتراكمة على الأرض فأخذت تخشخش . ان منطقة بني بوبلان تطقطق كأنها خشب يابس . رياح كانون الثاني ما تنفك تجفف رطوبة الأعماق ، وأصبحت الأرض خفيفة ذات مسام . يهبط الليل فينام الناس مغمورين بهذا الجو ، جو سيء يموت ، حتى اذا استيقظوا في الصباح تشوقوا الى هطول المطر ، ولكنهم ما يلبثون ان يحسوا حتى قبل ان يلقوا نظرة على الخارج ، بذلك الخدر الذي تولده الشمس الساطعة ، ويظنون انهم يسمعون صوت رذاذ المطر يتساقط على الأرض دقيقا ، وصوت سيلان الماء على أحجار أفنية البيوت ، ولكنهم ما يلبثون ان يعرفوا انها الأرض تطقطق من التشقق ، وانها الريح تجري في الحقول الخربة .

أيام الشتاء الحزين الذي تسطع فيه الشمس تدور فوق الأرض الصفراء الحمراء في بطء لا

يطاق . وفي انتظار حالم سادر ، تهتز الأغصان الميتة ، وتتأرجح ظلال الأشجار المتصلبة .

وكانت الريح في ذلك الصباح تدفع الغيوم فوق المزارع المقفرة .

حتى إذا جاء الظهر صفت السماء دفعة واحدة ، فكأن أشعة الشمس التي بدأت تظهر قد غسلتها غسلا . ان الحقول اليابسة مشوكة بأعشاب مشوية . حين اكفهر الجو انفعل الناس انفعالا مفاجئا . ولكن النهار لم يلبث ان أخذ يثلج رقيقا كأنه زغب لا يلمس . وأخذت الأصوات البعيدة تخترق هذا العالم من الشفوف .

وانتشر الصمت . ان البيوت تبدو في الأيام التي أعقبت الحريق مقفرة لا حياة فيها . الصمت وحده يرين ، الصمت وحده . انه يخترق حياة الناس من طرف الى طرف ، ويزحف عبر تأملاتهم ، ويلبد حركاتهم . اي قفر ! لا شيء . لا أحد . صمت ووحدة !

وهناك أجانب يجتازون الطرق . وفي بعض الأحيان يصفر قطار . الحياة غير بعيدة عن هذا المكان .

عمر هذا الصمت حتى الآن بضعة أيام . لقد شاخ اذن . ألفه هؤلاء القرويون . ترى متى يخرجون عن هذا الصمت ؟ متى يرفضون ان يمضوا فيه الى أبعد من ذلك ؟

افترضت السلطات ـ وهذا من عملها ـ ان ثمة استعدادات اخرى ، ان ثمة خططا أخرى تدبر في ليل . فاستؤنفت الاعتقالات ، وعاد رجال الدرك . انهم يسوقون الرجال الى المدينة جماعات جماعات ، ولكنهم لن يحتجزونهم مدة طويلة في هذه المرة .

إن أعمال الاستجواب التي تقوم بها السلطات تتم في غرفة سرية . والفلاحون يحتفظون بآثار هذه الاستجوابات على أجسامهم مدة طويلة . النساء والأطفال يقضون هذه الأيام في قلق وخوف ، وهم أقرب الى الموت منهم الى الحياة . وضيع بعضهم ، منذ ذلك الحين ، حرصه على الحياة .

غير ان هذا كله لم يثمر . ماذا تريد السلطات . ان الفلاحين لا يفهمون ماذا تريد السلطات . انهم لا يخفون شيئا ، وليس لديهم ما يعترفون به . كان الاستجواب يبدأ هكذا :

ـ هيه . . . أنت . . . لماذا أضربت عن العمل ؟

ـ كنت لا أستطيع أن أعيش ، أنا وأسرتي ، بالأجر الذي كنت أتقاضاه .

ـ ها . . . كنت لا تستطيع ان تعيش .

وعندئذ تتدخل طريقة عنيفة في النقاش .

ـ لعلك تريد أحياناً أن تملك فيللا ، وأن تملك سيارة ؟ ولكن هلا نظرت الى نفسك ؟

ـ ليس هذا ما قلته . . .

ـ ليس هذا كل شيء . لقد تآمرت انت ورفاقك على فرنسا . أأنت من حزب الشعب الجزائري أم أنت شيوعي ؟ اعترف حالا . وإلاّ . . .

وينقطع الاستجواب لأن حججاً أخرى تبدأ عملها. . .

ـ قل من هم الذين ينتمون من بينكم الى حزب « الشعب الجزائري » أو الى الحزب الشيوعي ، فما يصيبك أنت أذى .

وكان المستجوبون ينظرون الى المحقق محاولين ان يحذروا ما يريد أن يعرفه ، ولكنهم لا يفهمون شيئاً . كانوا يقلبون لسؤال على ألف وجه وجه ، ثم يظلون صامتين ، لأنهم لا يعرفون ماذا يقولون . ويأخذ الجنود يضربونهم ، ولكن الضرب لا يزيدهم فهما .

وتنتهي الحفلة دون ان تسفر عن نتيجة . تطلق السلطات سراح الفلاحين ، معلنة لهم ان أسماءهم قد كتبت بالحبر الأحمر ، وان الأمر لن يقف عند هذا الحد ، وانها ستعنى بهم. . . ذلك ما قطعوه للفلاحين من وعود للأيام المقبلة .

إن قره وامرأته يعملان في البيت منذ الساعة السادسة من الصباح ، كسائر الناس في منازل بني بوبلان ، وينامان بعد صلاة العشاء رأساً .

التفكير ، التفكير دائما . والأيام يتراكم بعضها فوق بعض . لعنة من السماء حلّت بالأرض . وقع أقدام على الأرض ، نباح كلب ، طقطقة شجرة . . والناس ينتفضون عند سماع أيسر جلبة . ساعات وساعات . الريف مقفر حولهم . وماما لا تفرغ من ترتيب الأشياء في البيت . انها ذاهبة آتية بغير انقطاع . وهي وحيدة . انها تخاف أن تتكلم وهي وحيدة .

حتى اذا رجع زوجها الى البيت ، أخذت تقول ما هب ودب من كلام ، في كل أمر من الأمور ، بغير كلفة ، لا تنتظر أن يؤ يدها ، ولا أن يوافقها . أما هو ، فانه اذا تكلم لا يقول أشياء كثيرة . وهو يتحدث ، طبعا ، عن الحقول ، والبذار ، والنباتات ، أو يتحدث عن الجو .

ان قره علي يطلب في هذا الأوان هطول المطر ، لقد كان البرد قارساً ولكن السماء لم تمطر . ان الشتاء في هذا العام أشبه بإناء فارغ ظلّ ملقى على الأرض أياماً وليالي برمتها . ان أمر الخضار هو الذي يصدع رأس قره علي . هذه سحب كثيرة ترقد على الأرض منذ عدة أيام وتحتضن الحقول بين جنباتها التي تخرج منها التماعات قصدير سوداء .

ظلت السحب معلقة في الجو مدة طويلة ، ثم أخذ المطر الغزير يهطل على الأرض .

لم يذهب قره بعد ذلك الى الحقول إلاّ مرات نادرة . ليس له الآن في الحقول عمل . ان الأرض والماء يتكفلان بكل شيء . وأصبح قره يعمل في البيت ، فهو ينقي البذار ، ويرفع الأكياس والبرادع والأجمة ، ويقدم العلف للبهائم .

ان بقرة من أبقاره قد وضعت حملها في هذه الفترة . أقلقه ذلك كثيراً . لقد كان البرد شديدا كل الشدة . خاف قره على الحظيرة التي كانت معرضة لأن تغرقها مياه الأمطار . ان الحظيرة كهف تحت الأرض . دفأت ماما الحظيرة . وساعد الرجل العجل على الخروج من بطن أمه ، والعرق يتصبب من جبينه . أخرجه من بطن البقرة ، وهي ما تنفك تجأر، حتى اخذت بعد

ذلك تزأر زئير حيوان كاسر . خاف قره على البقرة أيضاً .

لم تستطيع ماما ان تنظر الى هذا كله ، بل ظلت بعيدة تنتظر ان ينتهي كل شيء ، وقد قام في نفسها قلق خفيف .

وفي الليل أخذا الحيوان الصغير ليرقد في غرفتهما ، ان الجليد في خارج الغرفة يجمد الهواء .

انتهت فترة الأمطار الأولى . تجول قره كثيرا في الحقول .

تلبث طويلا عند محمد ، وعند عيسى ، ثم عند بن أيوب .

كان يدرك ان الوقت لا يستحثه . كأن يقول حين يصل :

ــ السلام عليكم . عافاكم الله . كيف الحال ؟

ــ وعليكم السلام . الحال كما ترى. . الحمد لله .

انهم لا يرتاحون لوصوله كثيرا . ولكنهم يقولون بعض كلمات حتى لا يظهروا بمظهر خشن غير مؤدب . انهم يحرصون على ألاّ يرى فيهم الناس رأيا سيئا . غير انه يزعجهم ان يتوقفوا عن العمل وأن يكلموه خاصة . يزعجهم ان يضطروا الى التحدث اليه ، بينما هم يدركون انه ليس يجدي ان يكلموه كما كانوا يكلمونه في الماضي ، ويعلمون ان ذلك لم يكن حقا ، وان الأمور الآن ليست على ما كانت عليه من قبل .

ولاحظ قره عند اقترابه خطاطيف خضراء ساكنة على مربعات الحقول الشهباء والسوداء .

هو الفول ، هل نبت الفول إذن ؟

قال قره يحدث نفسه ستكون لهم البواكير ، ولكن قولهم مهدء كثيرا ، فربما ساء الجو ، وحصل الصقيع .

وأدرك قره انزعاج الجيران . فقال لمجرد القول فقط :

ــ لقد رأيت انا ان هذا خير . واعتقد ان آخرين غيري فعلوا ما فعلت . لم يبق الا أنتم. . سيعرفون الفلاحون بعد الآن كيف يحافظون على السكينة والهدوء . . لن نخشى بعد اليوم شيئاً .

ــ طبعاً .

قال قره أيضاً :

ــ طبعا .

وكرّر هذه الكلمة عدة مرات ، دون أن يبدو عليه انه يقيم لها أي وزن .

كان يعرف مصدر صمت جيرانه . لقد باع قره نفسه . انه يرى هذا في ملامحهم الجامدة وفي حركاتهم . هو عميل السلطة . لا لشيء إلاّ لأنه قاوم ذلك الاضراب الذي قام به العمال الزراعيون . ان قره يكره موقف الاستنكار الأخرس الذي يقفونه منه ، ويكره أيضاً ما يلوح في وجوههم من انهم يريدون ان يلقنوه درسا . فليفكروا كما يشاءون . انهم على ضلال . لقد أيد هو القانون وليس يخفى ذلك . هذا هو الوضع العادل فيما يرى . أما هم فانهم لم يزيدوا على أن

عطفوا على الفلاحين وأيدوهم .

أراد مع ذلك ان يظهر ، من جهته ، انه يستطيع ان ينسى كل شيء . اهتم مرة أخرى بأمر الفول :

ــ بداية طيبة .

ــ صحيح ، من هذه الناحية ، صحيح .

وصمت قره . ولبث لحظة اخرى يلاحظ هؤلاء الرجال وقد استأنفوا عملهم الذي قطعه وصوله اليهم ، لبث لحظة أخرى يلاحظهم دون أن يضيف الى ما قال كلمة واحدة .

ثم انصرف . كان مروره أشبه بالقاء حجر في غدير . ان لمزارعي بني بوبلان رأيهم في هذه الزيارة .

لقد أضرب العمال الزراعيون عن العمل ، فنشأ عن ذلك لغط كثير ، وتعطلت المزارع . وكان هذا كافيا لفقدان هؤلاء المستوطنين الفرنسيين صوابهم مع انهم كانوا واثقين بقوتهم ثقة كبيرة ، ظانين ان سلطتهم وطيدة لا تتزعزع .

ــ ٢٣ ــ

في هذا الفصل من السنة لا يبدأ النهار حقاً الا في الساعة الثامنة من الصباح ولا يمتد الى أكثر من الخامسة بعد الظهر .

وسكان بني بوبلان ينهضون في الساعة التي يقدرون ان الشمس تطلع فيها ، وهي الساعة السادسة . ان الضباب ، والمطر ، وهو مطر رقيق يهطل على وتيرة واحدة ، يسدان الجو . والبيوت في وسط هذا النهار الأزغب تبدو ضائعة . وقد اضطر الناس في الصباح الى اشعال القناديل أو المصابيح . والطرقات في خارج البيوت غارقة في وحل لزج أسود .

ثم تبدل المشهد في الساعة الثامنة ، ان ضياء أشهب يزيل المسافات أخذ يتقدم شيئا فشيئا . هذا نهار من الأنهر الاسيانة ، المحملة بالضباب الكثيف والأضواء المنتشرة ، فالأشجار العارية ، والمنازل الضيقة ، والرجال الشهب الذين يسيرون في الحقول البعيدة . كل ذلك يبدو في هذا النهار مترابطا آخذا بعضه برقاب بعض . وفي بعض الأحيان تبرز الآفاق البعيدة العميقة الزرقاء ، وكأن لها في بعض ساعات النهار ولا سيما في المساء مشهدا غريبا . ان شمسا شاحبة تضيء البلاد عندئذ على حين فجأة ، فتبدد جميع الساعات البيضاء الرطبة التي تنهزم مدحورة ، وتظهر المنطقة في تلك الدقيقة بكل قوتها ، مرتسمة في قسمات بارزة مضيئة يعززها هبوط الغسق .

في بيوت الفلاحين الصغيرة ، يعيش الناس في جو خانق لا نافذة له ولا أفق ، ويخبون في غم وهم ، مالئين الوقت باضطراب وسنان . أناس لا يعرفون الفرح ، لكنهم مع ذلك ليسوا بالحزانى .

ان ذلك الضوء القاتم الدقيق ، ذلك الضوء الذي يضم أصوات الريف ، يظل منتشراً الى أن يأتي الليل .

والعمل في داخل البيوت يستمر أكثر من ذلك ، وتصبح حياة الرجال سيراً بطيئاً لملاقاة الليل . وفي خارج الجدران تغيب الحقول شيئا بعد شيء في مقاعد الضباب ، وتمتد مقفرة لا ترى ، ندية تحت فروعها المائية . وتغيم حواشي المنطقة .

على أن صوتا من أصوات البشر يجيء أحياناً من تلك المساحات الغارقة ، فيقول المرء لنفسه ان المزارع لم تهجر اذن هجرا تاماً كما يظن . ان هناك رجالا لا يزالون يعملون في ذلك البحر من الضباب والمطر ، لم يتركوا حقولهم .

كان عليها ان تسرع ، وأن تملأ قواديسها ، لقد ارتفع النهار ولم تهيىء لزوجها طعاماً . انه يصل في الساعة الحادية عشرة والنصف . وما ان يصل حتى يطلب طعامه . انه لا يعرف شيئاً آخر . كانت ماما ، متى ذكرت ذلك توقفت فجأة عن كل عمل . ولكن التفكير مرض . ان ابليس يحمل الناس على رعي أبقاره . ومن حسن الحظ ان لها عملا تقوم به ، وانها تظل تعمل في جميع الأيام الى ان تنفد قواها وترهق .

كانت زهور جالسة أمام رتاج الباب ، فجثت ماما أمامها . ان زهور قد صعدت الى بني بوبلان أثناء هذا الشتاء عدة مرات متتالية . ولو جاء عمر معها في هذه المرة لأختلف الأمر ، ولتسليا معاً .

قالت ماما لأختها :

ــ ان هذا الرجل لقاتلي آخر الأمر .

وكانت تقول : من حسن الحظ ان زهور معها . لقد ساعدتها زهور كثيراً في هذه الأيام الماضية . مسكينة زهور . وقصت ماما على اختها ما وقع في الليلة البارحة بينها وبين زوجها . أرتها شفتها الممزقة . وبكت بكاء مراً واستمطرت السماء وابلاً من اللعنات على رأس قره .

ــ أود لو تبقي الوقت كله معي يا اختي . انه يخيفني ، هذا الرجل . أبقي بضعة أيام فحسب . ان أمّنا ليست في حاجة اليك . لا تتركيني وحيدة .

ولم يكن ليغري الفتاة ان تمكث في بنى بوبلان خمسة أيام أو ستة . قالت زهور لأختها :

ــ لن استطيع يا أختي .

فتوسلت اليها ماما قائلة :

ــ أرجوك ! بضعة أيام . .

وقطعت لها هذا الوعد قائلة :

ــ لأجعلن جهاز عرسك أجمل من جهاز كل فتاة في هذه البلاد .

وذكرت لها كيف انها تدخر لها شيئاً من المال ستنفقه على جهازها :

ــ سوف ترين بعد بضعة أشهر ما تجنيه من هذا . .

ان قره قد عامل ماما هذه المعاملة منذ أصبحت تعيش في هذا البيت . بدأ ذلك بعد زواجها بمدة يسيرة ، ثم تفاقم حين فقد زوجها كل أمل في أن يكون له أولاد في يوم من الأيام . وكانت ماما لا تشعر بفرح الا في صحبة اختها حين تجيء اليها من وقت الى وقت . أما قره فانها لا تشعر نحوه الا بالشك والحذر ، حتى اذا قاربها لم تحس إلاّ بالعذاب .

إن مزاجاً كمزاج قره المزعج ، يمكن أن يوصف بأنه مزاج خبيث .

مالت زهور الى الأمام ولطمت ربلة ساقها براحة يدها . ان الذباب شره لجوج . هذه هي الذبابات الأولى تبشر بقدوم الربيع . ان دندنتها تختلط بهذا الصمت الثقيل الذي يرين على الريف . كانت الفتاة تنصت لشكاوى اختها هادئة لا تهتز . ما من لحظة من اللحظات ارتسم فيها على وجهها الصلب ظل من قلق او شيء يشبه القلق . وقررت أن تمكث عند اختها بضعة أيام . ولكنها لم تكلمها في ذلك بل انها لا تدري على وجه اليقين هل كانت تصغي الى اختها حقا . كانت زهور تفكر في المصير الذي كتب على اختها .

رأت بخيالها اختها العروس وهي تمتطي ظهر حمار حين أوشك الركب ان ينحرف عن الطريق الكبير ، ورأتها وسط النساء اللاتي كن يرافقن الموكب تصعد في الدرب الوعر الصعب الذي يؤدي الى بني بوبلان . لقد انفجرت ماما باكية في تلك اللحظة . لماذا حزنت اختها ذلك الحزن كله ؟ لقد كان على ماما ان تبتسم . وقد ابتسمت حقاً بعد ذلك . ولكنها ابتسمت ابتسامة مرة .

طافوا بها ، أول يوم ، في حجرات المزرعة ، وكان عليها ان تحنو على جميع القدور والجرار والخوابي التي تودع فيها المؤونة ، لتنظر ما فيها .

ان ظل الكرمة يسقط على أرض الفناء شيئاً بعد شيء . ثم لا يلبث ان يمحى ، فتسترد الأرض الممهدة لونها الضارب الى سمرة .

حين فرغ الثلاثة من تناول طعام العشاء ، اختفت أواخر آثار النهار التي كانت تجري بطيئة في الهواء ، ونصب الليل شراعه في كل جهة من الجهات . الليل ههنا كامل لا شقوق فيه ، ولا يشبه الليل الذي يخيم على المدينة . الليل ههنا يلف العالم متوحشاً ساكناً . فلا حياة الا الصيحات الغامضة التي تطلقها البهائم ، والا حمحمة الأرض .

إن مصباح الزيت الذي أشعلوه يحميهم وراء سور واهن من الضياء ، ولكنه ضياؤهم الذي يبدد الليل .

ولما فرغوا من الطعام ، أنهضت ماما اختها وأرسلتها تنام ، فذهبت زهور دون ان تنبس بكلمة . وانه ليندر على كل حال ان يطيل أحد منهم سهرته الى ما بعد صلاة العشاء . ومن عادة زهور خاصة انها تكون في مثل هذه الساعة نائمة نوماً عميقاً .

ظلت ماما وحيدة مع زوجها ، ثم أخذت تتكلم بعد صمت طويل . ان الرجل معتصم

بالصمت لا يقول شيئا . وأدركت زوجته شيئا بعد شيء ان كلماتها تتزلج عليه ولا تلامسه . ان الضياء الأصم الذي يصدر عن المصباح ، ويبسط خطوط جسمه الضخم يجعله أشبه بانسان من صخر . وأحسّت ماما بهذا الاحساس المضحك وهو انها تتكلم وحدها في مكان خال ليس فيه انسان ، فبدت لها أقوالها عبثاً لا طائل تحته .

قالت فجأة بصوت مرتعش :

ـ أنتَ تريد أن تنشأ بيننا مشاكل ، أليس هذا ما تريده ؟

فأجاب قره قائلا :

ـ لست أحرص على ذلك .

ـ لا يليق بأسرة كأسرتنا ان تحدث فيها مشاكل . لقد كان الناس يحترموننا دائما الى الآن . واني لأوثر ان يدق عنقي وان يبقر بطني على أن أسمع الناس يقولون عنا أموراً غير نظيفة . انت تعرف الناس وتعرف ماذا يمكن أن يقولوا . ما من شيء يوقف ألسنتهم متى أخذت تتحرك . لا أعرف ما الذي تجتره من أفكار . ولكنني لاحظتك واستطيع أن أقول ان ما فعلته شراً .

قذفت ماما هذه الكلمات الأخيرة في وجه زوجها قذفا . فقال زوجها مؤنبا :

ـ كفى . لا أريد ان أسمع مزيدا من الكلام .

كان قره غارقاً في أفكاره .

انه يتهيأ لوضع مشروعات تبقى بعد الامتحان والتجربة ، مشروعات من تلك التي يعدها المرء اعداداً طويلاً ،يرى تحقيقها يقبل من بعيد في بطء وهي المشروعات الوحيدة التي تلائم مزاجه المنطوي ورغباته الجامحة على برودتها . .

ومن أجل ذلك كان رحل الزمن هو ما يجب أن يحمله على عاتقه . لقد سبق له أن عزم على ذلك ولم يجد حاجة الى أن يفكر في الأمر تفكيرا طويلا . لقد أرسي لمشروعاته أسسا وطيدة راسخة ، كما يضع المرء الحجر الأول في العمارة التي سيشيدها . انه ماض الى تشييد مدينة بأسرها ، وسيكون هو سيدها والمسيطر عليها . وقد أقام (الورش) أمام المكان الذي سيرتفع فيه البناء . غير أنه كان يكتم أمر هذه الاعدادات الأولى . فان حذره يمنعه من البوح بما ينتويه . كان يوصي نفسه قائلاً : « حذار حذار ، فان المتعجل يضيع حتى أسنان فمه » .

كذلك كانت تجري الحياة . وفي حياة قره علي لا تفلت لحظة من الحساب ، لا تفلت لحظة واحدة من الخطة التي تعدها نفسه المرعبة . لذلك كانت ترى فيه كما ترى الآن ، هذه العين الكالحة الثابتة ذات النظرة الشرهة . لكأنه يفسد كل ما قد يقع بين يديه . انه لا ينظر الى العالم إلاّ ويستولي عليه جنون التملك . انه لا يدير في رأسه إلاّ مسائل الثراء .

وهو في بعض الأحيان لا يستطيع أن يقاوم شهواته . تثور به الحمى في مثل هذه الأحوال فإذا العقل يتخلى عن مكانه فجأة لأفكار طائشة ، ثم انه لا يخرج بعد ذلك من هذا الليل المبهم

ليعود الى الواقع شيئا فشيئا ، إلاّ في عناء . انه يقول لنفسه في هذه اللحظات « حذار يا قره ! إياك أن تضل عن الصواب »، ثم يستأنف نظره في خططه التي يراقبها مراقبة دقيقة .

ماذا ؟ امرأته تتحدث عن الحريق ؟ عن العمال الزراعيين ؟ ارتعش قره . وصعد في نفسه تيار من الكره يعمي . أتراها علمت بشيء عنه ؟ أم ان هناك إشاعات تروج ؟

ان أيسر ما كان يقال هو ان قره علي يعرف من أضرم النار في أكواخ الفلاحين .

وعاد الرجل الى تأمله الكئيب الرهيب :

« منذ مدة أشارت الى محصول الزيتون الذي اشتريته من المستوطنين الفرنسيين ، فهل تراها عرفت شئوني ونفدت الى أسراري ؟ انها لشيطانة. لا، لا، هنا حذار، حذار ».

لا يزال قره يبدو وسنان ، غير خائف ، مع أن التأمل في فكرة خانقة كان يلطم شطآن ذاكرته بغير انقطاع . وفي هذه اللحظة كانت الأشعة الأولى من الحمى التي تصعد الى عينيه توسع حدقتيه شيئاً فشيئاً . وفي ثانية واجهت ماما نظرته . .

ــ ما الذي تريده من زهور ؟ من الدوران حولها دائما ، ما الذي يحملك على ان تنظر اليها ؟ ما الذي يحملك على ان تنظر اليها ؟ أهذا كل ما يهمك عمله ؟ لماذا لا تمضي في طريقك حين تلقاها ؟ لماذا لا تدعها وشأنها ؟ ان من الأفضل ألاّ تدور هذه الأفكار في رأس المرء . اذا كنت تريد شيئاً ، فأنا لن أخلي لك الطريق .

ــ قلت كفى .

ــ سيعلم الناس جميعا بما رأيته أنا ، وسيكون أهلك أول من يعلم به . سيعرفون قيمتك . يشهد الله انه ما من شيء يصدني عن اعلان ما رأيت .

فما ان قالت المرأة هذا الكلام ، حتى هوت على وجهها يد قره الضخمة المحشوة بالعضلات . فأخذت الدموع تسيل على خديها ، منتزعة من عينيها انتزاعاً بقوة اللطمة . قالت له :

ــ انت تنوي خلق المشاكل .

كان صوتها قبل ذلك مكظوما ، ولكن المرء أصبح يستطيع ان يكتشف فيه اختلاجا يسيرا .

ــ لئن شوهدت حول أكواخ الفلاحين ، لقد كنت تريد ان تخلق لهم مشكلات . انا لا أسألك إلاّ أن تمعن النظر . اذا كنت تفكر في هذا ، فانك تريد احداث متاعب .

فعقد ذراعه حول عنقها يخنقها . عقف في أول الأمر قبضة يدها . فكفت عن الصياح ، ولكنها ما لبست ان تملصت منه فجأة بحركة مباغتة . لم تحاول بعد ذلك ان تتخلص ولا ان تتقي لطماته . اصبحت تتلقى الصفعات على وجهها بغير اكتراث . وأخذت قبضة الرجل تهوي على وجهها عدة مرات واستطاعت ماما عندئذ ان تتنفس ، ان تتنفس ببطء شديد . كانت شفتها السفلى مشقوقة متدلية دامية . قالت :

ــ هل رأيت ؟ انك لا تستطيع الانكار . معنى هذا انك كنت تنوي ذلك حقا .

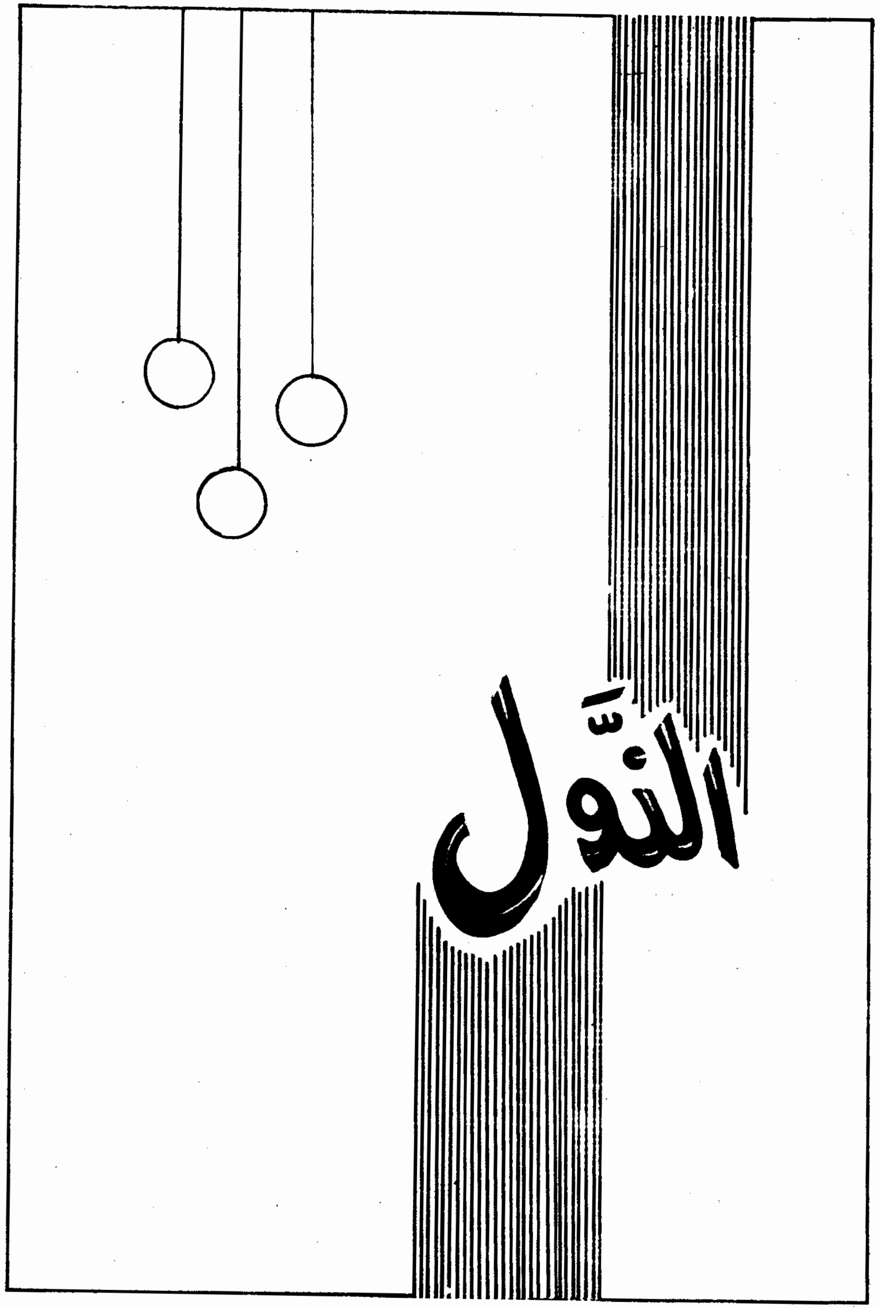
وسحب قره يده التي كانت مدسوسة في جيب سرواله ، وراح يضرب امرأته . لقد أصبح وجهه احمر قاسيا . وكان يكتفي بالضرب . ان يده تهوي على زوجته بحركات طويلة جامدة ، كأنما تحركها إرادة خاصة . وبسرعة ومرونة ليستا في الحسبان ، كان يضرب ويضرب .

وأخذ الكلام يغرقه أثناء ذلك . أصبح لا يتحرك الا في ثقل . واستمر يضرب . ان كل حركة من حركاته تبدو له الآن طويلة طول ساعات وساعات . وحين انتقلت يده في آخر الأمر بحركة أبعد مدى ، لمست شيئاً لزجاً حاراً .

نظر الى ماما ونظرت اليه . ولم تحدث جلبة كبيرة الا حين سقطت ماما . حاولت ماما ان تتماسك ثم صاحت معولة . ولكن الدم الذي يملأ فمها وقف صياحها . وأخذت تنظر الى زوجها بعينين قاتمتين وسعهما الكره . ونهضت ماما فورا ، وانتصبت على قدميها في غير عناء تقريبا . ولكنها ظلت ساكنة في مكانها نفسه، غير ثابتة الحركات. رأى قره انها هادئة رغم انها كانت ضحية عجز محموم . وبدا له انه يسمع هذه الكلمة . «انتظر» . ولكنه غير متأكد من ذلك . كانت ثياب المرأة ملطخة على صدرها بدم لا يزال حارا . وانتظر قره . كان يلوح ان زوجته توشك ان تقول شيئا ، شيئا لا يعرف ما هو ، ولكنه رآها تخطو بضع خطوات في الغرفة ، وتمضي تقعد . ثم تمددت حيث قعدت .

حلمت زهور انها تطوف في بلاد من جبال وغابات ، كانت تأتي اليها صبية مع اختها ماما . ان العشب الذي يدخل الى عنقها ، حين ترقد في الصيف على أرض الحقول ، يزعجها كأنه ذباب . وغزاها شعور بعذوبة ناعمة شيئا فشيئا . فمرت يدها ، وهي نائمة ، على جسمها الأملس ، فشعرت بأن لحمها ناعم كل النعومة . ان ارتياحا كبيرا يزدحم فيها كتيار نهر لا يغلب . وعلى هون نشأ ينبوع . انها احساسات مبهمة مضيئة يختلط بعضها ببعض وتملؤها أمنا وطمأنينة . بلعت زهور ريقها ، ولكن فمها ظل فاغرا الى ان امتلأ بالريق مرة اخرى . ان ريقها يسيل الآن من بين شفتيها . مدت ذراعها وعادت تداعب جسدها بحركة وسنى . وصعدت يدها على البطن حتى وصلت الى الثديين ، فحكت بها حلمتها التي أخذت تتصلب شيئا بعد شيء . .

الدَّول



الجزء الأول

- ١ -

أطار عمر الستارة التي تسد مدخل الغرفة بظهر يده . ودخل ، ولكنه ما أن اجتاز العتبة حتى توقف لا يجرؤ على التقدم . وظلّ جامداً في مكانه تهزه الرعشة ، كان يحس أن مزقا من الليل قطعتها الأمطار لا تزال في قرارة عينيه . ان ثيابه المتهدلة عليه تقطر مبللة ، ونعلاه المنقوعتان الرخوتان تطبعان على سدة الباب رسوماً واسعة وحلة .

انتقلت نظراته من أمه الى اختيه . كانت اختاه ترمقانه في عبوس يسمن وجهيهما . كانت أمه تحتل ركنها المألوف ، وقد تهدل على عينيها منديل عتيق مهترىء . انها تبدو غارقة في أحلام عميقة . وكانت الجدران العارية المطلية بالكلس تلتمع تحت أشعة نور الكهرباء .

فلما رأته ، نهضت بوثبة واحدة ، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة :

ـ ما ابني هذا بابن ، بل كلب من كلاب الشوارع .

كان واضحاً انها قد قضمت لجامها ، ولبث عمر ينظر اليها وهي تصرخ صراخاً ما ينفك في اشتداد :

ـ نعم ، كلب من كلاب الشوارع ، كلب من كلاب الشوارع .

ودفعت حوافي منديلها التي تزعجها ، وتابعت تقول :

ـ أين كنت الى هذه الساعة؟ أين؟ أين؟ قل لي . . هاي هاي . . أم أمزق وجهك أم أمزق وجهي ؟ لقد نبت فيك ريش الشر . . أتظن أنك أصبحت رجلا ؟ أتظن ان كل شيء قد أصبح مباحاً لك ؟ يمينا لن يكون هذا . . لا تزال بي قوى تكفي لتحطيمك . . أنا هنا الآمرة الناهية ، وستظل خافضاً رأسك ما احتجت الى البقاء تحت هذا السقف . هل فهمت ؟ أما أن تعود الى البيت في وقت مبكر ، وأما ان ترجع الى الشارع .

لم يكن الفتى يلاحظ قطرات الماء التي تسقط من ثيابه وتشكل بركة عند قدميه . كان قلبه

يخفق خفقانا سريعا . ترك لأمه ان تفرغ كل ما في صدرها من كلام . ليس هذا كله جديدا .

وقالت الأم آخر الأمر منذرة :

ــ لسوف تسلم بالاقلاع عن هذه الحياة التي تعيشها .

كان عمر يمضي في كل مساء يجمع بعض نثارة الفحم حول المحطة بين سكك الحديد . هذه هي السبيل الوحيدة الى قليل من الوقود في البيت .

ونض عنه حقيبته دون ان ينبس بكلمة . انه لا يرغب إلّا في شيء واحد : أن يدفىء يديه المتجلدتين .

وتذكر عالم الليل الواسع الذي انبجس منه . كان الليل قد خيّم منذ مدة طويلة ، وكان المطر ينهمر ، ينهمر مدرارا .

وعادت الأم الى مكانها ، وأمرت ابنتها عيوشة ان تضع المائدة ، فقامت الفتاة ، فأتت بالمائدة ، ووضعت عليها قدرا ونصف رغيف من خبز أسود . وأخذ الأربعة يغمسون أصابعهم في المرق صامتين ، فما هي إلّا لحظات حتى كانوا قد التهموا عشاءهم ، وهو فجل مطبوخ بأمعاء ، فتولت الأختان رفع المائدة .

ورقدوا بعد قليل :

لا يستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة في الظلام الدامس . لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد الى جفنيه سبيلا . لا شك أن وقتا طويلا قد انقضى على هذه الحال . كان البرد ينفذ في جسمه كالسكين ، فيبقيه نصف يقظان . وفي رأسه كان يهدر سيل من الصور .

ها هم أولاء مرتـلو القرآن يسيرون أمام جنازة . كان عمر يمشي في أثرهم مؤمنا بأن كل خطوة يخطوها وراء حملة النعش تسر الميت . ان الموتى في هذه الأيام كثر . وعمر لا يفوت من الجنائز إلّا تلك التي يصادفها أثناء جولاته البعيدة . انه يشعر نحو كل واحد من هؤلاء الموتى بشيء من عطف .

وكان قد حفظ فقرات من نهج البردة ، فهو يتلوها مترحماً على أرواحهم .

وها هم أولاء المتسولون الشاحبون المهزولون يستحثون الخطا تحت المطر المنهمر . وهذه صور أخرى تجتاز ذهنه أيضاً . لقد قالت له عيني منذ أكثر من سنة : « تعلم مهنة من المهن ، فلن تجديك كتبك نفعاً ». كان ذلك في نهاية الصيف الذي سبق الصيف الماضي . كانت عطلة الصيف قد انتهت . فأذعن الفتى لرأي أمه ، ولم تدس قدماه المدرسة منذ ذلك الحين . لقد طالما رددت أمه على مسامعه انه أصبح في الثالثة عشرة من عمره ، وأن كل ساعة من تعطل فهي وقت ضائع . وكانت تضيف الى ذلك قولها : « لقد صبرت كثيراً ».

ومن كثرة ما سخنت أذناه من اللوم والتقريع ، بدأ يعمل صبيا في دكان احد البقالين ، ولكن السلطات لم تلبث ان اغلقت الدكان ، وزجت بصاحبه في السجن .

لقد صاحت يومئذ عيني تقول : « يعاقبون صغار المتلاعبين ، ويتركون كبارهم . . . » .

وكان لا بدّ من البحث عن عمل آخر للفتى . ولكن سنة برمتها قد انقضت دون أن يعلق بالصنارة شيء . ليس عمر الآن إلّا صبياً معتراً ، يتسكع في الشوارع ، لا يلجمه لجام ، ولا يبالي الوقت ، ولا يكترث للجو ، ولا يحفل بتقريع أمه . . .

أصغى عمر الى الاهتزاز الذي يزعزع البيت . الليل يهدر هديراً قوياً . والمطر لا يزال يهطل . ووراء هذه الهمهمة يقصف الرعد ، فكلما شق السماء مرة ، تزلزل البيت ، فتراءى للمرء انه متداع متى قصف الرعد مرة أخرى .

أحسّ عمر فجأة ان هناك شيئا يتربص في الظلمات . شعر من ذلك بقلق . وذكره هذا بأمه التي تشم الشقاء في كل شيء ، وتكتشفه بحدسها الممزق في كل شيء .

قال لنفسه : « ما بال أمي التي ترى العالم مشحونا بنذر السوء ودواعي التطير (اذ تؤول كلمة عارضة ، أو حكة في الأذن أو رائحة خفيفة في الجو ، على ما يشاء لها الهامها) ما بال أمي لا تنتبه إلّا الى علائم الشر وما يمثل الكوارث؟ » .

فما كاد يكمل تمتمة هذه الكلمات حتى انتصبت أمه واقفة قربه . قال يتوسل اليها قلقاً : « أرجوك يا أماه » . واستيقظ . يا للحنان الذي ظهر في قوله : أرجوك يا أماه . ما كان لعمر ان يصدق ان من الممكن أن يظهر في كلامه هذا الحنان . كانت الكلمة تهتز في نفسه بقوة تهوله .

أصبح الآن لا يأمل ان يعاوده النوم . وكان قد ارتفع صوت اخر في ظلام الليل يقول : « لا تخافي يا أماه ، أضرع اليك . . أنا أعرف ان هذا الخوف يطوف طائفة في النفس أحيانا . أنت تسمينه القدر . ولقد طاف بنفسك منذ لحظة على كل حال . شعرت به من الحزن الذي استولى عليك . ابتهل اليك يا أماه ان تعرفي أن هذه القوة لا وجود لها ، وأن الحياة ليست جحودا . لا تكفري بما في نفسي باسم ما تحملينه من عاطفة الأمومة » .

هل التوسل هو الذي يمكن أن يلين إرادة عيني ؟ لم يستطع عمر ان يمتنع عن ترديد هذا التساؤل على نفسه . وكانت حدود الغرفة تتراجع أمام عينيه ، بينما أشتات أفكار أخرى تطير من رأسه . . عصافير مبعثرة تهوم الى غير نهاية ، خفيفة خفيفة ، ليس لريشها وزن . . وكانت العصافير تمحي بدورها ، وتجري على جسمه ظلالا متهربة . . .

لقد أخذته سنة من نوم . وكان دوي العاصفة يفنى في فضاء الليل . كان المطر يهدر بغير انقطاع ، وكانت رياح شديدة بعيدة تهز أركان المدينة . وفجأة خيل إليه انه يسمع . . انتفض قلبه . لا شيء . لقد انقطع المطر . وخيم على دار سبيطار هدوء لا تعكره نسمة . ان الهواء يحمل برودة رطبة ، شعر الصبي بأنفاسها تتسلل الى الحجرة من تحت الباب . عاد الى الصبي وعيه ، فتذكر أن عيني وبنتيها يرقدن جنباً الى جنب قربه ، فوق فرش القش الممدودة على الارض . كان

عمر ، الراقد على مقربة من أمه ، يتلقى منها بعض حرارة . رد اليه هذا شيئاً من الثقة . ونام من جديد .

- ٢ -

كان بخار متموج قد انبجس من الأرض ، فسرعان ما سدّ جميع الطرق . سكنت الريح وانقطع المطر .

لقد احتضن الضباب المدينة طوال الليل ، حتى اذا طلع النهار في غد ، كانت شمس فتية تسطع في سماء كانون الثاني . انها تلعق الشوارع . العربات تجري على الأرض صاخبة . وأغان تنبع من حوانيت الخشب . ان كل شيء يبدو منغما ، حتى النداء الأبح الذي يخرج من صدور الباعة المتجولين .

ما من شيء كان يدع للمرء أن يتنبأ بعذوبة كهذه العذوبة الفجة . لقد نبت هذا الانتعاش الفرح في عالم أسود . ترى هل عزم الشتاء على أن يهجر سرباله الثقيل ؟ هذا هو الشتاء الثالث بعد اعلان الحرب . ان الأمل في أيام أفضل وأعدل قد هدهد أهل تلمسان .

وفي هذه الأثناء انما أصبح الناس يلتقون بأولئك الأشخاص الذين يشبهون أن يكونوا أشباحا مخيفة . ان هذا الجمهور من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال يجتاح جميع الأحياء شيئا بعد شيء . ان أكثرهم من أصحاء الأبدان الذين ليس بهم آفة . وكان هؤلاء البؤساء التائهون لا يحسون نظرات السوء التي تمتلىء بها أعين السكان عند مرآهم كان جوابهم على المعاملة الخشنة التي يستقبلهم بها الناس ، ويلاحقهم بها رجال الشرطة ، هو ألا يحلفوا ولا يبالوا . ان قوة يجهل المرء شدتها تدفعهم الى أمام .

كذلك انتشروا هذا الانتشار المحروم من الحياة حرمانا غريبا ، انتشروا في تردد ، وفي عياء وكلال .

تساءل الناس : أليسوا يتدفقون منذ مدة من الوقت ؟ ان الشوارع الكبرى والطرق العريضة والميادين تفيض بهم . لا شك في أنهم تسربوا الى المدينة بفضل الأيام الماطرة الماضية !

لم يعرف أحد في ذلك الوقت ما الذي كان يجذبهم الى المدينة ! . أتراهم جاءوا يلتمسون ما قد يسد رمقهم ؟ . ولكنهم اذا فرضنا أنهم وجدوه ، لا يغيبون ولا يعودون الى الكهوف التي لفظتهم . انهم يلتصقون بقلب المدينة . لذلك كان الناس لا يفهمون من الأمر شيئاً . أكان يحدوهم نوع من حب الاطلاع ؟ لا ذلك أنهم كانوا ، حين يفدون ، لا يزيدون على ان يستقروا حيث يتراءى لهم ، ثم ينظرون الى كل شيء بعيون منطفئة .

على ان هؤلاء المتسولين كانوا أناسا رقاقا لا يسيئون الى احد يجب ان نعترف بأنهم لا يحدثون شيئا من أذى . انهم ينظرون الى الكبار والصغار الذين يمرون بهم ، في هدوء بغير

اكتراث . انهم ينتظرون . ولكن ماذا ينتظرون ؟ لا يعلم أحد ذلك . ثم يستأنفون طوافهم في الأرض على غير هدى . وينامون في المكان الذي يفاجئهم فيه هبوط الليل . فإذا هبت ريح شديدة شدوا أسمالهم الرثة على أجسامهم ، ووضعوا جماجمهم على حجر أو درجة ، وناموا

أصبح الناس يلتقون بجموع متزايدة منهم ، في الطرق المسدودة ، وتحت الأفاريز ، وحول المتاريس ، أمام الحمامات العامة ، وعلى سلالم السوق المسقوفة ، وعند أسوار « مشوار » التركية ، وقدام أروقة الخانات ، كانت شخوصهم المتفككة ، السمراء ، الوسخة ، تتسكع في جميع الشوارع . انهم يجرون انفسهم في كل مكان . وكان بعضهم يحمل على الظهور بعضاً آخر أصبح عاجزا عن مواصلة السير . حتى اذا قطعوا بهم بضع خطوات جلسوا على الأرصفة لاهثين . كانت المخازن لا تضم في واجهاتها الا أشياء لا فائدة لهم منها . ومع ذلك ، فهنالك إنما كانوا يستقرون وينطفئون انطفاء الشعل الشاحبة .

وكان يحس المرء من حين الى حين انهم يبحثون عن شيء . ان حركاتهم أشبه بحركات زحف لا يدرك . لم لا يلبثون ان يعودوا الى سكونهم . انهم لا يمدون جميعاً أيديهم . وما لم يتعرض لهم أحد من سكان المدينة بسوء ، فيضطرهم الى التزحزح ، فانهم يظلون قابعين في مكانهم ، متجمعين على أنفسهم ، يرمقون بأبصارهم جموع الناس وهم ينتقلون .

وكان بعضهم يظل نائما بغير انقطاع ، متلفعا كالقنفذ ، فإذا أراد أحد أن يحسن اليه كان لا بد له ان يميل عليه ليدس له القرش في راحة يده . ان هؤلاء المتسولين الجدد لا يسمع أحد أصواتهم . من هذه الناحية ، طرأ إذن شيء من تبدل .

أتراهم كانوا يجيئون من الضواحي المحرومة الفقيرة ؟

ربما . . كانوا يجمعون بضعة دريهمات ، أو بعض قشامات الطعام ، من مجرد ارتياد المدينة . ولكن لماذا كانوا لا يعودون بعد ذلك ؟ ما بالهم يتشبثون بالمدينة كأنهم ملتصقون بهذه المباني التصاقاً لا فكاك منه ؟

وسرعان ما أصبح اي حاجز من الحواجز عاجزاً عن صدّ هذه الاندفاعة القوية التي تقود هؤلاء القوم الى أكثر الأحياء حشمة ، والى الشوارع التجارية ، والأجزاء الراقية من المدينة . ولا يزال الناس لا يدركون ما الذي يجنيه هؤلاء الرحل من التردد على هذه الأماكن . انهم لم يخلقوا لها ، ولا يمكن ان تناسبهم . أتراهم كانوا يدركون ذلك على أقل تقدير ؟

المدينة غارقة في نور ساطع ، وكأن الطبيعة تنوي أن تطيل هذه الهدنة المضيئة . كان البرد قارسا ، ولكن الشمس تتلألأ .

والأسر التي يتعاطى جميع أفرادها مهنة الحياكة كانت في هذا العهد ، ربما أكثر من أي عهد مضى ، لا يحصى عددها : الرجال معلقون وراء أنوالهم العتيقة ، والنساء تندف الصوف أو تغزله . كانت عيني نفسها تحصل من حين الى حين على جزز ملطخة بالدهن مثقلة بالتراب

والوشل والبعر ، فتنظفها وتهيئها ، وتحمل الى سوق الغزل ، بعد عدد من الأيام يقل أو يكثر تبعا لما تطيقه قواها ، رطلا او رطلين من الخيوط الناعمة اللينة اللون .

على أن المشهد المشجع المنعش انما كان مشهد المعامل . ان هذه المعامل كانت منذ زمن غير بعيد تعمل في تثاقل . من ذا الذي لا يتذكر ؟ تشهد على ذلك تلك الأسحار التي كانت فيها عيني تقف في سوق الغزل مع كثيرات غيرها ، وهي تنتظر في ملل ، عسى ان تجد زبونا يشتري منها غزلها . ولكن ما أن أخذت صفارات الانذار تولول ، حتى ألمت بالمعامل حمى مسعورة . فما من حي ، وما من مكان ، بل ما من ضاحية إلاّ واهتزت بنشاط الحائكين ، فحيثما تذهب يستقبلك اصطفاق أمشاط ، أو اصطخاب مكاكيلو . الأنوال تلتهم الغزل وتسأل هل من مزيد ، فلا شيء يشبع جوعها الشديد المجنون الى هذا العلف الوافر : الصوف .

إن المدينة القديمة التي كانت مدينة أصحاب حرف ، تضحي الآن بغفوها العتيق وتستحيل الى ما يشبه مدينة صناعية . ومنذ انطلق هذا اللهب ، عدل الحائكون من تلقاء أنفسهم عن تعسفهم القديم ، فهم الآن ينتزعون من أيدي البائعات أي صوف مهما يكن شأنه . .

وتكاثرت المناسج والمعامل تكاثراً مباغتاً ، بينما كانت تسافر الى فرنسا بغير توقف سجاجيد وأغطية .

كان الألمان يأخذون في نهاية الأمر جميع هذه الأنسجة ، يشترونها بالوزن ولا يعنيهم النوع . وروى بعضهم ان كل قطعة من هذه القطع كانت متى وصلت اليهم تمزق وتسحق وتحول الى مادة خام .

- ٣ -

لا يزال الجيش اللجب المتحرك من الجياع يزدحم في الشوارع والأزقة بغير انقطاع . لكأنه يشق الأرض ويخرج من أعماق مجهولة . غمار من الناس مخجل ، يتفلى في الهواء الطلق ، عارضاً أعضاءه المنهوكة، وقروحه القائحة، وأعينه المحتقنة بالتراخوما . ان رمادا باردا قد نثر على هذه المخلوقات التي لا هوية لها . وهم يتسكعون قليلا هنا ، وقليلا هناك ، ولكنهم لا يمضون قط الى أمكنة بعيدة . وليس يحفل بعضهم ببعض ، فهم لا يجتمعون ، إلاّ إذا وزع طعام أو وزعت قروش ، فانهم يشكلون عندئذ حلقة ما تنفك تضخم . حتى اذا طردهم احد في مثل هذه اللحظة تفرقوا طائعين .

وساء الجو بعد بضعة أيام ، فإذا السماء تتبدل تبدلا كاملا على حين فجأة فتصبح قاتمة ثقيلة ، وتنعقد فيها سحب كثيفة ، ثم تنشق السحب عن أمطار غزيرة ، تهطل على الأرض حانقة ، وتظل الأمطار تنهمر كأنها تتدفق . وعادت كآبة المياه المضطربة تخدر المدينة .

ظلّ المتسولون يضربون في الأرض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذي يبللهم . انهم يسيرون وقد ماتت منهم الأحداق ، وراحوا يمدون أيديهم بحركة غريزية . انهم ينبعون من بين المطر المتساقط كامدين مبعثرين ، ثم ما يلبثون ان يعودوا اليه . لكأن العدم الرطب كان يتقيؤهم .

ألف السكان منظر هذه الأطياف الآن .

إذا لم تجئنا الأمطار في هذا العام بأي خير من خيراتها المعتادة كما يجب ان تتوقع ذلك ، فانها على الأقل ستدفع الى شوارعنا هذه الأنواع من البشر ، الخلقة البالية ، الدكناء كأنها وحوش الغاب .

بهذا الكلام كان يتندر بعض المازحين .

وكان هؤلاء أنفسهم يقولون بصدد هذه المخلوقات البائسة :

ــ ليس في الأمر خطورة . . ما هؤلاء إلّا منّا . . انظروا اليهم . انهم مرآة تنعكس فيها صورتنا نحن ، انهم أصدق صورة لما نحن عليه . انظروا اليهم تروا هذه الصورة .

وظلّ الجو السيء مقيمًا في المدينة لا يبارحها . ان من الصعب على المرء ان يعبر عما يترك هذا الجو السيء في النفس من أثر . لقد أصبحت أيام الصحو الأخيرة ذكرى دراسة . وكان الناس حين يرون أعاصير الماء تهدد بابتلاع الكون يدمدمون قائلين : « حمانا الله من الكارثة . لقد انفتحت أقنية السماء » . ان الفيضانات تذهب بعدد من الضحايا في كل عام تقريبا . وبعض المساكن ينهار احيانا . والناس يضيفون الى ذلك قولهم : « سبحان اسمه » .

ان أبخرة كثيفة تعشي المدينة في بعض الساعات من بعد الظهر ، وتبلغ من كثافتها ان المدينة تغيب فيها ، فما يستطيع أحد ان يميز شيئا . ومع ذلك كان الأعصار يزول في بعض اللحظات ، وكان الهواء يسكن شيئاً بعد شيء ، ويظل المطر يهطل ، لكنه يهمي عندئذ رذاذا دقيقا ، بغشة خفيفة تشبه أن تكون دخانا . .

وتعود المباني الى الظهور ، مبتلة حتى الحجارة . وتسفر الأشجار عن قاماتها السوداء الشعثاء في جو مكبرت بارد الأشعة أدهمها . وتتمزق سحب رطبة على رؤوس المآذن ، وتتشرج في أشجاب الدلب القديمة ، ثم تتبعثر اربا كبيرة ترقى الى السماء ، فتشدها هنالك رياح تهب على حين فجأة .

وولى الصحو بعد ذلك .

في ذلك اليوم عدل عمر عن الذهاب الى سكك الحديد ينبش حجارتها . انه يحتمي الآن ببعض الأروقة أو ببعض الشرفات ، ويثب فوق برك الماء ، راكضاً الى البيت ليتجفف . لقد هبط الليل . ان القلة القليلة من الناس الذين لا يزالون يصادفون في الشوارع يسيرون بخطا حثيثة .

وفجأة أخذت الأمطار تدك الفضاء في عناد أقوى ، وهذه هي المدينة ، المظلمة الملتمعة ، المختنقة بين جدران أسوارها ، التي تتعرج أزقتها الى غير نهاية ، وتتكدس بيوتها المتشابهة متسندا بعضها على بعض ، ويشبه كل حي من أحيائها ان يكون كتلة من وحل ، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد ما يكون عداوة ونكرا : جدرانا جهمة غفلا ، شوارع وأبراجا وأسقف مغسولة .

ـ ٤ ـ

حين أجبرت عيني ابنها على ان يخرج معها ، كانت المدينة لا تزال غارقة في حلم من ماء وضجر . وقد التقيا أثناء الطريق بمتسولين ينتقلون جماعات جماعات ، ويفورون كالأشباح في الشوارع الغارقة في البخار ، فيبدون بعيدين بعيدين . . .

ولكن سرعان ما ظهرت كتلة « ميدان البليق » . هذه أكاليل من سلال القصب معلقة بسقوف خصاص الخشب القابعة في وسط الميدان على صورة مربع ، حزام من قفف تختفي وراءها قفف وسحاحير خضر ودكاكين شواء ، كقلب أخضر قاتم تنشق فيه حوانيت الجزارين جروحاً بلون البنفسج . ان رائحة قوية من روائح الغياض تملأ الجو . والأمطار منهمكة في إذابة الألوان الخضراء والشهباء عن الأشجار ومناضد الجزارين والناس والمباني . والميدان والشوارع المجاورة ورشة يحركة الناس والعربات ذاهبة آيبة . والحمالون السغاب يجولون هنا وهناك في خرق رثة . والفلاحون الخشان تفوح منهم رائحة الأرض وهم يسيرون . وهؤلاء نسوة يمرون بالمكان متدثرات بحجب بيض . ان الضوضاء مخنوقة ، وأصوات الناس تخرج من صدورهم مبتلة ، والشحاذون ينادون نداءات مصرة بغير أمل : « حسنة يا اخوان ، صدقة ، حسنة » .

ان هؤلاء الشحاذين لا شأن لهم بأولئك الذين وفدوا الى المدينة في المرة الأخيرة . انهم لا يثيرون قلق أحد من الناس .

ـ« حسنة لله ، حسنة على أرواح موتاكم ، صدقة يا أهل الخير » .

وأمام خص من خصاص الخشب تجلس فيه على عروشها قدور ثجلاء ، أبطأ عمر خطاه يتمصص الروائح المبتلة التي تخرج من القدور . ولكن صوت عيني ما لبث ان استحثه من بعيد كأنه مهماز . وسارا في دروب المدينة الواطئة .

إن البيوت في هذه الأحياء القديمة لا يصطف بعضها الى جانب بعض ، بل هي تتصادم في فوضى كبيرة وسط الطريق المرصوف . وهذا جدول أسود يتلوى بين الأبنية الهرمة المتآكلة . سارت عيني وابنها أولا في شارع صغير سريع الانحدار متعرج ، أفضى بهما الى « باب زير » ، ومن هناك دخلا في شارع صغير آخر رمى بهما الى زقاق مسدود . كانت المدينة قد اقفرت مرة أخرى

تحت وابل المطر .

وقفت عيني أخيراً أمام بيت عتيق ، مهيب المظهر ، رغم تخربه ، ورفعت دقاقته البرونزية ، فقرعت الباب ثلاث مرات . كان الباب المصفح بالحديد مفتوحا ، ودوت الضربات في الفراغ . احتمت عيني مع ابنها بالمدخل المغطى بمربعات قديمة من الخزف . ما من جواب . لا صوت إلّا صوت تساقط المطر على بلاط فناء البيت .

قرعت عيني الباب مرة أخرى ، ونادت :

ـ يا آمنة .

لقد حرصت عيني على ألّا يكون صوتها قويا . المطر يتساقط على بلاط الفناء في قرقعة متساوية . لكأن البيت خال من السكان . قوّت عيني ضرباتها وصوت ندائها : طاق ، طاق ، طاق .

ـ يا آمنة .

فظهرت في هذه المرة امرأة طويلة يابسة لها رأس كرأس الماعز ، فقالت لهما رأسا في ايجاز وخشونة ، دون كلمة ترحيب :

ـ انه هنا .

فزفرت عيني تقول وقد أشرق وجهها :

ـ ها . . .

دخلت الأم وابنها وراء المرأة ، فقادتهما الى غرفة مظلمة كان يجلس فيها شخص متنفخ على فراش ، طاويا ساقيه . ان الغرفة الواسعة غارقة في جو من الحشايا . وفي الظل تلتمع أوان من النحاس التماعا غامضا . أخذت عيني تضرع الى الرجل وتبتهل دون مقدمات ، فكان يصغي اليها من غير ان يتحرك، ومن غير أن يطرف له جفن وكانت امرأته التي من عظام تراقبهما بعين حادة .

لم تصل عيني الى الكلام عن الغرض الذي جاءت من أجله إلّا بعد ربع ساعة من الزمان ، فلما عرضت على المحسن ماحي بوعنان انها تلتمس لابنها عملا تنهدت تقول : « هذا اليتيم »، وهي تمسك بكم عمر الذي ظلّ واقفا خلفها ، وفي الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمر ، وأوشكت ان تنفجر باكية . فدمدم الرجل يقول :

ـ أرسليه الى مصنعي .

هذا هو الكلام الوحيد الذي سقط من شفتيه . فخرت عيني راكعة أمامه تشكره .

وفي هذه اللحظة انفجر في الغرفة بكاء طفل صغير . فأسرعت ربة البيت الى الركن الذي كانت تنطلق منه الصيحات . واشتبك صوت الأم بصوت الرضيع . أخذت المرأة تصب على الطفل الصراخ سيلا من السب واللعن في تدفق عارم :

ـ يا منحوس ، يا ملعون ، حمى تأخذك . . الا تستطيع ان تهدأ لحظة؟ . . الله يحرمني منك . .

وظلّ الطفل النزق يعول بكل ما أوتيت حنجرته من قوة ، غير مبال شتائم أمه .

كان عويله لا يزال يسمع حين خرج عمر وأمه من هذا المسكن مسرعين ، وصارا في الشارع . لقد أدركا بتلك السرعة المعهودة في الفقراء ، ان غضب هذه المرأة السليطة انما كان موجها اليهما لا الى الطفل .

ـ ٥ ـ

قال واحد في الظل متذمراً :

ـ ماذا تريد ؟

فأدرك عمر من الصفير الذي صحب هذه الكلمات ان الرجل الذي نطق بها غير ذي أسنان .

هبط عمر الدرجات الأخيرة من السلم الذي وقف عليه ، فصار في الكهف . ان رطوبة كرطوبة مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه . أحسّ الصبي باختناق . انه لا يرى شيئاً . تحسر على الشارع : إلّا أن الأمطار التي تهطل كالأنهار خير من هذا الجو الخانق . تردد . واستبدت به رغبة جامحة في صعود السلم والفرار من هذا المكان.

كرر الصوت يقول :

ـ ما الذي جاء بك ، هه ؟ قل . .

أجاب عمر :

ـ أرسلني صاحب المصنع .

وطافت في خياله صورة المرأة الطويلة ذات الرأس الذي يشبه رأس ماعز ، وصورة الشخص المنتفخ . وتخيل أمه عيني وهي تخر راكعة أمام ذلك الرجل ، وتخيل نفسه وهو يستحثها على القيام والخروج بعنيف القول ، فتنهض ولكنها لا تستطيع الذهاب ، وتظل تردد :

ـ أنت المحسن إلينا ، أنت رب نعمتنا . جزاك الله عنا خيرا في الدنيا والآخرة. . .

ولما ألفت عينا عمر هذا النور الخافت الذي يضيء الكهف ، رأى الحائكين الذين كانوا ينظرون اليه نظرة عداوة . ان قسمات وجوههم جميعا ذاوية شاحبة .

لم يعرف ماذا يفعل .

ـ صاحب المصنع هو الذي أرسلني لأعمل مكببا .

فنظر اليه الشخص الذي كلمه في أول الأمر نظرة فاحصة ، وقد ظهرت على وجهه أمارات التقزز :

ـ ما عمرك ؟

ـ خمس عشرة سنة .

زاد عمر عمره سنة من قبيل الحيطة .

ـ طيب . . . تستطيع ان تبقى . واليك الشروط : في آخر الأسبوع تتقاضى من كل حائك ما يقدر انك تستحق ان تتقاضاه .

قال الرجل ذلك بلهجة متعبة غير مغرية . فخفض الفتى رأسه .

قال الرجل :

ـ موافق ؟

ثم طاف ببصره على المصنع باحثاً ، وقال :

ـ يا زبيش ، انه يستطيع ان يبدأ .

فخرج من الظلام وراء عمر عفريت صغير مشوه ، له شعر كأنه الوبر أشعث ، فشد عمر من كتفه قائلا :

ـ تعال .

فتبعه عمر ، وابتعد الاثنان الى القاع الرطب اللثق من الكهف .

ـ ما اسمك ؟

كانا قد وصلا الى كومة ضخمة من الأكياس والعجلات وقطع الأنوال والخيوط والعدد والأشياء الأخرى التي يصعب على المرء ان يعرف أوجه استعمالها .

ـ عمر ، وأنت ؟

ـ أنا الذي أسألك ، وليس لك ان تلقي أسئلة . اسمي حامي اما زبيش فهو اللقب الذي ألقب به . واعلم أنني هنا رئيس الصبية فعليك ان تفعل كل ما آمرك به . .

فنظر اليه عمر يلاحظه متحيرا ، وأضاف زبيش يقول وهو يتهزز على ساقيه العوجاوين :

ـ هل فهمت يا مغفل ؟

وكان الحائكون يتابعون كلام الصبيين دون ان ينقطعوا عن العمل .

فقبض عمر كفه ، ودمدم يقول متوعدا بصوت خافت :

ـ اياك . . حذار . .

فنظر اليه زبيش يتفرس فيه دهشا ، وتمتم يقول :

ـ أأنت من أهل المشاكل ؟

ثم لم يلبث أن صاح يقول بلهجة المجاملة :

ـ اسمع يا عصا . . هلم نتصالح ، هل تريد ؟ أنت ترنحت لأنني رميتك بسهامي ، فاعلم أن الأمور ستظل تجري على هذا المنوال ما بقيت هنا . . انك لم تر شيئا بعد . انتظر قليلا ، وليسلخن جلدك سلخا . . موافق ؟

ومدّ يده الى عمر ، فتناولها هذا . وتابع الصبي يقول :

ـ ليس يجديك انك كبير . لسوف ترى هذا بأم عينك . انت جديد ، وعلى الجديد ان يطيع القدامى . عليك ان تطيع ، هذه نصيحتي اليك . . الطاعة خير لك .

دمدم عمر يقول من بين أسنانه انه موافق ، فدهش زبيش من هذا الاذعان الذي لم يتوقعه .

ـ حسن . . . أنت فتى طيب . . . هيا كبب شلل الغزل التي تراها هناك .

قال زبيش ذلك وهو يشير بيده الى شلل من الصوف المغزول نضدت تحت درج . كان عمر يعرف ما هو العمل في مصنع نسيج . فغرز مكباً على مداره الحديدي ، ووضع عليه شلة من صوف ثخين مبروم برما متفاوتا ، وأخذ يعمل شاداً رأس الخيط .

أنه يعمل منذ برهة ، تحيق به جلبة مغزل . واصطفاق الأمشاط يوشق بعضه في بعض بين قرقعات المكاكيك . ان عمر يصغي الى هذه الضوضاء . . ويصغي الى الضجة الناعمة المخشخشة التي يحدثها مكبه . أمس كان حرا . أمس كان يجري في الشوارع طليقا بغير لجام . وهذه حياته الآن تقطع قطعا بما يشبه الساطور . شعر عمر بحزن مفاجىء يأخذ بمجامع نفسه .

الظهر . لم يمض احد . وعمر لا يجرؤ ان يمضي أيضاً . فعل ما فعله غيره . لم يترك الكهف . صبر . رآهم يخرجون طعاما . ومر قربه رجل عملاق تزين وجهه لحية كالفحم سوادا ، فسأله بصوت عريض :

ـ ألم تجيء بطعام ؟

فلما أجابه الصبي بحركة من رأسه انه لم يجيء بطعام ، قطب الحائك حاجبيه ، ومضى الى نوله ثم عاد يحمل قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون الجاف وضعهما بين يديه .

شخص عمر اليه بعينين دهشتين . فتأمله الرجل العملاق صامتا انه ليس ممن يكثرون الكلام . ومضى يلحق بجماعة العمال الذين كانوا يتناولون طعامهم عند قاعدة الدرج ، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة .

وبينما كان عمر يمضغ خبزه ، وصل زبيش ، وعاد يصدر أوامره :

ـ حاول ألّا تنسى في المساء ، قبل اغلاق الدكان ، ان عليك ان ترتب الأشياء المبعثرة ، وان تكنس الأرض ، وأن تحمل الأغطية الى المستودع بعد ذلك .

ـ وأنت ؟

ـ أنا ؟ سأفعل مثلك يا أبله . . ولكنني هنا أقدم منك ، فعليك أن تتبع نصائحي . ستجري الأمور على خير حال اذا أنت قررت أن تطيعني . .

قال زبيش ذلك ، وغمز الصبي الجديد . كان يبدو مسروراً بشيء لم يستطع عمر ان يعرف ما هو . كانت حدقتاه المحتقنتان تلتمعان رغم الغشاوة التي تحجبهما . وظل يثرثر بصوت شرس ، ثم غنى ألحانا لا رأس لها ولا ذنب .

وفجأة أخذ يحكي قصة عن أبيه . قال ان أباه الذي مات منذ ثلاث سنين كان حدادا . وفي ذات يوم بلل إحدى بناته بزيت الكاز ، وهي في السنة الأولى من عمرها ، ثم أحرقها حية . كان لا يعمل ، وكان يعود الى البيت في كل يوم وهو في سكر شديد . وكانت الأم لا تدري ماذا تصنع من أجل ان تجيئهم بطعام . كانت تمضي تتسول متلفعة بحجابها . .

وما كاد الصبي يفرغ من حكاية هذه القصة حتى شرع في حكاية قصص أخرى . فلم يبق في ذهن عمر من هذا السيل من الكلام الذي سمعه إلّا أن هناك عصابات من اللصوص لا يستطيع أحد ان يقبض عليهم ، حتى ولا ذلك الجيش من رجال الدرك الذي يطاردهم . . ففي اللحظة التي يظن انهم على وشك ان يقبض عليهم ، يتحدث الناس عنهم في الطرف الآخر من البلاد . وحين يعتقد أخيراً ان القبض عليهم أصبح أمراً أكيداً ، يختفون بما يشبه السحر ، فما يعثر لهم على أثر . وخفض زبيش صوته ليقول ان الفلاحين يساعدونهم لأن هذه العصابات من اللصوص تعاقب أغنياء المستوطنين الفرنسيين وتفرض عليهم الأتاوات .

كان الصبي يعرف قصصا كثيرة مرعبة ، عن السحرة ، والقتلى ، والأرواح ، والغيلان . . ان اعتلال صحته ، وذبول جسمه قبل الأوان لم يخفضا نشاطه ، بل انهما ليوقدان في عروقه نارا .

وكان بوزيد ، وهو صبي آخر ، قد قرفص قربهما ، وأخذ يصغي الى الحديث محملقا .

وفي هذه اللحظة صاح شول يأمر :

ـــ الى العمل يا أولاد !

ان شول هو ذلك الرجل الذي ليس له أسنان . انه بجسمه المعروق ووجهه الأغبر وشعره القصير ، أشبه بمقشة عتيقة متنتفة . أخذ يدنو بخطا متبخترة ، وهو يضحك ضحكة تكشف عن لثتيه البنفسجيتين ، وعيناه جافتان جارفتان كعيني باز . . حتى اذا أوشك ان يحاذي زبيش ، انبطح العفريت الصغير على الأرض . ان هذه الحركة تجنب الصبي لطمات اليد العريضة الصلبة ، يد هذا الحائك . كان شول يتصرف تصرف من هو صاحب المصنع . أتراه كان يستمد هذه السلطة من رب العمل ؟ لا شك في أن الأمر كذلك ، فقد كان العمال يخضعون لأوامره .

كرهه عمر .

ـــ هيا . . بسرعة . . الى العمل !

واشتد الظلام فجأة في الكهف ، حتى ليعجز المرء ان يجد طريقه فيه الا تلمسا . وانتشر برد قارس كالثلج . لا شك ان السماء قد غشيتها السحب . جلس عمر أمام مكبه . ونهض زبيش بسرعة منذ تجاوزه شول ، وأخذ يصيح صيحات طويلة : « هوه ، هوه » واشتعل المصباحان اللذان كانا معلقين في القبة يغطيهما الغبار .

نظر عمر الى مكبه وهو يدور . هؤلاء الناس ، هذا الرجل الذي اسمه شول . . نظر عمر اليهم متفرسا . . انهم أشبه ببوم اختار مسكنه في ظلمات هذا الكهف .

لم يأت المعلم ماحي بوعنان الا في نحو الساعة الرابعة . هو ذا يصل الآن متلففا بقباء أحمر من وبر الجمل ، وقد انتفخ القباء بالماء وتصلب . ان كل حديث قد انقطع من قبل أن يصل الى آخر الدرج ، وتضاعف نشاط الأنوال .

فلما صار في وسط المصنع رد عمارة البرنس بحركة من كتفه الى وراء ،وأخذ يهز جسمه ليتساقط عنه الماء . ان قطرات كثيرة تتساقط على الأرض فيسمع وقع تساقطها . وكانت الريح تهز زجاج النوافذ .

وتهالك المعلم بعد ذلك على كومة من الأغطية قرب كانون من فخار فيه فحم مشتعل ، ثم مال بجذعه على النار وأخذ يدفىء يديه صابرا . ان بقعاً حمراء ترتسم على قبائه . وان انعكاسات مثلها توقد نارا في عينيه .

قال شول :

ــ جو لعين !

ــ هم . . .

هكذا زفر ماحي بوعنان وهو يقوس حاجبيه ويرفع أجفانه المتورمة .

وغمس في الرماد الرخو ملعقة معدنية طويلة الأطراف ، فحرك بها النار ، فإذا الجمرات التي لم يكمل اشتعالها تطقطق وتقذف بشراراتها ، فيسحق منها بوعنان ما وصلت اليه يداه ، ويراقب الأخرى وهي تنطفىء من تلقاء ذاتها .

انطلق شول يضحك ضحكة انتهت بغرغرة . وكانت عيناه المدورتان اللتان ليس لهما أهداب ترقبان رب العمل . قال :

ــ تكاد تحرق الورشة .

فلم ينظر اليه ماحي بوعنان ، ومال على الكانون بوجهه الثقيل وشاربيه الأشعثين المتدليين .

هتف حمدوش يقول ، وهو شاب أحمر الوجه :

ــ يا معلم ، اذا استمر هذا الجو ، فأنت الذي ستجمع الذهب ، فما من جو يروج أعمال الحائكين كهذا الجو . .

وكان ماحي بوعنان يصغي الى هذا الكلام ، فألقى عليه العامل المتوهج الرأس نظرة شزراء .

ــ سيكون في وسعك ان تدفع لنا المتأخر من حسابنا بعد الآن ، أليس كذلك؟ . . اننا ننتظر منذ أسابيع . وما هو بالمال الكثير . ولكنك لا تفلته بسهولة ، اعترف بذلك . حذار ثم حذار ، انه لخير للمرء ألّا يملك ذهباً كثيراً . فكلما ازداد ما يكنزه منه ازداد حسد الناس له .

قال حمدوش ذلك وضحك ضحكة حادة . ان هذا الفتى الجميل ، وهو أصغر العمال سنا ، يتكلم بصوت عال متقطع ، يحنق من يخاطبهم . ظل ماحي بوعنان صامتا ، متسندا على الأغطية بعيدا مائة فرسخ عما كان يقوله الآخر .

ورجع هذا عن رأيه فاستدرك يقول :

ـ أوه . . ما قلت هذا متشكيا ، فالأمور باقية على حالها ، وينبغي للمرء ان يقبلها ، خير للانسان ان . . .

فرفع رب العمل رأسه ، وألقى عليه نظرة احتقار . وقبل ان يستطيع الشاب الأحمر ان يضيف الى ما قاله شيئا ، كانت عينا ماحي بوعنان قد اختبأتا تحت حاجبيه الكثيفين . وظل حمدوش ساكتا .

فإذا بضحكة ساخرة تغضن خدي شول الذاويتين .

ـ اذا حل الخير أصاب منه الجميع . وانما ينبغي للانسان ان يؤدي عمله في أمانة .

ـ خاصة وأننا لن نبدل من الأمر شيئا مهما نقتتل !

بهذا أجاب حمدوش وكان التهكم يرعش صوته .

فقال شول مؤمنا على كلامه :

ـ ها . . . نعم . . . نعم . .

فإذا بالشاب يصرخ ملء حلقه :

ـ لا . .

ففرح عمر حين سمع هذا الجواب . ان شول لا يخيف اذن جميع العمال . وحملق شول .

وأردف حمدوش يقول بصوت بارز النبرة :

ـ لقد نشأت وترعرعت في حرفة النسيج هذه . بدأت العمل فيها ولم أتجاوز الخامسة من عمري . كان أبي هو صاحب المصنع .

فلما بلغت الخامسة عشرة أخذت مكاني الى جانبه على النول الذي كان يحتله من مصنعه . غير أنه كان قد أكل كثيرا من تراب الصوف ، فما لبث ان مات .

ومنذ أن قضى ولم يعد موجودا ليفني نفسه في عمله ، مات مصنعنا بأنواله الثلاثة ، وانتهى الأمر . .

كانت عيناه اللتان تشبهان عيني قط قد ثبتتا على شول وهما تقدحان شررا . وأضاف يقول :

ـ فماذا أفادنا أننا أدّينا عملنا في أمانة ؟ بماذا عاد علينا ذلك ؟ بقبض الريح ! واضطررت في آخر الأمر ان أصبح عاملا في مصنع غرباء .

خيم الصمت مرة اخرى في ارتباك . أخذ ماحي بوعنان ينظر الى خيوط الصوف وهي تتشابك وتنحل على نول عكاشة الذي كان يعمل قبالته . وحرك يده بإشارة تذمر .

قال العم صقالي مدمدما :
ــ الشقاء كثير في هذا العالم . .
فأضاف حمدوش :
ــ كثير جدا ، وان المرء ليخطر بباله ما لا أدري . .
فهزّ شول رأسه وهو يعض شفتيه .
ــ لست في الطريق القويم يا صاحبي ، لست في الطريق القويم التي وضعك الله فيها .
فانتصب حمدوش وقد لاح في وجهه غضب متوحش . ان ذؤابته الحمراء تلتمع في عتمة الكهف . قال :
ــ هذا ما يقال دائما للذين يجرءون ان يشتكوا . .
فما كان من قوطي الأمين ، وهو حائك عجوز ، إلاّ أن قال وقد نفد صبره :
ــ هوه . . . الا انك لا تتورع ولا تتحرج . إياك ان تضيف الى ما قلت كلمة واحدة ، وإلاّ لن تعرف ما يمكن ان يقع . .
فأجاب حمدوش يقول :
ــ ماذا إذن ؟ ان الله نفسه تخلى عنا .
قال حمدوش ذلك ، وبصق بين قدميه على بساط للفضلات ، مترقبا ان يكذبه أحد .
ولكن لم يفه أحد في المصنع بكلمة .
فقال في ألم :
ــ على كل حال . .

نظر ماحي بوعنان الى عماله ثم أغمض عينيه كأنما هو يريد ان يحذف العالم حوله . وظلّ على هذه الحال مدة من الوقت . كان عمر الذي يعمل على مسافة بضع خطوات يتأمل رأسه الضخم مبهوتا . وعاد اليه انزعاجه الشديد الذي شعر به في ذلك الصباح أمام هذا الرجل . ان المعلم يمصمص شاربيه ، فيصدر من ذلك صوت ضعيف . ليس هو الآن إلاّ كتلة من عدم الاكتراث . ثم تقبض وجهه وبدا عليه انه يستيقظ . طاف ببصره على الأنوال متحاشيا ان ينظر الى العمال . ثم نهض ليمضي .

ما ان خرج ماحي بوعنان حتى تقلصت قسمات العمال غما وحزنا . ان النهار يوشك ان ينتهي . أرخى كل منهم العنان لحنقه ، وقام بينهم وبين الأنوال صراع رهيب . الأنوال الواطئة المرصوص بعضها الى جانب بعض تحت السقف المقبب، تئن ولا من يرحمها بين الرجال العشرة . ان بعضهم يتخالس النظر . وهذا بعض آخر يعتصم بصمت يفيض حقدا . وما ينفك صراخهم في طلب المزيد من الصوف المكبب يطيش ألباب الصبية . يئس عمر من امدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من هذا الصوف . كان يعمل مسرعا ، ثم يزيد سرعته وهو يحس ان قلبه يوشك ان ينفجر .

انقضى آخر النهار دون ان يتبدل شيء . هبط الليل وما زال العمال يعملون . .

وحانت ساعة الانصراف ، لم يخطر ببال أحد أمر ترتيب الكهف وكنسه . أدرك عمر انه ليس عليه ان يهتم كثيرا بهذا الأمر .

خرج عمر من الكهف . لا هوولا الصبيان الآخران حملوا القطع المنتهية لتسليمها ، وذلك بسبب المطر . جعل عمر يركض ركضا شديدا حتى لتكاد ساقاه تلامسان عنقه . كانت سيول بيضاء تتلاحق سريعة في أعلى السماء ، وتجري في الشوارع ، وتتكسر على الأرض . ان قطرات المطر تخز وجهه وخزا . وهذه أنوار البيوت الأوروبية أثناء الليل توقظ في الخيال صور حياة هادئة سعيدة . كان عمر يركض طائش اللب أعمى البصر . ان الأمطار والرياح التي ينشقها ملء رئتيه تثير في صدره سعالا ممزقا . . ومع ذلك كان يتجمع في قلبه شعور دافىء بالرضا والارتياح ، شعور لا عهد له بمثله من قبل .

ـ ٧ ـ

في ساعة متأخرة من الليل ذهب هو وأمه الى مركز تموين الفحم ، فوجدا جمهورا من الناس قد اصطف بعضهم وراء بعض ينتظرون . لقد وصلا متأخرين ، فان الليل قد جاوز نصفه . احتلا مكانا بين المنتظرين على طول العنابر التي توزع الفحم على السكان الأصليين ، وأخذا ينتظران . كانت عيني قد ألقت على حايكها منشفة تتقي بها شدة البرد ، كما ان عمر قد وضع على رأسه كيسا من الأكياس يعتمر به على طريقة الشيالين في الموانىء . ان عمر قد أخذ يشعر باحساس لم يستطع كيف يعلله ، ولا عرف الى أي سبب يرجعه : لكأن قنديلا يضيئه في داخل ، ويوقد في نفسه شعلة هادئة قوية . وظلّ الناس ينتظرون وينتظرون ، فالأمطار الغزيرة تلهبهم بسياطها في غير انقطاع ، والليل يبدو لهم انه لن ينتهي ، والسماء تنشر قلوعا متموجة من المياه ما تنفك تهوي في غياهب الظلام .

وفي أثناء ذلك تسلل الى الفضاء شعاع نحيل من ضياء تحير قبل ان يظهر ، ولاح أن الأمطار ستهدأ .

كانت قد انقضت ساعات حين بدأ توزيع مؤ ونة الفحم : خمسة كيلوات لكل فرد من أفراد الأسرة ، بالسعر المحدد . وأخذ الصبح الشاحب يتمطى . حتى اذا وافت الساعة الحادية عشرة جاء دور الأم وابنها في تسلم المؤ ونة من الفحم . فحمل عمر الكيس الممتلىء نصفه على كتفيه وأسرع يعود الى البيت . لقد تنفس الصعداء وسرى عنه . ترك أمه بعيدة وراءه . فما أن وصلت هذه بعد قليل حتى مدت بساط الليف المهترئة حواشيه ، الذي ورثته عن الجدة ماما ، ورقدت عليه .

ونامت مستندة بظهرها الى الجدار ، وقد التف منديلها على رأسها ، وقبع فوقه كالمنشفة

التي يلف فها الرأس عند الخروج من الحمام . ان فكيها هابطان ، وقد امّطت شفتاها بوزا ضخما . أدرك عمر أن دفئا منعشا قد اجتاح أخيراً جسم أمه الذي صقع من شدة البرد .

وهبت ريح ، فتطايرت الستارة الثخينة المسدلة على الباب ، ولطخ المطر العتبة ، وغارت عاصفة أقسى من العواصف التي سبقتها ، فلمح عمر الغسق الذي يلفح وجهه بأنفاسه الباردة . ان هذه الغرفة الطويلة ذات البلاط المربع الأحمر ، والجدران المطلية بكلس أخضر ، وما فيها من جلود الخراف الهزيلة ، والأسمال البالية ، والخزانة المصنوعة من خشب ألواح السحاحير ، هذه الغرفة تبدو له الآن مهجورة لا يسكنها أحد .

راح عمر يتأمل هذه الأشياء وقد جلس على البساط أمام الباب . ان صمتها الأخرس يدهشه . وثقلت نظراته عليها ، ولكن كل شيء منها ظل محتفظاً بوجهه المألوف . استمر عمر في أحلامه . لا صوت إلّا صوت تساقط المطر يعكر هذا الصمت .

وأخرجه من تأملاته تنفس امه السريع . نظر اليه متفرسا : انها عجوز . شعر بألم يحز في قلبه . انه لم يتساءل قبل الآن ما عسى ان يكون عمرها . وها هو ذا يجري حسابا سريعا من أجل ان يقدر لها سنا . قال لنفسه : «أربعون سنة . . بل انها لم تبلغ حتى الأربعين . . » انها لا تزال كما كانت ، لا تزال على حالها ، غير ان هناك الآن هذه اللحظة من الغفو ، وذلك النهار الماطر ، وهذا المساء الكالح . ظلّ ينظر اليها صامتا . وكأن الأفكار التي دارت في ذهن الفتى قد لامست أمه ، فإذا عيني تتحرك في رفق ، ثم ما تلبث ان تعود الى سباتها العميق .

لقد سبق ان قالت لالا في ذات يوم : « المرأة الوحيدة يدب اليها الهرم قبل غيرها ». ما أصدق ذلك القول ! ان عيني يمكن ان تكون بنت لالا سنا ، ومع ذلك فلو رآها في هذه اللحظة راء لحلف انها هي الأكبر سنا . ان كل زفرة من زفراتها تنفخ خديها واحدة بعد أخرى ، ثم تخرج من بين شفتيها من شخير . وفجأة نشقت نشقة عميقة ، وأخذت تتنفس من فمها الفاغر .

كان عمر يحس ان هوة تقوم بينه وبين هذه المرأة التي شوه وجهها النوم . انه مشدوه أمام هذه المرأة الضعيفة المهجورة ، حتى لكأنه غريب عنها . اي شبه بين أمه وبين هذه العجوز التي ترقد هنا ؟ ترى أيكون لها هذا الوجه نفسه حين يوافيها أجلها على حين بغتة ؟ وهاجمت رأس الفتى أسئلة أخرى أيضاً . ما عساه يصنع حين يراها تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ أتراه يموت قبلها ؟ أم انها هي التي ستموت قبله ؟

وحدث نفسه بقوله : « أفضل أن أموت من أجل ان تعيش أمي ».

إن بقعاً كبيرة من رطوبة تدب من السقف وعلى الجدران ، فتلتهم طلاء الكلس . والعتمة ترشح من خلال الحواجز وتتجمع في الغرفة . النهار في خارج الغرفة لا يزال أشهب .

سكان دار سبيطار قد قبع كل منهم في ركنه . فناء البيت خال . ولا صوت يخرج من المطبخ الكبير المشترك .

ما كان لعيني ان تدهش أكثر مما دهشت لو شدها زند قوي فانتزعها من البله الذي كانت فيه . انها منذ لحظة تصارع أشباحا ، وتتمتم بأصوات هاذية لا معنى لها . ان هذه الظلمة التي تحاصر الغرفة وتدور في الزوايا وما تنفك تكثف تشوشها أشد التشويش .

فلما رأت في المكان الذي يجلس فيه عمر كتلة غامضة لا يكاد يكون لها شكل ، قالت لنفسها ، وقد قوي صوتها :

ــ هذا كابوس حقا ! أظن أنني غفوت . ما هذا الاختناق ؟ يا روح أجدادي ! هل جثمت السماء على الأرض ؟

وسألت الفتى تقول :

ــ ألم تجيء أختاك بعد ؟

كان في سؤالها قلق . قال عمر لنفسه : « انهما لم تجيئا بعد . لسبب بسيط هو أن مصنع السجاد لا يطلق سراحهما الا في الساعة السادسة من المساء ».

ــ لماذا لا تذهب للقائهما يا بني ؟

ــ ألا تعلمين انهما لا تخرجان من المصنع إلّا في الساعة السادسة ؟ ستجيئان .

ــ أنت هنا في مأمن ، وليس على المرء ان يزعج نفسه من أجل غيره .

وأضافت تقلد صوت ابنها :

ــ ستجيئان . .

وبصقت على الأرض احتقارا :

ــ تفو . . .

نظر الصبي من خلال شق الباب الى السماء المنخفضة التي تتخللها التماعات مزرقة . ان رؤيتها أصبحت متعذرة منذ الآن ، هذه السماء .

وصاحت عيني تقول في الظلام :

ــ يا محمد في البيت ، والعمة فاطمة في السوق : هذا ما يجب ان يقال عنك .

ــ لن يأكلها أحد . . ألا تنوين ان توقدي لنا بعض النار ؟

ــ كان ينبغي ان تكون الآن منهمكا في العمل لا قابعا في البيت ، لولا أن قلبك ميت . .

خير له ألّا يرد عليها بكلمة . . انها تعتقد أن الكوارث تتراكم فوق رأسها الى غير نهاية . أليس خيراً من هذا أن يدفىء الغرفة قليلاً ؟ ما أشد تقتيرها في استعمال هذا الفحم الذي يوزعه التموين ! انها تضن باشعال القليل من النار حتى في أيام البرد القارس ! انها بعد ان تهيء الطعام تبلل الموقد حفاظاً على الجمر .

ــ لست تصلح لشيء . .

قال يدافع عن نفسه وقد نفد صبره :

ــ هبيني حاولت أن أخرج ، فهل ترين كيف أكون في الشارع ؟ بأية ملابس ؟

لقد تبللت ثيابه في الليلة البارحة ، وليس له ثياب غيرها .
قالت :
ـ ليس يهمك انت الا أن تأكل وأن تنام .
ثم رددت بصوت كأنه صوت من يتكلم في منامه :
ـ وجدت الفندق والمطعم ، فتمتع . . وسوف نسأل عنك ذات يوم ، فاذا انت قد اختفيت . ستطير عاجلا أو آجلا كما طار الآخرون .

« الآخرون ؟ من هم هؤلاء الآخرون ؟ » كذلك تساءل الصبي مروعا ، وأصغى الى أمه بعد ذلك دون ان يطرف له جفن .

كان يعرف ما يطرأ على مزاجها بين الفينة والفينة من تقلب مخيف . هذا بعينه ما يحدث في كل مرة . منذ ثلاثة أيام قالت له ، ناسية انها هي التي قادته الى ماحي بوعنان : « لو بقيت في المدرسة لأمكن أن تحصل في المستقبل على عمل في مكتب . . ولو كناسا . أما الآن فما عسى ان تصبح ؟ حائكاً ؟ لسوف تعمل في النهار والليل دون ان تجني كسرة الخبز . هل تسمع ؟ لن تجني كسرة الخبز » .

استولى خدر الليل على الدار الواسعة . والأمطار التي ضاعفت حماستها أثناء ذلك لا تزال تفضي الى الفناء والى الأروقة بهذيانها المحموم الذي لا ينقطع .

أضافت عيني تقول بعد ان ظلت صامتة خلال لحظة من الوقت :
ـ . . ذلك انك تظن نفسك رجلا .
وعادت تنعته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة .
لقد استبد بها الغضب . ثم قالت تلومه : لعلك تحسب ان ليس في قلبي الكفاية من الجروح ؟

ان صفير الريح وقرقعة المطر ، اللذين يختلطان بصيحات عيني ، قد أيقظتا في قلب عمر حزناً شديداً لا سبيل الى وصفه .
كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر . .
قالت مدمدمة :
ـ على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار ، وأكلنا كما تأكل الحثالات ، وتركنا كما يترك المنبوذون ، حتى خبزنا أسود ، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه .

ـ ٨ ـ

عمر ينظر الى فرجة الباب الشاحبة ، وينظر الى الليل المخيم وراءها ، وعيني راقدة تحلم .
ان الصبي يستعرض أعماله ويحس انه مذنب رغم انفه . لقد أثرت في نفسه شكايات أمه .

انقضت بضع دقائق ، ثم قالت عيني تسأل ابنها :

ــ هل رأيت اعلان البلدية ؟ هل أعلن عن توزيع الدقيق ؟

ــ لا ، لم يعلن الا عن الزيت والصابون ، وقد اخذناهما . فإذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية ، كان توزيع الدقيق لا يجيء أوانه الا بعد ثمانية أيام أو تسعة .

ــ ليتهم يستعجلون !

قالت ذلك مدمدمة ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم أضافت بلهجة ذاهلة :

ــ الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الأيام .

ــ لا غرابة في هذا الجو على ما ترين .

كان عمر متربعا على البساط ، يمسك بيديه قدميه العاريتين ويصغي الى ضجة الأمطار ويحدق الى الظلام . ان حواسه كلها متجهة الى الليل الذي تجتاحه الزوابع . الريح تهب عاتية ، من الشمال تارة ومن الغرب تارة ، تحاول ان تهشم المدينة ، ولكنها تصطدم بجميع المنافذ عمياء مجنونة ، فتجدها موصدة مسدودة .

« يجب أن أكافح جميع الصعوبات ، مهما يكلف الأمر ، ولو أرقت في سبيل ذلك دمي » .

قال عمر ذلك لنفسه ، فألقى هذا الوضوح على أفكاره ضياء ساطعا .

وسمع وقع خطوات عجلى بعد ضجة أحدثها دفع باب الدار دفعا قويا ، فاهتز من ذلك ما كان يرين على دار سبيطار من ركود ثقيل . وتبعت ذلك بلبلة وشبت آهات وصيحات .

قال عمر وهو ينتفض :

ــ جاءتا .

ــ اخرس . أتظن ان ليس لي أذنان أسمع بهما ؟

ان خطوات نشيطة تقرقع في فناء البيت تحت . لقد عادت عيوشة ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات . انهن يشتمن تجهم السماء بالأمطار ، غير أن أصواتهن المغردة تفيض بالضحكات .

قالت عيني لابنها آمرة :

ــ أشعل النور ، فقد خنقنا هذا الظلام .

وما هي إلّا لحظة حتى ظهرت البنتان وقد حسرتا عن الوجه الحجاب . ان المطر الذي رشح الى الرأس من خلال الحايك قد ألصق بالخدود خصلا من الشعر . وتغير كل شيء في الغرفة حين وصولهما .

فما كادتا تدخلان الغرفة حتى انفجرتا في ثرثرة لا أول لها ولا آخر ، ولا تقطعها إلّا صرخات صغيرة . ان كلا منهما تريد أن تسبق الأخرى في الكلام ، حتى اذا استطاعت احداهما ذلك ، لم تلبث الثانية أن تصيح ثائرة :

ــ صوتك مسموع في أقصى المدينة . اسكتي . . اف . .

فتجيب الأولى ، أو تجيب الثانية :

ــ أتريدين ان تكممي فمي ؟ يا نور عيني ! .

فلما تذمرت الأم ، طفقت البنتان ترتبان الحجرة قليلا على مهل ، غير أن مريم ما تلبث ان تتعب ، فتستلقي على البساط . على انهما لم تكفا عن الثرثرة أثناء طواف عيوشة في الغرفة ذهابا وايابا . حتى إذا غابت عيوشة ، في لحظة من اللحظات ، خلسة ، لتنزل الى زهور في الطابق الأرضي ، لم يخف ذلك على عمر . لقد تركت زهور زوجها منذ عدة أيام ، والناس في دار سبيطار يحيطونها بعناية شديدة . والفتيات في ظمأ الى معرفة ما قد كان الزواج بالنسبة اليها ، أكثر من غيرهن . فكان حشدهن المهذار يجتمع في غرفة احدى الجارات تحت ، لأن أم زهور ما كان لها ان تحتمل انعقاد هذه الاجتماعات عندها ، فقد كانت تنفجر باكية متى لمس أحد أنفها ، على حد التعبير الشائع . انها منذ المشاجرة الأولى التي وقعت بين زهور وبين زوجها لم تشأ أن تتدخل في الأمر ، حتى لقد تجهمت لابنتها النائحة ، خشية ان تعود اليها مطرودة الى أمد طويل ، أو ربما مطلقة . . كانت اذا تصورت هذا الاحتمال يغزوها رعب شديد . وها هي ذي زهور قد رجعت الى دار سبيطار . . مسكينة أمها . . حين قصت زهور على امها كل ما قاسته تفصيلا ، لم تزد المرأة العجوز على أن قالت :

ــ حين تضرب إحدانا في ركن ، تلجأ الى ركن آخر .

لقد علم عمر بهذه التفاصيل من أحاديث اختيه ، أما زهور فكان يلمحها من بعيد ، لحظات قصار ، وقد ارتدت ثوبها المصنوع من حرير بلون الورد ، وعلقت بأذنيها قرطين من ذهب . لشد ما تغيرت !

ــ ٩ ــ

كان في يده خبز وسردينة من الليلة البارحة . الصبح يصبغ الجو بالبياض ومع ذلك يحاول ضوء النهار عبثاً ان يتملص من الاكفهرار الصقع الذي يغشي السماء . وفي بعيد دوّى صفير صفارة انذار منذ لحظة ، كأنه صراخ انسان يسلخ جلده .

كان عمر قد بدأ يعض الخبز والسردينة في الهواء البارد ، وكان هذا الهواء يلهب شهوته إلى الطعام .

الشوارع تبلغ من ازدحامها بالشحاذين ان الصبي اضطر في غير موضع ان يخطو فوق أجسام من أجل أن يمضي في سبيله . يشبه هذا ما كان يقع في الماضي حين كان المعازون يجتازون المدينة في مطلع الصباح ، فتتجول قطعانهم في الشوارع والأزقة . كان المعازون في ذلك الوقت يحلبون ضروع الماعز فيملأون بلبنها الأنية التي يجيء بها اليهم سكان المدينة الناعسون . ولكن الناس يخطون الآن فوق بشر لا فوق ماعز .

إن لهؤلاء المتشردين وجوهاً مصوحة يابسة : نساء ذهبت أنوثتهن يجلسن على الأرصفة أو على درجات المخازن ، ورجال بعضهم واقف وبعضهم قد انثنى نصفين يخبىء يديه تحت أسماله الرثة .

كان عمر يلاحظهم أثناء مروره ويأكل . ان الضوء الضعيف يكشف عن عدد كبير من هؤلاء المتشردين ، فكلما سار الفتى التقى منهم بجديد . ان عددهم أكبر كثيراً مما تخيل الناس في أي يوم من الأيام .

تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين ، وهو رجل قصير مدبوغ الوجه ، فتردد عنده قليلاً ، ثم مدّ إليه الخبز والسمك ، وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما .

ــ هات .

ــ هل أنت شحاذ !

واقترب بعضهم ، ونظر اليه آخرون من بعد دون أن يتحركوا .

ــ هل أنا شحاذ؟ أوه . . .

المستطلعون الذين تجمعوا حول عمر يمدون اليه أعناقهم . والنساء الجالسات على الأكياس التفتن ينظرن اليه بمزيد من التفرس . ما من أحد فتح فاه . وما من أحد تحرك .

لا شك انهم كانوا سيظلون يرمقون عمر بهذه النظرة مدة طويلة لولا ان الرجل قد ترك عمر فجأة وأخذ يشغل نفسه بأن مال على بنت صغيرة مستندة بظهرها الى الجدار ، ففتت في كفه كسرة من الخبز في رفق ، ثم دسّ الخبز تحت منديلها ، ووضعه في فمها . ليست الفتاة كبيرة ، ولا هي رائعة الجمال . وأخذ المتجمهرون من الرجال والنساء ينظرون اليها وهي تأكل دون أن يقولوا شيئا . انها تقضم الخبز بأطراف أسنانها ، وهي تهزّ رأسها . ان عينيها السوداوين تحترقان محمومتين ، وتلوحان مبتسمتين تحت عمارة منديلها المعقود حول عنقها .

ونهض المتسول ، الذي لا شك انه أبوها ، متدثرا بقطعة من قماش مشمع خيط مع مربعات من جوخ عسكري . انه يحمل الخبز والسمكة باحدى يديه ، لا يعرف ماذا يصنع بهما . وصفعت الريح أنفه بالياقة السائبة من ذلك القباء الغريب الذي يرتديه . وكانت السحب تجري في السماء الماطرة سريعة متلاحقة . ان البنت الصغيرة لا تريد أن تأكل أو لا تستطيع ذلك .

الأنظار كلها تتجه الآن الى الأب .

قال بلهجة شاكية :

ــ ما العمل ؟

فلم ينبس رجل من هؤلاء الشهود ولا نبست امرأة بكلمة واحدة . ومضى عمر راكضا ، يدخل الشارع الذي أمامه . وجرى هنالك بخطوات واسعة بين الواجهات الشهب المخضلة التي تتلاقى في هذا المكان . . .

الأنوال تخبط وتقرقع . وعمر منكب على عمله شارد اللب ، يشد الخيط كما تشد الأمعاء من بطن خروف مبقور . إطار القصب يدور ويسرع في دورانه ، وكتلة خفيفة تتجمع عند قدمي الصبي .

إن فم الهواء الفاغر قرب السقف مع قضبان من حديد ، ينشر في الكهف ضوءاً شاحباً . والحائكون يتحركون ذات اليمين وذات الشمال في العتمة المتلبدة ، ووجوههم الصفراء تترجح على وتيرة واحدة لا تتغير .

ـــ نعم ، كانوا ينظرون الى الأمور نظرة صحيحة ، فما كانوا بالمتكبرين .

ترجعت كلمات باصقالي في الكهف ترجعا حزينا . ان فيها حنينا قويا . ولقد قال منذ لحظةٌ ، بتلك النبرة نفسها : « كانوا لا يزالون يحترمون عمل البشر » .

ان الحائكين يقومون بعملهم في حركات سريعة . وكان العامل العجوز يزود بالسداة ، في أعمق ركن من الكهف ، مواسير القصب التي يمتلىء بها صندوق فاغر الى جانبه . ان دولابه يصر صريراً لا يتعب ، فصوته أشبه بصوت قدر كبير تغلي . لا يزال باصقالي يتكلم بعبارات موجزة تتخللها فترات طويلة من الصمت . قال صحيح ان الناس في الماضي لم يعرفوا القطار ، ولا السيارة ، ولا غير ذلك من عجائب هذا العصر . ولكن العمل كان في ذلك الزمان بركة من البركات . كان المرء يكسب من المال أكثر مما يستطيع انفاقه . وكان أرباب العمل أناسا كراما . . وكان كل شيء زهيد الثمن .

ان عمر لا ينتبه الا الى هذا الصوت المنصدع . ان أقوى أثر أحسَّ به في أولى أيامه هنا انما هو الأثر الذي أحدثه في نفسه باصقالي هذا ، بوجهه المتقلص المحمر وأنفه المكسور الذي تقشره نظارتان اهليلجيتان ، وعينيه الدامعتين ، المضطربتين تحت العدستين الكثيفتين ، المبتهلتين كعيني كلب لا صاحب له . ان صوته النحيل الذي يخرج من فمه الأجوف المختفي تحت لحية بلون الفضة ، يأخذ بمجامع قلبك ، فما يتركك بعد ذلك أبدا .

لم يفهم الصبي كلمات العجوز . هل يمكن ان يكون في مثل هذه الحاجة الشديدة الى الاحترام ؟ نظر اليه عمر ، ونظر كذلك الى الحائكين . . . . . هل يمكن أن يكون هؤلاء أيضاً في حاجة قوية الى الاحترام ؟

وجالت في ذهنه فكرة غريبة . قال لنفسه : « لعلنا ندخل نحن أيضاً في عداد هؤلاء الشحاذين الذين يملأون المدينة . إلاّ أن هيئاتهم لأقل من هيئاتنا هولا ! نحن هنا ، والناس فوق رؤوسنا تسير » . .

وقطع عليه عكاشة تأملاته . قال :

ـــ ولى ذلك الزمان وولىّ أهله . .

قال ذلك ومسح جبينه بكم قميصه ، ثم سحب الوتد الذى يجمد اسطوانة النول ، وأخذ

يحاول ان يرى باصقالي .

ــ لقد أصبح أصحاب العمل أشد بخلا ، وأشد قسوة بوجه خاص ، منذ صاروا يحاولون ان يجمعوا بأقصر وقت ممكن مالا ينافسون عليه أولئك الذين لا يكسبون منه إلّا قليلاً .

قال ذلك وأدار اسطوانة النول دورتين . سرّ عمر من سماع صوته هذا الذي يخرج من صدره مليئا . ان عكاشة هو ذلك العملاق الكريم الذي نفحه بقطعة من الخبز وقليل من الزيتون في أول يوم من أيام عمله بالمعمل .

أجاب الرجل العجوز :

ــ لقد غضب الله علينا ، ففسد كل شيء . . ازداد الفقير فقرا ، وغلا ثمن الخبز . . . هذا هو الأمر . . .

أخذ أحد العمال يخزق على حين فجأة . هذه هي الطريقة التي يعبر بها حمدوش عن مرحه . لكأنه يتغرغر . عرف عمر ذلك .

وكما يربت المرء براحة يده على ظهر بهيمة طيبة ، أخذ عكاشة يضرب سمط السداة امتحانا لحسن انشدادها . وهزّ رأسه كأنه لا يجد ما يجيب به عن ذلك الكلام ، أو كأنه ليس هناك ما يقال في مثل هذه الحال .

قال مساعده حسين طرف مدمدما :

ــ النهاية . . . أسأل الله أن يكتب لنا الحج الى مكة ! . . .

فتمتم عكاشة يقول في ذهول ، كرجع الصدى ، وهو يربط الخيط :

ــ آمين .

استأنف الحائكان الجالسان الى نول واحد ، عملهما . ففي سلسلة من الحركات المحكمة ، يستقبل عكاشة المكوك الذي يقذفه اليه حسين طرف ، فيشد خيط الصوف الى وراء ، ثم يضغط بأصابع قدمه على دواسة ، ويقذف بالمكوك الى الجهة الأخرى . وبعد ذلك يخبط بالمشط خبطتين قويتين قصيرتين فتتلاصق خيوط اللحمة . ويعود زميله فيقيس من الخيط طولين .

إن عكاشة ، بما في حركاته من مرونة وقوة ، يذكرك بمدلك من المدلكين الذين يعملون في الحمامات العامة . وصدره العريض الذي يشبه قرمة من قرم الجزارين ، لا يغطيه إلّا قميص من قماش مخطط ، يتدلى على سرواله كأنه دراعة . ان لحيته الشعثاء المفروقة تطأ من شعورك بالخشونة التي تتجلى فيه وتجعلك من أمرك في ارتباك . ان العناد الذي يظهر في عينيه ويغشيهما بالضباب لا يشتمل على مرارة بل على حزن . انه لواضح ان قلب هذا الرجل يختنق اختناقا .

قال مولاي بو أنور مستفهمًا ، وهو يعرق ويلهث :

ــ فيم تتكلمون ؟

ونظر فلم يظهر في وجهه المهدم ظل لفكرة .

وكان الجواب ان ارتفع صوت أشبه بالصوت الذي يخرج من حك عود ثقاب ، ارتفع هذا الصوت يقول :

ــ غريب . . انه لا يفهم عن أي احترام أتكلم .

أدار مولاي بو أنور حدقتيه . انه يلهث كالمختنق . نظر الى عيون رفاقه يبحث عن جواب .

ــ نعم لا أفهم . . .

فتدخل عكاشة يقول :

ــ العم باصقالي يتكلم عن الاحترام الذي كان يحمله أصحاب المصانع للعمل الذي يقوم به .

فزال عن عينيه السوداوين العميقتين ذلك الاتقاد الخفي الذي كان فيهما ، انهما لتكادان تبدوان الآن مرحتين .

ولم ينقطع مولاي من اللهاث . انه يعاني من مرض الربو ، وتنفسه يسمع من بعيد . تهدل طرفا فمه من الدهشة ، وظل على هذه الحال مدة طويلة . قال :

ــ لا أفهم . . .

ثم عاد يعمل وهو يكبح تنفسه ، دون أن تذهب عنه دهشته .

قال باصقالي من آخر الكهف المعتم :

ــ غريب . .

وأطلق ضحكة ذات صفير :

ــ انكم لا تزالون شبانا والحق يقال .

وضاعت هذه الكلمات في ضوضاء المصنع ، ولكنها لم تفت بعض الآذان .

صاح أحد العمال يسأل :

ــ لا نزال ماذا ؟

ــ لا تزالون شبانا . .

ــ شبانا ؟

ــ أصغر سنا من ان تفهموا هذا الأمر .

ــ من أن نفهم ماذا ؟

ــ من ان تفهموا ما كان يشعر به أرباب العمل من احترام لعملنا .

لا تسمع الآن إلّا حركة المكاكيك تذهب وتجيء سريعة ، والا إصطفاق أمشاط الأنوال بغير انقطاع ، أو الصوت الرتيب الهادىء الذي يحدثه دوران مغزل باصقالي . الحائكون مكبون على عملهم . حفاة الأقدام ، وهم يرتدون قمصانا وسراويل مهترئة مبقعة . انهم يعملون على أنوالهم في همة ونشاط وقد اكتست وجوههم تعبيرا قاسيا مستغلقا .

وكان عمر غارقاً في تأملاته ، قد نسي كل ما يحيط به . نسي الحجر المظلم العفن والعمل

الذي تقوم به يداه كآلتين .

وفجأة احتد دلو ، فقال معولا :

ـ افهموا كما يحلو لكم ان تفهموا . . رتبوا الأشياء على ما يشاء لكم هواكم . . صدعوا رؤوسكم كما تريدون . . فالأمر هو هذا ، ولن يكون غير ذلك .

قال ذلك ثم ثأثأ ونطق بعبارات مفككة ، بل ولفظ شتائم ضخمة . وكان لا بد له بعد ذلك ان يسكت ، لأن المصنع كله قد لاذ بالصمت .

وكان حمزة ، الى ذلك الحين ، يراقب هؤلاء وأولئك في هدوء ، فقال عندئذ .

ـ انكم تتناقشون ، وتحتدون ، وتتناقضون . . . فمن أجل ماذا ؟ أمن أجل ان تجدوا آخر الأمر أنكم متفقون ؟ انكم اذن لتتعبون ألسنتكم سدى . . ماذا يجدينا ان نتساءل عن أرباب العمل في الزمان الماضي هل كانوا يحترمون عملنا أو لا يحترمونه ؟ انني ألقي عليكم هذا السؤال : ماذا ينفعنا ان نعرف هذا الأمر . . أليس أجدر بكم أن تنظروا في أحوالكم ، اليوم ؟

وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ، ويتمهل في كلامه :

ـ ثقوا أنها أحوال يرثى لها !

فالتفت حمدوش نحو باصقالي بحركة قوية ، وصاح يقول له :

ـ هيه . . هل سمعت ؟ ما الذي ترجوه من احترامهم ؟

وتوقف الشاب الأحمر عن الكلام . ان ابتسامة حادة تشد شفتيه . وحين قرر أن يستأنف الكلام ، زفر وقال :

ـ أنت عجوز !

فأجاب الصوت الجاف مرددا :

ـ عجوز ؟ لم يبق لي إلّا أن أفطس ؟

وعلى ان باصقالي احتج على هذا النحو من الاحتجاج فقد صمت وأطرق .

ـ باصقالي . .

ـ ماذا ؟

ـ انت عجوز جدا ، نعم . . .

ـ عجوز جدا ؟

قال حمدوش مؤكدا :

ـ لم يبق لأجلنا الا قليل . نحن على وشك ان نثب الوثبة الكبرى . وما الذي جنيناه من هذه الحياة ؟ يمكن ان نقول : لا شيء .

وردد يقول وهو يشعر بما أثاره من اهتمام :

ـ لا شيء . . .

ورنح رأسه يمنة ويسرة . كان يبدو عليه انه لم ينه كلامه . وكان باصقالي ينتبه اليه أشد الانتباه ، وكذلك كان الآخرون .

ــ جائز أننا عرفنا بضع لحظات من سعادة، ولكن ما أكثر الأيام السود الى جانب ذلك! لقد حرمنا من كل شيء . ولم نوق أي نوع من أنواع الكروب والمصائب . قطرات من فرح ، وبحر من مرارة. . .

قال هذا الكلام وهو يبرز كل كلمة ، ويتلبث على كل مقطع .

ــ وفي هذا كله ليس هناك الا شيء واحد يزعجنا ، هو أن أرباب العمل لا يولوننا قدرا كافيا من الاحترام !. . .

أظلمت نفس عمر على حين فجأة . ان هذا الشاب الأحمر يثير في نفسه كرها ليس له حدود . ولم ينبس الآخرون بكلمة .

قال العجوز معترضا بصوت خافت :

ــ نصيبنا في المثوى الآخر .

فانطلق حمدوش يضحك ضحكا خافتا ، ويردد بصوت عال واذعان كاذب :

ــ في المثوى الأخير. .

فقال باصقالي يحتج في ضعف :

ــ لا خير في هذه الحياة الدنيا ، ولا . . .

ولكنه ما ان بدأ عبارته حتى اختنق . اكتسى وجه العامل العجوز صورة طفل مؤنب . واستطال انفه حتى سقط على فمه الغائر ، ولم يستطع ان يمسك عن ذرف الدموع .

قال قوطي الأمين مدمدما بين أسنانه :

ــ زنادقة معلولون. . .

ــ ١٠ ــ

الأمين لا يزال يحرك شفتيه مدمدما بكلمات وكلمات .

انه أطحل اللون عريض الصلبين ، يحمل وجهه المتأني العابس سنيه الخمسين . ان المرء لا يمكن ان يخلط بينه وبين أي رجل من الرجال العاملين في هذا المصنع . عباءته المصنوعة من لباد أزرق شاحب ، المزينة بالضفائر ، وسروالاه العريضان المصنوعان من قماش سميك أبيض ، وعنايته الشديدة بنظافة هيئته خاصة ، كل ذلك يتعارض تعارضا قويا مع مظهر سائر العمال .

ردّد الأمين يقول مرات كثيرة :

ــ مصيركم الى جهنم ، مصيركم جميعا الى جهنم .

ولكن لم يكترث بكلامه أحد . وحبذ عمر هذه القسوة منه ، رغم ان الرجل لم يكن محببا

الى القلب ، ورغم أن عمر كان لا يستطيب كثيرا خلاله القديمة البالية .

وقد أرسل عمر بعد بضع لحظات في عمل من الأعمال ، فلما عاد وجد الأمين عند مدخل الكهف مقعيا أمام طاسة من الماء يتوضأ ، فمضى اليه رأسا ، وقال له هامسا في أذنيه وهو يضع يده على كتفه :

ــ هم يسخرون منك يا الأمين ، أما أنا فوالله ما فعلت ذلك قط . . فرفع الحائك حاجبه ، وكال الصبي بطرف عينه . ان الريح العاصفة التي كانت تكنس الشارع الصغير قد صبغت وجهه السمين المتحجب بلون أزرق . وهزّ الأمين كتفه التي وضع عليها الصبي يده ، وطرده :

ــ كفاك لهوا . . هيا امض الى عملك . .

فذهب عمر مجروح القلب .

ومضى الأمين في وضوئه ، وقد ردّ عمامته حتى صارت عند النقرة ، فظهرت جمجمته يعلوها تاج من شعر محلوق بالموس . غسل وجهه ، فساعديه فقدميه ، ثم مر بيديه المبلولتين على رأسه ولحيته . حتى اذا فرغ من وضوئه عاد فنزل الى الكهف ، وارتدى ثيابه ، وعقد الأزرار حتى الذقن ، وجعل يصلي ساكنا لا يهتز ، فهو تارة قائم ، وتارة ساجد . وظلّ يصلي مدة طويلة .

كان عمر يرقبه من الركن الذي هو فيه . لقد سبق ان رأى كثيرا من الناس يصلون ، ولكنه لم ير في حياته احدا يصلي كما يصلي قوطي الأمين . ان في وجهه بلاغة خرساء قلما يرى المرء مثلها في وجه غيره . ان هذا الرجل القاسي يبدو بائسا كل البؤس وهو يتعبد .

فلما شارف على الانتهاء من صلاته ، التفت برأسه الى يمين ثم الى شمال ، فلمح عمر ، فهزّ رأسه هزاً خفيفا لا يدرك . كان وجهه قد اطمأن ، رغم انه لا يزال مطبوعا بطابع الألم .

وما ان جلس الى نوله حتى أشار الى عمر ان يأتي اليه ، فلما اقترب منه الصبي قال :

ــ اصعد الى السقيفة فائتني بمكوك جيد . انك نشيط كقرد . .

فوثب الصبي على السلم راضيا ، ولكن ما أن وصل الى آخر درجة حتى أمسك احد بساقه من تحت ، فتشبث الصبي بحافة السقيفة وأخذ يصرخ قائلا انه يوشك ان يسقط على الأرض . كان الشاب الأحمر يشده في اصرار وعناد وهو يضحك .

ــ قل : « مياو . . انا قطة » ، وإلّا لم أتركك .

ولكن عمر استطاع ان يتملص منه بهزة قوية ، وقال له يهدده في غيظ :

ــ لألطمن بقدمي بورك . .

انه لا يزال حاقدا عليه منذ مدة . انه لم ينس كيف عامل حمدوش صاحبه باصقالي .

وانصرف عنه حمدوش وأصبح لا ينتبه اليه ، والتفت الى عباس صباغ يقول له :

ــ انك لشر رفيق ان لم تمض فورا فتشتري بضع فطائر صغيرة طيبة ، تولها لنا .

قذف الصبي للأمين بأربعة مكاكيك أو خمسة ، من أجل ان يختار الحائك منها المكوك الذي

يرضيه ، ثم نزل . سأله الرجل عندئذ :
ـ من أنت يا بني ؟
فتحير الصبي ولم يعرف بماذا يجيب .
ـ . . أقصد . . من أبوك ؟
فاحمر وجه الطفل ثم لم يلبث ان استرد سمرته ، وقال متمتما :
ـ لقد مات أبي منذ مدة طويلة ، ولست أذكره .
لماذا هذا الاستجواب ؟ ان الأمين هو أول شخص في المصنع يعنيه ان يعرف من هو هذا الصبي .
ـ أنت إذن يتيم ؟ كان الله معك .
قال له الأمين ذلك وهو يمسح بيده رأسه .
ـ ماذا كان اسم أبيك ؟
وانقضت برهة من الزمان قبل ان يتهيأ الصبي للجواب .
ماذا كان أسمه ؟
والتقت نظرات عمر بنظرات الحائك . قال :
ـ أحمد دزيري .
ـ آ . . .
هتف العجوز بذلك ، ثم أضاف بعد لحظة قصيرة من تفكير :
ـ الحاج بن علي هو اذن جدك . . . انا مخطىء ؟ رحمه الله أنى كان الآن .
وقطب حاجبيه .
ـ نعم كان حائكا من أمهر الحائكين . . .
وعاد الى وجهه شيء من بشاشة ، وانبسطت أساريره كأنما رغم إرادته . ان وجهه المحاط بشاش ناصع البياض يغطي أذنيه ، يعبر عن يقظة ذكريات بعيدة في خياله . قال :
ـ أنت اذن ابن احمد دزيري ؟ لقد كان أبوك رجلا شريفا ، ولكن كانت له أفكار ، حمانا الله . . . أفكار . .
قال ذلك ورفع ذراعيه علامة الحيرة والارتباك ، وكظم تنهدات همت ان تخرج من صدره على غير ارادة منه .
ـ كان أبوك يقول كلاما لا يمكن ان تسمعه اذن رجل مسلم . كان يدعي ان جميع الناس أشباه متساوون . . فكيف يصح هذا الكلام ؟ انهم متساوون حقا أمام بارئهم . . ولكن في الحياة . . « وهزّ رأسه بحركة انكار) . . هذا مستحيل . .
وغشى الحزن نظرته ، وعاد قاسيا صلبا كما كان .
ثم قال بصوت واضح بعد لحظة من صمت :

ـ كان أبوك يعترض على الشريعة الحنفية ، دون ان يعلم ذلك . ماذا أقول؟ . . لقد مات .

وتابع يقول بتلك اللهجة الوقور نفسها :

ـ أنا أتكلم ، وأنت في أغلب الظن لا تفهم ما أقول . ولكن هل أنا نفسي إلّا خاطىء مسكين ؟ اللهم ارحم عبادك . . لم يكن أبوك بالشخص الوحيد الذي يفكر هذا التفكير . أنا نفسي آخذ في التفكير أحياناً . . فيضل عقلي ، ولا أفهم من الأمور شيئاً . يا رب ، يا رب ، ما هذا الجنون الذي يستبد بعقول الناس في هذه الأيام ، فكأنهم لا يؤمنون بوجود الله .

وألقى نظرات يائسة على ما حوله ، ثم أمسك عن الكلام . ظلّ خلال مدة طويلة نهبا لاضطراب محموم ، وتجهم وجهه وبان فيه الهم ، فلما سقطت نظراته على الصبي مرة اخرى ، بدا عليه انه يدهش لرؤيته . وتنهد في عناء مرات متوالية ، ثم قال للصبي يسأله :

ـ ماذا كنت تعمل قبل ان تأتي الى هنا ؟

ـ كنت أذهب الى المدرسة .

ـ ها . . أأنت تعرف القراءة والكتابة ؟

ـ نعم .

ـ وتعرف القراءة والكتابة بالعربية ؟

ـ لا .

ـ كيف لا ؟ أتجهل لغتك يا بني ؟

ونظر قوطي الأمين الى الصبي متفرسا مدهوشا ، وصمت . لا شيء يمكن أن يخرجه في هذه المرة عن صمته . وعاد الصبي الى عمله ، وقد أقلقته تلك الكلمات الأخيرة التي قالها له الرجل العجوز . وأمام مكبه تذكر المدرسة وتذكر دروسه فقال لنفسه : « ما كانت حاجتي الى هذا كله؟ » .

ـ ١١ ـ

كان المطر قد عاد يقرع زجاج النوافذ . الريح تدندن في الشارع الصغير أغنيتها الرتيبة . الأقدام التي تخوض في الوحل وبرك الماء يصل صوتها الضعيف الى الكهف . والأنوال الخمسة التي يواجه اثنان منها الثلاثة الأخرى ، تترجح ترجح دواب ثقيلة . والمكاب تدور فيخرج من دورانها صوت أجنحة تطير : فر . . فر . .

قال باصقالي :

ـ انهم اليوم لا يحترمون شيئاً ولا يحترمون أحداً . .

فلم توقظ كلماته أي صدى. المسدية العملاقة تمد أذرعها الى قبة الكهف ، قرب عمر ، كأنها تتجه بالدعاء الى شخص أو الى شيء لا يظهر . وعدد من المكاب يتداخل في هذه الزاوية من الكهف ، متراكمًا بعضه فوق بعض فوضى ، مرمياً على صندوق من خشب نخر ، وعلى هذا الصندوق نفسه ، المتقشر الدهان ، وضعت كدستان من الأغطية وفي آخر الكهف أعمدة سميكة من خشب البلوط فلا ترى في هذه القمة الا رؤ ية غامضة . فعلى الأعمدة تقوم السقيفة التي يقبع تحتها باصقالي مع دولاب الغزل الذي يديره . ان المرء لا يرى من هذا العجوز الذي يعمل في تكبيب الصوف الا بياض عمامته .

قال عمر لنفسه وهو يحدق الى هذا الشبح : « حزين ومضحك . اي احترام ينتظر من هؤلاء الناس؟ ». وارتخى انتباهه فجأة ، وتذكر البنت الصغيرة التي رآها في صباح أمس ، فاضطربت نفسه مرة أخرى ذلك الاضطراب الذي غزاه حين كان في طريقه الى المصنع .

استمر باصقالي يتحدث عن أرباب العمل الماضين الذين كانوا يحترمون عمالهم ، ونعى على أرباب العمل في هذه الأيام أنهم نسوا كل شيء . ولكن صوته لم يلبث أن انطفأ كما ينطفىء قنديل نفخت عليه .

ولم يتول أحد قطع الصمت الذي خيم على المصنع منذ تلك اللحظة أسرع عمر في عمله . انه يدير مكبه بمزيد من العجلة .

ثم أخذ باصقالي يرتل آيات القرآن ، فلم يلبث قوطي الأمين ان أخذ يصاحبه في الترتيل شيئا فشيئاً . ان صوت باصقالي خشن عصبي . أما صوت الأمين فهو سيال عميق يدرك المرء انه نال من التدريب قسطاً لم ينله الآخر ، والصورتان يتساعدان الآن ويتساندان ، حتى لقد صارا في آخر الأمر كصوت واحد يغرق الكهف في جو من الصلاة والدعاء . .

فر . . فر . . ان عمر ما ينفك يشد خيط الصوف ، دون ان تحس يداه المتورمتان الضاربتان الى لون البنفسج (لكأن المرء حين يراهما يرى باذنجانتين) ملمسه الناعم . ان أفكاراً حزينة قلقة تخب في رأسه وان قشعريرات تجري في فقرات ظهره . وأسنانه تصطك على ايقاع نواح المكب وهو يدور وينخر .

اكتست وجوه جميع الحائكين هيئة الجد والتعب . والرأس الكبير ذو اللحية ، رأس عكاشة ، يهتز وقد غشت عينيه ظلال متوحشة قاسية . والهمهمة الراعشة التي تهدهد المصنع كله ، ما تنفك تتخللها شتائم يلفظها قائلوها بصوت خافت .

غاب وعي عمر عن العمل الذي يقوم به . ظلّ مدة طويلة من الوقت سادر لا يدري إلاّ الله فيما كان يفكر . حتى اذا ثاب شعوره حملت اليه أنسام الكهف رائحة نتنة قوية اشمأز منها اشمئزازا شديدا .

العمال يدفعون المكاكيك ويخبطون الأمشاط وقد تجهمت وجوههم وصمتوا لا ينبسون

بكلمة . والضربات تدوي معا كأنها عدة مداق تهوي في آن واحد ، وقد بلغت من السرعة والاحكام انها لا تكاد ترى في هذا الضوء الضعيف الساقط من عين النافذة العالية الصغيرة . ومن حين الى حين ينتصب أحد الحائكين ليجفف وجهه الغارق في العرق .

مرة أخرى شعر عمر بحاجة قوية لا تغالب تحمله على الفرار بفكره من الكهف الى الصباح البارد والشوارع المضطربة بالناس . ها هو ذا وجه صغير غارق في عينين واسعتين يبرز من الظل الكثيف ويخطر أمامه ويبتسم له . يا لها من ابتسامة حزينة ! ويكبر الوجه فجأة ويستحيل الى ظل كبير مفرط في الكبر . نظر عمر حوله : ان المصنع غارق في حمى صامتة ، ونور النهار يلطو تحت القبة . ضربات المكاكيك وخبطات الأمشاط تتتابع متناوبة .

في هذه اللحظة زفر مولاي بو أنور يقول بغير صوت :

ــ انتهى . . لا أستطيع . .

مد عمر أذنه : ان أنات ضعيفة مكظومة تصل الى مسمعه ، ولكن الأنات ما تنفك تتسع شيئاً بعد شيء وتستحيل الى انتحاب كأنه يخرج من باطن الأرض . ان مولاي يتأوه حتى لكأنه يشهق باكياً . بحث الصبي عن نظرة عكاشة ، ولكن عكاشة كان قد استند ببطنه الى اسطوانة النول ، وخفض رأسه متشاغلاً .

انطلق باصقالي يقول فجأة بصوته الحاد :

ــ هيه هيه ، يا شقي ، يا غبي ، انظر ماذا صنعت وأنت تتأمل الهواء غافلاً . .

فنظر عمر فرأى المصيبة ، فأرخى الخيط الذي كان يشده بيده . انه في أثناء ذهوله قد ترك كومة الصوف تتشرج خيطانها عند قدميه . وكان عباس صباغ على وشك ان يحتاج الى غزل ، فأخذ يرغي ويزبد وقرع عمر تقريعاً شديداً رغم انه رتب خيوطه وتخلص من الورطة بسرعة .

ــ ١٢ ــ

كان حمدوش راقداً على رزم من الصوف ، فنهض نصف نهوض ، ونظر في الفراغ أمامه ، وهتف يقول :

ــ انه لشقاء أن يعيش المرء مع أناس مثلكم . .

وظل ينظر من غير أن يرى ، كمن يسير في نومه .

ان الحائكين يتمطون ويتثاءبون هنا وهناك في الكهف ، مستسلمين لاسترخاء فترة الظهر ، ولكن بعضهم لا يزال محتفظاً بهيئة الحنق في أثناء الراحة . لم يتنازل احد فيكترث أي اكتراث بوقاحة هذا الشاب الأحمر ، لا ولا بدا على أحد انه سمع كلامه . وظل حمدوش جامداً على وضعه ذاك الذي يشبه ان يكون وضع انسان يحلم ، ثم لم يلبث أن تنهد وانقلب على رزم الصوف التي

كان راقداً عليها .

ولم يتحرك بعد ذلك قط . فكان يمكن ان يظن المرء انه نامَ لولا ان فرط سكونه كان يشي هو نفسه بأنه في حالة عصبية .

عاد عدد من الحائكين الى أنوالهم . وأخذت الأحاديث تتلاحق في المصنع كله . على ان الذين أطالوا فترة الراحة قد آثروا ان يظلوا خارج المناقشات وقد استأنف الصبية عملهم أول من استأنفوه . ان عليهم أن يهيئوا الصوف للأنوال التي ستأخذ في الحركة بعد قليل .

تثاءب عباس صباغ في بطء ، وقال :

ـ هناك شيء يصدع رأسي منذ مدة طويلة . انني غير راض عن نفسي لست أفهم ما الذي بي . ومع ذلك لا أزال أعيش كما عشت دائماً ، لم أتغير . انني غير راض .

إن عباس صباغ يعمل مع عثمان الأحمر الملقب باسم عثمان الموت : لقد بدآ يعملان كلاهما منذ بضع دقائق . قال عباس كلماته تلك ثم توقف عن الكلام وعن العمل جميعاً . إنه يفكر ساكناً جامداً وقد فرغت عينه من كل معنى .

ـ أصبحت لا أؤمن بشيء أصبحت لا أؤمن بما أعمله . هذا هو الأمر .

قال ذلك ودهش هو نفسه من هذا الذي اعرب عنه ، وتابع يقول في اندفاع :

ـ يقول كل واحد مثلاً ان على الانسان أن يحب أخاه الانسان . فمن منا يعمل وفقاً لهذه القاعدة ؟ من منا يحترم جاره ؟

قال ذلك وألقى على رفاقه نظرة سريعة . ان لعباس صباغ فما كبيرا ذا أسنان ضخمة ، وعينين بارزتين عكرتين لا تستطيع ان تحدد لهما لونا ، ووجها متكسر الزوايا . لقد انصب رافعاً رأسه ، وكأن نظرته تبتلع كل ما تصادفه . ان الصبية يخشون مزاجه الحزين .

ـ من منكم يستطيع مثلا ان يشرح لي هذا الأمر : انني أحب الحياة عامة ، فلماذا أحتقر إذن حياتي وأكرهها بكل ما أوتيت من قوى ؟ هه؟ . .

قال ذلك وتظاهر بالاهتمام فجأة بشقة القماش التي فرغ من نسجها هو ومساعده منذ قليل ، فلم يترك عيباً صغيراً من عيوبها إلاّ فحصه فحصاً دقيقاً .

واستشاط باقي العمال غيظاً من أوامر شول ، وقبلوا أخيرا ان يقوموا إلى أنوالهم .

وفيما كان حمدوش يمضي الى مكانه ، حدّق الى عباس ، ثم بصق في احتقار .

واستأنف عباس يقول دون ان يحفل به :

ـ يستحي المرء ان يقول (وكان قد أخذ يفحص الحجرة) ان حياتنا تبلغ من الضيق أن بقة لا يمكن ان تحتملها. . نعم ، انها لحياة سيئة . هذه الحياة التي نعيشها ، لا جدال في هذا .

وظهر عليه الانزعاج فصمت ، ثم هزّ رأسه ، وأضاف يقول :

ـ هناك لحظات لا ينصب المرء فيها على العمل بقلبه ، فاليدان تعملان ، ولكن الفكر شارد في مكان آخر ، ويشب القلق عندئذ في النفس ، فما نطيق بعد ذلك صبرا . يقول بعض الناس : « الانسان هو كيت وكيت ». الانسان . . الانسان . . الانسان . . ان أفواههم ممتلئة بهذه الكلمة . ألا قولوا أيها الأصدقاء : من هو الانسان الذي يعنونه ؟ أريد أن أعرف من هو الانسان الذي يعنونه ! هل يعنون بيتان ؟ هل يعنون روتشيلد ؟ أو هم يعنونني أنا ؟ يجب ان نقول كلاماً واضحاً ، يجب ألّا نخلط جميع الأشياء في كيس واحد ، ولا تحاولوا خاصة ان تلقوا في روعي أنني شبيه بذلك الذي يملك نصف مقاطعة . . لا ولا تحاولوا ان تقنعوني بأنني أتعذب لأنني خلقت للعذاب . انني انسان كأي انسان آخر . .

وازداد ارتباكه من شعوره بأنه يعبر عن كل ما يحسه . ان عباس لا يجيد الكلام على نحو واضح . كان اذا قال شيئاً وجب ان يفهم الناس منه شيئاً آخر . . كذلك كان شأنه دائمًا . وتململ الحائكون الذين كانوا يصغون اليه . انهم يلقون عليه منذ الآن نظرة ضجرة لا تبشر بخير .

قال حمزة منكراً :

ـ انسان كأي انسان آخر ؟ كلا .

فنظر عباس الى معارضه ذي الوجه السميك . بدا عليه انه يضيق ذرعا بهذه الملاحظة التي تحمل اليه تكذيبا يوجسه منذ مدة طويلة .

وظل يحدق اليه تحديقا غريبا .

قال حمزة :

ـ ما نعرفه عن الحياة هو اننا لسنا بشرا كسائر البشر . .

ان حمزة يتكلم بصوت عال ، ويبرز كلماته مستقلة واضحة . انه من ناحية الجسم يشبه ان يكون كتلة واحدة : ضخم الوجه ، عالي المنكبين ، سميك الأطراف . لقد تجاوز الأربعين من عمره ، وهو مع ذلك يحدق الى الناس والى الأشياء بنظرة شهباء ضاربة الى زرقة ، نظرة خفيفة ، نافذة . وله لحية كثيفة وخطها الشيب فهي تضفي عليه شيئا من مهابة ، على ان هيئته عادية بوجه الاجمال . . كان قد نض عن رأسه طربوشه المصنوع من أحمر اللباد ، ووضعه الى جانبه ، معرضاً للهواء جمجمته الصلعاء من الجبين حتى القذال .

كان عمر ، كغيره ، لا يجهل ان حمزة قد قضى في السجن سنين طويلة ، وان هناك ظلا يغشي هذا الأمر . ما من أحد يعرف حقيقة السبب الذي سجن من أجله . ويقول بعضهم ان الحبس قد بلبل أفكاره .

قال أيضاً :

ـ نعيش العمر كله بين أنوال ، في كهوف .

وكان عباس يلاحظه سادرا يفكر .

ـ ان نفوسنا كهذا الكهف الذي نعيش فيه . الناس في أعلى أحرار ونحن ههنا عبيد . ما

زيادة قرش على أجر اليوم بالهدف الذي يمكن أن يحفل به عبد .

فدمدم عباس يقول :

ــ حقا . . ليس الحصول على زيادة في الشقاء بالأمر الذي يمكن ان يهم أناساً يريدون ان يتحرروا من سجنهم ، أناساً لا قيمة لهم . .

كان عمر يصغي . نعم ، تلك هي حقيقة الحال . ولكن ما بال هؤلاء الناس يظلون ساكنين كالحجارة .

وتابع عباس يقول :

ــ حقا . . ما قيمة المطالبة بكسرة خبز ؟

وأضاف حمزة :

ــ ان أناسا وصلوا الى حد أصبحوا فيه لا قيمة لهم ، وصاروا أصفارا ، لا يمكن ان يفعلوا إلّا شيئاً واحداً . . هو ان يطالبوا بكل شيء .

فأمن عباس صباغ يقول مصرّاً على فكرته :

ــ لا قيمة للمطالبة بشيء ما ، لا قيمة للمطالبة بمائة قرش في اليوم . . هذا كله لا قيمة له . .

فقال الشاب الأحمر هازئاً في مرارة :

ــ لاحظوا انه ليس يضرنا أن يزيد طعامنا قليلا .

فلم يلتفت اليه احد .

قال حمزة :

ــ انا أناساً مثلنا هم مقياس كل شيء : هم المقياس الذي يقدر به بلد ، أو شعب ، أو عالم .

فما كان من الشاب الأحمر إلّا أن لفه بنظرة هي من نوع الحنق الشديد الذي يحتقن به قلبه ، لفه بهذه النظرة وهو يعض شفتيه .

وتابع حمزة يقول غير مكترث :

ــ لقد وصلنا الى الدرك الأسفل ، فلن تجدينا الطرق العادية من أجل أن نعود فنصبح بشراً ، لا بد لنا في سبيل ذلك من أن نقلب العالم رأساً على عقب ، وربما كان علينا أن نروعه . .

لقد أصبح في كلامه بطء ، وشيء من الارتداد الى الوراء والرجعة الى النفس .

وعاد يؤكد قائلاً :

ــ ان هناك قدراً يجثم علينا ، فإذا أردنا ان نفلت منه ، وجب علينا ان نحطم كل شيء .

قال ذلك وبح صوته مرة أخرى .

ــ علينا ان نبدل العالم والانسان . . نعم . . ولكن لا بد أولاً من هدم كل شيء . .

وخيم الصمت على المصنع . ترك حمزة جملته معلقة ، وهو يحرك يده بحركة احتقار تكنس

الفضاء . وغابت نظرة الحائك في بعيد . ثم لم يلبث ان مال هو أيضاً على نوله ، واستغرقه العمل .

فرغ صبر الشاب الأحمر ، فإذا هو يعول قائلاً :

ــ أنا مريض .

فأجابه شول :

ــ لا يظهر هذا لمن يراك .

ــ لست أعرض متاعبي .

ــ هل لك ان تقول لي ما هي متاعبك ؟

ــ أوه . . لا شيء . . لا شيء الا المتاعب الناشئة عن رؤ يتك . . عن رؤ يتك في كل يوم من الأيام التي يخلقها الله .

قال له الشاب الأحمر ذلك وهو يرشقه بنظرة مسمومة .

وأضاف :

ــ يمينا ان نفسي لتمرض من مجرد النظر اليك . أتفهم ذلك ؟

فرفع شول كتفيه ، وقال :

ــ هيا اعزف على الناي في الطرقات ، فذلك أنجح لك . أما هنا فالناس جميعاً أهل جد .

فسعل الشاب الأحمر ساخراً ، وعاد يقول :

ــ ليس في وسعك ان تفهم . . أنت حسبك ان تأكل وأن تنام وأن تـ . . .

ــ يا لطيف يا رب . . هل لك أن تعيد ما قلت؟ . .

ـ ١٣ ـ

ــ هل تعرف يا عمر ؟ انك أشبه بفروج صغير باضه المعلم .

كان ماحي بوعنان قد ترك المصنع منذ قليل . وكان عمر يصعد الدرج مثقل الذراعين بكبب من الصوف صبغت حديثاً ، فهو ماض بها الى فسحة قريبة ينشرها فيهاالتجف . لقد انقشعت السماء قليلاً ، فشمس الشتاء تجري كسلى وراء غشاء من غمام رقيق . ان حمدوش يتفوه بكلام بذيء كهذا الكلام . فما ان سمع الحائكون تلك الألفاظ التي خاطب بها عمر حتى استخفهم المرح ، فأخذت قهقهاتهم تتراكض في المعمل .

وقف عمر فقال للأحمر ، وهو يرشقه بنظرة سوداء :

ــ فروج أمك .

فدهش حمدوش من الاهانة ، وأمطره بوابل من الشتائم .

ــ لسوف أسحقه لك ، هذا الرأس القذر . . سترى . اذهب الآن ، اذهب . .

ولكن عمر رفض ان يمضي . فقال له حمدوش :

ــ ما الذي يسمرك هناك ؟

فحرك الصبي يده بحركة تحد ، غير أن ألفاظاً بذيئة تقيأها الشاب الأحمر لم تلبث ان صبغت وجهه بحمرة قاتمة .

فحدّق اليه حمدوش بعينين تشبهان عيني ضبع ، واستغرق مقهقها ، فأصغى الصبي الى ضحكه مشمئزاً ، ثم خرج يسير في الشارع الضيق .

فلما عاد ، غافله حمدوش فأمسك به من أذنيه ، وجعل يطرق رأسه بقضبان المسدية . حتى إذا أفلت الصبي من بين يديه ، أخذ يرشه بسيل من السباب . فاصفر وجه حمدوش ، ورفع قبضتي يديه ، وانهال عليه . دافع الصبي عن نفسه ما وسعه ان يدافع ، فكان يضرب بيديه في جميع الجهات على عماية ، يعينه حنق بارد . فاستشاط حمدوش غيظا من هذه المقاومة ، فما كان منه الا ان لطم الصبي على نقرته لطمة بلغت من القوة ان الصبي جأر حين هوت عليه كما تجأر بهيمة من البهائم .

صاح الحائكون يقولون :

ــ ما بك يا حمدوش ؟ انك توشك ان تقتله . . هل تريد ان تقضي باقي عمرك في السجن ؟

ان عمر لم يذق طعاماً في ذلك اليوم . اضطربت عيناه . أحسّ انه ينهار . ركبتاه تنثنيان وترتعشان . لم يفهم ماذا حدث له . ثم ها هوذا يهجم على خصمه ، فما هي الا لحظة حتى أخذ الأحمر يموء بصوت أبح :

ــ أرخ يدك . . ارخ يدك . .

لقد تشبث الصبي به وضغط على جوزة عنقه بيد كأنها كلابة . حشرج الأحمر ، وصفق الهواء بيديه ، وهو يتدحرج تحت أحد الأنوال . ظل عمر واقفا ينتظر في وسط المصنع . ثانية ، ثانيتين ، ثلاث ثوان . نهض حمدوش مشوه الوجه من فرط الحنق .

صاح الصبي بكل ما أوتي من قوة :

ــ قذر ، غدار ، خائن .

فمال حمدوش عليه ، وقرب وجهه من وجهه . ان حدقتيه تتقدان اتقادا وحشياً . صمد الصبي . وزفر يقول له عند أنفه :

ــ ابن كلبة . .

فإذا بصفعة حارقة ، معمية ، تسقط على وجهه ، فتطرحه أرضا . ولكنه سرعان ما نهض من جديد ، فوثب على حمدوش ، وطوق بيديه رجليه ، ثم غرس أسنانه في ربلتي ساقيه . أعول حمدوش من الألم . وتوقع عمر ان يقتله الأحمر .

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وما وقع ملأ الصبي دهشة . ذلك ان عكاشة قد أبعد

الأحمر بحركة من ساعده ، ودفعه الى وراء ، فتقهقر الأحمر حتى اصطدم بالسلم ، فسقط على درجته الأولى . وانفجر المصنع كله يضحك مقهقها . واستشاط حمدوش غيظا ، فاحمر وجهه احمرارا شديدا ، ووثب نحو عمر . ولكن عكاشة التقطه من ذراعه . فأمسك الأحمر بقبضة عكاشة يحاول ان يخلص ذراعه منها ، ولكنه عجز عن فك عقدتها . فقال معولا :

ـ دعني . .

تركه عكاشة فانتصب يقف أمامه دون ان يتحرك ، وهو يرتعش شاحب الوجه ، ثم دار على عقبيه ، ونفض الغبار عنه بحركات آلية ، ورتب سترته ، ومضى يجلس الى نوله .

في آخر النهار صحب عكاشة الصبي ، وسارا جنباً الى جنب . كان الفتى يشعر بشيء من الخوف .

قال له عكاشة :

ـ ما حدث حدث ، فلا نتكلم عنه بعد الآن . ولكن عليك في المستقبل ان تسلك سلوكا حسنا . وعليك خاصة ان تتحاشى المشاجرات .

وهم عمر ان يحتج قائلا ان الأحمر هو الذي اعتدى عليه . ولكن عكاشة تابع يقول :

ـ . . وإلّا أدبتك بنفسي . حذار . .

فتأثر الصبي بما كان في نظرة عكاشة من حرارة المودة ، فعدل عن التشكي .

وأردف صاحبه يقول :

ـ دعك من الاحتكاك كثيراً بعمال الكهف والا ندمت .

فلم ينطق الصبي بكلمة . حتى اذا قطعا شوطا كبيرا ، وقف عكاشة عن السير ، وقال له وهو يضحك انه قد رافقه مسافة بعيدة ، ولا خطر الآن أن يعترض الأحمر سبيله .

ثم أضاف فجأة :

ـ لقد كنت في المدرسة ، فلا بد انك تفهم أموراً كثيرة .

قال ذلك وهو يرقب عمر على نحو خاص .

ـ نعم . . خسارة ان تعمل في مصنع نسيج . مهنتنا هذه لا قيمة لها . . انظر الى حالي : هذا كل ما يمكن ان تبلغه أنت في ذات يوم ، فاذا صرت مثلي بقيت على هذه الحال في آخر حياتك . فكر قليلا تفهم عني ما أقول .

قال عكاشة ذلك وابتسم ، ولكن وجهه كان في هذه المرة مظلما .

ـ انظر الى باصقالي مثلا . انه لا يكاد يصلح حتى للقيام بالأعمال التي يقوم بها الصبية . . هه ؟ ومع ذلك فقد أنفق حياته كلها أمام النول . اما أنا فآمل ان أفطس قبل أن أصل الى الحال التي وصل اليها . عليك أن تتعلم شيئاً آخر يا أخي . ثم ان كل شيء سيتم صنعه بالآلات عما قريب . بعد عشر سنين لن يكون هناك حائكون . لسوف ترى في المستقبل أن ما أقوله لك الآن هو الحق عينه .

وافترقا .

كان الظلام قد خيّم . وهذه ريح باردة تهب من الشمال . غير ان عمر لا يصغي إلاّ الى الفرح الذي يغني فيه كعصفور مختبىء . ان تحذيرات عكاشة قد مست فكره مساً خفيفاً فلم تخلف فيها أثراً .

وفي الغداة ، اقترب عكاشة منه ، ووضع يده على كتفه ، قائلاً له :

ــ هل الحال اليوم أحسن ؟ هل هدأت ؟

فدمدم عمر بكلام مرتبك ، وهو يضطرب على سرور .

ضحك عكاشة ، قال :

ــ طيب طيب ، هيا . .

ــ ١٤ ــ

عمر يعمل . الكهف يضج بهياج سريع يسري بغير كلال في هذا الركام العجيب من الأنوال والدواليب والمكاب . عمر يراقب الظلال التي تمغمغ وجوه الحائكين . وتمضي الساعات تلو الساعات متشابهة ، كالحة ، تنضج ضجراً لا ينقشع . المكاكيك تفرقع ، والأمشاط تلتطم .

لقد أدرك الصبي بعد بضعة أسابيع من الاستنقاع في هذه الحفرة ، ما في حالته الجديدة هذه من جد .

حتى زعيق امه أصبح لا يشب إلاّ من حين الى حين . صحيح انها لا تزال تؤنبه ، او تتظاهر بأنها تؤنبه ، غير أن فرحا قوياً قد أخذ يملأ جوانب نفسها .

كان عمر يعود الى البيت في كل يوم من أيام السبت حاملاً في جيبه أجر الأسبوع ، وهو عشرون فرنكاً ، فما يكاد يضعه في كف أمه حتى تأخذ تدعو له بصوت خافت :

ــ الله يسعدك ، شكراً يا بني . .

هذا عمر يحل الخيوط المتفتلة وهو يفكر . فإذا بأغنية نحيلة عذبة تصل الى المسامع من آخر الكهف :

ــ أواه يا أمي الحبيبة .

ارتعش عمر كأن الجو قد ازداد برداً على حين فجأة . ان زبيش هو الذي كان يرنم بصوت ضعيف . وامتلأ الكهف شيئاً فشيئاً بالصوت البطيء النحيل الذي لا يكاد يكون أقوى من صفير صرار الليل . . وتبعه صوت آخر ، ثم تبعته أصوات أخرى . . ان الغناء يترجح غمامة في سماء الشتاء . لم يلاحظ زبيش ، الذي كان يحاول ان يسكب في نواحه روحه كلها ، ما أيقظ حوله من انتباه . وكان وجهه يبدو ، في بعيد ، ساكناً جامداً كوجه من يحتضر . لعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا أخذ يغني . ثم أخذ يلهث . ان أنفاسه تضعف لحظة بعد لحظة . وتنهد أخيراً على حين فجأة :

ــ اه . . .

وتوقف عن الغناء ، وأغمض عينيه . خيم الصمت ثقيلاً كالرصاص . غير ان الصبي حاول محاولة أخرى ، في عزم مستميت فأخذ الصوت الرخيم يسري من جديد في الظلمة الخانقة التي ترين على الكهف . ولكن الأغنية ما لبثت ان خارت مرة ثانية ، فأمسك الصبي عن الغناء ، ودمدم قائلاً :

ـ عبث ، لا فائدة .

صاح شول يخترق الصمت بصوته الفظ :

ـ هيه . . زبيش . .

فأجابه الصبي المغلوب على أمره :

ـ ماذا ؟

ـ هل نسكر الليلة ؟

ـ آه . . أتمنى لو امتلىء بالخمر امتلاء . . امتلاء . .

لم يقل الآخرون شيئا . انهم أطياف خرساء استبد بها اضطراب شديد .

صاح شول يقول مصطنعا نبرات السكر :

ـ آي . . هات . . املأ الكأس . .

فأضاف زبيش :

ـ هنا . . في هذا المكان نفسه . . دون أن نتحرك . .

قال ذلك وأخذ ينق نقيقا دام مدة طويلة ، وانتهى بتأوه غير مفهوم :

ـ آه . . آه . .

قال حمدوش :

ـ زبيش أيضاً مريض النفس .

فقال قوطي الأمين ناهرا في قسوة :

ـ لقد أفسدتم نفسه . هذا هو السبب .

فنظر اليه شول يقيسه من الرأس الى القدمين ، ثم كشر عن لثتيه الزرقاوين وقال :

ـ أي إثم اقترفنا ؟ ألا يجوز للمرء ان يمزح بعد الآن ؟

وقال مصطفى رزاق محتجاً بصوته الأغن :

ـ النفس لا يمكن افسادها . كيف يمكن افساد النفس ؟ انها كهذا النور . .

قال ذلك ورفع نظراته نحو المصابيح المشتعلة المعلقة بأسلاكها .

ثم عاد العمل يجري في صمت . ان كآبة قاتمة قد جعلت الحائكين ينكبون على أنوالهم كأنهم صم . نظر عمر الى عيني شول وهو يبتسم في سخر خبيث . فإذا هو يشعر بجميع أثقال ذلك العنف الذي كان يريـن في المصنع تنصب عليه . أحسّ أن غولا من الغيلان التي يراها النائم في الكوابيس ينشب في كتفيه أظفاره الحديدية . وما انقضت بعد ذلك ثانية واحدة إلاّ في

بطء رهيب . إن به رغبة قوية خانقة في ان يصرخ معلنا سخطه على هذه الحياة التي يعيشها ، وصعدت هذه الرغبة حتى صارت على حواف شفتيه .

ــ جاء المعلم يا أولاد . .

إن زبيش الذي يترصد دائما ما يحدث في الخارج هو الذي صاح تلك الصيحة القوية . وما هي إلّا لحظة إذ بالمعلم يظهر في أعلى الدرج فعلا . استمر العمال في عملهم . غير ان بعضهم قد رفعوا رؤوسهم في تردد ، ثم ما لبثوا ان عادوا يعملون في نشاط محموم .

سأل ماحي بوعنان بلسان متعثر :

ــ كيف الهمة يا أولادي ؟ يا للفتية الشجعان . . مرحى . . ان الانسان ليفرح حين يرى كيف تعملون . .

وأصاف يقول دون أن يتوقع أحد ذلك :

ــ حقا لا شيء في هذا العالم ولا أحد يستحق أن يحزن المرء عليه . ما ينبغي للانسان ان يقلق أبداً . كل شيء الى زوال . .

وحرك ذراعه في الهواء في تراخ . وقال عبارات غامضة لها مظهر الكلام الفلسفي او الأخلاقي ـ لا يدري المرء ما هي ـ وظل ينظر أمامه كمن يحاول ان يتذكر أمراً من الأمور . ثم هزّ يده بإشارة مباغتة ، وقال بلهجة قاطعة :

ــ هيا . . العمل خير من كل شيء .

ثم اجتاز درجات السلم في وقار وجلال ، وذهب كما أتى : صلبا ثقيلا تؤكد كل خطوة من خطواته مهابة ما ينبغي لأحد ان يماري فيها .

قال الأحمر ساخراً :

ــ المعلم شارب قليلاً .

فقال شول مزمجراً :

ــ كفى هراء . .

الجزء الثاني

- ١ -

ولد الربيع في ليلة . انبثق انبثاقا مفاجئا : سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل . المدينة تفتح رئتيها وقد تخلصت من الثقل الذي كان جاثمًا على صدرها . أوراق الأشجار عادت تنبت على الأغصان السود التي غشيتها رغوة خضراء . والنهار استرد دفئه الجميل . الناس يرفعون أنوفهم في الهواء متطلعين الى بشائر الخير في اشراقة الشمس وأولى زقزقات العصافير .

وظهر المتسولون في أيام الربيع هذه أعجب وأرهب مما ظهروا قبل ذلك . مم عاشوا حتى الآن ، وكيف ؟ لا يستطيع أحد أن يعرف ذلك . انهم يتسكعون في الشوارع ، وقد اكتست وجوههم هيئة من يتذكر شيئاً نسيه منذ زمان بعيد . يسيرون في حذر ، لا ينظرون الى أحد ، يمسون الناس دون ان يروهم .

وحدث في الكهف شيء من الفتور . اضطرب النشاط ، واضطربت الأصوات . الحائكون لا يزالون يعملون على أنوالهم في همة ، غير ان بعضهم أخذ ، على حين فجأة يغني بصوت جهير . لقد تسللت الى الجو المحصور الخانق نشوة صعدت الى رؤوس العمال .

ما يكاد يتنفس الصبح حتى يكون عمر قد حمل الى المصنع الصوف المشترى من سوق الغزل . ان سعادة هذه الأسحار الندية المشرقة الباهرة الطراوة تخزه وخزاً وكأنها الشوك .

فمتى وصل الى المصنع بدأ عمله في تكبيب الغزل ، ثم مضى يشتري للعمال ما يطلبون اليه شراءه ، ان نفسه الآن أقل ظلمة وحزناً . انه يصغي من بعيد الى الأحاديث الفاترة العابسة التي تدور بين العمال ، وهو فيها يشبه الخدر . وهو يسعى بعد ذلك الى بيت ماحي بوعنان في «باب زير» يأخذ قفة ويتلقى أوامره . انه مكلف بشراء ما يأمره المعلم بشرائه من السوق لبيته . غير أنه لم يقم يوماً بهذه المهمة على النحو الذي يرضي رغبات السيدة زوجة بوعنان ، فهو ما ينفك

يصغي الى انتقاداتها مطرقا في خشوع .

ومن أجل أن يساعد العجوز باصقالي الذي أصبحت الشيخوخة تعجزه في بعض الأيام عن القيام بأي عمل من الأعمال ، كان يلف سداة «الطرارة» الرقيقة كناعم الشعر . وبعد ذلك بقليل أصبح يحمل الصوف الى المصبغة ، ويعود به الى المصنع فور اخراجه من مرجله الأسود .

على انه رغم نهوضه بهذه السخر التي لا تعد ولا تحصى ، لم يكن ليرضي أحداً .

فلا بد ان يلاحقه أحد دائما باهاناته وتوبيخه . وقد ألف هو أن يشتم حتى أصبح لا يعبأبالشتم . غير ان الأمر الذي لا يريده هو اللطمات والمكاكيك التي تقذف الى رأسه . وكان الحائكون يرشقونه ببصاقهم متى اتفق ان جاءت إحدى مواسير الغزل التي كببها متشرجة الخيوط .

كذلك كانت الحال . . انهم يفرغون على الصبية بعض ما تراكم في نفوسهم من حنق . انهم لا يكفون عن سبهم .

هذا عمر يحل خيوطا متفتلة وهو يفكر . فإذا حمدوش يلاحظ صمته ، فيقول له ساخرا :

ــ هل غرقت سفنك المحملة بالزعفران ؟

فما يجيبه الصبي ، وإنما تزيده كلماته اقتناعاً بأن الأحمر غبي غباوة لا برء منها .

إن عمر لا يشعر بالصداقة الا نحو عكاشة الصموت . ان عكاشة يوحي اليه بالثقة . وهو يذهب الى لقائه كل يوم من أيام الأحد في ذلك المطعم الواقع في آخر شارع صغير مزدحم بالناس في المدينة الواطئة ، فهنالك كان يحلو للحائك ان يحتسي الشاي .

لم يحتمل حمدوش هذا الصمت العنيد في عمر ، فصاح يقول :

ــ أمر هذا الحيوان الكبير أمر عجيب . . فهو ما ينفك يجتر أفكاره وراء رأسه . .

وبعد لحظة ضرب الأحمر الصبي الأشوه زبيش ضربة قوية ، لسبب تافه هو أن الصبي تأخر في العودة بالماء الذي ذهب يملأ به القادوس من العين التي بالحي . لقد ظمىء حمدوش فلما أراد أن يشرب لم يجد هذا القادوس الذي كان الحائكون يطفئون بمائه ظمأهم .

لاذ زبيش بركن وراء الصندوق قرب عمر ، وأخذ يشهق . انه منكمش على نفسه ، ترتعش أعضاؤه كلها ارتعاشاً شديداً ، وهو يشد على جفنيه شداً مؤلماً . حاول عمر ان يواسيه . فسمعه يدمدم بصوت تقطعه الشهقات :

ــ سوف أقتله . فلينتظر . . لأقذفن وجهه بكتلة الحديد التي وزنها رطل . .

سأله عمر لماذا يدع لغيره ان يضربه . فلم يجبه الجني الصغير بشيء ، واكتفى بأن هزّ كتفيه .

ان عمر يحاذر هذا الأحمر الذي كان ميله الى الشر شيئاً غريباً دائماً .

ولم ينقض ربع ساعة إلاّ وكان صوت زبيش يرن في الكهف فرحاً مرحاً . ثم اذا هو يقرع

الأرض بقدميه راقصاً ، وصيحات العمال تستحثه .

الأيام تنقضي وعمر ينضج . انه الآن لا يقل عن غيره حذقاً ولا حدة في ادراك الأمور ، لقد أكسبه عمله في الورشة خبرة كبيرة . أصبحت المعاملة السيئة لا تترك في نفسه مثل الأثر الذي كانت تتركه أول عهده بالعمل في المصنع . لقد تعلم كيف يحمي نفسه .

ـ ٢ ـ

عند عين الماء التي تسمى «عين ليون» لاحظ عمر حشداً كثيفاً من الناس يملأ ميدان « بليق ». كان الصبي عائداً من المصنع عن طريق ممر « سيلاق »، وشلل من الصوف في مثل حجمه تكسوه من قمة الرأس الى أخمص القدمين بفروة كبيرة تتقاطر منها ألوان حادة فاقعة : أحمر وأصفر وأخضر وأزرق. . اقترب من الحشد ، فصاح به ثقيل يقول :

ــ اركض بأصبغتك يا صبي .

فأصم عمر أذنيه عن سماع كلامه ، فأغضب الرجل ان الصبي لم يكترث به ، فشتمه وقال :

ــ ألا ترى أنك ترش الناس جميعاً ؟

وظل عمر صامتا لا يجيب . وساعدته الشلل المبللة في أن يشق لنفسه طريقاً بين الحشد . كان الناس يصرخون مستنكرين ، ولكنهم يفسحون له الطريق .

إن في وجوه المستطلعين من هذا الحشد دهشة لمنظر غير مألوف وتطلع عمر فلم يلمح الا فئة بلهاء من أولئك الحفاة الذين يسكنون المدينة منذ مدة قصيرة . لقد نظمت السلطات حملة لجمع هؤلاء المتسولين . وكان الناس يقول بعضهم لبعض متهامسين أن سلسلة من التدابير قد اتخذت للوصول الى هذه النتيجة . ان رجال الشرطة تخفر الآن هذه الأشباح التي تئن .

ــ كانت المدينة هادئة ، وكانت مؤدبة الى أبعد حدود التأديب فإذا بهؤلاء الأفراد يعكرون صفوها .

هذا ما قاله تاجر متدثر برداء من جوخ ، مستنكراً في وقار ورصانة .

فدمدم مازح يعقب على كلامه بقوله :

أحالوها الى خان .

فمغمغ التاجر :

ــ بل أحالوها الى ما هو أسوأ من الخان .

ثم أضاف يستشهد جيرانه الذين كانوا يقفون على مقربة منه :

ــ ما تراكمهم في مكان لا عمل لهم فيه ؟ ألم يخلقوا على هذه الأرض ، ـ وهم أناس لا ينفعون أنفسهم ولا ينفعون غيرهم ـ الا ليزعجوا أولئك الذين يريدون ان يعيشوا حياة كريمة ؟

وفي أثناء ذلك ظهر أحد أعضاء اللجنة الخاصة التي شكلتها حكومة فيشي ، فاذا البله يتدافعون حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضاً . وأراد الرجل في أول الأمر ان يعرف من أين كان يخرج هؤلاء الشحاذون . ولكن الأمور لم تلبث ان ظهرت أعقد مما كان يمكن تصوره . لم يتصد أحد من الناس لايضاح هذا اللغز .

وسئل المتسولون ان يبرز كل منهم أوراقه ، فاتضح انه ليس بينهم احد يحمل أوراقاً ، لا ولا فهم أحد منهم ما معنى ذلك . وتقرر عندئذ استجوابهم ، فأجابوا جميعاً بأنهم غير مستعدين لأن يروا مرة أخرى الجحيم الذي غادروه .

ــ سنموت هنا .

لماذا يعلنون هذا القرار المشئوم ؟ لم يخطر ببال عضو اللجنة ان يسأل عن هذا الأمر ، وقالوا يوضحون : انهم على كل حال يجهلون من أين أتوا . ولم يمكن استدراجهم الى مزيد من الكلام .

فزاد ذلك في اضطرام حنق ممثل السلطة ، على اضطرامه من قبل . ان هذا الكهل المحلوق الذقن منذ قليل ، المتزين عنقه برباط جميل ، شديد الاحتفال بوقاره . كان واضحاً انه لم يخلق للاهتمام بمثل هذه الأمور . انه لا يفهمها . ولم يعرف بم يبدأ ، حين رأى الناس ينتبهون اليه ذلك الانتباه الشديد .

وما لبث أن أعلن في صلابة وحزم انه سيأمر بارجاعهم . . نعم ، سوف يطهر المدينة منهم . . لا بد من استئصال هذه الحشرات . . ان المرء يحس لدى كل خطوة يخطوها في المدينة انه يتعرض لأشد الأخطار . هل ينبغي لأحدنا ان يذبح أمام باب منزله ، ان يشهد نهب بيته ، أن يرى امرأته . .

ــ احم . . .

كذلك صوت أحدهم ، فسمع جميع الناس هذه السعلة الجريئة ، وما كان أشد دهشتهم حين سمعوا ذلك الرجل الذي قال «أحم »، يضيف قوله :

ــ هؤلاء ليسوا حشرات . ان الحشرات التي انقضت على بلادنا هي التي صيرت اخوتنا الى هذه الحال .

فلما سمع عضو اللجنة المكلف بالشئون العامة هذا الكلام اهتاج اهتياجاً شديداً ، وأخذ يضطرب مرتعشاً . قال يسأل متخطياً بنظره من حوله :

ــ من تفوه بهذه الكلمات ؟

فقامت في الحشد حركات مضطربة ، وانطلقت أصوات . ثم لم يلبث الصمت ان خيم . لم يعرف أحد من ذا الذي أقحم نفسه في الأمر هذا الاقحام الخطر .

ولم يخامر أحد شك في انه قال هذا الكلام ثم انسل واختفى .

وفرق رجال الشرطة الحشد . غير ان الناس لم يلبثوا أن تجمهروا في بعيد جماعات ، وعادت الألسن تتحرك وقد انحلت عقدتها .

وأقبل على المثرثرين شيخ طويل يسير بخطا بطيئة .

ــ ما الذي تعرفونه عما وقع لهم ؟

قال الشيخ ذلك ، وهو يصوب لحيته التي بلون الزعفران الى جهة الشحاذين الذين لم يتحركوا من مكانهم .

ــ ماذا تعرفون عن الأسباب التي انتزعتهم من الركن الذي كانوا يعيشون فيه من الأرض ؟ أيها المسلمون ، لا تتكلموا في طيش اذا كنتم . .

وهنا انبرى مسخ قصير تتدلى عليه مريلة حذاء ، فقال يقاطع الشيخ ويمنعه من اتمام جملته :

ــ يا لهذا العصر الذي نعيش فيه !

وقال رجل حكيم :

ــ صدقوني . . ان تعاستنا ليست بنت اليوم ، وانما هي ترجع الى عهد بعيد . فيم نقلق إذن ؟

ــ ولكن لهذه الأزمان أثراً فيها .

ــ هبوا ذلك . . ان هذه الأزمان تكشف عن الجرح . . ولكن الجرح ينزف من عشرات وعشرات السنين . كل ما هنالك أننا اليوم نرى الجرح رؤ ية أوضح .

صاح الحذاء القصير يقول مرة أخرى في دهشة :

ــ لا أستطيع ان أتصور ان شعبنا تحمل آلاماً كهذه الآلام .

فقال الحكيم مؤكداً :

ــ انه يتحملها .

مضى عمر . ان هذه الأمور ليست بنت اليوم . هيهات أن تكون بنت اليوم .

ــ ٣ ــ

الى أين اقتيد هؤلاء المتسولون بعد أن أخذوا من «بليق» ؟ لقد ألقى عمر هذا السؤال على نفسه مراراً . والأشخاص الذين شهدوا هذا الترحيل ظلوا بعد ذلك في وهم . ان رغبة عمياء في انزال العقوبات كانت ما تنفك تزداد ضراماً في نفوس الأوربيين . كأن النوع الانساني لبث يجهل الشر الى ذلك الحين ، ثم اذا بالحياة تمتلىء فجأة بالمناظر الكريهة والحوادث المضطربة .

كان ينبغي قبل كل شيء الرجوع الى مصدر هذا التكاثر الهائل في المتشردين . انهم كلما دفعوا عن المدينة ازدادوا تهافتاً عليها . ذلك ما كان يتكرر كل يوم . والحاذق الحاذق من يحزر ، على كل حال ، هل الذين يهبطون المدينة هم أولئك الذين أخرجوا منها فغابوا عنها غيبة قصيرة ثم لم يلبثوا ان فروا عائدين ، ام انهم وافدون جدد ، والحاذق الحاذق من يحزر أيضاً هل إقامتهم ههنا

هي خاتمة مطافهم ، أم انهم لا يمكثون في المدينة إلاّ الى حين ثم يولون وجوههم شطر أمكنة أخرى فعل الطيور المهاجرة تدفعهم غريزتهم خفية . ان المرء لا يستطيع ان يميز بعضهم عن بعض . انهم جميعاً سواء : وجوههم المنكسرة المتنفشة ، الغبار الأسمر الذي يكسرهم ، الأسمال الرثة التي يلبسونها ، النظرات المسدودة التي يجيلونها ، الأجسام المتهالكة التي يجرونها جراً . .

وكانوا يسخرون بعالم النظام والأغنياء الذي يجاورونه .

ما كانوا يريدون أن يفعلوه هو أن يعسكروا صفا على حافة الطريق ، وقد أداروا ظهورهم للمارة .

حتى الفنادق الموسرة أصبحت لا تستاء من هذه الفوضى ، وحتى المباني القاسية التي تشغلها اجهزة الحكومة أصبحت لا تضيق بهذه الإهانة . ولكن سكان تلمسان كانوا يرصدون ، وهم يشعرون بالمذلة ، آثار الخزي هذه ، التي اختبأت طويلاً ثم اختارت هذه الساعة لتكشف لهم عن وجهها القاسي .

وكانت قد هاجرت من واجهات المخازن ، البضائع الثمينة ، وصناديق الحلوى الفاخرة ، وعلب الأطعمة المحفوظة المشهية ، والملابس الأنيقة ، والحلى الجميلة ، والساعات الدقيقة ، وسائر ألوان الرفاه . . هاجرت من واجهات المخازن ، ولم تحل محلها ، اذا أمكن أن يحل محلها شيء ، إلاّ سلع رديئة ، إلاّ بدائل كما كان يقال . فكانت هذه السلع تمكث وراء الزجاج بعض الوقت ، فتبهت ، ثم ما تلبث ان تدخل في ذلك الاغبرار العام ، في صحبة صورة ماريشال عجوز .

وقامت البلدية ببضع محاولات أخيرة يائسة . ولكن موجة البؤس الانساني لم تنحسر ، بل امتدت شيئاً فشيئاً حتى غطت كل الأرض التي فقدتها . وكلما قامت حملة جديدة ، أسرعت اسراب من المتفرجين تتجمهر ، فإذا بذلك الصوت يعود يردد في وسط الحشد صائحاً :

ــ هؤلاء الناس ليسوا حشرات . انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال ، وهم يعيشون على أجسامنا .

كانت هذه العبارات تتردد هي نفسها كلمة كلمة على وجه التقريب ، وتنتهي دائمًا بصيحة عالية تقول :

ــ أعطوهم طعاماً ، ذلك أولى بكم .

وظلت تلك الشخصية الخفية التي تلقى هذا الاتهام مجهولة لم تعرف . ولكن سرعان ما ألف المرتادون لهجتها القروية ، القاسية الساخرة ، فاقتادهم رجال الشرطة غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا منهم بشيء . لولا تواطؤ الناس ، لقبض على الرجل الجريء منذ زمان بعيد .

وأصبحت السلطات منذ مدة لا تهتم بأن تنسب هذا السخر الى وجه بعينه .

ــ أعطوهم طعاماً ! ولكنكم لن تقدروا على ذلك !

هذا ما كان يسمع .

والبله المتجمهرون حول «عين ليون» يرتعشون . انهم غير حانقين . ان اخوة غامضة تشد القلوب الى القلوب .

- ٤ -

أتمت السلطات شحن عدد من سيارات النقل بأواخر فصائل هؤلاء المتسولين . فالمدينة الآن حرة . انها تتنفس .

أستردت الشوارع وجهها الجميل ، كما كانت في الماضي ، وهو ماض يرجع عهده الى أمس القريب ، ولكنه كان قد امحى في بلبلة هذه الأزمان المضطربة . الناس يتجولون الآن في المدينة دون ان يصطدموا بالنفايات . غير ان حجاباً من حداد حزين قد ألقته على المدينة تلك الجماعات الساغبة الوضرة التي غابت الآن عن الأنظار ولكن ذكراها لا تزال ماثلة في الأذهان .

إلى أين ذهبت سيارات النقل التي شحنوها بهم ؟ ماذا صنعوا بهؤلاء الرجال والنساء والأطفال ؟ آه . . . كم تبدو الشوارع أنيقة .

وعلى أن الجو لم يدفأ إلّا قليلاً فان البرد أخذ يخفي أظافره على هون من الأشعة المتلألئة . ثم غمق لون السماء قسا ، وما جاءت الظهيرة الا والشمس قد كثفت كما يكثف المربب ، والتهب الهواء .

وظهروا مرة ثانية . ظهروا في هذه المرة ظهوراً لم يتوقعه أحد ، وعددهم الآن أكبر من عددهم في اليوم الأول . تساءل الناس عن هذه المخلوقات ما هي؟ قيل لهم انهم يجيئون من الداخل ، من أمكنة أبعد من البلاد المحيطة بالمدينة ، وان عدداً كبيراً منهم قد قطع عشرات الفراسخ . انهم يتهافتون على المدينة من أراضي الجنوب . البلاد كلها تهتز إذن وتضطرب . أنى لسكان المدينة ان يعرفوا ذلك وهم يعيشون بمدينتهم في عزلة كأنها عزلة الرهبان في الدير ؟

ثم ان الناس لا يزالون يكتفون بالمضي الى شئونهم الخاصة ، فان الهموم لا تعوزهم ، ولكل يوم من الأيام نصيبه من هذه الهموم . ان لهم أعباء تشغلهم عما عداها . ومع ذلك أغرقت هذه الأحداث أكثرهم في وجوم عميق . فما ان يذهب أصحاب الحرف الى دكاكينهم عند مطلع الصبح ، وما أن يفتح الباعة أبواب حوانيتهم ، وما ان تنتشر جمهرة العمال في المدينة ، حتى تكون الشوارع المزدحمة قد أوشكت ان تسدها جموع هؤلاء المتسولين سداً . وكانوا يزدادون في كل ليلة عدداً .

الحق ان منظرهم خشن مفرط في الخشونة . كان كثير من الناس اذا لقوهم أمامهم لأول مرة ، لم يروا فيهم ما يجذبهم اليهم ، ونفروا من خشونتهم . وكان بعض الناس يشيحون بوجوههم عنهم مروعين وهم يقولون : « لست أعرف نفسي في هؤلاء ».

الملامح الغائرة ، والعظام الناتئة ، واللحي الشعثاء ، ذلك كله ليس يلفت النظر كثيراً في هؤلاء الصعاليك : ان هذه الرؤوس التي كأنها رؤوس خراف ، شائعة في الريف . وانهم صامتون لا يتكلمون ، ساكنون لا يتحركون الا قليلا ، فذلك معروف في ضعاف العقول . غير ان هناك شيئا واحدا يخطف البصر فيهم : هذه الأعين الثابتة المسحورة .

ورتبوا أمورهم مرة اخرى من أجل ان يعسكروا في الطريق العام . كان الأوربيون ، اذا صادفوهم ، يظهرون الامتعاض والاشمئزاز . فكان عمر يشعر من ذلك باستياء : انه يحس ، شاء أم أبى ، ان هؤلاء الحفاة منه وانه منهم .

ودّ عمر لو يعرف كيف كانوا يستطيعون ان ينتشروا في كل مكان . انهم كلما أبعدوا وكلما طردوا عادوا وقد ازدادوا عددا حتى ان السلطات نفسها قد دبّ اليها اليأس .

أما عن التحدث إليهم ، فان المرء ليزاهن انهم يتكلمون لغة أخرى . ثم انهم لا يظهرون أية حاجة الى عقد أية صلة بالمدينة . كان يبدو عليهم ان مشاغل أخرى تملأ رؤوسهم ، وتضعهم في خارج هذا العالم . على ان عدداً كبيراً من السكان أصبحوا يعطفون عليهم بعد تفكير ، وأصبح الناس لا يستاءون منهم رغم ان مظهرهم المتجهم لا يشجع على التودد اليهم والعطف عليهم . وكان بعض الناس اذا رأوهم جالسين جنباً الى جنب ، آباء وأمهات وأبناء ، وهم يقضمون كسرة من الخبز قاسية كأنها الحصى ، يذرفون عليهم دموعاً من شفقة .

لئن كانت جموعهم ما تنفك في ازدياد ، فانهم لا يصبحون من ذلك أشد جرأة ولا أكثر ثقة بأنفسهم . وكانوا يمضون باحثين عن أمكنة جديدة في غير انقطاع ، لا يبدو عليهم انهم سيعودون أدراجهم الى حيث كانوا .. ولكن .. ولكن أكانوا يتخذون المدينة ملجأ لولا أن مكثهم فيها الى حين ؟

وما هي الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا ترى أسرة من الأسر ، مهما تكن فقيرة ، الا وتقدم اليهم شيئا من طعام . صحيح ان ما يقدم اليهم لا يزيد على كسرة رقيقة من خبز ، ولكن هذه الكسرة الرقيقة من الخبز كانت تقدم اليهم على كل حال . أضف الى ذلك أن شعوراً بالتضامن قد أخذ يدفع نحوهم كل فرد من الأفراد .

وكان الأوربيون بطبيعتهم لا يمارسون الصدقة ، لذلك كان هؤلاء المتسولون لا يذهبون الى بيوتهم مستعطين . ان الأحياء التي يسكنها أناس من أصحاب الحرف والعمال والباعة المتجولين وغيرهم من فقراء الناس ، هي التي كانت من بين سائر الأحياء تهب الى التخفيف عنهم . كانت أبواب البيوت التي لا توصد أبداً تستقبل منهم مواكب لا تنقطع .

وفي جوف الليل ، بينما الناس نائمون ، كانت ترتفع في بعض الأحيان على حين فجأة شكاة أليمة . وتظل الشكاة تترنح الى غير نهاية خلال الشوارع الصغيرة المظلمة ، تتلمس طريقها من وراء الجدران ، الى قلب غاف من قلوب البشر .

حتى دار سبيطار أصبحت منذ ذلك الحين تجد السبيل الى مساعدة هؤلاء الأقرباء الجدد الذين أتت بهم النكبة .

كانت عيني تقول :

ــ هؤلاء اخوتنا دما ، وضيوف أرسلهم الله الينا ، فأهلا بهم وسهلا . ولسوف نستقبلهم ولو لم يكن في بيتنا ما نقدمه اليهم غير الماء ، وسيفهمون ان بنا من الفقر والعوز مثل الذي بهم تقريبا . لا يزال في هذا العالم رحمة . لن يقال اننا طردنا اخوتنا لأننا نملك مأوى ولا يملكون . .

والحق ان حياة دار سبيطار لم تكن بالحياة الرخية ، حتى ان أهلها كانوا يطلقون عليها اسم : اللعينة ، ومع ذلك كانوا يرونها ، على علاتها ، أهلا لأن يتعلقوا بها ، وان يساعدوا غيرهم على ان يحيوا .

وكثر عدد الموتى في أثناء ذلك . ما أكثر الفقراء المساكين الذين كان يطلع عليهم الصباح وقد لفظوا أنفاسهم الأخيرة دونما جلبة !

وما أكثر الأحياء الذين كانت وجوههم الملطخة بالوحل ، وشفاههم المضمومة ، تسود اسوداداً غريباً ! . وهذا بعضهم يزحف زحفا بطيئاً الى مخابىء مجهولة ، ثم يختفي عن الأنظار ، فما يراه بعد ذلك أحد .

كان هؤلاء الناس يستأذنون العالم بالانصراف ، في تكتم لا نظير له ، حتى لكأنهم يعتذرون عن ان عليهم ان يموتوا . كانوا يموتون . . فيفحصهم طبيب البلدية الشرعي ، فيشهد بأنهم ماتوا .

ــ ٥ ــ

لو رأيته يدلف الى الكهف لقلت انه سقط اليه سقوطا كحجر ، ولم يدخل فيه دخولا . هكذا هبط الى الكهف ومضى يجثم قرب باصقالي . ان أنفاسه تهدر . وخيم صمت كبير . انه واحد من أولئك المتشردين البؤساء الذين يملأون رحاب المدينة . ألقى على الحائكين نظرات كأنها أسنان المخارز ، وكانت تحيط بوجهه هالات من ظلال . تذكر عمر المتسول الذي مد اليه خبزه في ذات صباح وهو آت الى المصنع . ان له هذا الوجه القاسي نفسه ، وهذه اللحية الشعثاء نفسها في الخدين الغائرين .

قال الرجل بعد لحظة :

ــ اسمي محمد عود الشيخ . أنا مزارع من بلدة بني بوبلان (قال ذلك وهو يشير بيده الى جهة الغرب). لم يبق لي شيء ، فقدت كل شيء ، كل شيء ، أرضي ، وامرأتي . وأولادي . . . أحالني رجال القانون بهيمة ضالة .

كان صوته هادئاً ، وكان يتأمل الجدار المتقشر الكلس أمامه . كانت النافذة العالية تبعثر

نوراً مضطرباً على جسمه الغاطس في ثنايا جلبابه الخشنة . وصمت . وصعد الصمت من تحت الأرض .

راح عمر يستعرض ذكرياته . بني بوبلان . يا للأيام الجميلة التي تجري هنالك هادئة على تأرجحات الضياء . .

ولكن اللهجة الحجيرة التي يتكلم بها المتشرد لم تلبث ان أخرجته من أحلامه :

ـ الله يحميكم . . .

قال المتشرد ذلك ولم يضف اليه كلمة واحدة . والحائكون قد جمدت عليه أبصارهم يرقبونه صامتين .

ثم اذا بأصوات ضخمة يعلو صياحها عند مدخل المصنع ، وإذا برجال الشرطة يهبطون درجات السلم مسرعين ، وقد أخذت أقدامهم المثقلة بنعالهم ذات المسامير تتدحرج على الدرجات تدحرجاً . ابتلعتهم ظلمة الكهف ، ولبثوا لحظات لا يعرفون الى أين يتجهون ، وعيل صبرهم أخيراً فصاحوا يسألون الحائكين :

ـ هيه . . . أنتم . اننا نبحث عن شخص هارب ، أفليس هو هنا ؟

ولكنهم كانوا قد لاحظوا الهارب متجمعاً على نفسه في ركنه . فهجموا عليه ، وأنهضوه من ذراعيه ، وجروه . استسلم الرجل لهم . غير انه حين صار من السلم في منتصفه وقد أحدق به رجال الشرطة ، التفت نحو العمال ، فألقى عليهم نظرة أخيرة . كانت نظرته غارقة في حزن قاتل ، وقد غارت عيناه .

لم ينطق أحد من الحائكين بحرف . وأحسّ عمر فجأة كأن حبلا ينعقد على عنقه ويخنقه . تساءل : لماذا ؟

قال شول من بين لثتيه :

ـ كيف كانوا يستطيعون ان يعيشوا من الأرض ثم أصبحوا اليوم لا يستطيعون ذلك ؟ هل رقعة الأرض ضاقت ؟

فأجاب الأمين مدمدما وهو لا يريد ان يتجه بالكلام الى شول بالذات :

ـ من رأى حالتهم ، من رأى حالتهم حق الرؤية ، لا يرضى لنفسه ان يتكلم في حقهم كيفما اتفق . . .

ـ أعلم : اذا شئت ان تعلم ، ان البشر هم الذين تكاثر عددهم . هل كان في الماضي مثل هذا العدد الكبير من الفلاحين ؟ ابدا . . .

قال عكاشة :

ـ لماذا لا تذكر الأراضي التي سرقت منهم ؟

ـ لو عرفوا كيف يدافعون عن أراضيهم ، لما استطاع أحد ان يأخذ منهم شيئا . ان الله قد أربى عددنا وأضل عقولنا . انظر كيف يزداد انتشارهم في شوارعنا ؟ ما عساكم تقولون في هذا ؟ حماكم الله .

ـــ سيأتي الأوان . .
ـــ أي أوان ؟ ألم تسمع بالقول المأثور : لوكان يباع لما رموه ؟ كذلك شأن هؤلاء . . فليأت الأوان . . وسنرى .
فتنحنح حمدوش ، ماداً عنقه ، مائلاً بصدره الى أمام . وقال :
ـــ المسألة ليست هذه . لماذا لا تتكلمون عنا ؟ اننا لا نريد أن نسبب لأنفسنا المتاعب ، وخاصة من أجل فلاح . . ما شأننا نحن به ؟ ان الله هو الذي يحق الحق .
قال ذلك وتغضنت زاويتا عينيه ، وانشمرت شفتاه .
ـــ من ذا الذي يجرؤ ان يقول اننا جبناء ؟ من ذا الذي كان يمكن ان يفعل غير ما فعلناه ؟ من الذي يستطيع ان يساعد رجلا تطارده الشرطة أيها الاخوان ؟ لا أحد . وإلاّ كان يعرض نفسه لخطر كبير . . . وإلاّ كان مجنوناً . كل ما هنالك ان الرجل قد اخطأ حين لجأ الى هذا المكان . لقد كان يمكن ان نفعل شيئاً ما ، ولكن . .
كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحجر يرشق بها رفاقه . وفجأة أخذ يضحك ضحكة طويلة مضت تصطدم بعتبة الكهف وتترجع بين جدرانه .
ماذا تقول ؟ لم تقل شيئاً ؟ تخشى السوط ؟ فهمت . اننا راضون عن مصيرنا ، وهذا المصير أشبه بصخرة مربوطة بأعناقنا .
قال حمزة :
ـــ سوف يهدم هؤلاء الرجال بلادنا ويعيدون بناءها من جديد .
فقهقه الأحمر قهقهة قوية .
ـــ ونحن ، ما الذي سنعمله ؟
تابع حمزة يقول :
ـــ البلاد في مخاض هادىء . والبلاد هي هم . لقد أخذوا يسيرون ، فالبلاد هي التي بسيرهم تسير .
قال عكاشة متمتماً :
ـــ هم جزء منّا .
وأظلم وجهه الذي تغطيه لحيته الملتهمة السوداء .
وعاد حمدوش يسأل :
ـــ ونحن ما الذي سنعمله ؟ نحن أناس أقرب الى الغلظة ، فلعل من الاحسان الينا ان يصار بنا الى الزوال . .
قال شول منكراً :
ـــ هؤلاء الناس لا يشبهون أحداً .
وتثاءب تثاؤبا طويلاً ، ثم عاد وجهه فصار من حجر ، وجمدت عيناه فكأنهما من زجاج .

غضب عكاشة وقال :

ــ إننا لا نعرف شيئاً عما عانوا ، ولعلنا لن نعرف عن ذلك شيئاً في يوم من الأيام . انهم يتوافدون من أراض أصابتها اللعنة .

عاد شول يقول في تثاقل :

ــ انظروا كيف يختالون في المدينة ، وينامون أينما اتفق ، ويزحمون الشوارع .

ــ كان أوربيا هو الذي يقول هذا الكلام !

ــ لماذا ؟ أي ضير في أن نقول هذا الكلام ؟ اعترف انهم قد ألفوا ان يعيشوا كما تعيش البهائم . والأوربيون حين طهروا منهم المدينة عدة مرات لم يفعلوا إلّا ما كان يجب ان يفعل . غير ان أصحابنا هؤلاء جنس من البشر لا يقدر عليهم شيء ولا يقدر عليهم أحد . لا يقدر عليهم إلّا الذين خلقهم . .

ثم أضاف شول بعد لحظة من تفكير يقول :

ــ اني لأتساءل ما الذي كان يمكن ان نصير اليه لولا أن عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رؤوسنا . اني لألقي على نفسي هذا السؤال حقاً . . . لولا هذه العصا ، لأكل بعضنا بعضا ، ما في ذلك ريب !

قال ذلك ، وسعل ينظف حلقه ، وبصق ، وأضاف :

ــ إننا شر من الذئاب . .

فما كان من حمدوش إلا أن رشقه بألفاظ فاحشة ، وقال :

ــ ليس مؤكداً ان لك تحت سروالك ما يبرهن على أنك رجل .

فرد شول بحركة بذيئة ، فضج عدد من العمال يضحكون ضحكاً صاخباً بينما أخذ آخرون يدمدمون متذمرين .

فكر عمر في جميع أولئك المتسولين الذين يطوفون بالمدينة ، بؤساء في عزلتهم هذا البؤس كله . فهدرت في نفسه حركة من تمرد وحنق على رفاقه في المصنع . انه يود لو يصفع بقبضته هذه الوجوه التي تكشر ساخرة على عتمة الكهف . وأحسّ بظمأ شديد الى الهواء الطلق . واستمر الحائكون ينقض بعضهم على بعض وهم يوشكون ان يتناهشوا تناهش الكلاب المسعورة .

قال الأمين متمتماً في لحيته :

ــ يجب ان يعيش بعضنا لبعض ، فيكلأنا الله بعنايته .

وازداد وجه عكاشة اظلاماً ، ثم لم يحفل بالحديث الذي يدور . كان صوته في الكلمات الأخيرة التي نطق بها ، قد تحجب فجأة حتى لكأن الكلام لا يسعفه . وقام بحركة يابسة عصبية . وكان عمر يراقب عينيه وهما تتقدان قاسيتين .

قال مولاي بو أنور يئن بصوته النحيل الرتيب :

ـ علام المناقشة في هذه الأمور ؟

ثم أخذ يسعل ، وصعدت الدموع الى عينيه ، وأخذت تتدحرج على وجهه الذي يشبه ان يكون من شحم زنج ، دون أن يبدو عليه انه يشعر بذلك .

قال حمدوش وهو يهزّ رأسه :

ـ اسمع . اننا نتناقش في هذه الأمور لأننا . . في أي أمر آخر تريد أن نتحدث ؟

وصمت . ثم نظر الى مولاي بو أنور نظرة ليست معهودة فيه ، لقد كان في هذه المرة جاداً واجماً .

ازداد سعال مولاي عناداً . كان الحائك قد بلغ من انحنائه على نوله ان رأسه يلامس الاسطوانة .

قال له الأحمر في رفق :

ـ حقاً ! إلاّ أنك لعاقل حكيم . . علام تتحدث في هذه الأمور ؟

ـ ٧ ـ

ـ حين كنت في مثل سنك . . .

قال عكاشة هذا ولم يزد . ثم ربت على كتف عمر وقال :

ـ آه . . . دعنا من هذا .

هذه أول مرة يجيء فيها عمر الى هذا المقهى . كان سروره بوجوده في هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة .

ان عمر صامت ينظر فيما حوله ، وهو يشم رائحة الماء الرطبة في قادوس عفن . كان ينتظر ما سيقوله عكاشة . ولكن عكاشة يسأله :

ـ قهوة أم شاي ؟

فتردد الصبي ثم أجاب :

ـ شاي ؟

فصاح عكاشة :

ـ واحد قهوة ، وواحد شاي ، يا معلم .

كان صاحب المقهى يعمل وراء بسطة صغيرة ، في ظل تتلألأ فيه أواني الخزف البيضاء ذات الأزهار الزرقاء ، المصفوفة في «الوجاق» فلم يقل شيئاً ، ولكنه سرعان ما أخذ يتناول من بين أدواته ما هو في حاجة اليه .

كان عكاشة جالساً قبالة عمر ، مديراً ظهره للشارع . ولم يكن في المقهى كثير من الناس . . جاء المعلم بالقهوة والشايْ .

ان الجدران المتدخنة الحالكة السواد تلقي في القاعة ظلاً مريحاً . وكان الزبائن الأخر لا يتبادلون إلّا كلمات قليلة من حين الى حين . وبينما كان عمر يحدق الى الازدحام الساطع في الشارع ، تناول قدح الشاي المحرق الذي تطفو على سطحه خصلة من نبات النعناع ، فحمله الى شفتيه ورشف من السائل الذهبي اللون رشفة طويلة .

تنهد عكاشة ، ثم ابتسم وقال :

ـ أنا قلق . . .

فأعاد عمر قدحه الى المنضدة .

وتابع عكاشة يقول :

ـ انني لم أكن هادئاً من قبل ، فكيف هؤلاء الناس يملأون المدينة الآن .

ـ أوه . . . لا خوف منهم ؛

ـ طفل .

وأخذ عكاشة يضحك ، لكنه لم يلبث ان عاد الى عبوسه .

ـ انني لم أكن هادئاً من قبل ، غير انني منذ رأيت هؤلاء الناس أصبحت أحسّ بحمل ثقيل يجثم على كتفي . . .

لم يتكلم عمر ، وقد أزعجه انه أساء فهم مُعنى الكلمات التي قالها صديقه .

وصمت عكاشة أيضاً . وسمعا ، خلال هذه البرهة القصيرة من السكوت ، الكلمات المتباعدة السريعة التي كان يتبادلها جيرانهما من حين الى حين . قال عكاشة :

ـ لقد ازداد قلقي .

وطاف ببصره على الجدران القاتمة ، وتأمل « الوجاق » الذي يشبه أن يكون ضريحاً صغيراً مزيناً يشع بياضه في عتمة المقهى الفقير ، وحدق الى المغلاة العالية الموضوعة عليه ، ونظر الى صاحب المقهى الذي كان قدامه ، ثم تطلع الى عمر فقال له أنه يحس ان شيئاً جديداً قد نبت في نفسه . وسأله :

ـ أأنت مؤمن بالله ؟

فتلعثم الصبي وقال :

ـ أنا . . .

وتفرس في وجه صاحبه ، ثم أضاف :

ـ لا أدري . . .

وكان رجل قصير ذو لحية قوية يجلس على مقربة منهما ، فضحك ضحكة متخفية لم يلبث ان نقلها الى سائر الزبائن ، فالتفت عمر وعكاشة الى وراء بحركة واحدة لينظرا إليه . سأل عكاشة صاحبه :

ـ أصحيح حقاً أنك لا تعرف ؟

قال ذلك وعيناه تتأملان الفراغ . فلم يجب عمر بشيء .
فخفض عكاشة رأسه ، ولبث صامتاً لا يتكلم .
إن الفتى ينظر قلقاً ، من فوق كتف رفيقه ، الى الشارع المليء والضياء والحركة والضجة .
قال عكاشة :
ــ يخيل اليّ أنني أصبحت غير مرتاح الضمير .
قال ذلك بصوت مختنق ، ثم رفع عينيه ينظر الى عمر ، وأضاف بصوت عال :
ــ أوه . . . لست آخذ على نفسي شيئاً بعينه .
ثم دمدم :
ــ وإنما أتكلم بوجه عام .
وتابع يقول :
ــ ليس يكفي المرء بعد الآن أن يكون مؤمناً حتى يرتاح ضميره . طبعاً . . أنا أتمنى لو كان ايماني مصحوباً براحة في ضميري . ولكنني مؤمن وغير مرتاح الضمير .
وفجأة صاح بعنف مكظوم خفق له قلب عمر :
ــ لكأنني لم يبق لي في هذه الحياة شيء أعمله . يميناً ان هذا هو ما أشعر به .
قال ذلك وهو يغرز في عمر نظراته السود المتقدة .
ــ نعم .
أحس عمر بأنه تعيس . وأخذ عكاشة يضحك ضحكاً خافتاً .
ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك ، وغرقا في ذلك الصمت الذي يغرق فيه رواد هذا المكان ، إذ يظلون ساعات طويلة جنباً الى جنب دون ان يتبادلوا كلمة واحدة .

وخرجا بعد قليل . الناس يسيرون في الضوء الأزغب ، وكأن شمس الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمعة . ان عمر لا يزال يفكر في أقوال عكاشة . ان ما لهذا الحائك من حركات هادئة ومزاج معتدل ، على تحفظ ، يبث الطمأنينه في النفس . ان المرء لا يستطيع إلاّ أن يتأثر بهدوء عكاشة ، خاصة اذا كان يعرف ذلك الطبع الغريب الذي يتصف به الأحمر مثلاً . كان عمر يشعر بأن لعكاشة مزاجاً يفيض بالعاطفة حقاً . ومع ذلك لم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك الاضطراب الذي أيقظته فيه أحاديث عكاشة . .

وفيما كانا يسيران انبجس من سيل المارة شيخ ذو وجه عريض متحبب ، يرتدي أسمالاً رثة ، ويتلمس الطريق أمامه بعصا طويلة . انه يقضم أثناء سيره كسرة من الخبز ، ويصيح بصوته القوي من حين الى حين :
ــ حسنة يا اخوان ، حسنة للأعمى المسكين .
ان عينيه الميتتين تحت جفنين احمرين منتفخين تبدوان حانقتين . انك تقرأ آيات شقاء بهيمي على وجهه المتغضن الذي تجتاحه لحية كثيفة قذرة ملطخة باللعاب .

كاد عكاشة يصطدم به دون ان يراه لولا انه تلقى العصا بين ساقيه ، فأخذه عندئذ بيده ، ورده الى طريقه .

وعند «باب بومدين » كان هنالك حشد كبير من الناس يتكسبون . فهذه نساء وبنات صغيرات يمتدحن أرغفة خبز الشعير التي يحملنها للبيع . وهؤلاء رجال من تجار الأمتعة العتيقة قد فرشوا على الأرض أنواعاً لا حصر لها من الأطمار القديمة . وهؤلاء قصاصون قد تحلق حولهم العاطلون ، فهم يحكون لهم بصوتهم الصادر من أسفل الحلق كصوت أهل الجنوب ، سير أبطال الزمان القديم . وهؤلاء باعة متخفون متعجلون خائفون يتسللون بين حشود الناس ، ويغمزون المارة عارضين عليهم سلعاً من السلع التي لا يجوز الاتجار بها : سكر ، صابون ، زيت ، دقيق . . .

ان سوقاً سوداء قد قامت في هذا المكان في أيام التقنين هذه . فوراء هذا العالم الذي يغلي ويفور ، وراء هذا العالم الذي لا يخفي بؤسه ولا يحفل به ، انما كان رجال الشرطة ، الذين ينتمون الى عالم آخر ، الى العالم الذي يهدد ويتوعد ، يسودون ويحكمون ، كآلة لا سبيل اليها وليست أشخاصاً بأعينها .

هكذا تجول عمر وعكاشة في الشوارع خلال فترة من الوقت ثم افترقا .

ـ ٨ ـ

كانوا يأكلون ، فبعض يأكل خبزاً وقليلاً من مصالة اللبن ، وبعض يأكل خبزاً وقليلاً من الزيتون ، وبعض يأكل مع الخبز بطاطس طبخت بكثير من الماء وقطرة من زيت . انهم يمضغون طعامهم صامتين .

وفوق رؤوسهم تتدلى شباك طويلة من شباك العنكبوت وهي تتأرجح متراخية كسلى . وعلى الأرض غطاء أبيض من غبار يرمونه ببصقاتهم من حين الى حين . والغبار نفسه يتشبث بجميع الأشياء سبائخ دقيقة ناعمة ، فهو يغطي أخشاب الأنوال والجدران الخشنة وأسلاك الكهرباء والحبل المنشور من أول المصنع الى آخره .

وانتهى حمدوش من التهام طعامه أول المنتهين ، على عادته في السرعة المهتاجة . حتى اذا مسح فمه بظهر إحدى يديه . اتجه بالكلام الى عكاشة يسأله بلهجة ملتبسة :

ــ قل لي ، هل صحيح انك انخرطت يوماً في السياسة ، ثم عضضت أصابعك ندماً على ما فعلت ؟

ــ السياسة ؟ جميع الناس يعملون في السياسة .

ألقى عكاشة نظرة هادئة على حمدوش دون أن ينقطع عن تحريك فكيه ، فاستاء الأحمر وعاد يقول :

ــ لست أفهم ما تريد أن تقوله . انا مثلاً أهتم بعملي ولا أكترث بشيء عداه .

ــ وأنت تعمل في السياسة أيضاً .

وفي أثناء ذلك انطلق شول يضحك ساخراً من هذه التصريحات التي أدلى بها حمدوش ، ذلك ان حمدوش هو بين سائر العمال أقلهم مواظبة على العمل واستمراراً فيه . كان لا يكاد يعمل في مصنع حتى يهجره الى غيره ، وبذلك طاف المدينة كلها من أقصاها الى أقصاها .

ــ غريب . وهل حين أذهب الى زازا أعمل في السياسة ؟

قال حمدوش ذلك وأخذ يقهقه قهقهة عالية من شدة فرحه بمزحته الموفقة . وزازا هذه مومس من الأحياء الدنيا ، هي أثيرة قلبه .

كان الآخرون صامتين لا يتكلمون وفي أعلى ، من خلال زجاج النافذة العالية ، كانت ترى أطياف مارة يسيرون غارقين في ضوء أغبر . وكانت جلبة الشارع تصل الى الكهف ، غير انها تصل اليه ضعيفة لا تفهم .

ــ المفتش نفناف . . .

قال مصطفى رزاق ذلك ، وانقطع عن الكلام وتمطى طويلاً ، ثم تابع يقول :

ــ المفتش نفناف ، قال لي وهو يخرجني ذات يوم من باب السجن : « ألا تستحي ان تقضي حياتك كلها في السكر ؟ يجب أن تعود الى رشدك » فأجبته بقولي : « لقد ظللت طوال حياتي أعمل فرأيتني بعد ذلك العمل واقفاً حيث أنا لا أتقدم الى أمام خطوة واحدة . لذلك قررت ألاّ أعمل إلاّ من أجل أن أكسب ما أدفعه ثمن الخمر » فقال لي وهو يدفعني الى خارج السجن : « لسوف تفطس من ذلك » ، فوددت لو أجيبه قائلاً : « أنا أسكر فأسلو ، أما أنت ، يا غبي ، فما سبيلك الى السلوان ؟ أهو تعذيبك لأخوتك البشر؟ » .

وأجال مصطفى رزاق نظراته الحالمة في المصنع . ان وجهه طويل نحيل . وأضاف يقول :

ــ ما الفائدة من الحياة ؟ لا فائدة منها . . لذلك أشرب ، وأنا أثناء السكر ، أنسى حماقة البشر .

قال حمزة :

ــ ليس هذا بأكيد .

فلم يجبه الآخر ، ولكنه رفع قبضة يده وهوى بها على أحد الأنوال :

ــ جائز .

قال شول مازحاً :

ــ عدا هذا ، أنت مسرف في حب الشراب .

فتنهد رزاق ، ومال برأسه ذات اليمين وذات الشمال كمن في صدره كلام كثير يطول شرحه .

كان حمدوش جالساً على إحدى درجات السلم ، منزوياً ، عاقداً يديه على ركبتيه ، يصغي

الى الأصوات المبهمة التي تقوم في الشارع الصغير . ان وجهه الجميل المتناسب القسمات يعبر الآن عن استغراق في التفكير. شفتاه ممطوطتان، وقميصه الأزرق ينحسر عن صدره تنتشر عليه شعرات شقر . قال مدمدماً :

ــ هذا كله ليس له كبير قيمة .

ــ زازا وحدها هي التي لها قيمة في رأيك .

قال شول ذلك وتفلطح فمه الذي لا أسنان له ، فتثاءب ، ثم أردف يتق:

ــ أنتما متلازمان . . .

حين سمع الأحمر اسم صاحبته حملقت عيناه. واقترب حمزة من عكاشة فسأله بلهجة الأسرار :

ــ هل سجنت ، أنت ؟

فلم يجبه عكاشة .

صاح حمدوش :

ــ السياسة ، ما السياسة ؟

فارتفع صوت حمزة يهتف :

ــ يا جزائر ، يا جزائر ، أين رجالك ؟ من ذا الذي سيوقظهم من سباتهم ؟ لقد اشتدت كروب الشعب ، لقد اتسعت كروب الشعب .

فصرخ حمدوش صرخة كبيرة انتفض لها المصنع كله ، ثم تظاهر بأنه يبكي بكاء متقطعاً :

ــ هي هي هي. . .

تابع حمزة :

ــ السياسة شيء معقد يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة به . فبعض يقول : يجب اعطاء الأراضي للفلاحين . وبعض يقترح : «اعطونا كل شيء ونحن نوزع على أبناء الشعب بالعدل».

وهكذا ترى ان السياسة تعنى برخاء بني البشر .

قال الأحمر :

ــ طيب. . . ولكن نحن. . . نحن الحائكين ؟

ــ نحن ؟ نحن زبالة .

فألقى حمدوش نظرة احتقار على حمزة ، وأشاح بوجهه عنه . قال مدمدماً :

ــ من حكم عليه بالأشغال الشاقة ، وخاصة من حكم عليه بالأشغال الشاقة منذ قديم ، ليس إلّا حماراً ببردعة .

وكان قوطي الأمين معتزلاً في ركنه من المصنع يتمتم على عادته انه يحرك شفتيه كثيراً ، دون أن يرفع صوته ، كأنما هو يستعرض أفكاره ثم يستعرضها الى غير نهاية .

وحين فرغ عمر من تناول طعامه ، مضى يلتحق بالصبيين الآخرين اللذين ابتعدا الى آخر المصنع ، وجعلا يرشقان شفار القصب في الهواء ثم يستقبلانها على ظهر اليد وهما يتصايحان .

ـ ٩ ـ

قال صاحب المطعم .
أخذ النهار يطول .. وفكر لحظة ثم أضاف :
ـ لقد لقي هتلر من يقف في وجهه في الشرق .
وصمت . ولكنه ، كمن لم يفصح عن كل ما في ذهنه ، استأنف كلامه :
ـ سوف يعلمه الروس كيف يعض التراب ، هذا لا شك فيه . فهزّ عكاشة رأسه هزاً خفيفاً لا يكاد يرى .

كان المعلم واقفاً وراء بسطته المحملة بأطعمة باتئة . وكان عكاشة مستنداً بكوعيه الى احدى الموائد الطويلة في المطعم الفقير ، يتأمل كأس الشاي الموضوع أمامه ، الذي تنقع فيه أوراق الأبسنت ، وقد وضع يده على خده ، وراح ينشق من سيجارته أنفاساً مطردة .

إن عمر يحسّ بهذا الزمان الذي يجري احساساً يشبه أن يكون جسيًا . وكان في المطعم رجل آخر فلاح يدل مظهره على انه حمال وشابان في نحو الثامنة عشرة أو العشرين من عمريهما . عاريا الرأسين يرتديان ملابس الزي الأوروبي . ان الجلبة التي يحدثها زبائن المقهى تختنق في هذا الجو الذي ينضح دهنا ، والذي أصبحت رائحة الطعام الكريهة جزءاً من هوائه ومواثده الخشنة الخربة وأرضه السوداء ومقاعده المهترئة . والقاعة يعوزها النور ، فضوء النهار ينخله زجاج بابها فما يصل اليها الا كابيا . ومن ضجة الشارع لا يبلغها الا اهتزاز خافت .

بعد أن قال المعلم تلك الكلمات رفع مغلاة الشاي التي يضعها دائمًا قرب الموقد وملأ منها قدحاً إلى آخره ، ثم جاء فوضع الشاي أمام الصبي دون أن يقول شيئاً ، ورفض الصبي باقة الابسنت التي مدها اليه ، لأن صدره ينقبض لرائحة هذا النبات ، فما ألح المعلم ..

كان عمر يدرك ان عكاشة قد سر بمجيئه . ان هذا الحائك يجيء الى هذا المكان في جميع أيام الأحد . انه والمعلم صديقان قديمان ، وهما كلاهما يحبان التأمل ويحبان الشاي بالأبسنت .
وفي هذه اللحظة ، انفتح الباب ، فما كان أشد دهشة عمر حين رأى حمزة يدخل ويقبل عليهما مبتسمًا :
ـ هيه .. جئت الحق بالرفاق .
قال حمزة ذلك ودار حول المائدة فجلس قرب عكاشة .
ان كل حديث مع عكاشة أصبح الآن مستحيلاً .
التفت عمر نحو الصالة ، ورصد الشابين اللذين يرتديان ملابس على الزي الأوروبي .

انهما جالسان في وسط المطعم

وكان حمزة يتكلم ، فإذا هو يمسك عن الكلام في منتصف جملته ، ويتمتم قائلاً :

ـ لنمسك عن الهذر .

وسأله عكاشة :

ـ لماذا ؟

ـ لا لشيء .

ولم يقل السجين السابق بعد ذلك شيئاً .

فقال عكاشة دهشاً :

ـ أنحن خائفون إذن ؟ يميناً انه ليكفي ان نتحرك قليلاً ، حتى يوسخوا سراويلهم .

فهز حمزة رأسه .

ـ يلقون اليكم بعظمة ، فاذا انتم تعودون الى الطاعة والرضوخ ، كالكلاب . لقد علموكم كيف تخضعون .

كان يتحدث بثقة هادئة تضفي على كلامه ثقلاً كثقل البداهة .

وابتسم عكاشة ابتسامة مقهورة . وخفض رأسه . قال مدمدماً وقد أخذت يداه ترتعشان :

ـ لقد علمونا ان نخضع . ولكن يجب ألاّ يركنوا الى هذا كثيراً .

فرفع حمزة كتفيه . فرشقه عكاشة بنظرته السوداء ، ثم ألقى على القاعة نظرات سريعة . وظهرت تلك الابتسامة المقهورة مرة أخرى في شفتيه اللتين انعقفتا قليلاً في إدغال لحيته . ان حركاته تنم عن عذاب وغم في نفسه .

دمدم السجين القديم :

ـ إذا كان الناس كما تراهم فليس الذنب في ذلك ذنبهم .

وكان عمر لا يزال يرصد الشابين وقد ثار حب الاطلاع في نفسه .

انهما يجلسان متبخترين ، على كرسيين عتيقين غاص قشهما ، وقد باعدا بين ساقيهما مباعدة كبيرة ، فليس يتفق وضعهما كثيرا مع ما في هذا المكان من شظف . وفجأة أظهرا علامات الانزعاج والتململ . كأنهما هما يدهشان من وجودهما في هذا المكان : ان أحد أصحابهم قد دخل في هذه اللحظة . ولكن هذا ، بعد أن ألقى السلام على الناس بصوت عال : « السلام عليكم » ، وبعد ان سأل ، وهو لا يزال عند الباب ، هل في المطعم حريرة[1] ، مضى يجلس الى مائدة في الركن دون ان يحفل بهما . عرف عمر الشاب الداخل الذي أشار له بيده يحييه . انه جمال طراز ، ابن حقيقي لأسرة من « كبار الأسر » ، فتى يشد ابليس من ذيله .

---

(١) حساء يصنع من الخميرة .

سمع عمر حمزة يقول في هذه اللحظة :

ــ هكذا .

وسقطت نظرة الحائك الشاحبة على الرجل ، فتأمله الرجل خلال بضع ثوان في انتباه ، إلاّ ان فكره كان يطوف في غير ذلك . ان ابتسامة داهية تمحو الآن دمامة وجهه الكثيف . تفرس عكاشة في حمزة من تحت حاجبيه الضخمين . كانت نظرته قاسية ، وكانت ابتسامته قد اختفت .

تابع حمزة يقول :

ــ لا شك ان جماعتنا عبيد ، اذ لا شيء في هذا القيود التي توثقهم يفيدهم ، وهم يتحملونها مع ذلك .

قال هذه الكلمات بصوت خافت لكنه واضح . ولم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك القلق الغريزي الذي أيقظه فيه هذا الرجل ذو الجمجمة المفرطحة .

ــ ١٠ ــ

ثمة شيء في القاعة كان قد تغير . ان عمر يراقب الشابين المختالين اللذين دهنا شعرهما بالزيت . لقد أمر كل منهما لنفسه بسجقتين صغيرتين مع الفلفل الأحمر داخل قطعة من الخبز ، فهما ينشبان في السجق أسنانهما ، ويزدردانه بشهية نهمة ، وما هي إلاّ لحظة حتى أجهزا على الطعام ، فنهضا عن مكانيهما بحركة واحدة دون ان ينبسا بكلمة ، ومضيا يدفعان ثمن ما أكلاه بضع قطع من النقود وضعاها على البسطة الضيقة المزدحمة ببيض مسلوق وأسياخ كبد نيء وسمك مقلي بارد وخبز مقسم قطعاً .

لاحظ عمر في هذه اللحظة ان وجودهما كان ثقيلاً على صدور جميع من كانوا بالمطعم ، فما ان خرجا حتى احسّ الناس ان الهواء قد خفّ .

وحين جاء المعلم الى جمال طراز بحسابه تلبث عنده قليلا وسأله :

ــ مع ليمون ؟

فأجابه جمال طراز :

ــ لا .

قطعة خبز ؟

ــ لا .

فعاد صاحب المطعم الى مكانه وراء بسطته ذات المدخل المقدود فيها . وكان بالجدار وراء البسطة كوة جعلت خزانة ونضدت فيها رفوف ، فوضع المعلم صحناً على أحد الرفوف العالية علو قامته ، وأدار ظهره للقاعة وجعل يأكل .

وأمام مدخل المطعم كان الخادم ، وهو فتى نحيف شديد البياض شاحب الوجه ، كان

واقفاً يهوّي الموقد الموضوع في كوة فوقها مدخنة . ان أسياخ الكبد الملفوفة بشحم الخروف ، المصفوفة على مشواة ، تصدر دخاناً كثيراً يملأ القاعة برائحة حادة من رائحة احتراق الدهن .

وفي هذه الأثناء كان حمزة يتكلم بلهجة واحدة لا يرفعها أبدا .

فبينما كان عكاشة يشعل سيجارة جديدة ، قال السجين القديم بسرعة وهو يلعب بلحيته ذات الشعر المتقلب :

ــ يتفق لي احياناً كثيرة ان أتساءل عن أنفسنا ما نحن ؟ نعم ؟ ما نحن ؟ هل لك أن تقول لي ما نحن يا صاحبي ؟

فقال عكاشة ساهماً :

ــ ما نحن ؟

وألقى عليه محدثه نظرة ماكرة ، وقال :

ــ نعم ، ما نحن .. هل تستطيع أن تقول لي ما نحن ؟

ــ الأمر بسيط كل البساطة . اننا لا نعرف ما نحن . ولعلنا في هذا العالم المخلوقات الوحيدة التي لا تعرف ما هي ، ولا الى أين هي سائرة . لو سألت أية بهيمة ، لعرفت كيف تفهمك ما تريده ، أما نحن..

وقبل ان ينهي الرجل جملته ارتفع صوت السجين القديم يسأل :

ــ أيها الانسان ، من أنت ؟

كان لا يزال يملس ثم يخلط كث لحيته بأصابعه الضخمة الثقيلة القصيرة وكان قد خلع طربوشه الأحمر ووضعه على المقعد قربه . وظلّ يعذب لحيته مدة طويلة على هذا النحو ، ودمدم أخيراً يقول :

ــ أين أنتم يا رجال الحق ؟

قال عكاشة وهو يحرك أصابعه نافذ الصبر :

ــ فلننظر في هذا الأمر.

ــ يظهر انك اختفيت من المدينة منذ بضعة أعوام لأنك نظرت في بعض الأمور عن كثب .

فهزّ عكاشة كتفيه .

قال حمزة :

ــ في رأيك ، ما الذي يحدث اذن في بلادنا ؟

ولكنه في هذه اللحظة نفسها نسي سؤاله وهمس في إذن عكاشة :

ــ أنظر الى ما يجري في القاعة...

فاستدار عمر على مقعده في رفق ينظر هو أيضاً . كان الصبي الذي يعمل «مساعداً» للطباخ يثرثر مع الزبون الذي تدل هيئته على انه حمال . قال له :

ــ ائتنا بما تساوي قيمته ثلاثة «دوروات» أيضا .

كان هذا الرجل ، الذي لا يراه عمر الا من ظهره ، يقحط بملعقته في عناية طبق القصدير الذي يأكل منه ، ثم تناول الطاسة بين جوفي يديه ، وشرب السؤر الذي كان فيها ، ولم يلق على مساعد الطباخ من فوق كتفيه ، نظرة ضاحكة الا بعد ان فرغ من ذلك كله .

وصاح المعلم يقول ، وقد أختبأ نصفه وراء البسطة :

ــ ائتنا أيضاً بما تساوي قيمته ثلاثة «دوروات» فنقتسمه بحيث يصيب كل منا ما قيمته «دورو» واحد .

فضحك الزبون ضحكة خالصة ، وكان قد فرغ من طعامه ونهض ، فقال :

ــ إذن تريدون مزيداً ؟ بثلاثة «دوروات»؟

وعاد يضحك دون ان يتخلى مع ذلك عن شيء من التحفظ . واتضح حين قام انه رجل طويل القامة جداً ، وانه كذلك ذو أنف أقنى ، وان وجهه وجه طفل . كان يمط رقبته ويضحك في سذاجة .

ــ نعم ، وسنقتسمه فيكون لكل واحد ما قيمته «دورو».

قال المعلم ذلك ، ثم لم يستطع ان يحبس ضحكه ، فأخذ يقهقه قهقهة مختنقة وفي صوته دموع . وأخذ الصبي يضحك أمام موقده بصوت حاد ، وجعل الرجل الذي تشبه هيئته هيئة الحمالين ـ أتراه كان حمالاً ؟ ـ يضحك كذلك بصوت ثخين . وكانت ضحكتهم جميعاً ضحكة رضا وتواطؤ .

نظر حمزة الى عكاشة ثم نظر الى عمر ، وقال وهو يبتسم أيضاً :

ــ ما أكثر ما يبدو في هؤلاء الناس من تفاهم وسرور ! فهل تظن انهم في سلام مع أنفسهم ؟ من ذا الذي يستطيع ان يعرف شيئا عما يختفي وراء هذا السلام الظاهر ؟

ان عمر يريد في هذه اللحظة ان يخرج . نظر الى الشارع من خلال الزجاج . لا خوف ان تهطل الأمطار قبل هبوط الليل . لقد انقضى من الأصيل شطر كبير . ان عمر لا يستطيع ان يتنفس ، كان الهواء لا يدخل رئتيه .

صف الحمّال على البسطة عدة قطع من النقود ، وهو يغضن عينيه في مكر . فنهض المعلم ممتلىء الفم بالطعام ، فلمَّ قطع النقد ثم رد واحدة منها الى يد الزبون .

قال الزبون :

ــ ماذا ؟ هل أعطيتك زيادة ؟

وتقلصت جوزة عنقه ، الناتئة ، الضخمة ، وسمعت ضحكته الخارجة من الجوف ، مرة أخرى .

قال له صاحب المطعم من خلال الطعام الذي يربك فمه :

ــ بل احتفظ بهذه ، لتشرب بها قهوة على حسابي .

وضحك وهو يحاول ان يحبس الطعام الذي في فمه .

فلما اجتاز الزبون باب المطعم ، صاح المعلم يقول له مرة أخرى :

ــ سنقتسم ، لكل واحد «دورو» .

واستطاع أخيراً ان يضحك من كل قلبه ، بعد ان بلغ ما كان في فمه .

انتهز عمر هذه الفرصة ، فترك الحائكين ، هو الآن في الشارع ، وحيد ، حر . لكأن الهواء قد غفا ، فهو ناعم هادىء ، والمدينة تستريح في ضياء قاتم عجيب .

ــ ١١ ــ

غمامات رقيقة تدفعتها ريح الصباح ، تجري في السماء الزرقاء الشاحبة جرياً سريعاً . أحسّ عمر انه خفيف ، كريشة . فلما وصل الى الكهف علم ان زبيش مات . لقد ذهب بمرض التيفوس برفيق عمله في المصنع . صعق عمر . ان زبيش قد انقطع عن المجيء منذ أيام ، فلم يكترث احد لغيابه . وكان عمر لا يؤمن بالموت ، مع أنه شيع عدداً من الناس الى مثواهم الأخير . . عدداً أكبر من أن يحصيه . أما ان يحدث ذلك على مقربة منه ، فهذا ما يدهشه كل الدهشة . انه لا يفهمه . وتراءت له قامة زبيش النحيلة تنهض أمام عينيه . رأى الوجه الصغير الشاحب الذي يغضنه التكشير ، وخيل اليه انه يسمع مرة أخرى تلك الحكايات الفظيعة التي كان يقصها هذا الصبي الأشوه . تذكر كيف كان الفتى يخيف نفسه بنفسه ، كيف كان ينظر الى ما حوله في اشتباه ، ويخفض صوته ، ويضع أصبعه على فمه قائلاً : هس .

كان يهمس باللفظ ، فكأن كلامه آت من بعيد ، من الضفة الأخرى ، من العالم الآخر . . لكأن كلامه صدى غائم لعالم يختبىء وراء ستار عميق .

قال شول :

ــ . . . نعم . . . ألم يكن موته خيراً له ؟ لقد ارتاح .

خرج عمر فجأة من أحلامه ، انطفأ في سمعه الصوت الصغير ، صوت الصبي الذي مات :

ودمدم الأمين يقول :

ــ ولدوه ، فعاش ، ولعب ، وتحرك في الحياة ما شاء له هواه أن يتحرك ، ثم ماذا ، ها هو ذا قد مات . . وكأنه لم يكن .

ــ يا أيها الناس الذين لا تحفلون إلّا بهذه الحياة الدنيا ، ما عساكم فاعلين بين يدي الله ؟ . . يا ويلكم من الله !

قال دلو :

ــ الشقاء ؟ خلقنا له وخلق لنا !

فحرّك الأمين شفتيه يريد أن يجيبه ، واهتز شعر شاربه ولحيته ، إلّا أنه لم ينطق بحرف .
قال باصقالي محتجا على هذا الحديث ، وفي عينيه ذعر شيخوخة خائفة :
ــ مات ، الله يرحمه . ما لنا ولتكرار هذا الحديث في غير انقطاع !
تذكر عمر الجدة وبنت العم الصغيرة . إذن لقد مضى الصبي الفكه يدركها في عالم الأموات . لا حيلة للمرء في ردّ هذا القضاء . انقبض قلب عمر .
وبعد بضع لحظات جاء ماحي بوعنان ، وقد أبلغ النبأ ، جاء الى المصنع من أجل ان يصحبه عمر الى منزل أم زبيش .
فما رأى عمر البيت من بعيد حتى أصاخ بسمعه ، ان ولولات حادة ترتفع عند آخر الشارع الضيق . والصوت ينتقل من الألم الى الدهشة ، ومن الدهشة الى أقوى تعبير عن اليأس . وفجأة توقف الصياح ، وخيم الصمت .
دخل الصبي ليبلغ أهل البيت ان المعلم جاء . ولبث بوعنان ينتظر أمام الباب . ولكن ما أن وضع الفتى قدميه في البيت حتى استقبله ولولات جديدة . هي بكاء لا سبيل الى حبسه ، بكاء بصوت أبح لم يلبث عمر ان عرف فيه صوت عائشة . أم زبيش . اشتدت رهبة الصبي .
كانت عائشة جالسة وسط عدد من النساء تحلقن في الفناء تحت الرواق ، وقد أخذت تلطم صدرها وذراعيها ووجهها وهي تنتحب . كانت الدموع تسيل على خديها المخدشين ، وعيناها السوداوان ترسلان نظرات كنظرات بهيمة مروعة ، والزبد يرغي على حواف شفتيها . ظلّ عمر ينظر اليها ناسياً المهمة التي جاء من أجلها ، وينظر الى هؤلاء النساء اللاتي يبكين معها . ولكن عائشة عرفته ، فتأملته لحظة وهي ترتعش ارتعاشاً شديداً ، وقد أفلتت غدائر شعرها من المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيراً أن يقترب ، فمضى اليها متسللا بين جمهرة النساء وهمس في أذنها ان المعلم واقف على الباب يريد أن يراها . فنهضت على الفور وردت غدائرها الى ما تحت المنديل الذي كان يحبسها . وأشارت له أخيراً ان يقترب ، فمضت والنساء تثرثر .
فلما عادت يتبعها ماحي بوعنان وعمر طلبت الى النساء ان يختبئن . فهرعن جميعاً الى الغرف المجاورة ، إلّا العجائز منهن ، فقد اكتفين باسدال الحجاب على وجوههن ولبثن في أماكنهن . دخل الرجل والصبي وعائشة الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، التي يتمدد في وسطها كفن مسجى لاح للصبي طويلاً مفرطاً في الطول ، فتحير الصبي ودهش . لكأن الموت قد مط ذلك الصبي الصغير فجعل منه الرجل الذي لن يكونه .
جثا ماحي بوعنان على كعبيه أمام جثمان الميت صامتا ، وأخذت شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هي إلّا لحظة حتى أخذت الدموع تتساقط من عينيه . وكانت الأم واقفة تراقبه وقد شبكت يديها على بطنها ، وجف وجهها وجفت عيناها . واقتربت النساء ترصد المشهد من عتبة الباب . فقام بوعنان في عناء وهو يتنفس تنفساً قصيراً ، فهربت النساء مرة أخرى مروعات . وفي هذه

اللحظة رأى الصبي المعلم يضع في يد عائشة شيئا ما ، فإذابالمرأة القصيرة الرثة تأخذ تكيل له الشكر في اضطراب ومذلة ، ثم اذا هي تنفجر باكية متنحية على حين فجأة .

وخرج ماحي بوعنان وعمر ، وعادت ولولات الحداد .

قال بوعنان بصوت خافت في الشارع :

ــ مات . . . طيب . . . ماذا نعمل ؟

لبث عمر بضعة أيام في حالة من الاضطراب . كان يذهب ويجيء ويقوم بألف عمل وعمل ويجري في الشوارع الغارقة في جو الربيع ، وهو شارد اللب ذاهل . ومع ذلك كان شعور غامض بالسعادة يغزو قلبه على غير علم منه ، ويوقظ فيه أصداء خفية عذبة لا يدرك الصبي كنهها ولا يستطيع الافصاح عنها .

غير ان الجو لم يلبث ان اجتاحه البرد على خلاف كل ما كان ينتظر وعادت تغطي سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقلاً . وأخذت تهطل أمطاراً رقيقة بغير انقطاع فتلف بغلالتها المباني والخضرة التي بدأت تنبت على أغصان الأشجار ، وأطياف المارة . ان جداول صغيرة تتواثب على أرض الشارع ، ثم تجري مسرعة الى أفواه البلاليع . . وعادت المدينة تغرق في أفكارها السود . وكثر جمهور المتسولين كثرة لا عهد بمثلها من قبل .

هذه الوجوه المغلقة ، هذه الأعين التي لا تنظر الى أحد ، أتراها تعلن عن قيام عهد جديد ؟ هؤلاء الشياطين الذين يعتقد جميع الناس أنهم لا عقل لهم ، أتراهم يعلمون من الأمر ما لا يعلمه غيرهم ؟

لقد عيل صبر السكان ، فأصبحوا يتجاهلون وجود هؤلاء المتسولين ، ولا يكترثون بهم . وكأن عودة الصحو ، قد أبعدت تلك التهديدات الخفية التي أثقلت المدينة في لحظة من اللحظات ، غير ان رجال الشرطة أصبحوا الآن يرابطون في كل ركن من أركان الشوارع .

وفي الكهف لم ينس الناس زبيش فوراً ، فمن حين الى حين يروي احد الحائكين فكاهة من فكاهاته ، أو يقلد مشيته ، او يتذكر حكاية من حكاياته ، ثم يأخذ يشتم الصبي على سبيل المزاح ، كأن الصبي لا يزال في الكهف يسمعه . وقد أحل محل زبيش في العمل بالمصنع فتى من الضواحي ثقيل بدين .

ــ ١٢ ــ

حين عادا الى هذا المقهى مرة ثانية ، ما ان جلسا في احدى الموائد حتى سمعا صوتا ضخما أبح يصل اليهما من خارج :

ــ يا الله ، ساعدني يا رب ، أصبحت لا احتمل الحياة . لماذا تنسى عبدك يا رب ؟ اقبض

اليك هذه الروح التي هي ملكك.

ثم رأيا رجلا رث الثياب مغبرا ، هرما ، مستندا بذراعه الى طفل يتهافت على الأرض عند مدخل المقهى ، ويضع عصا بين ركبتيه المرفوعتين . انه يميل برأسه على صدره كأنه مكسور العنق ، ويلبث على هذا الوضع لا يتحرك ، حتى لكأنه يغفو ، غير ان يده الضخمة ذات الأظفار الطويلة لا تدع قبضة الصبي النحيلة ، تتشبث بها تشبث اليائس .

فلما رأى احد زبائن المقهى هذا المنظر ، نهض واقفاً بين الموائد ، ودفع شاشيته الحمراء الفاقعة ، وصاح بالمتسولين قائلاً :

ــ أأنتما آتيان من الريف ، فسؤاله اذن من نوع الأسئلة التي لا جدوى فيها ، ولكنها تطرح دائما .

دمدم الشيخ الهرم يقول وهو يرفع رأسه في مشقة :

ــ نعم ايها المحسن .

واضطربت شفته السفلى وتركت لمجاجة من لعابه ان تقطر من فمه . ونظر المتسول طويلاً الى جميع الناس من مكانه ذاك .

سأله الرجل :

ــ هل في الريف مجاعة ؟

وكأن الطفل قد تدحرج على الشيخ تدحرج الكرة .

قال الشيخ في مثل رجع الصدى :

ــ مجاعة ؟

ثم شخر شخرة غريبة مزعجة . فاستدار عكاشة في هذه اللحظة مع كرسيه نحو الباب ، ونظر الى الشيخ . كان الشيخ ذاهلاً ، مبهم العينين ، متجمد القسمات .

وقال أخيراً بصوته الأصم الثقيل :

ــ حتى عصافير ربنا تموت جوعاً هناك .

ــ العصافير ؟ آه . آه . آه اذن لم يبق على الأشجار ثمار ولا بقيت بذور برية . اتيتم انتم على كل شيء ؟

وفغر الزبون فمه الواسع ، وانطلق في ضحكة صاخبة . ان قوة ظافرة تخرج من شخصه . وأسنانه البيضاء تلتمع في وجهه العريض الذي عني بحلق شعره عدا شاربيه الكبيرين المشدودين .

ــ من أجل الأكل انتم أقوياء . . آه ، آه ، آه ، أما من أجل العمل فتلك حكاية أخرى . هل يمكن ان تنال المجاعة من انسان يعمل ؟ انتم أناس تؤثرون ان تستعطفوا على ان تبذلوا شيئاً من جهد .

وانطلقت تلك الضحكة نفسها مرة أخرى تهزّ صدره الذي يشبه أن يكون صدر هرقل .

فخاف الشيخ الهرم خوفاً ما كان لسوط يقرقع فوق رأسه أن يبعثه في نفسه .

ــ آه . . . أيها المخسن . . .

فهزّ الرجل رأسه وقال :

ــ الأرض لا بد أن تنتج دائماً . إلاّ أن تكون الأيدي التي تعمل فيها خبيثة . . وعندكم قد خبثت الأيدي وخبثت القلوب جميعاً . . ان المرء يستطيع ان يستنبت الصخر نفسه اذا أراد .

كان الصبي لاطياً بالشيخ يتفرس في الرجل في عنف موجع . وصمت المتسول كالأخرس ولم ينطق بحرف .

عندئذ اتجه الرجل اليه ووضع في يده صدقة . فأخذ المتسول يدعو له بصوته الغليظ الخشن ، ونهض وهو يئن جاراً الصبي من يده . ولكنه قبل ان يقف على قدميه تماماً ترنح وأوشك ان يسقط . ذلك ان الصبي وقع على الأرض ، وهم أن يوقع معه الشيخ .

عاد الزبون فجلس في مكانه ، وأخذ يتحدث مع رفيقيه في همة وحرارة .

نهض الصبي في عناء . ومضى هو والشيخ في الشارع الذي يقابل المقهى . غير أن نوبة من سعال طويل استبدت بالشيخ فتوقفا مضطرين ، ثم سمع صوت الشيخ وهو يقول للصبي مؤنباً :

ــ ان لم تقف على ساقيك تركتك هنا .

وغابا بين الناس ، غير ان صوت الشيخ ظل يسمع متكسراً وهو ينادي في بعيد :

ــ يا اخوان ، يا مؤمنون . . .

ظلّ عكاشة صامتاً طوال ذلك المشهد . ثم عاد الى وضعه الأول أمام عمر دون ان يقول كلمة واحدة ، واستند بكوعيه الى المائدة .

لبث ساكناً لا يخرج عن صمته . أخذ عمر يشتبه في النية التي كان يبيتها الحائك حين قاده الى هذا المكان ، الى هذا المقهى . كان قد أدرك ان عكاشة ينتظر منه أمراً من الأمور . فما هو هذا الأمر ؟ أيقين أم عزاء ؟ أتشجيع أم التجاء ؟ لم يستطع عمر ان يعرف ذلك . ولعل عكاشة نفسه لم يكن يعرف . غير ان عمر أدرك انتظاره هذا إدراكاً واضحاً . فلما خطر بباله ذلك ، استولى عليه غضب أخفاه . ونظر الى عكاشة ، ولكن عكاشة كان خافض الرأس .

ما الذي حدث ؟ لماذا يحس بحلقه جافاً هذا الجفاف ؟

اتضح الآن كل شيء : كان عكاشة يريد ان ينقل اليه ما به من كرب . لعله كان يلاحظ هو نفسه ذلك ، غير ان عمر على يقين من هذا .

وفي هذه اللحظة رفع عكاشة رأسه ، فإذا بالصبي يشعر بقلق مفاجىء . بدا له ان صديقه قد اتخذ قراراً خطيراً ، فان في وجهه كثيراً من الجد .

قال عكاشة :

ـ هل تذهب ؟

فتحير الصبي لا يعرف ما الذي يجب ان يعمله أو يقوله . ونهض عكاشة نهوض من يمتثل لأمر صدر اليه ، فتناول من جيب سترته بعض النقود فتركها على المنضدة ، وترك الرفيقان المقهى الصغير المظلم الهادىء .

فما أصبح عمر في خارج ، حتى أحسّ بقلقه يذوب ، ثم لم يبق في نفسه من ذلك كله إلّا شيء من ارتباك في قرارة أفكاره .

ـ ١٣ ـ

كذلك أخذ عكاشة يتكلم عن السفر . قال : سيترك هذه المدينة ، وسيترك الناس كلهم ، حتى أسرته . نعم سيمضي . . . وأخذ عمر يفكر . لقد كان يتوقع قراراً من هذا النوع . ولكن ، ما هو في هذا كله ؟

فهم أخيراً لماذا كان عكاشة لا يأخذ مأخذ التقدير والاعتبار ، شأن سائر العمال . كان عكاشة لا يتحدث عن عمله خارج المصنع . هذا العمل الذي يستنفد أكبر شطر من حياته ، كان ينساه متى خرج من المصنع . ذلك انه وسائر العمال ، كانوا يتطلعون الى شيء آخر ، ويؤملون شيئاً آخر . ما الذي يتطلعون اليه ، ما الذي يؤملونه ؟ لا شك انهم لا يعرفون عن ذلك شيئاً . ولكنهم يتطلعون ويؤملون . اما عكاشة فقد تطلع وأمل : تطلع الى السفر وأمل السفر . أتراه كان بذلك يريد ان ينسى ظروفه أم كان يريد ان يتحرر منها ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار لعمله ، ولنفسه ، ولرفاقه ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار ؟ الاحتقار والشعور بالعار ؟ لطالما سمع عمر هذه الكلمات تتردد في الكهف :

« نحن لا قيمة لنا ، لا تتعبوا أنفسكم في المناقشة . نحن لا قيمة لنا » .

وكثيراً ما كان هذا أو ذاك من العمال يضيف إلى ذلك الكلام قوله :

« هكذا خلقنا الله . . ولا حيلة لنا في الأمر » .

وكان زملاؤه الحائكون ، رغم ما بينهم من فرق في السن والمزاج والآراء ، يتشابهون في هذه النقطة : انهم يتحدثون عن أنفسهم دائماً في اشمئزاز . وكان عمر يفكر في هذا بحزن ومرارة . لعله أخطأ في انه لم يفهم اشمئزازهم . أتراهم قادرين ، بالتلمس بعد التلمس ، على ان يجدوا لأنفسهم مخرجاً ؟ . . وعملهم ؟ فيم كان يفيدهم عملهم إذن ؟ لماذا يقومون به ما داموا يحتقرونه ؟

وفي أثناء ذلك لم يطرأ على سلوك عكاشة أي تغير . لا يزال هادئاً ذلك الهدوء نفسه ، صامتاً ذلك الصمت نفسه . وكانا إذا التقيا في المطعم ، ظلّ عكاشة جالساً لا يتحرك ، ولا يبالي

شيئاً ، ولبث ينظر الى أمام بانتباه لا يضعف ، بينما الوقت يمضي . كان يظل على هذه الحال مدة طويلة لا يتحول عن النقطة التي اختار ان ينظر اليها من الفضاء . ثم إذا هو ينهض ، دون ان ينبس بكلمة واحدة ، وينظر الى عمر ، فينهض هو الآخر ، ويسيران في الشوارع التي تدحرج سيل المارة والعربات المتدفق فيها ، وتحملها في رفق ، في رفق شديد ، الى حيث لا يعرفان ، وعكاشة غارق في تفكيره ، مصيخ بسمعه ، كأن المدينة تهمس في اذنه بشيء . .

وكان الحائك يزداد انطواء على نفسه يوماً بعد يوم . وسأله عمر ذات مرة :

ــ ستسافر . . . وبعد ؟

ولكن عكاشة أجابه :

ــ يجب أن يولي البشر ما يستحقونه من احترام . لماذا صار العالم الى ما صار اليه ، لماذا صار العالم شيئاً لا يشتهي المرء ان يلقي عليه نظرة ؟ لفقدان الاحترام . ان الذين يحترمون اخوتهم بني الانسان ، لا وجود لهم اليوم على هذه الأرض . كيف ينظر الينا الأوربيون مثلاً ؟ وكيف ينظر ماحي بوعنان الى غيره من الناس ؟ الأوربيون ينظرون اليه على انه « العربي » اي الانسان الذي ليس له مثل أعلى ، الانسان المتمرغ في الجهل والاهمال والاستسلام ، الانسان الذي لن يتبدل مهما بذل من جهود من أجل ان ينظف نفسه من الوحل ، الخ . . . وماحي بوعنان ينظر الينا على أننا جياع ليس لنا مثل أعلى ، على أننا أقرب الى البهيمة منا الى الانسان ، على اننا أناس كسالى نريد ان نعيش من دون ان نعمل ، الخ . .

ــ أنت تكره جميع الناس .

ــ جميع الناس ؟

وفكر عكاشة لحظة ثم أضاف :

ــ ربما . .

ــ ذلك بعينه هو ما يحز في النفس .

شد عكاشة قبضة يده ، ولوح بها لشاهد خفي لا يرى .

في ذلك الصباح اشتد صياح الأحمر وصراخه ، وجاء بعد لحظة الى عمر فتفرس فيه من أخمص القدمين الى قمة الرأس ، ثم خلط الخيطان التي أنفق الصبي ساعات طويلة في تكبيبها ، فلم ينطق الصبي بكلمة ، وعاد يصلح ما أفسده الأحمر من عمله . وكان الحائكون الآخرون يعملون صامتين . ان هناك شيئاً يعذب حمدوش تعذيباً خاصاً في هذه الأيام : لقد أصبح لغزاً من الألغاز دون ما سبب ظاهر ، فهو يجتنب الناس ، ولا ينظر الى أحد مواجهة ، ثم إذا هو يثور على حين فجأة . ان هناك عداوة لا سبيل الى فهمها تثيره على جميع الناس ، حتى ليحس المرء انه لا يتورع عن ارتكاب أي عنف . كان يغضب ، ويشتم ، ثم اذا هو يهدأ دفعة واحدة .

فلما فرغ عمر من اصلاح ما أفسده الأحمر من عمله ، مضى يجيء بشلل أخرى من شلل الصوف المنشورة في الخارج لتجف . أن رأسه يطن طنيناً موجعاً . انه جائع .

طافت في ذهنه خواطر كره وبغض نحو الأحمر . وقال في نفسه . على غرار عكاشة : « يجب ان أذهب ».

وتساءل بعد لحظة . « ولكن إلى أين ؟ ومن أجل ان انتهي الى ماذا ؟ . . ».

فلما عاد متقلاً بكبب الصوف ، انبجس حمدوش وراءه ، وهمس في عنقه يناديه :

ــ عمر . . .

فأدار الصبي رأسه . ان في عيني الأحمر تعبيراً لم يره الصبي فيهما قبل الآن .

ــ اضربني يا عمر .

قال حمدوش ذلك وهو يقدم للصبي ظهره ، وعاد يردد بصوت خافت :

ــ اضربني ، اضربني .

فلما رأى عمر لا يتحرك ، مضى الى نوله وهو يقول :

ــ أنا سأمان .

ان الناس لا يعيشون الحياة التي يجب ان يعيشوها ، لكأن سناجاً أسود قد وضع في قلوبهم .

ــ ١٤ ــ

إن صداقة ملتبسة مترصدة قد نشأت بين حمدوش وعمر . لقد حاول عمر ان يفهم الأحمر . ولكن محاولاته سرعان ما أخفقت ، فان الأحمر قد أساء استقبالها . كان حمدوش يثور فجأة ، وتظهر عليه علائم الاهتياج . ذلك ان ما حدث في يوم الأحد التالي ، حين مرّ عمر بالمصنع متعطلاً ، فوجده فيه ، فإذا بالأحمر يكيل له سيلاً من التقريع ، قال له :

ــ أنت تهتم بأمري آملا ان تدلني على طريق الخير ، أو ان تكتشف منه شيئاً في نفسي . هذا منك اسراف في طيبة القلب . ولكنك تضيع وقتك سدى ، صدقني .

وكان في لهجة هذه الكلمات ما جعل عمر ينظر اليه دهشاً . قال له :

ــ ما يحملك على هذا الظن ؟

فأجابه حمدوش مستاء :

ــ ما هو بالظن ، هو الواقع أراه فيسوق ني ، هذا كل شيء . .

قال حمدوش هذه الكلمات « هذا كل شيء » بصوت قاس أدرك فيه عمر عداوة مبيتة . . فلم يقل الصبي شيئاً . وما عساه يقول ؟

وظل حمدوش يصب عليه غضبه . فتركه عمر بعد لحظة ، تركه يحضن سخطه في الكهف وحيداً . وفيما كان يخرج سمعه يقول هذه الكلمات :

ــ امض ، فلست خيراً من غيرك .

وبعد الظهر تحاشى عمر ان يمرّ بالمصنع مرة أخرى ، وآثر ان يتجول في الشوارع . المدينة متجهمة رغم ان الجو دافىء . ان أول أوراق الأشجار تخرج رؤوسها من البراعم خجلى شاحبة .

ففيما هو في ركن احد الشوارع إذ هو يجد نفسه فجأة أمام ذلك الرجل الذي كان في تلك اللحظة لا يريد أن يلقاه . كان حمدوش مقبلاً وهو خافض رأسه ، يدوس غبار الأرض بقدميه في ضجر واشمئزاز . فلما لمح عمر ، توقف عن السير فوراً ، ومال برأسه الى جانب ، وشزر فمه ، وتفرس في الصبي وهو مغمض عينه اليمنى نصف اغماض :

ــ إلى أين أنت ذاهب هكذا ؟

ــ لا أدري . وأنت ؟ قد أذهب أنا الى عكاشة في المطعم ، ولكن .

ــ دعك من « ولكن » هذه . سأذهب اليه معك . هناك ما أحب ان أقصه عليه .

كان عمر لا يضمر عداوة لحمدوش ، وإنما كانت تسوؤه نزواته العنيفة . ان هذا الشيطان الأحمر الذي يحنق كل واحد من الناس ، ويهين كل واحد من الناس ، كان يبدو عليه ان نفسه تنوء بحمل ثقيل لا يرى .

أذعن الصبي ومشى دون أن يقول كلمة ، وكذلك فعل حمدوش سائراً سير عمر .

فكان يتعمد في أثناء الطريق أن يدوس على أكوام من الصوالة أو على برك من الماء ناقعة ، كما كان يزعج النساء اللاتي يمرون قربه بكلمات ملتبسة . فلما وصلا الى باب المطعم رفع عمر عينيه ونظر اليه . فدفع حمدوش الباب الأخضر ذا المربعات الصغيرة دفعة مستعجل ، واجتاز العتبة ، فما ان خطا خطوة حتى اصطدم بصاحب المطعم الذي كان يجتاز القاعة المعتمة في استرخاء ، وأخذ يشتم ، ودسّ في يده مع ذلك قطعة من النقد وأمره في نزق قائلاً :

ــ هيىء لنا شاياً ، وأرسل من يجيئنا بفطائر .

وقد دخل عمر وراءه ، فلمح عكاشة جالساً على طرف مقعد في أحد الأركان ، مسنداً كتفه الى الجدار . لم يكن بالمطعم كله أحد غيره . وكان على المائدة كأس من الشاي فرغ نصفها ، وعلبة زرقاء من سجائر باستوس .

فلما رآهما نشق من سيجارته نفساً طويلاً ، ورد رأسه قليلاً الى وراء ، ثم أخرج الدخان نافذاً من منخريه . وبيده القابضة على السيجارة لوّح لهما بإشارة مودة لا تكاد ترى . فخلع حمدوش سترته ، ورماها على أحد المقاعد ، ثم جلس الى المائدة التي يجلس عليها عكاشة ، دون ان يدعوه عكاشة الى الجلوس ، ورفع ذراعه فلطم بقبضة يده صدره عدة مرات وهو يقول :

ــ ها قد جئت اليك يا عكاشة . هذا أنا ، أنا نفسي . ألأنا شقي ؟ هه . انني لأعرف ذلك حق المعرفة . ما أنا إلاّ أقذار تداس بالأقدام . ما الذي أسعى اليه في هذا العالم ؟ الى أين أنا ذاهب ؟ لقد فسد قلبي .

قال حمدوش ذلك ، وازداد وجهه شحوباً . كزّ عمر فكيه . ومضى حمدوش يطلق آهات

مختنقة ثم صمت . ظل وجه عكاشة موصداً لا يدل على شيء . انه واضع كوعيه على المنضدة ، ومسند ذقنه الى يديه الضخمتين . كان ينظر في عيني الأحمر ، وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه المتلألئة بابتسامة مبهمة .

سأله حمدوش بصوت مضطرب :

ــ ما بك ؟

ــ لا شك انك قارفت ذنباً من الذنوب حتى أصبحت على ما أنت عليه من حنق .

لم يجب الأحمر بشيء. ناداه عكاشة :

ــ حمدوش .

فانتفض حمدوش ، واكتسى وجهه هيئة المحاصر . قال له عكاشة مدمدماً :

ــ أنت طيب القلب يا حمدوش ، أعرف هذا .

فصاح حمدوش وهو زائغ البصر .

ــ طيب القلب !

ثم نهض كالمعتوه ، وأخذ يصيح بصوت عال :

ــ اسمعوا يا مخلوقات الله . . ان قلبي يحب كل ما هو خير ونبل !

قال ذلك وشخر عدة مرات . ثم لم يلبث ان همس يقول في تدفق بصوت جاف :

ــ ولكن انتظر أيها الأخ . . انتظر أن تعرف ما فعلته اليوم !

فحدق اليه عمر يرى ما يلوح في وجهه من تصعر مضطرب . ولكن حمدوش تابع يقول :

ــ في هذا الصباح ، في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، ذهبت الى ماحي بوعنان أطالبه ببضعة قروش . فرأيت عند هذا الخنزير شريكه المفتش نفناف . فما ان أبصر بي نفناف حتى رفع سبابته الى أنفه وباعد عينيه ، وتفضل ففتح فمه وقال :

ــ « أنتم جميعاً هنالك ، سكيرون ولصوص وما لا يعرفه أحد الا الشيطان . . . أفضل شيء هو أن يوضع قطيعكم هذا الجربان في السجن . ان صديقي ـ وأشار بابهامه الى ماحي بوعنان ـ ان صديقي هذا الذي تراه ، يحتمل منكم ما لا يحتمل ، فهو رجل ذو فضل . ثم انك أنت ، عدا ذلك بهيمة من البهائم » . .

« نعتني بهذا النعت اللطيف ، وأمسك بي من ياقة السترة وهزّني هزّاً . ثم غضن جبينه . فأحسست عندئذ ان الأمور سوف تجري على غير ما يرام .

« ــ قل لي ، ان بينكم رجلا تافهاً حقيراً اسمه عكاشة . . . عكاشة ابن مراح . . . هه . . أليس كذلك ؟

« وفكر قليلاً ثم نظر الي على حين فجاة نظرة شزراء وهو يسأل :

« ــ ماذا يقول هذا الرجل ؟ تكلم . يقول « اننا لن نحصل على شيء ولن تتبدل أحوالنا ما لم نقلب الأمور عاليها سافلها . يجب ان نغير الوضع الذي نحن فيه . . » .

« ذلك ما يقوله هذا الرجل ».

ـــ ماذا ؟

ورشقني بنظرة كالسهم .

« ـــ أن نغير الوضع الذي نحن فيه . . . ماذا ؟

« ـــ آ . . . لا أدري . . . انه لم يقل هذا الكلام ».

كان عكاشة مغمضاً عينيه لا يتحرك . وسيجارته ملتصقة بشفتيه لا تتقد . غير انه لم يلبث ان مصها فخرج من ذلك صفير خفيف . ارتعش عمر . ثم نفث عكاشة الدخان ، فاختفى وجهه الكبير ذو اللحية وراء هذه السحابة .

ـــ ١٥ ـــ

عكاشة صامت ، وحمدوش يحدق اليه في نهم . ثم إذا بحمدوش يضرب المائدة بقبضة يده المشدودة ضربة قوية أوجعته ، فينتفض على المائدة كل شيء : القدح والسجائر . ان عمر يرقب المشهد مشدوهاً . وفجأة استبدت به رغبة لا سبيل الى مقاومتها في أن يضحك ، وفي أن يضربه أيضاً ، وفي أن يصيح به « كفى »، لكنه كان في الوقت نفسه يخشى أن يفتح فاه . نظر الى صاحب المطعم الذي كان يغفو على كرسي وراء البسطة وقد مال رأسه على كتفه . فبدا له كل شيء أكثر سقماً .

وتابع حمدوش يقول بصوت أبح أبيض :

ـــ وسألني نفناف مستعلماً أيضاً :

« ـــ والآخرون ؟

« ـــ الآخرون ؟ (نظر حمدوش الى ما حوله خلسة بطرف عينه ، وخفض صوته). لآخرون ؟ لا شيء » هكذا قلت له .

« ـــ والسجين القديم ؟ ان بينكم رجلا كان في الماضي سجيناً محكوماً عليه بالأشغال الشاقة ، إذا لم يخطىء ظني . هو أيضاً . .

« ـــ هو أيضاً ماذا ؟

« ـــ يحرك لسانه .

« ـــ أهذا كل شيء ؟

« ـــ نعم هو كل شيء.

« قال ذلك وأشهر أصبعه فغرزها في صدري ، ثم أضاف :

« ـــ حذار يا أحمر .

« فخفضت رأسي ».

قال الأحمر هذه الكلمات وهو يتكىء بيديه على المائدة الوسخة اللزجة منحنياً ، وينهض نصف نهوض . كان يميل الى أمام كمن يستجمع قواه ليثب ، ثم قال ينفخ في وجه عكاشة بصوت لاهث :

ــ هل فهمت الآن ؟

فإذا ببريق يشتعل في عيني عكاشة على حين فجأة ، ثم ينطفىء بسرعة كما اشتعل بسرعة .
قال عكاشة وهو يهزّ رأسه ويقطب حاجبيه ، وقد لاح في وجهه العناد :

ــ ليس لهذا كبير شأن .

فوثب حمدوش على قدميه كأن نابضاً يدفعه الى فوق ، وأراد أن يعترض . ولكن عكاشة وضع يديه على المائدة هو الآخر ، قبل أن يقول حمدوش كلمة واحدة ، وأكد يقول له بلهجة واثقة :

ــ إن لك قلبا طيباً يا حمدوش ، انك تحرق دماءك حرقاً. . .

ــ لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ لماذا ؟

وهزّ الأحمر رأسه في حزن شديد ، حتى خيل الى عمر انه سينفجر باكياً منتحباً .

أجابه عكاشة ببطء :

ــ لتعلم هذه الحقيقة .

فهدأ حمدوش فجأة ، وتمتم يقول بصوت خافت ، وقد لاح في وجهه الوجوم :

ــ ليتني أمضي أتابع مصيري في غير هذا المكان . يجب عليّ أن أذهب. . يا لسوء طالعي! . . .

وتبللت نظرته التي يحجبها نوع من دخان احمر . وأخذ يحدث نفسه كأنما هو نسي وجود عكاشة وعمر .

ولكنه لم يلبس ان استيقظ من ذهوله ، فقال عندئذ فيما يشبه الأنين :

ــ لا ، مستحيل .

ــ ١٦ ــ

دخل الى المطعم رجل يرتدي ثياب العمل الزرقاء وينتعل حذاءين باليين ، وهو يحمل بيديه سبحة من الفطائر عقدت بجريدة نخل ، فأفاق صاحب المطعم من خدره ، ونهض فتناول ابريقاً كان ينقع فيه الشاي ، واتجه الى الرجل فأخذ من بين يديه الفطائر بطرف سبابته ، ومضى يضع الابريق والفطائر على المائدة أمام الأصدقاء الثلاثة ، بينما كان الدخيل يعود أدراجه دون ان ينبس بكلمة .

صاح حمدوش يقول :
ـ عظيم .
ورفع الابريق في حماسة ، فصب منه دفقة عارمة في كأس عمر أولا ثم في كأس عكاشة ، وملأ بعد ذلك كأسه . ولم ينتظر لحظة واحدة ، بل حمل الى فمه فطيرة من الفطائر الساخنة فبلعها لقمة واحدة ، وألحق بها كأس الشاي المحرقة التي صبها لنفسه .
قال يتمتم وهو منتفخ الفم :
ـ أنا مسرور أيها الأخوان .
وغمز بعينه . لقد كان فرحاً حقاً .
ـ آه . . أنا مسرور . انني لا أعرف ما الذي أحسه في أعماق قلبي .
قال ذلك وهو يلطم صدره في مكان القلب ، بقبضته المشدودة ثم مسح شفتيه وعاد يقول بلهجة أهدأ :
ـ حاولا أن تفهماني .
فأمن عكاشة على كلامه بحركة من رأسه . كان عكاشة يأكل هو أيضاً .
صاح حمدوش يقول بلهجة الظفر :
ـ ها . . . هل رأيت؟ هو اذن صحيح ما قلته . ان في نفسي شيئاً من كل شيء ، لو علمت . . . ولست أدري أين أضع قدمي . النتيجة . لا أصلح لشيء . عبثاً طوفت في كل اتجاه : لا شيء . لا الأخلاق تجدي ولا الحض على الخير . . . لا شيء من ذلك كله ينفع . لست أتورع عن شيء ، لست أتورع عن بيع العالم كله ببصلة ، كما يقال . . . حتى ديني لا أتورع عن بيعه ببصلة . يا لها من تعاسة . انني أشبه بالدوارة التي تدل على اتجاه الريح : أدور ثم أدور في جميع الاتجاهات .
كان حمدوش يتكلم من غير حذلقة ولا ادلال . لم يعرف عمر كيف يفكر . ان هذا كله يهز نفسه هزاً قوياً . انه مهموم حيران .
وكان عكاشة يسحب من سيجارته أنفاساً طويلة ، وقد أغمض عينيه نصف اغماض ، ثم لا ينفث الدخان الا بعد مدة ، فإذا نفثه انتشر على شكل حلزون الى غير نهاية . وكان هذا الدخان يلفهم جميعاً . وكان جفناه يرتعشان في بعض اللحظات . فيطبقان . وكانت غضون قاسية تخدد جبينه .
وانتصب فجأة يقاطع الأحمر بقوله في خشونة :
ـ كفى حديثاً في هذه الأمور ! هذا الكلام كله قد سبق أن أضجرتنا بترديده . .
فرفع حمدوش كتفيه الى أذنيه ، كمن صب على رأسه قادوس ماء بارد .
وقال عكاشة مقرعاً ، وقد ظهر في وجهه الاستياء :
ـ إننا نمشي حفاة ، وأسمالنا لا تكاد تخفي ما بنا من بؤس ، وليس في بطوننا ولا في

رؤ وسنا إلّا فتات وأوضار .

فأخذ حمدوش يحك نقرته وهو ينظر اليه في دهشة . تمتم يقول :

ــ لست أخالفك في الرأي .

ومد يده الى علبة سجائر الباستوس ، رغم انه ليس من عادته ان يدخن ، فسل منها سيجارة وأشعلها من العقب الصغير الذي كان عكاشة يقبض عليه بين السبابة والابهام . سحب من السيجارة نفساً ثم نفث الدخان كله على الفور ، وعاد ينشق نفساً آخر . قال بلهجة الاهتمام والاعجاب :

ــ ما أكثر ما تدخن !

ــ أدخن ما كان معي سجائر ، حتى اذا نفدت توقفت عن التدخين .

فلما سمع الأحمر هذا الجواب انفجر يضحك قوياً ، وهو يقرع بقدميه الأرض ، ويهز رأسه ، وينثني نصفين . قال :

ــ هذا اسمه كلام حقاً .

ثم لم يجدا بعد ذلك ما يقولانه من كلام . ان حمدوش جالس على مقعده وهو في حالة عصبية . واضح ان هناك فكرة تشغل باله . فتارة يقرب رأسه من عكاشة يتفرس فيه ويركز عليه انتباهه كله ، وتارة يشيح بوجهه . والظلام يكاد يخيم في المطعم .

أخذت الأشياء تغيم . قال حمدوش وهو ينهض بوثبة :

ــ يجب ان أذهب الى «هناك ».

ففهم عمر ما يعنيه بقوله « هناك ». ان كلمة « هناك » هذه تعني زازا التي أودعها الأحمر قلبه .

وأضاف حمدوش شارحاً دون ان يسأله أحد شيئاً :

ــ يجب ان أذهب الى « هناك ».

عندى ، الوحيدة الأولى . . .

قال ذلك وهرع يخرج من المطعم . وبقي عمر وحده مع عكاشة .

ــ ١٧ ــ

وبعد قليل خرجا من المطعم هما أيضاً . وفيما كانا يطوفان في المدينة على غير هدف . صامتين ، يستنشقان أواخر أنسام النهار ، قال عكاشة على حين فجأة :

ــ عمر ، ما قولك في أننا مسئولان عن هذه الحياة البائسة التي يعيشها اخوتنا ؟

وضحك تلك الضحكة العذبة ، الخجلى قليلاً ، المعهودة فيه مع أنها لا تكاد تشبهه. واستدرك يقول :

ـ طبعاً ليس ذنبك ان الناس يحيون هذه الحياة الشقية . ومع ذلك أحسّ دائمًا ان لنا في ذلك يداً . لن يستطيع أحد ان ينتزع هذه الفكرة من رأسي .

وصمت مرة أخرى ، ثم أضاف بعد بضع خطوات :

ـ أظن أننا نكون مذنبين قليلاً اذا لم نفعل شيئاً من أجل ان نوضح للناس ما يجب عليهم ان يعملوه حتى يكفلوا لأنفسهم حياة أفضل .

قال عكاشة هذه الكلمات بنبرة توشك ان تكون نبرة مذلة . وأضاف :

ـ لك أنت أقول هذا الكلام! . . .

فابتسم عمر . كان الليل قد هبط . وهذا ضباب أسود رقيق يتموج في الهواء ، ويتخلل المنازل والمارة والأشياء ، التي تبتعد عنك كلما اقتربت منها . التفت عكاشة الى عمر وابتسم مثله . ثم قال :

ـ كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئاً .

ودسّ الحائك يده في احدى جيوبه ينبشها ، ثم دسّها في جيب أخرى ، ثم سأل صاحبه بمرارة لا تتفق ولهجة المرح التي كانت تشيع في كلماته .

ـ أليس معك سيجارة تعطينيها ، أليس معك أي شيء أدخنه ، أي شيء ولو كان سمًا ؟

كان عمر قد أخذ يجرب التدخين منذ مدة خفية ، فهو يشتري سيجارتين أو ثلاثاً من صغار البائعين ، وفي جيب سترته الآن واحدة . مدّ عمر يده الى الجيب الصغيرة ، فسلّ منها السيجارة في رفق ، فتناولها عكاشة ، فأشعلها بعود ثقاب ، وجعل يدخن . ان الظلام يغيب وجهه الآن . .

قال عمر سائلاً في تعجب :

ـ كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئاً ؟

فحرك عكاشة يده بإشارة في الهواء . وقال :

ـ كأنها لا تتوقع شيئاً . . .

ثم أضاف بلهجة فيها الحلم كله والاخوة كلها :

ـ . . . شيئاً عظيمًا .

ـ لا بد أن هناك أسباباً تحملك على هذا الاعتقاد . . لا بد أن هناك أسباباً تدفعك الى هذا الكلام . . .

فقاطعه الحائك يقول :

ـ أسباب ؟ أتظن أن هذا لا يزال له وجود ؟

فأجابه عمر :

ـ ولماذا تعتقد أنه لم يعد له وجود ؟

فالتمعت عينا عكاشة في الظلام ، ونبع من وجهه الأسود صوت أجش قليلاً ، ساخر

قليلاً ، يقول :

ــ طوفت في البلاد ، وتحدثت مع كثير من الناس .

ــ في أي شيء يفكرون ؟

ــ ذلك ما سألتهم عنه . قلت لهم : ماذا تعملون ؟ فيم تنفقون أيامكم ؟ فإذا كل ما أجابوني به لا يمكن أن يسمى شرحاً ولا بداية شرح .

واستأنف عكاشة بعد لحظة :

ــ اليوم انما ينبغي أن يسير المرء في الطرقات محاولاً أن يعرف ما يدور في أذهانهم .

قال ذلك وهو يرقص رأس سيجارته المتوقد أمام عينيه .

وأضاف متنهداً :

ــ إنها للذة أن يدخن المرء سيجارة حقيقية : تدخنها فإذا براحة مقدسة تغزو قلبك . وفي وسعك ان تهزها ، وهي كذلك سلاح ، هي نار تشق الفضاء . آه . . ليت لجميع الناس سلاحاً حقيقياً .

قال عمر وقد تقلص حلقه قليلاً :

ــ لم السلاح ؟

فأجابه الحائك بقوله :

ــ آ . . . انها للذة دائمًا أن يملك المرء سلاحاً حقيقياً .

وسحب من سيجارته أنفاساً حانقة ، ثم توقف يشرح بصوت خافت :

ــ يخطر ببالي احيانا انه يكفي ان يملك جميع الناس سلاحاً .

انهما يسيران الآن في الظلام دون ان ينطقا بحرف . والمدينة من حولهما تسترخي ، متهيئة لراحة الليل الكبرى . وقع الأقدام يقرع الأرض في كل مكان ، وما ينفك يتجدد من شارع الى شارع ، في فتور الليل الساجي . وأطلّ الشارع الذي كانا يسيران فيه على مقهى ينيره سيل من الضوء ، فهو يبدو من بعيد كأنه يفيض شمساً .

قال عكاشة :

ــ عم مساء يا أخي .

ــ عم مساء .

ــ ١٨ ــ

كان عمر سائراً يتقرقف من البرد في هذا الفجر القارس ، وقد وضع يديه في جيبيه . ان الريح تثير تحت خطواته غباراً أشهب ، وتجرف مزقاً بالية من جرائد ملطخة ، ونثارات خشب وأوراق اشجار . فلما وصل الى حيث يرى المصنع من بعيد احتار وارتبك . ذلك انه رأى ماحي

بوعنان واقفاً يحرس باب المصنع وقد برز كرشه الضخم . أحسّ الصبي بانزعاج لم يستطع كبحه ، ولعن الرجل . ان عليه أن يمر تحت أنف المعلم ، فكيف السبيل الى تحاشيه ؟ غير ان ماحي بوعنان كان يبدو عليه انه ينتظره ، لا يحفل بهبات الريح الصقيعية التي تصفع جلبابه المصنوع من وبر الجمل .

فلما صار أمامه سمع أنفاسه التي تخرج من صدره في عناء . كان المعلم يتنفس تنفساً ثقيلاً .

قال يتذمر بصوت جاف :

ــ هأنت ذا . . . الآن تصل ؟ . . . ما ينبغي ان يزعج المرء نفسه .

وتنحنح يكشط حلقه المتسخ ، ففاحت في زفيره رائحة الخمر .

ــ ولا سيما اذا لم يكن هناك عمل . . احم . . . هيا .

وكانت نظرته المترنحة متشبثة بعمر .

ــ يسرك انت ألا يكون هناك عمل .

وتمتم يقول بين أسنانه :

ــ كسلان ، تنبال .

انه لا يقوم بأية حركة يحتمي بها من الريح . وكان في وسط جبينه أثر لطمة يسودها البرد .

ــ اعترف بالحقيقة ، أليس يسرك ألّا يكون هناك عمل ؟

ثم ربت في لطف على كرشه الذي أخذ يتراقص تحت الجلباب وهو لا يزال منشبا نظراته في عمر .

ــ اني أشد منك خبثا ومكراً . فحذار .

كان صوت ماحي بوعنان يعلو ويصفر ، ووجه الصبي يستقبل أنفاسه النتنة . وعبثاً تهب الريح على الرجل شديدة عاتية ، فان قرصاتها الباردة لا تحرك فيه ساكناً .

وظلّ يهز كرشه الضخم بيديه في غير حياء .

أخذ الصبي يفقد هدوءه شيئاً بعد شيء . انه يشعر بالخجل والعار أمام هذا الرجل السكران . وأدخل عنقه في كتفيه .

ــ أنا ذاهب الى العمل يا معلم .

قال ذلك وهمّ ان يغور في فم الكهف المظلم ، لولا انه سمع المعلم يصيح به فجأة :

ــ قف . . أنت الآن مستعجل ، هه . لا ، يا سعادة البك . . ارجع . سوف تتناقش معي قليلاً . ألسنا صديقين ودودين ؟ أليس بيننا صداقة كبيرة ؟

فعاد عمر أدراجه ، وجعد بوعنان وجهه .

كانت أصوات الحائكين الخانقة تتصاعد من الكهف ، وقد علاها جميعاً ذلك الصوت المقاتل الملتهب المعاند ، صوت حمدوش .

قال عمر للمعلم :
ــ سوف يصيبك برد يا معلم .
وفي هذه اللحظة ترنح ماحي بوعنان ، وكاد يهوي على الأرض ، لكنه استطاع ان يسترد توازنه فانتصب أمام الطفل متكبراً ، ومد عنقه في جهد . قال متنهداً :
ــ أهذا هو الكلام الذي يسعفك به عقلك ؟
ــ ذلك . . . انك اذا أصبت ببرد مرضت .
ــ ما هذا الهراء ؟
ــ أقول أنك إذا . . .
فمط المعلم شفتيه ، وأرجح رأسه على صدره .
ــ لماذا تقول لي هذا ؟
كان ينظر الى عمر من خلال حاجبيه ، بانتباه مفرط هو ذلك الانتباه المعهود فيمن أخذ منه السكر كل مأخذ ، تابع يقول :
ــ لماذا تقول لي هذا ، أنا معلمك ؟
خاف الصبي :
ــ هه ؟ لماذا ؟ لماذا تقول لي هذا انا معلمك ؟ لماذا ؟ أأنت مشفق عليّ ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يؤكد لي أنك لا تخفي شيئاً آخر ؟ من ذا الذي يؤكد لي أنك لا تتمنى لي الموت مثلاً ؟ هه ؟
قال ذلك وهزّ رأسه .
ــ وهبك مشفقاً عليّ ؟ يا للشقاء ! أمثلك يشفق على مثلي ؟
وأطلق شتيمة كبيرة ، ثم ألقى على ما حوله نظرة غائمة .
ــ آه . . .
وانقضت عدة ثوان تساءل عمر خلالها عما عسى أن يحدث .
وفجأة قال بوعنان مقرعاً :
ــ ماذا يصل أسبابك بأسبابي حتى تشفق عليّ وترثي لحالي ؟
وانشب يده في عنق الصبي .
ــ اذهب . . . واعلم انه ليس على هذه الأرض إلاّ أوغاد . . ليس في وسع طرح من نوعك ان يبرهن لي على خلاف ذلك ؟ أأنت تشفق ، أنت ؟ ما أنت إلاّ وغد .
وردد بجأر قائلاً :
ــ وغد .
وأخذ المطر ينزل رذاذا رقيقا . وهدأت الريح قليلاً ، فهي تنوح الآن نواحاً ضعيفاً . وماحي بوعنان ساكن لا يتحرك كأنه كتلة من حجارة . ان بريقاً أخضر قد اشتعل في عينيه

الدهنيتين . وانتفض فجأة يقول :
ــ اذهب . . ما وقوفك هنا ؟
فاندفع عمر يغور في المدخل المظلم ، ويهبط درجات السلم الأثنتي عشرة دون أن يراها . ومضى الى مكبه متعثرا .
اختفى المعلم . انه لم يجيء الى الورشة في مثل هذه الساعة المبكرة من الفجر ، يدفعه ما يدفع السكير الى مثل ذلك ، إلاّ وهو خارج من ليلة قصف .

ــ ١٩ ــ

ــ في الليلة الماضية سكروا سكرة كبرى . وفي الليلة التي قبلها أيضاً . وانتهت السكرتان كلتاهما بالضرب . واستمر الضرب في هذه الليلة أيضاً . . ثلاث ليال متتالية . . يا للانسان البغيض ! لم يكن قد أفاق من سكره تماماً حين كان هنا منذ قليل .
ونظر مصطفى رزاق الى الحائكين واحداً بعد واحد ، وفتح فمه فتثاءب ثم تنهد يقول حاسداً :
ــ يا له من رجل ، معلمنا هذا ، هه؟ . . قال شول :
ــ نعم . هل تجدون في المدينة كلها رجلا مثله ؟ أليس على حق ؟ إن ماله هو ملكه يفعل به ما يشاء ، ولا يدعه يعفن في خزانة من حديد.
وكان شول يرتدي صديرة يلبسها فوق القميص ، وبنطلونا يتموج بلا حزام . ان فكرة تبديد المال في القصف واللهو قد أثارت حاسته . قال :
ــ يكسبه الآن وينفقه بعد لحظة . المال يسيل من بين أصابعه . انه لجدير حقاً باسم الماجن . لو عملنا ليل نهار من أجل ان نهيء له من الدراهم ما لم ير أحد منا مثله في حياته كلها ، لعرف كيف يبدده على الفور . انه لرجل . . قال قوطي الأمين منتقداً بقوة :
ــ يعرف كيف ينفق في الاثم ، أما بعد ذلك ، فيا ويلنا ! . . انه يماطل في الدفع أسبوعا بعد أسبوع ، ثم لا ينقدنا قسطا من أجورنا إلاّ في أيام الأعياد . لكنه يأمر بأن نحيك له أربعين بساطاً في اليوم ، أي ما يساوي مائة وستين كيلوجراما من الصوف .
ــ انه لسيل لعابكم أيها الصالحون الأتقياء . حاولوا ان تفعلوا مثله . ولماذا لا تجرءون على ان تقولوا له شيئاً حين يكون هنا ؟
ــ قال شول ذلك ، وهو يرشق معارضه بنظرات متقدة حانقة .
ــ انه يعرف كيف يلهو ، أما أنتم ، فمن ذا الذي يستطيع أن يقول لماذا تعيشون ؟
لم يجب قوطي الأمين لا بنعم ولا بلا ، وانما التقى حاجباه عند منبت الأنف في ثنيتين ، ثم مال على نوله ، واتجه بانتباهه كله الى خيط اللحمة يدسه في المكوك .

وارتسمت على الوجه النحيل، وجه شول ، ابتسامة ظفر خبيث .
قال عكاشة :
ــ من يسمعك يحسبك فخورا . . . كأنك أنت من يدور عليه الكلام .
ــ كيف ؟ أليس هناك ما يدعو الى الفخر ؟ أما أنا فأؤكد ان هناك ما يدعو الى الفخر كل الفخر . هذا رجل لم يكن يملك قرشاً واحداً . أصحيح أم لا ؟ كان عاملا يعمل بأجر ، مثلي ومثلك ، كان شخصاً لا يساوي بصقة . ثم ماذا أصبح ؟ أصبح كبار تجار المدينة أصدقاءه ، وأصبح وجهاء الفرنسيين يحترمونه ، وأصبح أحد مفتشي الشرطة رفيقاً من رفاقه . حاول ان تمكر به يضعك في السجن في مثل لمح البصر . وهو مع ذلك لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، مثلي ومثلك .
كان شول يقول هذا الكلام في حماسة ما تنفك تزداد ، وصراخ ما ينفك يقوى .
ــ أتقول انه سرق ، وربما قتل ؟ انه ليتفق كثيراً ان يقال عن فلان أو فلان من الناس ، من قبيل الحسد ، انه سرق أو قتل أو دس سما ، مع ان الأمر لا يعدو ان يكون قد نجح . نحن أناس لا نحب ان يواتي الحظ أحدا . حتى اخوتنا في الشقاء لا يطيقون ان يروا احدا منهم يخرج من حال البؤس التي هو فيها .
وأمسك فجأة عن الكلام ، وألقى نظرات حاقدة سقطت على الصبية المكبين ، فانفجر يصيح بهم حانقاً :
ــ كان ينبغي ان تفرغوا منذ ساعة يا أولاد النحس .
قال عكاشة :
ــ هو المال الحرام يذهب كما أتى .
فضحك عثمان الاحمر ضحكاً قويا ، ثم نادى يقول في الصمت الشامل :
ــ الموت . آ . . . الموت . كل شيء صائر اليه . . .
فانقبض صدر عمر .
وفي آخر الكهف ، أخذ يغني صوت مرهق مكدود ، يكاد يكون صوت امرأة !
لم يبق لي في حياتي سعادة أرتجيها .
وانهمك العمال في عملهم بحماسة آلية .
ولت حياتي ضياعاً . . . يا موت هيا اليّ .
وتنهد أحد الحائكين ينادي :
ــ يا رب .

ــ ٢٠ ــ

كانا يسيران في عبق الربيع . عكاشة يتكلم ، وخطاه تبطؤ في بعض الأحيان . وكأنما لاحظ فجأة ما يحيط به ، فإذا هو يتوقف عن السير توقفاً تاماً فيرفع انفه . ويلبث عدة لحظات

ينشق ويتنسم الهواء الجديد ، في نشوة غريبة عذبة محرقة . قال :

ــ الشعب ملكوت الله . . الشعب روح العالم . ما من أحد علم الشعب ، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره ، وينشرها بكلتا يديه في سخاء . . .

ونظر عكاشة الى عمر بطرف عينه ، كأنما هو يفضي اليه بسر ، قال :

ــ منذ مدة طويلة ذهبت أطوف في الطرقات ، أيها الصغير . فرأيت الشعب ، وعرفت الشعب . وأصبحت منذ ذلك الحين لا أستطيع ان أعتاد الحياة الساكنة . ظننت في أول الأمر أنني سأستطيع ذلك ، وتجلدت وكابرت وجربت صوراً شتى من الحياة ، فلم يجدني ذلك كله .

قال ذلك وصوته يزداد بحة ، ثم أضاف :

ــ وأنا اليوم مضطر الى الاعتراف بأنني أصبحت لا أطيق الحياة الساكنة . لا أدري ما الذي يحدث لي ، لا أدري هل يجب عليّ أن أبقى هنا . . . لا أدري . .

وكان هبوط الليل يقترب . وكانت تجري في السماء غمامات لا تزال مذهبة . وكانت الحركة التي تستبد بالناس عند الغسق قائمة قاعدة .

ــ كل شيء في المدينة بارد سيء . البائع في المدينة ملك . ويل لمن يريد في المدينة أن يثور على جنس التجار . ان المدينة هي العالم الذي يعيش بغير أمل .

كان عمر ينظر اليه خلسة وقد انقبض قلبه . فمال عكاشة عليه وهمس في جوف أذنه :

ــ عاشت الحرية أيها السيد . ينبغي ان نمضي باحثين عنها في الطرق . الناس هنالك يكرمون اخوتهم .

تفرس الصبي في وجهه تفرساً قوياً .

ــ لك انت أقول هذا الكلام ، أيها الطفل .

وظلّا يتجولان الى ان التبس الظلام ، فافترقا . ذهب عكاشة الى مقهاه المألوف ، وعاد عمر الى بيته .

ــ ٢١ ــ

ــ دع الشعب . فيم تتكلم دائماً عن الشعب ؟ دع الشعب يتألم .

قال حمدوش هذه الكلمات وهو يمط شفتيه كطفل حاقد .

ــ دعه في فاقته . أهو يتألم ؟ ولكن ما الذي تستطيع ان تفعله له ؟

ولم يجب عكاشة ، فاستأنف الأحمر يقول :

ــ دع الشعب ، وليعش كل واحد على نحو ما يريد . . على نحو ما يجب . الرجل الذي سيخرجنا من الحال التي نحن فيها ، لم يخلق بعد .

ثم أغمض جفنيه نصف اغماض ، وراح يهتز ذات اليمين وذات الشمال كما يفعل مرتلو

القرآن . ان عمر لم يشعر في يوم من الأيام بأنه قريب من هذا الشخص المحير ، كما يشعر بذلك في هذه اللحظة . كلماته المرة ، نبرته التي تدل على العذاب ، كل هذا . .

قال عكاشة :

ــ جميع الناس يتكلمون كما تتكلم .

ــ كما أتكلم ؟ من الذي يتكلم كما أتكلم ؟

ــ جمع لا يحصى عدده .

وألح الأحمر يسأل :

ــ ولكن من ؟ من ؟

ــ أناس حمقى .

فجحظت عينا حمدوش ، وعوى كما يعوي ابن آوى ، وانتصب واقفاً بوثبة واحدة . ان ذؤابته الحمراء المتقاتلة تلتمع كأنها مشعل . وكان لا بدّ من أربع سواعد قوية ، هي سواعد حمزة وحسين ، من أجل ان يمكن الامساك بهذا الانسان الذي ركبته الجن ، ومن أجل رده الى القعود حيث كان .

وأراد حمزة ان يصلح بين المتخاصمين ، فقال :

ــ لا أحد بيننا شرير اذا ما أخذ على حدة (كان صوته الضخم يجري بالكلام كالغناء) . وإذا اتفق ان رأينا أحدنا شريراً . فإنما يكون ذلك على غير ارادة منه ، اذ لا يستطيع أحد ان يسيطر على مصيره . الانسان الذي لا سلطة له على القوى التي تسحقه ، لا سلطان له على نفسه . ولكن اذا جاء اليوم الذي يحطم فيه كل شيء ، تبدل الأمر . . .

كان الحائكون يسمعون هذا الكلام ، فلا يؤيدون ولا يشجبون . وقد ساق حمزة أقواله ، بذلك الصوت الأسيان ، بتلك النبرة المشفقة التي لا يعرفها أحد في غيره .

وتابع يقول :

ــ على ان في الدنيا قلة من الناس جبلت على الشر . فهؤلاء . . سيلقون جزاءهم عاجلاً أو آجلا .

تقلص وجه عكاشة ، وكز فكيه . فلما رأى حمزة هذا التعبير الذي ظهر في وجه زميله ، ابتسم من خلال كشش لحيته الشهباء ابتسامة تدل على كثير من سلامة القلب .

وكان العمال الآخرون يأكلون وهم يتابعون الكلام بوجوه موصدة لا سبيل الى النفاذ اليها . كانوا كأنهم يستنكرون في قرارة نفوسهم هذا الاضطراب كله . لقد امتلأت رؤوسهم بأحلام غامضة . فهم يتأملون هؤلاء المثرثرين دون ان يظهر عليهم أي اهتمام بهذه الأحاديث الطويلة ، كما لا يظهر فيهم أنهم يرون هذه الجدران المحيطة بهم ، ولا هذه الأنوال المتعبة ،ولا ذلك الظل الثقيل الباعث على الغثيان الذي يثقل على أكتافهم .

قال الأحمر معقباً . ولا يزال شعاع من جنون يسكن نظرته :

ـ نحن لا نصنع لا خيرا ولا شرا ، وانما نحن قابعون نستنقع بين الاثنين في غير جدوى .
وقال حسين طرف ، الملقب بالقنفذ ، قال يسأل عكاشة :
ـ قل لي : إذا أراد أحد ان يسافر الى فرنسا سيراً على قدميه ، هل يستطيع ذلك ؟
فأجاب المسئول :
ـ لا . . فالذي أعرفه هو ان عليه ان يعبر البحر ، والبحر ، كما تعلم ، لا يمكن عبوره سيرا على الأقدام .
فلم يضف حسين طرف شيئا ، وانما غاص في الأفكار التي أيقظها في نفسه جواب عكاشة . انه يحاول ان يعرف هل أجابه رفيقه صادقا أو هو كذب عليه وسخر منه . ان هذا الرجل الأعجز يشبه منظره منظر شجرة تالفة . كل ما فيه أسود : الزغب والجلد والنظرة . أما شعر رأسه الذي يحتل جزءا من جبينه العنيد ، فانه منتصب انتصاب أشواك مهددة .
وكان حمدوش الذي لا يزال حانقا كل الحنق من مشاجرته مع عكاشة يعذب الأرض بطرف قطعة من الخشب في غضب شديد .
قال يدمدم :
ـ لا أحد يعلم شيئاً . . وأنت تنزل نفسك منزلة عراف لا يجهل شاردة ولا واردة .
فأجابه عكاشة وهو يشير برأسه الى عمر :
ـ اسأل الصبي يجبك . لقد تعلم ، هو ، في المدرسة .
فقال عمر :
ـ نعم ، يجب عبور البحر .
فقال حمدوش ثائراً :
ـ لشد ما تضجرني صحبتكم !

الجزء الثالث

— ١ —

ـ لقد تجبرتم حتى أصبحتم لا تؤمنون بالله ، ولكن كيف يمكن ان يثق المرء بكم بعد الذي سمعه من أقاويلكم وبعد الذي رآه من سلوككم ؟ على أنكم ما ينبغي أن تؤاخذوا ، فلست أظن أنكم تتحدثون حديث الجد أبداً .

قال قوطي الأمين هذه الكلمات وتأوه ، ثم زمّ شفتيه زماً قوياً ، وأخذ يفكر ، وأغمض جفنيه .

ـ لست أدري ما هذه الفكرة المجنونة التي تستبد بالناس ، انهم يسرفون في الحديث والاستماع، ويبحثون ثم يبحثون ثم ما ينفكون يوغلون في البحث في هذا الظلام الذي يلفهم . ولا شك ان هذا هو ما ينشأ عنه الاثم .

انّ نبرة من عذاب قد تسللت الى صوته ، حتى ليحسّ المرء أنه مستعد لأن يغفر للناس رغم انه ما كان له ان يفعل ذلك منشرح الصدر .

واستأنف يقول بصوت خافت :

ـ ماذا يريدون ؟

فنظر اليه حمزة خلسة وهو يتقدم بحاجبيه الى أمام :

ـ يريدون أن يطعموا من جوع ، وأن يعاملوا خيراً مما تعامل البهائم .

فنهض قوطي الأمين ، وابتعد عن الجميع دون ان ينبس بكلمة ، ومضى يقعد بعيداً في ركن من الأركان .

لكنه قال من مكانه سائلاً :

ـ لماذا لا تكفون عن الشكوى ما دمتم ، أنتم أنفسكم ، لا تعلمون شيئاً من أجل أن تتبدل حياتكم ، وما دمتم لا تحترمون الانسان الذي فيكم ؟ ان الشكوى يمكن أن تكون منكم

أيضاً .

قال حمزة :

ــ صحيح .

ــ إذن لماذا لا تعمل شيئاً ؟

ــ إذا كان الأمر أمري ، فأنا أيها الأخ مستعد لأن أفعل كل ما يطلب اليّ فعله .

قال حمزة ذلك وباعد ذراعيه وهو يضيف :

ــ ولكن ما عساي أصنع وحدي ؟

ــ المرء يحاول .

فهزّ حمزة رأسه ليقول لا ، ثم أضاف يشرح بلهجة متأنية :

ــ لا أحد منا قادر وحده على أن يبدل الواقع . .

ــ بل قل لا أحد قادر على أن يعارض قدره .

هكذا هتف يقول عباس صباغ الذي كان جلس الى نوله ، وقد أظلم وجهه .

وحاول حمزة أن يناقش ، ولكن محاولاته ذهبت سدى . كان واضحاً ان الحائكين الآخرين لا يكاد يختلف تفكيرهم عن ذلك ، حتى لكأن تصور حياة أقل شقاء يؤذيهم مثلما تؤذيهم إهانة .

وحين جلس قوطي الأمين الى نوله بعد لحظة قال بكلمات سريعة قصيرة وهو يحرك يديه :

ــ نصيبك لا بد ان تناله . افهم جيداً ما أعنيه : أنت قد تكدح كالثور ، وقد تكون أذكى الناس وأمهرهم ولكنك لن تأخذ إلّا نصيبك . كن غشاشاً أو سراقاً أو مكّاراً ، فلن تنال إلّا نصيبك .

قال ذلك ومال على احدى ساقيه ثم مال على الأخرى ، وصمت . ان يديه الشعراوين تمسك يسراهما بخيط الصوف ، وتمسك يمناهما بالمكوك . لم يدرك انه ناقض نفسه بنفسه . على ان ذلك أمر شائع في الكهف لا يهتم به أحد .

ــ فما هو السلوك الذي يجب ان نلتزمه في الحياة ؟ لقد قيل : « من تقدم الى الله عارياً كساه »، ونحن أناس لا نريد ألا ثياباً مستعارة ، وكذلك جميع الناس ، يستوي في ذلك الظالم والعادل . نحن جميعاً عراة على أبشع صورة من العرى . كلنا عرضة للأنظار بشكل مخيف . . والثياب الغريبة التي نظن أننا متدثرون بها لا وجود لها إلّا في خيالنا .

خفض العمال الآخرون أنوفهم ، وكان واضحاً انهم قد تأثروا بهذا الكلام . كان قوطي الأمين يتحدث على مهل بصوت قوي . وكان حمدوش وحده ينظر اليه في وقاحة . فلما لاحظ الحائك العجوز ذلك ، أمسك عن الكلام ، فإذا بالأحمر يخرج من فمه صوتاً ماجناً :

ــ رجل بغير حياء .

قال الأمين ذلك ولعنه ، ثم أضاف :

ــ حين ستوسد قبرك أيها الزنديق . .

فقاطعه حمدوش يقول وهو يغمز بعينه :
ــ لسوف نموت جميعاً ، فلا حاجة حقاً الى هذه الترهات كلها . ولكن يخيل إليّ أن ذهنك مشوش بها كثيراً . . أتراك غير مرتاح الضمير؟ . .
فزاغت نظرة الأمين ، وقال :
ــ سيقتص لي الله منك أيها الشيطان .
ثم قال بلهجة غريبة ، من يأمر الآخرين ويبتهل اليهم في الوقت نفسه ، أن يصدقوه :
ــ الناس عازفون عن الحياة الصادقة الخالصة التي ترضي الله . ولكنك ان حضضتهم على ان يعيشوا على نحو آخر كنت تشوش نفوسهم . اني أؤكد ذلك .
فصاح حمدوش يقول :
ــ ببغاء .
فاغبر وجه الأمين ، وأظلمت عيناه القاسيتان الكابيتان . ولم يجب على الإهانة . وكان يهم أن يتابع حديثه ، فإذا بالأحمر يصرخ ، وكان يراقبه :
ــ انه مجنون . . مجنون تماماً . . عليكم بالمجنون .
فقال قوطي الأمين عندئذ بصوت أبيض :
ــ عقابك عند الله .
وكان عثمان الملقب بالموت ، يذرع الممر المتوسط بخطا مختالة ، فإذا هو يدور في مكانه ، فيغير اتجاهه ، ويستأنف بخترته ، ثم يصعد درجات السلم في بطء ، حتى اذا صار عند الباب ، نظر الى قاع المصنع ، ونادى يقول بصوت عريض :
ــ أنا الملك .
فالتفت جميع من بالمصنع اليه فرأوه ماداً ذراعه يشير بأصبعه الى الصبي الجديد ثم يقول :
ــ جزاؤه أن يضرب بالعصا على أسفل قدميه مائة مرة دون توقف .
فرشقه الصبي بنظرات حانقة . ورفع باصقالي وجهه الأبيض المبهم من فوق دولابه ، يصغي الى الحديث .
قال عثمان منذراً في عظمة :
ــ استعد ، فسوف تنال جزاءك .
حاول عمر ان ينظر الى مكان آخر حتى لا ينفجر مقهقهاً ، وقامت في المصنع عندئذٍ صيحات وشتائم وقهقهات ، واختلط الحابل بالنابل . ان جميع الحائكين قد تركوا عملهم ، فبعضهم ممسك بأضلاعه ، وبعضهم يئن .
قال عثمان وهو يصطنع هيئة القسوة :
ــ ماذا ؟ أين الغرابة ؟ ألست ملكا على نفسي ؟
فما سمع العمال ذلك ، حتى هبت في المصنع عاصفة من الضحك أعتى من الأولى .

وكان جلول حداد أول من استطاع ان يتكلم ، وهو يمسح دموعه :
ـ لقد أحسنت الكلام . . أنت أحكمنا جميعاً .
قال عثمان :
ـ سكوت . . الموت وصل . .
فصاح به أحدهم :
ـ ألا انك لطير شؤم .
فأجابه عثمان بقوله :
ـ لن تعيش مدة طويلة .
وفي هذه اللحظة دخل المعلم الى الكهف على حين فجأة . فسرعان ما خيم الصمت .
سأل ماحي بوعنان :
ـ ماذا هناك ؟ هل اقتتلتم ؟ لكأن في مصنعي وحوشاً .
هبط عثمان درجات السلم في وقار ، دون أن ينبس بكلمة ، فرشقه المعلم بنظرة ساخرة وهو يقول :
ـ آه .
فلما رأى عثمان الملقب بالموت أن المعلم يخصه بانتباهه قال يسأل في رصانة :
ـ فماذا نعمل ؟
فأجابه ماحي بوعنان قائلاً :
ـ نستدعي رجال الشرطة .
فدمدم باصقالي يقول في ركنه المظلم :
ـ يا ليت يا رب .
واصطنع عثمان هيئة النادم التائب وعاد الى نوله .
وهدأ اهتياج الحائكين شيئاً بعد شيء . وفيما كان المصنع يستأنف العمل ، استرد الجو ما يشيع فيه من حزن وتسليم . لا يألف المرء بمثل هذه السهولة ان يضحك .

ـ ٢ ـ

ذهب عمر الى المقهى يلحق بعكاشة . على عادته في كل يوم من أيام الأحد . كانت الساعة في نحو العاشرة من الصباح . ان رفافاً من السحاب تمتد فوق المدينة . وأوراق الأشجار التي تنبجس من بينها البيوت العالية ، تلفها غلالة من أنسام شهباء شفافة ، تجمل فيها المآذن وأشجار السرو . والشمس تظهر من حين الى حين ، فإذا بخار مضيء يحف بكل شيء من الأشياء على صورة هالة . انه نهار مرهف طيب .

الناس والعربات والبهائم تمضي في تيارات شتى . جلاليب خشنة تحاذي قمصان بقالين . باعة ذوو لحي مصففة يسيرون بخطوات صغيرة وهم يرجحون أذرعهم . المقاهي طافحة الى الشارع .

وهذه هي المدينة الواطئة . ان جمهور الناس يجري هنا قاتما كالقطران . ودخل عمر المقهى ، فوجد عكاشة جالساً وحده في ركنه الأثير . قال له وهو يصل اليه مباغتة :

ــ الله أعلم فيم تفكر .

فمر عكاشة بيديه على وجهه في بطء .

وأردف عمر يقول :

ــ منظرك اليوم غريب كل الغرابة . أتراك قد وقع لك شيء ؟

فرنا اليه عكاشة . ان في عينيه من الضجر ما ارتبك له عمر . وقال عكاشة معترفاً :

ــ لقد استبد بي الأمر في هذا اليوم دفعة واحدة . وأسند رأسه الى يده :

ــ آن لي أن أذهب . لا أطيق بعد الآن بقاء .

فخطر ببال عمر ان أموراً كثيرة ستسهل يوم يسافر عكاشة . لقد اكتشف الصبي ان هذا الحائك لم يخلق للتحدي والمشاجرة . وآلمه أن يرى هذه القوة مذلة مغلوبة على أمرها .

ــ أترانا بلغنا هذا المبلغ كله من غربة بعضنا عن بعض ؟

فلم يفهم عمر ما قاله عكاشة .

وردد عكاشة يسأل :

ــ ما رأيك ، هه ؟

ــ ما تقوله صحيح .

ــ هل أقول في بعض الأحيان ما ليس بصحيح ؟

وأظلمت عينا عكاشة . كان عمر دهشا . وأضاف عكاشة يقول بصوت ران عليه الحزن :

ــ ليس الأمر أمر تلفيقات .

ثم أردف يقول وقد أضاء وجهه في هذه اللحظة بابتسامة طيبة :

ــ لا ، ما كان للناس ان يصيروا الى ما صاروا اليه لولا انهم أوذوا أذى كبيراً .

ثم مال على عمر ، وهمس يقول :

ــ لقد أهين شعبنا كثيراً . . . وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل .

وخيم الصمت على دكان الشواء . وانقضت لحظة طويلة . ثم عاد عكاشة الى فكرته كما يعود المريض الى الجرح الذي يؤلمه .

ــ لم أعد أطيق البقاء .

وتنهد ، ثم التفت نصف التفاتة الى عمر ، وعاد يؤكد مرة أخرى :

ــ لم أعد أطيق البقاء .

ورجع الى النقطة التي تركها من سلسلة تفكيره ، فأكمل يقول :

ــ لقد أصبح شعبنا شديد الاحساس ، شديد الاحساس بآلامه ، بالاهانات التي تحملها في الحاضر والماضي . . . أصبح شديد الاحساس الى حد يصعب إدراكه .

شعر الفتى مرة أخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول ، وركود الأشياء .

ــ وأصبح شعبنا أيضاً شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة . لا شك ان هذا كله كان موجوداً في الماضي . ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفق في أي يوم مضى . فما الذي سيخرج من ذلك ؟ أرجو ان يخرج منه بخير . . .

ـ ٣ ـ

قال الأحمر لعكاشة بلهجة كان يعتقد انها لا شك مفحمة :

ــ أراك تتحدث دائماً عنا ، فهلا عرفت على الأقل ما قيمتنا ؟ هل تعلم ما الذي نقدر على فعله ، وما يمكن ان نقترفه من شرور ؟

قال ذلك وهو يلح على هذه الكلمات الأخيرة بنظرة مراوغة . فأجابه عكاشة :

ــ نحن كسائر بني البشر ، قيمتنا كقيمة غيرنا من الناس سواء بسواء .

ثم أضاف بعد لحظة من تفكير :

ــ لسنا شراً من غيرنا ، ولا خيراً من غيرنا . . . كل ما في الأمر أننا أشقى من غيرنا قليلاً .

ــ كذبت . ان شيطانا يختفي في نفس كل منا . يبدو علينا أننا كسائر الناس ، لكننا لسنا كسائر الناس . ونحن جميعاً نرفض أن نسلم بذلك . إننا نتكلم ونعيش ونعمل خافضي الرؤوس ، ولكننا لا ننتظر إلّا سنوح الفرصة المؤاتية لنقارف ما نستطيع ان نقارفه من شر .

قال حمدوش ذلك وفي ارتعاش صوته حدة لا تبشر بخير ، وأضاف :

ــ اننا لا نتورع عن شيء . . .

ــ في رأيك إذن انه ليس في بلادنا إلا أناس خطرون . أناس ينبغي أن يقيدوا بالسلاسل .

ــ أنا من هذا على يقين .

فضحك عكاشة ضحكة قصيرة . وقال :

ــ سيتبدل الأمر .

ــ أنت وحفنة من أمثالك الحالمين وحدكم تؤمنون بذلك . لا ، لا ، ما من أحد ينطلي عليه كلامكم منذ أخذتم ترددونه .

وكان حمدوش لا يستطيع ان يستقر في مكانه ولا ان يكبح جماح عصبيته . قال :

ــ هلا تفضلت فذكرت لي كيف سيتبدل الحال ؟

ــ ما من أحد يستطيع ان يتنبأ كيف ستجري الأمور على وجه الدقة .

فصمت حمدوش لحظة ، ثم صاح يقول على حين فجأة :
ـ لا ، لست أوافق .
قال هذا ومر بلسانه على شفتيه بسرعة ، ثم حرك يده في الهواء كأنما هو قد غص بكلمة .
ـ جميع الذين أراهم يبددون جهودهم ويرهقون أنفسهم في الكلام الطيب ، لا يزيدون على أن يصفقوا في الهواء . انهم يخدعون أنفسهم ويخدعوننا . ولكن كلامهم لن يحرك أصغر حصاة من حصى الطريق ، فان زعموا غير ذلك فهم كاذبون .
وطرف بعينه ساخراً .
ـ ما نحن في حاجة اليه ، يا أخي ، إنما هو نوع آخر من الرجال .
ودلك صدره في بطء وارتياح .
ـ أنظر اليهم في الشارع ، اخوتك هؤلاء . ما الذي تنتظره من هذا الجيش من الأشباح الساغبة ؟
نزع عكاشة الوتد الذي يبقى من تحت النسيج على تباعد الحاشيتين ، وانتصب وهو يقول :
ـ لا بد للمرء من كثير من قوة النفس حتى يقبل هذه الحياة على انها خير ، وحتى ينسى الآلام التي تجثم على صدورنا .
فاعترض حمدوش صائحاً :
ـ أنت انسان يحيا على حلم .
وحين صاح بذلك كان كمن يريد أن يخرج محدثه من سبات عميق . فابتسم عكاشة . حتى اذا أدار اسطوانة النول مع مساعده حسين طرف وأعاد غرس الوتد في مكانه ، أشعل عود ثقاب وقرب شعلته الصغيرة المتموجة من عقب السيجارة الذي كان قابضاً عليه بشفتيه ، وهو يحني رأسه الى جانب . أجاب :
ـ نحن في حاجة الى هذا الحلم .
ـ لسنا في حاجة اليه أبدا . وإنما نحن في حاجة الى الحقيقة ، الى الحقيقة عارية كل العرى .
وقبض حمدوش يديه ، ورفع ذراعيه الى السماء وأخذ يحركهما في الهواء ، ثم ضرب نوله وهو يقول معترضا بصوت مختنق :
ـ هذا كله ليس له في رأيي أية قيمة .
وعندئذ أخذ شول يغني بصوت عال :
الليل جاء فأين نقضي الليل ؟
الليل جاء فأين نقضي الليل ؟

أصابعه تبحث عن سيجارة فهي تنبش العلبة مرتعشة محمومة فتمزقها . ودمدم يقول :

ـ انتهى ، انتهى ، قررت ، قررت . سأذهب . سأمضي الى بعيد ، الى بعيد ، حيث لا يعرف أحد من أنا .

فهتف عمر يقول :

ـ لماذا ؟ ماذا تأمل أن تجد ؟

ـ ماذا . . . ماذا آمل أن أجد ؟

وأخذ عكاشة يفكر :

ـ ألا تفهم ها . . ها . . قل : أتريد ان تجيء معي ، أم أنت لا تريد ؟

ـ لا أريد .

لم يجب عكاشة بشيء . لم يدهشه هذا الرفض . كان يتوقعه ولعله كان يتمناه .

ثم استأنف يقول بلهجة تشبه أن تكون لهجة دعاء :

ـ لم أعد أطيق البقاء . كفاني ما لقيت !

ان عياء لا سبيل الى وصفه كان يترقرق في كلماته هذه . وصفق بيديه وأمر بقدحين آخرين من الشاي .

ـ لنشرب معاً مرة أخرى . وابتسم . وابتسم عمر أيضاً .

قال عكاشة :

ـ هناك شيء لا أفهمه ، هو ان مفارقتك ستؤلمني .

ونظر الى الصبي بانتباه .

ـ حقاً . . ستؤلمني مفارقتك .

وجاء الساقي ، فوضع قدحين من الشاي الساخن ، ورفع القدحين الخاليين . فما أن أدار ظهره ، حتى تابع عكاشة يقول :

ـ الحياة هنا رمل ، يملأ المرء يديه فلا يقبض على شيء .

ورشف رشفة من الشاي ، ثم رشف رشفة اخرى ، وهو خافض رأسه ، لكنه يرقب عمر من فوق حافة القدح .

ـ ربما كان هذا السفر آخر حظ لي .

وأضاف بصوت أخفت :

ـ وقد لا يحقق لي هذا السفر السعادة ، غير أنني سأشعر اذا سافرت بأنني أقل تناقضاً مع نفسي .

وابتسم ابتسامة صامتة ، متقلصة بعض التقلص .

ـ نفس حزينة ، حزينة وقلقة ، قلقة قلقاً رهيباً .

وعاد الصمت يخيم بين الرفيقين .
وابتسم عكاشة بعد لحظة ابتسامة وانية ، وقال :
ــ سوف انتهي الى احتقار جميع من حولي اذا أنا لم . .
وحرك ذراعه بإشارة في الهواء كأنما هو يطرد أشباحاً أمامه .

كانت أمسية الصيف تنشر جواً وردياً أشهب . وقد اشتعلت واجهات المخازن . غير ان الليل لا يزال بعيداً . ان الشوارع تزدحم بكسل كبير .

ظلّ عمر يطوف على غير هدى ، فارغ الرأس . انه ليس بالحزين ، ولكنه ممزق القلب . كان يسير في حذر . لقد ودع عكاشة منذ قليل .

ووصل طوافه الى السور الذي يطل على السهل . أخذ يتأمل الحقول والطرق والأخاديد ، أخذ يتأمل هذا المنظر الذي يحيط به الظلام . كانت الأرض تغور في العتمة في رفق وهدوء . تنسم تلك الرائحة اللانهائية القوية ، رائحة الريف . ثم ما لبث ان أصبح المنظر الذي أمامه عالماً أجرد ساكناً : لقد هبط الليل . ان طمأنينة آتية من الأعماق تملأ قلب عمر .

وعاد الى الجمهور الذي تعج به الشوارع . انه يحس بحاجة الى ان يحيط به وان يحمله تيار هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم كثيراً ، ولكن وجودهم ينعشه .

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالأكاليل على طول الأرصفة ، فهي تضيء سلالاً تنساب فيها ألوان قوية مشهية .

المدينة من الصيف في سكر . غير ان السطوع القوي والدفء المتلألىء اللذين كانا في النهار ، قد أعقبتهما في الليل أنسام طويلة .

وكانت نداءات باعة « الدندرمة » أبرز كل ما في ذلك الغسق من حركة ونشاط . وأخذت أولى النجوم تظهر في السماء . خيل الى عمر ان هذه الوجوه التي تلفها الظلال تعكس ما بنفسه من حماسة . ان هؤلاء الناس يشبهونه . انهم ، هم أيضاً ، ينتظرون يقينا لا يتصوره خيالهم بعد ان قضوا أياماً وأياماً بغير أمل .

ــ ٥ ــ

ــ يجب تبسيط الأمور ، ينبغي لجميع الفروق بين البشر ان تزول ، والذين يعارضون هذا يجب سحقهم . نعم ، لا فروق .

قال حمدوش ذلك بصوت يقرقع كالسوط . فدمدم عباس صباغ . ان عباس صباغ لا يريد حتما ان يخوض في مناقشة مع انسان مهتاج كحمدوش ، ومع ذلك قال يدافع عن نفسه كأنه هو المتهم :

ـ طيب . . هذا رأيي أنا أيضاً .

كذبت . أنت تعبد كل قديم . ولست أول من أراه كذلك . انكم جميعاً سواء .

قال عباس :

ـ اذن لا تحاول انت أيضاً ان تجعل لنفسك ميزة .

ـ كل من يريد أن يجعل لنفسه ميزة يجب ان يباد .

تحرك عباس تحرك من ضاق ذرعاً ، ولكنه لم يجب .

وكان الحائكون يعملون في همة ونشاط ، فلا هم يسلمون ولا هم يعارضون . وكان بعضهم يتوقفون عن العمل في بعض اللحظات ، فيسخرون بالمتبجح ثم يستأنفون عملهم .

قال عباس أخيراً :

ـ ان الله هو الذي أمرنا ان نعيش على هذا النحو . .

فحدجه حمدوش بنظرة غريبة . ثم قال له :

ـ هب الله هو الذي أمر بهذا . أفأنتم تفعلون كل ما أمر به الله ؟

ومرة اخرى أصم عباس صباغ أذنيه وكان عمر يصغي الى هذا الكلام كله مشدوهاً . كان يخيل اليه ان هذا الذي يتكلم ليس حمدوش .

وأخيراً قال شول سائلاً :

ـ وفيم تلقي علينا هذا الهذر كله ؟

ـ من أجل ان تفهموا .

ـ من أجل أن نفهم ؟

وهزّ شول كتفيه .

ـ كان البشر دائماً يصطرعون ويلتهم بعضهم بعضاً .

قال ذلك ثم أضاف :

ـ فإنما مرد الشر كله الى حماقتهم . افهم هذا أخيراً .

صمت حمدوش .

وحين آن وقت الخروج من الورشة ، سأل عمر :

ـ لماذا كنت حاداً تلك الحدة كلها ؟

فمطّ حمدوش شفتيه ، ولم يجبه . ثم قال :

ـ يا له من سجن ! هيا بنا نخرج من هذا السجن .

وخرجا من الكهف ، وذهب كلاهما الى مقهى من مقاهي « بليق » ، رغم ان أحداً منهما لم يكن ينوي ذلك ، فلما جلسا مديرين وجهيهما الى الشارع الصاخب الأغبر . ظلّا صامتين لا يقولان شيئاً . هما الآن في ساعة متأخرة من المساء . ظلال البيوت تزداد طولاً على أرض الشارع . ان شيئاً مرهقاً يجثم على صدر هذه الأمسية من أماسي آب . وكان حمدوش يتفرس في كل ما يجري ، بشراهة ، وقد صالب ذراعيه وعلى صدره .

قال بلهجة غير مألوفة فيه :
ــ ان المرء ليخجل من نفسه في بعض الأحيان .
فالتفت اليه عمر على مهل . فتابع حمدوش يقول :
ــ الصبر شيء لا أستطيع ان أفهمه . انني آخذ في الارتعاش والصراخ لأتفه سبب من الأسباب .
كان حمدوش يتكلم محملق العينين ، ثم اذا به يضحك فجأة :
ــ هل تريد ان أفضي اليك بأمر ؟ انني أشعر أحياناً كأنني وحيد في هذا العالم ، وكأنه لا وجود لأحد من الأحياء غيري ، فأصبح عندئذٍ انسانا لا يطاق ، انني أضيق ذرعاً بنفسي . لعل هذا يرجع الى مرض بي .
قال ذلك ونظر الى رفيقه من جانب .
ثم تابع يقول بلهجة هي بين المرح والجد ، لا تدري ألأن هيئة عمر قد طمأنته أم لأن مزاجه في ذلك المساء كان يدفعه الى أن يفضي بذات نفسه أكثر مما عهد فيه .
ــ على كل حال ، هناك شيء ليس على ما يرام ، لا أدري أين . لماذا أنت صامت ؟
ــ أفكر فيما تقول .
وكان عمر يفكر حقاً في أقوال الأحمر ، فانصبت عليه نظرات حمدوش قلقة قلقاً مبهمًا . قال له عمر :
ــ اني لا أصدقك .
ــ لا تصدقني ؟ أنت على صواب .
الحق ان عمر لا يستطيع ان يقول ما الذي كان يشعر به أثناء اصغائه الى حمدوش وهو يفضي بذات نفسه . لقد كان يحسّ بضباب كثيف يجلل ذهنه .
ان طيوف المارة في الشارع تسود وتستحيل شيئاً بعد شيء الى ظلال تتحرك . فقد هبط الليل .
فلما فرغ عمر وحمدوش كأسيهما ، نهضا ، ومضيا يمشيان في المدينة .
كان الأحمر قد طلب الى عمر ان يوصله الى بابه ، فوافق عمر على ذلك .
ــ طيب يا حمدوش . . هبك قتلت واحدا ، بل هبك قتلت عدداً . . فما تصنع بعد ؟
ــ ما ينبغي ان تفكر الآن فيما سيحدث بعد . كيف لا تفهم هذا ؟ ذلك أمر نفكر فيه بعد . أما الآن فيجب ان نعمل .
وانتفخت شفتا الأحمر واتسع منخراه . ثم انفجر صوته على حين فجأة حاراً خافتاً يقول :
ــ يجب ان نكون رهيبين ، لا بمظهرنا فحسب ، بل بطبعنا أيضاً . يجب ان نكون رهيبين ويستوي بعد ذلك أن نغلِب أو نُغلب .
قال ذلك وقد شحب وجهه ، ولكنه أردف يقول وقد هدأ قليلاً :

ـ يجب أن ننهي هذا الطراز من الحياة التي عشناها الى الآن .
كان عمر لا يستطيع ان يحول نظره عن رفيقه ، ولا أن يقف الانفعال الذي استبد به .
وتناول عمر يد الحائك ، فهزها وهو يقول له :
ـ أنت أيضاً انسان يعيش على حلم .
ولكن حمدوش كان قد بلغ من الاضراب انه لم يسمع كلماته . وما لبث عمر ان تركه .
وفيما هو يسير في الظلام ، كان يترامى اليه صوت الأحمر صلفاً وساخراً سخراً غريباً في آن واحد :
ـ يجب ان نفعل شيئاً ، ليس يجدينا إلّا أنّ نفعل شيئاً .
كانت الشوارع تخلو شيئاً بعد شيء ، وكان قلب عمر ، كهذه الشوارع يتسع للخوف والقلق أكثر فأكثر . وقال لنفسه فجأة : إن حريته ملك له ، وأن عليه أن يتصرف فيها على النحو الذي تمليه عليه إرادته .

ـ ٦ ـ

بعد أن سافر عكاشة ، اختفى حمزة أيضاً إختفاءاً لم يعرف سره أحد . وقد انقطع حمدوش عن المجيء الى الورشة منذ يومين ، فقرر عمر ، في صباح هذا الاحد ، أن يذهب الى بيته ليراه . ان قلقا لا يفهم قد قام في نفس عمر . ان عمر لا يعرف لماذا استبد به هذا القلق . انه لا يستطيع أن يقول لماذا سبب له حمدوش هذا الهم المباغت .

لم يكن وضع الاحمر وضعا بسيطا ، ولا كانت أقواله كذلك . انه يجذب وينفر ويثير ويجرح . غير انه كان ، بحكم السن ، أقرب هؤلاء الحائكين الى قلب عمر . وبعد أن سافر عكاشة ، ازداد عمر اقتراباً منه حتى لقد أصبح له عليه نوع من التأثير يشبه السحر . ان قوة جاذبية لا تعليل لها كانت تحمل عمر الى السعي الى صحبته . لا شك أن في حمدوش شيئاً متوحشاً لم يروض ولم يستأنس .

الصيف يسطع على المدينة ، والهواء أنسام خفيفة ، والسماء السكرى تسكب دفئاً باهراً ذهب عمر الى تلك الاحياء الدنيا التي يضغط فيها المرء بغير انقطاع ويصدم وتحمله امواج المارة . ان في كل ركن من الاركان متسولين يئنون ، فهم تارة فرادى وتارة جماعات ، وتارة ضائعون في زحمة الناس ، ولكنك تعرفهم دائماً من مشيتهم المتلمسة . من ذا الذي كان يسمع ضراعاتهم ؟ ان صوتهم يغور في الجلبة فيما يصل الى الاسماع . غير أنهم يصرون على الصراخ في غير يأس .
وفيما كان عمر عند تقاطع شارعين لمح شرطياً وامرأة يحيط بهما عدد من الاشخاص .
كان الشرطي يقول للمرأة ، بصوت يحاول أن يجعله مقنعاً :
ـ خير لك أن تعودي الى بيتك . عودي الى بيتك .

وكانت المرأة ترتعش ، ويزداد كلامها حدة شيئاً بعد شيء .

ـ أنهم جميعاً سواء حين يكون الامر أمر اقتياد رجالنا الى السجن . لقد أعتقل زوجي هو وواحد آخر . . والان يطلب الي أن أعود الى بيتي .

صرخ الشرطي يقول :

ـ عودي الى بيتك . وانتم ، هيا أفسحوا الطريق .

فهدأت المرأة روعها ولكنها صمدت ولم تذهب . وظلت تتكلم ، سافرة عن وجهها أمام جميع الرجال ، وهي تتحدث الى الجمهور الذي كان يتجمع من تلقاء نفسه استجابة لنداء الشقاء .

وأزاحت المرأة حايكها ، وأخرجت يدها تشير بها الى الشرطي وتقول :

ـ هذا الرجل يزعم أنه واحد منا ، يزعم أنه أخ من إخوتنا ، فيا أيها الناس الطيبون هل يستطيع أحد مما يلبسون هذا اللباس العسكري أن يظل يزعم لنفسه أنه واحد منا ، أنه أخ من اخوتنا ؟

فتقدم الشرطي وعاد يقول بصوت رجل من رجال السلطة :

ـ ابتعدوا . . انكم تسدون الطريق العام .

فتفرق الناس ، وأخلوا المكان ، فلما عاد الشرطي الى وراء حتى أطبق السد البشري مرة أخرى .

فلما رأى الشرطي ذلك رجع اليهم وقد جحظت عيناه ، وأخذ يحرك يديه قائلاً :

ـ انقضت ساعة وأنا أحاول أن أردكم الى الصواب . أما من سبيل الى ردعكم ؟

فلم يتحرك أحد من مكانه . وكان الحشد يضم من النساء المحجبات والاطفال مثلما يضم من الرجال . أن واحداً من هؤلاء الرجال ، وهو قروي فيما تدل عليه هيئته ، كان مستنداً الى عصا ، يراقب في هدوء ، وهو على هذا الوضع ، ذهاب الشرطي وإيابه ، فتقدم منه الشرطي وقال :

ـ ماذا تعمل هنا ؟

فنظر الرجل الى الاخرين وقد ظهرت في وجهه علائم الدهشة ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ، فعاد الشرطي يسأله :

ـ ماذا تعمل هنا ؟ لعلك تشتهي أن أرمي بك في السجن ؟

ـ ارم بي في السجن أن شئت . أنا أنظر .

فصمت الشرطي .

كان القروي ، ذو الوجه المعبر والهيئة الحازمة ، قد وقف مباعداً قدميه ، ولا تزال يداه وراء ظهره .

سأله الشرطي :

ـ تريد أن أرمي بك في السجن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

وكانت المرأة تتكلم عن شقائها الى المحتشدين بلهجة الحديث العادي المألوف .

فعاد الشرطي يسأل :

ـ مالكم تسمرتم هنا ؟ لماذا لا تنصرفون ؟

قال الرجل الذي كان يبدو عليه انه قروي :

ـ نحن جميعاً أخوة .

فقال الشرطي يوافقه :

ـ صحيح .

فهتف صوت بعيد يقول :

ـ هه ! انه يتذكر أصله !

فقال الشرطي متذمراً :

ـ يوشك من يسمع كلامك أن يظن أننا أبالسة .

فأجابه الرجل :

ـ أنت شرطي .

فقال الشرطي .

ـ طبعاً أنا شرطي .

وأضاف وهو يتجه بكلامه الى الجمهور :

ـ لا بد لي من القيام بواجبي .

فتدخل أحدهم يقول :

ـ دعني أذكر لك هذا الامر ذكر أخ لاخ : أن أخا طيباً مثلك هو الذي شق رأسي ذات يوم . لماذا ؟ لان الوقت المحدد للباعة المتجولين كان قد انقضى ولم أنصرف بعد مع خضري .

ـ ماذا بك حتى تقول هذا الكلام ؟ انني لأحسن صنعاً اذا هويت عليك بيدي . هيا اذهبوا . يجب ألا يعرقل المرور .

وكان الحشد قد ازداد كثافة . والناس لا يزالون في امكنتهم ينظرون الى المرأة وينصتون لحديثها .

قال الشرطي :

ـ وبعد؟ مابكم جميعاً ، هه ؟

فاذا بصمت كصمت الموت يخيم ، بعد هذه الكلمات ، على الحشد المظلم الذي لا صدع فيه . وعندئذ سأل الشرطي بصوت خافت :

ـ ماذا تريدون ؟ هذا مورد رزقي ، أن لي ثمانية أطفال . . فهل تلومونني ؟

فقال القروي بعد لحظات :

ـ دعوه . اذهبوا في سلام .

فأبتعد بعضهم يخلون السبيل للآخرين . وظهرت في وجه الشرطي ابتسامة شكر .

ـ ٧ ـ

بعد الشوارع المزدحمة والجمهور الصاخب ، يظهر الصمت هنا على حين فجأة . يا للهدوء المباغت في هذه الأزقة الضيقة المتعرجة ! الشمس تلهو على البيوت الشائبةالهرمة التي يرتفع بعضها فوق بعض ، والهواء الشكس يلهو تحت كشش العشب التي تزين بريشها ظاهر الجدران . وليس للجدران من منفذ يطل على الخارج غير المداخل العميقة التي يدلف اليها الداخل على درجة أو درجتين في أكثر الأحيان . والأبواب ذات المقارع ثقيلة ، فلولا انها تظل فاغرة في الليل والنهار على السواء لما أمكن الوصول الى داخل البيت .

وكأن حياة السكان (الأحاديث ، وأصوات النساء ، وأيدي الهاون التي تدوي كالأجراس) انما تطل على عالم آخر .

تلبث عمر عند بناية قديمة فسمة ، فاجتاز مدخلها الكبير ، ثم دفع بابا صغيراً معلقاً في زاوية على مسافة ثلاث درجات من الأرض ، وأخذ يصعد السلم الحلزوني الضيق ، المظلم جداً ، الذي أفضى به الى مسكن صديقه . فلما صار عند العتبة ، صاح يسأل :

ـ هل هنا أحد ؟

فجاء الجواب :

ـ هه . هذا أنت ؟ أدخل يا سيدي أدخل !

كان الصوت هو صوت حمدوش المازح . فما ان وضع الفتى قدمه في الغرفة حتى بهرته الشمس التي كانت تدخل اليها من نافذتين . كان حمدوش مستلقياً على فراش مسطح كالرغيف ، وهو مرتد ثيابه ، غير انه عاري القدمين ، فلما رأى صديقه نهض وفي عينيه أبتسامة ، وأخذ يدس قدميه في نعليه .

الغرفة العارية كل العري مبيضة الجدران . وفوق فراش القش يتدلى معطف مهترىء لا لون له ، معلق بمسمار . وفي ركن من الغرفة ينام صندوق خشبي على جنبه ، كاشفاً عن سخان صغير يشتعل بالكحول ، وابريق منبعج لغلي الشاي ، وزجاجة ، وفنجان وصحن . . وعلى الكرسي ترقد باقة طرية من نبات النعناع في قدح ماء . وليس في الغرفة شيء آخر .

كان قد نهض حمدوش . قال :

ـ جيد هذا المسكن .

ثم أخذ يتمطى ، وأضاف بصوت فيه تثاؤب :

ـ هو جيد في الصيف خاصة . أما في الشتاء . . . برر . .

وطفق يهيء الشاي . كان عمر الذي لم يفتح فمه بكلمة ، قد اقترب من احدى النافذتين ، وأخذ ينظر الى الخارج : ان المرء لا يرى ألا السطوح المجاورة ، فليس البيت عالياً . أما السماء ، فما كان أروع صفاءها في ذلك الصباح !

غاب حمدوش وعاد بعد دقائق يحمل بيده خبزاً فرنسيا وضعه على الكرسي ، ثم مضى يرمي ماء الكأس من النافذة ، وكان ابريق الشاي قد أخذ يغلي ، فصب في الكأس شيئاً من السائل الاحمر وذاقه ، ثم أعاده الى الابريق ، وأخذ يحرك الابريق تحريكا قويا وهو يشتم ويسب :

ـ كفى سفالة . كفى رذالة . . .

وعاد يصب الشاي في الكأس حتى ملأها ، فقدم الكأس الى عمر ، أما لنفسه فقد ملأ الفنجان الذي كان في الصندوق .

ـ هل الشاي طيب ؟

وكانت شفتا عمر على الكأس ، فهز رأسه يؤكد أنه طيب ، فسر حمدوش بذلك . وابتسم ابتسامة مشرقة .

ـ لو قلت غير ذلك لسكبت الابريق كله على رأسك .

قال ذلك وقدم للصبي قطعة من الخبز ، فرفض الصبي أن يأخذها رغم الحاح الاحمر .

ـ ألست جائعاً ؟

ـ لا .

واستمرا يشربان الشاي . ان حمدوش يأكل مع الشاي خبزا والاثنان صامتان لا يقولان شيئاً ، ولكن كلا منهما يرقب ما عسى أن يقول صاحبه .

رشف حمدوش رشفة صاخبة من الشاي وراء لقمة الخبز التي دسها في فمه بشراهة جائع ،

ثم دمدم يقول :

ــ انك لست بالفتى التافه ، ولكن خيالك جامع في بعض الاحيان .

ــ كيف ؟

ــ لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ، ولكنني أعرفه . انك تسلك سلوك من يحس ان الناس ضائعون وانه لم يخلق على هذه الأرض الا ليشاركهم آلامهم .

قال حمدوش ذلك ونظر الى جانب كأنه يفكر في شيء ما . ثم أضاف :

ــ كذلك كان عكاشة . . .

ــ هل سمعته يقول شيئاً عني ؟

فأجاب حمدوش بغير تردد :

ــ كان يعتقد انك انسان عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره . وانك لا تزال تتألم أكثر من غيرك لانك ارهف احساسا من غيرك .

ثم قال وقد علت نبرته فجأة :

ــ وعكاشة أيضاً يتألم للآخرين أكثر مما يسألونه ان يتألم لهم كان يحب ان يواسى ، والمواسون خادعون .

واعترف يقول بصراحته الخشنة .

ــ وطبعا لم يمكن تصديقه .

وعاد يمضغ الخبز ويشرب الشاي .

ــ لم يكن يعاشر النساء . كان طاهراً . وكان يحب النظام . كان طيبا . . هذا اسراف .

ومن العجيب أن حمدوش كان يتحاشى أثناء كلامه ان ينظر الى عمر ، غير أنه ظل مع ذلك يراقبه بطرف عينه . استغرب عمر أنه ظل طوال المدة الماضية لا يلاحظ أن للأحمر طبيعة ثانية يخفيها ، وأحس ان حديثه اليه على انفراد يكشف له الآن عن هذه الطبيعة .

ونسى مع ذلك أن يسأله عن سبب غيابه خلال الايام الاخيرة .

ولكن حمدوش تابع يقول :

ــ ليس الامر أمر شفقة على الناس . ان الناس لا يسألونك أن ترثى لحالهم وأن تشفق عليهم . أنت تريد لهم الخير ، ولكنهم الى العدالة انما هم ظامئون .

صعق عمر . وقرب حمدوش وجهه من الفتى ، وقال مؤكدا في اقتناع :

ــ ميل سيء . ثم تصور النتيجة التي يجنونها من هذا . ان هذا لا يرفع عنهم ذرة من البؤس الذي هم فيه . والا لكان الامر سهلا مفرطاً في السهولة .

ـ أنت تكره الناس .

ـ بل أريد لهم ان يتعلموا كيف لا ينشدون الا سعادة واحدة . الحرية .

ـ هناك السعادة بالحياة . . بالحياة . . بمجرد الحياة .

ـ كلام .

ـ ولكن جميع الناس يرغبون في هذه السعادة .

ـ كل هذا لا روح فيه . وانما ينبغي للانسان ان يتعلم الشعور بالحرية من جديد . أما الظمأ الى الحياة فانه يعود فينشأ بعد ذلك .

ـ ما عليك الا أن تفتح عينيك وترى . . .

فانفجر حمدوش ضاحكا .

ثم قال وهو يضرب الجدار بقبضة يده :

ـ العالم قاس . وجميع الذين يتطلعون الى أفكار رفيعة كريمة سيتحطمون على صخرته . وما ينبغي أن نعجب اذا نحن رأينا الارهاق يدب فينا من قبل أن نبدأ النضال .

نفذت أقوال الأحمر في قلب عمر نفاذ السكين .

وأضاف الاحمر يقول :

ـ ولا تنس بعد ذلك ان اخوتنا أوتوا القدرة على اعتياد كل شيء ، وان مبائسهم نفسها أصبحت لا تؤثر في نفوسهم .

ـ لا أدري . . . ولكنني أرى أن الأصح من ذلك ان يقال انهم خجلون منها ، فهم لا يتحدثون عنها . انهم يخفون آلامهم .

ـ لا . . . هذا غير صحيح. ان قلوبهم ميتة .

ـ يجب ايقاظ قلوبهم من سباتها .

ـ ما يجب انما هو : الكره ، القسوة .

ـ هناك أناس يساعدون غيرهم على أن يصبحوا خيراً مما كانوا .

ـ لعلك ستصير من هؤلاء .

ـ ربما صرت منهم . لم لا ؟

ومرة أخرى أخذ حمدوش يضحك ، فجمد عمر .

ـ اذا أردت ان تجر الناس ، كان عليك ان لا تدع لقلبك ان يرق لأناتهم . انك إذا اتفق أن أوليتهم صداقتك ، لم يخشوك .

ـ أنت تثبط العزيمة .

ـ الأمر كذلك ، فلا أنا ولا أنت لنا فيه حيلة . منذ وجدت في هذا العالم أسمع أناساً يدعون الى الرحمة وحب البشر . . . وما زلت الى الآن أسمعهم ، الى هؤلاء الواعظين . . .

ولكنني لا أرى ان البشر قد تحسنت أحوالهم .

كان عمر يصغى صامتا . لقد بدأ منذ الآن ييأس من حمدوش .

ولما خرج من عنده ، أحس بقلبه يفيض ضعفاً . وقد سأله ، وهو يودعه ، عن سبب انقطاعه عن العمل ، فأجابه الأحمر بقوله :

ـ لم أشأ أن أذهب .

ـ ٨ ـ

ما أن أخذ المصنع يتحرك في ذلك الصباح حتى استأنف حمدوش انتقاداته المرة . قال :

ـ لا يصدق المرء مدى ما تتصفون به من جبن ، حتى ليتساءل أهو أمام أفراد يرغبون حقا في شيء أم هو أمام أفراد لا يعنيهم حتى مصيرهم .

وأخذ يكيل الهجاء لرفاقه ، ويضطرب ، ويشتم . كانت الألفاظ تتشبث بحلقه وأسنانه ولسانه ، ولا تريد أن تتركها .

قال شول مازحاً :

أرنا أولا ما أنت قادر على أن تفعله ، ثم ننظر في الامر .

قال عمر لنفسه . « إذا أراد المرء ان يجتذب الى صفه الآخرين ، كان عليه ألا يغرقهم بوابل من اللوم والتقريع . انهم يفهمون أن حياتهم حياة سيئة فما هم بالعميان ، وانهم ليلومون أنفسهم بما فيه الكفاية ، وانما ينبغي أن يبرهن لهم على صداقته وان يقدم لهم شرحا مقبولا » .

وتذكر سراج ، وتذكر عمالا آخرين غير سراج . انه يدرك الآن أن لغتهم يمكن ان تبدو لغة أجنبية في نظر حمدوش . .

أما الأحمر فهو يفحم زملاءه ، ذلك كل ما كان يستطيعه ، ذلك كل ما كان يجيده . لم يحاول مرة واحدة أن يشد ازرهم وان ينعشهم بكلمات سمحة كريمة . فكلما حاول اقناعهم ازدادوا برما بأقواله . وكان يمكن أن يصلوا من ذلك الى اعتباره ألد أعدائهم لولا انهم يرون فيه « أراجوزا » وهب القدرة على الكلام .

ولم تزدد الحال الا سوءاً يوماً بعد يوم . أصبح حمدوش يسترسل في أحاديث قاتمة مفككة ، ويتكلم بألفاظ موجزة . انه ما ينى يحل أزرار سترته ثم يعقدها ويهتز ويضطرب كمن يريد أن يتخلص من حمل ثقيل . وان في نظرته أثناء ذلك من الألم والزيغ ما يولد في نفس عمر أفجع التنبؤات .

قال ذات مرة وفي صوته سخر :

ــ معذرة . . ليست المسألة ان نشفق على الشعب أو لا نشفق عليه . اني لانظر الى الناس فأرى على وجه عام انه ليس هناك شعب . ليس هناك شعب حقيقي . ليس هناك شعب حين يجمع بعضهم كتلة من الناس ثم يصيح بها قائلاً : « أنتم الشعب ، الشعب الذي يصنع كل شيء، ويعلم كل شيء ». هذا الشعب الذي يجتمع عندئذ ليس الا هراء .

ثم تابع يقول حانقاً رهيبا .

ــ الذل ، العبودية ، الخوف ، كل ذلك قد أفسدنا حتى النخاع ، فأصبحنا لا نشبه البشر .

فقال له شول آمراً :

أخرس .

فأجابه الاحمر بقوله :

ــ أنت لا تريد ان تسمع كلامي لأنه يغيظك .

فما كان من شول الا أن قذفه بطلقات من هاجر القول .

فقال الاحمر عندئذ :

ــ هذا أنتم . انني اعرف ما يحس به من كان على شاكلتك من الناس . واحمر وعرق .

وكان الحائكون يصيخون اليه الآن أسماعهم بغير ضحك .

ــ انكم لا تنتظرون الا لحظة انقضاض ، غير انكم لا تنقضون الا حين لا يكون هناك أحد يحول بينكم وبين ذلك . حتى اذا لم يكن هناك احد أخذتم تزأرون حتى الموت . انكم تنكوون ثم تنكوون بأحقادكم ومذلاتكم يا أيها المانون. غير انكم لا تفعلون في أثناء ذلك شيئاً يحميكم من أولئك الذين يهينونكم . انكم تقبعون كالبق منتظرين ان يحميكم غيركم حتى اذا جاء يوم اقتسام الغنيمة خرجتم من أحجاركم خروج الحيوانات تجتذبها رائحة جثة . انكم متى استطعتم ان تنتقموا في أمان ، اصبحتم كالوحوش الكواسر . الا انني لا أريد ان أرى افواهكم في ذلك .

ــ حاذر ان تتجاوز الحدود ، فينتقموا منك في ذات يوم .

قال حمدوش :

ــ من هم ؟

وأخذ يكيل الشتائم لزملائه الحائكين . ثم قال بصوت محتقن بالاحتقار : أوضار . ان هذا الكهف شر من مجاري الاقذار ، أنه العفن بعينه .

ثم ضرب بطرف سبابته السيجارة المحترق نصفها ، التي كان قد قدمها اليه عمر ، فطارت الى بعيد .

ــ آه. . . ما أشد تفسخ المرء في هذا المكان! . . . انني في بعض الاحيان لا أدري ما الذي

يمكن ان أفعله . . . يخيل الي في بعض الاحيان انني لا أتورع عن أن أرمي كل شيء في الهواء .

كانت أمسية رائقة ، تهب عليها نسمات دافئة . . . أمسية يقظة خفية مثقلة بجو من الوقوف في ختام مرحلة من السير . الناس يعودون الى بيوتهم . انهم يقطعون الشوارع وهم يحملون تحت الابطين خبزا أو مئونة . ان في أخشن الوجوه تعبيراً حاداً يرهفها .

وكان الشابان قد صمتا لا يقولان شيئاً .

دمدم حمدوش يقول :

ــ آه . . ليت جميع هؤلاء الذين يمرون هناك كالسائرين في نومهم ، ليتهم يريدون ان يستيقظوا . . .

وصافح عمر صديقه ، وغار في الشوارع الضيقة المضاءة نصف اضاءة .

ونام في تلك الليلة ، غير أن فكره لم ينم . كان فكره يكبب شلة من تلك الشلل المتشرجة المليئة بالعقد التي لا يرى المرء مثلها الا في كابوس . وما لبث ان سمع صوتين يتحادثان ، هما صوته وصوت شخص آخر ، صوته وصوت ظل كبير يحمل انفاس المجهول . ومن عجب ان في هذا الصوت نبرات تذكره بنبرات الأحمر . وأخذ الصوت يلهث . ان عمر لا يستطيع ان يفهم هذه الكلمات التي يقذفها ذلك الصوت في الفضاء . وعندئذ تفجرت في رأسه الحقيقة . « أن حمدوش يريد ان يعد العدة للقيام باغتيالات ، ويقتضيني بل يأمرني أن أشارك في ذلك » . وانقطع الخيط فجأة . وأصبح عمر لا يسمع الظل . ولامست جبينه ريح بيضاء من ريح السحر .

ـ ٩ ـ

سارا في ممر يصطف على جانبيه صفان من أشجار الجوز الهرمة ومن أشجار الدلب ، على حافة البركة الكبيرة . ان الأشجار التي أخذت تورق تشكل فوق رأسيهما قبة من خضرة كثيفة مهتزة . فلما صارا في منتصف الطريق جلسا على مقعد . . وكان المساء يوشك ان يهبط .

كانت عينا حمدوش تسطعان ببريق ما ينفك يزداد ، فربما كان مرد ذلك الى الساعة التي هما فيها من النهار . وأدرك عمر من ارتجاف شفتيه ان به رغبة جامحة في معالجة الموضوع الذي كان يشغل باله ، إلاّ أن هناك حائلاً يقف الكلمات على شفتيه . قال فجأة وهو يسحق بقدمه عقب سيجارة كان على الأرض :

ــ مم تخاف حين أكلمك ؟ هه ؟ مم تخاف ؟ أأنت تسيء الظن بي وتحترس مني ؟

فقال عمر ، وقد أدرك أخفى ما يجول في خاطر رفيقه من أفكار .

ــ ما من أحد يخطر بباله أن يهدم أي شيء قبل ان يوقن من انه سيحل محله شيئاً آخر أفضل .

فنظر حمدوش الى الأرض بين قدميه عابس الوجه . ثم رفع رأسه كمن عثر على فكرة فاتتة حتى ذلك الحين ، وقال :

ـ ولكن ليس من الشرف في شيء ان نقول عن أمر من الأمور : « أننا لا نريده » ثم نحن لا نفعل شيئاً من أجل القضاء عليه . ليس من الشرف في شيء ان نتشكى ، ثم نحن لا . .

ومرّت في تلك اللحظة سيدة ترتدي ثوباً خفيفاً من ثياب الصيف ، ووراءها طفل يتعثر في مشيته ، وهي تتابع خطواته بنظرة تفيض افتتاناً .

فلما صارت أمامهما ألقت نظرة سريعة على عمر وحمدوش ، فإذا بوجهها ينقبض انقباضاً غريزياً ، ثم حولت عينيها عنهما ، غير أن عمر أحسّ بما فيهما من اتقاد قاس .

سأل حمدوش صاحبه بصوت خافت :

ـ أرأيت كيف نظرت إلينا ؟

ـ رأيت ، فماذا ؟

ـ أنا يستحيل عليّ أن أطيق هذا . لن أرضى في يوم من الأيام أن ينظر إليّ أحد هذه النظرة .

قال ذلك وقد علت نبرة كلامه .

ـ اني هنا في بلدي ، ولأجعلنهم يدفعون ثمن هذه النظرة .

وصمت الأحمر وقد أربد وجهه .

إن ذلك كله يزعج عمر . انه لا يشتهي الآن أن يدخل في أي حديث . كان يقرأ أمامه ، على الطرف الثاني من البركة . كلمات كتبت بأحرف كبيرة خرقاء : « السوفيت في كل مكان ». ان هذه الكلمات المكتوبة يرجع عهدها الى عدة سنين خلت ، وقد سبق لعمر ان رآها هنالك . ولا تزال الى الآن . ان القطران الذي كتبت به قد ابيض . وظلّ عمر يقرأ هذه الكلمات ثم يقرؤ ها ويقلبها في رأسه ويفكر فيها ويحلم .

سأله الأحمر وهو يضرب الأرض بقدمه :

ـ ولكن . . أنت . . ما رأيك أنت ؟

فصحا عمر من تأملاته ، وفهم أن معنى سؤ ال كهذا السؤ ال هو التالي : « أنت . . ماذا تنوي ان تفعل ؟ ».

فتفرس في الأحمر مستطلعاً ، فآلمه ان يراه على هذه الحال .

ـ رأيي انك تضايقني ، وانك لن تقوم بأي عمل نافع ما ظللت تريد أن تمضي الى العراك وحدك ، وانك أيضاً لن تجني شيئاً من محاولة جرِّي اليك بالقوة ، فأنت بذلك تضيع وقتك سدى . اذهب وافعل ما يروق لك ، ولكن اتركني وشأني . ورأيي من جهة أخرى انني لست أنا محل اهتمامك في هذه القضية ، فأنا أعلم انك لا تؤمن أنت نفسك بما تقول ، وأنك انما

تستدرجني الى الكلام من أجل ان تصل الى شيء من الايمان .
ـ سماحك .
ـ قل ما تشاء . لقد سألتني رأيي فبسطته لك . فلا تضجرني بعد الآن بأسئلتك . ودعك ، خاصة ، من محاولة جري اليك ، فذلك جهد ضائع ، وهأنذا قد أنذرتك .

كان حمدوش يبتسم ابتسامة خفيفة لا ترى ، وقد تاه نظره . فاضطرب عمر . ان قلقاً خاطفاً قد قام في رأسه ، فدفعه عمر عنه . ما عسى يستطيع الأحمر ان يصنع به ؟

غير ان حيرة مبهمة تغزو نفس عمر ، ثم لا تبارحه رغم ما يقوم به من جهد لطرد تلك الأفكار من ذهنه .

غمغم حمدوش يقول بهيئة الطفل العنيد :
ـ اسمح لنفسي بأن أعتقد انك ستغير رأيك في ذات يوم . وستتذكرني عند ذلك وربما يكون الأوان في تلك اللحظة قد فات .
ـ دعك من هذا الحزن كله ، اضحك قليلاً . الأيام آتية .
فقال الأحمر في خشونة :
ـ يعجبني أن أكون كما أنا .
ونهض .
فنهض في أثره عمر ، وتابعا طريقهما بحيث يدوران حول الأسوار ليدخلا المدينة .
فلما صارا في الطريق الكبير غشاهما التراب الأبيض الذي كان تغوص فيه السيارات وهي تجري مسرعة . هذه ضاحية ثرية حافلة .

دخل الصديقان المدينة ، فاستقبلتهما الحرارة الخانقة التي تنشرها الجدران الحامية . وهبط الليل .

ـ ١٠ ـ

حلّ تشرين الأول . ثم حل تشرين الثاني . لم ينقض الصيف ، ولا يزال قيظه مشتعلاً . استمرت الحياة في الكهف على حالها لم تتغير ، المصنع يغوص في الضجر والسأم رغم وفرة العمل ، ورغم الجلبة الأبدية التي لا تنقطع . كان حمدوش لا يزال يتغيب كثيراً ، وكان ذلك يثير في شول تعليقاته الغضبى .
في يوم الاثنين ذاك ، كان جميع العمال يتحركون صامتين ، غير ان بهم تلك الشراسة وذلك الاعياء المألوفين في كل صبح من أصباح أيام الاثنين . ومرة أخرى لم يكن حمدوش قد أتى .
قال ماحي بوعنان شاتماً ، حين مرّ بالمصنع في منتصف النهار :
ـ ما الذي جرى له أيضاً ؟

فأجابه شول ساخراً :

ـ كان في قصف ومجون .

لم يصدق عمر هذا . وأمره المعلم في حدة ان يمضي اليه مستطلعاً أنباءه فلما دخل عمر الى مسكن حمدوش استقبله صاحبه في حماسة فكأن رؤية الفتى تخفف عنه . وقد لاحظ الفتى منذ النظرة الأولى ما كان فيه صاحبه من اضطراب ، فلم يلق عليه أي سؤال .

نظر عمر الى صديقه . كان حمدوش يسير في طول الغرفة وعرضها وقد وضع على كتفيه معطفه الواسع الكالح ، وفيما هو يذرع الغرفة على هذا النحو كان يلقي على عمر نظرات غير مألوفة . انه بوجهه العابس ولحيته التي لم تحلق منذ أسبوع ، أشبه بسجين . ثم أخرج من جيبه قطعة من مشط ، وتوقف عن سيره ، فجلس على حافة الصندوق الخشبي ، وأخذ يفكك شعره الأشعث العنيد الخصل ، دون ان يولي صاحبه انتباها .

كان الزقاق الصغير المتاخم لمسكن حمدوش صامتاً مقفراً حاراً . فإذا بهذا الصمت نفسه يخيم في المسكن أيضاً ، بينما الأحمر يصفف شعره الكث بضربات صغيرة ، مشعث الرأس كالح الوجه لا تعبر هيئته عن شيء .

قال عمر يسأله :

ـ كيف الأحوال يا حمدوش ؟ لقد سأل المعلم لماذا لم تأت الى العمل ؟

فأجاب حمدوش :

ـ مسألة صعبة . هذه أول مرة ارتكب فيها سرقة . . .

وضحك . ثم أضاف :

ـ تعوزني العادة .

كان يتكلم كمن يهذي . لم يكن يمزح ، ذلك واضح في قسماته المحمومة .

ـ مسدس أوتوماتيكي . هه ، ما رأيك ؟

وكان عمر يرقبه دون ان يفتح فاه بكلمة .

ـ ولكنني أوشكت ان يقبض علي .

كان واضحاً ان الأحمر يقول الحق . وقامت في نفس عمر رغبة قوية في ان يتحداه . ولكن لا . . . لن يقول له « انه لا يصدقه »، لأن الحقيقة التي ينتظر ان يسمعها لا يطيق احتمالها .

شيء لم يكن قد فهمه الى ذلك الحين يتكشف الآن لباصرتيه : هو هذا الهوى الجامح الحي المحرق الذي يسكن نفس حمدوش .

ومضى عمر يتكىء بكوعيه على النافذة ، وظلّ يرقب صديقه صامتاً . لا يزال الأحمر يفكك شعره الحرون . قال وفي شفتيه ابتسامة ملتبسة :

ـ هوه ! لا تبحث ! ليس السلاح هنا !

ثم انطلق يضحك ضحكة صغيرة متقطعة .

ـ في رأيك انت أن ما فعلته ليس بالفعل المحمود ، أليس كذلك ؟
ولكن عمر ظلّ صامتاً لا يجيب . قال حمدوش وهو مدير اليه ظهره :
ـ قل انه ليس بالفعل المحمود ، اذا كان هذا هو رأيك . . .
فحاول عمر ان يجيبه فقال :
ـ ليس هذا ما أفكر فيه . . .
ـ فيم تفكر إذن ؟
فشعر عمر بمزيد من الارتباك ، انه يجد عناء كبيراً في استجماع أفكاره . قال :
ـ لست ألومك على شيء .
ـ ففيم هذا الوجه المكفهر إذن ؟
ـ ستصبح وحيداً . . .
ـ هذا لن يبدلني كثيراً .
ـ سينصرف الناس عنك .
فحاول حمدوش ان يضحك ، لكنه لم يستطع . ولم يزدد وجهه الا قسوة .
ـ أنت تؤثر الوعاظ ، لقد علموك ان تحب الكلام يا عمر .
ـ ما يدفعك الى قول هذا ؟
ـ اني أعرف ذلك .
قال حمدوش ذلك وهو منحن قليلاً ، يشبه ان يكون وضعه وضع حيوان محاصر .
ـ القول أجمل من الفعل وأسهل .
ثار عمر وقال :
ـ أنا ذاهب .
فدهش حمدوش . فأدرك عمر عندئذ ما في سلوكهما من غرابة . وتمتم الأحمر يقول بصوت خافت :
ـ لسوف تشكرني في يوم من الأيام .
وشزر عمر مرة أخرى ، وقد أثقل جبينه بالغضون والتمع بياض عينيه التماع جوف الصدف .
ـ اشكرك على ماذا ؟
ـ ستفهم ذلك فيما بعد .
ثم عادت تلك الابتسامة المتشنجة نفسها فظهرت في وجهه .
أدرك عمر انه لم يبق له ما يفعله هنا ، فاتجه نحو الباب ، غير أنه ألقى على صديقه نظرة أخيرة ، وهمت أن تخرج من بين شفتيه كلمة مصالحة ، لكنه حبسها وانصرف . ولم يلتفت اليه حمدوش أثناء ذلك .

فلما عاد الى الكهف قال انه لم يجد الأحمر في بيته . فهتف شول شاتماً :
ــ يا للفاسق الذي لا يعرف غير اللهو والمجون !

ــ ١١ ــ

كان عمر قد فرغ من طعامه ، فنهض يريد ان يذهب الى الصبيين الآخرين اللذين كانا يلعبان لعبة « الخف »، بينما كانت الجدران والقبة ترجع ضحكاتهما وصيحاتهما ، فإذا به في هذه اللحظة يهتز اهتزازاً قوياً من ضربة هائلة بقبضة يد هوت على ظهره ، وتلتها على الفور ضربة ثانية تقطعت من هولها أنفاسه ، ووقع على الأرض من شدة الألم ، فرأى حمدوش يتفرس فيه ، فقال له في أنين :

ــ أأنت ضربتني ؟ ماذا صنعت لك ؟

فإذا بحمدوش يبصق عليه . فصاح عمر :

ــ ماذا بك ؟

ثم أطلق من صدره آهة توجع ، وأسند ظهره الى أحد الأنوال ليستطيع ان يتنفس .

فلما رأى حمدوش صامتاً ، أعول يقول له :

ــ ماذا أصابك ؟

فإذا بحمدوش يهجم عليه ، ويقبض على حلقه في وحشية ، وينفخ في وجهه قائلاً :

ــ لأرسلنك الى القبر .

وأخذ يهزه هزاً بلغ من القوة ان الفتى أحسّ بعظام عنقه تقضقض بين يديه . وأراد ان ينتزع نفسه من قبضة يده ، فإذا بالأحمر يهوي بها على وجهه ، في لطمة طاش لها صوابه ، وأخذ الدم يسيل من فمه .

ــ تريد أن أقول ماذا صنعت ؟ الصوف الذي كان عليك ان تهيئه لي ، أين هو ؟ أتسخر مني ؟ لأقتلنك .

قال حمدوش ذلك وهو يلقي عليه نظرات هاذية .

وأحس الصبي بمذاق الدم في فمه حامزا ، فمسحه بيده على نحو آلي دون وعي ، واقعي يبحث عن شيء عسى ان يعثر به على الأرض ثم نهض وفي قبضتي يديه قضيب من حديد، رفعه فوق رأسه ملوحاً به ، وصاح يقول لحمدوش :

ــ اقترب مني ان استطعت يا حمدوش .

كان عمر يسمع خفقان قلبه ضربات قوية متباعدة ، وكأن تنفسه قد وقف . ان برداً كالثلج قد استولى عليه .

امتقع وجه حمدوش . وقال :

ــ اترك هذا .

ثم اختنق صوته .

حدث عمر نفسه قائلاً : « لقد خاف »، ثم هوى بالقضيب الحديدي الثقيل بكل ما أوتي من قوة ، لا يعرف أين تقع الضربة ، فإذا بحمدوش يئن أنّة طويلة غريبة ، ويتهاوى على الأرض تحيط به مكاب الغزل وتوثقه .

فقفز شول عن نوله ، ووثب على عمر يمسك به من الكتفين ، وصاح متلعثماً :

ـ يا شقي ، يا شقي ، يا شقي . . .

لم تسعفه قريحته بكلمة اخرى ، غير انه كان كلما نطق بحرف من هذه الحروف لطم الصبي على رأسه لطمة ، وقام الأحمر في هذه اللحظة ، فإذا هو يمزق القميص الذي كان يكسو لحم عمر . . يمزقه بحركة واحدة من أعلاه الى أدناه . ثم دق وجهه بقبضة يده ، وهشم انفه فأخذ الدم يسيل منه ، وظلّ يضرب ويضرب . . كانت عيناه عيني مجنون . وكان في عينيه من الظمأ الواضح الى القتل ما جعل الفتى يصيح بالحائكين وهو يحسّ بالخطر احساساً عجيباً :

ـ والآن ، اقتلاني ، اقتلاني .

كان مقتنعاً بأن كل احتجاج لا يجدي ، وان كل حركة يحاول ان يقوم بها دفاعاً عن نفسه لن تنفعه . وفكر في عكاشة فتذكر هذه الفكرة من أفكاره : « في بلادنا ، اذا استطاع الانسان ان يحيا ، وان يبقى حياً ، فقد انتصر ».

وصل ماحي بوعنان دون ضجة ، ويداه مضمومتان فوق بطنه . ان الأنوال واقفة كلها .

وان وجوه الحائكين مخيف منظرها . وكان المعلم قد هبط درجات السلم قبل ان يلاحظ احد من العمال حضوره . فوقف في وسط المصنع . وأخذ ينظر الى العمال واحداً بعد واحد وهو يقلب ابهامي يديه . فلم يخطر ببال احد ان يوجه اليه تحية .

وكرّ حمدوش على عدوه مرة أخرى بغريزته ، فلما رأى ماحي بوعنان سقطت يداه . وجاء المعلم اليه يملأ المكان كله ، وأخذ يكيله بنظرته . وهرع عمر ، مرتعشاً دامي الأنف والفم ، فاقترب منه وتمسك بذراعه . انه لا يسمع شيئاً من الكلام الذي يقال ، كأنه أبله .

سأل ماحي بوعنان وهو يميل برأسه الى جهته :

ـ هو ؟

فقال له شول :

ـ نعم .

فأمسك المعلم بأذن الصبي فقرصها ، وهو يتمايل على نفسه ثم جعل يجره الى أن وصل به الى أول الدرج . لقد هدأت الجلبة أثناء ذلك ، واستأنفت الأنوال حركتها الصماء .

قال ماحي بوعنان لعمر :

ـ اذهب . . . ولا ترني وجهك في هذا المكان بعد اليوم .

لم يعرف عمر كيف صعد درجات السلم ، ولا كيف اجتاز الشارع قدماً حتى وصل الى عين الماء . لقد لاحظ أثناء خروجه عدداً كبيراً من المستطلعين قد ازدحموا أمام الكهف واضعين وجوههم على مربعات الشباك ، فلما رأوه حاولوا أن يسألوه عما حدث في الكهف ، ولكنه أفلت منهم .

حتى اذا وصل الى عين الماء أخذ يغسل وجهه . وبصق ، فإذا بسنين تسقطان من فمه . فشعر حين رآهما بحنق شديد ، وصعدت الدموع الى عينيه .

ـ ١٢ ـ

ما أن طلع الفجر حتى كانت الجارات تتفرق في الفناء ، أو تستقر عند عتبات الغرف ، أو تضطرب في المطبخ المشترك تغسل الأطباق التي بقيت من الليلة البارحة . ان جلبة آخذة في التزايد تصحب هذه اليقظة ، فالأحاديث تكثر والأطفال يغزون الأروقة عصابات ، ونشاط طافح يجري في الدار الكبيرة من مكان الى مكان ، وسط صمت الساعات الأولى من النهار وهدوئها .

النساء منهمكات في أعمالهن ، وقد شمرن أطراف غلائلهن وعلقنها بالحزام ، وأخذت سراويلهن العريضة تصطفق بين السيقان . انها لمخلوقات عجيبة ، لا تعرف الراحة ، ولا تنقطع عن الصياح لحظة الا لتضرب أولادها ، ثم تذهب وتجيء في طول الدار وعرضها مشغولة مثرثرة .

كانت جهود عمر متركزة كلها على رغبة واحدة : هي أن ينام . كان يصغي الى أحاديث ، ويتعرف أصواتاً ، ويسمع ضجات يسند الى كل منها معنى . وتبعثر منذ تلك اللحظة فلم يمكن أن يغمض له جفن .

ان دار سبيطار لم تتبدل . غير انه اليوم يعرف قيمة الأشياء التي تجيء وتذهب والأشياء التي تبقى .

ــ لقد نام وهو صبي ، أما الآن فانه لا يصحو طفلاً بل رجلاً يقابل قدره وجهاً لوجه .

في تلك الليلة البارحة ، حين رأته أمه عيني يدخل البيت وهو على تلك الحالة التي يرثى لها ، أصابها في أول الأمر رعب ، فإذا هي ، من قبل ان تعرف ماذا حدث ، تأخذ تولول ناحبة نادبة :

ــ هاهاي . هاهاي . بني . ماذا صنعوا يا بني .

فلما قص عليها عمر الخبر ، قالت تحلف :

ــ والله لأقلعن عيونهم .

وأخذت تتوجع وتتأوه في عنف .

ــ ابق هنا . لسوف أريهم كيف تكون الإساءة الى عيني وابنها .

وظلت عيني تصغي الى كلام ابنها حتى فرغ من حكاية القصة كلها ، فهرعت عندئذ الى الرواق الذي يطل على الفناء ، فصاحت تقول لجميع سكان المنزل :

ــ انظروا أيها الناس ماذا فعل اعداء الله يا بني .

نهض عمر وخرج ، فلم تقل له امه شيئاً حين رأته يذهب .

أراد أن يتجول في الشوارع كما كان يتجول من قبل . كان يتراءى له حتى ذلك الحين أن كل شيء في الحياة واضح ، وأن كل شيء في الحياة بمكانه . غير أن هذا النظام الأعلى قد أضطرب الان . أهو أضطراب في نفسه ، أم في المدينة ، أم في العالم كله ؟ أنه لا يعرف ذلك . كل ما يعرفه هو أن الأمور ليست كما كان يظن . كان في صدره شيء ينقبض . أنه يسير وهو فيما يشبه الحلم . حركة الشوارع تصل اليه ضعيفة ، ولكنها في الوقت نفسه تطيش صوابه . أنه يسير في حذر كأنما هو يخشى أن تحل كارثة من الكوارث على حين فجأة .

جمهرة المتسولين الغائرة وجوههم ، الذاوية عيونهم ، لا تزال هي نفسها تملأ المدينة . أنهم لا ينتظرون شيئاً من أحد . يسيرون ثم يقفون ، ولا يبدو عليهم أنهم يكترثون بما يفعلون . وهم يتكدسون في بعض الأماكن تكدس أناس يحيطون بميت ، ويلقون على سكان المدينة نظرات عميقة ساكنة .

تأمل عمر العياء الذي يسمرهم في الارض . لاحظ القلق الذي يجوف خدودهم ، على أنها جوفاء ، ويسن أعراف أنوفهم . وشيئاً فشيئاً فهم . أين ذهبت القوة التي كانت تتدفق في كثير منهم يوم كان حميد سراج يتحدث اليهم في مقر الشارع الواطيء ؟ وتأملهم عمر . ماذا حدث اذن ؟ وتذكر المصنع ، والحائكين ، ثم صرف عن ذلك ذهنه . وفكر مرة أخرى في حميد سراج الذي لا يزال سجيناً في أحد معسكرات الاعتقال ، هناك في الجنوب .

وفي هذه اللحظة وقع بصره على حلقة من المتطلعين المبهوتين . . ان امرأة فارعة القامة نحاسية اللون مستطيلة الوجه كانت جالسة في وسط الرصيف لا تتحرك ، وقد بلغت أسمالها الرثة من القذارة أن الناظر اليها يحسبها خارجة من حمام وحل ، وعلى رأسها وكتفيها منديل ملطخ لا يقل سواده عن سواد سائر خرقها . ان نظرتها تثير فضول المارة كأنها صرخة . فالحشد الصغير يحيط بها دون ان ينطق أحد بكلمة .

وقف عمر على أصابع قدميه متطلعاً ، فرأى المرأة كائناً صغيراً مقمطاً برثث وسخة راقداً على الأرض . كانت المتسولة واضعة أحدى يديها على فمها ، وهي ساكنة لا تتحرك . وكان الرجال والنساء والاطفال ينظرون اليها ، خرسا لا يتكلمون . ثم أهتز رأسها بحركة خفيفة أزاحت منديلها قليلاً ، ومالت الى الامام ثم قالت بصوت عذب استغربوا جميعا ان يصدر مثله عن هذا التمثال المقدود في خشب :

ـ الله يحميك يا أبنتي الصغيرة ، لم يحن أجل الموت بعد .

وغمرت الرضيع بنظرة حزينة . ثم هزت رأسها ومدت يديها الى الطفلة فتناولتها ، واستغرقت عندئذ في تأمل الوجه الصغير . كان واضحاً ان هذه المرأة تجهل أن جمهوراً من الناس يحيط بها ويرقب حركاتها ويلتقط كلماتها . ووضعت شفتيها على الشفتين الصغيرتين البريئتين ، ثم أرقدت حملها البارد الاصفر على الارض أمامها حيث كان . وفي هذه اللحظة ألقت على ما حولها فجأة ، وهي تضغط على خدها بأحدى يديها ، نظرات تائهة . وأخذت عندئذ تتأوه تأوهات قصيرة ولكنها ما لبثت أن صمتت ، كأنها هيّ قد غيرت رأيها ، وعادت فتناولت يدي الطفل المنطويتين فربتت عليهما في حنان . وظلت على هذه الحال بضع دقائق لا تفعل غيرذلك . وظل شيء من اليأس يقرأ في وجهها خلال لحظة ، غير أن السحابة ما لبثت أن تبددت ، فلم يبق منها أثر . ودمدمت المرأة تقول :

ـ ستفهَمينني يا بنيتي حين تبلغين من العمر ما بلغت .

وظلت تكلم الرضيع المتلجة مدة طويلة ، في رقة وبلاهة . لم يستطع عمر أن ينتزع نفسه من هذا المشهد ألا في عناء . وردد يقول دون أن يعرف السبب الذي يدفعه الى ذلك : »فات الاوان . فات الاوان« .

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى دوت في الشارع صرخة ليس فيها شيء انساني . فأخذ الناس يركضون .

ـ ١٣ ـ

جثم الارق في تلك الليلة على صدره كحيوان مفترس . لم يكن كل شيء قد نام بعد : فمن الشارع لا تزال تصاعد ضحكات وأحاديث ، من مسافة بعيدة تترامى الى السمع الحان شبابة شاكية ، ومن الزقاق الضيق القريب يصل صوت أحد السكارى وهو يحاول أن يكمل غناء أغنية بطيئة حزينة ، ولكن صوته الكثيف الربل ما ينفك يعود الى كلمات بعينها فيتعتعها في عناد :

أصبحت وحيداً منفرداً
لا تصحبني الا نفسي

ويتوقف المغني عن الغناء بعد الكلمة الاخيرة ، فيحسب السامع من طول توقفه انه قد عدل عن المضي في غنائه . ولكنه ما يلبث أن يستأنف ترنمه بعد ذلك ، بتلك الكلمات نفسها . . . ان عمر لا يستطيع ان يحصي عدد السنين التي ظل خلالها يسمع هذا الصوت المخمور في مثل هذه الساعة من الليل . أنه محمد شراق يسكر ويجيء يغني هذا الغناء في كل مساء :

أصبحت وحيداً منفرداً
لا تصحبني الا نفسي

وأتسع الصمت . أن كل شيء قد نام الآن . الا هذا الصوت العنيد . انه يظل يثاثي وفي نفسه أمل حزين في أن يصل من الاغنية الى ختامها . جلس عمر الى مرقده ، وتأمل السماء من خلال الباب المفتوح . ان ضياء هذه الليلة يشبه أن يكون ضياء نهار . ومضى عمر يجلس على الرواق المتاخم للغرفة ، وراح يعد النجوم الغارقة في بياض كأنه اللبن ، ثم لم يستطع أن ينتزع نفسه من فتنة هذه الليلة الساطعة كل هذا السطوع .

وحدق بعينين واسعتين مغسولتين ، الى الاكتاف الكثيفة من المباني المنتصبة على مقربة من البيت ، ولكن نظراته سرعان ما عادت الى النبع المترقرق ، السماء ، حيث تصطفق النجوم ، واذا هو يقول مخاطباً نفسه : «لم أعد أدري من أنا . .»

انقطع شراق عن الغناء ، فهو يتكلم الآن بصوت رصين خافت . فكر عمر في عكاشة ، وتساءل أين عساه يكون ، في هذه الساعة ، ذلك الحائك الذي آثر ان يهجر النول ، وأن يحمل عصا المسافر وجرابه .

وفكر عمر بعد ذلك في حميد سراج . لكان صوت شعب بأسره قد سكت ، منذ سجن حميد سراج في معسكر من معسكرات الاعتقال . أصبح المرء لا يرى بعد ذلك الا جماهير خرساء ، خائفة . أصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس بخطر كانت جاهلة به . وازداد حذر الناس .

شعر عمر برعشة تسري في جسمه بغتة . ان برودة نافذة قد هبت في الفضاء . فحمل عمر المخدة التي كان متكئاً عليها وعاد الى الغرفة التي تترجع فيها أنفاس أختيه وأمه مطردة هادئة . واستلقى على مرقده وغفا ، تسهر عليه هذه الليلة الراكنة الجميلة .

حتى اذا صحا في الغد أحس برغبة مفاجئة في أن يمضي الى صفصف يستحم في النهر الصغير . أنه لم يذهب الى هناك منذ مدة طويلة ، ربما منذ سنتين . فما أشد فرحه بالعودة الى الريف . شهر تشرين الثاني يشعل شموعه في ذروة السماء . والاراضي الراقدة تهتز في هدوء ورفق ، خفيفة خفيفة ، كأنها تهم أن تذوب دخانا . النهر يتسع في هذا الموضع ، ويجري كسولا تحت ظلال أشجار البطم الكبيرة ، بين كثث الاعشاب المتوحشة . وفي الفضاء ترين طمأنينة رحيبة تخددها ضجات بعيدة تقرع الهواء . ولكن أذن عمر غارقة في الهمهمة الغامضة ، فما يدرك منها شيئاً . لقد رقد على العشب الخضير بعد ان ظل يخوض في الماء مدة طويلة ، فهو بين الغفو

والصحو ، والزيزان تتصايح من حوله في كل مكان ، فصريرها يذوب في الفضاء الرنان الذي يغمره ، ثم ينسكب في أعضائه ، فيخدر شعوره .

واربدت السماء . وعاد عمر الى الماء . وفجأة أشتد ذلك الاهتزاز العنيد الذي كان يقتحم الهواء منذ لحظة ، ثم اذا هو يصبح ضجة تملأ الفضاء . لكأن هذه الضجة تخرج من أعماق الأرض . وما هي الا لحظة حتى بدا ان الافق هو الذي يهتز . فوقف عمر في الماء واصاخ بسمعه ، ثم خرج من النهر بعد بضع ثوان .

فما كاد يخرج حتى رأى سيارة من سيارات النقل عليها جنود تقف في الطريق على مقربة من النهر ، ثم يثب منها أحد الجنود ،ويقترب . انه في ريعان شبابه ، هذا الرجل الطويل ، النحيل قليلاً ، الضيق الكتفين . وها هو ذا ينظر الى عمر بعينين زرقاوين مبتسمتين . ان في قسمات وجهه تعبيرا عن صراحة كصراحة الاطفال ما تلبث أن تثير في النفس المودة والمحبة . ومما يزيد ذلك التعبير وضوحاً هذا الشعر الاشقر المقصوص حول الرأس كله ، الا خصلة متهدلة على الجبين . لا شك أبداً في أنه اجنبي . . ولكن ليس بينه وبين الاوروبيين القاطنين في هذه البلاد إلا شبه ضعيف . لم يقل الرجل شيئاً ، واكتفى بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشيكولاته مع راية صغيرة عليها نجوم . غير ان رفاقه الذين ظلوا في السيارة لم ينقطعوا عن الجمجمة والصياح فرحين : « هالو . . هالو . . » ولا عن التلويح للفتى باشارات تعبر عن الصداقة . وكان عمر يلاحظهم مبهوتاً ويلاحظ الرجل الواقف أمامه ، ناسيا أنه عار كل العرى . تناول لوح الشيكولاته من يد الرجل الاجنبي دون تفكير ، ثم هرع الى الماء وغطس غطسة . وانطلقت على الضفة هتافات ، فجرت السيارة تهدر هديرا يصم الآذان ، وغابت وراء سحابة من الغبار ، تتبعها سيارة اخرى ، ثم سيارات فسيارات ، متشابهة كلها ، محملة جميعها بجنود يلوحون بأيديهم ، وعندئذ ، خلال البرية ، التي يهدر في كل مكان منها ، ويترجع في مكان منها ، الرعد الذي تحدثه أصوات محركات السيارات ، ارتفعت صرخة تقول :

ــ الا . . مر . . يكان . .

فإذا بقلب عمر يثب من صدره في فرح مجنون . ان أملاً مستحيلاً يمسك بخناقه فاذا حلقه يتشنج واذا هو يحس انه يهم أن يبكي .

وخرج من الماء ، فارتدى ملابسه ، وعاد يسير في الطريق المؤدي الى المدينة ، جاداً مفكراً ، لا شك أن شيئاً هائلاً قد حدث في العالم . كان يسير بخطا سريعة ، حتى ليكاد يركض ركضاً ، وقد انشدت قامته بسروال طويل أزرق ، وسترة ضيقة ، وانتصب فوق جسمه الطويل المهيء للتخلع بطبيعته من قبل ذلك ، رأس حاد تتقد فيه عينان صغيرتان سوداوان . أما جبينه

المستقيم المنبسط فكان أشبه بآجرة كثيفة قامت فوق الحاجبين تظللها كثة من شعر خشن . وكانت أجفانه تصطفق على إيقاع سريع ، وكانت نظرته تقفز من شيء الى شيء آخر ، وكان في وجهه تعبير عن جد يوشك أن يكون قاسياً عنيفاً .

الفهرس

ثلاثية
محمد ديب

بعد أن قمنا بإصدار الروايات الثلاث بأجزاء منفصلة نعود لضمها في كتاب واحد بناء لرغبات الكثيرين من الذين اطّلعوا عليها بأجزائها الثلاث واعجبوا بهذا الانتاج الأدبي الكبير، ولأهمية توحيده في كتاب واحد . وبذلك أيضاً نكون قد قدمنا للقارىء العربي واحدا من الآثار الروائية العالمية الخالدة، لا يقلل من قيمتها ومنزلتها بين روائع الأدب العالمي انها كتبت منذ أكثر من ثلاثين سنة، بل على العكس من ذلك فإن في هذا بالضبط خلودها فضلاً عن ان جيلاً كاملا من شبابنا العربي قد أتم دورته، ولا بد أن يتعرف إلى ذلك الزمن الغربي ـ زمن الاستعمار العتيق ـ والكفاح البطولي الشاق الذي تحمله الجيل السابق آنذاك . وقد يكون في ذلك بعض العزاء والتشجيع للجيل الحاضر في مواجهة تحدياته الخاصة المختلفة شكلاً، المتفقة مضموناً .

وإذا كانت ترجمة الاجناس الادبية ـ عموماً ـ عملاً صعباً وغير مستحب لأن أي عمل أدبي يفقد اثناء انتقاله من لغته الاصلية الى اللغة الجديدة كثيراً من روحه وأسراره، فان مترجماً بحجم وقدرة د. سامي الدروبي قادر على حفظ ذلك السر . وقادر على إعادة نقل الروح من جسد وزرعها في جسد آخر حية، وحيوية بدقة طبيب ومهارة فنان .

محمد ديب . . قمة عربية من المغرب . .

وسامي الدروبي قمة عربية اخرى من المشرق . .

وما أروع ان تلتقي القمتان . .

الناشر

دار الوحدة للطباعة والنشر
بيروت - لبنان